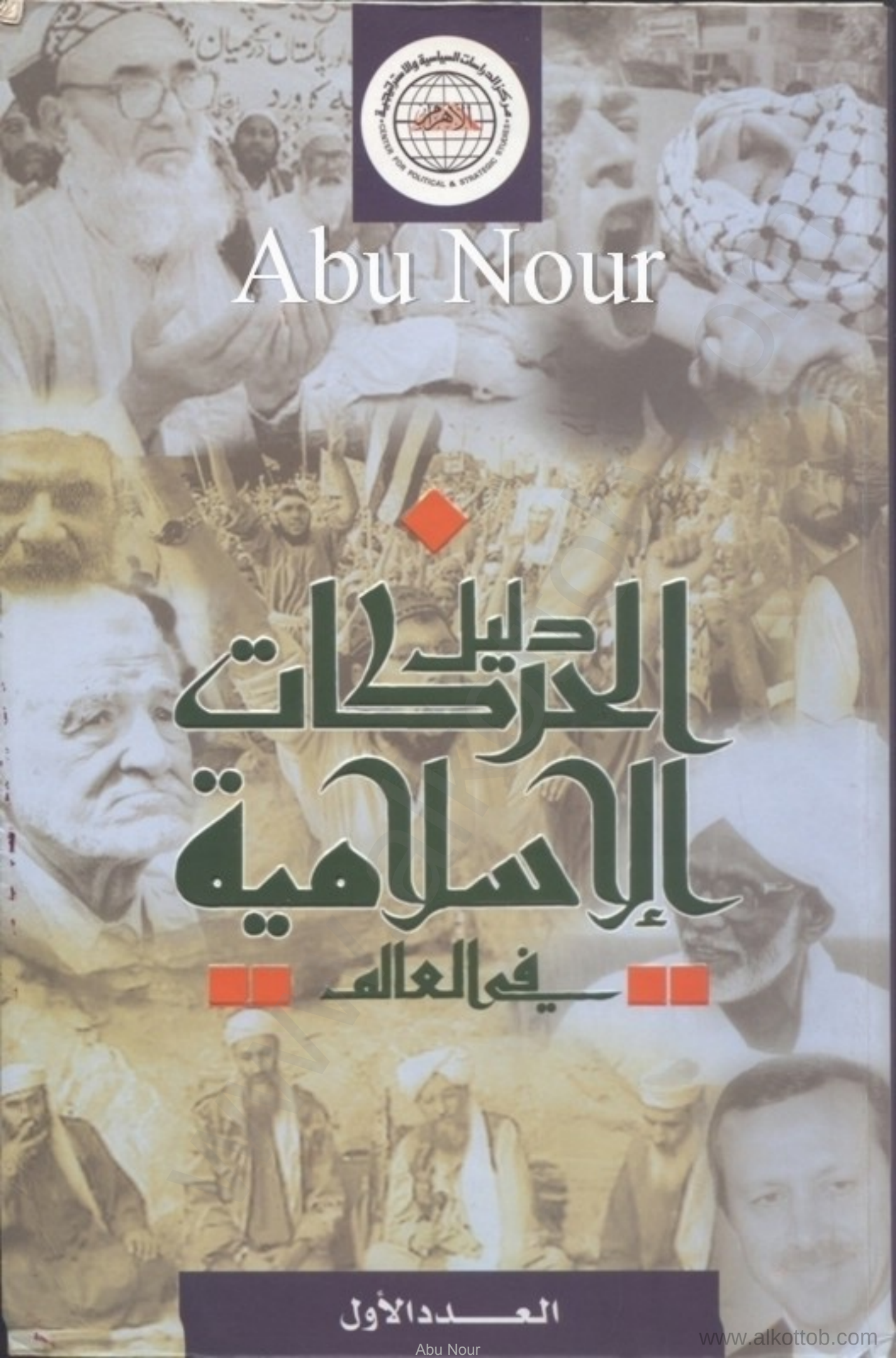

Abu Nour
www.alkottob.com

دليل الحركات الإسلامية في العالم

رئيس التحرير

ضياء رشوان

المنسق

محمد فايز فرحات

العدد الأول

www.alkottob.com
Abu Nour

المشاركون فى الدليل

(وفقا للترتيب الأبجدي)

الباحثون

إبراهيم النجار
د. السيد عوض عثمان
ضياء رشوان
عبد الحليم غزالي
د. عماد جاد
د. عمار علي حسن
د. كمال السعيد حبيب
مجدي صبحي
د. محمد سعد أبو عامود
محمد صلاح
د. محمد عبد السلام
محمد فايز فرحات
د. مصطفى محمود منجود
هانيء رسلان

الباحثون المساعدون

رشا نبيل فريد
شريف زيفر هلالى
عصام حسن البيومى
محمد عز العرب
ياسمين أبو الفضل خطاب

www.alkottob.com

المحتويات

افتتاحية: هذا الدليل... لماذا؟ ٩

مقدمة تحليلية

الحركات الإسلامية: التعريف والخريطة ١٣

القسم الأول

الحركات الإسلامية: التعريف والأنشطة

١- جماعة الإخوان المسلمين في مصر ٢٧

٢ - حزب العدالة والتنمية في تركيا ٥٧

٣ - تنظيم قاعدة الجهاد ٧٩

٤ - الجماعة الإسلامية في إندونيسيا ١٠١

٥ ـ ماذا بقي من جماعة الجهاد المصرية ؟ ١٣٣

٦ - حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في فلسطين ١٤٧

٧ - حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين ١٦٥

٨ - حركة المجاهدين في كشمير ١٨٩

القسم الثاني

الحركات الإسلامية: الأفكار والرؤى

جزء خاص: الأبعاد المختلفة لخطاب أسامة بن لادن

١ - ملامح تطور خطاب بن لادن قبل وبعد سبتمبر ٢٠٠١ ..... ٢١١

٢ - فلسطين في رؤية بن لادن ٢١٧

٣ - التفكير الاقتصادي لأسامة بن لادن ٢٣٥

٤ - التفكير العسكري - العملياتي لأسامة بن لادن ٢٥٥

٥ - المراجعات الفكرية للجماعة الإسلامية المصرية: قراءة تحليلية في "سلسلة تصحيح المفاهيم" ٢٧٣

القسم الثالث

الحركات الإسلامية: القيادات الحركية والفكرية

١ - حسن الترابي ٣١٧

٢ - عبد القادر بن عبدالعزيز (سيد إمام الشريف) ٣٣٥

www.alkottob.com

www.alkottob.com

Abu Nour

www.alkottob.com

www.alkottob.com

بالرغم من التزايد الشديد في الاهتمام الأكاديمي والإعلامي والسياسي بالظاهرة الإسلامية خلال الأعوام الأخيرة، وبخاصة تلك التي تلت هجمات الحادي عشر من سبتمبر على نيويورك وواشنطن عام ٢٠٠١، إلا أن هذا الاهتمام غير المسبوق لم تترافق معه محاولات تسعى للتعرف على أبرز مكونات تلك الظاهرة وأكثرها إثارة للجدل، أي الحركات الإسلامية، بصورة تتفق وما يسعى إليه البحث والتحليل العلمي، أي التوصل لأدق تعريفات ممكنة لها وتصنيفات لفئاتها وأنواعها بما يمكن من دراساتها بأكبر قدر ممكن من الموضوعية والحياد العلمي. وظل الاهتمام البحثي والإعلامي والسياسي بتلك الحركات الإسلامية ذات العلاقة بالسياسة بتعريفها الواسع منصباً عليها بصورة فردية وجزئية أو بصورة يشوبها التعميم، بحيث بدت في النهاية وكأنها تأخذ أحد شكلين: إما أنها حركات وجماعات منفصلة عن بعضها البعض ولا توجد بينها علاقات أو خصائص مشتركة، أو أنها تتسم بنفس الخصائص العملية والأفكار النظرية بما يضعها جميعاً ضمن كتلة صماء هي "الحركات الإرهابية العنيفة" حسب المصطلحات التي سادت بعد هجمات سبتمبر.

وغاب في ظل ذلك التركيز الفردي والجزئي أو التعميم وجود جهد بحثي يسعى للتراكم ويضع أسساً نظرية وإجرائية لتعريف مختلف أنواع الحركات الإسلامية ورسم خريطة لها على مستوى العالم، بما يساعد على فهم أدق لأفكارها وأفعالها ومواقفها، وأهم من ذلك توقع ما قد تنبناه من أفكار أو تتخذه من أفعال ومواقف في المستقبل تجاه عديد من القضايا الخارجية المهمة التي يمر بها النظام الدولي والقضايا الداخلية التي تشهدها الدول التي توجد بها تلك الحركات. من هنا بدا هذا الغياب الواضح والمخل في الأدبيات العربية والأجنبية - سوى مجهودات فردية قليلة هنا أو هناك - لخريطة دقيقة وتعريفات علمية للحركات الإسلامية بمثابة نقطة الانطلاق الأولى لإصدار الدليل الحالي الذي يتشرف مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية بوضع عدده الأول بين أيدي القراء المتابعين والمتخصصين. وقد بدا ضرورياً في ظل تلك البداية والأهمية المركزية التي اتخذتها هجمات سبتمبر ٢٠٠١ في تطور الحركات الإسلامية على مستوى العالم، بل وتطور العالم نفسه، أن يركز الدليل في معظم فصوله على التطورات التي لحقت بالحركات الإسلامية التي يدرسها خلال عام ٢٠٠٢ بهدف التعرف على أثر تلك الهجمات ونتائجها عليها.

وكما توضح المقدمة التحليلية، فهذا الدليل - الذي نسعى لأن يكون سنوياً - يستهدف تطبيق التعريفات والخريطة النظرية الأولية الواردة فيها على مختلف الحركات الإسلامية الموجودة في معظم مناطق العالم ودوله، بحيث يكون قاعدة ضرورية للتعرف عن قرب على تلك الحركات بصورة كافية، بدون الإغراق في التفاصيل متناهية الصغر أو التعميمات فاقدة المعنى. وفي هذا الإطار، فالدليل يبدأ صدوره بتقسيم ثلاثي لأبوابه الرئيسية، بحيث يشمل القسم الأول "الحركات الإسلامية: التعريف والأنشطة"، وهو يركز على الجوانب التاريخية لقيام تلك الحركات وكذلك الجوانب ذات العلاقة بأنشطتها العملية. وفي الدليل الحالي تعالج الدراستان الأولى والثانية جماعة الإخوان المسلمين في مصر

www.alkottob.com

وحزب العدالة والتنمية في تركيا كنموذجين للحركات السياسية - الاجتماعية ذات البرامج الإسلامية الساعية للوصول للحكم بالطرق السلمية في بلادها، بينما تتناول الدراستان السادسة والسابعة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وجماعة الجهاد الإسلامي الفلسطينيتين كنموذج لحركات التحرر الوطني المسلحة الإسلامية، والتي هي في الأصل جزء من الحركات السياسية - الاجتماعية ذات البرنامج الإسلامي. ويتناول الدليل في الدراسة الثالثة تنظيم قاعدة الجهاد باعتباره النموذج الأبرز حالياً للحركات الإسلامية الجهادية دولية المجال، بينما تتناولها الدراسة الرابعة بمعالجة الجماعة الإسلامية في إندونيسيا كنموذج مثالي للحركات الإسلامية الجهادية المحلية وذات الطابع الإقليمي، وتأتي الدراسة الخامسة لكي تقدم صورة واقعية حديثة لما تبقى من جماعة الجهاد المصرية والتي كانت نموذجاً للحركات الإسلامية الجهادية المحلية ثم انتقل قسم منها ليتحول إلى حركة جهادية دولية المجال منخرطة في تنظيم القاعدة. وتأتي الدراسة الثامنة والأخيرة في ذلك القسم لتقدم حركة المجاهدين في كشمير كنموذج للحركات الجهادية الاستقلالية - الانفصالية والتي تسعى لتقرير مصير المناطق المسلمة التي توجد بها عن الدول غير المسلمة التابعة لها وفي نفس الوقت إقامة دولة إسلامية فيها.

أما القسم الثاني من الدليل، فهو ينصرف كما يوضح عنوانه إلى التعرف على "الأفكار والرؤى" التي يقوم عليها النشاط الحركي للحركات الإسلامية بمختلف فئاتها وأنواعها. وفي الدليل الحالي نفرد جزءاً خاصاً من ذلك القسم لزعيم تنظيم قاعدة الجهاد أسامة بن لادن لفهم وتحليل رؤاه وتصوراته مجموعة من القضايا الرئيسية، يبدأ بدراسة حول التطور الذي مر به خطاب بن لادن قبل وبعد هجمات سبتمبر من زاوية التكرار ووسائل الاتصال التي استخدمها والجمهور الذي استهدفه في المرحلتين فضلاً عن الأشكال التي اتخذها ذلك الخطاب. وتأتي الدراسة الثانية في ذلك الجزء الخاص لتسعى للتعرف على حقيقة موضع ووزن قضية رئيسية تكررت كثيراً في خطاب بن لادن واختلف كثير من الدارسين حول تلك الحقيقة ما بين اعتبارها جزءاً أصيلاً من فكر ورؤية زعيم القاعدة أو اعتبارها مجرد حجة يتكئ عليها لتبرير ممارساته العنيفة والإرهابية، وهي القضية الفلسطينية. أما الدراسة الثالثة من ذلك القسم فهي تسعى لمعرفة وتحليل التفكير الاقتصادي لزعيم القاعدة، وموقع الجوانب الاقتصادية والمالية من تصوره الصراعي الشامل مع من يعتبرهم أعداءه الرئيسيين وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. وهنا تأتي الدراسة الرابعة والأخيرة من ذلك الجزء الخاص لتركز بصورة أكثر عمقاً على التفكير العسكري العملياتي عند بن لادن باعتباره التطبيق النوعي لرؤيته الصراعية أو الجهادية الدولية. أما الدراسة الخامسة والأخيرة في ذلك القسم الثاني، فهي مخصصة لدراسة معمقة لسلسلة "تصحيح المفاهيم" التي أصدرتها الجماعة الإسلامية المصرية لتدشن بها تحولها الكبير والنهائي من حركة جهادية محلية إلى حركة سياسية - اجتماعية ذات برنامج إسلامي ساعية للوصول للحكم بالطرق السلمية، وهو التحول الذي كان لا بد من التوقف عنده لدراسة أحد أبرز جوانبه وهو تلك المراجعة الفكرية الجذرية لأفكار العنف والتطرف.

ويأتي القسم الثالث والأخير من الدليل لكي يركز على محور مهم في التطور الفكري والعملي

www.alkottob.com

للحركات الإسلامية بمختلف أنواعها وفئاتها، وهو المتعلق ببعض "القيادات الحركية والفكرية" التي لعبت - ولا يزال بعضها يلعب - أدواراً حاسمة في هذا التطور. ويقوم مفهوم ذلك القسم على إجراء دراسات حول تلك النوعية من القيادات التي يتم اختيارها حسب معيار تأثيرها الفكري أو الحركي - أو الاثنين معاً - المؤكد والقوي على بعض الحركات الإسلامية لفترة طويلة من الوقت، بحيث تشمل جوانب من سيرتها الذاتية مع تركيز أكبر على الجوانب الفكرية أو الحركية التي تتسم بها كل قيادة منها. وفي ظل ذلك تسعى الدراسة الأولى في ذلك القسم لتحليل سيرة وأفكار الدكتور حسن الترابي القائد الإسلامي السوداني البارز، والذي لا شك في تأثيراته القوية والمباشرة على تطور الحركة الإسلامية السياسية السلمية في السودان طيلة العقدين الأخيرين على الأقل وحتى اليوم، فضلاً عما تركه من آثار على تطور الأوضاع في السودان بأكمله في نفس الفترة. أما الدراسة الثانية فهي مخصصة لدراسة تطور وأفكار الإسلامي الجهادي المصري سيد إمام الشريف المعروف باسم عبدالقادر بن عبدالعزيز، والذي فضلاً عن كونه أميراً لجماعة الجهاد المصرية حتى عام ١٩٩٣ فهو صاحب الثنين من المؤلفات الضخمة التي أسست للفكر الجهادي العنيف ولا يزال كثير من الأفكار المتشددة التي وردت فيهما متداولة ومتبناة في صفوف عديد من الحركات الإسلامية الجهادية والدولية على مستوى العالم، وهما كتابا "الجامع في طلب العلم الشريف"، و"العمدة في إعداد العدة".

إن هذا الدليل لا يطمح أكثر من أن يكون استمراراً للتقاليد البحثية الرصينة التي استنها وسار عليها مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية منذ قيامه، وأن يسهم مع جهود بحثية وأكاديمية أخرى سابقة عليه وتالية له في بناء مدرسة مصرية وعربية متخصصة في دراسة الظاهرة الإسلامية بكافة تجلياتها وجوانبها، عساها أن تقدم فهماً أدق وأشمل لتلك الظاهرة وتسد الفجوات التي تركتها وراءها المدارس الأخرى في سعيها لهذا الفهم.

وما كان من الممكن لهذا الطموح أن يولد ولا لهذا الدليل أن يصدر لولا الدعم الدائم والمتنوع الأشكال الذي تقدمه مؤسسة الأهرام العريقة وإدارتها لمركز الدراسات ومشروعاته وإصداراته منذ نشأته عام ١٩٦٨ وحتى اليوم، والذي امتد بصور عدة إلى الدليل الحالي. كذلك فالشكر واجب لمؤسسة فردريش إيبرت الألمانية لتحمسها لمشروع ذلك الدليل وحرصها على تقديم ما طلب منها من دعم لإصدار ذلك الدليل بصورته التي يسعدنا أن نقدمه بها إلى قراءنا الأعزاء.

رئيس التحرير

www.alkottob.com

www.alkottob.com

Abu Nour

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الحركات الإسلامية: التعريف والخريطة

أدت هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على واشنطن ونيويورك وما تلاها من أحداث إلى نشوء اختلاطات واسعة وغموض كبير في تعريف المقصود بمصطلح "الحركات الإسلامية". ونتيجة لذلك الخلط والغموض بدت كل الحركات الإسلامية وكأنها ذات طبيعة مشتركة وتعريف واحد، هو ذلك الذي يضعها جميعاً تحت عنوان "الحركات الإرهابية" وفق الفهم المغلوط المشوش الذي فرض نفسه بعد هجمات سبتمبر على معظم أرجاء العالم، وبخاصة في القسم الغربي منه. ولأن مفهوم "الحركات الإرهابية" كمرادف للحركات الإسلامية يبدو غير دقيق أو واقعي ويعكس تعميماً انحيازات سياسية أكثر من الحقائق الواقعية والتاريخية والعلمية، فقد بدا ضرورياً أن يعاد النظر في تعريف الحركات الإسلامية وأن يتم وضع تصنيف لها أكثر دقة وقرباً من الواقع والتاريخ والعلم، وهي المهمة الرئيسية التي يسعى هذا الدليل للقيام بها.

١- ما هي الحركات الإسلامية؟

أ- مشكلات تعريف وتصنيف الحركات الإسلامية

الحقيقة أن مصطلح "الحركات الإسلامية" قد عانى دوماً - حتى قبل هجمات سبتمبر - من درجة عالية من الغموض والتشويش على الرغم من كثرة الدراسات والمقالات التي عالجت جوانب مختلفة لتلك الحركات. وعلى تعدد المساهمات المختلفة في تلك المعالجة فقد سلك كل منها نهجه الخاص في تسمية وتصنيف مكونات تلك الحركات المتعددة هي أيضاً، الأمر الذي أدى إلى إصابة القاموس المفهومي الخاص بها بحالة من التضخم والترهل واللاانضباط، وهي الخصائص المناقضة تماماً لأسس التحليل العلمي الذي يسعى عادة للتوصل لنتائج ذات دقة عالية منطلقاً من تعريفات ومفاهيم تتمتع بنفس الدرجة من الدقة والوضوح. ونظراً لتعدد المعايير المستخدمة لوصف وتصنيف الحركات الإسلامية، فإن القارئ المهتم والمختص يصاب بالدهشة من كثرة المصطلحات والمسميات التي تطلق عليها. ففي الكتابات العربية نجد تصنيفات عديدة مثل: السلفية والأصولية والمتشددة والإرهابية والمتطرفة والإسلامية والأرثوذكسية... الخ. وتزداد المشكلة في اللغات الأجنبية، مثل الفرنسية والإنجليزية، والتي تتضمن ترسانة ضخمة أخرى من المصطلحات والتصنيفات التي يعود معظمها إلى مصادر تاريخية ومعرفية غربية في الأساس.

www.alkottob.com
Abu Nour

وتعاني الغالبية الساحقة من تلك المصلحات والتصنيفات، العربية والأجنبية، من نقطة ضعف جوهرية تضع حدوداً على قدرتها على التعبير الدقيق عن الظاهرة الإسلامية بتنويعاتها ومكوناتها المختلفة، وهي أنها تعود في معظمها إلى أصول معرفية أجنبية. وبذلك لا تنتمي تلك المصطلحات والتصنيفات سواء في أصلها الأجنبي أو ترجماتها العربية الشائعة والمعدلة أحياناً إلى المجال التاريخي والمعرفي الإسلامي الذي نشأت الحركات الإسلامية المعاصرة ضمن حدوده وتطورت بداخله. ولا شك أن عملية نقل المصطلحات والتصنيفات هذه وزرعها قسراً في الجسد التاريخي والاصطلاحي الإسلامي قد واجهت العقبة الكبرى المعروفة في هذا النوع من العمليات، أي عدم ملاءمتها تماماً له وبالتالي رفضه لها وفي أفضل الأحوال بقاؤها قلقة مترنحة في مواضعها الجديدة تنتظر اللفظ في أول فرصة مواتية.

كما لا يخفى ما يكمن وراء بعض هذه المصطلحات والتصنيفات الشائعة من انحيازات تقويمية لواضعيها ومروجيها ومستخدميها مثل "متطرفة" أو "إرهابية" أو "متشددة" من جهة أو "إصلاحية" أو "ثورية" أو "معتدلة" من جهة أخرى في اللغة العربية وما يقابلها ويقترب منها في اللغات الأجنبية، حيث يستند واضعو تلك المصطلحات والتصنيفات إلى جزء من خصائص بعض الحركات الإسلامية لكي يعمموا مضمونه على الحركات كلها أو معظمها. كذلك فقد سعت كتابات أخرى للهروب من صعوبة التصنيف والتمييز بين مختلف فئات الحركات الإسلامية أو بغرض وصمها بخصائص بعينها، إلى الحديث عنها جميعاً باعتبارها حركة واحدة متجانسة على الرغم من تنوعها وتفرقها بين بلدان العالم الإسلامي. وقد بدت كل الحركات الإسلامية في تلك الكتابات - الغربية والعربية على حد سواء - وكأنها كتلة واحدة مصمتة تتسم كلها بخصائص واحدة تقع أفكار التكفير والعنف في مقدمتها.

وتعكس هذه النوعية من المصطلحات والتصنيفات التقويمية رؤية أصحابها لمواقف الحركات الإسلامية من المصالح والأفكار التي ينتمون إليها أكثر مما تعكس من حقيقة تلك الحركات. فمستخدمو تلك المصطلحات والتصنيفات في اللغة العربية واللغات الأجنبية هم في الأغلب أطراف في الصراعات السياسية والثقافية والاجتماعية الدائرة في مجتمعاتهم حول الظاهرة الإسلامية، ويعبرون من خلال تلك المصطلحات والتصنيفات التقويمية عن خلافهم أو اتفاقهم مع هذه الظاهرة ورفضهم أو قبولهم لها بمختلف مكوناتها. ويرتبط بذلك مباشرة سيولة بعض تلك المصطلحات والتصنيفات وصعوبة الإمساك بها بدقة مثل مصطلح "حركات معتدلة" أو "حركات متطرفة"، حيث يبدو غامضاً - وأحياناً غائباً - المركز الأساسي للتصنيف والذي يمكن القول باعتدال أو تطرف الحركات الإسلامية حسب قربها منه أو بعدها عنه. ولم يكن فقط صياغة وتبني مصطلحات وتصنيفات ذات أصل غربي غائم للحركات الإسلامية هو العقبة في طريق تعريف وتصنيف أدق لها، بل أيضاً تبني باحثون آخرون - عرب ومسلمون أو أجانب -

www.alkottob.com

متحمسون للظاهرة الإسلامية وقريبون من بعض أفكارها وتصوراتها مصطلحات وتصنيفات أخرى "مضادة" لم يكن معظمها سوى صياغات معدلة لما تطلقه تلك الحركات على نفسها من مسميات، بغض النظر عن قربها أو بعدها من الطبيعة الحقيقية لتلك الحركات.

في ظل ذلك الوضع يكون وارداً - بل واجباً - أن تبذل محاولات جدية لضبط القاموس المفهومي لتعريف وتصنيف الحركات الإسلامية المعاصرة على أسس أكثر دقة وعلمية وموضوعية قبل الشروع في تحليلها وقراءة تطوراتها. من هنا فإن التدقيق في خصائص تلك الحركات يدفع إلى اقتراح تعريفها والتمييز بينها وفقاً لنماذج تحليلية مستمدة من خصوصيتها دون التضحية بما وصلت إليه العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة من نماذج نظرية يمكن لها المساعدة على فهم أعمق لتلك الحركات. وفي هذا الإطار فإن النظر إلى الخبرة الطويلة للجماعات والفرق في التاريخ الإسلامي، والتي تبدأ من الفتنة الكبرى حتى اليوم، يفيد كثيراً في التعرف على خصائصها المتكررة والتي تمكن في النهاية من بلورة نماذج لها يمكن عبرها تعريف وتصنيف الحركات الإسلامية المعاصرة. ولا شك أن طول المدة التاريخية - أربعة عشر قرناً - التي تواتر خلالها ظهور الجماعات والفرق الإسلامية وتكرار الخصائص الشكلية والموضوعية لبعضها يعطي شرعية علمية لمحاولة اشتقاق نماذج نظرية لها تكون أكثر دقة في تعريف وتصنيف ودراسة نظائرها المعاصرة.

ولا يعني هذا أن يتم الاقتصار في تعريف وتصنيف ودراسة الحركات الإسلامية المعاصرة على النماذج التحليلية المستقاة من الواقع التاريخي الإسلامي. فلاشك أن مثل هذا التعريف والتصنيف يكتسب مزيداً من العمق والدقة عند استعانته بنماذج وأدوات تحليلية إضافية من تلك التي أبدعتها ترسانة العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة بما فيها العلوم الغربية ذات المشروعية العلمية المدعومة بأساس نظري متماسك وبحوث تطبيقية جادة ومتعمقة. إن عدم الاقتصار في تعريف وتصنيف تلك الحركات على النماذج والأدوات التحليلية المستمدة من العلوم الغربية الحديثة لا ينطلق من "عداء إيديولوجي" لتلك العلوم أو للغرب بقدر ما هو يسعى لإضفاء أكبر قدر ممكن من الدقة والعملية على ذلك التعريف والتصنيف بالاستفادة من التاريخ الإسلامي الخاص والذي مثل الوعاء الطبيعي الذي نمت بداخلة تلك الحركات.

ب - نحو تعريف أدق للحركات الإسلامية

في هذا الإطار فإن المقصود بالحركات الإسلامية هنا هو تلك الجماعات التي تشترك معاً في اعتبار أحد جوانب الإسلام أو تفسيراته الإطار المرجعي لها سواء فيما يخص وجودها أو أهدافها، والتي تنشط بطرق مختلفة من أجل تطبيق الصورة التي تراها للإسلام في المجتمعات والدول والمجالات التي توجد بها. ويلعب الجانب الفكري دوراً محورياً في تحديد التمايزات بين الحركات والجماعات الإسلامية المختلفة بالإضافة إلى

www.alkottob.com
Abu Nour

جوانب أخرى ترتبط به بصورة أو بأخرى. وعلى الرغم من وجود بعض المعايير الأخرى التي يمكن أن يستند إليها في تصنيف تلك الحركات، مثل الأصول الاجتماعية لها أو تصوراتها السياسية أو أساليبها الحركية، فإن الأساس الفكري يظل هو القاعدة الأكثر صلابة لهذا التصنيف لها والتمييز فيما بينها.

وقد تختلف تلك الجماعات في فهمها لتفاصيل علاقة مشروعها الفكري والسياسي والاجتماعي بقواعد الإسلام وأصوله كما قد تختلف في تفسيرها لبعض تلك القواعد والأصول، إلا أنها تظل جميعها مع ذلك تعتقد في صحة انتساب مشروعها للإسلام وتظل تطلق عليه صفة "إسلامي". وعلى الرغم من وجود وأهمية الأساس الفكري لدى كل الحركات السياسية والاجتماعية الأخرى، فهو ذو مكان خاص بالنسبة للحركات الإسلامية حيث يمثل بالنسبة للبعض منها نصاً دينياً "مقدساً" تسعى لتطبيقه دون اجتهاد أو تعديل بينما هو بالنسبة للبعض الآخر مرجعية رئيسية لها الأولوية على أي مرجعيات أخرى قد تلجأ إليها. ويمتد التأثير الحاسم للأساس الفكري إلى مختلف جوانب الحركات الإسلامية بدءاً من أسمائها ومروراً بمصطلحاتها ورموزها وأشكالها التنظيمية وانتهاء باستراتيجياتها وأساليبها الحركية، وهو الأمر الذي يميزها عن غيرها من الحركات السياسية والاجتماعية في علاقتها بأسسها الفكرية، على الرغم من التشابه الظاهري الذي يبدو بينهم.

٢ـ خريطة الحركات الإسلامية

وفقاً لمحورية الأساس الفكري السابق توضيحه في تصنيف الحركات الإسلامية، فإنها تنقسم إلى فئتين رئيسيتين لا يجمع بينهما سوى الانتساب إلى الإسلام مع الاختلاف العميق قبل ذلك وبعده في طريقة هذا الانتساب وقراءة ذلك الإسلام. ولاشك أن عوامل عديدة متداخلة هي التي أدت إلى خلق تلك الخريطة المركبة للحركات الإسلامية المعاصرة، ومع ذلك يبقى أنه يمكن القول أن نظائر لتلك الحركات المتنوعة قد سبق لها الظهور والتواجد خلال القرون الخمسة عشر التي تمثل التاريخ الإسلامي، وأن بعضاً من الحركات التي نشهدها حالياً ليست سوى "إعادة إنتاج" لتلك الحركات القديمة. كذلك فمن الضروري التأكيد على أن خريطة الحركات الإسلامية المقترحة هنا لا تشمل سوى تلك التي ترتبط بعلاقة ما مع السياسة وفي مركزها السلطة والدولة أكثر من ارتباطها بالمجتمع والممارسات الممارسات الاجتماعية والدينية الطقوسية. فالخريطة لا تشمل وفقاً لذلك عديداً من الحركات المهمة والواسعة الشعبية في العالمين العربي والإسلامي مثل الحركات الصوفية وبعض الحركات السلفية والمؤسسات الدينية الرسمية أو الاجتماعية. ووفق المعايير السابق ذكرها، فإن تلك الخريطة تشمل نوعين رئيسيين من الحركات:

www.alkottob.com
Abu Nour

أولاً: الحركات الإسلامية الدينية.

وهي تلك التي تقوم على قراءة معينة للإسلام والنصوص القرآنية الكريمة تنظر من خلالها للأفراد والمجتمعات والدول من منظور صحة العقيدة فقط، في حين لا تلقي اهتماماً يذكر إلى ما هو دون ذلك من مستويات ومصادر فقهية وشرعية. والقضية الرئيسية وربما الوحيدة بالنسبة لتلك الحركات هي إقامة التوحيد والعبودية الحقة لله كما تراهما، وبالتالي فإن حقيقة الإيمان بالنسبة للأفراد والمجتمعات والدول يظل بالنسبة لها المبحث الوحيد الذي تتحرك ضمنه أفكار وأفعال تلك الفئة من الجماعات. وفي هذا السياق تمثل النصوص القرآنية والنبوية وبعض آثار السلف بالنسبة لتلك الحركات المعين شبه الوحيد لجلب الأفكار والخبرات التنظيمية والحركية، وهي تقوم بتفسير تلك النصوص القرآنية والنبوية بطريقة حرفية ظاهرية تستند على قاعدة "عموم اللفظ" وليس "خصوص السبب" الذي نزلت من أجله أو ذكرت في سياقه تلك النصوص الكريمة. وتدفع تلك المنهجية تلك الحركات بصفة عامة إلى التورط في أحكام متسرعة بكفر الدول وجاهلية المجتمعات والأفراد. وفضلاً عن تلبس تلك الحركات في أسمائها ومصطلحاتها وتشكيلاتها التنظيمية وسلوك أعضائها للموروث الإسلامي من حقبة النبوة والخلافة الراشدة التي تمثل المرجعية التاريخية الوحيدة لها، فهي تقوم بقراءة واقع مجتمعاتها المعاصرة عبر تجربة تلك الحقبة وتعيد تسمية فاعليه وقواه وتناقضاته بنفس المسميات التي كانت فيها. وبذلك فإن الهدف الرئيسي لتلك الحركات هو إعادة أسلمة المجتمعات والدول - وكذلك الأفراد بالنسبة للبعض منها - حيث أنهم جميعاً حسب رؤيتها خارجون عن الإسلام بصور مختلفة.

وتنقسم تلك الحركات الإسلامية الدينية في تبنيها للحقبة النبوية وما تلاها من خلافة راشدة وقياس المرحلة الحالية عليها إلى قسمين رئيسيين: الأول يرى أننا نعيش في مرحلة أقرب لمرحلة الدعوة في مكة قبل الهجرة، بينما يعتقد القسم الثاني أن ما أحاط بمرحلة الإسلام في المدينة وما تلاها هو الأقرب للعصر الذي نعيش فيه الآن. ويؤدي ذلك الانقسام في قياس المرحلة المعاصرة على كل من هاتين المرحلتين من التجربة النبوية والراشدة إلى توزع الحركات الإسلامية الدينية بين نوعين مختلفين بصورة كبيرة هما: الحركات المتطرفة السلمية، والحركات الجهادية العنيفة.

١ - الحركات المتطرفة السلمية

تتفق تلك الحركات على أن المجتمعات المعاصرة أقرب لحالة المجتمع الجاهلي والكافر في مكة بعد البعثة النبوية وقبل الهجرة منها إلى المدينة، وهو ما يعني بالنسبة لها أن المجتمعات والدول والأفراد المعاصرين في مختلف بلدان العالم الإسلامي إنما هم إما كفار أو في أحسن تقدير يعيشون في جاهلية تامة تشبه تلك التي كانت تخيم على مكة والجزيرة العربية عموماً قبل الهجرة. كذلك فبنفس القياس فتلك

www.alkottob.com
Abu Nour

الحركات ترى أن الوقت لم يحن بعد للعمل بالسياسة أو بناء دولة إسلامية أو ممارسة القتال - أو الجهاد حسب مصطلحهم - حيث أن كل ذلك لم يؤمر به المسلمون قليلي العدد والحيلة في مكة. نتيجة لهذا، تذهب تلك الحركات إلى عدم ممارسة أي أفعال عنيفة أو قتالية ضد المجتمعات والدول والأفراد الكافرين أو الجاهليين حسب رؤيتهم لهم مثلما لم يفعل ذلك المسلمون الأوائل في المرحلة المكية. أما عندما يطرح التساؤل بداخل تلك الحركات حول طريقة التعامل مع هؤلاء الأفراد والدول والمجتمعات، فإنهم ينقسمون بناءً على إجابته إلى قسمين رئيسيين: الأول يمكن تسميتهم بحركات التكفير والهجرة، والثاني بحركات إعادة الدعوة.

(أ) حركات التكفير والهجرة.

يضم القسم الأول كل الجماعات والحركات التي اصطلح إعلامياً على إطلاق ذلك الاسم عليها، وهي ترى أن المجتمعات المعاصرة تشبه مجتمع مكة قبل الهجرة مباشرة، حيث لم يعد فيها من أمل أن تهتدي للإسلام ولم تعد تضم سوى الكافرين فقط وبالتالي لابد لهم من هجرها بصورة أو بأخرى، حيث أنهم يمثلون المسلمين الوحيدين على وجه الأرض ومن سواهم ولم ينضم إليهم فهو كافر كفراً بواحاً. والهجرة بالنسبة لهم، سواء كانت داخل المجتمع باعتزاله تماماً والانفصال عنه كلية أو بالخروج منه إلى الصحارى والمناطق البعيدة، إنما هي على غرار الهجرة النبوية انتظاراً لأن يظهر الله دينه ويعودوا إلى ذلك المجتمع منتصرين.

(ب) حركات إعادة الدعوة.

يضم القسم الثاني كل الجماعات والحركات التي ترى أن المجتمعات المعاصرة تشبه مجتمع مكة بعد البعثة النبوية، حيث أن دعوة - أو بعبارة أدق إعادة دعوة - الناس الموجودين فيها والذين يجهلون الإسلام كما كان الكافرون في مكة يجهلونه تعد المهمة الوحيدة التي يجب عليهم القيام بها كما فعل المسلمون الأوائل. ويمثل "التبليغ والدعوة"، وهو اسم أبرز جماعات ذلك القسم على مستوى العالم، إلى تعاليم الإسلام الأساسية وأركانه وعباداته الطريقة الوحيدة لهذه الجماعات في التعامل مع تلك المجتمعات المعاصرة الجاهلية والكافرة - حسب رؤيتهم - دون اعتزالها أو الهجرة منها أو الاصطدام العنيف معها. إذاً تظل الحركات المغالية بالرغم من تطرفها الشديد في الحكم على المجتمعات والدول والأفراد المعاصرين بالكفر والجاهلية، أقرب في غالبيتها الكبيرة إلى السلوك السلمي غير العنيف تجاهها انطلاقاً من قياسها لها على المجتمع المكي قبل الهجرة النبوية.

www.alkottob.com
Abu Nour

٢ - الحركات الجهادية العنيفة

تنطلق الحركات الجهادية العنيفة على أن المرحلة التي يعيشها العالم اليوم يمكن مقارنتها بمرحلة هجرة الإسلام إلى المدينة وما تلاها، وهي تلك التي اندمجت فيها العقيدة والدين بالدولة، أي بالسياسة. ووفقا لذلك القياس، فإن المجتمعات والدول الحالية بالنسبة لتلك الحركات قد عادت إلى حالة الجاهلية التي سبقت ظهور الإسلام، والأفراد جزء منها وإن كان كل منهم ليس بالضرورة كافرا أو مرتدا إلا إذا صرح بذلك أو سلك ما يؤكده. وتنطلق تلك الحركات أيضاً على أن الحكومات في البلدان المسلمة قد خرجت عن الإسلام وتعد مسئولة عن حالة الجاهلية التي تعيشها مجتمعات تلك البلدان وعن محاربة قوى التوحيد، التي ترى تلك الحركات أنها تمثلها. ونتيجة لهذه القراءة فإن المجتمعات الجاهلية المعاصرة حسب تلك الحركات لا تجوز إعادة دعوتها إلى أساسيات الإسلام بعد أن وصل إليها البلاغ واكتملت الرسالة، وبالتالي فلا مكان للدعوة المكية الهادئة المتسامية بل هو "الاستعلاء" المدني وإعادة أسلمة المجتمع والدولة وتأسيسهما من جديد على نفس القواعد التي أسست عليها دولة المدينة. ويعد العنف الديني، أو الجهاد كما أسمته تلك الحركات، هو الوسيلة الوحيدة تقريباً لديها من أجل تحقيق تلك الأهداف، وذلك عبر السعي الدائم لتوسيع عضويتها وتنظيمهم باعتبارهم "العصبة المؤمنة" التي ستعيد الإسلام إلى بلاده وتدفع عنها عدوان أعدائه الخارجيين. وبلغة سيد قطب الأب الحقيقي للحركات الجهادية العنيفة، فإن وظيفة تلك الحركات، أو الإسلام كما يقول، هي: "إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص"، وهو ما يدفع به حسب تعبيره "ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان".

ونتيجة اختلاف ظروف ومراحل ومناطق نشأة تلك الحركات الجهادية العنيفة، فإنها توزعت بين أقسام ثلاثة على الأقل تتفق فيما بينها حول المفاهيم الأساسية السابقة لم تختلف بعد ذلك في الأولويات الحركية لتطبيقها، أولها الحركات محلية الطابع، وثانيها الحركات الاستقلالية - الانفصالية، وثالثها الحركات دولية المجال.

(أ) الحركات محلية الطابع.

تنطلق الحركات محلية الطابع، والتي لا توجد تقريباً سوى في بلدان العالم الإسلامي، من فكرة أن "العدو القريب أولى بالقتال من العدو البعيد"، وهو بالنسبة لها حكومات الدول التي تنتمي إليها والتي يعد إسقاطها عبر قتالها هو المهمة الأولى التي يجب عليها البدء بها. وعلى الرغم من أن الجهاد هو فرض على المسلمين للدفاع عن عقيدتهم ودينهم الممثلين في "دار الإسلام" من أي هجوم عليها من عدو خارجي غير مسلم من "دار الحرب"، فقد حورته تلك الفئة من الحركات الجهادية ليصير جهاداً

www.alkottob.com
Abu Nour

داخلياً موجهاً إلى حكومات البلدان التي تنتمي إليها والتي تسعى إلى اقتلاعها وتأسيس دول إسلامية بدلاً منها. ولما كان وصف تلك البلدان بأنها "دار حرب" لتبرير القتال فيها أمراً صعباً بالنسبة لتلك الحركات مثل صعوبة الاعتراف بأنها "دار إسلام"، فقد ابتدعت مفهوم "الدار المختلطة" التي يتداخل فيها حسب تفسيرها الإسلام مع الجاهلية والكفر لكي تستطيع أن تصف ما تمارسه من عنف ديني وقتال بداخلها بأنه جهاد. ولا شك أن وضع تلك الفئة من الحركات مفهوم "الجهاد" عنواناً لقتالها الداخلي ضد حكوماتها إنما كان يعكس من ناحية رؤيتها لها باعتبارها حكومات "كافرة" معادية للإسلام، ويسعى من ناحية أخرى للاستفادة من الشحنة المعنوية الإيجابية التي يحملها المعنى الأصلي للجهاد، أي الجهاد الخارجي، عند عامة المسلمين. وقد كانت "الجماعة الإسلامية" و"جماعة الجهاد" في مصر، و"الجماعة الإسلامية المسلحة" في الجزائر و"الجماعة الإسلامية المقاتلة" في ليبيا الآن أمثلة بارزة لتلك الفئة من الحركات الجهادية محلية الطابع.

(ب) الحركات الاستقلالية - الانفصالية.

أما القسم الثاني من الحركات الجهادية وهي تلك التي يمكن تسميتها بالحركات الاستقلالية - الانفصالية، فهي توجد بصفة عامة في مناطق الأقليات المسلمة بداخل الدول غير الإسلامية، وأبرزها تلك التي توجد الآن في كشمير بالهند والشيشان بروسيا الاتحادية وفي أفغانستان أثناء الغزو السوفيتي لها. ويتداخل لدى تلك الحركات مفاهيم الجهاد ضد العدو الخارجي غير المسلم الذي يسيطر على الأقاليم التي تسعى لاستقلالها أو انفصالها، مع مفاهيم التحرر الوطني وتقرير المصير التي تنتشر عادة في مثل تلك الأقاليم التي تسكنها الأقليات الدينية والعرقية. وبالإضافة لذلك تحتفظ تلك الحركات بالأساس الفكري لكل الحركات الجهادية والمتمثل في اعتبارها أن مجتمعات أقاليمها تعيش في حالة جاهلية وأن هدفها الأول بعد تحقيق استقلالها أو انفصالها هو إعادة أسلمتها وإقامة الدولة الإسلامية فيها.

(ج) الحركات دولية المجال.

تعد الحركات دولية المجال هي الفئة الثالثة في الحركات الجهادية العنيفة وهي على اشتراكها مع الفئتين الأخريين في الأفكار الرئيسية لتلك الحركات فهي تتميز عنها بتفسيرات أخرى لها وبخاصة مفهوم الجهاد وأولوية القتال "للعدو القريب أم للعدو البعيد". فتلك الفئة تتبنى مفهوم الجهاد الخارجي ضد من ترى أنهم أعداء الإسلام الخارجيين وبشكل خاص الجهاد الدفاعي الذي يرمي إلى الدفاع عن "دار الإسلام" من أي هجوم عليها من عدو خارجي غير مسلم. وبالتالي فإن تلك الحركات تختلف عن الحركات الجهادية محلية الطابع في اعتبارها أن "العدو البعيد أولى بالقتال من العدو القريب"، بالرغم من اتفاقها معها في النظر إلى "العدو القريب"، أي حكومات الدول الإسلامية، باعتبارها حكومات كافرة.

Abu Nour
www.alkottob.com

وقد نشأت تلك الحركات ذات المجال الدولي خلال الأعوام العشرة الأخيرة في عديد من مناطق العالم مثل البوسنة والشيشان وقبل كل ذلك أفغانستان التي كانت المهد الذي ولدت فيه إبان مقاومة الغزو السوفيتي لها من عام ١٩٧٩ وحتى عام ١٩٨٩، وتتشكل تلك الحركات عادة من خليط من الإسلاميين ذوي النزعات الجهادية من مختلف بلدان العالم الإسلامي وغير الإسلامي حيث يحتفظون بروابط بينهم حتى لو لم يضمهم مكان واحد.

ثانياً: الحركات السياسية - الاجتماعية ذات البرنامج الإسلامي

تنطلق تلك النوعية من الحركات من قراءة مختلفة للإسلام عن تلك التي تتبناها الحركات الدينية، حيث تنظر إلى كل الأفراد والمجتمعات والدول الإسلامية على حقيقتهم كمسلمين غير ناقصي العقيدة، وبالتالي فالتساؤل حول صحة عقيدتهم أو إسلامهم غير وارد. أما الوارد والرئيسي بالنسبة لتلك الحركات فهو إعادة تنظيم تلك المجتمعات والدول على أسس إسلامية لا توجد حسب رؤيتها سوى في الشريعة الإسلامية وليس غيرها من نظم قانونية أو برامج سياسية واجتماعية غربية. وانطلاقاً من ذلك تتبنى تلك الحركات برامج سياسية - اجتماعية تقوم أساساً على مفهوم "الشريعة" التي هي في حقيقتها إنتاج بشري - وليس نص ديني مقدس - قام به مئات الفقهاء المسلمين متباينو المذاهب والاتجاهات والأماكن خلال قرون الإسلام الخمسة عشر لتحويل النصوص القرآنية والنبوية الكريمة إلى قواعد قانونية واجتماعية وسياسية لتنظيم الدول والمجتمعات المسلمة. وفي تفسيرها للنصوص القرآنية والنبوية الكريمة لا تتوقف تلك النوعية الثانية من الحركات عند ظواهر النصوص وألفاظها بل توسع من نظرها ليشمل مقاصد الشريعة ومصالح الناس وأسباب النزول واجتهادات الفقهاء، بما يجعل من قراءتها أكثر تاريخية واجتماعية من القراءة النصية الحرفية التي تتبناها النوعية الأولى من الحركات. ولا تتوقف المرجعية التاريخية لتلك الحركات عند المرحلة النبوية والخلافة الراشدة، بل هي تتسع لتشمل التاريخ الإسلامي وتراثه الموزع على قرونه الأربعة عشر والذي تستقي منه مصطلحاتها وقياساتها على الواقع المعاش مستعينة أحياناً على قراءته بمرجعيات أخرى من أمم أخرى خارجه. ويظل الإسلام بالنسبة لتلك الحركات بمثابة وعاء حضاري - ديني - تاريخي تستمد منه رؤاها لتنظيم المجتمعات والدول الإسلامية التي توجد فيها والتي تتخذ شكل البرنامج الذي لا يختلف سوى في المضمون عن برامج الجماعات السياسية - الاجتماعية الأخرى غير الإسلامية.

ويوضح تحليل تلك الحركات السياسية - الاجتماعية ذات البرنامج الإسلامي أنها تنقسم بدورها إلى نوعين: الأول هو الحركات السلمية الساعية للحكم، والثاني هو حركات التحرر الوطني المسلحة.

www.alkottob.com

١ - الحركات السلمية الساعية للحكم

النوع الأول من تلك الحركات هو تلك التي تسعى بصورة مباشرة إلى السلطة السياسية من أجل تطبيق برنامجها السياسي والاجتماعي ذي الطابع الإسلامي الذي تعتقد أن غايته هي تحقيق التقدم والنمو لبلدانها ومجتمعاتها. ومن أجل وصولها لذلك الهدف تسلك تلك الحركات كافة السبل والوسائل السياسية السلمية المباشرة وغير المباشرة المتاحة أمامها، وتقوم بتغيير وتنويع مواقفها وتحالفاتها وصراعاتها مع الدولة أو القوى السياسية والاجتماعية الأخرى بحسب ما تقتضيه مصلحتها وتحقيق ذلك الهدف، الأمر الذي يؤكد اختلافها العميق عن الحركات الدينية بكافة صورها والتي ينقسم الوجود الاجتماعي بالنسبة لها إلى مسلمين وكافرين فقط. وتعد جماعة الإخوان المسلمين في مصر والبلدان العربي الأخرى التي توجد بها وجماعة النهضة في تونس والجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر أبرز تلك الحركات السياسية - الاجتماعية السلمية الساعية للحكم.

٢ - حركات التحرر الوطني المسلحة

أما حركات التحرر الوطني المسلحة الإسلامية فهي في الأصل جزء من الحركات السياسية - الاجتماعية ذات البرنامج الإسلامي، دفعت بها الظروف المحيطة بها في مجتمعاتها التي تخضع لاحتلال أجنبي إلى تبني برنامج للتحرر الوطني يقع الكفاح المسلح في القلب منه. وقد بدأ ظهور تلك الحركات من بين صفوف جماعة الإخوان المسلمين إبان حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ثم المقاومة الوطنية المصرية ضد قوات الاحتلال البريطاني في مدن قناة السويس بدءاً من عام ١٩٥١ وفي الوقت الحالي فإن كل من حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وحركة الجهاد الإسلامي الفلسطينيتين وحزب الله اللبناني تعد الأكثر بروزاً وتمثيلاً لتلك النوعية من الحركات. وعلى خلاف الحركات الدينية الجهادية العنيفة المحلية، فإن تلك حركات التحرر الوطني المسلحة الإسلامية لا تشتبك في أي صراعات داخلية مسلحة مع خصومها السياسيين والفكريين في مجتمعاتها على الرغم من اختلافهم معهم في كثير من القضايا، وتقصر استخدام العنف المسلح ضد القوى الأجنبية التي تحتل بلادها وتسيطر على مقدراتها.

www.alkottob.com
Abu Nour

www.alkottob.com

Abu Nour

www.alkottob.com

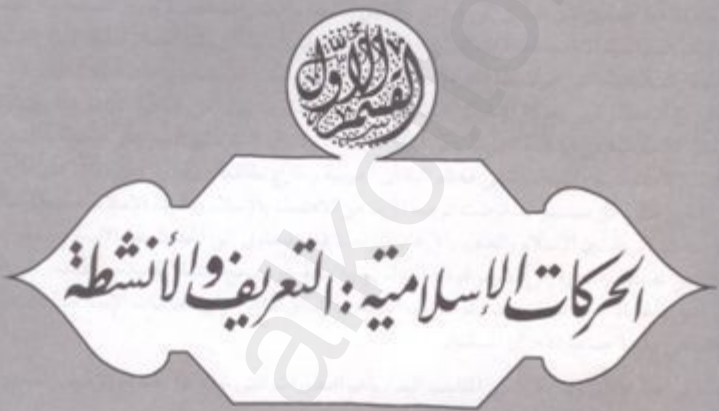

www.alkottob.com

١. الإخـــوان المسلمـــون في مـــصـــر

بهدف هذا الفصل من الدليل إلى عرض وتحليل أنشطة وأفكار جماعة الإخوان المسلمين - كنموذج للحركات السياسية الاجتماعية ذات البرنامج السياسي- على أن يشمل ذلك أيضا تحليلا لأبرز التطورات الحركية والتنظيمية التي مرت بها الحركة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر خاصة خلال عام ٢٠٠٢ . والواقع إن الاهتمام كبير بحركة الإخوان المسلمين، ولهذا الاهتمام ما يبرره من الناحية الموضوعية، فهي كبري الحركات الإسلامية في المنطقة العربية علي الأقل، وكانت ولاتزال ذات تأثير كبير علي مختلف المستويات الفكرية والاجتماعية والسياسية في معظم البلدان العربية وخارج نطاقها. وعلاوة علي ذلك، فإن المرحلة ما بعد الحادى عشر من سبتمبر قد فرضت توجيه المزيد من الاهتمام بالإسلام والحركة الإسلامية بشكل عام في ظل تصاعد الربط بين الإسلام والعنف والإرهاب وتصاعد الدعاوى إلى الحديث عن الإسلام كعدو بديل، فضلاً عن تصاعد الدعوة إلى تطوير نموذج للدولة الإسلامية يقوم بدمج التيار الإسلامى المعتدل في النظام السياسى والحياة السياسية، وقد ركزت تلك الدعاوى بشكل خاص على الحركات الإسلامية ذات الطابع الاجتماعى ومنها جماعة الإخوان المسلمين.

وفى هذا الإطار ربما يكون من المناسب البدء بأهم التطورات التى شهدتها جماعة الإخوان المسلمين بعد أحداث ١١ سبتمبر وخلال عام ٢٠٠٢ بشكل خاص.

أولا: اختيار المرشد الجديد

فجرت وفاة المرشد العام الخامس لجماعة الإخوان المسلمين الشيخ مصطفى مشهور (١٩٢١-٢٠٠٢) في ٢٠٠٢/١١/١٤ وضرورة وجود مرشد عام جديد العديد من القضايا المرتبطة بهيكل بناء القوة داخل الجماعة، ونمط الصراعات السياسية ومحدداتها بين نخبها المسيطرة علي مصادر القوة والنفوذ وآليات صنع القرار، ونمط الديمقراطية الداخلية، وغيرها من قضايا. وإذا كانت تلك القضايا أو الأزمات ذات طابع يتجدد مع اضطرار الجماعة لاختيار مرشد عام جديدا، إلا أن الظروف الراهنة التي تمر بها الجماعة، خاصة في علاقتها بالأوضاع المحلية والإقليمية، تشكل حالة فارقة يتحتم فيها علي الجماعة أن تواجه تحدي القيام بعملية اجتهاد حقيقي ليس فقط في مواقفها الفكرية والسياسية، بل القيام بمراجعة تمتد إلى بنيتها

www.alkottob.com
Abu Nour

التنظيمية وآليات عملها الداخلي، حيث يصبح مدى النجاح في مواجهة هذا التحدي محدداً لسيناريوهات مستقبل الجماعة وقدرتها علي الاستمرار والفعل السياسي، وهي السيناريوهات التي يمكن تحديد ملامحها بالكشف عن طبيعة النخبة السياسية المتحكمة في مصادر القوة والنفوذ، وطبيعة التوازنات الحالية الحاكمة للصراعات بداخلها، والتي يمكن معرفتها عبر العودة إلى البدايات والسياق التاريخي والسياسي الذي ظهرت ونمت فيه الجماعة كقوة سياسية ذات تأثير(١).

في ظل ذلك المناخ جاء غياب المرشد العام الخامس للجماعة ليشكل لحظة مهمة كشفت عن حقيقة ما يمر به الإخوان في مصر من تطورات وتفاعلات داخلية عميقة. وللحديث عن طبيعة تلك التطورات والتفاعلات الداخلية يجب أن نضع في الاعتبار نقطتين رئيسيتين الأولي: هي أننا بصدد جماعة سياسية اجتماعية ذات برنامج إسلامي عام، لا تختلف في طبيعتها أو تكوينها العام عن غيرها من الجماعات المماثلة من اليمين أو اليسار أو الوسط سوي في مضمون برنامجها. وبالتالي فمن الطبيعي أن تتعرض - كغيرها من الجماعات المماثلة - لعديد من التطورات والتفاعلات الداخلية التي قد تصل أحيانا إلى درجة الخلافات متعددة المستويات والمظاهر. ومن ناحية ثانية، من الضروري عند تحليل تلك التطورات والتفاعلات بداخل الإخوان المسلمين، الانتباه إلى مدي تأثير السياقات المحيطة بها عليها، سواء كانت محلية مصرية أو إقليمية أو عالمية، على ألا يقتصر النظر إلى تلك السياقات في حالتها الراهنة الثابتة، بل يمتد إلى تطورها عبر المراحل التاريخية السابقة التي أفضت في النهاية إلى صورتها الحالية(٢).

وحول اختيار مرشد جديد بعد وفاة المرشد العام الخامس الشيخ مصطفي مشهور، فقد قرر المستشار مأمون الهضيبي نائب المرشد العام حينذاك، تنفيذ اللائحة والتي تقضي بتولي نائب المرشد أعمال المرشد العام في حالة المرض المستعصي أو الخرف الذي يؤدي إلى فقدان الذاكرة، وفي الحالتين تحجر الجماعة علي المرشد، ويعين مرشد جديد يتولي الأمور(٣). إلا أن ذلك القرار وبدء عملية اختيار مرشد جديد للجماعة أثار ما أسمته بعض وسائل الإعلام المصرية: "غليان خفي في صفوف جماعة الإخوان المسلمين"، حيث أشارت إلى أن بعض الإخوان قد رأى أن مجيء الهضيبي سيفتت مستقبل الجماعة علي اعتبار أنه شخصية لا تقبل الرأي الآخر، على نحو ما كشفت عنه خبرة تعامله مع جماعة حزب الوسط، وموقفه من قيادات مكتب جنوب القاهرة وعلي رأسهم أحمد أبو الفتوح بعد أول مناقشة له مع الهضيبي، مما حدا بهم تقديم استقالتهم. إلا أن وسائل الإعلام نفسها أبرزت تفسير مصادر إخوانية أخرى للحالة السلطوية التي يمارسها الهضيبي باعتبارها نتيجة لعدة أسباب، جاءت لصالحه، أهمها: التضييقات الأمنية وحرص الجماعة علي الحفاظ علي استقرارها وتجنب الانقسامات الداخلية، ولاسيما بعد ظهور جيل من شباب الإخوان (التيار التجديدي) الذي يطالب بضرورة إجراء مراجعات فكرية للإخوان(٤). ورأت وسائل إعلام مصرية أخرى أن الصراع علي منصب المرشد العام يكاد أن يعصف بالجماعة، وأنه كشف الغطاء عن جديد عن خلافات موجودة في الجماعة بالفعل منذ فترة، وأن الصراع حول خلافة المرشد العام ليس وليد اليوم ولكنه يدور منذ فترة طويلة. وحسب تلك الوسائل الإعلامية المصرية، فإن سيطرة الهضيبي على مقاليد الجماعة وتراجع سلطات المرشد الراحل أثناء حياته، بما في ذلك البيانات والتصريحات التي كانت تصدر باسمه والتي كان الأول يعدها باعتباره المتحدث الرسمي باسم الجماعة، كانت أبرز أسباب تلك الخلافات(٥).

إلا أنه بعيداً عن تقديرات وسائل الإعلام، فإن دراسات علمية ترى أن جذور الصراع داخل جماعة الإخوان المسلمين تعود إلى ما يسميه بعضها: "التناقض الجيلي" داخل صفوف الجماعة بين الجيل الأول صاحب الشرعية التاريخية والمسيطر علي قيادة الجماعة - ممثلة في مرشدها العام ومكتب الإرشاد ومجلس الشورى، وبين الجيل الثاني صاحب الشرعية الواقعية، والذي بدأت خبرته مع الجماعة في النصف الثاني من السبعينيات بالجامعات المصرية، حيث كونوا حركة سياسية طلابية واسعة معارضة لسياسات الرئيس

www.alkottob.com
Abu Nour

أنه فيما يتعلق باختيار نواب المرشد والمتحدث الرسمي باسم الجماعة، فإنه وفقا للائحة يقع اختيار هؤلاء ضمن اختصاصات المرشد العام للجماعة، حيث هو الذي يقوم باختيار معاونيه(٨). وقد أكد اختيار الهضيبي (٨٣ عاما) لمنصب المرشد العام، وهو الذي كان يشغل منصب نائب المرشد العام منذ عام ١٩٩٦، استمرار الحرس القديم أو الجيل الأول في تولي القيادة داخل الجماعة. إلا أنه بالرغم من ذلك وبالرغم من نفي قيادات ذلك الجيل - وفي مقدمتها الهضيبي نفسه- وجود أي خلاف أو صراع سواء داخل الجماعة أو حول اختيار المرشد العام الجديد، فإن الحقائق والواقع يؤكدان وجود خلافات وصراعات داخل الجماعة ولاسيما بعد غياب عدد كبير من القيادات التاريخية - بحكم السن - وبزوغ شباب جدد في سماء الجماعة.

وقد تأكد هذا الواقع من جديد مع وفاة المرشد محمد مأمون الهضيبي في ٢٠٠٤/١/٨ وتولي الأستاذ محمد مهدي عاكف قيادة الجماعة في ٢٠٠٤/١/١٤، وهو ما أكد من جديد استمرار الحرس القديم، إذ يعد محمد مهدي عاكف من مواليد ١٩٢٨/٧/١٢ وهو نفس العام الذي تأسست فيه جماعة الإخوان المسلمين في مصر.

ولعل الحديث عن وفاة المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين واختيار مرشد جديد والصراع والخلاف اللذان دارا حول هذه المسألة يثيران تساؤلات مهمة: هل ثمة أزمة قيادية لدي جماعة الإخوان المسلمين؟ وهل اختيار مرشد عام جديد خلفا للمرشد السابق هو الذي أثار كل هذه الزوبعة من الصراعات والخلافات داخل الجماعة؟ واقع الأمر أن موضوع القيادة ظل هو الهم الأهم لحركة الإخوان المسلمين على مر العقود الماضية، وبعد أعظم نقطة ضعف في بناء الحركة وأدائها. ويتفق عديد من الخبراء المعنيين بمسيرة الحركة علي أنها تعاني من مشكلات جدية في بنائها القيادي، وأن لهذه المشكلات تأثيرا كبيرا علي حاضر الجماعة ومستقبلها. فلقد نشأت أغلب الجماعات القطرية لحركة الإخوان المسلمين متمحورة حول شخص واحد، ثم وجدت نفسها أمام أحد خيارين بعد رحيله: إما الجمود علي أساليب القائد المؤسس ورؤاه رغم تبدل الظروف والأحوال، وإما التمزق والانقطاع في المسيرة، وهذا أمر طبيعي، فأي تنظيم يقوده شخص واحد لابد من حدوث قطيعة في مسيرته بعد غياب ذلك الشخص. وقد لاحظ ذلك أحد هؤلاء الخبراء الباحثين عندما حدث انقطاع في مسيرة الإخوان بمصر بعد اغتيال حسن البنا، حيث ظلت الجماعة بدون قيادة ما بين مقتل البنا في ١٩٤٩/٢/١٢ حتى ١٩٥١/١٠/١٩ عندما تسلم حسن الهضيبي القيادة، أي أن الإخوان ظلوا بدون قيادة لمدة تقارب الثلاث سنوات(٩). كما رصد باحث خبير بحركة الإخوان هذه الظاهرة وأوضح الارتباط بين صفة "الرشد" وشخص "المرشد" في حركة الإخوان التي بنت أمرها من أول يوم علي مواهب الشخص لا علي اطراد المؤسسة(١٠).

ولكي يتضح أبعاد المأزق القيادي لدي حركة الإخوان المسلمين نلقي نظرة سريعة علي وثيقتين مهمتين أطرتا البناء التنظيمي والقيادي للإخوان حقبة من الزمان، ولا تزال أغلب موادهما سارية المفعول إلى يومنا هذا، وهما: "النظام الأساسي لحركة الإخوان المسلمين" في مصر الصادر عن جمعيتها العمومية بتاريخ ١٩٤٥/٩/٨ والمعدل في ١٩٤٨/١/٣، و"النظام العام للإخوان المسلمين" الصادر في ١٩٨٢/٧/٢٩، وهو دستور التنظيم الدولي للإخوان المسلمين(١١). إن تصفح هاتين الوثيقتين يكشف عن خلل خطير في البنية القيادية للإخوان في مصر، حيث الإخلال بمبدأ الشرعية القيادية منذ البداية والذي يقضي بأن يكون أعضاء الحركة هم أصحاب القرار الأخير في اختيار قادتها، لكن الموقع الذي احتلته الهيئة التأسيسية للإخوان في مصر في بناء الحركة يتنكر لهذه الحقيقة. فقد نصت المادة (٣٤) من النظام الأساسي على أن الهيئة التأسيسية "تعتبر مجلس الشورى العام للإخوان المسلمين، والجمعية العمومية لمكتب الإرشاد" وهي أعلى سلطة تنفيذية في الحركة، ومنحتها المادة التاسعة منه صلاحية انتخاب المرشد العام، مع اشتراط المادة (١٩) من النظام الأساسي أن يكون المرشد وأعضاء مكتب الإرشاد المنتخبون من ضمن أعضاء الهيئة التأسيسية ذاتها.

www.alkottob.com
Abu Nour

لكن الغريب أن أيا من النظام الأساسي أو اللائحة الداخلية لم يشر إلى أي نوع من الانتخاب أو التجديد الانتخابي تخضع له الهيئة التأسيسية، وكل ما ذكر هو ما ورد في المادة (٣٣) من النظام الأساسي من أن الهيئة التأسيسية تتألف من الإخوان الذين سبقوا بالعمل لهذه الدعوة. فمن الذي يختار هؤلاء؟ وما هو معيار الاختيار؟ وهكذا، فقد سكت النص عن مصدر الشرعية القيادية التي تمتعت بها أعلى هيئة دستورية في الحركة، والسبب هو أن الشيخ حسن البنا هو الذي اختار بنفسه أعضاء الهيئة التأسيسية(١٢). وقد منحت المادة (١١) من النظام العام مجلس شوري الإخوان صلاحية انتخاب المرشد العام، كما أعطي النظام الأساسي هذه الصلاحية للهيئة التأسيسية من قبل. لكن الإشكال ظل دائما يكمن فيمن ينتخب المنتخبين؟ بما يعني تجاهل حق القواعد العامة في اختيار القيادة أصالة أو نيابة، واحتكار ثلة قليلة لذلك الحق بمجرد الهيبة التاريخية والسبق الزمني(١٣).

كما نصت المادة (١٧) من النظام الأساسي علي أن "يقوم المرشد العام بمهمته مدي الحياة، ما لم يطرأ سبب يدعو إلى تخليه عنها". وورد ذلك أيضا في النظام العام الذي ينص في المادة (١٣) علي أن المرشد "يبقي في مسئوليته ما دام أهلا لذلك"، وهي صياغة أكثر دبلوماسية من سابقتها بعدما كثر اللغط حول هذا الأمر، لكنها لا تأتي بجديد من الناحية القانونية، فهي تعني عمليا بقاء المرشد في منصبه مدي الحياة. ورغم أن النظام العام نص في المادتين (٢٢) و(٣٠) علي أن مدة ولاية كل من مكتب الإرشاد العام ومجلس الشورى العام أربع سنوات هجرية، فإنه لم يحدد فترة زمنية لولاية المرشد العام، وكأن استمرار الشخص أهم من استمرار المؤسسات(١٤). كذلك فإن صلاحيات المرشد العام بصعب حصرها: فهو الرئيس الأعلى للهيئة، كما أنه رئيس مكتب الإرشاد العام والهيئة التأسيسية حسب المادة (١٠) من النظام الأساسي، ومن حقه نقض قرارات لجنة التحقيق والجزاء، وتوقيف أعضاء الهيئة التأسيسية بحسب نص المادتين (٣٧) و(٣٩) علي الترتيب.

أما فيما يتعلق بشروط اختيار المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين فقد اشترطت المادة (١٣) من النظام العام شروطا فيمن يمكن أن يكون مرشدا عاما للتنظيم الدولي، بعد شرط المصرية - أو القرشية الجديدة كما دعاها البعض - أجملتها في ثلاثة شروط، هي: ألا يقل عمره عن ٤٠ سنة هلالية، وأن يكون قد مضي علي انتظامه في الجماعة أخا عاملا مدة لا تقل عن ١٥ سنة هلالية، وأن تتوفر فيه الصفات العلمية - خاصة فقه الشريعة- والصفات العملية والخلقية التي تؤهله لقيادة الجماعة(١٥). ويتضح من ذلك أن الإخوان أعطوا عنصر السبق الزمني أولوية علي عنصر الكفاءة القيادية؛ مما أورث الحركة تصلبا داخليا وجمودا واضحا بعد رحيل الإمام المؤسس وشيخوخة الجيل الرائد، وهو أمر حتمي في كل تنظيم يغفل الشرعية والمرونة الداخلية في بنائه.

وفي هذا السياق يري الأستاذ فريد عبد الخالق - وهو من رواد حركة الإخوان المسلمين وتلامذة حسن البنا وكان عضوا في كل من الهيئة التأسيسية ومكتب الإرشاد العام لكنه تخلي عن الحركة منذ تولي عمر التلمساني قيادة الحركة عام ١٩٧٦- أن الممارسات بين الإخوان أو داخل الجماعة يجب أن تكون أكثر تمتعا بحرية الفكر والشورى مما كان متاحا. ويضيف أن من الأفكار التي اعتنقها أن يتم تحديد مدة زمنية للمرشد ولتكن ست سنوات تجدد مرة واحدة. ويفسر الأستاذ فريد عبد الخالق أزمة القيادة داخل الإخوان المسلمين تفسيرا فكريا، حيث يري أن سببها العميق يرجع إلى الخلط بين "مبررات النشوء" و"مبررات الاستمرار" في الجماعة، بمعني أن حسن البنا كان أحوج إلى من يقدر جهده ويبني عليه، أكثر من حاجته إلى من يقدسه ويتوقف عنده. لكن هذا الاتجاه الأخير هو الذي ساد لدي حركة الإخوان المسلمين (في مصر) ومن نحا نحوها من الإسلاميين في البلدان الأخرى. ويضيف عبد الخالق موضحاً تفسيره لأزمة القيادة في الجماعة: أنه حتى لو افترضنا أن جهود حسن البنا لا تشتمل علي ثغرات وجوانب قصور، فإن كثيرا مما يصلح لزمانه لا يصلح

www.alkottob.com
Abu Nour

للأزمنة التالية، لأنه ينتمي إلى طور نشوء الحركة لا إلى طور استمرارها(١٦). والجدير بالذكر هنا أن قضية خلافة المرشد الراحل مصطفى مشهور كانت مناسبة تحدث خلالها بعض قيادات الإخوان عن تغييرات إجرائية في اختيار المرشد العام، على الرغم من أن شيئاً من تلك التغييرات لم ينص عليه ولم ينشر في أي وثيقة رسمية للحركة حتى الآن. ومن أهم الأفكار قيد الحديث تحديد فترة ولاية المرشد العام بست سنوات قابلة للتجديد عددا من المرات غير محصور. وعلى الرغم من أن هذا التطور لا يتضمن تغييرا في البنية القيادية لحركة الإخوان المسلمين، إلا أن من شأنه - إذا تم - أن يضع قيداً ولو شكلياً ونظرياً على مبدأ بقاء المرشد العام للجماعة في منصبه مدى الحياة بدون إعادة انتخابه.

ثانيا: التيار التجديدي وحركة الإخوان المسلمين

منذ أواخر عقد الثمانينيات وبداية عقد التسعينيات، والحركة الإسلامية المعاصرة تشهد في معظمها مراجعات داخلية نقدية واسعة، وتأملات عميقة، وإعمالا للنقد والنقد الذاتي بصورة تكاد تكون شاملة، شملت الأساليب والاستراتيجيات والمفاهيم والأفكار، وكأنها - أي الحركة الإسلامية- تتطلع إلى صياغة جديدة حديثة في بنيتها الحركية ومشروعها الإسلامي السياسي الحضاري، تخرجها من أزمة الحركة الإسلامية التقليدية ومن جمود الفكر الإسلامي التقليدي وركوده. بيد أن الحركة الإسلامية تتعرض اليوم - كأي ظاهرة سياسية واجتماعية - لمجموعة من الصعوبات والتحديات التي تواجه مشروعها السياسي الإصلاحي والتغييري. وتتبع هذه التحديات الأساسية من مستويات ثلاثة متفاعلة:

المستوى الأول: تحديات البيئة الدولية والإقليمية، ومنها:

١- تحدي الخضوع للهيمنة الأمريكية والغربية: أضحى هذا التحدي واضحا، بحيث غدا من المتفق عليه بين غالبية الباحثين أن معظم جوانب القرار الاستراتيجي العربي والإسلامي تحدده الولايات المتحدة الأمريكية في معظم القضايا المصيرية والقضايا الأساسية (قضية الصراع العربي - الإسرائيلي مثال بارز). كما أن ملف الحركة الإسلامية واستراتيجية التعامل معها يعد أحد هذه الملفات الأساسية المدرجة في علاقة معظم الأنظمة مع الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبرها إجمالا من أقوى التهديدات للهيمنة والمصالح الأمريكية في المنطقة. ومن ثم يصبح التساؤل المهم هل تمتلك الحركة الإسلامية رؤية لكيفية التعامل مع هذا التحدي الذي لم يعد خارجيا في معظم الأقطار، وصار يشكل معظم السياسات الداخلية تجاه الحركة؟

٢- تحدي التسوية مع الدولة العبرية: تمتلك إسرائيل رؤية استراتيجية ثابتة للتعامل مع قضايا المنطقة، وهي تدرك على نحو واضح أن أحد أعدائها الرئيسيين هي الحركة الإسلامية ذات الامتداد الشعبي، والذي يطالع مقررات قمة شرم الشيخ وما كتبه وزير الخارجية شيمون بيريز، يجد ذلك ماثلا بوضوح، حيث يعتبر الحركة الإسلامية التي يصفها بالإرهابية والأصولية هي "العدو المشترك" لإسرائيل والأنظمة الحاكمة في المنطقة. ولعل بعض ممارسات السلطة الفلسطينية مع حركتي حماس والجهاد الإسلامي، عبر ما يسمى بالتنسيق الأمني مع الأجهزة الإسرائيلية من الأمثلة الواضحة في هذا الصدد.

٣- تحدي علاقة الأنظمة بالحركة الإسلامية: تعتبر غالبية الأنظمة السياسية الحاكمة الحركة الإسلامية النقيض الأساسي والمنافس الرئيسي لها في الوقت الحالي، ولذلك فإن وجودها الاجتماعي والسياسي يتراوح بين "الحظر القانوني" و"السماح الفعلي المحسوب". وتعتبر الأداة الأمنية في غالب الأحيان هي أداة التعامل الرئيسية معها، عبر حصار أمني تتمثل مفرداته في عمليات القبض والاعتقال والإجهاض وشل الفاعلية(١٧).

www.alkottob.com

المستوى الثاني: تحديات السياق المجتمعي الذي تعمل فيه الحركة، ومنها:

١- شعبية الحركة الإسلامية: لم يثبت بشكل علمي حتى الآن مدي قناعة قطاعات الرأي العام في مختلف الدول العربية والإسلامية بأن الحركة الإسلامية وما تقدمه هي البديل المطلوب للاستجابة لمتطلبات الإصلاح والتغيير. وتدل المؤشرات المتوافرة بهذا الصدد من خلال العمليات الانتخابية بمختلف أنواعها ومستوياتها حتى الآن على أن الحركة تحوز في أحسن الأحوال وفق بعض التقديرات (٢٠-٢٥٪) من تعاطف قطاعات مجتمعات تلك الدول. وعلي أي حال لا يمكن أن يتم الإصلاح أو التغيير علي أساس الاهتمام والتعاطف فقط، فإلى أي مدي تدارست الحركة الإسلامية شعبيتها في الوقت الحالي؟ وهل هي القوة الشعبية الحقيقية أم أنها القوة الأكثر تنظيما وانضباطا؟ تظل أسئلة مهمة تحتاج إلى إجابات محددة.

٢- الدور القيادي أو القائد في المجتمع: قدمت الحركة الإسلامية نفسها باعتبارها قيادة للإصلاح وللتغيير في مجتمعاتها وفق شعارات عامة. وقد بدأت الظاهرة تتبلور في العقدين الأخيرين التي جربت الحركة خلالهما ذلك لو جزئيا عبر درجات مختلفة من المشاركة، لم تنجح الحركة خلالها في تقديم نماذج واقعية حقيقية للإصلاح والتغيير المأمول. وحتى الحالات التي قدمت باعتبارها نماذج لنجاحات الحركة الإسلامية علي مستوي الدولة مثل أفغانستان والسودان (في المراحل الأولى من نشأتها) وإيران فإن الخلافات والصراعات والتراجعات الحالية التي تعانيها لا تحتاج إلى توضيح أو بيان. وبالنسبة للحركة الإسلامية المشاركة في العمل السياسي، فإن المدى المتحقق من ورائها علي صعيد العمل الإصلاحي والتغييري ضعيف.

المستوى الثالث: تحديات من داخل الحركة الإسلامية نفسها، ومنها:

١- "الرؤية والمشروع": تحتاج الحركة الإسلامية إلى رؤية منهجية واضحة ومحددة للتعامل مع السلطة السياسية الحاكمة والمجتمع المحكوم، وإلى مشروع سياسي إصلاحي أو تغييري، وبالتالي يجب التمييز بين المشروع السياسي المتكامل من ناحية والبرامج الانتخابية التي تحوزها الحركة في معظم الأقطار التي مارست فيها العمل السياسي والنقابي، من ناحية أخرى. ولذلك ينبغي أن تعترف الحركة بأنها لم تقدم مشروعا سياسيا متكاملا للإصلاح والتغيير علي المستوي العالمي أو القطري، ولا يعني ذلك أنه ليس هناك أفكار عامة حول الرؤية السياسية معظمها مستمدة من تراث الحركة، لكنها في حاجة إلى مراجعة. والخلاصة أن الحركة الإسلامية بإجمال لم تضع مشروعها الإصلاحي والتغييري السياسي بلغة محددة وواضحة صالحة للاستجابة للتحديات التي تعيشها في الوقت الراهن(١٨).

٢- القيادة: إن معظم قيادات الحركة الإسلامية تنتمي إلى الجيل المؤسس، ولم تنقل القيادة بعد إلى أجيال أخرى حتى يتم اختبار مدي مؤسسية الحركة وتداول السلطة بداخلها. كما أن غالبية القيادات وصلت إلى مواقعها وتستمر فيها بطرق لا تتضح فيها الشورى الحقيقية، وبالتالي فإن هناك تساؤلات بصدد التحول من نمط "القيادة" إلى "الرئاسة" ومن الشرعية المستندة إلى "الخبرة التاريخية" إلى الشرعية المرتبطة بـ "الإنجاز الفعلي" والالتزام ببناء مؤسسات شورى حقيقية.

٣- تناقض الرؤى بصدد الأهداف وأساليب الإصلاح والتغيير: ظاهرة الأجيال هي ظاهرة طبيعية تعرفها كل المجتمعات والجماعات البشرية، ومنها بالطبع الحركات الإسلامية كتيار مجتمعي، لكن الأزمة هنا لا تتعلق بوجود الأجيال من عدمه، بل بطبيعة العلاقة بين تلك الأجيال فالمشكلة لا تتعلق بوجود "صراع جيلي" داخل الحركة علي القيادة أو خلافه، ولكن الإشكالية تكمن في أن هذه الأجيال تحمل ما هو أكثر

www.alkottob.com

خطورة على مستقبل الحركة ذاتها، وهو مجموعة التصورات المختلفة والرؤى المتناقضة وغير المتناسقة عن ملامح الإصلاح والتغيير وعلاقة الحركة بالدولة والمجتمع.. إلخ(١٩).

في ظل تلك التحديات وفي الدائرة الأوسع من الإخوان المسلمين، أي الحركة الإسلامية عموماً، ظهرت محاولات تجديدية للنهوض بالفكر والعمل الإسلامي نحو أفاق حضارية أوسع، وصياغة منهجية جديدة يقوم عليها ذلك التجديد أقرب إلى النسبية من الإطلاقية، وإلى الواقعية من المثالية، وإلى الوسطية من التطرف. وعن هذه المنهجية بهذه الملامح يقول حسن الترابي أحد مقترحيها وصائغيها، وهو يتحدث عن تجربة الحركة الإسلامية في السودان : "نحن بعد الوقوف عند المطلقات والمجردات والعموميات والعالميات في دعوة الحركة وفكرها، تطور بها الأمر نحو الواقعية، فالتطور المطرد في وظائف الحركة نحو التحامها بشأن المجتمع تطور بها من الهموم الخاصة إلى هموم المجتمع"(٢٠). كذلك ففي مصر كانت هناك محاولة لبلورة تصور في العمل الإسلامي وصياغته، التقى عليه نحو مائة وخمسين شخصا من المثقفين الإسلاميين، وكان عنوانه "نحو تيار إسلامي جديد". ومما جاء في هذا التصور" إن كثيراً من الداعين إلى الإسلام والمتحدثين عن مبادئه وقيمه ونظمه وثقافته، يتحدثون في عبارات عامة وغامضة عما يسمونه "الحل الإسلامي" وعن منهج الله مقابل المناهج البشرية، وعن الحاجة إلى أسلمة الحياة، وأسلمة المعرفة، وأسلمة العلوم. ثم لا يزيدون ولا يعرضون على الناس عناصر هذا المنهج ومكونات ذلك الحل ووسائل وضعه موضع التنفيذ (٢١).

ويمكن القول إن وقفات المراجعة والتقويم داخل أغلب الحركات الإسلامية لمسارات العمل وخططه واستراتيجياته، جاءت في مرحلتين رئيسيتين: الأولى هي مرحلة بداية الثمانينات، حيث النهوض الإسلامي الواسع والكبير في مختلف البلاد العربية، فكان التقويم الداخلي للحركة الإسلامية هو مواكبة النهوض الإسلامي بتصعيد وتيرة العمل والانتقال من مرحلة الدعوة والتبليغ والتثقيف إلى المرحلة السياسية. أما المرحلة الثانية فكانت مع أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات حين اكتشفت بعض الحركات الإسلامية أنها لم تكن دقيقة في حساباتها السياسية والاستراتيجية خلال المرحلة السابقة، إذ عاد الضرر كبيرا على هذه الحركات وتلقت صدمات وضربات لم تكن مستعدة لها أدت في بعض الحالات إلى حدوث شرخ عميق داخل الحركات الإسلامية. وقد انصرف التقويم في هذه المرحلة إلى النظر في كل ذلك وأكثر، وقد أفضت هذه المراجعات إلى تقبل متغيرات وتحولات ذاتية وموضوعية عند العديد من الحركات الإسلامية، هذا في الجانب السياسي.

أما في الجانب الفكري، وفي النصف الثاني من حقبة الثمانينيات فقد كان هناك تطور ملحوظ في الدراسات والأبحاث النقدية للحركة الإسلامية بعد أن كانت غائبة أو نادرة جدا، إذ ركزت الكتابات الخاصة بظاهرة الحركات الإسلامية في معظمها على مدح تلك الحركات أكثر من نقدها ومحاولة ترشيدها (٢٢). ومن الدراسات النقدية من الداخل الإسلامي كتاب "في النقد الذاتي: ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية" لخالص الجبلي (١٩٨٥)، و"الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف" ليوسف القرضاوي (١٩٨٢)، و"أزمة الوعي الديني" لفهمي هويدي (١٩٨٨)، و"الحركة الإسلامية في الدوامة: حوار حول فكر سيد قطب" لصلاح الدين الجورشي (١٩٨٥)، و"الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية – أوراق في النقد الذاتي" تحرير وتقديم عبد الله النفيسي (١٩٨٩)، هذا بالإضافة إلى أغلب كتابات محمد الغزالي الأخيرة مثل "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" (١٩٩٠)، و"تراثنا الفكري بين ميزان الشرع والعقل". بالإضافة إلى عدد من الثروات المهمة مثل ندوة "الحوار القومي – الديني" (٢٣) التي شكلت حدثا فكريا مميزا ضاعف من حيوية التغيير والتحول، كانفتاح بعض التيارات السياسية على التيارات الإسلامية واقترابها من بعضها البعض إلى درجة التعاون والتنسيق، وانفتاح بعض الأنظمة السياسية على الحركات الإسلامية، فضلا عن المتغيرات العالمية الكبرى التي غيرت من المقاييس ومنهجيات التفكير لدى الجميع.

www.alkottob.com

أما بداخل حركة الإخوان المسلمين، ورغم كل التحديات السابق الإشارة إليها، ورغم ما عرفته الحركة طوال تاريخها الممتد لأكثر من ثلاثة أرباع القرن العديد من المحاولات التجديدية سواء على الصعيد السياسي أو الفكري، إلا أن تلك المحاولات لم تصل في أية مرحلة إلى حد التجديد الشامل والجذري لفكر الجماعة ومنهج حركتها حسب رأي غالبية المراقبين لأحوالها ونسبة مهمة من المنخرطين فيها. ويعزو بعض المحللين عدم قيام الجماعة - أو عدم قدرتها - على إجراء مراجعات جذرية شاملة لأفكارها وأساليب حركتها إلى الظروف المحيطة بها، وهي ظروف غير طبيعية، أصبحت الحركة بمقتضاها في وضع لا يعرف مثله عن سواها، ما بين السجون دون اتهام والعمل دون ترخيص، وغيرها من ظروف تتسم بالصعوبة. ومن الناحية التاريخية فقد بدأت حركة الإخوان المسلمين مراجعاتها الجدية بمراجعة فكر سيد قطب الذي كان له التأثير في العشرية السابقة، بما حمله من تركيز على المسألة العقيدية وإهمال يكاد يكون كاملا لمسألة الديمقراطية والحريات العامة. فقد ركز فكر سيد قطب على قيم العزلة والجاهلية والتمييز والمفاصلة، فكان من الطبيعي أن يصنع حركة لا تقدر على تطوير المجتمع، بل تتجه إلى التصادم معه والانعزال عنه. وقد سعى الإخوان إلى مواجهة تلك الأفكار بداية بإصدار كتاب "دعاة لا قضاة" الذي حمل اسم مرشدهم الثاني المستشار حسن الهضيبي، والذي ميزوا فيه بوضوح وحسم بين أفكارهم وأفكار سيد قطب التي خرجت في غالبيتها الساحقة عن مدرسة الإخوان المسلمين السياسية لتؤسس مدرسة الفكر الإسلامي الديني الجهادي الحديثة. وقد شهدت الثمانينيات والتسعينيات محاولات تجديدية بين صفوف الإخوان المسلمين، خاصة بين صفوف الجيل الوسيط، انصبت على مسائل الديمقراطية ونظام الحكم والعلاقة بالقوى السياسية الأخرى في مصر ووضعية الأقباط في المجتمع والدولة وأوضاع المرأة.

وقد ظلت الحركة بذلك تعرف دوماً أصواتاً تدعو للتجديد والمراجعة تبلورت أحياناً لتأخذ شكل "الأجنحة" داخل الحركة وهو الوضع الذي يمكن ملاحظة وجوده داخل الجماعة في المرحلة الحالية. وبصفة عامة، فقد ظلت المطالب الرئيسية لمطالب أجنحة التجديد بداخل الجماعة على الدوام وما تزال هي المحاور التي تؤكد على المواقف التاريخية التقليدية لحركة الإخوان المسلمين، وفي مقدمتها أنها جماعة من المسلمين وليست جماعة المسلمين، وضرورة وجود قنوات داخلية للحوار، وضبط العلاقة مع السلطات، والآليات الإدارية والقيادية. وخلال المرحلة الحالية، يلاحظ أنه على الرغم من أنه لا يوجد مبدئياً في صفوف الحركة من يرفض تلك الأفكار، إلا أنه يبدو أن المخاوف التقليدية لدى قيادة الحركة في ضوء تجاربها الحافلة بالمحن من جهة، وأساليب الطرح المتبعة للمطالبة بالتجديد والإصلاح بعد أن خرجت من الإطار الداخلي للحركة إلى الإطار العلني من جهة أخرى، قد زاد من حجم المسافة الفاصلة بين الجانبين إلى درجة تنذر باحتمال تصاعد الخلافات حول بعض تلك القضايا بصورة خطيرة قد تهدد وحدة الجماعة وتماسكها الداخليين.

ومن المبادرات التجديدية التي ظهرت مؤخراً داخل الجماعة ما طرحه الدكتور عصام العريان، أحد قياديها البارزين من الجيل الوسيط والعضو السابق بمجلس الشعب عنها، من أن الجماعة بحاجة إلى مراجعة خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر، وهو ما يقترح عمله عبر أربعة أطر للمراجعة هي:

تربويا: حيث تحتاج الجماعة حسب رأيه إلى أن التخلص من فكرة تغليب الجانب التنظيمي على الجانب الدعوي نتيجة للضغوط الأمنية، كما تحتاج إلى الاعتراف بوجود الآخر بكافة تنويعاته، والاستعداد لتفهمه والتفاهم معه، وأن تستمع إليه وتسمعه وتحترم اختلافه معها. ويعزو الدكتور العريان السبب في هذه المراجعة إلى أن المناهج التربوية داخل الجماعة لا تعود إلى عهود الحرية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، ولكنها تعود إلى عهود المحن شديدة القسوة على الإخوان والتي خلقت داخلهم تصورا خاصا للآخر، وهو ما جعل هذه المناهج التربوية تنظر للآخر على أنه ذلك الذي يريد سحقهم وقتلهم وإنهاء وجودهم.

www.alkottob.com
Abu Nour

دعويا: يرى القائد الإخواني أن الجماعة تحتاج خطاباً داخلياً أكثر تسامحا بين أفرادها، منتقداً في ذلك ما يرى أنه آفة انتقلت إليها نتيجة غلبة الفكر السلفي في فترة السبعينيات والثمانينيات، وهي آفة التشدد والغلو والأخذ بالأصعب في أمور الفقه. من هنا وحسب الدكتور العريان، فالخطاب الدعوي - للإخوان المسلمين - يحتاج إلى كثير من التسامح حتى يأخذ الناس بالرفق.

سياسيا: يعتقد الدكتور العريان أن الأوان قد آن لتطوير برامج الإخوان المسلمين وخطط عملهم لاعتماد المصالحة مع النظام الحاكم والمشاركة مع القوي السياسية، وهذا شرط أساسي للإصلاح، فلا يمكن أن يتم أي إصلاح دون تحقيق نوع من الهدوء في العلاقة بين الإخوان والنظم الحاكمة. وعن كيفية إبرام المصالحة مع النظام ووسائل تلك المصالحة يرى العريان أن الوسائل مطروحة للتفكير فيها بعمق، ومنها على سبيل المثال دعوة النظام الحاكم في مصر، بعد أن أعلن في بداية التسعينيات أنه ليس على استعداد لتكرار تجربة الجزائر في مصر، إلى دراسة تجربة المغرب، الذي يتمتع باستقرار سياسي واستطاع أن يستوعب التيار الإسلامي وأن يحيد التيارات الأخرى الرافضة للأوضاع "كالعدل والإحسان"، مع الاعتراف بالطبع بأن مصر لها خصوصيتها.

وأخيراً **اجتماعيا**: وعلى هذا الصعيد يعتقد العريان أن الاهتمام بالأمراض الاجتماعية التي تنتشر داخل المجتمع وتهدده يجب أن تحظى بعناية شديدة من الإخوان، ليس فقط على صعيد التأمل والدراسة، وإنما أيضا على صعيد العلاج. حيث يرى أنه ليس هناك معنى لأن تكسب الجماعة سياسيا في مجتمع يتآكل وينفسخ وينهار، وبالتالي يجب عليها الاهتمام بالمشاكل الأخلاقية والاجتماعية بمختلف أنواعها، إلى جانب مشاكل الإدمان والتطرف. فالإخوان - كما يتصور - وبرغم كل ما يحدث لهم وما يتعرضون له من ضغوط يجب أن يعطوا جهدا خالصا لمعالجة هذه المشكلات وتقديم حلول عملية لها(٢٤).

كذلك فقد برزت في نفس التوقيت تقريباً مبادرة تجديدية أخرى طرحها قيادي ثان من الجيل الوسيط هو مختار نوح، أمين الصندوق السابق لنقابة المحامين المصريين والعضو السابق بمجلس الشعب عن الجماعة، فور خروجه من السجن بعد قضاء ثلاث سنوات. وتهدف المبادرة - كما أعلن في تصريحات لشبكة إسلام أون لاين - إلى تنقية الأجواء بين النظام المصري والإخوان ونزع فتيل الأزمة بينهما(٢٥). وحسب نوح، فالأزمة بين الإخوان والدولة تتلخص في وجود "رسائل زائفة" بين الطرفين، فالحكومة لديها رسالة مفادها أن الإخوان "طلاب سلطة" ويريدون الحصول على الحكم بأي طريقة، وأنهم يعدون أنفسهم كبديل للنظام، بينما تصل إلى الجماعة رسالة مفادها أن النظام يسعى لاستئصالها تماما. ويرى نوح أن كلتا الرسالتين غير صحيحة، فلا الحكومة تريد استئصال الجماعة ولا الجماعة تريد الوصول إلى السلطة أو تعد نفسها بديلاً عن النظام. وأوضح القيادي الإخواني أن تلك الرسائل تصل من خلال عدة طرق، بعضها حسن النية ولكنه ملىء بالأخطاء، والبعض الآخر سيئ النية ويأتي من داخل أجهزة الأمن حيث هناك كثيرون لا يريدون لهذه الأزمة أن تحل ولا لهذا الملف أن يغلق، وبالتالي فهم يقومون بدورهم في إذكاء روح الفتنة بين الطرفين.

ولتخطي أزمة "الرسائل الزائفة" كما يسميها نوح، فهو يقترح مبادرة ذات بنود أربعة أساسية:

أولاً: إتاحة فترة من الهدوء تسمح باستيعاب المعطيات والمتغيرات الدولية الجديدة، حيث يرى نوح أنه لم يتح للإخوان المسلمين طوال السنوات الماضية الفرصة الكافية لالتقاط أنفاسهم والتفكير بهدوء، فكافة الإجراءات التي تتخذ من قبل الدولة ضدهم تدعوهم إلى الإحباط وإلى التفكير في أن الدولة تسعى لاستئصالهم، وهو ما يؤكد الرسائل الزائفة التي تصلهم.

ثانيًا: إزالة عناصر "الالتهاب" وتمهيد الطريق لميثاق جديد في التعامل بين الدولة والجماعة.

www.alkottob.com
Abu Nour

ثالثاً: حسن اختيار "الرسول" وحسن انتقاء الرسالة بين الطرفين.

رابعاً: الانطلاق بقناعة من كلا الطرفين بأن ثمة أخطاء إجرائية وحركية تم ارتكابها، فلا يعقل أن يوجد عمل حركي أو آخر سياسي لا توجد به أخطاء، والاعتراف بها هو أول الطريق لمعالجتها.

وطالب نوح الإخوان أن يتفهموا المستجدات الجديدة التي تلت أحداث ١١ سبتمبر، والتي فرضت على النظام المصري ضغوطاً جمة بما يؤدي إلى التوفيق بين متطلبات الجماعة ومتطلبات الدولة، حيث إنه لا يعقل - حسب رأيه - أن يطالب البعض بديمقراطية غربية دون تهيئة المناخ لذلك. وأكد القيادي الإخواني أن الواقع السياسي بمصر يسمح بهامش تحرك جيد سواء للأفراد أو الجماعات، شرط خلق مناخ تراض ووفاق وطني بين القوى السياسية والحكومة. وأشار نوح إلى أن هذا التراضي أهم - من وجهة نظره - من الأشكال القانونية الثلاثة المسموح بها للعمل السياسي والعام في مصر، وهي التي تنظمها قوانين الشركات، والجمعيات، والأحزاب. فهذا الشكل الرابع - أي التراضي - هو ما عملت من خلاله وفي إطاره الجماعة طوال فترة السبعينيات والثمانينيات. وشدد نوح على ضرورة عدم التركيز في العلاقة بين الإخوان والدولة على الشكل أو الترخيص القانوني، فكل الأشكال القانونية - على حد قوله - قابلة للإطاحة بها إذا أرادت الدولة ذلك، أحزابا كانت أو جماعات، بل يجب أن يتم التركيز على أن يكون هناك واقع تراض ومناخ صحي بين الطرفين، فمع وجود التراضي دون وجود الشكل القانوني تضمن الجماعة البقاء، ولكن في ظل وجود شكل قانوني دون تراض، فهي لا تضمن أي شيء. واستكمل نوح ملامح مبادرته برفضه مطالبة البعض من داخل الجماعة بأن ينحصر عمل الإخوان في الدعوة وترك العمل السياسي، حيث رأى أن طبيعة العمل الدعوي لا بد أن تحتك بالعمل السياسي لأنه يدعو في النهاية إلى فكرة قد تشكل تعارضا مع طموحات الآخرين، وهو جوهر العمل السياسي، إلا أن ذلك لا يجب أن يتم بحيث يطغى العمل السياسي على العمل الدعوي بحيث يصل إلى حد "إخافة" الآخرين(٢٦).

وقد لاقت مبادرة نوح ردود أفعال سلبية ومتحفظة من جانب قيادات الجماعة، ففي أول تعليق له على هذه المبادرة أوضح المرشد العام السابق للجماعة مصطفي مشهور (رحمه الله) في تصريحات لشبكة إسلام أون لاين أنه لم يتقابل مع نوح منذ خروجه من السجن يوم ٢٠٠٢/١٠/٨ بعد أن قضي ثلاث سنوات في قضية اختراق النقابات المهنية وحتى إعلانه عن مبادرته، وأضاف مشهور أنه لم يطلع على هذه المبادرة بعد. كما تساءل المرشد العام عن حقيقة حديث نوح عن موافقة بعض رجال الحكومة على فتح قنوات اتصال مع الجماعة على الرغم من أن الجماعة طالبت في أكثر من مناسبة بفتح قناة اتصال مع الحكومة، وتم رفض الطلب. وأردف المرشد العام مشككاً في حقيقة وجود حماس بداخل الحكومة للحوار مع الجماعة "إن الحكومة لا تطيق مع الإخوان سوى سياسة الاعتقال والمحاكمات العسكرية". ورفض مشهور الإفصاح عن كيفية تعامل الجماعة مع المبادرة في حالة صحتها وجديتها مؤكداً أن "ذلك يتوقف بالأساس على مقدرة وموقع هؤلاء الأشخاص الذين تحدث إليهم نوح، ومدى تحقيق المبادرة لمصلحة الجماعة. فساعتها نحن ساعة المناقشة والقبول والرفض، أما الآن فلا مجال للحديث عن شيء غير محدد ولا نعرف ماهيته بالضبط"(٢٧).

كما علق الدكتور عبد المنعم أبوالفتوح، أحد قيادي الجيل الوسيط وعضو مكتب الإرشاد، على المبادرة مؤكداً بداية أنه لا علم لدى مكتب الإرشاد بالمبادرة، وأنه يعترض عليها من حيث المبدأ باعتبار أنها أتت من جهاز الأمن، وهو ما يتعارض مع الطبيعة السياسية لقضية الإخوان والتي لا علاقة لها بجهاز الأمن من قريب أو بعيد، وذلك على عكس قضية الجماعة الإسلامية التي رفع أعضاؤها السلاح في وجه الدولة ممثلة في جهاز الأمن، ومن ثم فالصلح بينهما والمبادرات واردة. أما جماعة الإخوان فهي حسب أبوالفتوح ليست سوى كيان دعوي وسياسي يستمد شرعيته من الدستور الذي نص على حرية تكوين الأحزاب طالما أن

www.alkottob.com
Abu Nour

الحزب يتفق مع قيم المجتمع ويسعى للوصول إلى السلطة بالطرق السلمية.. وحول مقولة "الرسائل الزائفة" التي فسر بها نوح الأزمة بين الحكومة والجماعة وجعلها منطلقاً لمبادرته فقد رفضها أيضاً أبوالفتوح مستبعداً أن يكون النظام المصري المعترف له بالقوة والتماسك ضحية لرسائل زائفة - كما أكد أبو الفتوح أن الجماعة ترفض بكل قوة فكرة "التراضي" بكل ما تتضمنه من مَن أو منح من الحكومة وتطالب بحقوق دستورية لا يمكن لها أن تمارسها من دون شكل قانوني محترم ومعترف به، أما مقولات التراضي والوفاق فهي مرفوضة جملة وتفصيلا. إلا أن أبو الفتوح أضاف أن هذا لا يعني أن الجماعة لا تراعي مصلحة الوطن العليا، فهي يمكن أن تؤجل مصالحها الخاصة ومطالبها بشكل مؤقت في إطار مناخ يوجب تكاتف الجميع، حكومة وشعبًا، في مواجهة الأخطار المحيطة بالمنطقة وبالأخص مصر(٢٨).

ومن خلال العرض السابق، يمكن الإشارة إلى مسألتين مهمتين تبرزان في سياق تلك المراجعات التي يقودها "التيار التجديدي"، قام بلفت الأنظار إليهما أحد الباحثين المعنيين بدراسة الحركات الإسلامية المسألة الأولى، هي الحساسية المفرطة التي أبداها بعض قادة حركة الإخوان مؤخرا تجاه فكرة "المراجعات" ويلاحظ ذلك في حوارات المرشد العام، وحتى في تصريحات وحوارات بعض رموز "الجيل الوسيط" في الحركة. وكان الجميع يحرص على التأكيد على أن موضوع "المراجعات" خاص بالجماعة الإسلامية، التي انتهجت العنف سبيلا للتغيير في المجتمع، أما الإخوان المسلمين - كما يقولون - فلم تنتهج العنف، ومن ثم ففي أي شيء تجرى مراجعات؟!. والحقيقة إن هذه حساسية لا مبرر لها، وذلك لأن فكرة "المراجعات" في الحركات السياسية والدينية والاجتماعية هي فكرة مطردة ووجودها حية هو شرط حياة الحركة أيا كان محتواها، فالمراجعات مطلب شرعي وإنساني ومنطقي لتقويم المسيرة وإعادة بلورة الأهداف وإعادة النظر في المناهج ودقتها(٢٩). أما المسألة الثانية الخاصة بالمراجعات التي يقودها التيار التجديدي، فتتعلق بالحذر والتحذير الدائم من عمليات "النقد الذاتي"، بحجة تعرض الحركة لمظالم ومطاردات ومحن ونحو ذلك، وأن النقد هنا يزيد الجراح ويؤسس للفتنه. وهنا الكلام - مع إحسان الظن - هو مجرد شماعة يعلق عليها عجز الحركة عن ممارسة النقد الذاتي، الذي يقوي جسد الحركات الاجتماعية ولا يضعفه. والحركة الاجتماعية التي تخاف من التجديد والنقد الذاتي هي حركة غير قادرة على التطور السليم، ومن المفترض أن حركة الإخوان كحركة تاريخية لها جذورها في النهضة العربية والإسلامية الحديثة، لا يجب أن تكون من هذا النوع في مواجهة الأفكار الشابة ودعوات المراجعة والنقد الذاتي. فإذا كانت الحركات المسلحة تراجع موقفها من منهج التغيير بالقوة واستخدام العنف، فإن الحركات الإسلامية السلمية - وعلي رأسها جماعة الإخوان المسلمين - تمر أيضا بمرحلة تطور وتغيير، وإن اختلفت الدرجة(٣٠).

وبذلك يلاحظ المتابع لمسار حركة الإخوان المسلمين أنها قدمت بعض الأفكار الجديدة في وثائق وبيانات موجهة للأمة منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين أو قبلها. ونشير فيما يلي إلى أهم التغيرات والاتجاهات التحول داخل جماعة الإخوان المسلمين خلال السنوات الأخيرة:

١- الموقف من الآخر: بعد مرحلة الاستقلال وقيام الدولة القطرية في الوطن العربي، حصلت القطيعة والخصام بين التيار الإسلامي والتيارات السياسية الفكرية الأخرى، وحكم هذه القطيعة عدم الثقة بين الطرفين إلى زمن طويل. وفي وصف العلاقة بين التيار الإسلامي والتيار القومي كنموذج يقول طارق البشري: "إن العلاقة بين التيارين تقوم في عشرات السنين الأخيرة علي الاستبعاد وليس علي الاستيعاب، ويتخذ الجدل في شأنها مظهرا حربيا وليس حواريا"(٣١). وعن موقف الإخوان في مصر من الآخر (المسيحيون - الأحزاب المختلفة - الجماعات الإسلامية العاملة) يقول الدكتور عصام العريان: إن موقف الإخوان في هذا الجانب معلن وقديم ومبني علي اختيار فقهي محدد وأيضا علي اختيار سياسي في العمل، وهو قبول الآخر عموما، ومعناه "أننا نقبل وجود آخرين معنا في هذه الدنيا حتى لو كانوا لا يعتقدون ما نعتقد، ولا يؤمنون

www.alkottob.com

بما نؤمن به". أما عن مسألة قبول الآخر الديني، فيرى القيادي الإخواني أن هذا شيء مقرر في الإسلام الذي لم يكره أحدا على الدخول فيه، بل أبقى أهل الكتاب على دينهم: لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. أما قبول الآخر السياسي الذي يعتمد مرجعيات أخرى، فحسب العريان فقد أقره الإخوان الذين لم يرفضوا وجود أحزاب سياسية، بل إنهم أعلنوا قبول التعددية الحزبية في المجتمع المسلم، وأن هناك دستورا يلتزم به الجميع، وقضاء مستقلا ومحصنا يقضي ويفصل إذا خرج أحد على هذا الدستور أو هذه القوانين. ويستطرد العريان مؤكداً أن الجماعة سبق لها التنسيق مع بقية التيارات السياسية الموجودة التي تتفق معها في جزء من الأرضية المشتركة بصدد دخول الانتخابات (الوفد - الأحرار - العمل) أو مقاطعتها (مع تلك الأحزاب وأخرى من المعارضة)، وفي تبني بعض المواقف السياسية التي تحتاج إلى تنسيق لأخذ موقف مشترك. أما عن قبول الجماعة الآخر في العمل الإسلامي، فيؤكد القيادي الإخواني أن هناك قناعة لدي الإخوان بأنه من المستحيل الإجماع على الأمور الفرعية والخلافية في الدين، ومن ثم فهي تقبل اختلاف الآراء ووجهات النظر، وهي تلتزم بالشعار القديم الذي رفعه مؤسسها حسن البنا، وهو: "إن علاقتنا بالآخرين العاملين في الحقل الإسلامي، هي علاقة حب وإخاء وعمل وولاء نسعى إلى التفاهم والتشاور، نسعى إلى التنسيق، نسعى إلى التعاون بين كل العاملين بالساحة الإسلامية" (٣٢).

٢- تداول السلطة: وعن مسألة تداول السلطة والسؤال المركزي الذي يطرح دوماً حولها: ماذا لو قُدر للإخوان الوصول إلى الحكم هل سيسمحون بالتعددية في ظل وجود أحزاب مخالفة لهم في الفكر والتوجه؟ يرى الدكتور العريان أن كل التيارات الإسلامية تتفق على أن المرجعية في عقد البيعة لأي حكومة يكون من خلال الرضا الشعبي، وهذا الرضا الشعبي تعبر عنه الانتخابات العامة، وبالتالي تكون هناك إمكانية لتداول السلطة بين كل التيارات الموجودة والتي تلتزم بالدستور والقانون، وهنا لا تكون هناك مشكلة في تداول السلطة. ويضيف القيادي الإخواني إن الابتكار الغربي لمسألة تداول السلطة لابد من النظر إليه بإيجابية وبحث إمكانية الإفادة منه لمنع الصراعات التي عرفتها المجتمعات قديماً وحديثاً حول الوصول للسلطة. أما بالنسبة لقضية السماح بوجود قانوني لحزب شيوعي، فقد أعلن العريان أن الجماعة ملتزمة بقاعدة قديمة لديها ملخصها عدم إدانتها الناس بأفكارهم التي في رؤوسهم، وانتظارها من كل مجموعة سياسية أن تعلن عن أفكارها ومعتقداتها وبرامجها في مواثيق مكتوبة. ولم يعلن القيادي الإخواني في ذلك السياق قبولاً واضحاً لوجود مثل ذلك الحزب، بل أكد من جديد على ضرورة احترام جميع الأحزاب نص الدستور الذي يؤكد أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع، معتبراً أن التزام كافة الأحزاب بالدستور كاملاً وبالقانون هو شرط إنشاء وبقاء الأحزاب المصرية، ومن يفصل في الخلاف حول هذا هو القضاء وحده (٣٣).

٣- الموقف من الديمقراطية: يلاحظ المراقب للخطاب الإسلامي المعاصر وحركية إنتاجيته الثقافية، أن هناك قراءات جديدة تختلف نوعيا عما هو سائد من قراءات لبعض المسائل الجدلية في الفكر الإسلامي كمسألة "الديمقراطية". ويلاحظ في هذا الإطار أن القراءات الإسلامية الجديدة تشهد تحولاً من الإطلاق إلى النسبية في النظر إلى الديمقراطية: من كونها مذهبا اجتماعيا وفلسفيا يغاير ما هو في الفكر الإسلامي، إلى كونها تحتوي على مكاسب مطلوبة وراجحة، وفي الوقت نفسه لا تتعارض ومقاصد التشريع الإسلامي. وتعني الديمقراطية في فكر الإخوان المسلمين التعايش السلمي بين الجماعات والفصل بين السلطات الثلاث في الدولة وتداول السلطة بشكل سلمي، والشورى والانتخابات وإعطاء الناس حقهم في إبراز الرأي والأخذ بنظام الأكثرية. كل ذلك بشرط ألا يتعارض مع أصل من أصول الشريعة الإسلامية. وقد طرحت مسألة الديمقراطية منذ بداية عقد التسعينيات من القرن السابق، بوتيرة متصاعدة ومكثفة في الخطاب الإسلامي المعاصر، بأنماط مختلفة من الفهم والتحليل التاريخي الفلسفي والسياسي واللغوي، تكشف عن تحول في الرؤية السياسية وتغيير في النظرية الفكرية السياسية (٣٤). وتتجلى بعض مظاهر الديمقراطية لدي جماعة

www.alkottob.com
Abu Nour

الإخوان المسلمين في صياغة الجماعة لمشروعها السياسي، وإعطاء الأولوية للحريات وحقوق الإنسان، والمشاركة السياسية، هذا فضلا عن صياغة بنيتها الداخلية إداريا وحركيا بنمط الشورى والديمقراطية عبر توسيع دائرة المشاركة بالرأي وصناعة الموقف والقرار السياسي والحركي، واعتماد نظام الترشيح والانتخاب والأخذ بأكثرية الآراء (٣٥).

وفي خطوة أكثر تقدماً نحو بلورة موقف الجماعة من قضية الديمقراطية وتداول السلطة، وفي سياق التفاعل مع الجدل حول عملية الإصلاح في العالم العربي ومصر بشكل خاص، طرحت الجماعة في مارس ٢٠٠٤ مبادرتها للإصلاح، شملت حوالى ١٨ بنداً شملت الإقرار بأن الشعب هو مصدر السلطات دون هيمنة من أي فرد أو حزب سياسي أو جماعة سياسية، واحترام مبدأ تداول السلطة، والتأكيد على حرية الاعتقاد، وحرية الرأي والجهر به، وحرية تشكيل الأحزاب السياسية دون تدخل من الجهات الإدارية، وحرية الاجتماعات الجماهيرية، والتظاهر السلمي، ونزاهة الانتخابات، وإلغاء الدور السياسي للجيش، والتأكيد على الطابع المدني لجميع أجهزة الشرطة والأجهزة الأمنية وتحديد مهام تلك الأجهزة بشكل واضح وفي ضوء نصوص الدستور، وتحديد سلطات رئيس الجمهورية والفصل بين منصب رئاسة الجمهورية ورئاسة الأحزاب السياسية، وإلغاء القوانين سيئة السمعة، والإفراج عن المعتقلين السياسيين، وإلغاء القوانين المعوقة لأنشطة النقابات المهنية والعمالية. ويتضح من مضمون تلك المبادرة تأكيد الإخوان على معظم القواسم المشتركة في مطالب وأولويات الإصلاح لدى معظم القوى السياسية جنباً إلى جنب مع تأكيدها على بعض العناصر ذات الدلالة الخاصة بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين خاصة التأكيد على حرية تشكيل الأحزاب السياسية، وتحييد دور الأجهزة الأمنية.

٤ - التحول إلى حزب سياسي: بناء على ما سبق ذكره بالنسبة لقبول جماعة الإخوان المسلمين بنظرية التعددية السياسية، وبالتالي إمكانية مشاركة الجماعات السياسية والمؤسسات السياسية للدولة، يتصاعد داخل الجماعة صوت التيار الراغب والمطالب بحصولها على حزب سياسي شرعي باسمها. وعلى الرغم من حقيقة أن هذا التيار يمثل اليوم الغالبية الساحقة من الإخوان المسلمين، فإن الجماعة لم تحسم بداخلها ما إذا كان إنشاء ذلك الحزب سوف يعني زوال الجماعة وذوبانها داخل الحزب، أما أنها سوف تستمر إلى جانب ذلك الحزب؟ والحقيقة إن رفض الحكومة المصرية الواضح والمستمر التصريح للإخوان بالحصول على حزب سياسي شرعي هو الذي أعفى الجماعة من الحوار الداخلي الجدي حول مستقبل الجماعة في حالة موافقة الحكومة على قيام حزب للإخوان المسلمين، وظل ذلك الموضوع مسكوتاً عنه بداخلها لا يتطرق إليه الحوار إلا لماماً. إلا أن بعض المؤشرات الأولية توضح أن الرؤية الغالبة في أوساط الجيل الوسيط هي السعي نحو حسم نهائي لمفهوم "الهوية" التنظيمية الإخوانية بالتحول الشامل نحو العمل السياسي المؤسسي وتشكيل حزب يكون بديلا تاما عن الجماعة ويحل محلها.

ومع ذلك الغموض الداخلي حول تأثير الحزب على مصير الجماعة، فإن أصوات كثير من أعضاء وقيادي الجماعة ترتفع من وقت لآخر في المنتديات السياسية والإعلامية تطالب بالتصريح بحزب سياسي للإخوان ونقد الحكومة لرفضها السماح لهم بذلك الحق. ويرى بعض قيادي الجماعة أن أسباب هذا الرفض الحكومي متعددة، بعضها عام يعود إلى عدم وجود إرادة حقيقة لدى النظام السياسي تسمح بوجود أحزاب سياسية حقيقية، وهو ما يتضح في قانون الأحزاب وما يفرضه من قيود وعقبات على إنشاء الأحزاب الجديدة، وبعضها الآخر يتعلق بوجود قرار سيادي واضح يمنع وجود أي حزب سياسي في مصر يتبنى اتجاها إسلاميا حتى لو أبدى مرونة شديدة، أما البعض الثالث فيرتبط برؤية للإخوان باعتبارهم حركة سياسية قوية جدا ذات حضور واسع في الشارع المصري، وهو يريد تحجيم هذه القوة وهذا الحضور (٣٦).

www.alkottob.com
Abd Nour

ثالثا: علاقة الإخوان المسلمين بالسلطة السياسية

لا تزال العلاقة بالسلطة السياسية التحدي الحقيقي الذي يواجه جماعة الإخوان المسلمين، وهو التحدي الذي يرتبط بمرحلة التحولات الكبرى في الحركات الإسلامية، حيث أصبحت الدعوة للعمل السلمي تضع الحكومات العربية - ومنها الحكومة المصرية - في موقف حاسم. ففي الوقت الذي رحبت فيه الحكومة المصرية ممثلة في وزارة الداخلية المصرية بالمراجعات الفكرية للجماعة الإسلامية إلا أنها في الوقت نفسه لازالت مستمرة في المواجهة الأمنية لجماعة الإخوان المسلمين، رغم منهجها السلمي في العمل. فإذا كانت الحكومة ترحب بالتحول السلمي للجماعة الإسلامية، ولكنها لا تعترف بحق جماعة الإخوان السلمية في العمل العام، فمعنى هذا أن الموقف الرسمي للحكومة المصرية ما زال يرفض إعطاء الحركة الإسلامية حقها في العمل السياسي السلمي(٣٧). وليست الخيارات أمام حركة الإخوان المسلمين متسعة، نظرا لرفض السلطات القائمة أي نوع من المنافسة السلمية النزيهة، وتواطؤ القوى الدولية التي لا تريد للحركات الإسلامية أن تعبر عن نفسها سياسيا بؤثر في واقع مجتمعاتها. وهكذا تبدو الخيارات في الأغلب محصورة في أمرين: التعاون مع الأنظمة القائمة، أو القبول بدور المعارضة غير القانونية(٣٨). وإذا كان أحد العيوب الرئيسية في الأنظمة الاستبدادية هو أنها تغلق سبل التجارب السياسية والنضج السياسي أمام الناس، فالإسلاميون أيضاً بتركيزهم على موضوع الاستيلاء على السلطة - رأسا- دون خطوات تمهيدية لن تكون أمامهم فرصة لتعلم أي شيء عن المسار السياسي نفسه، بما فيه التفاوض والتنازل، وصناعة القرار، وتطوير قواعد إجرائية في ممارسة السلطة (٣٩).

وقد مرت جماعة الإخوان المسلمين في علاقتها بالسلطة بعدة مراحل، يمكن وصف الفترة الأولى منها بفترة التأسيس والانتشار والذيوع، وتمتد تلك المرحلة منذ عام ١٩٢٨ حتى اغتيال مؤسسها الإمام حسن البنا في ١٢/٢/ ١٩٤٩. أما الفترة الثانية فهي التي استمرت الجماعة خلالها بدون وجود مرشد عام جديد حتى عام ١٩٥١، حيث تم اختيار المستشار حسن الهضيبي، واستمرت هذه المرحلة حتى عام ١٩٥٤، حيث الصدام التاريخي الشهير بين النظام الناصري الجديد حينئذ والإخوان بعد فترة وفاق لم تدم طويلا، وهو الصدام الذي ظل قائماً حتى بداية السبعينيات مع رحيل الرئيس عبدالناصر. وقد كانت فترة النصف الثاني من السبعينيات هي بداية مرحلة التأسيس الثاني للجماعة حيث ساد الانفراج بينها وبين نظام الرئيس السادات بما أتاح لها التحرك الواسع لجذب أعداد وفيرة من أبناء الشرائح الاجتماعية الوسطى الأكثر نشاطا لكي تجدد بهم صفوفها، بعد أن تجمدت تقريبا - بسبب ظروف الصدام الواسع مع النظام الناصري. ولا شك أن دخول الجماعة إلى الصدام مع نظام الرئيس السادات بعد زيارته للقدس، وعقده معاهدة السلام مع الكيان العبري، قد تصاعد بفعل ضغوط الوافدين الجدد على صفوفها من طلاب الجامعات بما ساهم في إضفاء طابع احتجاجي عليها ساعد بدوره هؤلاء على جذب أعداد كبيرة من زملائهم إليها وسحبهم بعيدا عن الجماعات الإسلامية الجهادية الأخرى التي كانت تعيب على جماعة الإخوان اعتدالها ووسطية أطروحاتها وتجنبها الصدام مع الدولة.

وباغتيال الرئيس السادات في أكتوبر ١٩٨١، وبدء تفكك حالة التوتر والتصعيد التي جثمت على مصر خلال أعوام حكمه الأربعة الأخيرة، راح أبناء ذلك الجيل الجديد ينشطون في تأسيس الجماعة وبنائها بعد أن تخرجوا في الجامعات وصاروا أبناء مهن ذات وزن في المجتمع، واستطاعوا أن يحققوا على المستوى السياسي والنقابي في مصر ما لم يتحقق للجماعة من قبل طيلة تاريخها السابق. فقد اكتسحت الجماعة انتخابات معظم النقابات المهنية المصرية ونوادي هيئات التدريس بمختلف الجامعات، وكذا استطاعت الجماعة

www.alkottob.com

- رغم الحظر القانوني المستمر عليها - أن تدخل أعضاء منها إلى مجلس الشعب معظمهم من أبناء ذلك الجيل في ثلاث انتخابات (أعوام ١٩٨٤ ، ١٩٨٧، ٢٠٠٠) (٤٠).

ويمكن القول إن علاقة جماعة الإخوان المسلمين بالدولة المصرية في عهد الرئيس مبارك منذ عام ١٩٨١ قد مرت بثلاث مراحل: امتدت المرحلة الأولى التي يمكن وصفها بمرحلة "التجاهل والتسامح" منذ اغتيال الرئيس السادات وحتى عام ١٩٨٨ تقريبا . وكان الهدف الرئيسي للدولة خلالها هو تفكيك حالة التوتر التي واكبت وأعقبت الاغتيال، على أن يتضمن ذلك خلق شرعية جديدة للحكم، تقوم في جوهرها على فكرة المصالحة الوطنية والتفاعل مع القوي السياسية المصرية الرئيسية. وقد أدى ذلك إلى تمتع الإخوان بقدر واسع من حرية الحركة والتعبير دون أن يصل ذلك إلى الاعتراف الرسمي بشرعية وجودهم. وتلك المرحلة هي التي أتاحت للإخوان دعم وجودهم السياسي والشعبي في مصر، ومد نفوذهم إلى مؤسسات وقطاعات سياسية ومهنية مثل مجلس الشعب والنقابات المهنية والاتحادات الطلاب بالجامعات ونوادي هيئات التدريس. وبانتهاء انتخابات مجلس الشعب لعام ١٩٨٧ والتي كشف عن حجم القوة الكبيرة الكامنة للإخوان في ظل تحالفهم مع حزبي العمل والأحرار تحت شعار "الإسلام هو الحل"، بدأت المرحلة الثانية في علاقتهم مع الدولة والتي يمكن تسميتها مرحلة "التخوف والاحتكاك"، وهي التي بدأت فيها الدولة محاولة إيقاف زحف الإخوان داخل النقابات المهنية عن طرق تحميد بعضها وإثارة المشكلات بداخل بعضها الآخر، والتي بدأ الإخوان يتصرفون خلالها باعتبارهم قوة سياسية شبه شرعية في البلاد.

وفي عام ١٩٩٢ استطاع الإخوان السيطرة على مجلس نقابة المحامين الذي ظل حكراً طيلة تاريخها تقريباً على التيارين الليبرالي والحكومي، مما زاد من تخوف الدولة منهم. وفي منتصف العام نفسه اندلعت الموجة الأكثر شراسة للعنف الإسلامي التي قام بها كل من "الجماعة الإسلامية" و"جماعة الجهاد"، والتي أخذت الدولة على الإخوان أثناءها ما أسمته عدم إدانتهم لها والاكتفاء ببيانات عامة فضفاضة. وهكذا انتقلت علاقة الإخوان بالدولة منذ بداية عام ١٩٩٣ وحتى الوقت الحالي إلى المرحلة الثالثة، وهي مرحلة "التدهور والصدام". ويمكن إرجاع قرار الدولة الدخول في مواجهة واسعة مع الجماعة إلى تزامن انتشارهم في مختلف قطاعات المجتمع السياسي والنقابي مع موجة العنف الإسلامي الواسعة الحادة، الأمر الذي رأت فيه الدولة وجهين لظاهرة واحدة هي الصحوة الإسلامية التي لم تر بداخلها فروقاً بين الإخوان وجماعات العنف الإسلامي. كذلك فقد رأت الدولة في الجماعة المحظورة فوق ذلك خطراً سياسياً زاحفاً يهدد سيطرتها على مقاليد الحكم في البلاد خاصة بعد النجاحات التي حققتها في عديد من الانتخابات العامة والنقابية وهو ما اعتبرته "نواقيس خطر" لابد من الالتفات إليها والتعامل مع الإخوان على أساسها باعتبارهم منافساً سياسياً للدولة يمكنه إذا توافرت الظروف الملائمة أن يهدد تلك السيطرة (٤١).

ومن هنا فقد دفعت المخاوف السياسية من جماعة الإخوان المسلمين بالدولة إلى تبني "استراتيجية الإجهاض المبكر" في مواجهتها منذ نهاية عام ١٩٩٤. وتتضمن تلك الاستراتيجية توجيه ضربات متتالية متفرقة للجماعة بما يؤدي إلى تحقيق هدفين أساسيين: الأول، هو إنهاكها بجرها إلى ساحة القضاء والحكم على قياديها وأعضائها بسنوات سجن متفاوتة المدة، والثاني: هو حرمان الجماعة من القدرة على التحرك بكامل قوتها، خاصة في الحملات السياسية العامة سواء كانت محلية أو إقليمية أو دولية. هذا فضلا عن تحقيق هدف آخر أكثر عمومية ومحورية، هو توجيه رسالة سياسية واضحة سواء للجماعة أو للقوي السياسية الأخرى المهتمة بأوضاع الإسلام السياسي في مصر، مضمونها هو أن الدولة مصممة على موقفها من عدم السماح - في أي وقت وفي ظل أي ظروف - بإعطاء الجماعة - المحظورة - وضعا قانونيا شرعيا يمكنها من التفاعل في الساحة السياسية والاجتماعية كغيرها من القوي السياسية الشرعية الأخرى(٤٢). وقد ركزت الحملات الحكومية بصفة خاصة على الجيل الثاني من الإخوان المسلمين والذي أنجز لها انتصاراتها

www.alkottob.com
Abu Nour

السياسية والانتخابية سواء في البرلمان أو النقابات المهنية وصاحب "التأسيس الثاني" لها، في حين لم تقترب - إلا نادراً - من الجيل الأكبر صاحب "التأسيس الأول" والذي تراجعت أهميته في نشاطها الواقعي لصالح الجيل الأول.

وقد ازداد لجوء الدولة إلى تلك الاستراتيجية بعد نجاح الإخوان في الحصول على سبعة عشر مقعداً في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة عام ٢٠٠٠ في الوقت الذي لم تحصل فيه كل الأحزاب الشرعية سوى على ستة عشر مقعداً. ثم أتت بعد كل ذلك أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما بعدها وهو الأمر الذي قررت فيه الدولة المصرية إمكانية تكثيف حملاتها ضد الجماعة المحظورة في مصر دون أن تتعرض لضغوط خارجية رسمية أو من جمعيات حقوقية وقانونية بسبب تلك الحملات. وقد أدى هذان المتغيران إلى زيادة معدلات تلك الحملات وأعداد المقبوض عليهم وكذلك الأحكام الصادرة في حقهم بصورة أكبر بكثير مما شهدته السنوات السابقة منذ نهاية عام ١٩٩٤ الذي بدأت فيه الحكومة تطبيق تلك الاستراتيجية، حيث كشفت الدولة من تطبيق استراتيجيتها خلال الفترة التالية لأحداث سبتمبر والتي شهد كل شهرين منها تقريبا إلقاء القبض على أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة وإحالة معظمهم إلى محاكم عسكرية تصدر أحكاما على غالبيتهم تصل إلى السجن خمس سنوات. وفي كل تلك المرات وجهت إلى أعضاء وقيادي الجماعة نفس الاتهامات تقريبا: "تشكيل تنظيم سري مناهض لنظام الحكم"، "حيازة وإحراز منشورات تحض على قلب هذا النظام"، "الإعداد لمظاهرات من شأنها تكدير السلم العام"(٤٣).

وقد انعكست تلك التطورات على خطاب الإخوان المسلمين بعد تولي الأستاذ محمد مهدي عاكف منصب المرشد العام، الذي تبنى خطاباً تجاه الحكومة اتسم بقدر من التوتر والنقد، فقد أكد عاكف فيما يتعلق بعلاقة الجماعة مع الحكومة أنه لم تطرأ على تلك العلاقة أي تغيير إيجابي فلازال الإخوان في السجون والمعتقلات، مشيراً إلى أنه كان ينتظر من الحكومة المصرية في ظل تلك الأجواء وفي ظل التحديات الخارجية أن يحدث تفاهم بين الحكومة والإخوان باعتبارهم الفصيل الأكثر تواجداً على الساحة السياسية المصرية (٤٤).

ويوضح المسار السابق لعلاقة الإخوان بالدولة أنه كان يتعين دوما على حركة الإخوان المسلمين التعاطي مع عدد من الثنائيات الفكرية والسياسية المهمة من أجل تحقيق تعاون مثمر أو تعايش مقبول مع السلطة. ومن هذه الثنائيات ثنائية القبول والرفض، حيث إن أول ما يواجه الحركة في هذا المضمار هو تحدي التوفيق بين القبول بالسلطة كما تقتضي سياسة التعايش، ورفض شرعية هذه السلطة في الوقت ذاته، وهي السلطة التي تسعى الحركة إلى إيجاد بديل عنها نهاية المطاف. إنها المعادلة الصعبة التي وصفها أحد الباحثين بأنها جمع بين "أسلوب العمل المتاح في ظل الأنظمة، وأسلوب العمل الرافض لأساس الأنظمة"(٤٥). كذلك فهناك ثنائية التفاضي والتبرير، حيث يقتضي التعايش مع السلطة أو التعاون معها التغاضي عن بعض الأمور دون تبرير لها، لكن يبدو أن الحدود بين التغاضي والتبرير غير واضحة تماما لبعض الإخوان المسلمين. من جانب آخر، هناك ثنائية المعارضة والمواجهة، حيث إن المعارضة لا تعني بالضرورة المواجهة، وكل اختلال غير محسوب في هذه المعادلة قد يؤثر أثارا سيئة على الحركة والمجتمع. فقد لاحظ أحد الباحثين المعنيين بالحركات الإسلامية أن "ثمة خلط واضح في صفوف الحركة الإسلامية بين مفهوم "المعارضة للسلطة" ومفهوم "الصراع مع السلطة"(٤٦). وهناك أخيراً ثنائية الخطاب والفاعلية، حيث يتحرج بعض من جماعات الإخوان المسلمين من التحالف مع حاكم غير إسلامي، أو قوي سياسية وطنية، حرصا "على الصورة الزاهية لرجالها، وتهدر الكسب الاستراتيجي الذي قد يثمره ذلك في المستقبل. فحينما طلب عبد الناصر من المرشد العام للإخوان آنذاك - حسن الهضيبي - ترشيح أحد أعضاء الجماعة للمشاركة معه في السلطة رفض الاشتراك إلا أن يكون الحكم إسلاميا ١٠٠٪ واكتفى بترشيح بعض الكفاءات من غير الإخوان. وقد دعا أحد الباحثين، هذه الظاهرة "عبادة الصورة" وهي في جوهرها عجز عن التوفيق بين دواعي الدعوة والخطاب ودواعي الفاعلية السياسية(٤٧).

www.alkottob.com

رابعا: تفاعلات عام ٢٠٠٢

سوف يركز هذا القسم على دراسة أبرز تفاعلات الدور السياسي لجماعة الإخوان المسلمين في مصر خلال عام ٢٠٠٢، وهي تتمثل في الانتخابات التكميلية لمجلس الشعب التي أجريت في يونيو ٢٠٠٢ بمحافظة الإسكندرية، وحملات القبض والاعتقال التي طالت أعضاء الجماعة في ذلك العام، ودور الجماعة داخل الدورة الثالثة لمجلس الشعب خلال عام ٢٠٠٢ / ٢٠٠٣، وذلك بهدف تقديم تحليل أشمل وفهم أعمق للدور السياسي للجماعة وعلاقتها بالدولة.

أ- انتخابات مجلس الشعب التكميلية بالإسكندرية

بدأت قضية انتخابات مجلس الشعب التكميلية بمحافظة الإسكندرية قبل الموعد الرسمي المحدد لإجراء الانتخابات البرلمانية، وهو ١٨ أكتوبر ٢٠٠٠، بفترة طويلة. فمن المعروف أن دائرة الرمل تعد من أكبر دوائر محافظة الإسكندرية، حيث بلغ عدد أصوات الناخبين بها ١٤٦ ألف صوتا موزعين على ٩٤ لجنة انتخابية. ولأن الدائرة تضم مختلف التيارات السياسية، فقد بلغ عدد المرشحين بها ٢٦ مرشحا يمثلون كافة الأحزاب والتيارات السياسية، وإن كانت المنافسة قد انحصرت من البداية بين مرشحي التيار الإسلامي وممثلي الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم، وعدد قليل من المستقلين. وقبل إجراء الانتخابات بأيام قليلة، قامت أجهزة الأمن بالإسكندرية بتضييق الخناق على مرشحي الإخوان المسلمين وهما جيهان الحلفاوي (فئات)، والمحمدي سيد أحمد (عمال) كما تم القبض على مندوبيهما وحجزهم في قسم شرطة الرمل. وبسبب هذه الإجراءات التعسفية تقدم المرشحان بطلب إلى محكمة القضاء الإداري لتأجيل أو إلغاء الانتخابات بالدائرة لحين الإفراج عن مندوبيهما. وبالفعل صدر حكم من محكمة القضاء الإداري بالإسكندرية يقضي بتأجيل الانتخابات إلى ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٠ إلا أن وزارة الداخلية لم تلتفت إلى هذا الحكم، وأوعزت إلى هيئة قضايا الدولة (فرع الإسكندرية) بتقديم استشكال على الحكم أمام محكمة غير مختصة لوقف تنفيذ الحكم الصادر بتأجيل الانتخابات.

وقد تبع صدور الحكم السابق قرار وزارة الداخلية بإجراء الانتخابات في الدائرة في ١٨ أكتوبر ٢٠٠٠، وهو نفس اليوم المحدد لإجراء الانتخابات في محافظة الإسكندرية ضمن محافظات المرحلة الأولى. ونظرا لعدم إعلان قرار وزارة الداخلية إجراء الانتخابات على نطاق واسع، فقد أثر ذلك على إقبال الناخبين، كما تسببت محاصرة رجال الشرطة لمقر اللجان الانتخابية في تأكيد خبر إلغاء الانتخابات في الدائرة، فضلا عن قيام رجال الأمن بمنع بعض الناخبين من دخول اللجان للتصويت. ورغم كل تلك الإجراءات فقد أسفرت نتائج الانتخابات عن حصول مرشحي جماعة الإخوان المسلمين على أعلى نسبة من الأصوات، فحسب بيانات وزارة الداخلية، حصلت جيهان الحلفاوي على ٣٦٦٢ صوتاً وحصل المحمدي سيد أحمد على ٣٦٠٢ صوتاً، وحصل جمعة الغرباوي مرشح الحزب الوطني على ١٧٩٧ صوتاً، واستطاع صلاح عيسى (المستقل) الحصول على ١٢٣٤ صوتاً. ونظرا لعدم قدرة أي مرشح على تحقيق نسبة ٥٠٪ من الأصوات، فقد تقرر حسب القانون إعادة إجراء الانتخابات في الدائرة يوم ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠ بين الأربعة الحاصلين على أكبر عدد من الأصوات.

إلا أن الحكومة في ظل تلك النتائج عادت لتعلن تمسكها بالحكم الذي أصدرته محكمة القضاء الإداري بالإسكندرية بتأجيل الانتخابات، السابق الإشارة إليه. ومن ثم لم تجر جولة الإعادة كما كان مقرراً لها بعد أسبوع من الجولة الأولى، وصدر قرار وزير الداخلية رقم (١٥٥١٤) لسنة ٢٠٠٠ بوقف إجراء انتخابات الإعادة بين المرشحين الأربعة تنفيذا لحكم المحكمة. وخلال الفترة من أكتوبر ٢٠٠٠ وحتى إجراء انتخابات

www.alkottob.com

الإعادة في ٢٧ يونيو ٢٠٠٢ صدر ١٧ حكما قضائياً يقضي بإلزام وزارة الداخلية بتحديد موعد فوري لإجراء انتخابات الإعادة بالدائرة، كان آخرها هو ذلك الحكم الذي صدر بتاريخ ٤ يوليو ٢٠٠١، والذي قضي بإلزام وزارة الداخلية بتحديد موعد لإجراء انتخابات الإعادة بين الأربعة الحاصلين على أعلى نسبة من الأصوات في انتخابات المرحلة الأولى في موعد أقصاه ٦٠ يوما من تاريخ صدور الحكم. وقد أسفرت انتخابات الإعادة عن فوز مرشحي الحزب الوطني الحاكم سامي المجندي وجمعة الغرباوي.

وقد واكبت هذه الانتخابات أحداث شغب كبيرة، حيث ردت السلطات المصرية على ما اعتبرته تصعيدا من جانب جماعة الإخوان المسلمين على خلفية تلك الانتخابات. وقد قررت نيابة أمن الدولة العليا حبس ١٠١ شخص أوقفتهم الشرطة يوم الانتخابات لمدة ١٥ يوما على ذمة تحقيقات تجرى معهم في شأن التظاهر وإثارة الجماهير والخروج على النظام العام وتكدير الأمن وتهديد السلام الاجتماعي. وأكدت التحقيقات أن المتهمين حاولوا تعطيل سير إجراء الانتخابات باستعمال القوة، وقاموا بترديد هتافات تعرض الأمن والسلم الاجتماعي للخطر، كما تعدوا على أفراد الأمن أثناء التصدي لهم، وألقوا ستة أتوبيسات بعد إلقاء الحجارة عليها. وقد مثل الإجراء الذي قامت به السلطات المصرية ضربة جديدة للجماعة التي كانت تأمل في الحصول على مقعدين بمجلس الشعب، رشحت إحدى السيدات لشغل مقعد منهما وذلك في سابقة تعد الأولى من نوعها في تاريخ الجماعة، للتأكيد على التحول والتغيير الذي طرأ على فكر الجماعة، وأنها ليست ضد اشتغال المرأة بالعمل العام(٤٨).

ويتفق المراقبون على أن هذه القضية تكشف إحدى الظواهر السلبية التي يعيشها المجتمع المصري، وهي ظاهرة الامتناع عن تنفيذ أحكام القضاء، إذ يعود جوهر أزمة الانتخابات بدائرة الرمل إلى إصرار وزارة الداخلية على عدم تنفيذ حكم قضائي ملزم بتأجيل الانتخابات، ولجأت إلى آلية الاستشكال على الحكم أمام القضاء العادي للالتفاف والامتناع عن تنفيذ حكم القضاء الإداري. ورغم أن الحكم الأخير قابل للطعن أمام المحكمة الإدارية العليا، إلا أنه تطبيقا للمادتين ٤٩ و ٥٠، من قانون مجلس الدولة رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢، فإن حكم محكمة القضاء الإداري مشمول بالنفاذ، ولابد من تنفيذه رغم الطعن عليه أمام المحكمة الإدارية العليا ولا يمكن الامتناع عن تنفيذه إلا إذا قضت دائرة فحص الطعون بالمحكمة الإدارية العليا بوقف تنفيذ الحكم. وحيث إن ذلك لم يحدث، فقد كان من اللازم على وزارة الداخلية تنفيذ الحكم كاملا وشاملا.

ب- حملات القبض والاعتقال ضد جماعة الإخوان المسلمين

تعد الحملات التي تقوم بها السلطات المصرية تجاه الإخوان المسلمين، التطبيق العملي لسياسة الحكومة إزاء الجماعة، حيث كانت أولى إرهاصات المواجهة بين الحكومة والإخوان هي الكشف عن تنظيم "سلسبيل للكمبيوتر" في عام ١٩٩٢، وإحالة عدد كبير من أعضاء الجماعة إلى محكمة أمن الدولة العليا التي لم تصدر قرارا بإدانتهم. وطبقا لمصادر إخوانية فإن نحو ٤٠٠ شخص من أعضاء الجماعة رهن الاعتقال الآن في السجون المصرية. وقد مرت الجماعة منذ عام ١٩٩٣ بـ ٣٨ حملة اعتقال في مختلف المحافظات، بخلاف عمليات التوقيف الفردية التي تتم بشكل روتيني. وقد أصدرت الحكومة القانون رقم ١٠٠ لسنة ١٩٩٣ بشأن تنظيم النقابات المهنية بعد نجاح أعضاء الإخوان المسلمين في السيطرة على مجلس نقابة المحامين. وفي منتصف عام ١٩٩٤ اشتعلت مواجهة ساخنة بين الحكومة والإخوان المسلمين في نقابة المحامين بعد مقتل المحامي عبد الحارث مدني واتهام الإخوان الحكومة بقتله. وفي صيف عام ١٩٩٤ استبعدت الحكومة جماعة الإخوان المسلمين من مؤتمر الحوار الوطني، ثم صاحب ذلك حملة اعتقالات طالت لأول مرة قيادات لصيقة بالمرشد العام للجماعة، كان من بينهم إبراهيم شرف وقيادات إخوانية سياسية بارزة مثل مختار نوح، وكانت تلك العمليات بمثابة رسالة موجهة لقمة الهرم التنظيمي وقاعدته.

www.alkottob.com

وفي الثاني من سبتمبر عام ١٩٩٥، دخلت المواجهة بين الإخوان والحكومة المصرية منعطفا خطيرا، حيث صدر القرار الجمهوري رقم ٢٧٩ لسنة ١٩٩٥ بإحالة ٤٩ من قيادات الجماعة إلى المحكمة العسكرية في القضية رقم ٨ لسنة ١٩٩٥ جنايات عسكرية، وضمت مجموعة من المتهمين في قضية سلسبيل والقضية المسماة بـ "انحرافات لجنة الإغاثة بنقابة الأطباء". وجاء القرار الجمهوري السابق بإحالة أعضاء من الجماعة إلى القضاء العسكري لأول مرة منذ ٣٠ عاما، حيث كانت المرة الأخيرة التي أحالت فيها الدولة أعضاء من الجماعة إلى محكمة عسكرية في عام ١٩٦٥ في القضية المعروفة بقضية سيد قطب. وفي الشهر نفسه (سبتمبر ١٩٩٥) تمت إحالة مجموعة أخري من قيادات الإخوان علي رأسهم الدكتور عصام العريان والدكتور عبد المنعم أبو الفتوح، وغيرهم إلى المحاكمة في القضية رقم ١١ لسنة ١٩٩٥ جنايات عسكرية بتهمة إعادة تشكيل الهيكل التنظيمي للجماعة. وأوضحت تلك القضية أن أجهزة الأمن قد نجحت في اختراق مجلس شوري الجماعة وتسجيل اجتماعاته بالصوت والصورة.

وقبل أسبوع فقط من الانتخابات التشريعية المصرية (نوفمبر ١٩٩٥)، أصدرت المحكمة العسكرية أحكامها بالسجن علي ٥٤ من كوادر الجماعة، كما قضت المحكمة بإغلاق مقر الجماعة بوسط القاهرة (التوفيقية) ومصادرة أموالها وملفاتها، ومنع طبع وتوزيع مجلة "الدعوة" الناطقة بلسانها. وقد غطت الأحكام قضيتين منفصلتين للإخوان، شملت ٨٢ متهما، تم تبرئة ٢٧ منهم، بينما صدر حكم بالسجن مدة خمس سنوات مع الأشغال الشاقة علي خمسة من أعضائها، كان منهم د. عصام العريان أحد المرشحين في تلك الانتخابات. وحكم علي ٤٩ آخرين بالسجن لمدة ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة، كان منهم الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح والدكتور محمد السيد حبيب، وقد صدرت الأحكام تأسيسا علي إدانتهم بالعمل علي إحياء تنظيم غير مشروع بهدف تعطيل القانون والدستور، حيث كانت الحكومة المصرية قد اتخذت في عام ١٩٥٤ قرارا بحل الجماعة التي أنشئت عام ١٩٢٨ علي يد حسن البنا وحظر نشاطها.

وفي ٢٧ يناير ٢٠٠٢، وجهت السلطات المصرية، ضربة جديدة إلى جماعة الإخوان المسلمين، إذ تم القبض علي ٨ من أبرز قياداتها واعتبارهم محركي طلاب الجامعات، وتحميلهم المسئولية عن المظاهرات التي نفذها طلاب التيار الإسلامي في الجامعات المصرية ثم تم تحويلهم إلى نيابة أمن الدولة العليا. وكان من بين هؤلاء، بالإضافة إلى المهندس أمين الليودي الذي ألقي القبض عليهم في مسكنه، كل من الدكتور أبو زيد نبوي محمد الأستاذ بكلية الزراعة جامعة المنوفية، والدكتور السيد عبد النور عبد الباري الأستاذ بكلية الزراعة جامعة الزقازيق، والدكتور أسامة عبد العزيز عبد العاطي الأستاذ بطب كفر الشيخ، وغيرهم. وقد وجهت إليهم تهم منها أنهم يتولون إدارة النشاط الطلابي داخل التنظيم، وأنهم كانوا وراء كل المظاهرات التي نفذها طلبة الإخوان في مختلف المحافظات، والقيام بنشر أفكار الإخوان ومبادئ الجماعة، وتجنيد عناصر جديدة لعضويتها، ووضع خطط لتأسيس تنظيم نسائي داخل الجماعة من بين الطالبات، كذلك القيام بجمع تبرعات مالية كبيرة تحت ستار تقديم دعم مالي لمساندة الانتفاضة الفلسطينية (٤٩).

هذا وقد قامت السلطات المصرية - في خطوة مفاجئة - بإطلاق سراح عضو مكتب الإرشاد في الجماعة الدكتور رشاد البيومي، تنفيذا لقرار أصدرته نيابة أمن الدولة العليا. وجاء الإجراء بعد ثلاثة أيام فقط من إعلان الجماعة تنصيب مأمون الهضيبي مرشدا عاما لها. وشمل قرار إطلاق البيومي ١٩ آخرين من رموز الإخوان، كانوا قد أوقفوا معه ضمن حملة أمنية في ١٩ سبتمبر ٢٠٠٢ حيث وجهت إليهم تهما منها الانضمام إلى تنظيم بهدف إلى قلب نظام الحكم وحيازة مطبوعات تحض علي كراهية الحكومة في البلاد. وقد أعربت أوساط إخوانية عن ارتياحها إلى القرار، وصرح محامي الإخوان عبد المنعم عبد المقصود، أن الإخوان سيستمرون علي النهج الذي تتبعه منذ سنوات طويلة والذي يقوم علي العمل السلمي والدعوة بالموعظة الحسنة(٥٠).

www.alkottob.com

ويمكن حصر بعض القضايا المتهم فيها عناصر من الإخوان المسلمين خلال عام ٢٠٠٢ فقط وعلى سبيل المثال، فيما يلي:

- القضية رقم ١٠٦٦ لسنة ٢٠٠١ والمتهم فيها ١٦ متهماً بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة (بدأت تلك القضية في نهاية ٢٠٠١).
- القضية رقم ١٩٦ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ٨ متهمين بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة.
- القضية رقم ٥٨٣ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ٦ متهمين بطبع منشورات تتهم النظام بعدم القيام بدوره تجاه الشعب.
- القضية رقم ٧٠٣ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ٢٢ متهماً بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة سياسياً.
- قضية رقم ٧٦٠ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ٢٨ متهماً بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة سياسيا.
- القضية رقم ٧٩٦ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ٣٣ متهماً بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة سياسياً.
- القضية رقم ٨٦٨ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ١٢ متهماً بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة سياسياً.
- القضية رقم ٨٧٢ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ٥ متهمين بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة سياسياً.
- القضية رقم ٨٧٦ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ٦ متهمين بالانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين المحظورة سياسياً.
- القضية رقم ٨٨١ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ٢١ متهماً بالانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين المحظورة سياسياً.
- القضية رقم ٨٨٤ لسنة ٢٠٠٢ والمتهم فيها ٢ بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة.(٥١)

ويتضح من خلال العرض السابق مدي اضطراب العلاقة بين الدولة المصرية وجماعة الإخوان المسلمين، وأن العلاقة بينهما تشهد مداً وجزراً، في ضوء حملات الاعتقال والقبض علي أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة، وإحالة معظمهم إلى محاكم عسكرية. والملاحظ أنه في كل تلك المرات وجهت إلى أعضاء وقيادي الجماعة نفس الاتهامات تقريبا (تشكيل تنظيم سري مناهض لنظام الحكم، حيازة وإحراز منشورات تحض علي قلب هذا النظام، الإعداد لمظاهرات من شأنها تكدير السلم والأمن العام). والحقيقة التي لا جدال فيها أن حملات القبض والاعتقال ضد الجماعة من قبل الدولة تعبر وبشكل واضح عن انتهاج الحكومة المصرية لاستراتيجية ثابتة تجاه الجماعة منذ نهاية عام ١٩٩٤، يمكن تسميها بـ "استراتيجية الإجهاض المبكر"(٥٢).

ج - الإخوان المسلمون في البرلمان

يحظى العمل السياسي بمكانة كبيرة لدى جماعة الإخوان المسلمين، فقد استطاعت الجماعة أن تتغلغل في هيئات ونقابات مهنية واتحادات طلابية، ليس هذا فحسب بل استطاعت - رغم الحظر القانوني المستمر عليها - أن تخوض الانتخابات التشريعية بنجاح ثلاث مرات في أعوام (١٩٨٤، ١٩٨٧، ٢٠٠٠). وسوف ينصب تحليلنا على الانتخابات الأخيرة وأداء نواب الإخوان داخل البرلمان.

كان أبرز التطورات التي خصت جماعة الإخوان في مجلس الشعب خلال عام ٢٠٠٢ هو إسقاط عضوية الدكتور جمال حشمت نائب الإخوان المسلمين عن دائرة دمنهور بمحافظة البحيرة. وقد وافق المجلس على إسقاط عضويته في جلسة ٢٠٠٢/١٢/١٤ بأغلبية ٣٣٧ نائباً من إجمالي عدد أعضاء المجلس البالغ ٤٥٤ عضواً بعد مناقشات ساخنة بين مؤيدي ومعارضي القرار. وجاء إبطال عضوية النائب الإخواني تنفيذا لقرار محكمة النقض ببطلان الانتخابات التي تمت عام ٢٠٠٠ في دائرة دمنهور بسبب وقوع أخطاء في فرز أوراق الانتخاب ورصد النتائج، وذلك بعد أن تقدم بالطعن عليها خيري قلج مرشح حزب الوفد في تلك الانتخابات. وقد أعلن النائب الإخواني جمال حشمت أثناء مناقشة المجلس تقرير اللجنة التشريعية الذي قضي بقبول قرار محكمة النقض، أنه يرفض هذا التقرير لازدواج معايير اللجنة. وطالب حشمت بتشكيل لجنة خاصة لإعادة فحص أوراق الانتخابات، أسوة بما قررته اللجنة من قبل بشأن تسعة تقارير لمحكمة النقض في طعون انتخابية كانت - حسب رأيه - أشد وضوحاً من تقريرها ضده، إلا

www.alkottob.com

أن اللجنة التشريعية شكلت لجانا خاصة برئاسة وكيل المجلس أقرت صحة عضويتهم ورفض تنفيذ أحكام القضاء.

أداء نواب الإخوان المسلمون خلال الدورة الثالثة للمجلس

شهدت تلك الدورة نشاطاً مكثفاً من جانب أعضاء الجماعة داخل البرلمان، سواء فيما يتعلق بعضوية اللجان النوعية داخل المجلس أو فيما يتعلق بالمشاركة في الأنشطة الرقابية.

١- عضوية اللجان النوعية: بدأ نواب الإخوان الدورة الثالثة لمجلس الشعب بحركة تنقلات بسيطة بين اللجان النوعية، حيث انتقل الدكتور أكرم الشاعر إلى لجنة العلاقات الخارجية كعضو أساسي، واستمر بلجنة الخطة والموازنة كعضو احتياطي وهي اللجنة التي شارك فيها الشاعر كعضو أساسي طوال الدورتين الماضيتين. كما انتقل الدكتور محمد مرسي المتحدث باسم نواب الإخوان إلى لجنة الشئون الدستورية والتشريعية كلجنة احتياطية بدلا من لجنة الصناعة والطاقة، إضافة إلى وجوده بلجنة التعليم والبحث العلمي كعضو أساسي. وانتقل الدكتور حمدي حسن من لجنة الصحة إلى اللجنة الاقتصادية كعضو أساسي، وإلى لجنة الصحة كعضو احتياطي. كما انتقل النائب محمد العدلي إلى لجنة الشباب كعضو أساسي، واستمر النواب علي لبن ومحمد الغرباوي في لجنة التعليم، ومحفوظ حلمي ومصطفى محمد مصطفى بلجنة الصناعة، وعزب مصطفى وصابر عبد الصادق في لجنة الإسكان، والسيد عبد الحميد بلجنة الصحة، والسيد حزين بالزراعة والري، وحسين محمد إبراهيم بلجنة الاقتراحات والشكاوي، ومصطفى عوض الله بلجنة الشئون العربية، وعلي فتح الباب بلجنة القوي العاملة، وحسين الشورة بلجنة الإدارة المحلية كعضو أساسي ولجنة النقل كعضو احتياطي.

٢- المشاركة في الرقابة البرلمانية: تقدم نواب الإخوان بعدد من الاستجوابات المهمة، كان أهمها استجواب الدكتور أكرم الشاعر عن بحيرة المنزلة، واستجوابين للدكتور حمدي حسن عن تدمير بحيرة مريوط والمشروع الإنمائي للتطوير وتنمية الفلاح المصري، واستجواب النائب حسين محمد إبراهيم عن كارثة شركة النصر للملاحات، بالإضافة إلي عدد من الاستجوابات الأخرى المتعلقة بقضايا الزراعة والبنوك والتعليم(٥٣). وبالإضافة إلي الاستجوابات فقد تقدم نواب الأخوان بعدد من طلبات الإحاطة والأسئلة ومشاريع القوانين. ونعرض فيما يلي بعض تلك النماذج.

أ- الاستجوابات:

تقدم نواب الإخوان بعدد من الاستجوابات شملت استجوابين للدكتور حمدي حسن، تعلق الأول بتدمير بحيرة مريوط بالإسكندرية والتلوث الذي أصابها والإهمال المتعمد من قبل المسئولين للبحيرة. أما الاستجواب الثاني، فقد تعلق بأسباب توقف المشروع القومي الإنمائي للفلاح المصري. واللافت للنظر أن هذا الاستجواب يعد أول استجواب في تاريخ البرلمان المصري الذي يستند إلي شرائط فيديو عن المشروع كوثائق رئيسية للاستجواب. وتقدم بالاستجواب الثالث الدكتور أكرم الشاعر حول تجفيف بحيرة المنزلة ببور سعيد والإهمال والتدهور الذي أصاب البحيرة نتيجة السياسات الخاطئة وغياب الإدارة الفاعلة. أما الاستجواب الرابع فقد تقدم به النائب حسين محمد إبراهيم حول مشروع مساكن النصر للملاحات وخسائره التي قدرها النائب بما يقرب من نصف مليار جنيه. وأكد النائب أن لديه المستندات الدالة على هذه الكارثة وأن هناك جهات كثيرة شريكة في هذه الكارثة.

كما تقدم النائب عزب مصطفى باستجواب آخر حول الفساد بالبنوك. وذهب إلي أن لديه مستندات

www.alkottob.com

خطيرة ومهمة تثبت تورط شخصيات مصرفية في تسهيل منح القروض لرجال الأعمال الهاربين، وأن استجوابه يمثل محاولة لإنقاذ الوضع المتردي في هذا القطاع الحيوي. وركز الاستجواب على أسباب وصول هذا القطاع لهذا المنحنى الخطير، وتأثير ذلك على المجتمع المصري من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية. كما عرض النائب لأساليب العلاج التي يمكن الاعتماد عليها لإنقاذ الوضع، كما قدم أيضاً رؤية بديلة لإصلاح الجهاز المصرفي من خلال بعض التجارب الإسلامية (٥٤). وحول الآثار السلبية لقرار إلغاء المنطقة الحرة ببور سعيد، قدم الدكتور أكرم الشاعر استجواباً لرئيس الوزراء السابق الدكتور عاطف عبيد، أكد فيه خطأ قرار إلغاء المنطقة الحرة ببور سعيد، مؤكدا على الآثار السلبية التي رتبها القرار خاصة انخفاض دخل المحافظة بسبب تراجع الدخل من الرسوم الجمركية وضعفت حركة السياحة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يناقش فيها الشاعر استجواباً بالمجلس رغم أنه قدم خمسة استجوابات قبل ذلك لم تأخذ دورها في المناقشة (٥٥).

وقدم النائب الدكتور حمدي حسن استجواباً للدكتور عاطف عبيد والدكتور يوسف والي وزير الزراعة السابق، حول المشروع الإرشادي الإنمائي لتطوير البيئة الإنسانية في الصحراء المصرية، وهو المشروع المدرج في خطة الدولة الخمسية، حيث اتهم النائب الإخواني الدكتور عاطف عبيد والدكتور يوسف والي بأنهما مسئولان عن إيقاف وغلق أحد المشاريع القومية الناجحة، وإهدار نتائج أبحاثه التي نتج عنها زيادة غير مسبوقة في غلة الفدان الواحد من القمح بشهادة كل المسئولين المتابعين للمشروع. وطالب النائب بإيقاف هدم المشروع "الرائد في فكرته" والذي نجح في "تقديم نموذج لمنزل صحراوي" وفقا للنموذج الذي صاغه العالم المصري العالمي حسن فتحي، وبتكلفة تمثل ٥٪ فقط من تكلفة النظام العادي. كما وجه النائب اتهاماً لكل من الدكتور عبيد والدكتور والي، بتفويت الفرصة على مصر في أن تكون السوق الأولى للاستثمار في الشرق الأوسط وفقاً لتقارير وشهادة اليونسكو، وإضعاف قدرة مصر على تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء والماء بسبب إهمالهما في تطوير مصادر أخرى بديلة للوادي ونهر النيل، وإهدار المال العام بسبب تعيين إدارة مالية فاسدة. وأكد النائب في استجوابه أن المشروع أنشأ ٢٤ مركزاً بحثياً إرشادياً من أقصى شمال الوادي إلى حلايب وشلاتين، ومن الصحراء الشرقية وسيناء شرقاً حتى الصحراء الغربية غرباً، كما أحيا ١٢ حرفة كادت أن تندثر، إضافة إلى تمويل المشروع من خلال منحة أوروبية لا ترد، والذي رأى فيه الاتحاد الأوروبي نموذجاً مثالياً. وأضاف النائب أن وزير الزراعة وصف المشروع في خطاب رسمي له، بأنه مفخرة، ثم أصدر قراراً بغلقه !! (٥٦).

ب. الأسئلة وطلبات الإحاطة

تعرضت معظم الأسئلة وطلبات الإحاطة التي تقدم بها نواب الإخوان في البرلمان للكثير من السياسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية، وذلك على النحو التالي:

- تقدم النائبان على لبن وأكرم الشاعر بسؤال لرئيس الوزراء عن مشروع إغلاق خمس كليات أزهرية شرعية (ببور سعيد والخانكة وكفر الشيخ)، وتوزيع طلابها على كليات أخرى بدءاً من العام الدراسي ٢٠٠٣ / ٢٠٠٤. وأشار النائبان إلى أن هذا الخبر أثار حالة من التوتر والقلق بين جموع الطلاب وأولياء أمورهم، حيث طالب النائبان الحكومة بالرد السريع لتهدئة الطلاب وأولياء الأمور (٥٧).

- تقدم الدكتور محمد مرسي المتحدث باسم نواب الإخوان وعضو لجنة التعليم بالمجلس، بطلب إحاطة لوزير التربية والتعليم حول تخبط السياسات التعليمية خلال السنوات العشر الماضية، طرح فيه عدة محاور، كان من بينها نظام الثانوية العامة والتغيير ما بين نظام العام الواحد إلى نظام العامين، ومن نظام تحسين المجموع إلى إلغاء التحسين، مما أدى إلى اضطراب المعلمين والطلاب وأولياء الأمور والتأثير على كفاءة

www.alkottob.com

العملية التعليمية. هذا فضلاً عن القرارات المستمرة المخالفة للقانون، مثل إحالة المدرسين إلى وظائف إدارية ونقلهم إلى محافظات نائية دون تحقيق، وغير ذلك من القرارات التي تصدرها الوزارة والتي أدت إلى الحالة التي وصل إليها التعليم. كما أشار النائب إلى تغيير عدد سنوات المرحلة الابتدائية من نظام الست سنوات إلى نظام الخمس سنوات، ثم الرجوع إلى نظام الست سنوات مرة أخرى، الأمر الذي أحدث ربكة في مقررات المرحلة الابتدائية خلال العقد الماضي، فضلا عن آثارها السلبية على استقرار العملية التعليمية (٥٨).

- وفي سؤال لرئيس الوزراء يوم الأحد ٢٠٠٣/٩/٢٨، اتهم النائب عزب مصطفى الحكومة المصرية بتبديد ستة مليارات جنيه من موازنة الدولة، أنفقتها الحكومة على شراء سياراتها خلال ٢٠٠٢/٢٠٠٣. وذهب النائب إلى أن تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات عن الموازنة العامة للدولة خلال عام ٢٠٠٢ / ٢٠٠٣ كشف عن فضائح البذخ الحكومي فيما يتعلق بالسيارات، حيث أشار التقرير إلى أن البذخ الحكومي وصل حد استيراد مستلزمات تشغيل وصيانة سيارات الحكومة من الخارج. كما أشار التقرير أيضاً إلى أن هذه المستلزمات وأموراً أخرى، مثل الوقود والزيوت وقطع الغيار، بلغت ٦,٦ مليار جنيه من ميزانية الوزارات. وتساءل النائب عن مدى مصداقية التصريحات الحكومية السابقة الخاصة بترشيد الإنفاق والحد من البذخ الحكومي، في الوقت الذي تدخل فيه الأزمة الاقتصادية التي يمر بها الاقتصاد المصري(٥٩).

- تقدم النائب حسنين الشورة بسؤال لرئيس مجلس الوزراء عن زيادة أسعار السلع الأساسية، والتي شملت قائمة واسعة من السلع المهمة خاصة الخبز والزيت والسكر والملابس والأدوات المدرسية ومصاريف الدراسة..إلخ . وتساءل النائب عن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة أو تلك التي تنوي اتخاذها لضبط الأسعار(٦٠).

- تقدم النائب محفوظ حلمي بسؤال إلى رئيس الوزراء ووزير قطاع الأعمال العام آنذاك، طالب فيه بتقديم كشف حساب لشركات القطاع العام وأرباحها وخسائرها، والإجراءات التي اتخذتها الوزارة لمحاسبة المتسببين في انهيار كثير من هذه الشركات. واستشهد النائب في سؤاله بأحد التقارير الصادرة عن الجهاز المركزي للمحاسبات عن تقويم الأداء المالي لشركات قطاع الأعمال والقطاع العام خلال عام ٢٠٠٢، والذي كشف فيه الجهاز المركزي عن انهيار ٢٢٨ شركة بسبب الانحرافات الموجودة بهذه الشركات، حيث قامت إدارة هذه الشركات بإنفاق مليارات الجنيهات على مشاريع غير مدروسة دراسة جيدة، بالإضافة إلى تطبيق سياسات شرائية غير سليمة، مما تسبب في وقوع خسائر فادحة بها. وأكد النائب في سؤاله أنه رغم تحذيرات الجهاز المركزي من انهيار هذه الشركات، بسبب سوء الإدارة والإهمال وضعف الرقابة والخلل في الهياكل التمويلية وتراكم الديون المحلية والخارجية، لم يتحرك أحد لمحاسبة المسئولين عن هذا الانهيار(٦١).

- تقدم النائب على فتح الباب بسؤال لوزير الخارجية حول امتلاك "الصهاينة" صواريخ نووية تهدد الأمن القومي المصري. واستند النائب في سؤاله إلى تأكيد التقرير السنوي لسباق التسلح في العالم الذي يصدر عن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن، امتلاك "الكيان الصهيوني" قدرات نووية كبيرة وأن ترسانته النووية تضم ١٠٠ رأس نوويا يمكن أن تطلق عن طريق صواريخ "أريحا - ١" أو "أريحا - ٢"، التي يتراوح مداها ما بين ٥٠٠ - ٢٠٠٠ كيلو متر. وأضاف النائب أن التقرير قد أشار إلى سعي "الصهاينة" لنشر بطاريات صواريخ أرو - ٢، المضادة للصواريخ بعيدة المدى، بالإضافة إلى وجود مشروع أمريكي يبدأ تنفيذه في أكتوبر ٢٠٠٣ ويتضمن مد "الكيان الصهيوني" بمعدات تمكنه من استخدام ما لديه من مخزون قنابل يبلغ وزن الواحدة منها ٩٠٠ كيلو جرام، بشكل أكثر فاعلية ودقة. وتساءل النائب عن موقف مصر من هذا الخطر الذي يهدد حدودها(٦٢).

- كما قدم النائب السيد حزين سؤالاً مهما لوزير الخارجية أيضا عن القواعد العسكرية الأمريكية

www.alkottob.com
Abu Nour

الموجودة على الأراضي المصرية. وأشار النائب إلى أن وزير الإعلام آنذاك السيد صفوت الشريف قد صرح في حديث له لإحدى الصحف القومية في ٢٠٠٣/٤/٥، قائلاً: "الحمد لله لا توجد أية قواعد عسكرية لأية قوة من القوى فوق أراضينا، ولا ينطلق منها أي صاروخ أجنبي". وأكد النائب أن هذا التصريح جاء مخالفاً لما نشرته الطبعة العربية من مجلة "النيوز ويك" في عددها الصادر في الأول من أبريل ٢٠٠٣، نقلاً عن نشرة للمخابرات العسكرية الأمريكية جاء فيها "إن مصر بها خمس قواعد عسكرية أمريكية: ثلاث منها بحرية واثنتان بريطان، وأنها متمركزة في شبه جزيرة سيناء وعلى طول البحر الأحمر". وقدم النائب مع سؤاله صورة لحديث وزير الإعلام وصورة لما نشرته المجلة الأجنبية، مطالباً بضرورة معرفة الحقيقة في أقرب وقت(٦٣).

- تقدم النائب الدكتور محمد مرسي بطلب إحاطة إلى كل من رئيس الوزراء ووزير التعليم العالي والبحث العلمي حول تدني وفساد الخدمات الصحية في المستشفيات التعليمية. وذهب النائب إلى أن تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات أكد على وجود مخالفات جسيمة داخل المستشفيات التعليمية، مثل وجود كميات كبيرة من الأدوية منتهية الصلاحية يستهلكها المرضى يومياً، والعجز الحاد في عدد الأسرة لمرضى العلاج المجاني، وعدم توفر بعض الأدوية والمستلزمات الطبية ببعض المستشفيات رغم أهميتها، فضلاً عن تدني مستوى النظافة. الأمر الذي انعكس على مستوى أداء الخدمة العلاجية المقدمة بهذه المستشفيات لمحدودي الدخل وغير القادرين، مما يؤثر على صحة المواطن المصري (٦٤).

كما تقدم النائب نفسه بطلب إحاطة آخر عن إهدار أكثر من ٢٠ مليار جنيه بقطاع الإسكان، حيث أكد أن المجتمعات العمرانية الجديدة لا تزال تعاني من ضعف الخدمات الحيوية مثل عدم وجود وسائل مواصلات بالقدر الكافي، وعدم وجود مدارس ومستشفيات فضلاً عن غياب الوحدات الأمنية، الأمر الذي جعل المخزون الراكد بهذا القطاع يصل إلى ٥,٦ مليار جنيه قيمة الوحدات السكنية والأراضي التي أعدت لأغراض سكنية وصناعية وتجارية بهذه المدن. وأضاف النائب أنه رغم القيمة الضخمة للمخزون إلا أن الاستثمار الفاخر لهذه المدن استنزف أكثر من ١٣ مليار جنيه بدون وجود قوة شرائية وطلب حقيقي على هذا النوع من العقارات، فضلاً عما كشف عنه تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات من تجاوزات داخل الجمعية التعاونية للبناء بمحافظة الفيوم التابعة لهيئة تعاونيات البناء والإسكان، حيث قامت الجمعية بجمع مبلغ ألف جنيه من كل عضو من أعضاء نقابة المهن التعليمية بهدف إقامة مساكن للمعلمين بأرض المدابغ بمدينة الفيوم منذ عام ١٩٩٦، إلا أنه لم يتم تسليم أي وحدة من تلك الوحدات حتى تاريخ التقدم بطلب الإحاطة، وذلك رغم مرور خمس سنوات على الموعد المحدد للتسليم، بل إنه لم يتم بناء هذه الوحدات حتى تاريخ التقدم بطلب الإحاطة (٦٥).

- وفي طلب إحاطة آخر للنائب نفسه تقدم به لوزير التربية والتعليم آنذاك كشف فيه النائب عن إهدار ٢,٦ مليون جنيه استشمارات فعلية لهيئة الأبنية التعليمية. وأشار النائب إلى ما تضمنه تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات عن الأبنية التعليمية من أن الهيئة قد أنفقت استثمارات بلغت ٢ مليون و ٦١٥ جنيها على مشاريع لم تتم الاستفادة منها، فضلاً عن عدم الاستفادة من بعض الإنشاءات التعليمية البالغ تكلفتها نحو ٣,٢ مليون جنيه بمحافظتي أسيوط والغربية (٦٦).

ج- مشاريع القوانين

- تقدم النائب الدكتور أكرم الشاعر بمشروع قانون لتعيين المدرسين الذين تخرجوا ولم يجدوا فرص عمل بعقود مؤقتة لمدة ثلاث سنوات متصلة على أن يتم بعدها مباشرة تعيينهم رسمياً دون الرجوع إلى مسابقات الوزارة. وقد وافقت لجنة الاقتراحات والشكاوى بالمجلس على مشروع القانون، كما وافقت اللجنة وممثلو وزارة المالية على اقتراح النائب بأن يحصل هؤلاء المدرسون على رواتبهم بنظام المكافأة الشاملة، وأن تدرج لهم نسب من الدرجات الوظيفية، وذلك كجزء من حل مشكلة البطالة (٦٧).

Abu Nour
www.alkottob.com

- كما قدم الدكتور أكرم الشاعر أيضاً مشروع قانون بقضى بالسماح للطلاب الحاصلين على الثانوية الأزهرية الالتحاق بكلية الشرطة. وقد وافق مجلس الشعب على مشروع القانون بعد موافقة وزارة الداخلية عليه، وتم تحويله إلى لجنة الدفاع والأمن القومي باعتبارها لجنة الاختصاص (٦٨).

- تقدم النائب الدكتور حمدي حسن بمشروع قانون لمنع حبس الصحفيين والأطباء احتياطياً بسبب ممارستهم المهنية، فاقترح النائب في مشروع قانونه إضافة مادة جديدة لقانون الإجراءات الجنائية تحمل رقم ١٣٥، تنص على عدم جواز الحبس الاحتياطي في الجرائم التي تقع بواسطة الصحف، إلا إذا كانت الجريمة من الجرائم المنصوص عليها في المادة ١٧٩ من قانون العقوبات، بالإضافة إلى عدم جواز الحبس الاحتياطي في الجرائم التي تقع من الأطباء أثناء تأدية عملهم، في حالة وقوعهم في أخطاء غير عمدية قد تؤدي للإضرار بالمريض. وأكد النائب في المذكرة الإيضاحية لمشروع القانون أن الحبس الاحتياطي سلب لحرية المتهم لمدة من الزمن، تحددها مقتضيات التحقيق وفق ضوابط قررها القانون، ولذلك يعتبر الحبس الاحتياطي - من حيث مساسه بالحرية الفردية - أخطر إجراءات التحقيق على الإطلاق (٦٩).

د- بيان الحكومة والموازنة

جدد نواب الإخوان المسلمين رفضهم - للعام الثالث على التوالي- للبيان المالي والموازنة العامة للدولة، التي قدمها الدكتور عاطف عبيد رئيس مجلس الوزراء السابق إلى مجلس الشعب. وأكد نواب الإخوان أن الموازنة جاءت بأرقام في أرقامها، مهمشة في تطبيقاتها، ولذلك فهي بعيدة عن الواقع والإمكانيات الحقيقية للدولة. وقدم نواب الإخوان - الذين كانوا أكثر النواب مشاركة في الرد على الموازنة - رداً مفصلاً على البيان المالي والخطة، انتهى برفضهم للموازنة بدعوى أنها لا تعبر عن طموحات ومتطلبات عامة الشعب المصري.

وقد رفض الدكتور محمد مرسي - رئيس الهيئة البرلمانية لنواب الإخوان - التفسير الذي قدمته الحكومة للأزمة الاقتصادية وما جاء في البيان المالي لوزير المالية والذي أرجع الأزمة الاقتصادية التي تشهدها البلاد إلى المتغيرات الاقتصادية العالمية وأحداث ١١ سبتمبر وحرب العراق. وذهب مرسي إلى أنه رغم وجوب أخذ هذا الأمر في الاعتبار، إلا أن الحكومة اعتادت إلقاء مشكلاتها على الخارج. وإذا كانت الأحداث العالمية قد أثرت إلى هذا الحد في مقدرات الاقتصاد المصري، فإن هذا يعني أنها لم تستوعب الدروس من الأزمات التي مر بها الاقتصاد العالمي خلال السنوات القليلة الماضية في جنوب شرق آسيا وروسيا ومن قبلهما المكسيك، ذلك أنه في الوقت الذي مازال الاقتصاد المصري يعاني من الآثار السلبية لأزمة جنوب شرق آسيا، فقد تعاقت فيه الاقتصادات صاحبة الأزمة مع نهاية عام ١٩٩٩. وطالب مرسي أن يكون لدى الحكومة إجراءات مسبقة للتعامل مع الأزمات الدولية لتقليل خسائر الاقتصاد المصري. واستطرد الدكتور محمد مرسي قائلاً: إن البيان المالي قد أشار إلى أن النتائج الفعلية للموازنة العامة للدولة في السنوات السابقة قد عكست عدم تناسب النمو في موارد الموازنة ومعدلات النمو المتزايد في الإنفاق العام، مما نتج عنه عجز في الموازنة، وهو ما يطرح تساؤلات عديدة عن تلك الفترة، خاصة أن وزير المالية آنذاك كان قد تولى منصبه منذ عام ١٩٩٩، وهذه هي المرة الثالثة التي يلقى فيها بيان عن موازنة الدولة من إعداده. وتساءل النائب عن المسئول عن هذه التقديرات غير الصحيحة والتي تحمل الدولة أكثر من طاقتها، خاصة أن جهة الاختصاص بإعداد وعرض الموازنة العامة هي وزارة المالية (٧٠).

Abu Nour www.alkottob.com

خاتمة:

لاشك أن حركة الإخوان المسلمين فى مصر، هى أهم حركة إسلامية فى العصر الحديث، أثرت فى كثير من بلدان العالم العربى، وبعض بلدان العالم الإسلامى، واستمر هذا التأثير طيلة الـ٧٥ عاماً الماضية.

وفى ظل التطورات الهائلة، التى يشهدها العالم من حولنا، ومع حجم المتغيرات المتسارعة، التى تمر بالمنطقة العربية والإسلامية، فإن حركة الإخوان المسلمين فى مصر، حاولت إحداث تطوير وتغيير كبير على مستوى الفكر والهيكل، والتعامل مع السلطة، والأحزاب السياسية الأخرى، وإجراء مصالحة تاريخية، وهى تحاول جاهدة حل إشكالية الوجود القانونى، ولعل أكبر دليل على ذلك طرحها لمبادرة الإصلاح الشامل فى مصر.

فقد طور الإخوان تجربتهم السياسية فى ظروف صعبة، حيث اعتمدوا سياسة النفس الطويل، والتدرج فى الخطوات، وتراكم الخبرات. وقد خرجوا من التجربة بتمثيل شعبى كبير، وقبول سياسى واضح، فهم اعترفوا بأهمية وصلاحية التعددية الحزبية فى ظل نظام إسلامى. وأعطوا المرأة حقها السياسى لتكون مرشحة وناخبة ونشيطة فى المجال السياسى، إعمالاً لحقها الشرعى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وحافظوا على علاقة طيبة بالأقلية الدينية فى مصر وفقاً للمبدأ الشرعى "لهم مالنا وعليهم ما علينا" وهم يحاولون فى الفترة الأخيرة كسب ثقة النظام الحاكم، الذى يتوجس خيفة من قوتهم وشعبيتهم. ومهما يكن من أمر، فإن موضوع علاقة الإخوان المسلمين بالسلطة، سيكتسب أهمية كبيرة فى المستقبل، فبرغم القمع المباشر وانتهاج سياسة التضييق، فإن الإخوان مازالوا متواجدين وبقوة فى الشارع المصرى.

فعلى الدولة انتهاج استراتيجية الاحتواء والترويض. وعلى الإخوان إدراك اللعبة واستيعاب مقتضياتها والتعامل معها بإيجابية ..

الهوامش:

١. عماد صياء: الإخوان المسلمون .. الصراع على بحكم المستقبل، مجلة الديمقراطية، ع ٩ السنة الثالثة ٢٠٠٣، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، ص ١٢٥ .

٢ - ضياء رشوان: «الإخوان المسلمون .. ما بعد مشهور»، شبكة إسلام أون لاين نت، ٢٠٠٢/١١/١٧، ص ٢،١ http://www.islamonline.net.

٣- مجلة **المصور**، بتاريخ ٢٠٠٢/١١/١ .

٤- مجلة **الأهرام العربي**، ٢٠٠٢/١١/٩

٥- مجلة **آخر ساعة**، ٢٠٠٢/١١/٦

٦- ضياء رشوان: مرجع سابق ذكره، ص ٢ .

٧- مجلة **آخر ساعة**: مرجع سابق ٢٠٠٢/١١/٦

٨ - عبد الرحيم علي: «الإخوان حسموا أمر مرشدهم الجديد»، شبكة إسلام أون لاين نت، ٢٠٠٢/١١/٢٥، ص ١ http://www.islamonline.net.

Abu Nour www.alkottob.com

٩- عبد الله النفيسي: (محرر) **الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية**، أوراق في النقد الذاتي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٩، ط ١، ص ٢٤٧ .

١٠- محمد عمارة، من مظاهر الخلل في الحركات الإسلامية المعاصرة، في عبدالله النفيسي، المرجع السابق، ص ٣٤٦ .

١١- محمد المختار الشنقيطي، ملامح المأزق القيادي لدى الإخوان المسلمين، الجزيرة نت، ٢٠٠٣/١/٨، ص ٣ .

١٢- المرجع السابق ذكره، ص ٤ .

١٣- المرجع السابق ذكره، ص ٥ .

١٤- المرجع السابق ذكره، ص ٦ .

١٥ - المرجع السابق ذكره، ص ٧ .

١٦- فريد عبد الخالق: «نحو مراجعة المقولات والآليات»، في عبدالله النفيسي، مرجع سابق، ص ٣١٦

١٧- نص حوار د. عصام العريان على الانترنت.

httP://www.Ikhwan.net/vb/26/11/2002. P.3 .

18- ibid. P.4.

19- Ibid. P.6.

٢٠- حسن الترابي: الحركة الإسلامية في السودان، التطور والكسب والمنهج، الخرطوم، ١٤١٠ هـ، ص ٢٣٠.

٢١- أحمد كمال أبو المجد **رؤية إسلامية معاصرة ... إعلان مبادئ**، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩١، ص ٦ .

٢٢- خالص جلبي، في النقد الذاتي، ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، ط ٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ص ٢٠ .

٢٣- عقدت هذه الندوة بمركز دراسات الوحدة العربية، القاهرة، في الفترة ما بين ٢٥ - ٢٧ سبتمبر، ١٩٨٩ .

٢٤- عبد الرحيم علي، حوار مع د. عصام العريان، إسلام أون لاين نت، مرجع سابق، ص ٤ .

٢٥- عبدالرحيم علي، مبادرة إخوانية لصالح النظام المصري، إسلام أون لاين نت، ٢٠٠٢-١٠-٩ .

٢٦ - عبدالرحيم علي، مبادرة الحيار الرابع بين الحكومة والإخوان، إسلام أون لاين نت، ٢٠٠٢-١٠-١٣ .

٢٧ - عبد الرحيم علي، «مبادرة نوح ... الإخوان بتحفظون والأمن يشكك»، إسلام أون لاين نت، ٢٠٠٢/١٠/١٠، ص ١، ٢ .

٢٨ - المرجع السابق.

٢٩- جمال سلطان، «التيار التجديدي في الإخوان المسلمين»، **المنار الجديد**، ع ٢٠، أكتوبر ٢٠٠٢، ص ٦ .

٣٠- المرجع السابق ذكره، ص ٧ .

٣١ - طارق البشري، حول العروبة والإسلام، ورقة قدمت إلى الحوار القومي - الديني، أوراق عمل ومناقشات الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٩ .

Abu Nour www.alkottob.com

٣٢ - نص حوار د. عصام العريان على الانترنت. مرجع سابق ذكره، ص ٤ .
httP://www.ikhwan.net/vb/26/11/2002 . P.4.

٣٣ - المرجع السابق، ص ٦ .

٣٤ - زكي أحمد: الديمقراطية في الخطاب الإسلامي الحديث والمعاصر، المستقبل العربي، السنة ١٥، ع ١٦٤، أكتوبر ١٩٩٢، ص ٣٧ .

٣٥- المرجع السابق ذكره، ص ٣٩ .

٣٦- نص حوار د. عصام العريان، مرجع سابق ذكره، ص ٩ .

٣٧ - رفيق حبيب، «تحولات الجماعات الإسلامية تصطدم بجمود الحكومات»، إسلام أون لاين نت، ٢٠٠٢/٣/٢٠، ص ٣ .

٣٨- محمد المختار الشنقيطي، «الإخوان المسلمون والعلاقة بالسلطة»، الجزيرة نت، ٢٠٠٣/١/٨، ص ١ .
httP://www.algazeera.net

٣٩- المرجع السابق ذكره، ص ٢ .

٤٠- ضياء رشوان، «الإخوان المسلمون ... ما بعد مشهور»، مرجع سابق ذكره، ص ٢ .

٤١- المرجع السابق ذكره، ص ٤ .

٤٢- المرجع السابق ذكره، ص ٥ .

٤٣- المرجع السابق ذكره، ص ٥ .

٤٤- **نافذة مصر**، ٢٠٠٥/١١/١٥.

٤٥- عبد الله النفيسي، «مستقبل الصحوة الإسلامية»، ضمن كتاب الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩، ص ٣٢٩ .

٤٦- عبد الله النفيسي: (محرر) الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية، مرجع سابق ذكره، ص ٢٥ .

٤٧- عبد المتعال الجبري، **لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا؟ حقائق جديدة ووثائق خطيرة**، دار الاعتصام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧، ص ١٧٠ .

٤٨- **الأحرار**، ٢٠٠٢/٦/٣٠.

٤٩- **الحياة**، ٢٠٠٢/٧/١١.

٥٠- **الحياة**، ٢٠٠٢/١٢/٢.

٥١- **تقرير المنظمة المصرية لحقوق الإنسان**، التقرير السنوي العام ٢٠٠٢، المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، القاهرة، ٢٠٠٣.

٥٢. ضياء رشوان، «الإخوان المسلمون . . . ما بعد مشهور»، مرجع سابق، ص ٤

٥٣- **حقائق مصرية، القاهرة**، ٢٠٠٣/٤/١٧.

٥٤- **حقائق مصرية، القاهرة**، ٢٠٠٣/٤/١٧.

٥٥ - **حقائق مصرية، القاهرة**، ٢٠٠٣/٤/١٦.

٥٦- **حقائق مصرية، القاهرة**، ٢٠٠٣/١/١٩.

٥٧- **حقائق مصرية، القاهرة**، ٢٠٠٣/٧/٥.

٥٨- **حقائق مصرية، القاهرة**، ٢٠٠٣/٣/٣.

www.alkottob.com
Abu Nour

٥٩ - نافذة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣/٩/٢٩
٦٠ - نافذة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣/٩/٢٧
٦١- نافذة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣/٩/٤
٦٢- حقائق مصرية، القاهرة، ٢٠٠٣/٤/١٧
٦٣- حقائق مصرية، القاهرة، ٢٠٠٣/٤/٧
٦٤- حقائق مصرية، القاهرة، ٢٠٠٣/٤/١٢
٦٥- حقائق مصرية، القاهرة، ٢٠٠٣/٥/١٨
٦٦- حقائق مصرية، القاهرة، ٢٠٠٣/٥/١٨
٦٧- حقائق مصرية، القاهرة، ٢٠٠٢/١٢/٣٠
٦٨- حقائق مصرية، القاهرة، بدون تاريخ النشر.
٩٦- حقائق مصرية، القاهرة، ٢٠٠٣/٥/٤
٧٠- حقائق مصرية، القاهرة، ٢٠٠٣/٦/١٢

www.alkottob.com
Abu Nour

٢. حزب العدالة والتنمية: نهج الإسلاميين الجدد في تركيا

أولا: إشكالية التوصيف والجذور والتوجه

يثير توصيف حزب العدالة والتنمية إشكالية وجدلا ، فعلى الرغم من أن الحزب ينفي عن نفسه صفة الديني أو الإسلامي بشكل قاطع، ويؤكد احترامه للنظام العلماني في تركيا الذي يكرس الفصل الحاد بين الدين والدولة، إلا أن هناك عاملين يشيران إلى علاقة لا يمكن نفيها بالتيار الإسلامي:

الأول: أن الحزب خرج من عباءة حزب الرفاه الإسلامي ثم وريثه حزب الفضيلة، اللذان أسسهما أبو الإسلام السياسي في تركيا نجم الدين أربكان، وبدا خروجه ولادة لحركة إصلاحية في إطار انقسام إسلامي تركيا إلى محافظين وإصلاحيين.

الثاني: أن معظم قيادات الحزب وكوادره الوسيطة لها تاريخ معروف كناشطين أو رموز للتيار الإسلامي حتى قبل تأسيس حزب الرفاه، أبرز وأكبر وعاء لهذا التيار، عام ١٩٨٣، ويأتي على رأس هذه القيادات زعيم الحزب رجب طيب أردوغان ونائبه الأول عبد الله جول اللذان يعدان تلميذين لأربكان التصقا به لفترة طويلة، وبدرجة أقل قيادات أخرى مثل بولنت أرنج رئيس البرلمان الحالي، وعبد القادر أكسو وزير الداخلية.

بالإضافة إلى ذلك يجمع الكثيرون من غلاة العلمانيين في تركيا على أن حزب العدالة والتنمية له "أجندة سرية" كحزب إسلامي، ويخفي هذه الأجندة التي يريد تنفيذها خطوة بخطوة وعلى مدى طويل، لأنه استفاد من تجربة صدام حزب الرفاه مع السلطة الذي انتهى بحله عام ١٩٩٨ بعد تدخل الجيش ضده في فبراير من العام نفسه أثناء "توليه الحكم فيما وصف "بانقلاب ٢٨ فبراير". غير أنه لا يمكن أخذ مثل هذه الاتهامات أو الشكوك دليلا على أن الحزب إسلامي التكوين والتوجه، لكن الشيء الثابت أنه لا يشبه الأحزاب العلمانية القائمة، ومن ثم نذهب إلى توصيف جديد يتجاوز التصنيفات القائمة وهو أن حزب العدالة والتنمية يشكل توليفة أيديولوجية تتمثل في الإسلام الروحي والعلمانية السياسية. وربما يكون توصيف عبد الله جول بأنه يشبه الأحزاب الديمقراطية المسيحية في أوروبا صحيحا في إطار ما هو معلن عنه من مبادئ وبرامج وممارسات.

وللتعرف أكثر على الجذور الإسلامية للحزب، فمن المفيد البدء باستعراض تاريخ التيار الإسلامي ودوره في الساحة السياسية التركية. وفي هذا الإطار ربما يكون من الأفضل الإشارة أولا إلى حملة مصطفى كمال

Abu Nour www.alkottob.com

أتاتورك على المجتمع التقليدي الذي أنتجته الخلافة العثمانية في تركيا ومحاربته ممارسات هذا المجتمع وقمعه لرموزه الذي بدأ بإعلان الجمهورية العلمانية في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٢٣، ثم إلغاء الخلافة الإسلامية في العام التالي وبعدها المحاكم الشرعية الدينية، والبدء منذ عام ١٩٢٥ في تغريب تركيا ثقافة وحضارة وممارسات، وتكريسه دور الجيش كحارس للنظام الجديد. ومن المهم الإشارة إلى أن ذلك العام شهد إصدار مراسيم عدة تضمنت:

- إغلاق الزوايا والتكايا الموجودة بالدولة.
- إلغاء كل أنواع الطرق ومشايخها، وإلغاء ألقاب الدرويش والمريد والسيد والبابا والأمير والخليفة، والعرافة، وحظر السحر والتنجيم وكتابة التعاويذ والأحجبة والتمائم.
- حظر استعمال عناوين وصفات وأزياء تدل على الطرق الصوفية.
- إغلاق جميع المزارات وقبور السلاطين والأولياء ومشايخ الطرق.
- تشريع عقوبة الحبس مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر لمن يخالف هذه المراسيم.

وفي إطار التوجه ذاته استمدت في تركيا قوانين سويسرية عام ١٩٢٦ وألغيت القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية في قضايا الأحوال الشخصية، بما في ذلك منع تعدد الزوجات وإعطاء المرأة المسلمة حق الزواج من غير المسلم وأن تغير دينها، والمساواة بين الذكر والأنثى في الميراث، كما أعطت القوانين الجديدة للأب حق الاعتراف بولده الذي يولد نتيجة علاقة غير شرعية. وفي نهاية ذلك العام فرض أتاتورك السفور على النساء وحظر عليهن لبس الحجاب وألزمهن ارتداء القبعات؛ وإلا قدم أزواجهن وأقاربهن للمحاكمة. واستكمل محاولة تدمير المجتمع التقليدي بتغريب التعليم من خلال توحيد المدارس واستبدال الحروف اللاتينية باللغة العربية. واستكمل أتاتورك "ثورته" في عام ١٩٣٨ قبيل وفاته بإلغاء المادة التي تنص على أن الإسلام دين الدولة في الدستور.

ولمزيد من فهم مدى الارتباط العكسي بين ولادة التيار الإسلامي والمشروع الأتاتوركي، ربما يكون من المفيد أيضا أن نطرح الأفكار المؤسسة للأيديولوجيا الأتاتوركية، التي كان واضعها ومؤسسها مصطفى كمال يعتقد أن الإسلام هو سبب ضعف وتخلف تركيا، وهي:

١ . فكرة الجمهورية كبديل للنظام الملكي السلطاني والخلافة الإسلامية.
٢ . الفكرة القومية، أي أن يكون الرابط الأساسي بين أبناء الشعب التركي "ملية" أو وطنية وليس الدين.
٣ . فكرة الشعبية، بمعنى ضرب نفوذ الأرستقراطية العثمانية والملاك والإقطاعيين ورجال الدين بتصعيد الطبقات الدنيا من المجتمع في إطار المساواة بين أبناء الشعب.
٤ . فكرة هيمنة الدولة وتحولها إلى أداة لفرض العلمانية والتغريب والتحديث الصناعي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي.
٥ . فكرة الانقلابية، أي الثورة على كل ما هو سائد من الأفكار والأوضاع والمؤسسات التي تعتبر تقليدية ومتخلفة.
٦ . فكرة العلمانية، ليست بالسياق المعروف حسب المصطلح المتداول في الغرب وهو فصل الدين عن الدولة، ولكن سيطرة الدولة على الدين.

وحتى عام ١٩٤٥ تم تطبيق هذه الأفكار بصرامة وصلت إلى حد الدموية أحيانا في قمع الفرق الصوفية ورموز التيار الديني، وبدا أي شخص متدين كأنه عدو محتمل للدولة إلى أن يثبت العكس. وفي ذلك العام تحدث الرئيس عصمت اينونو خليفة أتاتورك عن رغبته في إجراء إصلاحات سياسية بالسماح بإنشاء حزب معارض للحزب الوحيد الذي أسسه أتاتورك - هو حزب الشعب الجمهوري. وبالفعل في عام ١٩٤٦ تم تأسيس الحزب الديمقراطي الذي كان تعبيرا عن رغبة شعبية في التغيير نحو مزيد من الديمقراطية

Abu Nour www.alkottob.com

والحرية. والجدير بالذكر أن التيار الإسلامي وجد في هذا الحزب متنفسا له، رغم أنه كان ضعيفا، ويعبر عن قطاعات محدودة من الجماهير. وفي انتخابات عام ١٩٤٦ نجح الحزب الجديد في شغل ٦١ مقعدا من مقاعد البرلمان من أصل ٤٨٢ مقعدا رغم الفوز الساحق لمنافسة حزب الشعب الجمهوري الحاكم وفي انتخابات عام ١٩٥٠ حقق الحزب الديمقراطي فوزا ساحقا حيث حصل على ٤٠٣ مقاعد مقابل ٦٩ مقعدا لحزب الشعب الجمهوري، وكان ذلك أبرز تطور في تاريخ الجمهورية التركية منذ وفاة أتاتورك عام ١٩٣٨.

وفي إطار الحديث عن جذور التيار الإسلامي نشير إلى أن العقد الذي حكم فيه الحزب الديمقراطي بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٠ شهد تعضيد وتوسيع دور الإسلام في الحياة السياسية التركية، حيث تم إلغاء القانون الذي كان ينص على رفع الأذان بالتركية في عام ١٩٥٠ وعاد للتردد باللغة العربية، وأصبح القرآن يتلى في محطات الإذاعة الرسمية، وبدأ التعليم تدخله دراسات دينية، وجرى إضفاء الشرعية على مدارس الأئمة والخطباء، كما تم بناء ١٥٠٠ جامع وترميم العشرات أيضا. كما عادت الطرق الصوفية إلى ممارسة دورها الاجتماعي واقعيا على الرغم من حظرها قانونيا، وفتحت تكاياها ومدارسها وزواياها، وأعلنت دخولها الساحة السياسية، حيث أيدت الطريقة النقشبندية الحزب الديمقراطي علنا، وتسلل الإسلاميون إلى أحزاب أخرى أيضا، في اتجاه لمزيد من التبلور في أحزاب مستقلة. ليخلقوا معادلة لا تزال قائمة حتى اليوم في السياسة الداخلية التركية، تتمثل في أن تيار الإسلام السياسي هو المعادل الموضوعي للجيش والنخبة العلمانية.

وبعد انقلاب عام ١٩٦٠ عاد الإسلاميون إلى التسلل لحزب العدالة الذي حل محل الحزب الديمقراطي في مواجهة حزب الشعب الجمهوري العلماني، وأسفرت المواجهة في انتخابات ١٥ أكتوبر عام ١٩٦١ عن فوز حزب الشعب الجمهوري بـ ٣٦,٧٪ من أصوات الناخبين، مقابل ٣٤,٧٪ لحزب العدالة وجرى تشكيل حكومة ائتلافية بين الجزبال برئاسة عصمت اينونو. ومن المفارقات الغريبة أن حزب العدالة والتنمية الحالي كان منافسه الرئيس في انتخابات ٣ نوفمبر ٢٠٠٢ هو حزب الشعب الجمهوري أيضا، أي بعد حوالي ٤٢ سنة. وفي عام ١٩٧٥ أسفر التيار الإسلامي عن وجهه صراحة بتشكيل حزب "النظام الوطني" بزعامة نجم الدين أربكان الذي كان قد انتخب عام ١٩٦٩ رئيسا لاتحاد الغرف التجارية والصناعية. وبعد أربكان أول من أطلق فكرة الإسلام السياسي في نظريته المعروفة بالقومية الإسلامية، أي أن الإسلام هو الذي يجمع الأتراك لا الجغرافيا ولا العرق ولا الدولة ذاتها. وكون أربكان رئيسا لاتحاد الغرف التجارية والصناعية يشير أيضا إلى استناد التيار الإسلامي إلى قاعدة من التجار ورجال الأعمال الصغار والمتوسطين في الأناضول منذ البداية، فيما يمكن أن نسميه قاعدة البرجوازية الصغيرة. ولا تزال هذه القاعدة سندا للتيار الإسلامي التقليدي وليس للتيار الإصلاحي الذي يعبر عنه حزب العدالة والتنمية الآن الذي بنى علاقات قوية مع الكثير من كبار رجال الأعمال وأصحاب المجموعات الصناعية والتجارية الكبرى.

غير أنه لم تمض شهور على تشكيل حزب النظام الوطني حتى وقع انقلاب ١٢ مارس عام ١٩٧١ الذي أغلق الأحزاب ومنها هذا الحزب، وذهب أربكان إلى سويسرا. وفي عام ١٩٧٢ وبعد عودة الحياة الديمقراطية إلى تركيا شكل سليمان عارف إيرى صديق أربكان حزب "السلامة الوطني" الإسلامي، وفي عام ١٩٧٣ تولى أربكان رئاسته وأصبح الحزب مؤثرا في الحياة السياسية التركية حتى وقع انقلاب عام ١٩٨٠ الذي ألغى الأحزاب مرة أخرى. ولابد من الإشارة إلى أن حزب السلامة الوطني قد شارك في حكومة ائتلافية بزعامة بولنت أجاويد عقب انتخابات أكتوبر عام ١٩٧٣، إلا أنها سقطت بعد شهور قليلة. وبشكل عام، كان لحزب السلامة الوطني دور في التفاعلات السياسية في حقبة السبعينيات التي شهدت أواخرها تنامي الإسلام السياسي في تركيا بشكل كبير. وأخذ هذا التيار دفعة قوية بعد نجاح الثورة الإيرانية بزعامة آية الله الخميني عام ١٩٧٩ رغم أنه لم تكن هناك علاقة مباشرة بهذه الثورة.

Abu Nour www.alkottob.com

وفي عام ١٩٨٣ أسس أربكان "حزب الرفاه"، وعرض الفكرة القومية الإسلامية بوضوح، تمثلت أبعادها فيما يلي:

١ . الإسلام هو الرابطة الأولى بين الأتراك.

٢ . دور الدولة المهم في عملية التحديث والتصنيع، حيث كان أربكان معجبا بالنموذج الألماني في التصنيع.

٣ . على الدولة أن تحقق العدالة الاجتماعية وتكون "دولة رفاه اجتماعي" أو ما أسمى بـ "النظام العادل".

٤ . رفض النظام المالي القائم على المعاملات الربوية والدعوة لاقتصاد إسلامي.

٥ . معارضة الخصخصة والليبرالية، مع الحفاظ على دور الدولة والقيم الدينية بدلا للجربات الغربية.

٦ . رفض التغريب والدعوة إلى عودة تركيا إلى جذورها الإسلامية.

٧ . الاتجاه إلى العالم الإسلامي كمحيط طبيعي لتركيا ومعارضة فكرة انضمامها للاتحاد الأوروبي.

واستطاع أربكان بمهارته هذه أن يجذب الطبقات المحرومة في الأناضول، والبرجوازية الصغيرة في كل من الأناضول واسطنبول، بالإضافة إلى أتباع الطرق الصوفية، كما اشتهر عنه حفاظه على ممارساته الدينية حتى في أوقات العمل والسفر إلى الخارج.

وفي الحديث عن تطور التيار الإسلامي يجب ذكر أن جزءا من هذا التيار دخل حزب "الوطن الأم" بزعامة تورجوت أوزال، ولذلك لم يكن غريبا أن بعض قيادات الجناح الإسلامي في هذا الحزب انضمت إلى الرفاه ثم الفضيلة فالعدالة والتنمية فيما بعد، مثل عبد القادر أكسو وزير الداخلية الحالي. ويقول الكاتب الإسلامي التركي بشار قبلان إن قادة انقلاب عام ١٩٨٠ شجعوا تيار الإسلام السياسي بشكل عام على النمو والتزعرع بشكل غير مباشر، حيث استخدموا الإسلام كأيدلوجيا ضامنة للنظام في مواجهة الخطر الشيوعي، وهو أمر يشبه ما فعله الرئيس المصري الراحل أنور السادات عندما أراد محاربة الشيوعيين والناصريين في الجامعات بالجماعات الإسلامية في حقبة السبعينيات. وقد فعل هؤلاء القادة ذلك على الرغم من أنهم استشعروا خطورة الإسلام السياسي في شكله المباشر على النظام، لكن هذا الخطر لم يجعلهم يتراجعون عن استعمال الإسلام في صورة الأيدلوجيا الرسمية من أجل السيطرة على المجتمع، فقد استشهدوا بالقرآن والأحاديث النبوية في خطبهم، وجعلوا الدروس الدينية إلزامية في المدارس.

وقد كان الطبيعي أن تقود هذه الازدواجية إلى الصدام بين الإسلاميين والدولة في النصف الثاني من التسعينيات بعد الصعود الكبير لهم الذي بدأ بانتخابات عام ١٩٩١ حيث حصل حزب الرفاه على حوالي ٤٠ مقعدا من مجموع ٤٥٠ مقعدا. أما ذروة هذا الصعود فقد تمثلت في الفوز بالمركز الأول في الانتخابات النيابية عام ١٩٩٥ حيث حصل على ٢١,٣٨٩٪ من أصوات الناخبين، وفي يونيو ١٩٩٦ شكل أربكان أول حكومة يقودها الإسلاميون في تاريخ تركيا المعاصر بعد التحالف مع زعيمة حزب "الطريق القويم" تانسو تشيللر إثر سقوط الحكومة الائتلافية التي جمعت حزبي تشيللر والوطن الأم بزعامة مسعود يلماظ.

وكان قد سبق ذلك نجاح كبير لحزب الرفاه في الانتخابات المحلية عام ١٩٩٤ الذي وصفه الكاتب التركي تصوح جولجور بأنه انفجار سياسي، حيث فاز مرشحوه في المدن الكبرى خصوصا اسطنبول وأنقرة. ويرجع جولجور صاحب كتاب" الحركة الإصلاحية" هذا الفوز إلى تأييد الطرق الصوفية لأربكان والتي ساندته أيضا في انتخابات عام ١٩٩٥ البرلمانية. ويشير الكاتب إلى أن أتباع هذه الطرق هم الذين كانوا وراء نجاح الحركة الإصلاحية في التيار الإسلامي المتمثلة في حزب العدالة والتنمية، خاصة أن الفكرة القومية ثبت فشلها في شكلها الذي قدمه أربكان والذي تمحور حول مصطلح "النظام العادل". وفي هذا السياق، يقول الدكتور سليمان قرة غولة منظر هذا النظام: "إنه نظام يستند إلى الحق لا القوة، والديمقراطية فيه هي ائتلاف وطني يعترف بحق شاة واحدة، كما يعترف لحق ٩٩ شاة من أصل مائة، وليس نظام انتخابات يجرى كل

Abu Nour www.alkottob.com

خمس سنوات، ويعتمد على الأكثرية". ويصف قرة غولة الانتخابات بأنها صيغة متطورة لسيطرة القوى الذي تخافه الناس فتنتخبه.

أما على الصعيد الخارجي فإن "النظام العادل"، الذي يعني النظام الإسلامي في المفهوم المستتر، يحدد أهداف سياسة تركيا الخارجية في الآتي:

١. إقامة منظمة الأمم المتحدة الإسلامية.
٢. إقامة منظمة التعاون الدفاعي المشترك للدول الإسلامية.
٣. إقامة منظمة التعاون الثقافي للدول الإسلامية.
٤. الانتقال إلى سوق اقتصادية مشتركة ووحدة نقدية مشتركة للدول الإسلامية بواسطة التيار الإسلامي.
٥. إقامة صندوق نقد إسلامي.

وقد مثلت هذه النظرية الشعارات الأساسية لحزب الرفاه في انتخابات عام ١٩٩٥.

ويرى الكاتب محمد نور الدين في كتابه تركيا في الزمن المتحول "إن تشكيل حكومة أربكان عام ١٩٩٦ كان بمثابة منح الاعتراف المتبادل بين النظام العلماني والحركة الإسلامية خاصة أن أربكان تقدم إلى منتصف الطريق في برنامج حكومته بإعلانه الولاء لمبادئ الجمهورية التي أسسها أتاتورك وفي مقدمتها العلمانية التي تتناقض مع الفكرة القومية والنظام العادل". غير أن هذا الولاء قوبل بالشكوك لأن أربكان سبق أن انتقد العلمانية التركية بشدة، ورأها مختلفة عن العلمانية الغربية المتمثلة في فصل الدين عن الدولة، بل تمارس القمع والعداء للإسلام.

ولقد أثبت انقلاب الجيش على أربكان عام ١٩٩٧ بشكل سلمي أن التزاوج لم يحدث، وربما يكون في أيديولوجية حزب العدالة والتنمية تعبيرا عن تزاوج آخر مختلف سنعرضه فيما بعد. وقد يكون هذا الانقلاب منقلبا بعد أن بات أربكان، رمزا لتهديد الأتاتوركية بأبعادها المختلفة، لدرجة أن هناك من وصفه بأنه انقلاب على انقلاب أربكان على الرغم من أنه قد تنازلات فيما يتصل بالمبادئ المنبثقة عن فكرة القومية الإسلامية على الصعيدين الداخلي والخارجي. وفي ٢٨ فبراير عام ١٩٩٧ عرض قادة الجيش على مجلس الأمن القومي ١٨ إجراء، يجب على الحكومة تطبيقها، شملت الآتي:

١. منع أية دعوات مؤيدة لتطبيق الشريعة الإسلامية.
٢. فرض رقابة على شبكات الإذاعة والتليفزيون الإسلامية.
٣. منع ارتداء أي زي يتعارض مع قوانين الدولة، بما يعني حظر الحجاب.
٤. فرض إجراءات لمنع تسلل الإسلاميين المتشددين لأجهزة الدولة.
٥. رفض رقابة على شراء البنادق قصيرة الماسورة نظرا لإقبال الإسلاميين عليها.
٦. فرض رقابة على الموارد المالية للجمعيات الدينية والطرق الصوفية.
٧. إحياء المادة ١٦٣ من قانون العقوبات التي تنص على تجريم أي نشاط سياسي يدافع ديني.
٨. إلزام الحكومة بالمراقبة الدقيقة لجهود إيران لزعزعة النظام العلماني في تركيا.
٩. تحريم العمل ضد النظام الديمقراطي العلماني بصورة مطلقة.
١٠. تطبيق المادة ١٧٤ من الدستور الخاصة بعدم التعرض للإصلاحات التي أقرت منذ تأسيس الجمهورية التركية عام ١٩٢٣.
١١. الطلب من المدعين العامين اتخاذ إجراءات فورية ضد أي عمل يعتبر انتهاكا للقوانين بإغلاق المؤسسات الدينية التي تنتهك هذه القوانين.
١٢. زيادة مدة التعليم الإلزامي إلى ٨ سنوات بما يعني فعليا إغلاق مدارس الأئمة والخطباء.
١٣. إغلاق مدارس تعليم القرآن التي يديرها الإسلاميون.

Abu Nour www.alkottob.com

١٤ . مسألة رؤساء الأحزاب عن تصريحات وبيانات رؤساء بلديات ينتمون إليها.
١٥ . حظر قبول أي تمويل أجنبي من منظمات دينية للمجالس البلدية.
١٦ . منع إقامة المسجد الجديد في حي التقسيم بأسطنبول.
١٧ . فصل ١٦٠ من ضباط الجيش لانتمائهم للتيار الإسلامي.
١٨ . فصل بعض حكام الولايات المنتمين للتيار الإسلامي.

وحاول أربكان إبداء الاستجابة النظرية لهذه المطالب لكنه عرقل تنفيذها، وحتى إبعاده عن الحكم في يونيو ١٩٩٧ لم يغلق سوى ١٢٠ مدرسة لتعليم القرآن. وشهدت المرحلة ما بين عرض المطالب واستقالة حكومة أربكان لعبة شد وجذب بين الجيش وأربكان، وانتهى الأمر بإبعاد الأخير عن السلطة بتنسيق بين الجيش والرئيس سليمان ديميريل الذي كلف مسعود يلماظ زعيم حزب الوطن الأم بتشكيل حكومة جديدة بعد أن استقال أربكان لإفساح الطريق أمام شريكته تانسو تشيللر لتتولى السلطة بدلا منه في إطار اتفاق للتناوب على هذه السلطة.

وفي عام ١٩٩٨ أصدرت المحكمة الدستورية التركية حكما بإغلاق حزب الرفاه ومنعت عددا من قياداته - وعلى رأسهم أربكان ووزير العدل السابق شوكت قازان- من ممارسة السياسة لمدة خمس سنوات، ولما كان الحزب قد توقع مثل هذه المخطوة، فإنه شكل قبل ذلك وفي عام ١٩٩٧ حزب الفضيلة الذي جرى إغلاقه أيضا عام ٢٠٠١، وتشكل في العام ذاته حزبا السعادة والعدالة والتنمية، الأول يمثل الجناح المحافظ من الإسلاميين، والثاني الجناح الإصلاحي، وقد قاده كل من أردوغان وجول. وقد ابتعد الجناح الإصلاحي عن أخطاء أربكان القاتلة، حيث ثبت من الصدام بين الجيش وأربكان بفكرته القومية الإسلامية وراقدها النظام العادل الحقائق الآتية:

١ . أن الجيش له حدود في التسامح مع التيار الإسلامي، وأن القوى العلمانية وعلى رأسها الجيش لا يمكن أن تتسامح للدرجة التي يهدد فيها هذا التيار وجودها، ومن ثم فإن هذه القوى تخوض معركة وجود في حالة استقراء خصومها الإسلاميين بالشعب أو الشرعية والديمقراطية.

٢ . أن تباعد الطرفين، القوى العلمانية والتيار الإسلامي، لا يسمح بالالتقاء على أرضية مشتركة طالما أن وجود أحدهما وقوته يعني إلغاء الآخر.

٣ . ذهنية إلغاء الآخر هذه التي تحكم الصراع بين الطرفين تعطيه بعدا خطيرا قد يشمل اللجوء للعنف أو الأحكام القضائية الاستثنائية.

٤ . يرتبط بذلك شيوع ذهنية التقديس من جانب كل طرف لأفكاره ومبادئه وربطها بأبعاد ميتافيزيقية قومية ووطنية.

٥ . أن الصراع بين الطرفين يكرس أزمة الهوية التركية، حيث لم تنجح التجربة الأتاتوركية في اقتلاع الضمير الديني للأتراك وكل ما ينتج عنه من أفكار وممارسات، في حين أن التيار الديني لم يقدم شكلا من المواءمة العصرية مع الديمقراطية العلمانية التي يمكن أن تحوز قبولا، بل ساعد على تمزيق اتجاهات الأتراك بين الإحساس بالانتماء لعالمين وثقافتين وحضارتين، وهي كلها ثنائيات متناقضة.

وأيا كان الأمر، فإن تجربة أربكان أثبتت صعوبة السماح للتيار الإسلامي بتطبيق برامجه المناوئة لأسس الجمهورية العلمانية. ومن المؤكد أن حزب العدالة والتنمية استفاد كثيرا من تجربة أربكان، ومن المؤكد أيضا أن ذلك ساعده على الوصول إلى السلطة والبقاء فيها دون أن تصل العلاقات مع الجيش للصدام رغم الشعور بعدم الارتياح بين الطرفين. من هنا نشير إلى أن تجربة حزب العدالة والتنمية تكشف عن أن المبادرين بها قد وضعوا في أذهانهم التجربة الأربكانية بكل تفاصيلها مع استشراف الاحتمالات الخاصة بالمستقبل، ومن ثم نجد أن هناك من يصف أردوغان ورفاقه بأنهم إسلاميون براجماتيون، يدركون أن التغيير وفقا للنهج

Abu Nour www.alkottob.com

الرافيكالي الأريكاني لا تسمح به قواعد اللعبة في البلاد لا داخليا ولا خارجيا بالنظر إلى علاقات تركيا إقليميا ودوليا.

وتشير أغلب كتابات الباحثين الأتراك حول هوية حزب العدالة وتوجهاته إلى هذا المعنى بوضوح. ويصل الأمر إلى حد اتهام حزب العدالة بتبني مبدأ "التقية" بعدم الكشف عن هويته الإسلامية، ويبررون حكمهم هذا بأنه لا يعقل أن يغير حشد كبير من السياسيين أفكارهم وأيدلوجيتهم ما بين يوم وليلة نظرا لإيمانهم بأنهم كانوا على خطأ طوال سنوات طويلة من حياتهم السياسية، فأردوغان كشف عن توجهاته الإسلامية منذ أواخر السبعينيات وسجن قبل تأسيس الحزب بعامين نتيجة خطابه الإسلامي الراعق وتوجيهه اتهامات مبطنة للقوى العلمانية خلال كلمة ألقاها في حشد من الجماهير في مدينة سيرت. ولدى أصحاب هذا الطرح أدلة قد تبدو مقبولة، فعلى سبيل المثال فإن زعماء الحزب المحليين في أقاليم تركيا الـ (٨١)، منهم ٣٢ كانوا من كوادر حزبي الرفاه والفضيلة، مقابل ٣٥ يمارسون نشاطا حزبيا لأول مرة و ١٤ آخرين كانوا أعضاء في أحزاب غير إسلامية مثل الوطن الأم، والطريق القويم، في حين يقدر أعضاء الحزب بحوالي مليون عضو لا يعرف عدد الإسلاميين بينهم.

ثانيا: ولادة حزب العدالة والتنمية: حقائق وتفسيرات

ثمة روايات متعددة وتفسيرات متباينة لنشأة حزب العدالة وولادته كقوة سياسية كبيرة في تركيا وارتباط هذه الولادة بتطورات داخلية وقوى خارجية.

ونبدأ بالرواية الرسمية: يقول بشار باقيش نائب رئيس الحزب للشئون الخارجية، وهو عضو مؤسس للحزب ولم يسبق له ممارسة أي نشاط حزبي، في حديث خاص للباحث: "الفهم الأعمق لصعود في الحياة السياسية التركية يستلزم النظر في كيفية تشكيل الحزب .. لقد كان معظم مؤسسي الحزب أعضاء في حزب الرفاه بزعامة نجم الدين أربكان، وقد حاولوا كإصلاحيين – ومنهم عبد الله جول وبولنت أرنج ورجب طيب أردوغان- تغيير أسلوب وسياسات أربكان، وأبدوا رفضهم لممارساته، خاصة بناء كل موقف على أساس ديني، ونحن في بلد علماني ومثل هذه الممارسات غير مقبولة. وعندما تم حل الرفاه ظل المحافظون بزعامة أربكان والإصلاحيون الذين كان يقودهم عبد الله جول في الفضيلة إلى أن تم حله بقرار من المحكمة الدستورية .. عندئذ كان لابد من الانقسام .. أنصار أربكان شكلوا حزب السعادة بزعامة رجائي قوطان ، الإصلاحيون شكلوا حزب العدالة والتنمية .. لقد وجدوا أنفسهم في مفترق الطرق والحياة السياسية تغيرت فقرروا الانقطاع عن الماضي ممثلا في الرفاه والفضيلة، لكن هذا لا يعني إنكار هذا الماضي أو الهوية التركية". ويضيف باقيش: "قبل أن يطرح الإصلاحيون برنامجهم السياسي أجروا استطلاعات عدة للرأي .. سألوا الناس ما هي أولوياتكم؟ .. ما هو طبيعة الحزب الذي تفضلونه؟... سألوا حتى عن الاسم المناسب والشعار المناسب، من هنا جاء نجاحه. وقد تولى أردوغان رئاسته فأضاف إليه الكثير لأنه كان رئيسا ناجحا لبلدية اسطنبول". ويرى باقيش أن العلاقات مع أربكان والمحافظين التي قادت إلى تشكيل حزب العدالة والتنمية سببها الابتعاد (من جانب أربكان) عن العلمانية التي تحكم نظامنا ونحن لا نريد حكومة على أساس ديني كما يرغب حزب السعادة .. حزبنا جديد تماما ليس له ارتباطات بالماضي، لكنه يراعي الحساسيات في بلد ٩٩٪ من سكانه مسلمين، والكثيرون من أبنائه محافظون ولهم ثقافتهم الإسلامية وليس من سبيل لإنكار ذلك.

الكاتب التركي ناصوحي جوجنور يطرح على استحياء، نظرية المؤامرة في تفسير تشكيل وصعود حزب العدالة والتنمية، أو بعبارة أخرى دور العامل الخارجي بقوله: "كثير من الكتاب والمؤرخين والسفراء

Abu Nour www.alkottob.com

والبيروقراطيين الأمريكيين بدأوا يشيرون إلى اسم واحد لقيادة الإصلاحيين هو رجب طيب أردوغان، إنه شخصية معاصرة ويمكن أن يقود تركيا منذ أن كان رئيسا لبلدية اسطنبول فى الفترة ما بين عامى ١٩٩٤ و ١٩٩٨ . ويقول جوفجور إن علاقات الولايات المتحدة بأردوغان بدأت بلقاءات بينه وبين السفير الأمريكى الأسبق مورتن إيرام أوينز فى حقبة الثمانينيات، عندما كان أردوغان رئيسا لفرع الرفاه فى منطقة بيه أوغلو فى أسطنبول، ثم زار أوينز أردوغان مرارا عندما أصبح رئيسا لبلدية أسطنبول حيث نقل له رسائل إيجابية، وكانت الزيارات تستغرق ساعات عدة. وكان جوهر الرسائل التى تسلمها أردوغان: "إنك مهم لمستقبل تركيا فى الأعوام القادمة". ولتجنب الحرج كان أردوغان يرد أن هذه الرسائل يتلقاها باسم الحزب، ومن بعدها ظهرت ادعاءات عديدة، وبدأ اسمه يتردد كولى عهد لأربكان، وبدأ الصراع يشتعل بين الأستاذ وتلميذه، وأخذ أردوغان يستعد لتزعم حركة الإصلاحيين وتشكيل حزب سياسى يستوعب هذه الحركة. وعقد أردوغان فى ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٩ اجتماعا مع الهيئة العليا لاتحاد رجال الأعمال لمس نبضهم بخصوص الخطوات والبرنامج الذى يجب أن يتبعه.

ويضيف ناصوحى جوفجور إن الخطوة التالية لأردوغان أخذت شكل عقد لقاءات مع زعماء الأحزاب السياسية لتقويم الحركة الإصلاحية. وفى مايو عام ٢٠٠٠ زار واشنطن والتقى الشيخ فتح الله جولن زعيم الطريقة النورسانية الذى يعيش فى الولايات المتحدة والمعارض الرئيسى لسياسات أربكان وحزبه، ومن ثم حصل على دعم مجموعته الاقتصادية الكبيرة ووسائل الإعلام التى يمتلكها بما فى ذلك صحيفة "زمان" وشبكة تلفزيون "سامانا - 8". كما اتخذ أردوغان خطوات أخرى فى المجال الاجتماعى، وبدأ يتقارب مع كافة فئات المجتمع، فحصل على دعم الكاتب فهمى كورو الذى قام بحملة صحفية مكثفة لصالح أردوغان وحركته الإصلاحية. ويضيف الكاتب بعدا آخر لقصة تشكيل حزب العدالة والتنمية بقوله: إن أردوغان أثناء توليه منصب رئيس بلدية أسطنبول كان يلتقى مع الجنرال شفيق بير، الشخصية القوية فى الجيش، والذى كان آنذاك قائدا للجيش الأول، وهو الذى وقع قرارات ٢٨ فبراير فيما بعد ومهندس تطوير العلاقات التركية الإسرائيلية. وقد التقى بير مع أردوغان بعد خروجه من السجن لعدة ساعات، تلاه لقاء آخر فى الولايات المتحدة، حيث نقل أردوغان لبير معلومات عن التشكيلة الجديدة وطرح عليه أسئلة عدة حول رأى الجيش. وكان رد بير: "ماضيكم السياسى ليس مهما ولكن الجيش سينتظر إلى ما ستحققونه وتفعلونه اليوم". كما التقى أردوغان شخصيات عسكرية كبيرة مثل الجنرال البحرى المتقاعد اتيلا كسبات، حيث تحدثت بعض الصحف عن أن رئاسة الأركان بدأت تدعم حركة الإصلاحيين. كما تلقى أردوغان دعوة من جمعية يهودية فى الولايات المتحدة وقام بتلبيتها فى ١٦ يوليو عام ٢٠٠٠، حيث أجرى محادثات مع رموز اللوبى اليهودى، وكانت هذه هى الزيارة الخامسة له للولايات المتحدة خلال خمسة أعوام.

ويتساءل الكاتب "ماذا كانت تتوقع الولايات المتحدة من رجب طيب أردوغان؟ ويجيب: إن الولايات المتحدة ترى أن أردوغان كان أقرب إليها من أربكان وأن خطوط أردوغان العريضة لا تتفق تماما مع مصالح الولايات المتحدة ولكن مع ذلك هو الأفضل بالنسبة لها من أربكان. كما أنها تولى أردوغان أهمية خاصة بالنظر إلى أنه شخصية مرغوبة من جانب شعبه. وقد شارك أردوغان فى احتفالات السفارة الأمريكية بيوم الاستقلال فى ٢٠٠١/٧/٤، حيث أولت السفارة أهمية كبيرة لزيارته. كما التقى المستشار السياسى للسفارة سيلفر لورانس مع عبد الله جول مرات عدة للتعرف على الخطوط العريضة لسياسات الحركة الإصلاحية قبل تشكيل حزب العدالة رسميا. وحسب الكاتب، فإن أردوغان عقد لقاءات مع القنصل العام البريطانى فى أسطنبول روجر سبورت الذى أبلغه أنه إذا رغبت الحركة الإصلاحية فى التعددية والديمقراطية فإن ذلك سيدفعهم للتعاون معها، كما التقى أردوغان مع السفير الإسرائيلى ديفيد سلطان فى ١٨ يوليو ٢٠٠١.

Abu Nour www.alkottob.com

مجمل الطرح السابق للكاتب ناصوحي جونجور يصب في الآتي:

أولا: أن تشكيل حزب العدالة والتنمية تم وفقا لتلاقي إرادات متعددة منها مؤسسي الحزب، والجيش كقوة أساسية فاعلة وسلطة كبرى في البلاد، والإدارة الأمريكية، واللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة، وإسرائيل، وبريطانيا.

ثانيا: أن مؤسسي الحزب خشوا معارضة الجيش والقوى الخارجية السابق ذكرها. ومن ثم نالوا رضاها قبل أن يقدموا على الشروع في تشكيله كحركة إصلاحية في إطار التيار الإسلامي.

ثالثا: أن الجيش قد أدرك أن نواة التشكيلة الجديدة التي تبلورت في حزب العدالة والتنمية فيما بعد ستكون مؤثرة للغاية في الساحة السياسية التركية، وهو ما دفعه إلى قبول التعاون معها والتقرب منها.

رابعا: وفقا للطرح ذاته فإنه يشتم من أفكار الكاتب أن الجيش والقوى الخارجية المعنية جدا بالأوضاع الداخلية التركية أبدت التشكيلة الجديدة في إطار عدائها أو عدم رضاها عن أربكان وجناحه المحافظ انتقليدي في التيار الإسلامي.

خامسا: رغم أن ما طرحه الكاتب يتضمن شكلا من النسج الفني لنظرية المؤامرة إلا أنه لم يثبت ما يؤكد أنه "قولا مساندة الجيش والقوى الخارجية للتشكيلة الجديدة ما كان كتب لها النجاح"، أو لم يصل إلى درجة القول بأن الجيش والقوى الخارجية ذاتها هي التي صنعت حزب العدالة والتنمية.

سادسا: أيا كان الأمر، فقد كشف الكاتب عن مدى تدخل الجيش والولايات المتحدة واللوبي الصهيوني الأمريكي وإسرائيل وبريطانيا بشكل مباشر أو غير مباشر في الأوضاع الداخلية التركية.

سابعا: أن الكاتب ألقى الضوء بوضوح على دور الإعلام المؤثر في الأوضاع السياسية التركية.

ثامنا: يفهم من كلام الكاتب أن هناك تنسيقا ما بين الجيش والقوى الخارجية المتدخلة في الأوضاع السياسية التركية حتى لو كان تنسيقا غير مباشر أو انخفض إلى درجة تلاقي المصالح والإرادات فقط.

تاسعا: يقدم الكاتب أردوغان كشخصية ذكية مرنة جعل من تشكيل حزب جديد مغامرة محسوبة للغاية، وأن كاريزميته كانت وراء قبول الجيش والقوى الخارجية له كوجه بارز وسياسي لامع متميز.

عاشرا: أن طرح قصة تشكيل حزب العدالة بهذه الطريقة يعني تفسيرا سابق التجهيز لعلاقات طيبة بين حزب العدالة والجيش والقوى الأجنبية المؤثرة في الأوضاع التركية.

ثالثا: أهداف ومبادئ الحزب وأفكاره الرئيسية

وفقا للوثائق الصادرة عن حزب العدالة والتنمية، فإن هناك أحاديث متفاوتة عن أهداف الحزب ومبادئه وأفكاره التي سنعرضها حسبما وردت في الوثائق المتاحة. وقبل ذلك نشير إلى أن شعار الحزب هو مصباح قاعدته بإطاره أسود ويخرج منه ضوء أصفر.

حددت اللائحة الداخلية للحزب أهدافه كما يلي:

١. تحقيق السيادة، وبدون أي قيد أو شرط، للشعب التركي على الجمهورية القانونية التي تعتبر القوة التي ترعى مصالح الفرد والمؤسسات.

٢. الحفاظ على وحدة الدولة التركية.

٣. الحفاظ على القيم والأخلاق التي تعد بمثابة تراث للشعب التركي.

Abu Nour www.alkottob.com

٤ . تحقيق الحضارة والمدنية المعاصرة فى تركيا وفقا للطريق الذى رسمه مصطفى كمال أتاتورك.
٥ . تأمين الرفاه والأمن والاستقرار للشعب التركى.
٦ . تحقيق مفهوم الدولة الاجتماعية التى تتيح للأفراد العيش بالشكل الاجتماعى المطلوب.
٧ . تحقيق العدالة بين الأتراك والتوزيع العادل للدخل القومى.

أما برنامج الحزب فقد اختصر أهدافه فى الآتى: الدمقرطة، التنمية، النهوض فوق مستوى الحضارة المعاصرة. ويعرض البرنامج وسائل تحقيق تلك الأهداف على النحو الآتى:

١ . نشر الوعى القائم على الحقوق المتعارف عليها دوليا والحريات وسيادة القانون فى جميع أنحاء تركيا.
٢ . استئصال مشاكل تركيا المستعصية بتعبئة الموارد الإنسانية والطبيعية المهملة بما يجعله بلدا منتجا باستمرار وينمو بالإنتاج.
٣ . تخفيض معدل البطالة وردم الهوة فى توزيع الدخل مما يزيد من مستوى الرفاه.
٤ . اتباع سياسات تهدف لتحقيق الكفاءة والفاعلية فى الإدارة العامة، وإدخال المواطنين والمنظمات المدنية فى عملية صنع القرار.
٥ . تحقيق الشفافية الكاملة والمحاسبة فى كل جانب من الحياة العامة.
٦ . اتباع سياسات معاصرة رشيدة، واقعية، عملية لإفادة الأمة فى مجالات الاقتصاد، والسياسة الخارجية، والثقافة، والفنون، والتعليم، والصحة، والزراعة والثروة الحيوانية.

ومما جاء من مبادئ للحزب فى لائحته الداخلية أنه يحترم كافة الحقوق الخاصة بالمواطن ولا يفرق بين أبناء الشعب على أساس الدين أو المذهب أو العرق، ويرفض كافة أنواع التفرقة والنزعات القومية أو الدينية، ويعمل على تحقيق الديمقراطية بالمفهوم الكامل، وأن ترسم علاقات الدولة والفرد وفقا لهذه القاعدة، وأنه من الضرورى حماية الحرية والحقوق الأساسية لإتاحة الفرصة لسيادة الإرادة الوطنية، ويؤمن بضرورة تبنى النساء لحقوقهن السياسية، وإتاحة الفرصة كاملة لحرية الفرد والتعبير عن آرائه بشكل مطلق بما يتسق مع القانون، وضرورة منح المؤسسات المدنية الحقوق والحريات والصلاحيات اللازمة لها. كما يؤمن الحزب بضرورة إقامة القواعد اللازمة لخدمة اقتصاد السوق وحماية البنية الأساسية للاقتصاد وإزالة انعدام التوازن فى توزيع الدخل القومى. ويرى حزب العدالة والتنمية أن العائلة هى أساس المجتمع التركى وهى جسر يربط الحاضر بالماضى، و"ضرورة الحفاظ على عاداتنا وتقاليدنا ومعتقداتنا والقيم الوطنية التى تنتمى إلى الماضى وعدم الابتعاد عنها". كما يرى الحزب ضرورة تطوير مستقبل الشباب بحيث يعملون فى أطر من الثقة والاستقرار والأمان.

أما مبادئ الحزب كما جاءت فى برنامجه فأبرزها:

١ . الحقوق الأساسية والحريات

يرى الحزب كافة الحريات المدنية والسياسية خاصة حق التفكير والتعبير والاعتقاد وتشكيل المنظمات والشركات كشروط مسبقة للسلام والمصالحة. ويعتبر طلب هذه الحريات شرطا ضروريا لتحويل تركيا إلى أمل كبير لكل فرد، بحيث يثق الجميع فى مستقبلهم الطيب فالحريات تشكل مؤسسة الديمقراطية، وأى قمع فردى أو مؤسسى غير مقبول. ويرى الحزب مبادئ أتاتورك وإصلاحاته أهم وسيلة انتقال للأتراك إلى ما فوق مستوى الحضارة المعاصرة وعاملا للسلام الاجتماعى. ويعتبر الحزب الدين أحد أهم مؤسسات الإنسانية والعلمانية مطلبا مسبقا للديمقراطية، مع التأكيد على حرية الدين والضمير، ورفض تفسير وتشويه العلمانية بوصفها عدوا للدين. ورفض استخدام الدين المقدس وقيمه فى أغراض سياسية.

Abu Nour www.alkottob.com

٢ . المبادئ السياسية

يرى الحزب أن السياسة عبارة عن مركبة لخدمة المجتمع، وفي بلد لوثت السياسة به وضاقت الساحة السياسية، فإن هدفه هو عودة السياسة والساسة إلى موضع الثقة والاحترام. ويؤمن الحزب بأن التفاهم السياسي في تركيا يجب مراجعته بشكل كامل. ووفقا لفهم الحزب للسياسة فإن إرادة الأمة يجب أن تكون الأساس لكل فعل، ويجب عدم التسامح أمام أي تعكير لإرادة الأمة. ومن الضروري إصلاح قانون الأحزاب السياسية بحيث يطابق متطلبات المفهوم المعاصر للديمقراطية. كما لابد من أن يكون تشكيل الأحزاب وعضويتها وبناؤها الاقتصادي أمورا شفافة. ومن الضروري تعديل شروط حظر الأحزاب السياسية في إطار قرارات المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان ومبادئ لجنة البندقية، ومن الضروري أيضا تعديل قانون الانتخابات بخفض سن الترشيح إلى ٢٥ عاما وضمان حقوق المواطنين في الترشيح والانتخاب. كذلك يجب أن يقدم كل عضو منتخب لأي جهة "إعلان ثروة" حتى يعرض على الرأي العام بطريقة شفافة. وأخيراً يرى الحزب وجوب إزالة العقبات الدستورية التي تمنع محاكمة النواب والوزراء.

٣ . البناء السياسي للحزب

الحزب مصمم على خلق مفهوم جديد للسياسة في تركيا، وأحد أهم أهدافه هو تعزيز ديمقراطية المشاركة بزيادة فعالية الشعب أثناء الانتخابات. ويؤمن الحزب بأن الديمقراطية والشفافية قيما يتصل بالبناء الداخلي للأحزاب تمثلان نواة كفاءة النظام السياسي. ومن أجل إقامة ديمقراطية وشفافية داخل الحزب، فإنه يجب تحقيق التالي:

- جعل الأولوية للانتخابات التمهيدية التي تشمل مشاركة كافة أعضاء الحزب لتحديد المرشحين لمقاعد النواب.
- من أجل سياسة قائمة على المبادئ فإن مدة خدمة رئيس الحزب ونوابه تحدد وفقا للوائح الداخلية للحزب.
- التزام الحزب بإعلان كافة مصروفاته للجمهور وفقا لميزانية الحزب.
- يقوم الحزب بتخصيص جزء من ميزانيته للأبحاث والتطوير والأفرع الإقليمية للحزب.
- يضمن الحزب لأعضائه التعبير عن آرائهم في إطار لوائح وبرنامج الحزب.
- القدرة والاستحقاق هما أساس الاختيار للمناصب، خاصة الوزراء، عندما يأتي الحزب لمسألة تشكيل الحكومة.

٤ . الديمقراطية والقانون

يؤكد الحزب أن أي نظام ديمقراطي لا يمكن أن يعيش في مجتمع لا يسوده حكم القانون، والديمقراطية تؤكد وجودها من خلال القانون، ولابد من أن يسود مفهوم دولة القانون بدلا من قانون الدولة. ويتعهد الحزب بأنه سيضمن خلق أعلى درجات الثقة في النظام القضائي الذي يعد ضمانا للنظام الاجتماعي. كما يتعهد الحزب بالإعداد لدستور جديد تماما يسمح بحريات تعد استجابة لحاجات المجتمع بأكمله بما يتسق مع مبدأ دولة القانون ومعايير الدول الديمقراطية. ويرى الحزب في الديمقراطية نظاما مبنيا على التسامح، وفي الديمقراطيات ليس من الممكن لبعض المواطنين الاستفادة من حقوق وحريات ومزايا أكثر من غيرهم فالكل تحت حماية القوانين في هذه الديمقراطيات.

٥ . السياسة الاقتصادية والاجتماعية

يعلن الحزب بصورة واضحة أنه يفضل آلية السوق التي تعمل وفق قواعد المؤسسات، وأنه يتبنى مبدأ أن الدولة يجب ألا تدخل في أي نشاط اقتصادي، حيث يحصر الوظيفة الاقتصادية للدولة في إطار التنظيم والإشراف، ويعتقد أن الاستقرار الاقتصادي سيتحقق من خلال النمو الذي يتحقق بدوره بواسطة

Abu Nour www.alkottob.com

الاستثمارات، التي يعلن الحزب دعمه لها وخصوصاً ما يزيد فرص التوظيف منها. كذلك فالحزب يرى أن الخصخصة تعد وسيلة مهمة لتشكيل بنا ء اقتصادى أكثر رشدا. وفي الإطار الاجتماعي يرى الحزب أن الحكومة هى وسيلة لخدمة الشعب ومن ثم فإنه سيتبع سياسات توفر الرخاء والسعادة لكل المواطنين وليس لفئة أو شريحة محددة، ويجب عمل برامج للفقراء والأطفال والمحتاجين والعاطلين والمواطنين الذين يواجهون صعوبات معيشية حتى لا يشعروا أنهم بمفردهم، ويعيشون حياة كريمة. وفي هذا السياق يرى الحزب أن الأمن الاجتماعي يعد حقا دستوريا وأنه على الدولة أن تجعل هذا الحق متاحا لكل الأفراد، ومن ثم فإنه سيقوم بتطوير سياسة أمن اجتماعي تفيد فلسفة الدولة الاجتماعية في إطار الدستور.

٦ . السياسة الخارجية:

يتبنى الحزب سياسة خارجية يسميها "واقعية" تتسق مع تاريخ تركيا وموقعها الجغرافي، خالية من الأفكار المسبقة أو التعسفية، على أن تقوم على مبدأ المصالح المتبادلة. ويلتزم الحزب في ذلك الإطار بإعادة تعريف أولويات سياسة تركيا الخارجية في مواجهة الحقائق الإقليمية والدولية المتغيرة، ويخلق توازن جديد بين هذه الحقائق والمصالح الوطنية. كما يؤكد الحزب على قيامه بمبادرات لإيجاد حلول عادلة للمشكلات القائمة مع الجيران، وبأن يضع مزايا تركيا الناجمة عن موقعها الاستراتيجي تحت تصرف المجتمع الدولي من أجل مساهمة أفضل في السلام الدولي والرخاء. أما القضية الكردية، فإن الحزب يرى أن هناك ضرورة للاعتراف بالقضاب السلبية التي خلقتها هذه المشكلة في الحياة الاجتماعية التركية. ويتعهد الحزب باتباع سياسات تحقق السعادة والرفاه والحقوق والحريات لكافة سكان الأقاليم بطريقة لا تخلق ضعفا ولا تهدد وحدة الأراضي التركية.

رابعا: تشكيلات الحزب وعملية صنع القرار بداخله

(١) تشكيلات الحزب

تضم تشكيلات الحزب أربعة مستويات هي: المستوى المركزي، ومستوى المحافظات، ومستوى الأقسام، وأخيرا مستوى القرى. يشمل المستوى المركزي التشكيلات التالية: المؤتمر العام، ورئيس الحزب، والهيئة الإدارية (مركز صنع القرار)، والهيئة التنفيذية، وأخيرا اللجنة التأسيسية. أما مستويات المحافظات والأقسام والقرى فتشمل التشكيلات الآتية: المؤتمر، ورئيس الفرع، والهيئة الإدارية، وأخيرا الهيئة التنفيذية. وإلى جانب تلك المستويات والتشكيلات التنظيمية يشمل الحزب فروعاً نوعية تشمل: فرع النساء، وفرع الشباب، والمؤسسات الأخرى التابعة للحزب. كذلك فهناك المجموعات النوعية الخاصة بممثلي الحزب المنتخبين في مختلف المجالس الشعبية وتشمل: المجموعة البرلمانية، ومجموعات مجالس المحافظات، ومجموعات مجالس الإدارات المحلية (البلديات).

(٢) عملية صنع القرار

تعتبر الهيئة الإدارية صاحبة أعلى سلطة في الحزب، ويختار أعضاءها ورئيسها - الذي هو رئيس الحزب - المؤتمر العام، الذى يتكون من ٥٠ عضوا أساسيا و ٢٥ عضوا احتياطيا . ومن حق رئيس الحزب اختيار خمسة أعضاء أساسيين وثلاثة احتياطيين لتولى المهام الرئيسية في الهيئة، لكن بشرط حصولهم على ضعف ما يحصل عليه الأعضاء الآخرون من أصوات، ويتم توزيع المهام عليهم وفقا لعدد هذه الأصوات. وفي حالة فراغ مقعد خاص بالأساسيين يحل محله احتياطى بناء على ترشيح رئيس الحزب أيضا. ورئيس الحزب هو رئيس الهيئة الإدارية، وفي حالة عدم وجود رئيس للحزب يتولى نائب الرئيس مهامه. وتتخذ

Abu Nour www.alkottob.com

القرارات فى الهيئة بالأغلبية النسبية، وفى حالة تساوى أصوات الطرفين يتخذ القرار بناء على موقف رئيس الحزب إذا كان التصويت علنيا، أما إذا كان سريا فيعاد التصويت مرة أخرى، وإذا ظل الأمر كما هو يؤجل إلى جلسة قادمة.

ووفقا للائحة الحزب فإن الهيئة الإدارية تجتمع مرة واحدة على الأقل شهريا، وإذا تم تقديم طلب بعقد اجتماع طارئ لها، فيجب أن يتم ذلك بموافقة ثلثى أعضاء اللجنة التأسيسية، وإذا غاب العضو ثلاث مرات عن الاجتماعات بدون عذر مقبول يعتبر مستقيلا منها. ويحدد جدول أعمال الهيئة الإدارية بعد دراسة أعضائها للقضايا المطروحة، ومن حق كل عضو أن يطرح موضوعا لدراسته ثم يجرى تصويت على إدراجه فى جدول الأعمال. وتلتزم الهيئة الإدارية التى يطلق عليها "مركز صنع القرار" باتباع اللائحة الداخلية للحزب وبرنامجه على أن تكون المنسق بين تشكيلات الحزب المختلفة. ومن بين مهام الهيئة الإدارية إعداد برنامج الحزب وخطط تحركه، وتأسيس المكاتب واللجان المختصة وتنفيذ سياسات الحزب، والمصادقة على تشكيلات الحزب. والهيئة الإدارية للحزب هى المسئولة عن تحديد سياساته وإعلانها للرأى العام التركى خاصة فيما يتصل بالقضايا الجوهرية التى تواجه البلاد والعالم، وإذا تطلب الأمر فمن الممكن عقد اجتماع مشترك للهيئة الإدارية البرلمانية للحزب. ومن المهام الأخرى للهيئة تحديد أنشطة الحزب والتخطيط المستقبلى له وإعداد ميزانيته والتدقيق فى قرارات تشكيلات الحزب الأخرى. ولها صلاحية اتخاذ قرارات تشمل الانتخابات الخاصة بالحزب وتحديد أسماء مرشحى الحزب للبرلمان والبلدية، بالإضافة إلى تحديد الأعمال الإدارية للحزب. وحسب اللائحة الداخلية يحق للهيئة الإدارية تأسيس معاهد سياسية لتنسيخ الديمقراطية وتدريب أعضاء الحزب وبناء كوادر مؤهلة لممارسة العمل السياسى والحزبى وتسلم مهام حساسة بالحزب وفقا للمعايير السياسية التركية والعالمية.

(٣) رئيس الحزب ودوره:

يتم اختيار رئيس الحزب فى المؤتمر العام بواسطة التصويت السرى، ومن حق المرشح تولى رئاسة الحزب أربع فترات والترشيح فى نفس الفترات بالتبعية. كما يحق أن يظل رئيسا مدى الحياة للجنة التأسيسية. ويتم انتخاب رئيس الحزب بأغلبية الأصوات المطلقة، وإذا لم يحصل أى مرشح على هذه الأغلبية يجرى تصويت ثان ويتم الانتخابات بالأغلبية النسبية. وتقوم رئاسة ديوان المؤتمر العام بمراجعة قوائم المرشحين لرئاسة الحزب وتحديد مدى صلاحية كل مرشح من ثم تعلن قائمة المرشحين.

ولرئيس الحزب مهام وصلاحيات عدة، فهو المسئول الشخصى الوحيد من بين أعضاء الهيئة الإدارية وهو المسئول الإدارى والمالى فى أية قضايا ترفع ضد الحزب، وهو الذى يتولى التنسيق والإشراف على أنشطة الحزب، على أن تكون قراراته ومواقفه متسقة مع الدستور التركى واللائحة الداخلية للحزب. فى حالة استقالة رئيس الحزب أو وفاته فإن الهيئة الإدارية تجتمع خلال عشرة أيام لتحديد عضو لتيسير أعمال الرئاسة بالوكالة حتى عقد مؤتمر عام للحزب خلال ٤٥ يوما.

خامسا: فوز الحزب فى الانتخابات: .. المقدمات .. النتائج .. الأسباب

(أ) المقدمات

لا يمكن فهم أسباب وملابسات الفوز الكبير الذى حققه حزب العدالة والتنمية فى انتخابات الثالث من نوفمبر عام ٢٠٠٢ وحصوله على ٣٦٣ مقعدا من مقاعد البرلمان الـ ٥٥٠، أى بما يقل عن الثلثين بـ ٤ مقاعد فقط، مقابل ١٧٨ مقعدا لحزب الشعب الجمهورى، الحزب المعارض الوحيد فى البرلمان، و ٩ مقاعد

Abu Nour www.alkottob.com

للمستقلين دون التطرق إلى ظاهرتين مهمتين هما: الأزمة الاقتصادية الخانقة التي ضربت البلاد اعتبارا من فبراير عام ٢٠٠١، والأزمة السياسية التي بدأت في يوليو عام ٢٠٠٢ وانتهت بالانتخابات المبكرة في ٣ نوفمبر.

الأزمة الاقتصادية: وقد جاءت نتيجة تراكم سياسات خاطئة للحكومات التركية المتعاقبة، بدت وكأنها تنفجر فجأة في فبراير عام ٢٠٠١ بعد انخفاض حاد في سعر الليرة التركية أمام الدولار، حيث فقدت حوالي نصف قيمتها، واستدعى الأمر تعيين كمال درويش نائب رئيس البنك الدولي السابق وزيرا للاقتصاد في مهمة إنقاذ ارتبطت بتطبيق برنامج صارم للإصلاح الاقتصادي تحت إشراف صندوق النقد الدولي لمدة ثلاث سنوات بدأت في فبراير ٢٠٠١ . وشمل البرنامج منح تركيا قروضا قيمتها ١٦ مليار دولار في صورة أقساط خلال هذه الفترة الزمنية. ومن مظاهر الأزمة التي وصلت أسوأ درجاتها بنهاية عام ٢٠٠١ ، رغم برنامج الصندوق، الارتفاع الهائل في حجم العجز في الميزانية إلى ٢٢،٩٣ مليار دولار بالقياس بـ ٢،٤٣ مليار دولار فقط عام ٢٠٠٠ . وشهد عام ٢٠٠٢ تحسنا محدودا في الأداء الاقتصادي لتركيا إلا أنه وقت إجراء الانتخابات وصل حجم الديون إلى ٢٠٣ مليارات دولار منها ١٢٢ مليار دولار ديونا خارجية و٨١ مليارا ديونا داخلية. في حين بلغ معدل النمو الاقتصادي ٤،٥٪ فيما وصف بأنه أسوأ كساد تشهده تركيا في تاريخها المعاصر. كما وصلت نسبة البطالة وفقا للأرقام غير الرسمية إلى ١٠٪ حين أخذت الحكومة في تقليص أعداد العاملين في الدولة تطبيقا لبرنامج الصندوق، بالإضافة إلى ارتفاع مستوى التضخم إلى ٣٥٪.

كما ظهر بعد آخر للأزمة تمثل في ظهور درويش كشخصية مهيمنة في الساحة السياسية نظرا لدعم الولايات المتحدة له وارتباطه بها، فضلا عن ارتباط برنامج الصندوق بالدعم الأمريكي أيضا، وبدت فكرة ضرورة الوضوح لمطالب الصندوق واتباع تعليماته بديهية ليس فقط بالنسبة للحكومة بل لعدد كبير من أحزاب المعارضة، لأن أحدا لم يملك بديلا منطقيا وفاعلا لإخراج البلاد من أزمتها رغم الانتقادات التي وجهت لبرنامج الصندوق وسياساته التي كرست في جوهرها تبعية البلاد بدرجة ما للولايات المتحدة وزيادة الفوة الأمريكي فيها.

الأزمة السياسية : وقد تمثلت مظاهرها فيما يلي:

١ . رفض رئيس الوزراء بولنت أجاويد الاستقالة رغم تدهور صحته وغيابه عن عمله الرسمي.

٢ . قيام نائب رئيس الوزراء، حسام الدين أوزكان ووزير الخارجية إسماعيل جيم، وهما قياديان في حزب اليسار الديمقراطي، بما يشبه الانقلاب على أجاويد انتهى بفقدان الحزب الذي ينتمون إليه حوالي نصف مقاعده في البرلمان، وتشكيل حزب جديد بمباركة وتخطيط وزير الاقتصاد كمال درويش غير المنتمي حزبيا، تحت اسم حزب "تركيا الجديدة" حيث ترأسه جيم.

٣ . دخول البلاد في حالة استقطاب سياسي حاد وصراع بين الأحزاب الثلاثة المشاركة في الائتلاف الحاكم ذات التوجهات المتباينة وهي اليسار الديمقراطي والوطن الأم والحركة القومية.

٤ . أسفرت هذه الأوضاع المضطربة عن فقدان الحكومة للأغلبية البرلمانية، ومن ثم لم يصبح هناك مفر من إجراء انتخابات عامة مبكرة، وأقر البرلمان ذلك في ٣٠ يوليو بأغلبية ٤٤٩ صوتا ضد ٦٢ صوتا للتراجع

Abu Nour www.alkottob.com

مستهلكة وملطخة بالفضائح وسوء الأداء السياسي.

(ب) نتائج الانتخابات

شارك في الانتخابات مرشحو ثمانية عشر حزباً، وبلغ عدد الناخبين المسجلين: ٤١ مليونا ٢٣١ ألفا و ٩٦٧ ناخبا. وقد بلغت نسبة التصويت فيها: ٧٩٪ من المسجلين (مقابل ٨٥٪ في الانتخابات السابقة التي جرت عام ١٩٩٩). وقد بدت النتائج النهائية (نسبة مئوية من الأصوات الصحيحة) على النحو التالي:

١. حزب العدالة والتنمية: ٣٤,٢٩٪.
٢. حزب الشعب الجمهوري: ١٩,٣٤٪.
٣. حزب الطريق القويم: ٩,٦٪.
٤. حزب الحركة القومية: ٨,٤٪.
٥. حزب الشباب: ٧,٢٪.
٦. حزب ديمقراطية الشعب (دهب): ٦,٢٪.
٧. حزب الوطن الأم: ٥,٢٪.
٨. حزب السعادة: ٢,٥٪.
٩. حزب اليسار الديمقراطي: ١,٢٪.
١٠. حزب تركيا الجديد: ١,١٪.

ولم يحصل أي من الأحزاب الثمانية الباقية على نسبة ١٪ من أصوات الناخبين.

بتلك النتائج لم ينجح سوى حزبان فقط في تخطي حاجز الـ ١٠٪ المطلوبة للحصول على مقاعد في البرلمان، وهما حزبا العدالة والتنمية والشعب الجمهوري، ومن ثم حصدا كافة مقاعد البرلمان كل حسب نسبة الأصوات التي نالها، وقد خصم منها ٩ مقاعد فاز بها مستقلون. وكان توزيع إجمالي مقاعد البرلمان التركي (٥٥٠ مقعدا) وفق ذلك على النحو التالي:

١. حزب العدالة والتنمية: ٣٦٣ مقعدا
٢. حزب الشعب الجمهوري: ١٧٨ مقعدا
٣. المستقلون: ٩ مقاعد

وبتلك النتائج تكون هذه الانتخابات قد شهدت ظواهر جديدة تعرفها تركيا للمرة الأولى في تاريخها المعاصر، أبرزها:

١. وصول حزب وهو العدالة والتنمية للسلطة وهناك دعوى قضائية مرفوعة ضده لإغلاقه من جانب المدعي العام الجمهوري لمحكمة الاستئناف صبيح قناة أوغلو .
٢. وصول حزب، وهو "العدالة والتنمية"، للسلطة، بواسطة الانتخابات وشخص رئيس وزرائه غير معروف نظرا لأن رئيسه رجب طيب أردوغان منع من خوض الانتخابات.
٣. بقاء نسبة كبيرة من الناخبين (٤٥٪) غير ممثلة في البرلمان بسبب النظام الانتخابي الذي يلزم كل حزب بالحصول على ١٠٪ من الأصوات لنيل التمثيل البرلماني.
٤. وصول حزب للسلطة بعد تأسيسه بـ ١٥ شهرا فقط، حيث تم تأسيس حزب العدالة والتنمية في ٨ أغسطس ٢٠٠١.

Abu Nour www.alkottob.com

٥ . فوز حزبين فقط فى الانتخابات.
٦ . فشل جميع أحزاب الحكومة الائتلافية فى الفوز بأي مقعد.
٧ . دخول أول حزب شيوعى الانتخابات (الحزب الشيوعي).
٨ . إعلان رئيس حزب استقالته قبل إعلان النتائج النهائية الرسمية وهو ما انطبق على سلوك زعيم حزب الحركة القومية دولت بهشلي (تراجع عنها فيما بعد).
٩ . فشل حزب يقود المعارضة فى الحصول على نسبة الـ ١٠٪ وهو ما انطبق على حزب الطريق القويم بزعامة تانسو تشيللر.
١٠ . خوض مالك وسائل إعلام متعددة الانتخابات وهو ما فعله جيم أوزان زعيم حزب الشباب.

(ج) أسباب فوز الحزب ودلالاته

يمكن إجمال أسباب الانتصار الكبير الذي حققه حزب العدالة فى عاملين رئيسيين الأول: فشل الآخرين ورفض الناخبين لمعظم رموز الحركة السياسية من القادة التقليديين. والثاني هو اجتهاد الحزب وحسن إدارته للحملة الانتخابية خاصة فى إقناع الناخبين باختياره. ومن الضروري إيضاح ملامح الفترة ما بين تحديد موعد الانتخابات وإجرائها حتى نفهم طبيعة ومقدمات الإنجاز الذي حققه حزب العدالة. ونقتل هذه الملامح في الآتي:

أولا: تعمق الأزمة السياسية بسبب عدد من التطورات، أبرزها:
١ . محاولة بعض الأحزاب مثل حزبي الوطن الأم وتركيا الجديدة تأجيل الانتخابات وتهديد الرئيس أحمد نجدت سيزار بحل البرلمان إذا ما تراجع عن قراره السابق بإجراء انتخابات عامة مبكرة فى ٣ نوفمبر بدلا من الموعد الدوري فى عام ٢٠٠٤ .
٢ . نشوب أزمات ثنائية داخل الائتلاف الحاكم مثل ما حدث بين رئيس الوزراء بولنت أجاويد ونائب مسعود يلماظ، وما بين يلماظ ودولت بهشلي زعيم حزب الحركة القومية.

ثانيا: تحذيرات متصاعدة من جانب أجاويد من خطورة إجراء الانتخابات المبكرة رغم معارضته للتراجع عن موعدها والعودة إلى الموعد الأصلي المقرر سلفا، حيث توقع فوز حزب العدالة والتنمية الذى وصفه بالإسلامي وما لذلك من خطورة - حسب وجهة نظره - على النظام العلماني فى البلاد.

ثالثا: انضمام كمال درويش وزير الاقتصاد السابق الذى كان يوصف بقيصر الاقتصاد إلى حزب الشعب الجمهوري وفشل محاولته لتوحيد أحزاب يسار الوسط الرئيسة، وهي الشعب الجمهوري واليسار الديمقراطي وتركيا الجديدة، تحت مظلة حزب الشعب الجمهوري مما أضعف هذا التيار.

رابعا : الصعود الكبير والمريب لشعبية حزب الشباب ذى الميول القومية بزعامة إمبراطور الإعلام جيم أوزان رغم أن عمر الحزب لم يتجاوز الشهور. وقد استخدم جيم أوزان أمواله الطائلة فى إغراء الناخبين وطرح شعارات قومية وبرنامجا مليئا بالوعود الانتخابية التي هى نتاج حسابات مختلة، وقد جاء هذا الصعود على حساب حزب الحركة القومية الذى كان واثقا من الفوز فى الانتخابات.

خامسا : فشل أجاويد فى اجتذاب الناخبين يجعل قضية الحرب الأمريكية المحتملة ضد العراق الأولى فى حملته الانتخابية مهاجما سياسة واشنطن ومواقفها.

سادسا : اتخاذ الهيئة العليا للانتخابات قرارا بحظر خوض كل من رجب طيب أردوغان زعيم حزب

Abu Nour www.alkottob.com

العدالة والتنمية، ونجم الدين أربكان رئيس الوزراء الإسلامي الأسبق، واثنين من قادة حزب ديمقراطية الشعب (دهب) الموالي للأكراد الانتخابات، ورفع المدعي العام الجمهوري لمحكمة لاستئناف صبيح قناة أوغلو دعوى قضائية لحل حزب العدالة قبل الانتخابات بأيام. غير أن المحكمة الدستورية قررت تأجيل البت فيها إلى ما بعد الانتخابات.

سابعا: هيمنة الأزمة الاقتصادية على الحملة الانتخابية ومن ثم أصبح من السهل شن هجوم على الحكومة وأحزابها الائتلافية الثلاثة.

ثامنا: تحذيرات قادة الجيش الضمنية من صعود حزب العدالة وفوزه في الانتخابات، لكن المؤسسة العسكرية أكدت ضرورة إجراء الانتخابات في موعدها وهو نفس موقف رجال الأعمال الذين خشوا من التأثيرات السلبية لتأجيلها على أوضاع البلاد الاقتصادية.

في ظل ذلك يظل السؤال الرئيس هو: كيف حقق حزب العدالة والتنمية انتصاره الانتخابي الكبير؟ ربما كانت القراءة الأكثر رواجا في تركيا لما وراء انتصار حزب العدالة والتنمية في انتخابات ٣ نوفمبر هي أن ما حدث كان بمثابة تعبير عن سخط جماهير الأحزاب التقليدية التي احتكرت السلطة وموقع الصدارة في الحياة السياسية لعشرات السنين. وهذا صحيح بشكل جزئي لكن الرأي الذي يبدو مرجحا أكثر هو أنه بالإضافة إلى العامل السابق، فإن حزب العدالة نجح في إقناع الجماهير بصدق شعاراته وتوجهاته ورغبته في التغيير الحقيقي، واجتهد وفق منهج واضح ودقيق لكسب أصوات الناخبين وقد نجح في ذلك.

والقراءة الأولى لنتائج تلك الانتخابات عبر عنها الكاتب فروح ديمير مان بقوله: "الانتخابات لم تسجل أقل من ثورة صامتة من جانب الناخبين الذين يرزحون تحت صعوبات اقتصادية ناجمة عن أزمتين في العامين الأخيرين، حيث أطاحوا بأحزاب الائتلاف الحاكم الثلاثة اليسار الديمقراطي والوطن الأم والحركة القومية التي اعتبروها مسئولة عن المحنة الاقتصادية". أما الكاتب بوكسال سويلماز فيرى أنه بالإضافة إلى الاحتجاج الهائل على الأحزاب الحاكمة فإن اختيار الناخب كان وراءه "شخصية رجب طيب أردوغان "الوسيم الطويل اللذي لم يجرب من قبل كزعيم للبلاد، وهو الذي يتحدر من أصول متواضعة .. إنه شاب نشط (٤٨ عاما) .. وجه جديد في الساحة السياسية، صورته الجماهيرية تقول إنه واحد منا .. مخلص ذو روحية، له كاريزما، مدافع عن الثقافة والقيم التقليدية". وردا على سؤال حول ما إذا كانت الجذور الإسلامية وراء النجاح الكبير لحزب العدالة في الانتخابات، يقول سويلماز: "الإجابة نعم ولا في نفس الوقت، فالإحساس بالإسلام جزء من الثقافة التركية والأتراك مسلمون لكنهم مختلفون في درجات تدينهم. وعلى الرغم من أن الكثيرين منهم يخافون الله لكن لا يمارسون شعائر الدين بشكل يومي حيث المسلمون المخلصون ليسوا أغلبية في تركيا. لكن الأحزاب السياسية - بدرجات - متفاوتة - حاولت استغلال الحساسيات الإسلامية للأتراك، وحزب العدالة ليس حزبا إسلاميا رسميا بل إن اسمه علماني غير أن سمعته كحزب ذي جذور إسلامية اعتبرت ميزة في صورته العامة مما ساعده في الانتصار الانتخابي. من جانب آخر إذا كان عامل الإسلام حاكما في اتخاذ القرار الانتخابي فلماذا فشل حزب السعادة الإسلامي بزعامة نجم الدين أربكان الذي تتلمذ أردوغان على يديه .. من المؤكد أن حزب العدالة قد طور شكلا أكثر تمدنا واعتدالا من الإسلام".

أيا كان الأمر فإنه لا يمكن إغفال حالة السخط العام على الحكومة وأحزابها الثلاثة في ظل الأوضاع الاقتصادية الصعبة والفساد السياسي والإداري الذي طال رموزا كبيرة مثل مسعود يلماظ زعيم حزب الوطن الأم وتانسو تشيللر زعيمة حزب الطريق القويم، بالإضافة إلى شيوعه في أوساط موظفي الدولة.

Abu Nour www.alkottob.com

وعلى سبيل المثال فقد أشارت تقارير لمنظمات غير حكومية إلى أن رجل شرطة - من بين كل ثلاثة- في اسطنبول فاسد وملوث بممارسات غير شرعية. وتجدر الإشارة إلى أن حزب العدالة والتنمية ركز أيضا في حملته الانتخابية على محاربة الفساد بالإضافة إلى تحقيق العدالة بين الأتراك. وقد طرح مؤسسو الحزب أنفسهم كإصلاحيين مستنيرين مؤمنين بالديمقراطية والعلمانية، لكنهم رفضوا تجريد تركيا من هويتها الإسلامية ودعوا إلى احترام الدين الذي فشلت العلمانية المتوحشة في اقتلاعه من نفوس الأتراك أو حتى تهميشه على مدار ما يقرب من ثمانين عاما. وقد نجح الحزب في استقطاب سياسيين غير ملطخين بالفساد ومعظمهم من أحزاب يمين الوسط.

ومن عوامل نجاح حزب العدالة أيضا صموده وزعيمه أردوغان أمام أمواج الاتهامات الدعائية والملاحقات القضائية بما عكس قوة تكوين هذا الحزب الذي طرح نفسه كحزب وسط، وتجنب استدراجه من جانب بعض خصومه إلى معارك جانبية حول الحجاب ومدى تمسكه بالمبادئ الإسلامية. وقد بدا أن الحزب أكثر التحاما بالجماهير، وذهب أردوغان ومرشحو الحزب إلى القرى والعشوائيات واختلطوا بسكانها واستمعوا إليهم متجنبين الضجيج الإعلامي في أنقرة وأسطنبول وحملات إعلامية شعواء ضدهم من جانب خصومهم. كما نجح الحزب في طمأنه رجال الأعمال والعمال معا إلى توجهاته الاقتصادية، كما أكد تمسكه بالمواقف القومية لتركيا تجاه المشكلة القبرصية والتمرد الكردي، وأعلن أن انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي يمثل أحد أهم أولوياته. كما نجح أردوغان وبقية قادة الحزب في نقل صورة إيجابية للحزب إلى الغرب. وتكتمل الصورة بعدم ترك قادة الحزب وعلى رأسهم أردوغان أية فرصة لإظهار وتأكيد الولاء للنظام العلماني ولأبي الجمهورية التركية مصطفى كمال أتاتورك ليغلق بذلك الباب أمام المتربصين بالحزب.

ويمكن القول إن نتيجة الانتخابات هي بمثابة "انقلاب أبيض" على العلمانية المتوحشة ومستغليها من رموز النخبة الفاسدة لكن ليست انقلابا على النظام العلماني في المطلق، وربما يكون التعبير المناسب أنها "ثورة إصلاحات" للنظام تستهدف تخليصه من التطرف الذي يقود لإلغاء الآخر. لكن من الجانب الآخر هي اعتراف بفشل التيار الإسلامي في الانتصار على العلمانية والحكم باسم الدين. ولعله من يرى أن نجاح حزب العدالة والتنمية هو محصلة فشل تيارى العلمانية المتوحشة والإسلام السياسي اللذين طالما قاد الصراع بينهما إلى حالة من تمزق الهوية في نفوس الأتراك، لكن هذه المسألة تظل نظرية بحتة، ولابد من تحليل أكثر عمقا لنتائج الانتخابات حتى يمكن وضع انتصار حزب العدالة في سياقه الصحيح.

لقد شملت الحملة الانتخابية صراعا بين خمسة تيارات هي: التيار القومي والتيار اليساري والتيار الإسلامي وتيار يمين الوسط، وأخيرا حزب العدالة والتنمية الذي لا يصنف نفسه في إطار التيارات السابقة ويقول إنه حزب وسط. ووفقا لنتائج الانتخابات، فإن التيار القومي على الرغم من فشل كافة أحزابه في دخول البرلمان فقد حقق صعودا واضحا بحصول الأحزاب الكبرى الثلاثة التي تمثله، وهي الحركة القومية وحزب الشباب وحزب ديمقراطية الشعب (دهب) الذي ورث حزب الشعب الديمقراطي (هدب) المعبر عن الأكراد، على ٣٠٪ من أصوات الناخبين مقارنة بحوالي ٢٠٪ في انتخابات عام ١٩٩٩ صحيح أن كلا منهما حقق فشلا منفصلا، لكن في المجمل تعكس النتائج أن هذا التيار بشقيه التركي والكردي قوي، بغض النظر عن فشل أي من أحزابه في الحصول على نسبة الـ ١٠٪ من أصوات الناخبين اللازمة لنيل التمثيل في البرلمان. وفي هذا الإطار نشير إلى أن حزب "الشباب" الجديد بزعامة الملياردير جيم أوزان الذي زايد على حزب الحركة القومية بزعامة دولت بهشلي النهم جزءا من شعبيته بشعاراته البراقة حول تركيا القوية الساطعة المتفوقة، فعلى الرغم من أن عمره لم يتعد شهورا فقد استطاع الحصول على ٧,٢٥٪ من

Abu Nour www.alkottob.com

أصوات الناخبين مقابل ٨,٣٤٪ لحزب الحركة القومية الذى تم تأسيسه فى عام ١٩٦٩. أما حزب دهب الكردى فقد حصد ٦,٢٢٪ من أصوات الناخبين مقابل ٤,٧٪ فى الانتخابات السابقة لحزب ديمقراطية الشعب (هدب) الذى ورثه فى إطار محاولة للهروب من محاولة قضائية لإغلاق (هدب) قبل المشاركة فى الانتخابات. ومن المفارقات الغريبة أن نسبة الـ ١٠٪ التى أصبحت عقبة أمام دخول هذا التيار - بشقيه التركى والكردى - البرلمان وضعت لإبعاد الأكراد عن المجلس النيابى كما يرى بعض المراقبين. وفى كل الأحوال، فإن هذه النسبة أصبحت حبلا التف على رقبة صانعيه ليس فقط من القوميين ولكن من أحزاب تيارى اليسار ويمين الوسط أيضا. والغريب أن أغلب الأحزاب الكبرى التى منيت بالفشل فى الانتخابات طرقت مبادرة أطلقها حزب تركيا الجديدة بزعامة إسماعيل جم لتقليل "النسبة العقبة" إلى ٥٪، وبدا كل حزب منها كأنه يستكثر على نفسه أن يظهر ما يشير إلى ضعفه، علما بأن هذه النسبة كبيرة للغاية بالنظر إلى نظم ديمقراطية أخرى تضع حواجز لدخول برلماناتها لتجنب التشرذم والتفتت فى مجمل الساحة السياسية.

وتجدر الإشارة إلى أن أوزان قد نجح فى طرح خطاب جذب إليه قطاعات من الشباب الطامح إلى النجاح والحياة الكريمة تحت راية تركيا المتفوقة التى تعطى ظهرها لأوروبا، ويرجع النجاح الذى حققه إلى تركيزه على الاقتصاد أكثر من السياسة والنعرة القومية المباشرة التى عكسها حزب الحركة القومية فى خطابه السياسى خلال الحملة الانتخابية. ومن هنا يمكن القول إن فشل أوزان بالنظر إلى كونه حزبا جديدا بعد نجاحا بمعايير "بكارة" الممارسة السياسية بغض النظر عما يراه بعض المحللين من زيف كثير من شعاراته والأطروحات المبنية على مغالطات فيما يتصل بالمخلص من الأزمة الاقتصادية التى تهدد مستقبل تركيا وكذلك بخناق حاضرها. أما ما حدث لبهشلى مع حزبه الحركة القومية فهو نوع من الفشل القاتل الذى لا يعالج، ومن هنا كانت مبادرته إلى التنحى عن رئاسة الحزب قبل إعلان النتائج النهائية للانتخابات محل تقدير لدى ناخبيه الذين حاولوا إثنا ء عن الاستقالة بمظاهرات أمام مقر حزبه، لكنه رأى أن حجم الفاجعة لا يحتمل الكذب والتجمل على غرار ما يحدث فى بعض بلدان العالم الثالث من الهتاف للمهزومين وتمجيد الفاشلين بتبريرات الهزيمة بشرف وغيرها من شعارات فجة. ويكفى أن بهشلى رأى أمام عينيه حجم تآكل شعبية حزبه بالأرقام من ١٨٪ من أصوات الناخبين فى انتخابات عام ١٩٩٩ إلى ٨,٣٤٪ فى ٢٠٠١ أى أن الحزب فقد أكثر من نصف قاعدة ناخبيه مما حرمه من دخول البرلمان، فى حين أجريت الانتخابات وهو لخزب الأول من حيث عدد النواب، إذ كان يمثله ١٢٥ نائبا يفارق ٤١ نائبا عن الحزب الذى يليه وهو حزب الطريق القويم بزعامة تانشو تشيللر.

وفيما يتصل بالتيار الإسلامى الذى عبر عنه حزب السعادة الوريث الشرعى لحزب الفضيلة المنحل، فقد مى بهزيمة تاريخية، فبعد أن حصد ١٥,٤٪ عام ١٩٩٩ لم ينل سوى ٢,٤٨٪ من أصوات الناخبين فى انتخابات ٣ نوفمبر رغم أن أبا هذا التيار فى تركيا، رئيس الوزراء نجم الدين أربكان، قطع معظم أقاليم البلاد جيئة وذهابا للترويج له، وتحدى الحظر السياسى المفروض عليه ليخطب منادبا بانتخاب مرشحى حزب السعادة. ووصل الأمر إلى حد إطلاق فتاوى قيل إنها شرعية بتصويت الأتراك لصالح حزب السعادة، واستخدام أربكان وزعماء حزب السعادة وعلى رأسهم رفيق دربه رجائى قوطان ترسانة من الشعارات الدينية، وانضموا إلى قائمة مهاجمى حزب العدالة وزعيمه رجب طيب أردوغان تلميذ أربكان الذى نبذه وتجب الوقوع فى نفس المصيدة التى سقط فيها أستاذه.

وعند التطرق إلى ما حققه التيار اليسارى من نتائج، فنشير أولا إلى أن الحزب الشيوعى الذى خاض الانتخابات لأول مرة وراهن بعض المحللين على أنه قد يصبح الحصان الأسود فى الانتخابات، قد حقق نتيجة

Abu Nour www.alkottob.com

متدنية ولم تنقذه من الموت السياسى الشعارات التى صكت من الغضب تجاه الوضع الاقتصادى المتأزم فى البلاد أو لرفضه الهيمنة الأمريكية على العالم رغم أن غالبية الأتراك ساخطون فى الحالتين. ويكفى أنه لم يحصل إلا على ١٩١, ٠٪ فقط من أصوات الناخبين وتذيل قائمة الأحزاب الثمانية عشرة المشاركة فى الانتخابات. والخلاصة أن النتائج تؤكد عمق أزمة الأحزاب الشيوعية فى أغلب بلدان العالم وتبدو أكثر عمقا فى الدول التى يمثل المسلمون أغلبية سكانها مثل تركيا.

وعكست النتائج أيضا انخفاض شعبية أحزاب يسار الوسط بالقياس للانتخابات السابقة، على الرغم من تمكن حزب الشعب الجمهورى بزعامة دينيز بايكال الذى ينتمى لهذا التيار من دخول البرلمان ومضاعفة غلته من أصوات الناخبين تقريبا بحصوله على ٣٩, ١٩٪ مقابل ٨,٧٪ فى انتخابات عام ١٩٩٩ إلا أن مجمل شعبية تيار يسار الوسط تأكلت بشكل كبير حيث بلغت ٦, ٢١٪ من الأصوات مقابل حوالى ٣٠٪ فى الانتخابات السابقة. ولعل حزبى اليسار الديمقراطى بزعامة رئيس الوزراء بولنت أجاويد، وتركيا الجديدة بزعامة تلميذه إسماعيل جيم قد تعرضا لهزيمة مذلة. ويكفى أن أجاويد الذى حاز لقب رجل تركيا المريض بجدارة أودى بحزبه فى هاوية سحيقة حيث انهارت شعبيته من ٢٢,٢٪ عام ١٩٩٩ إلى حوالى ٢,٢٪ أى إلى أقل من ١٠٪ مما حققه سابقا ، وهنا لابد من التساؤل: كيف يمكن أن يفقد حزب ٩٠٪ من شعبيته خلال ٣ سنوات فقط، لولا أنه أصيب بما يشبه العمى الكامل على الساحة السياسية وارتكب أخطاء قاتلة؟ قد يقول البعض إن أجاويد سبق أن حذر من أن إجراء انتخابات مبكرة ستقود إلى كارثة بالنسبة لأحزاب الائتلاف الحاكم الثلاثة (اليسار الديمقراطى إضافة إلى حزبى الحركة القومية والوطن الأم) غير أن إجراء الانتخابات فى موعدها المقرر سابقا وهو عام ٢٠٠٤ لا يعنى أنه كان سينقذ حزبه من تجرع هذه الهزيمة وهو فى خريف عمره وله تاريخ حافل فى الحياة السياسية لا يخلو من مواقف ساطعة ويحوز بسببها تقدير قطاعات من أبناء الشعب التركى. وهنا تتوقف أمام إصرار أجاويد على الاحتفاظ بقيادة الحزب والحكومة رغم مرضه والدور الذى لعبته زوجته "رهشان هانم" التى وصفت بأنها رجل تركيا القوى فى تسيير أمور البلاد والعباد. ويكفى أن أجاويد تجاهل استطلاعات الرأى وتخيل أنه بإمكانه سحر الرأى العام بالحديث عن المؤامرة التى تعرض لها حزبه من جانب الثلاثى الذى شارك فى قرد بوليو ضده، وهم إسماعيل وحسام الدين أوزكان نائب رئيس الحزب السابق وكمال درويش وزير الاقتصاد السابق، عندما تعرض الحزب إلى الانشطار، وانضم نصف عدد نوابه فى البرلمان إلى حزب تركيا الجديدة الذى شكله جيم.

وهنا نشير إلى الفشل الآخر المخطير لجيم الذى دفع ثمن تخلى درويش عنه والقراءة غير الصحيحة للساحة السياسية، فلم يكن مقنعا فى طرحه بشأن تركيا الجديدة التى يريدها فكانت كارثة حصول الحزب على ١,٠٢٪ من الأصوات. كما أن كونه وزيرا فى الحكومة المغضوب عليها صنفه بين القدما ، وليس الجدد، وهكذا شارك جيم بحساباته الخاطئة وأجاويد بتعاميه عن الحقائق فيما حدث لتيار اليسار من تراجع. ولا نظن أنه لو تمكن كمال درويش من توحيد أحزاب تيار يسار الوسط تحت راية حزب بايكال لكان بإمكان هذه الأحزاب تحقيق نتائج أفضل كثيرا ، وربما يكون السبب درويش نفسه الذى تحول فى نهاية الحملة الانتخابية من رمز لانتعاش الاقتصاد التركى أو إنقاذه إلى أحد عوامل الأزمة بسياسات صندوق النقد الدولى التى أشرف على تنفيذها وأدت إلى تزايد البطالة وكرست النفوذ الأمريكى أكثر مما قد يقيد حركة تركيا فى سياستها الخارجية و بدفعها إلى مواقف لا تريدها فى محيطها الإقليمى.

وبالنسبة لتيار يمين الوسط الذى يمثله حزبا الطريق القويم والوطن الأم، فنتائجه ليست أقل سوءا عن الانتخابات السابقة حصل على حوالى ٢٦٪ من الأصوات مقابل ١٤,٠٦٪ فى هذه الانتخابات. وهنا نشير

Abu Nour www.alkottob.com

إلى هيمنة هذين الحزبين على الحياة السياسية فى البلاد منذ تأسيسهما عام ١٩٨٣، ولقد كان لابد من اختفاء زعيمى الحزبين مسعود يلماظ وتانسو تشيللر الملطخة سيرتاهما بالفضائح والفساد منذ فترة طويلة، لكنهما كانا وناورا، ولم ينقذهما تصعيد الهجوم على حزب العدالة والتنمية.

سادساً: تشكيل الحكومة وبرنامجها

بعد إعلان الفوز الكبير لحزب العدالة والتنمية فى انتخابات ٣ نوفمبر بساعات، طالب أردوغان أعضاء وناخبى الحزب بعدم المبالغة فى الاحتفال بالانتصار، وأمر بفض احتفاليات صاخبة أمام مقار الحزب فى أنقرة واسطنبول. وكان أول تصريح بعد ظهور النتيجة بشكل غير رسمى، واعتراف زعماء أحزاب الائتلاف الحاكم الثلاثة بالهزيمة، أن الحزب متمسك بالدستور الذى ينص على أن تركيا دولة ديمقراطية علمانية، وأن مهام كافة المؤسسات واضحة وفقا للدستور. وطمأن أردوغان المؤسسة العسكرية بقوله: "الجيش قرة أعيننا ويجب ألا يتدخل أى طرف بيننا وبينه". ووصف أردوغان الحجاب بأنه مجرد غطاء للرأس وليس رمزا أيديولوجيا واستشهد بوجود محجبات بين أعضاء حزب الشعب الجمهورى المعارض. وحرص أردوغان على تأكيد التنسيق مع المعارضة البرلمانية المتمثلة فى حزب الشعب الجمهورى، حيث التقى زعيم الحزب دينيز بايكال وأكد أن الحكومة الجديدة ستتسق مع حزب الشعب الجمهورى فى الدورة البرلمانية المقبلة. كما أكد أن الحكومة الجديدة لن تدعم توجيه ضربات عسكرية للعراق ما لم يكن هناك تفويض من الأمم المتحدة بذلك.

وفى اليوم التالى أكد أردوغان أن تركيز الحكومة الجديدة سينصب على حل كافة المشكلات الاقتصادية ومكافحة الفساد الإدارى، وأنه سيتم حل مشكلة المحجبات المتمثلة فى حظر دخول الطالبات المحجبات الجامعات وعمل المحجبات فى الوظائف الحكومية، فى إطار توافق وطنى. وأظهر أردوغان قربه من الشعب فى يوم ٢٠٠٢/١١/٦ بذهابه إلى منطقة "ماملك" العشوائية واختياره أسرة فقيرة بشكل عشوائى لتناول طعام الإفطار الرمضانى معها. وبعد أسبوع من إجراء الانتخابات وبالتحديد يوم ١٠ نوفمبر زار أردوغان ورفقته قيادات الحزب ضريح الزعيم مصطفى كمال أتاتورك، وأصدر الحزب بيانا أكد فيه تمسكه بمبادئ أتاتورك العلمانية وأشاد بدوره فى بناء تركيا الحديثة. وقبل تشكيل الحكومة بدأ الحديث عن اتجاه حزب العدالة والتنمية لتعديل الدستور لتمكين أردوغان من تولى منصب رئيس الوزراء الذى حرم منه نظرا لأنه ليس عضوا بالبرلمان، وبدأت التكهنات حول رئيس الوزراء المقبل، وأخذ عبد الله جول النائب الأول لأردوغان فى رئاسة الحزب فى الظهور إعلاميا شيئا فشيئا. وعلى الصعيد الخارجى أبدت الولايات المتحدة دعمها لحزب العدالة بشكل واضح وصريح، حيث صرح السفير الأمريكى فى أنقرة روبرت بيرسون بأن إدارة الرئيس جورج بوش تتطلع إلى العمل البناء مع الحكومة التى سيشكلها حزب العدالة فى سعيها لتحقيق جدول أعمال إصلاحاتها الطموح. واعتبر بيرسون أن فوز الحزب جاء نتيجة لتصويت الناخبين لصالح التغيير وإعطاء الفرصة لقيادة جديدة للحكم فى إطار علمانى ديمقراطى دستورى ومجهود أقوى لمكافحة الفساد. ووعد بيرسون بتوفير "شبكة أمان أمريكية" للاقتصاد التركى يحيث يعود إلى عهد الرخاء.

وفى ١٦ نوفمبر تم تكليف عبد الله جول بتشكيل الحكومة الجديدة. وقد تم ذلك التكليف ضمن السياق الدستورى والواقعى التالى: فنظرا لأن أردوغان زعيم الحزب ليس عضوا فى البرلمان كان عليه أن يطرح على الرئيس أحمد نجدت سيزار مرشحا لتولى منصب رئيس الوزراء، وحتى يتجنب أزمة فى حالة رفض مرشحه من جانب الرئيس، عرض أردوغان على سيزار ثلاثة أسماء هم: عبدالله جول، ووجدى جونول

Abu Nour www.alkottob.com

القاضى السابق والمعروف بميوله العلمانية، وعبد القادر أكسو وزير الداخلية الأسبق فى عهد حكومتى مسعود يلماظ ونجم الدين أربكان. ورغم أن الترجيحات كانت تميل لجونول الذى يرتبط بعلاقة زمالة دراسة مع الرئيس والوحيد من بين المرشحين الثلاثة الذى لا ترتدى زوجته الحجاب، فإن سيزار اختار جول لأسباب لم يكشف عنها.

وفى اليوم التالى لتكليفه بتشكيل الحكومة حدد جول أولويات حكومته فى الآتى:

- رفع معايير الديمقراطية فى البلاد.
- الوصول باقتصاد تركيا إلى مستوى الدول الغنية.
- إعادة توزيع موارد البلاد بشكل عادل على الشعب بما يذوب الفوارق بين الأغنياء والفقراء.

وأعلن جول أن الحكومة الجديدة ستذهل القادة الأوروبيين باتخاذ خطوات جادة تبرز للعالم أن تركيا دولة مسلمة ديمقراطية معاصرة بحيث تكون نموذجا لبقية الدول الإسلامية.

www.alkottob.com
Abu Nour

٢. تنظيم قاعدة الجهاد

بعد حدث ١١ سبتمبر الفارق تنازعت ثلاث رؤى، نصمها نقائص عدة، تقويم الغرب لصعود حركة "الإحياء الإسلامي" في منطقة الشرق الأوسط، خاصة في شقها ذي الطابع الدولي الذي تعدى حدود البلاد التي نبت في تربتها وساح في مناطق عدة على سطح البسيطة، تتوزع على قارات خمس تقريبا. ويُعنى في تحدي القوة العسكرية والاقتصادية الأكبر في عالمنا المعاصر وهي الولايات المتحدة على مستويات تمتد من القيم إلى السياسات، ومن السلوك اليومي إلى الاستراتيجيات البعيدة.

والرؤية الأولى نظرت إلى هذه الحركة على أنها رد فعل لسياسة واشنطن الداعمة بشدة لإسرائيل، والمصرة بقوة في الوقت ذاته على قضم حقوق العرب إن لم تكن إهانتهم. ويقف نعوم تشومسكي على رأس مبتني هذه الرؤية. وتحدثت الرؤية الثانية عن هذه الإحيائية بوصفها تمثل جوهر "صدام حضاري" بين المسلمين والغرب، ويقود صمويل هنتنجتون من يتمسكون بهذا الاتجاه، الذي زادت أسهمه بعد تفجيرات نيويورك وواشنطن، خاصة أن هذا التصور رشح بقوة على خطاب الخصمين اللدودين، وهما الولايات المتحدة و"تنظيم القاعدة"، حتى إنهما تطابقا عقب ١١ سبتمبر مباشرة حين تحدث بوش عن "حرب صليبية" وأعاد أسامة بن لادن كلامه المعتاد عن "محاربة الصليبيين". أما الرؤية الثالثة فتتعامل مع الإحياء الإسلامي على أنه رد ثقافي نفسي يتماس مع دوائر سياسية واجتماعية واقتصادية أوسع على "الحداثة" التي حمل الغرب لواءها، وفرّ بها رواسب ماضوية في الشرق الأوسط وغيره. ويدافع بارل بيرمان عن هذا الفهم لحالة الاحتقان بين اجتاح العنيف من الإحيائية الإسلامية والغرب، خاصة الولايات المتحدة.

وقد بنيت هذه الرؤى في جوهرها على تحليل خطاب زعماء "تنظيم القاعدة"، قبل ١١ سبتمبر وبعده، وإن كانت تتلاقى في بعض الجوانب مع طروحات غربية قديمة بذلت ما أمكنها من جهد في تفسير أسباب صعود الحركة الإسلامية، بجناحيها المعتدل والمتطرف، لكنها فشلت في أن تقدم أجوبة جامعة مانعة في هذا المضمار. وفي حقيقة الأمر فإن "صدمة الحداثة" و"صدام الحضارات" و"الثأر من الولايات المتحدة" ليست كافية كمداخل للوقوف على حقيقة ما دفع أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وأتباعهما إلى السير على درب مواجهة الولايات المتحدة. فبالنسبة للأول على الأقل فإن هذه الثلاثية كانت موجودة حين كان بن لادن حليفا ظاهرا لواشنطن إبان حركة "الجهاد" ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان. أما الثاني فظل عدة عقود مشغولا بمحاربة "العدو القريب" الذي يعني تحديدا النظام الحاكم في مصر، ولم يكن موقفه من الولايات المتحدة يتعدى حدود الاحتقان النفسي الناجم عن تأييدها السافر لإسرائيل، ووقوفها، في الوقت ذاته، خلف النظام المصري.

Abu Nour www.alkottob.com

نعم غذت سياسات الولايات المتحدة المتحيزة لإسرائيل الجائرة على العرب، حالة الغضب داخل كثير من الجماعات الإسلامية، الراديكالي منها والمحافظ، وساهمت، إلى جانب قمع الأنظمة الحاكمة وتسلطها، في توجه بعض فصائل الحركة الإسلامية إلى العنف، وتحولها من "الداخل" إلى "الخارج"، سواء على مستوى التواجد أو تحديد الأهداف، ويمعنى أكثر دقة "تعيين العدو". لكن هناك من تحدث عن خصائص بنائية تجعل القطاع الأكبر من الحركة الإسلامية، لاسيما تلك التي تأخذ بعدا دوليا، تطرح نفسها "بديلا استراتيجيا" لما هو سائد، سواء على مستوى كل قطر عربي وإسلامي على حدة، أو كقوة عالمية بديلة. فالإسلام "دين عالمي" ونصه الأول المؤسس وهو "القرآن" يجتذر تصورات ذات طابع أممي، تتجاوز حدود اللون والجنس واللغة والجغرافيا والزمن، وتجعل معيار التفرقة الوحيد بين البشر هو "التقوى"، وتحض دائما على "الدعوة" التي تعني التبشير بالدين الإسلامي، و"الجهاد" الذي يعني مقاومة أي عدوان على المسلمين، أيا كان موقعهم ومكانتهم، وحماية ثغور الدول الإسلامية.

وهذه الطبيعة البنائية وجدت في الظروف العالمية الراهنة ما وجه "تنظيم القاعدة" إلى منازلة "العدو البعيد" وهو الولايات المتحدة، لكنها لا تنتج في حد ذاتها، كما يتصور بعض الباحثين وصناع القرار في الغرب، عنفا، عشوائيا أو منظما. فالطبيعة ذاتها متجذرة في عقول بقية المسلمين ونفوسهم، إلا أنهم جميعا لا يسيرون في الطريق ذاته الذي سار فيه "تنظيم القاعدة" والتنظيمات والجماعات الجهادية المتطرفة التي ترفع من الإسلام شعارا سياسيا لها. ومن ثم فإن طروحات من قبيل "صدام الحضارات"، التي تعني في غايتها وضع العالم الإسلامي برمته، دون أي سند من حق أو مسوغ من عدل، في موقع "العدو"، لن تقدم حلا ناجعا لمشكلة الإرهاب، ولن تحقق الأمن للولايات المتحدة، أو تسمح لها بأن تقنع العالم بأنها "قائد العولمة"، في مختلف أوجهها.

ويكمن الحل الناجع في حزمة من الإجراءات المتكاملة، أولها كف الولايات المتحدة عن مساندة العدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، والعمل بجدية في سبيل حل القضية الفلسطينية. وثانيها امتناع واشنطن عن مساندة نظم حكم غير ديمقراطية في العالم العربي، بما يسمح بتغيير سياسي وتحديث اجتماعي ذاتي، ينهي حالة الاحتقان من هذه الأنظمة، والتي انعكست في جانب من كراهية الولايات المتحدة، إذ تظر أدبيات الرعيل الأول من الحركة الإسلامية إليها بوصفها داعما لحكومات تقهرهم، وهو التصور الذي لا يزال سائدا. وهنا تتبع ضرورة فتح الطريق أمام احتوا، الحركة الإسلامية وليس إقصائها واستهجانها مثلما هو قائم الآن، شريطة تخليها التام عن العنف، في الداخل والخارج، وتسليمها بقواعد مدنية للحكم تقوم على تداول السلطة واحترام حرية التعبير. أما ثالث هذه الإجراءات فيتمثل في "تعميق فهم الدين الإسلامي وليس إقصاءه أو تنحيته أو محاربته، فهذا أمر غير ممكن وسيجابه بمقاومة شرسة. وهنا التعميق يجب أن يناط بالفقهاء المعتدلين من المسلمين، الذين يلاقون قبولا لدى الناس، ويعون مستجدات العصر، ولا يفرض من الخارج، في شكل مطالب تنطوي إلى إجبار مبطن بتعديل مناهج التعليم الديني. فالبد الخارجية ستجعل أي محاولة إصلاحية ينظر إليها جماهيريا بشكل سلبي كبير، وهو ما يصب في مصلحة الجماعات الدينية المتشددة.

أولا، تدويل "الإسلام الراديكالي"، طريقا "الجهاد" و"القاعدة"

يتبادر إلى أذهان الكثيرين من بين الباحثين، وصناع القرار ومتخذيه، والقائمين على الأجهزة الأمنية والاستخباراتية في دول شتى، أن حدث ١١ سبتمبر كان تعبيرا جليا عن "تحولة" الحركة الإسلامية الراديكالية، التي انزلقت إلى "الإرهاب"، من منطلق أنها استطاعت أن تمس عصب أكبر دولة في عالم

Abu Nour www.alkottob.com

المعاصر، عسكريا واقتصاديا، وهي الدولة التي تقود العولمة، وتصنع الجزء الأكثر أهمية من أشكالها وأبنائها ومقاصدها، خاصة في مجالات المال وتقنيات المعلومات والاتصال والاستراتيجيات. وما زاد من وجاهة هذا الوصف وأعطاه مصداقية نسبية، أن رد فعل وامتطن حيال الحدث المذكور أخذ صيغة عالمية، من خلال سعي الإدارة الأمريكية إلى بناء تحالف دولي مناهض للإرهاب، وعبر استغلالها له في تحقيق أهداف استراتيجية عميقة ترتبط بسعيها إلى قيادة "العولمة". وهذا التصور يبدو دقيقا إن كنا بصدد تقويم القدرة التي وصل إليها تنظيم حركي ذو أهداف سياسية، تتعدى حدود الدول التي ينتمي إليها أفراده، وتحاول أن تلعب دورا ما في السياسة الدولية المعاصرة برمتها. لكن التصور ذاته تعوزه الدقة حال الأخذ في الاعتبار المحطات الزمنية التي مر بها هذا التنظيم في طريقه من المحلية إلى العالمية، انطلاقا من لحظة البداية التي تشكل فيها، وحتى لحظة الذروة التي تمثلت في تفجير برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك ومقر البنتاجون، مرورا بمحطات عدة صنعتها أنظمة سياسية إقليمية ودولية، عبر أجهزة استخباراتها وأمنها ومخططي سياساتها.

فإذا كان التنظيم الدولي لجماعة "الأخوان المسلمون" جزءا من كيان الجماعة، التي ولدت في ظرف تاريخي، جعلها تضع نصب عينيها منذ البداية ضرورة أن تعبر القوميات من أجل تحقيق "الخلافة الإسلامية" التي سقطت عام ١٩٢٤، أي قبل قيام هذه الجماعة بأربع سنوات فقط، فإن الحركة الإسلامية الراديكالية - وتحديث هنا عن تنظيم الجهاد المصري الذي تحالف فصيل منه مع أسامة بن لادن، ثم يكن ضمن أولوياتها لحظة تشكلها التحرك خارج حدود الدولة، وتكوين "تنظيم دولي" ما، بل كانت أهدافها محددة في قضايا محلية أو داخلية، ذروتها تغيير نظام الحكم القائم بالقوة، باعتباره في نظرها "حكما كافرا" أو "ظالما" و "فاسقا" على أقل تقدير، لأنه "لا يطبق الشريعة الإسلامية"، بالصيغة التي ترى هذه الجماعات أنها تعبر عن "صحيح الإسلام". ثم جاءت ظروف سياسية، تجسمت أساسا عن صراع دولي خلال فترة الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي المنهار والولايات المتحدة الأمريكية، جعل تنظيم الجهاد يظل برأسه خارج الحدود المصرية. وبعدها تراكمت الأسباب التي جعلت من "الهجرة" مرحلة ضرورية تكتيكيا بالنسبة لهذا التنظيم، ومن هنا افتتح الباب أمام "تعولم" فصيل من الإسلاميين الراديكاليين المصريين، بعد أن قاده التحالف مع أسامة بن لادن والمجموعات المتحلقة حوله، أو التي تقدمه عليها زعيما وقائدا، إلى تغيير وجهة سياساته، من إسقاط النظام الحاكم في مصر إلى قتال الولايات المتحدة وحلفائها.

والوصول إلى هذه المرحلة لم يتم عبر قفزة سريعة أخذت هؤلاء من التحرك محليا إلى منازلة أكبر دولة في عالمنا المعاصر، إذ إن الخروج من مصر لم يغير، طيلة ثلاثة عقود تقريبا، من تفكير قادة وأعضاء مختلف الجماعات الإسلامية الراديكالية، وهو التفكير الذي انصب أساسا على أن الهدف الرئيسي هو إزاحة النظام المصري، بوصفه "العدو القريب"، وبعدها يمكن التفكير في مجابهة "العدو البعيد" وفي المقدمة الولايات المتحدة وإسرائيل بعد أن تهاوى الاتحاد السوفيتي وانفرط عقد دول أوروبا الشرقية الشيوعية. ومن هنا كانت "الهجرة" خارج مصر تستهدف تحقيق "التمكن" الذي لم يكن من المتاح الوصول إليه في مصر نفسها، نظرا لليقظة الأجهزة الأمنية وصرامة السلطة الحاكمة في التعامل مع أي جماعات خارجة على القانون، وبعد ذلك تأتي مرحلة "الفتح"، الذي يعني دخول أعضاء هذه الجماعات إلى مصر فاتحين على غرار الفتح الإسلامي الأول في محاولة إعادة إنتاج حدث تاريخي بشكل تبسيطي لا يخلو من سذاجة كبيرة. ومن ثم يمكننا فهم سر إطلاق تنظيم الجهاد على العناصر التي دفع بها إلى مصر في عقد التسعينيات من القرن الماضي لاغتيال بعض رموز السلطة السياسية وضرب السياحة اسم "طلائع الفتح"، وهي خلايا كانت تعمل تحت قيادة أيمن الظواهري.

لكن العوامل القديمة التي ساهمت في إيجاد مسألة "الهجرة" لم تلبث أن رشحت على هذا التفكير،

Abu Nour www.alkottob.com

وكان من الصعب أن ينسلخ تنظيم الجهاد المصري تماما عن الأطراف التي ساهمت في تشكيل حركة عناصره إلى الخارج، وتحديدا إلى أفغانستان. ومن ثم ما إن خرجت القوات السوفيتية من هذا البلد ونشبت حرب أهلية بين فصائل "المجاهدين" حتى وجد "الراديكاليون الإسلاميون"، الذين انضووا تحت مسمى عريض هو "الأفغان العرب" أنفسهم مزعزعين على تكتيكات واستراتيجيات أطراف إقليمية ودولية، بعضها استخدم الهاربين من قيادات الجماعات المتطرفة أوراقا في يده يناور بها الحكومة المصرية، وفي مقدمة هذه الأطراف تأتي الولايات المتحدة التي تردد أنها أجرت اتصالات مع قيادات من "الإخوان المسلمون" و "الجماعة الإسلامية"، إبان فترة العنف الأخيرة والعصيبة التي مرت بها مصر، وامتدت من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٧. ويبقى هذه الأطراف عول على هؤلاء، في تحقيق أهداف بعيدة المدى تخص إقامة "أممية إسلامية"، مثلما هو حال السودان طيلة عقد التسعينيات. بالإضافة إلى ذلك استفاد بعض الهاربين من بين من حاربوا في أفغانستان عن قوانين اللجوء السياسي في دول أوروبا، وحصل كثيرون على فرص عمل في بلدان عربية خليجية وغير عربية، ووجد آخرون في بؤر الصراعات المسلحة، أو ما يطلق عليها "البؤر الملتهبة"، في البوسنة والهرسك، وكوسوفا، والشيشان، وكشمير، وطاجيكستان، والفلبين، مأوى بعد أن أوصدت مصر أبوابها أمامهم، إثر صدور أحكام غيابية عليهم تراوحت بين الإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة، باعتبارهم ارتكبوا جرائم.

وهذه الأحوال أدت إلى توزع قطاع من تنظيم الجهاد المصري على دول عديدة انتفاعا من التعاون مع أجهزة استخبارات تارة، ووجود عناصر قادرة على تزوير الأوراق الثبوتية كافة، وتوافر جهات قادرة على التمويل دوما. وساهمت الطفرة الهائلة في وسائط الاتصالات في ربط هؤلاء جميعا بمراكز قيادة في الخارج، وعناصر قيادية داخل مصر نفسها، في حين ساهم التقدم الملموس الذي شهدته الأعمال المصرفية في إتاحة فرص كبيرة لتحويل الأموال وغسيلها، من أجل دعم عمليات إرهابية أو دفع مقابل لمتعاونين وأعضاء في هذه التنظيمات، أو الإنفاق على أسرهم سواء في الداخل أو في الخارج. كما وفرت شبكة "الإنترنت" وسيلة إعلامية رخيصة وسهلة أمام هذه التنظيمات لتصدر صحفها ومجلاتها وبياناتها المتتالية. ولاستعمالها ما جادت به الحداثة في أعلى صورها، تمددت الحركة الإسلامية بوجه عام لتصبح جزءا من صور العولمة، واستكملت هذا "التعولم" بمنازلة أمريكا في ١١ سبتمبر في معركة، إن لم تكن منكافئة على الإطلاق، فإنها تظهر المستوى الذي وصلت إليه الجماعات الجهادية الإسلامية ذات البعد الدولي في التنظيم والتخطيط والتنفيذ من جهة، والرغبة الواضحة في طرح نفسها بقوة على الخريطة السياسية الدولية من خلال "أجندة" موجهة أساسا ضد واشنطن ومعها تل أبيب، من جهة ثانية.

وحتى عام ١٩٩٧ لم يكن تنظيم الجهاد المصري قد تعولم سياسيا بالمعنى الدقيق لهذه المسألة. فهو كان مهموما بتحقيق مقاصده في إزاحة الحكومة، ولم يغب هذا المآرب عن أذهان قادته، سواء كانوا في كهوف أفغانستان أو في جبال اليمن وأحيا، الحرطوم الخلفية، أو في الشقق الفاخرة في أوروبا والولايات المتحدة ذاتها. لكن اشتراك أحد قيادات التنظيم وهو أيمن الظواهري فيما يسمى بـ "الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين" في فبراير ١٩٩٨، جعل هذا المقصد يقبل بجانبه مقصدا آخر وهو "قتال العدو البعيد" أي أمريكا وإسرائيل وروسيا على وجه الخصوص، وذلك مع فشل العناصر التي أرسلها تنظيم الجهاد في النيل من تماسك النظام المصري بالتوازي مع فشل كافة العمليات الإرهابية التي نفذتها عناصر محلية في دفع هذا النظام إلى الانهيار أو التسليم، كما كان قادة هذه الجماعات يتوهمون.

وتحت راية الجبهة، المذكور سلفا، امتزجت أهداف الراديكاليين الإسلاميين المصريين من تنظيم الجهاد، أو تناغمت، مع أهداف أبعد كانت تدور في رأس قيادات راديكالية من دول عربية وإسلامية أخرى جمعت من الولايات المتحدة "العدو الأول"؛ لإجبارها على سحب جيشها وعتادها من منطقة الخليج العربي.

Abu Nour www.alkottob.com

واخراجها من معادلة الصراع العربي ـ الإسرائيلي، أو معاقبتها على الوقوف خلف إسرائيل في جميع الأحوال. ولم يكن تحول من هذا النوع صعبا على الإطلاق، نظرا لأن "الأفغان العرب" عموما، ليسوا سوى نتاجا لصراعات عالمية، أيديولوجية واستراتيجية، أكسبتهم خبرة عميقة نسبيا في التعامل مع قضايا تتعدى حدود أقطارهم، وغذت لديهم ميلا، تنامى باستمرار، إلى إيجاد "أممية إسلامية". وعبرت أدبيات الراديكاليين الإسلاميين وتصريحات قادتهم، اعتبارا من النصف الثاني من عقد التسعينيات من القرن الماضي، بوضوح وجلاء، عن هذا التوجه الجديد، ثم جاءت تحركاتهم لتؤكد هذا، إذ إنها اخترقت حدود الدول القومية وساحت في عالم جغرافي تخيلي ينتهي عند نقاط التماس الملتهبة في العالم الإسلامي، ويعيد إنتاج التصورات الأكثر شمولية التي تحدثت عن دولة إسلامية تمتد من غانا إلى فرغانة، لكن هذه المرة، ليس بطريقة دعوية كما أعتادت تيارات إسلامية عديدة طيلة القرن الأخير، بل بشكل حركي عنيف، لا يقف عند حدود الأمنيات. ولا يعترف بالتغلغل البطيء السلمي المدروس الذي انتهت إليه حركات إسلامية أممية سياسية مثل الإخوان المسلمين، أو دينية غير سياسية مثل جماعة "التبليغ والدعوة".

ومع ذلك فيصعب التسليم تماما بأن الطابع الأممي لتنظيم الجهاد صنيع السنوات الخمس الأخيرة فقط، فهو بشكل جزء من خطاب هذه الجماعات منذ زمن، تمحور حول ثلاث قضايا رئيسية، هي "الخلافة" و"الجهاد" و"العلاقة مع الغرب". لكن على المستوى العملي قاد ترتيب الأولويات لدى هذه الحركات إلى جعل تغيير الوضع الداخلي قسرا هو القاعدة الأساسية للانطلاق إلى بناء أنماط عدة من التعاون مع الحركات الإسلامية في بلدان عربية وإسلامية أخرى لإسقاط الأنظمة "العلمانية" الحاكمة، ومد يد العون، المادي والمعنوي، إلى الأقليات المسلمة في مختلف البلدان. ثم أخيرا النظر إلى العالم "غير الإسلامي" على أنه "دار حرب"، يستوجب إحياء "الفريضة الغائبة" في مواجهته، وهي الجهاد. ومعنى هذه أن النظرة "عابرة القوميات" في خطاب تنظيم الجهاد المصريٌ وقفت طويلا عند حدود التصور الأيديولوجي العام، حتى جاء بروز ظاهرة "الأفغان العرب" الذين أوصدت في وجوههم أبواب الرجوع إلى بلادهم بعد انتهاء مهمتهم في أفغانستان بخروج القوات السوفيتية مهزومة ليضعها على محك التدويل. ثم جاء حدث ١١ سبتمبر ليظهر أن بعض عناصر هذا التنظيم تشكل جزءا من حركة عريضة تستخدم أهم ما ارتقته العولمة في مجالات الاتصالات والمعلومات، وترفض في المقابل ما تطرحه العولمة في مجال الثقافة، من خلال تمسكها الصارم بخصوصية وهوية "إسلامية" تضع الآخر الأمريكي في موضع العدو الثقافي والعسكري والسياسي.

ثانياً: معالم المسيرة: من معسكر "الأنصار" إلى "قاعدة الجهاد"

لم يدر بخلد أسامة بن لادن وهو يحزم أمتعته استعدادا للذهاب إلى أفغانستان بعد فترة وجيزة من الاجتياح السوفيتي لها عام ١٩٧٩ أنه سيمضي بعد اثنين وعشرين عاما أشهر وأخطر رجل في العالم، تحشد أكبر قوة على وجه الأرض جيوشها من أجل قتله أو اعتقاله، والتخلص من الرجال الذين يلتفون حوله، سواء على أرض أفغانستان، أو في مناطق متفرقة من العالم. لقد أخذت رحلة بن لادن في مستهلها شكل استطلاع الأمور وتقييم المواقف، لتتطور إلى التبرع بأموال طائلة لتقديم الدعم اللوجستيكي اللازم لحركة "الجهاد"، ومنه إلى التطوع للقتال في صفوف المجاهدين العرب فكريا وتنظيميا تحت قيادة الشيخ عبد الله عزام، أحد أركان جماعة "الإخوان المسلمون" في الأردن، وفيما بعد ميدانيا تحت راية المجاهدين الأفغان. وإذا كان دور بن لادن في الناحية الميدانية اقتصر في البداية على مساندة المقاتلين، فقد تصاعد فيما بعد إلى المشاركة في المعارك ضد السوفيت، ووصل إلى حد إصابته في مواجهة مباشرة على أحد الخطوط الأمامية لجبهة القتال.

Abu Nour www.alkottob.com

وقد أسس بن لادن وعزام "مكتب الخدمات الأفغاني"، الذي تولى حشد الشباب المسلم من مختلف أنحاء العالم، خصوصا الدول العربية، وتلقينهم عقائديا بما يملأ نفوسهم اقتناعا بدورهم في قتال السوفيت. ثم أسس الاثنان أيضا أول معسكر لهما وهو "الأنصار" في منطقة حاجي بزاقلم باكستانيا في أفغانستان، تبعته معسكرات أخرى مع ازدياد حجم المتطوعين للقتال في أفغانستان، مثل معسكرات "الخلافة الإسلامية" و"الشهيد صهيب" و"مأسدة الأنصار". ولم تلبث أن تدهورت العلاقة بين عزام وبن لادن، إثر خلافهما حول قضيتين رئيسيتين الأولى تتعلق بطريقة القتال في أفغانستان، والثانية ترتبط بالدور المستقبلي للأفغان العرب، حال تحقق النصر في أفغانستان. فبينما كان عزام يرى ضرورة التهاهي في صفوف المقاتلين الأفغان والعمل تحت إمرة قيادتهم، مال بن لادن إلى تمايز هؤلاء المقاتلين في تدريبات ومهام قتالية منفردة. وبينما كان بن لادن يميل إلى دور للأفغان العرب في بلادهم الأصلية، في سياق إيمانه بخلافة إسلامية، الأمر الذي يعني الدخول في مواجهة مع حكومات هذه الدول، كان عزام يرى ضرورة التزام هؤلاء بالعمل داخل أفغانستان فقط.

وبعد حادث مقتل عزام الذي وجه اتهام إلى بن لادن بالضلوع فيه ونفى هو ذلك جملة وتفصيلا، بات أسامة هو الزعيم الأول للمجاهدين العرب، بما أنفقه من مال وما بذله من جهد تنظيمي في القتال، علاوة على اتسامه بصفات جعلته مقربا من قلوب المتطوعين المسلمين مثل التواضع والأدب الجم والإخلاص في العمل والمشاركة في الأعمال اليومية البسيطة وامتلاك ناصية الخطابة والتأثير في سامعيه والإلمام، بقدر لا بأس به من الفقه ومعرفة ذات بال بما يجري على الساحة الدولية المعاصرة. وبالتزامه من أجل الظواهري زعيم جماعة الجهاد المصرية ومن معه من "الأفغان المصريين" أكمل بن لادن ما كان يعوزه من مهارات تنظيمية وتكتيكية.

وبعد هزيمة السوفيت وجد بن لادن ومن معه من قادة الأفغان العرب الذين أوصدت الأبواب أمام عودتهم إلى مسقط رؤوسهم، أن دورهم قد انتهى في أفغانستان وتأكدت لهم ضرورة الرحيل بعد اندلاع القتال بين أمراء الجهاد الأفغان، إذ وجد العرب أن بقاءهم على الأرض الأفغانية يعرضهم لخرج شديد وقد يجدون أنفسهم مضطرين إلى الانحياز إلى فصيل ضد آخر وهو أمر لم يكن يروق لهم على الإطلاق. وبذلك عاد بن لادن إلى مسقط رأسه في المملكة العربية السعودية، لكن طموحه إلى ممارسة دور على أرض المملكة جعل النظام الحاكم فيها يضيق ذرعا به تدريجيا، خاصة بعد أن طلب من الحكومة السعودية عدم الاعتماد على الولايات المتحدة في إخراج العراق من الكويت عام ١٩٩٠ واستبدال ذلك بجيش عربي - إسلامي يحرر الكويت ويكون للمجاهدين الذين قاتلوا السوفيت في أفغانستان دور محوري في هذا الأمر. ولأن بن لادن لم يتبن منذ الوهلة الأولى سياسة مواجهة النظام الحاكم في بلاده، على العكس من حلفائه فيما بعد خاصة من تنظيم الجهاد المصري، فقد فضل الخروج إلى السودان الذي كان يحكم بواسطة جبهة الإنقاذ التي يتزعمها الدكتور حسن الترابي. وعلى أرض السودان استثمر بن لادن نحو مائة وخمسين مليون دولار من أمواله، الأمر الذي جعله موضع ترحيب من الحكومة وقطاعات من الشعب السوداني، وهو ما مكنه من أن يفتح الباب أمام توافد أعضاء بارزين من صفوف "الأفغان العرب" إلى هناك. لكن ظل السودان بالرغم من ذلك أرضا غير آمنة على بن لادن وأتباعه، خاصة بعد أن باتوا مطلوبين بشدة للولايات المتحدة إثر مشاركتهم قوات محمد فارح عيديد آخر رؤساء الصومال، في قتال القوات الأمريكية التي دخلت إلى أرض الصومال تحت ما سمي وقتها بالتدخل الحميد من أجل إنهاء الحرب الأهلية الصومالية.

وما إن تأكدت سيطرة حركة "طالبان" على أغلب ربوع الأراضي الأفغانية، حتى لاحت الفرصة لـ"الأفغان العرب" ليركنوا إلى مكان آمن تظلهم فيه سلطة مركزية، يروق لهم ما تمارسه من قوانين وما تفرضه من تشريعات، باعتبارها في نظرهم تمثل "صحيح الإسلام". وقد لاقى هذا التوجه قبولا شديدا من طالبان

Abu Nour www.alkottob.com

لأسباب فقهية تتعلق بإجارة المستجير ومكانة العرب بوجه عام في تاريخ الإسلام بوصفهم يمتلكون ناصية لغته وهم أول من تلقوا رسالته، وأخرى مالية ترتبط أساسا بما توقعت طالبان أن يقدمه لها بن لادن من مساعدات، وأخرى سياسية تتعلق بإمكانية الاستفادة من الخبرة القتالية للأفغان العرب في مواجهة قوات التحالف الشمالي" التي كان الحال قد انتهى بها إلى التمركز في خمسة في المائة فقط من الأراضي الأفغانية، وكانت تتلقى مساعدات من روسيا والهند وإيران لمواجهة طالبان، التي لم يكن يعترف بها سوى باكستان والمملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة.

ويظل إعلان "الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين" هو نقطة التحول الرئيسية على طريق وصول تنظيم "القاعدة"، وهو الاسم الإعلامي والأمني لهذه الجبهة، إلى ما هو عليه الآن. وقد تم تشكيل تلك الجبهة في منتصف فبراير عام ١٩٩٨، ووقع على وثيقة إنشائها كل من أسامة بن لادن الذي لم يكن حتى هذه اللحظة يرأس تنظيما محددا له اسم معين، وأيمن الظواهري زعيم تنظيم الجهاد المصري، ورفاعي أحمد طه عضو مجلس شورى الجماعة الإسلامية المصرية، ومير حمزة سكرتير جمعية علماء باكستان، وفضل الرحمن زعيم حركة الأنصار في باكستان أيضا، وعبد السلام محمد زعيم حركة الجهاد في بنجلاديش. وقد حددت الجبهة هدفها في قتال الأمريكيين والإسرائيليين في أي مكان بالعالم، استنادا إلى فتوى مشتركة بين الموقعين على الوثيقة المذكورة ترى أن هذا الأمر "فرض عين" على كل مسلم. وعمليا فإن الجماعات الإسلامية التي شاركت في تكوين "الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين"، لم تمارس دورا فعليا داخلها. ويقرر الشهود خلت الساحة لتنظيم الجهاد المصري، لأنه الأكثر التصاقا بين لادن، والأكثر قدرة على ترجمة ما يدور في ذهنه من أهداف إلى واقع ملموس، من خلال كوادر صدرية وخبرة طويلة في "العمل المسلح" وانتشار في مناطق كثيرة من العالم، بينما نفت "الجماعة الإسلامية" المصرية توقيع رفاعي طه على وثيقة إنشاء الجبهة المذكورة في حديث أجراه معه هو شخصيا موقع "المرابطون" على شبكة الإنترنت الناطق باسم الجماعة، الأمر الذي يعني أنها لم تشكل جزءا من هذه الجبهة.

والخصائص المذكورة سلفا لتنظيم "الجهاد" مكنته من أن يجعل "أجندته" حاضرة نسبيا في استمرار يوازي "أجندة" بن لادن، ويستخدم أموال الأخير في تحقيق أهدافه. ويتمكن من التأثير فكريا في العناصر الأخرى، من غير المصريين، الملتفة حول أسامة، وفي الوقت ذاته الترويج لأهداف "الجبهة العالمية لجهاد اليهود والصليبيين"، من خلال الخبرة الإعلامية التي اكتسبها أفراد الجهاد. وكانت هناك عدة أسباب دفعت عناصر الجهاد إلى الخروج من مصر، منها ما تعلق بالضغوط الأمنية الشديدة، ومنها ما ارتبط بالحاجة الاقتصادية، سواء كانت شخصية أم من أجل الإنفاق على التنظيم من خلال ضمان مصادر ثابتة للتمويل، ومنها ما ارتبط بأبعاد فكرية لتأدية فريضة الجهاد، أو البحث عن "ساحة" لإعداد العدة والوصول إلى حد "التمكن" الذي يؤهل هذه الجماعات للقدرة على منازلة الدولة بكل ما لها من مصادر قوة. وهناك كذلك أسباب تعلقت بترتيبات معينة داخل هذه الجماعات وتلك التنظيمات، أهمها حدوث انشقاق في صفوف "الجماعة الإسلامية الجهادية"، حيث تمايزت في جماعتين بعد صدور الأحكام في قضية الجهاد لعام ١٩٨١، حيث تسبب هذا الانشقاق في إحباط عدد كبير من أعضاء التنظيم حيال إقامة الدولة الإسلامية المنتظرة، لأن انقسام الصفوف كان معناه في نظرهم تأخر تحقيق هذا الهدف، ومن ثم فضل الكثيرون من هؤلاء السفر إلى الخارج.

بعض هذه الأسباب كانت وراء ذهاب أيمن الظواهري إلى أفغانستان مرتين في نهاية عام ١٩٨٠ وخلال عام ١٩٨١ ليعمل هناك ضمن فريق إغاثة طبي تابع لجماعة الإخوان المسلمين، لكن خروجه للمرة الثانية من مصر عام ١٩٨٦ بعد عامين من خروجه من السجن تتطلب تحليلا أمنيا واضحا، حيث قدم جواز سفره إلى إحدى شركات السياحة للحصول عن طريقها على تأشيرة دخول لدولة تونس ضمن فوج سياحي، وساعده على الخروج من المطار تشابه في الأسماء. ووصل فعلا الظواهري إلى تونس سائحا، وغادرها سريعا إلى جدة،

Abu Nour www.alkottob.com

حيث عمل لأشهر وجيزة في مستوصف ابن النفيس، قبل أن تمهد الطريق لدخوله باكستان، ومنها إلى أفغانستان.

وإذا كانت أجندة أيمن الظواهري كانت منحازة، قبل اقترابه من بن لادن، إلى أولوية قتال "العدو القريب" فإن هذا لا يعني تبنياته "العدو البعيد"، وإلا ما كان ذهب إلى الجهاد في أفغانستان. أي أن الهوة لم تكن متسعة إلى حد عدم التلاقي أبدا بينه وبين بن لادن. الأمر الذي تبرهن عليه الأدبيات الأولى لتنظيم الجهاد خلال السبعينيات والثمانينيات في إدراكها للغرب، خصوصا الولايات المتحدة على أنه "العدو" التي تجب مواجهته، ليس كراهية عمياء، فيه، بل حتفا عليه لإثباته سلوكا يعتبره الجهاد، وغيره من الجماعات الإسلامية الراديكالية إهانة للمسلمين. وخصوصا العرب. وقد عبر الظواهري عن تصوره الأولي في مقال له بنشرة "المجاهدون" في إبريل عام ١٩٩٥، أعطاه عنوانا ملفتا وهو "الطريق إلى القدس يمر بالقاهرة"، ورأى فيه أن "فتح القاهرة والجزائر أولا قبل قتال إسرائيل". وحتى قبل أن يديع هذا المقال كان الظواهري قد بنا بطل برأسه على مستوى أبعد من "المحلية"، ويزاوج بين استهداف الداخل المصري والقيام بعمليات خارجية على أكبر مستوى دولي ممكن، فقد تردد أن "تنظيم الجهاد" كان بعد في بداية عقد التسعينيات خفة لاغتيال السكرتير السابق للأمم المتحدة الدكتور بطرس غالي، لأنه في نظر قادة التنظيم اتخذ مواقف أضرت بمصالح المسلمين. وعبر الظواهري نفسه عن هذا الأمر بقوله: "المسلمون في البوسنة وأفغانستان والعراق والصومال وفلسطين ومصر يترقبون الخلاص من غالي". علاوة على ذلك فإن محاولة استهداف تنظيم الجهاد لسياح إسرائيليين كانوا يتجولون في حي "خان الخليلي" بالقاهرة عام ١٩٩٣، كان مرتبطا، فيما يبدو، بالكيد لإسرائيل والتعبير عن رفض تطبيع العلاقات بين القاهرة وتل أبيب، أكثر من ارتباطه بضرب السياحة المصرية.

لكن لم تلبث أن بدأت بوادر الاضطراب أكثر من أفكار وتصورات بن لادن تظهر في مقالات أخرى للظواهري. ففي أكتوبر عام ١٩٩٧ كتب مقالا بعنوان "بيان أمريكا وقضية جهاد اليهود في القاهرة"، تعرض فيه بالنقد إلى التقرير الذي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية حول "أنشطة الحركة الإسلامية"، والذي واكب الحكم الذي أصدرته المحكمة العسكرية المصرية في قضية "خان الخليلي" المشار إليها سلفا. ثم كتب الظواهري مقالا تاليا بعنوان "أمريكا ووهم القوة" في نوفمبر ١٩٩٧، تحدث فيه عن إمكان إنزال ضربات بالأمريكيين رغم قوتهم. ثم أفصح عن توجهه هذا بجلاء في مقال ثالث عنونه بـ "يا أمة الإسلام صفا واحدا في سبيل الله لجهاد أمريكا"، تضمن تحريضا واضحا على ضرب المصالح الأمريكية. ومن ثم فإن الظواهري انتهى به الحال إلى الاقتناع بأن الوقت قد حان لمنازلة "العدو البعيد"، خاصة أن هذه المنازلة لم تغب عن تفكير التنظيم الذي تزعزع الظواهري بين كوادره منذ أن كان يافعا. وقد انتهى الحال بالظواهري إلى يلاقي محامي الجماعات الإسلامية في مصر منتصر الزيات أواخر عام ٢٠٠٢ - حسب تصريحاته - بأنه لم يعد يضع في حسبانه تدبير أي أعمال عنف في مصر.

وقبل ذلك بمدة قصيرة كان الظواهري قد اعتبر في كتابه "فرسان تحت راية النبي" الذي نشر عقب الحرب الأمريكية على طالبان والقاعدة، أن "الاقتصار على العدو الداخلي فقط لن يجدي في هذه المرحلة ... لأنه لا يمكن تأجيل الصراع مع العدو الخارجي ... فالتحالف اليهودي - الصليبي لن يمهلنا حتى نهزم العدو الداخلي ثم نعلن الجهاد عليه بعد ذلك"، ومن ثم أخذ ينظر إلى معركة تنظيم الجهاد على أنها "معركة دولية"، فيما هو يقول: "القوى الغربية المعادية للإسلام حددت عدوها بوضوح وهو ما تسميه بالأصولية الإسلامية، ووحدت معها في هذا الحلف عدوتهم القديمة روسيا، واتخذوا عدة أدوات لمحاربة الإسلام، منها الأمم المتحدة والمحاكم الدولية والمواثيق والحاكمون لشعوب المسلمين، والشركات متعددة الجنسيات، وأنظمة الاتصال الدولية وتبادل المعلومات، ووكالات الأنباء العالمية وقنوات الإعلام الفضائية، ومنظمات الإغاثة الدولية التي تستخدم ستار

Abu Nour www.alkottob.com

للجاموسية والتبشير وتدبير الانقلابات ونقل الأسلحة ... وفي مقابل هذا الحلف يتشكل حلف أصولي من حركات الجهاد في بلاد الإسلام المختلفة والدولتين اللتين حررتا باسم الجهاد في سبيل الله (أفغانستان والشيشان)، وإذا كان هذا الحلف ما زال في بواكيره الأولى، وإرهاصاته البادئة فإن تنامية يتزايد بتسارع وتضاعف باطراد. وخطوة هذا الحلف أوضح من أن تشرح وأثره أخطر من أن يوضح وخوف الغرب منه مسيطر على تفكيره ومستحوذ لأعصابه ومقلق لمراصده. فهو قوة تنمو وتتجمع تحت راية الجهاد في سبيل الله خارج قانون النظام العالمي الجديد، متحررة من العبودية لإمبراطورية الغرب المسيطرة، ومنذرة للحملة الصليبية الجديدة عن ديار الإسلام بالويل والثبور، ومتحفزة للانتقام من رءوس التجمع الكفري العالمي، أمريكا وروسيا وإسرائيل".

وعلى وجه العموم فإن التغير التكتيكي في توجه الظواهري تم في سياق مختلف عن ذلك الذي كان يتسلط فيه بأولوية إسقاط النظام الحاكم في مصر، بما أوجد أسبابا عديدة تقف وراء تحوله، أولها المظاهرات الأمنية وقتل وسجن بعض كوادر التنظيم وتفرق أعضاء المجلس التأسيسي في بقاع الأرض، وفشل العمليات المسلحة التي قام بها التنظيم داخل مصر، والظروف المالية الصعبة التي كان يمر بها، الأمر الذي جعل الظواهري في حاجة ماسة إلى أسامة بن لادن، خاصة أن حركة طالبان كانت تربطها به علاقة وثيقة، لم يكن يحظى بها الظواهري. ولأن بن لادن لم تكن تعنيه مسألة تغيير الأنظمة الحاكمة، ولم يرد على لسانه أبدا أنه يهدف إلى إسقاط النظام السعودي، فقد كان على الظواهري أن يطوع توجهاته نسبيا لتتآلف مع تصورات بن لادن، دون أن يسمح لهدفه الرئيسي بالذوبان في أهداف الأخير، متبعا في هذا طريقة احتوا» بن لادن والتمسك بنقاط الالتقا،فبينهما وهي كثيرة، وكأنهما قد اقتنعا ضمنيا في البداية بحكمة الإخوان المسلمين الشهيرة: "نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه"، ثم لم يلبثا أن تقاربا فكريا وتنظيميا بشكل كبير، أوصلهما إلى حالة التطابق التام في حدث ١١ سبتمبر، وما جاء بعده من تداعيات.

وفي حقيقة الأمر فإن الظواهري قد أثر في بن لادن تأثيرا واضحا، منذ أن التقيا في أفغانستان منتصف عام ١٩٨٦ ونشأت بينهما علاقة إنسانية عميقة، فقد استطاع الأول أن يقنع الثاني بالفكر الجهادي الانقلابي وحوله من داعية سلفي يهتم بأمور الإغاثة إلى مقاتل جهادي يعنى بأحكام الجهاد، وزرع الظواهري حول بن لادن نخبة من أخلص خلصائه، الذين كانوا يدينون بالولاء للظواهري شخصيا وتاريخيا، مثل أبوعبيدة البنشيري وأبو حفص المصري، الذي أصبح صهر بن لادن فيما بعد. وهناك كذلك الطياران المصريان نصر فهمي نصر وطارق أنور اللذان قتلا في مدينة خوست الأفغانية في شهر نوفمبر عام ٢٠٠١ أثناء القصف الأمريكي للمدينة، حيث عملا مع بن لادن منذ تأسيس "الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين". وهما أيضا من المقربين جدا لأيمن الظواهري.

وكانت طبيعة العلاقة بين الظواهري وبن لادن "ترشح الأول لموقع بارز في الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين ربما يصل إلى قيادتها الفكرية والعملية. فالظواهري ذو خبرة طويلة في الحركة الإسلامية المتشددة ضمن عديد من جماعاتها تعود إلى ١٩٦٦، بينما لا تعود خبرة بن لادن سوى إلى بداية الثمانينيات. كذلك الظواهري يعد في الأوساط الإسلامية المتشددة واحدا من أبرز قياداتها في مجال التأصيل النظري والفكري لأفكار وممارسات التشدد والغلو الإسلامي، في حين لا يملك بن لادن بداخل تلك الأوساط المكانة نفسها. أيضا فقد كان من الواضح أنه من الناحية الواقعية كانت الجبهة لا تضم سوى تنظيما واحدا حقيقيا ذا خبرة وأطر فكرية وتنظيمية وعملية محددة هو (جماعة الجهاد) التي يقودها الظواهري، بينما يصعب اعتبار قاعدة الجهاد المنسوب إلى بن لادن تنظيما حقيقيا بقدر ما هو تجمع لإسلاميين حول ممارسات بن لادن وإمكانياته المادية والعملياتية".

Abu Nour www.alkottob.com

لكن الغموض الذي اتصفت به العمليات التي قام بها التنظيم، جعل إمكانية استكناه طبيعة توزيع الأدوار في هذه العمليات تبدو صعبة إلى حد بعيد. فمثلا اعتاد بن لادن مباركة عمليات مثل مهاجمة سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام في أغسطس من عام ١٩٩٨، وتفجير المدمرة الأمريكية "كول" في ميناء عدن اليمني في شهر أكتوبر عام ٢٠٠٠، دون أن ينفوه بما يفيد تبنيه للعمليات أو الإفصاح عن دور القاعدة فيها، وذلك لعدم التسبب في حرج وإيذاء، حكومة طالبان التي تستضيفه. لكنه اضطر، وتدريجيا وبشكل محسوب، أن يعلن ذلك عقب مهاجمة الولايات المتحدة لحكومة طالبان وإزاحتها عن الحكم، وتعقبها لعناصر القاعدة في كهوف أفغانستان. وقد كان ملفتا للانتباه أن يظهر أيمن الظواهري وأبوحفص المصري بجانب بن لادن في شرائط الفيديو التي بثتها قناة "الجزيرة" القطرية. وقد أظهر الشريط الأول، على وجه الخصوص والذي أذيع عقب الهجوم الأمريكي على طالبان والقاعدة مباشرة، أن الظواهري هو بمثابة المفكر والمخطط بالنسبة للتنظيم، بينما يلعب بن لادن دور "القائد الكاريزمي"، فضلا عن كونه الممول، فالكلمة التي ألقاها الأخير في الشريط المذكور اتسمت بطابع حماسي يعزف على وتر المشاعر، بينما اتصفت كلمة الأول الذي لا يتمتع بقدرة على الخطابة تعادل التي يمتلكها الثاني، بمحاولة مخاطبة العقل وارتدا ثوب التحريض المنطوي، وتبرير عداء "الإسلاميين" للولايات المتحدة، وربط ما يحدث في أفغانستان، بما يجري في الأراضي الفلسطينية المحتلة، لجذب العرب والمسلمين إلى أفكار وخطط "تنظيم القاعدة". وبدت قيادات تنظيم الجهاد وكأنهم هم الذين يتحكمون في تسيير تنظيم القاعدة.

ومنذ عملية نيروبي ودار السلام طرحت "الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين" نفسها بشدة كـ"فاعل دولي" يستوجب ما يبدر عنه من سلوك رد فعل عالمي واسع النطاق، يصل إلى حد إقامة "تحالفات دولية" ضده. فالفترة التي أعقبت الحادث المذكور شهدت قيام الولايات المتحدة وحلفائها بتوسيع نطاق المواجهة والحصار للجماعات الإسلامية العنيفة التي شاركت في الحادث ليشمل عددها من بلدان العالم. ففي خلال الشهور الأولى من عام ١٩٩٩ شهدت مصر وبعض بلدان أمريكا اللاتينية وباكستان وأفغانستان واليمن والولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وبعض الدول الأوروبية الأخرى تعاونا كشفا بين السلطات الأمنية في كل منها من أجل إحكام الحصار حول أهم تلك الجماعات، وبصورة محددة وواضحة بدأ تنظيم القاعدة وحليفه الجهاد المصري هما الهدف الرئيسي لكل ذلك التعاون.

وكان رد الفعل بعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر أقوى بكثير، وأخذ شكلا "متعولما" لمواجهة تنظيم "تعولم" في رؤيته وتحركاته. حسبما شرح الظواهري في تصوره للعدو. فقد وجدت دول عديدة نفسها تحت وطأة الإيفاء بمطالب أمريكية محددة في خضم التداعيات التي ترتبت على الحادث المذكور. وأول هذه المطالب يأخذ طابعا أمنيا، سواء في جانبه المباشر المتعلق بتعاون عملياتي في مطاردة عناصر تشتبه واشنطن في أنهم ينتمون إلى "تنظيم القاعدة" الذي تبنى الحادث المشار إليه سلفا، أو في جانبه غير المباشر المرتبط بالتعاون في مجال المعلومات الأمنية بين أجهزة الاستخبارات. وهناك مطلب ذو طابع اقتصادي يتمثل بملاحقة مؤسسات مالية بعينها بتهمة اتصالها بمنظمات "إسلامية" تناوئ السياسة الأمريكية، أو المطالبة بتمويل عمليات عسكرية محددة، أو على الأقل ضمان تدفق الإمدادات النفطية، خاصة إلى الولايات المتحدة، التي هي أكبر مستهلك ومستورد للبترول في العالم. ويوجد أيضا مطلب ثالث ذو صبغة ثقافية، دينية ويقع في قلب الهوية العربية - الإسلامية، يتمثل في المطالبة بتعديل مناهج التعليم الديني، هو الأمر الذي يثير جدلا في العالم العربي لن تخمد أواره في وقت قريب. علاوة على ذلك كان للحادث المذكور انعكاساته على العديد من الصراعات الإقليمية، مثل الصراع العربي - الإسرائيلي، والصراع الباكستاني الهندي حول إقليم كشمير. كما كان له انعكاساته على الحروب الأهلية في العديد من الدول مثل القتال الذي تخوضه القوات الروسية ضد المقاتلين الشيشان، والحرب الأهلية في السودان التي انتهت إلى توقيع اتفاق

Abu Nour www.alkottob.com

ماسكوش في أغسطس ٢٠٠٢، والذي ما كان له أن يتم لولا حسابات الخرطوم في ضوء تداعيات أحداث عشر من سبتمبر. وهناك كذلك الحرب التي تخوضها الحكومة الفلبينية ضد جماعة أبو سياف، والتي تدخل الولايات المتحدة فيها طرفا مباشرا من خلال إرسال خبراء عسكريين وأمنيين لمساعدة الجيش الفلبيني، وهو الأمر الذي اتبعته واشنطن مع كل من جورجيا واليمن، في إطار جهودها لتعقب عناصر "تنظيم القاعدة". وأدى حادث الحادي عشر من سبتمبر إلى تغيرات سياسية واستراتيجية وتأثيرات عديدة، حيث تمكنت الولايات المتحدة من النفاذ بقوة إلى جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية والقوقاز، من خلال إقامة قواعد عسكرية وأنماط للتعاون الأمني، واقتربت أكثر من تحقيق هدفها في السيطرة على نقط منطقة "بحر قزوين"، وألقى الحادث بظلاله على اقتصاديات دول عديدة في مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية نفسها.

لكن الولايات المتحدة لم تقف عند حد هذه الإجراءات بل أقدمت على عمل عسكري واسع النطاق استهدف تفكيك الوجود المادي للجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين وحكومة طالبان التي وفرت لها المأوى. وقد نجحت واشنطن في إزاحة طالبان عن حكم أفغانستان، وتشتيت عناصر "تنظيم القاعدة"، رهم الاسم الذي أطلقته الولايات المتحدة على الجبهة المذكورة دون أن يتبناه أصحابها أنفسهم، لكنهم تعاطوا معه تدريجيا حين فرض الاسم نفسه إعلاميا بشكل جعل من الصعب الإشارة إلى بن لادن وأين الظواهري وغيرهما دون ربطهما بهذا التنظيم، أو الحديث عن التحركات الأمريكية ضد ما تسميه واشنطن "الإرهاب"، دون أن يقفز اسم القاعدة إلى الواجهة.

وبما اسم الجبهة يتراجع تدريجيا في خطاب مؤسسيها أنفسهم، حتى جرفتهم الأحداث إلى اختيار اسم جديد، يحافظ على ما اصطلح عليه العالم في توصيفه للمجموعة المنضوية تحت قيادة بن لادن، ويتبعها بما يركد أيديولوجية التنظيم ومرجعيته الدينية، وفي الوقت ذاته التحالف الوثيد بين بن لادن وزعيم تنظيم الجهاد أين الظواهري، ألا هو "قاعدة الجهاد" ليصبح اسما رسميا للتنظيم الذي يتزعمه بن لادن، وإن كان الخطاب الإعلامي والرسمي العالمي على حد سواء، استمرا في الحديث عن "تنظيم القاعدة"، بل كثيرا ما يخفف الاسم إلى "القاعدة" فقط. ويعود اختيار اسم "قاعدة الجهاد" إلى شهري مارس وأبريل من عام ٢٠٠٢، حين شرع بعض أعضاء - ما يسمى "تنظيم القاعدة" بنشر كتيبات على شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت"، وذلك في سياق زيادة اعتماد التنظيم على هذه الوسيلة للاتصال بين مجموعاته والمتعاطفين معه وتوجيه الرسائل لأعدائه. ففي أواخر مارس نشر بيان بتوقيع خطي منسوب إلى بن لادن على موقع (http://www.66.78.655/jehad/osama_alquds.htm) دعا فيه إلى قتل الأمريكيين واليهود بالرصاص أو بالطعن أو حتى قذفهم بالأحجار والخروج على "الحكام الكفرة". ثم ظهرت في التاسع، والرابع عشرين، والسادس والعشرين من شهر إبريل مواد أخرى على ثلاثة مواقع إلكترونية الأول هو http://www.azzam.co، والثاني هو http://www.jehad.net، أما الثالث فهو http://www.almqdese.com/afghnistan.fatwa/alquds.htm. حيث جمعت المادة التي بثت على الموقع الثالث فتاوى أنصار "قاعدة الجهاد" وأتباعها على صحة أسامة بن لادن، إذ قالت أنه "في أمان ويتمتع بصحة جيدة، وبعد مراقبته للخطوة التالية". وبالتوازي مع استخدام الإنترنت بدأ "قاعدة الجهاد" يستغل ما طرأ على هيئته التي تجاوزت حدود التنظيم الضيق المترابط أفراده، القائمة علاقاتهم في أغلبها على الوجه لوجه، وقدرت إلى "شبكة دولية" كبيرة، تضم إلى جانب التنظيم الأصلي جماعات وأفراد متعاطفة معه أو منتفقة معه في الأهداف، موزعة في مختلف أرجاء العالم. وبعض هذه الجماعات وهؤلاء الأفراد، نفذوا عمليات ضد أهداف غربية طيلة عام ٢٠٠٢، باركها تنظيم "قاعدة الجهاد"، في حين نسبت إليه من قبل ما استهدفتهم هذه العمليات.

Abu Nour
www.alkottob.com

ثالثا: حصاد ٢٠٠٢- عمليات "موجعة" من القاعدة وضربات أمنية من واشنطن

لم يتح "تنظيم القاعدة" بالضربات القوية التي وجهتها إليه الولايات المتحدة وفككت بها قواعده المدنية وبعض ارتباطاته المعنوية على أرض أفغانستان، بل راح يجمع أشلاءه المتناثرة، ويوقظ خلاياه النائمة أو "المنتظرة" و"المتربصة" تحت اسم جديد هو "قاعدة الجهاد"، ليصعد تدريجيا إلى واجهة الأحداث مرة أخرى، ويضع نفسه في موقع "المزعج" إن لم يكن "المهدد" الحقيقي للمصالح الأمريكية في العالم، و"المتحدي" الأبرز لهيمنة الإمبراطورية الأمريكية، في وقت قدمت - وتقدم - فيه الدول التي وضعتها واشنطن تحت لافتة "الدول المارقة" أو "محور الشر" تنازلات محسوبة تقبها من ضربة عسكرية على غرار ما حدث للعراق. نعم أدت الضربات القوية التي تعرضت لها معسكرات "تنظيم القاعدة" على الأرض الأفغانية إلى تشتت عناصره، وفقدان قيادته مزية الاتصال المباشر مع أغلب أعضائه المرابطين هناك، لكنه حافظ على قدر من التماسك، مع ظهور مؤشرات قوية تتأكد يوميا على نجاة قيادته الفاعلة، أملته للبقاء، على قيد الحياة، وامتلاك القدرة على توجيه ضربات موجعة لأهداف أمريكية وغيرها، سواء بالمسئولية المباشرة أو النبي أو بمباركة العمل دون تبنيه صراحة. في المقابل فإن العام نفسه شهد مطاردة محمومة لعناصر القاعدة في المناطق الأفغانية المتاخمة لباكستان وداخل باكستان نفسها، علاوة على اليمن ودول الخليج العربي وبعض الدول العربية والإسلامية الأخرى التي تعاونت أمنيا واستخباراتيا مع واشنطن، وكذلك في أوروبا ودول جنوب شرق آسيا. وقد تمكنت الأجهزة الأمريكية المعنية من القبض على اثنين من رموز القاعدة وقتلت ثالث وتسلمت رابعا.

أ - عمليات "قاعدة الجهاد" بين ما نفذه "التنظيم" وما فعلته "الشبكة"

في الربع الأول من عام ٢٠٠٢ بدا "تنظيم القاعدة" وكأنه قد بات في ذمة التاريخ بفعل الضربات القوية التي وجهتها القوات الأمريكية، لكن عدم التأكد من مقتل قيادته، جعل احتمالات عودته تدريجيا قائمة. وبدلا منه، أو نيابة عنه، تولت جماعات إسلامية باكستانية منذ مطلع العام المذكور، تنفيذ عمليات محدودة ضد الولايات المتحدة، لتقلل من شعورها بالنصر في أفغانستان، الذي وصل إلى حد الزهو، في ظل ما كان يتردد قبل الحرب من أفغانستان ستكون مستنقعا للأمريكيين على غرار السوفييت. وأولى هذه العمليات كانت اختطاف الصحفي الأمريكي دانيال بيرل في كراتشي في شهر يناير وقتله. وثانيها كانت إلقاء قنبلة على كنيسة بروتستانتية في إسلام أباد في شهر مارس، ما أسفر عن مقتل خمسة أشخاص بينهم أمريكيان. وتكررت العمليات على الساحة الباكستانية، وركزت على أهداف سهلة، كالكنائس والمدارس والمراكز الطبية التابعة لبعثات دينية أجنبية، لكنها لم تليث أن ازدادت سخونة توعيا مع قيم فصل الصيف، إذ تحولت إلى عمليات "انتحارية". ففي مايو صدمت سيارة مفخخة في مدينة كراتشي الباكستانية حافلة كانت تقل مهندسين فرنسيين يعملون في برنامج بناء غواصات لحساب الجيش الباكستاني، وأسفر هذا الحادث المروع عن مقتل خمسة عشر شخصا بينهم أحد عشر فرنسيا. ولم يمض سوى شهر حتى كانت القنصلية الأمريكية في المدينة ذاتها على موعد مع سيارة مفخخة كانت تقودها امرأة تعمل مدرسة، وقبل أنها لم تكن تعلم بتفخيخ السيارة. ولأن الانفجار وقع عند مدخل القنصلية فلم يسقط به سوى أحد عشر باكستانيا، أغلبهم من حراسها.

وفي منتصف المسافة الزمنية بين اختطاف بيرل وحادث القنصلية هذا وقع حادث يبعد آلاف الكيلومترات عن باكستان، فقد كان معبد جربة في تونس الذي يعد الثاني من حيث الأهمية بالنسبة لليهود الشرقيين "السفارديم"، على موعد في ١١ أبريل ٢٠٠٢ مع تفجير كبير، نفذه شاب يعمل مرشدا سياحيا، يدعى نزار نوار، بواسطة ناقلة كانت تحمل صهريجا مملوءا بالوقود والمتفجرات، وقد أسفر الحادث عن مقتل واحد وعشرين شخصا، بينهم أربعة عشر سائحا ألمانيا وفرنسيان. وفي البداية بارك القاعدة العملية

Abu Nour www.alkottob.com

كعادته، لكنه لم يتبنها، وسط تكهنات بأن متفذاً مستقل عن التنظيم، وإن كان متعاطفاً معها. لكن القاعدة لم يلبث أن أعلن مسئوليته عن تلك العملية ووزع نبذة عن منفذها، مع وصية بخط يده. وقد أظهرت تحقيقات لاحقة معلومات غير قاطعة عن علاقة نزار بالقاعدة، وبينت أنها ربما بدأت بعد إقامته في كندا التي انتقل منها إلى أفغانستان لتلقي تدريبات في معسكرات "القاعدة"، عاد بعدها إلى تونس ليشكل عنصراً في "خلية نائمة". لكن هذا الأمر لم يتعد حدود الاحتمالات، فليس كل من ذهب إلى أفغانستان وجاهد ضد السوفيت وتلقى تدريبات في المعسكرات التي أقامها العرب هناك عضواً في تنظيم القاعدة. وعلى الأرجح أن نزار ينتمي إلى الفضاء الأوسع للتنظيم، الذي أخذ شكل الشبكة معقدة المحيوط والتي انتشرت تحت لوائها كثيرون من المتعاطفين مع أسامة بن لادن ومسلكه. لكنه لم يكن على اتصال مباشر بالتنظيم ولا يأتمر بأمره. وهذا التصور لا يلغي تحليلاً لحال القاعدة بعد تفكك بنيتها التحتية في أفغانستان مفاده أن التنظيم استعد مبكراً لمثل هذا الاحتمال فكون خلايا صغيرة في مناطق مختلفة من العالم، تديرها قيادات لامركزية، وتتصرف حسبما ترى، دون الرجوع إلى القيادة المركزية. عند هذا الحد يمكن تفسير ما وقع في جربة جزئياً، فنزار كان على اتصال بشخص بولندي اعتنق الإسلام، له روابط بخلية هامبورج التي نسب إليها قيادة تخطيط وتنفيذ هجمات ١١ سبتمبر. وهذا الخيط الرفيع هو ما جعل البعض يتحدثون عن تبعيته للقاعدة، خاصة أن هناك معلومة نشرت تفيد بأنه اتصل بخالد شيخ محمد أحد قادة القاعدة في باكستان لبلغه بالعملية. لكن أحدا لم يستطع أن يقطع بأن نزاراً قد تلقى أوامر مباشرة من قادة التنظيم. اللهم إلا ما توفر من البيان الذي وزعه تنظيم القاعدة عقب الحادث، كما سبقت الإشارة.

وكان أكتوبر من عام ٢٠٠٢ هو شهر العمليات الكبيرة التي استعاد بها القاعدة خطورته، ويرهن على أنه لا يزال طرفا فاعلا يخشى جانبه. ففي السادس من الشهر المذكور شهد خليج عدن حادثا يشبه إلى حد كبير سابقه الذي وقع في أكتوبر من عام ٢٠٠٠ ضد المدمرة الأمريكية "كول"، وأسفر عن مقتل سبعة عشر من قوات "المارينز". وكان الحادث هذه المرة ضد ناقلة النفط الفرنسية "ليمبورج"، فبينما كانت الناقلة تقترب من ميناء "المكلا" أسرع إليها قارب صغير محملا بالمتفجرات، وتمكن من شرخها في المنتصف واندلعت النيران بخلف أجزائها. وعلى العكس من حادث "كول" لم يسفر تفجير "ليمبورج" عن خسائر بشرية كبيرة، إذ لم يقتل سوى أحد ملاحيها البلغار، لكنه أثبت أن القاعدة لا يزال نشطا على الأرض اليمنية رغم الجهود الأمنية والإجراءات القانونية التي اتخذتها السلطات في سبيل مكافحة الإرهاب، بالتعاون مع جهازي الأمن الأمريكيين: وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي. ومثل هذا التعاون هو الذي جعل كبار الضباط اليمنيين هدفا للقاعدة. ففي التاسع عشر من نوفمبر ٢٠٠٢ هز انفجار ضخم أحد أحياء العاصمة صنعاء، مستهدفا منزل ضابط كبير في جهاز الاستخبارات اليمنية. ويعد ذلك بتسعة أيام فقط، وقع انفجار ثامل في محافظة مأرب شرقي صنعاء، فجم عن عبوة ناسفة، وضعت بين منزل مدير أمن المحافظة ومبنى المرور، لكنه لم يسفر عن خسائر بشرية أو أضرار مادية جسيمة.

وبعد يومين فقط من تفجير "ليمبورج" كانت الجزيرة العربية على موعد مع حادث آخر ضد الأمريكيين، تقول دلالته على حجمه والنتائج التي ترتبت عليه. فقد هاجم كويتيان يدعيان أنس الكندري وجاسم الهاجري جزيرة فيلكا الكويتية قوة من "المارينز" وأوقعا قتيلين في صفوفها، قبل أن يقتلا بنيرانها. توالت الهجمات ضد القوات الأمريكية المتمركزة في الكويت منذ حرب الخليج الثانية والتي كانت تتزايد وقتها استعدادا للهجوم على العراق، لكن المهاجمين لم يتمكنوا من إسقاط قتلى. وانتهز صدام حسين وقتها هذه الفرصة وحرض الكويتيين على مهاجمة الأمريكيين. ووصل صدى هذا التحريض إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، فشهد مطار الفجيرة هجوما على طائرة أمريكية، لكنه لم يخلف سوى جريحا واحدا هو المهاجم.

وجاء الثاني عشر من أكتوبر لتشهد جزيرة "بالي" الإندونيسية أكبر عملية تنسب إلى القاعدة خلال عام

Abu Nour www.alkottob.com

٢٠٠٢. فحين حل مساء ذلك اليوم وقع انفجاران كبيران في أحد الملاهي الليلية في هذه الجزيرة التي يرتادها غالبا السياح الأجانب، وعلى وجه الخصوص الأستراليون، فخلفا مائة وثمانين قتيلا، بينهم ثلاثون بريطانيا، وأغلبهم يتحدرون إلى استراليا. ولم يستطع أحد أن يمنع وقوع هذا الحادث الذي نجم عن عملية انتحارية، رغم أن الكويتي عمر الفاروق الذي سلمته ماليزيا إلى الولايات المتحدة مطلع عام ٢٠٠٢ ذكر خلال التحقيقات معه أن هناك علاقة قوية تربط "الجماعة الإسلامية" في إندونيسيا، والتي يتزعمها الشيخ أبو بكر باعشير ذو الأصول اليمنية، بتنظيم القاعدة. لكن هذه المعلومات جعلت التحقيقات والتحريات التي أجريت عقب الحادث تبدأ بفرض احتمالات قوية لتورط "الجماعة الإسلامية" في الحادث. وكان الخيط الأول الذي تلقته أجهزة التحقيق الإندونيسية، التي رفضت تدخل الولايات المتحدة في شؤونها وأكدت أن بإمكانها أن تحقق نجاحا منفردا في كشف غموض الحادث، يتعلق ببراجة تاربة كانت متروكة أمام أحد المساجد في بالي، تبين أنها مملوكة لشخص ينتمي إلى الجماعة الإسلامية. وباعتقاله راح أفراد الخلية التي ينخرط في صفها يتساقطون تباعا في أيدي رجال الأمن. وفي مقدمتهم إمام ساموترا مهندس العملية والأخوان عمروسي ومخلص علي عمرون. وقد اعترف ساموترا بأن شخصا يدعى إقبال هو الذي نفذ العملية.

وصبيحة الثامن والعشرين من أكتوبر أيضا كانت العاصمة الأردنية عمان تنتظر ضربة جديدة للقاعدة، فقصدت هذه المرة الدبلوماسي الأمريكي لورنس فولي المسئول في وكالة المعونة الأمريكية، حيث كمن له مسلحون وعاجلوه في حديقة منزله بثماني رصاصات، بينما كان يستعد لركوب سيارته من أجل الذهاب إلى مقر عمله. وقد أسفرت أجهزة التحقيقات الأردنية منذ البداية خيطين لكشف غموض هذه العملية، الأول يربط الحادث بالقاعدة، والثاني ينبني على شكوك بأن يكون متآمرون للرئيس العراقي صدام حسين الذي أطيح بحكمه في التاسع من إبريل ٢٠٠٣ على أيدي القوات الأمريكية ـ البريطانية، يقفون وراء الحادث ردا على التهديدات الأمريكية آنذاك بإسقاط صدام حسين. إلا أنه لم تمر سوى فترة قصيرة حتى تمكنت أجهزة الأمن الأردنية من إلقاء القبض على شخصين الأول أردني يدعى ياسر فتحي إبراهيم والثاني ليبي يدعى سالم بن صويد. وقد أفادت السلطات الأردنية وقتها بأن هذين الشخصين اعترفا بأنهما قاما بالعملية تنفيذا لأوامر من فضيل نزال الحلايلة، المعروف باسم أبو مصعب الزرقاوي، وهو قيادي في القاعدة قيل إنه كان يتنقل في منطقة الحدود العراقية ـ الإيرانية.

وبعد فترة وجيزة من مصرع الدبلوماسي الأمريكي اغتيلت مبشرة أمريكية بمدينة صيدا اللبنانية على يد مسلحين، يشتبه في أنهم متطرفون إسلاميون. ولم يمض شهر أكتوبر حتى وقعت عملية كبيرة، تحديدا في الثالث والعشرين منه، باركتها القاعدة لكنها لم تكن مسئولة عنها بشكل مباشر. وتتمثل هذه العملية في قيام خمسين مسلحا شيشانيا، يتزعمهم رجل يدعى مظفر باراييف، باحتلال أحد المسارح في قلب العاصمة الروسية موسكو، واحتجاز نحو سبعمائة وخمسين رهينة، والتهديد بقتلهم إن لم تستجب الحكومة الروسية لمطالبهم، وفي مقدمتها إجبار القوات الروسية على الانسحاب من الأراضي الشيشانية خلال أسبوع واحد. لكن الروس استجابوا على طريقتهم الخاصة، وحقنوا للخاطفين أمنيتهم. ليس بالانسحاب من الشيشان لكن بقتلهم، إذ كانوا قد أكدوا أنهم جاءوا إلى موسكو للموت في سبيل قضيتهم العادلة. فقد تمكن الروس من ضخ غاز سام غامض عبر أنابيب التدفئة المركزية بالمسرح. أسقط الخاطفين جميعا ومعهم مائة وتسعة وعشرين روسيا. وإذا كان تنظيم "قاعدة الجهاد" قد أشاد بالعملية، فليس هناك ما يدل على ضلوعه فيها، ويبقى الأمر عند حد الاتهامات الروسية التقليدية بأن المقاتلين الشيشان على علاقة وطيدة بالقاعدة، وأن كثيرا من "الأفغان العرب" يقاتلون إلى جانبهم.

وفي شهر نوفمبر أراد تنظيم "قاعدة الجهاد" أن يضرب عدة عصافير بحجر واحد من خلال عملية مزدوجة في مدينة مومباسا الكينية، شملت هجومين: الأول كان على فندق "باراديس" الذي يرتاده

Abu Nour www.alkottob.com

إسرائيليون، وتم عن طريق سيارة مفخخة يستقلها ثلاثة أشخاص، خلفت حريقا أتى على مبنى الفندق تماما، إلا أن الخسائر البشرية كانت محدودة قياسا إلى أن الفندق، الذي يمتلكه إسرائيليون، كان يتسع لمائتي سائح علاوة على موظفيه. فقد قتل، حسب حصيلة الشرطة الكينية، أحد عشر شخصا، بينهم ستة كينيين وسائحان إسرائيليان إلى جانب منفذي العملية. أما الهجوم الثاني، فقد وقع على بعد مسافة قصيرة من الفندق الذي التهمته النيران، واستهدف إسقاط طائرة مدنية إسرائيلية كانت تقل مئات من السائحين الإسرائيليين الذين كانوا في طريق العودة بعد أن قضوا إجازاتهم في كينيا، باستخدام صاروخين من طراز "سام ٧" روسي الصنع. لكن عدم امتلاك مطلقي الصاروخين الخبرة الكافية في هذا الشأن أدى إلى عدم إصابة الهدف بدقة، فقد مر الصاروخان من أمام الطائرة، فأبلغ قائدها على الفور الجيش الإسرائيلي، فسارع بإرسال طائرات حربية رافقت الطائرة المدنية الناجية حتى هبطت في إسرائيل.

وليما يبدو استهدفت هاتان العمليتان اللتان لم تحققا سوى أقل من نصف نجاح بالنسبة لمدبريهما، الرد على الانتقادات التي وجهتها وسائل الإعلام العربية لأسامة بن لادن من أنه لم يوجه نشاط تنظيمه إلى المعركة الأصلية للعرب وهي مناصرة القضية الفلسطينية عن طريق ضرب أهداف إسرائيلية كما تفعل حركتا "حماس" و"الجهاد الإسلامي". ولم يكن الإعلام العربي يريد بذلك تحريض القاعدة على ضرب إسرائيل، لكنه كان يفقد استخدام بن لادن في خطابه المسألة الفلسطينية وسيلة لكسب تعاطف الشعبين العربي والإسلامي مع مسلكه، كما كان يرى ذلك الإعلام. كما استهدفت العمليتان التأكيد على أن القاعدة لا تزال قادرة على تنفيذ عمليات كبيرة في القارة الأفريقية، على غرار عمليتي تفجير سفارتي الولايات المتحدة الأمريكية في العاصمة الكينية نيروبي والتنزانية دار السلام في أغسطس من عام ١٩٩٨، واللتين أسفرتا عن مقتل ٢١٣ شخصا، بينهم ١٢ أمريكيا فقط، وإصابة نحو خمسة آلاف آخرين بجراح متفاوتة. وقد ردت واشنطن وقتها بقصف معسكرات القاعدة داخل أفغانستان، ومصنع الشفاء في السودان الذي قالت واشنطن أنه ملك لأسامة بن لادن، وقد دار جدل عقب الحادث حول من يقف وراءه، فوزير الأمن الداخلي الكيني استبعد أن يكون تنظيم القاعدة ضالعا في هجومي مومباسا، متهما "منظمة الاتحاد الإسلامي" الصومالية بتنفيذه، لكن نائب الرئيس الكيني لم يستبعد ضلوع القاعدة فيه، في حين شككت مصادر رسمية صومالية في قدرة جماعة الاتحاد الإسلامي التي تدرجها الخارجية الأمريكية على قائمة المنظمات الإرهابية، على تدبير عمليات بهذا الحجم، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حين قال: إن هذه الجماعة لم يعد لها وجود في الصومال منذ عدة سنوات. فيما اتهمت المتحدث باسم القاعدة الكويتي سليمان أبو غيث حسم هذا الجدل بإعلان صريح بث على موقع "جهاد أون لاين" الإلكتروني عن تبني العملية، وتوعد بالمزيد من الهجمات ضد المصالح الأمريكية.

وكانت العملية اللاحقة في قارة آسيا، ففي السابع من ديسمبر ٢٠٠٢ انفجرت أربع قنابل في إحدى دور السينما بمدينة ميمشنج البنغالية التي تقع على بعد مائة وخمسين كيلومترا شمالي العاصمة دكا، فخلفت على الفور ١٧ قتيلا ونحو ٣٠٠ جريح. واتجهت أصابع الاتهام على الفور إلى القاعدة، لكن الأمر بني في طور الشكوك القوية. فوزير الداخلية البنجالي ألطاف حسين لم يقطع باتهام القاعدة، بل ظن فيها فقط. "وأدخل معها في هذا الظنون "جماعات إرهابية أخرى" على حد تعبيره. لكن هذه التفجيرات احتفظت بغرى قوي في ضوء ما ذكرته قبل أيام، من وقوعها المخابرات الهندية من أن أيمن الظواهري، الرجل الثاني في القاعدة، يختبئ في بنجلاديش منذ سبتمبر ٢٠٠٢، واستندت في ذلك إلى معلومات أدلى بها شخص ينتمي إلى "حركة الجهاد الإسلامي" التي تقاتل ضد الحكم الهندي في كشمير، أجرت السلطات الهندية تحقيقات معه بعد إلقاء القبض عليه. إلا أن السلطات البنجالية تم تلبث أن نفت، على لسان وزير الخارجية، ما ساقته المخابرات الهندية وأكدت التزامها بالتوجه الدولي المناهض للإرهاب، ووصفت الاتهامات الهندية بأنها "نابعة من نية مبيتة ولا تستند إلى أي دليل ملموس".

Abu Nour
www.alkottob.com

وكان من الممكن أن تتضاعف العمليات التي قام بها القاعدة، تنظيما وشبكة، خلال عام ٢٠٠٢، لولا يقظة الأجهزة الأمنية في بعض الدول. ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر، تمكن الشرطة الفرنسية في ١٢/٩/ ٢٠٠٢ من القبض على ثلاثة أشخاص كانوا يخططون لضرب السفارة الأمريكية في باريس، وهم، حسب الرواية الفرنسية، ضالعون في تقديم دعم لوجستي لجماعة سرية على علاقة بالقاعدة، يتزعمها الفرنسي من أصل جزائري جمال بغال الذي سلمته دولة الإمارات العربية المتحدة إلى فرنسا عام ٢٠٠١. كما أحبطت السلطات الباكستانية في الرابع عشر من الشهر نفسه محاولة ثلاثة أشخاص، ينتمون إلى إحدى الجماعات الإسلامية الباكستانية المتعاطفة مع القاعدة، تنفيذ هجمات انتحارية ضد دبلوماسيين أمريكيين في مدينة كراتشي جنوبي باكستان.

علاوة على ذلك لم ينصرم عام ٢٠٠٢ حتى أخذت فلول "قاعدة الجهاد" وحركة طالبان تتناوش القوات الأمريكية في أفغانستان، والتي يبلغ عددها ثمانية آلاف جندي. ففي التاسع عشر من ديسمبر وقع هجوم صاروخي على قاعدة أسد آباد في إقليم كونار شمالي شرقي أفغانستان. وبعد ذلك بأسبوع واحد أطلقت عدة صواريخ على قواعد تمركز الجنود الأمريكيين في أفغانستان، دون وقوع ضحايا. وفي ذكرى مرور عام كامل على هجمات الحادي عشر من سبتمبر وزع أسامة بن لادن شريطا سمعيا قصيرا، أتبعه بآخر في شهر نوفمبر تحدث فيه عن حوادث وقعت حديثا، الأمر الذي جعل الأمريكيين يعتبرونه دليلا كافيا على أن بن لادن حي يرزق، بما خيب آمالهم بقضائهم عليه في معركة "تورا بورا" التي حوصر فيها مقاتلو القاعدة بجبال أفغانستان عقب سقوط حكومة طالبان.

وعموما فإن عام ٢٠٠٢ أظهر أن هناك إزعاجا عاما يسببه تنظيم "قاعدة الجهاد" في مختلف أرجاء العالم. فقد تعددت وقائع التحذير من وقوع هجمات هناك وهناك، خاصة في دول أوروبا، وأتبعت ذلك على الفور نشاطات أمنية مكثفة، ألقي في كثير منها القبض على أشخاص، ووجهت إليهم تهما مبدئية بالتعاون مع القاعدة أو الانخراط في صفوفها، والتخطيط للقيام بعمليات ضد مصالح أمريكية وبريطانية.

ب - السلوك الأمريكي ضد القاعدة: تعقب واعتقال وقتل وهجمات عسكرية

واصلت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها عام ٢٠٠٢ ما بدأته عقب حدث الحادي عشر من سبتمبر، من تضييق الخناق على القاعدة عبر إجراءات أمنية وإعلامية وسياسية واقتصادية، بلغت ذروتها بتجميد أموال مؤسسات وجمعيات خيرية إسلامية، وكذلك أموال شخصيات ومراكز "تمويل أموال" يزعم أن لها علاقة بتمويل الإرهاب، وذلك في خلط واضح، ويبدو متعمدا أحيانا، بين الإرهاب والإسلام بوجه عام. وقد أعدت الولايات المتحدة لوائح بهذا اتسعت مع الأيام حتى باتت تضم مئات الأشخاص والمؤسسات، بعضها رفع دعاوى قضائية ضد واشنطن لأنها زجت بها في الحرب على الإرهاب دون وجه حق. وقد حدد الأمريكيون أنفسهم قيمة الأموال المجمدة لديهم بما يربو على مائة وعشرة ملايين دولار، إلى جانب سبعين مليون دولار جمدت خارج الولايات المتحدة، وقالوا إن نحو مائة وستين دولة في مختلف أرجاء العالم منعت التصرف في حسابات مصرفية بشتى في علاقة أصحابها بأنشطة وتنظيمات إرهابية. بالإضافة إلى هذا استمرت واشنطن خلال عام ٢٠٠٢ في إرسال من يتم القبض عليهم من أعضاء القاعدة إلى معسكر جوانتانامو في كوبا، حيث السجن الانفرادي لمحت وطأة تعذيب منظم، دون محاكمة، ودون أمل في الحصول على الإفراج يوما ما. وقد لاقى هذا السلوك الأمريكي، الذي ينافي القانون الدولي تماما، رفضا دوليا، لكن الولايات المتحدة، كعادتها، لم تلق بالا إلى موقف المجتمع الدولي.

وقد انتظرت الولايات المتحدة حتى مارس من العام المذكور لتتضح من توجيه ضربة أمنية للقاعدة، من خلال القبض على أبو زبيدة، الشاب الفلسطيني الذي نشأ في منطقة الخليج العربي والمقرب من أسامة بن

Abu Nour www.alkottob.com

لاذن، إذ كان يتولى مسئولية الإشراف على الراغبين في الانضواء تحت لواء القاعدة، ثم ترتيب عملية إدخالهم من باكستان إلى معسكرات القاعدة على الأرض الأفغانية، وبعدها تلقينهم مهام محددة ضد مصالح أعداء القاعدة، خاصة الولايات المتحدة. ورغم أن القبض على جمال بغال في فرنسا عام ٢٠٠١ بينما كان يخطط لتفجير السفارة الأمريكية بباريس ألقى الضوء على دور أبو زبيدة داخل تنظيم القاعدة، فإن نشاطه كان موضع متابعة من قبل الأمريكيين قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر بعامين، إذ ورد اسمه في التحقيقات التي أجريت بشأن عمليات كان تنظيم القاعدة يعتزم تنفيذها في الأردن عشية عيد الميلاد عام ١٩٩٩، وأخرى قبل إن الجزائري أحمد رسام كان يعتزم القيام بها في مطار لوس أنجلوس الأمريكي خلال احتفالات بدء الألفية الجديدة. وكانت المعلومات التي جمعتها أجهزة التحقيق والمخابرات الأمريكية قد بينت أن أبو زبيدة يختفي في مدينة فيصل آباد الباكستانية. وعلى الفور، وتحت جنح الظلام، رافقت وحدات خاصة من القوات الباكستانية عناصر من المخابرات الأمريكية وداهمت مقر أبو زبيدة، أملا في القبض عليه بيسر، لكنه ورفاقه رفضوا الاستسلام، واشتبكوا مع القوات المهاجمة، إلا أنها تمكنت في النهاية من قتل بعضهم وأسر البعض الآخر، وعلى رأسهم أبو زبيدة، الذي أصابته رصاصة في بطنه.

ومع مطلع فصل الصيف وجه الأمريكيون، بمساعدتهم قوات الأمن المغربية في كشف خلية تابعة للقاعدة، ضربة ثانية للتنظيم بعد المعلومات التي أدلى بها معتقلون مغاربة في جوانتانامو. وكانت هذه الخلية تتكون من ثلاثة سعوديين، هم عبد الله مسفر الغامدي وزهير هلال وهلال العسيري، وسبعة مغاربة، بن فيهم زوجتان لاثنين من المتهمين السعوديين. وقد قدم العشرة إلى المحاكمة بتهمة التخطيط لمهاجمة سفن تابعة لحلف شمال الأطلسي "الناتو" أثناء عبورها مضيق جبل طارق، ربما على غرار ما حدث للمدمرة الأمريكية "كول" والبارجة الفرنسية "ليمبورج" في خليج عدن. كما اتهم أفراد الخلية بالتخطيط لمهاجمة أماكن يرتادها غربيون أو يهود في المغرب.

والضربة الأمريكية الثانية لرءوس القاعدة وقعت في سبتمبر ٢٠٠٢، حين تمكنت قوات الأمن الباكستانية، بناء على معلومات من المخابرات الأمريكية، من اعتقال رمزي بن الشيبة اليمني الأصل، وأحد الأشخاص الرئيسيين المتهمين بالتخطيط لهجمات ١١ سبتمبر ضد الولايات المتحدة مع بقية أفراد "خلية هامبورج"، التي كانت تضم محمد عطا ومروان الشحي وزياد الجراح، المنسوب إليهم تنفيذ الهجمات ضد برجي مركز التجارة العالمي ووزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون". وكان بن الشيبة يختبئ ورفاقه وأسرهم في منزل بمدينة كراتشي الباكستانية، عندما فاجأة رجال الأمن الباكستانيون لكنه لم يستسلم، بل أمر أتباعه بإطلاق النار بغزارة على المهاجمين. ولاستماتة المتحصنين بالمنزل في الدفاع عنه، ظن المهاجمون أن أسامة بن لادن هو المتحصن داخل المنزل، وراحوا يديرون المعركة على هذا الأساس. وقد منح الباكستانيون من بداخل المنزل هدنة قصيرة حتى تتمكن النساء وكن عربيات، من الخروج بسلام، بناء على طلب بن الشيبة ورفاقه، الذين رفضوا الاستسلام واستأنفوا القتال. ودارت المعركة من حجرة إلى أخرى، حتى وجد بن الشيبة نفسه محاصرا داخل المطبخ، وقد نفدت ذخيرته تماما، فاستل سكينا، محاولا أن يطعن الجندي الذي تقدم لاعتقاله. لكن الأخير وزملاءه تغلبوا عليه، وقادوه معصوب العينين مقيد الذراعين إلى الأمريكيين الذين نقلوه إلى إحدى قواعدهم خارج جوانتانامو للتحقيق معه.

ولم ينقض شهر سبتمبر حتى كانت الولايات المتحدة قد تمكنت من الظفر بعبد السلام الحيلة، وهو مسئول أمني يمني بارز كان يحظى بعضوية اللجنة المركزية لحزب المؤتمر الشعبي الحاكم، ويشتبه في أن لديه معلومات مفيدة عن القاعدة، بوصفه كان مكلفا ملفات إسلاميين عديدين في اليمن، وسبق أن لعب دورا ملموسا في ترحيل المئات من الأفغان العرب الذين لجئوا إلى اليمن عقب انقضاء فترة الجهاد في أفغانستان، لتفويت الفرصة على بلادهم الأصلية في تسلمهم، بعد أن تقدمت بطلبات رسمية بذلك إلى السلطات

Abu Nour www.alkottob.com

اليمنية. وتتعدى علاقة الحيلة بالقاعدة حدود المعلومات التي وصلت إلى حد القول إنه كان على علم بهجمات ١١ سبتمبر، حسبما تردد، لتصل إلى حد القول بأنه كان يعمل لحساب القاعدة على الأرجح، وأخبرهم ذات مرة عن عميل لحساب السلطات المصرية يتواجد بين أفراد ينتمون إلى الجهاد المصري، كانوا يتخذون من اليمن موطنا لهم. ويبدو أن الأمريكيين نجحوا في استدراج الحيلة خارج اليمن ثم قبضوا عليه.

وبعد شهرين، تحديدا في نوفمبر ٢٠٠٢، وجهت الولايات المتحدة ضربتين جديدتين للقاعدة، تمثلت الأولى في قتل زعيم القاعدة في اليمن قايد سنيان الحارثي، الشهير بـ(أبوعلي)، بعد طول بحث جرى بواسطة طائرة أمريكية بدون طيار من طراز "بريديتور"، تحركها عن بعد وكالة المخابرات المركزية. فبينما كان الحارثي الذي يشتبه بضلوعه في حادث تفجير المدمرة الأمريكية "كول"، يتحرك وستة من رفاقه، بسيارة ذات دفع رباعي، ويعبر طريقا صحراويا في منطقة النقمة بمحافظة مأرب، قصفت السيارة بصاروخ من طراز "هيل فاير"، اهتدى إلى هدفه بيسر حين استخدم أحد الركاب الستة هاتفه المحمول المربوط بالأقمار الصناعية، خاصة أن السيارة كانت مترقبة انتظارا لأحد ركابها، كان يقضي حاجته. وكانت قوات الأمن اليمنية قد حاولت بمفردها القبض على الحارثي، إلا أنها واجهت مقاومة شرسة من رجال القبائل التي تحميه، سقط خلالها ثمانية عشر جنديا حكوميا. وحين أدرك الأمريكيون أن اليمنيين ليس باستطاعتهم أن يقبضوا على الحارثي تدخلوا لمساعدتهم.

أما الضربة الثانية فقد وقعت بعد أيام من مقتل الحارثي، وتمثلت في إلقاء القبض على عبد الرحيم الناشري، مسئول عمليات القاعدة في منطقة الخليج العربي برمتها، والمسجل بقائمة أمريكية تضم أربع عشرين شخصا في التنظيم. وعلى العكس من بن الشيبة الذي توقفت معلوماته عند حدود ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كان الناشري على دراية كاملة بكافة خلايا القاعدة العاملة في منطقة الخليج حتى لحظة القبض عليه، خاصة أنه كان من المُقربين بشدة إلى أسامة بن لادن، حيث يتردد أنهما مرتبطين بعلاقة مصاهرة، علاوة على انتمائهما إلى موطن واحد. فالناشري تعود أصوله إلى السعودية واليمن، وهي الجذور نفسها التي ينحدر من بن لادن. ولم يقبض الأمريكيون على الناشري مباشرة، بل اعتقلته السلطات الإماراتية خلال تواجده في إمارة أم القوين للتدرب على الطيران، وسلمته إلى الولايات المتحدة، التي بدورها نقلته إلى مركز اعتقال تابع لوكالة المخابرات المركزية في الأردن.

رابعاً: "قاعدة الجهاد" ... هل لا يزال بإمكانه إزعاج واشنطن وحلفائها؟

أظهر كثير من الحوادث التي وقعت في عام ٢٠٠٢ ضد مصالح وأشخاص غربيين في العالم أنه لا يمكن القطع بأن الخطر الذي يمثله تنظيم "قاعدة الجهاد" على الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية قد انزاح تماما في ضوء رد الفعل الأمريكي القوي والصارم على تفجيرات نيويورك وواشنطن، بإسقاط حركة طالبان وتفكيك التواجد المادي للقاعدة على الأرض الأفغانية، وقتل بعض رموز التنظيم واعتقال بعضهم. فرغم العمليات العسكرية التي قامت بها الولايات المتحدة وحلفاؤها في أفغانستان، فإن وجود ما تسمى بـ "العناصر النائمة" داخل التنظيم، وهم أولئك الذين يعملون تحت إمرته في سرية تامة، يجعل القول بانتهاء الخطر أمرا تعوزه الدقة إلى حد كبير، خاصة أن هناك دلائل عدة على أن القائدين الرئيسيين للتنظيم وهما أسامة بن لادن وأيمن الظواهري لا يزالان حيين يرزقان. ولقد برهنت التفجيرات التي وقعت في كل من العاصمة السعودية الرياض ومدينة الدار البيضاء، خلال شهر مايو ٢٠٠٣ على دقة هذا التصور تماما.

وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية "سي. آي. إيه" نفسها قد أكدت هذا الأمر في الثاني عشر من ديسمبر ٢٠٠٢، حين حذرت على لسان مديرها جورج تينت من أن القاعدة لا يزال بإمكانه شكل القدر نفسه من

Abu Nour www.alkottob.com

التهديد رغم تعرضه لضربات قوية خلال الحرب التي تقودها الولايات المتحدة ضد ما تسميه الإرهاب. وبعد هذا التحذير بستة أيام فقط، جاءت الأمم المتحدة، عن طريق رئيس مجموعة شكلتها المنظمة الدولية لمراقبة تدفق الأموال إلى القاعدة، لتؤكد أن "عددا كبيرا من أعضاء القاعدة وآخرين ممن دربتهم يعملون في حرية .. ويواصلون تجميع صفوفهم وإقامة تحالفات مع جماعات متطرفة على مستوى وطني أو إقليمي .. وقد أقاموا بدعة معسكرات تدريب في شرق أفغانستان قرب الحدود مع باكستان".

إن رد فعل الولايات المتحدة على تفجيري واشنطن ونيويورك أظهر أن تقدير الأمريكيين لتنظيم "قاعدة الجهاد" تعدى حدود التعامل معه على أنه جهة محدودة القدرات بإمكانها أن تزعج دولا صغيرة أو متوسطة القوة. كما كان الحال عليه في السابق، وبدأ التوجه الذي أخذ يتبلور لدى الإدارة الأمريكية منذ تفجيرات نيويورك عام ١٩٩٣ يدفع الأمور في طريق التعامل مع هذه التنظيمات الراديكالية الإسلامية بجدية، وفي إطار شامل، أمني وعسكري واقتصادي وسياسي وإعلامي .. إلخ، الأمر الذي جعل المواجهة تأخذ طابعا عالميا. يكفي التصور الذي سطره الظواهري على الورق في كتابه الموسوم بـ "فرسان تحت راية النبي" حين قال: "لا يمكن خوض الصراع من أجل إقامة الدولة المسلمة على أنه صراع إقليمي، فقد اتضح مما سبق أن التحالف الصليبي - اليهودي بزعامة أميركا لن يسمح لأية قوة مسلمة بالوصول للحكم في أي من بلاد المسلمين .. ولذلك فإننا تكيفنا مع هذا الوضع الجديد، يجب أن نعد أنفسنا لمعركة لا تقتصر على إقليم واحد". وتطبيقا لهذا القول كان حدث الحادي عشر من سبتمبر، ومن قبله حوادث نيروبي ودار السلام عام ١٩٩٨ وتفجير المدمرة الأمريكية "كول" في ميناء عدن عام ٢٠٠٠.

وبالطبع فإن الولايات المتحدة مغرضة في التهويل من قدرات "قاعدة الجهاد" حتى تبرر سلوكها الدولي الراهن، والذي يهدف بالأساس إلى تلبية ما تتطلبه استراتيجية أمريكية تتعدى حدود قضية الإرهاب بكثير، لكن في المقابل لا يمكن تجاهل أن القاعدة ليس بالتنظيم الهين، نظرا لعدة اعتبارات، أولها يتعلق بالدور الذي تمارسه العقيدة في تعبئة أعضائه وشحنهم معنويا حيال ما يرى التنظيم أنهم أعداؤه، وهم، كما يوضح الظواهري "القوى الغربية المعادية للإسلام حددت عددها بوضوح وهو ما تسميه بالأصولية الإسلامية، ودخل معها في هذا الحلف عدوتهم القديمة روسيا، واتخذوا عدة أدوات لمحاربة الإسلام، منها الأمم المتحدة والحكام الموالون والحاكمون لشعوب المسلمين، والشركات متعددة الجنسيات، وأنظمة الاتصال الدولية وتبادل المعلومات، ووكالات الأنباء العالمية وقنوات الإعلام الفضائية، ومنظمات الإغاثة الدولية التي تستخدم ستارا للجاسوسية والتبشير وتدبير الانقلابات ونقل الأسلحة". وهذا الجانب العقدي يجعل الاستسلام للعدو أمرا مرفوضا، فهو بمنزلة التولي يوم الزحف، وفي الوقت ذاته فالعقيدة تمد أعضاء التنظيم بقدر فائق على مواصلة القتال، أو الصبر على مكاره التشرد والهروب المؤقت، حتى يمكن رص الصفوف مجددا استعدادا لجولة جديدة من النزال. والتصور العقدي، منهما اختلف معه بقية المسلمين والفقهاء المحافظين، هو ذاته هو الذي يدفع بعض عناصر التنظيم إلى الإقدام على التضحية بالنفس في عمليات انتحارية، بصعب فهم عملية التعبئة النفسية لها خارج هذه المسألة.

وثاني هذه الاعتبارات يرتبط بالانتشار الجغرافي لأعضاء تنظيم القاعدة. فالتداعيات التي ترتبت على حدث الحادي عشر من سبتمبر أظهرت بجلاء أن هؤلاء قد ساحوا في قارات خمس، هي آسيا وأفريقيا وأوربا والأمريكتين، وتمكنوا من تكوين "خلايا" و"تنظيمات" صغيرة، بعضها يرتبط بمركز التنظيم في أفغانستان وبعضها يعمل منفردا، مستغلين ما أتاحته ثورة الاتصالات، وما اكتسبوه من خبرة في التمويه والخداع عن طريق استعمال الشفرات والأسماء المستعارة وأغلاط السلوك المغايرة لتلك التي يفرضها الإسلام، أو تحمدها أيديولوجيات وتصورات الجماعات الإسلامية الأصولية. وهذا الانتشار الجغرافي يجعل بإمكان التنظيم أن ينال من المصالح الأمريكية في أي مكان، طالما سنحت له الفرصة لفعل ذلك، خاصة أن كثيرا من

Abu Nour
www.alkottob.com

العمليات من هذا القبيل لا تتطلب إمكانيات كبيرة. وإذا كانت الضربة الأمريكية لأفغانستان قد نالت من "مركز تنظيم القاعدة" وأثرت على اتصاله بالخلايا والجماعات المنتشرة في شتى أرجاء المعمورة، فإن النخبة الحركية للتنظيمات الإسلامية تظهر أن الخلايا الصغيرة بإمكانها أن تتصرف بشكل منفرد حين تدعو "الضرورة" إلى ذلك، دون الرجوع إلى القادة الرئيسيين. وأنها تسارع إثر ضرب التنظيم الرئيسي أمت أو عسكريا إلى التمركز حول قيادة فرعية صغيرة، ومعاودة نشاطها من جديد. ويبدو أن التنظيم قد فطن إلى هذا الأمر منذ وقت مبكر فعمد إلى تكوين "خلايا نائمة"، خاصة في البلدان التي تظل على معابر مالية رئيسية تستخدمها الأساطيل الأمريكية في تحركها، مثل اليمن، حيث مضيق باب المندب، والمغرب، حيث مضيق جبل طارق، أو في البلدان التي تتركز فيها القوات الأمريكية بكثافة مثل منطقة الخليج العربي. ومن ثم بدا التنظيم كجبل الثلج، نصفه يطفو فوق الماء فيبدو سانحا للصياد الأمريكي، والنصف الثاني غاطس في الأعماق السحيقة يحتاج إلى جهد كبير للوصول إليه، والتعامل معه.

أما الاعتبار الثالث فيتمثل في الكفاءة القتالية لعناصر تنظيم القاعدة، إذ عركتهم تجربة الجهاد الطويلة في أفغانستان، فباتوا قادرين على أن يخوضوا معارك في ساحات مفتوحة، تسمى في الاصطلاحات العسكرية بـ "الأرض الصعبة"، كما أنهم قادرون على شن حرب عصابات وخوض قتال في المناطق الجبلية الوعرة، التي يتسمى العسكريون "الأرض السهلة"، وذلك على عكس ما هو شائع عن السهل والصعب من الأرض حسب منطق الجغرافيا المعروف. وهذه الساحة القتالية لا تقتصر على أفغانستان فقط، بل يمكن أن نتخيلها في أي بلد تريد فيه الولايات المتحدة ملاحقة عناصر القاعدة، مثل ما هو الحال بالنسبة لليمن وجورجيا والفلبين في الوقت الراهن. ولقد جرب الأمريكيون بالفعل منازلة بعض عناصر القاعدة في جبال أفغانستان، واعترفوا بأنهم مقاتلين أشداء.

والاعتبار الرابع يتعلق بوجود كثيرين من المتعاطفين مع تنظيم القاعدة، إما كراهية في أمريكا أو في بعض الشعارات والتصورات الدينية التي يرفعها التنظيم، خاصة ما يتعلق بالصراع العربي- الإسرائيلي وهلا- فضلا عن أنهم يشكلون على الدوام أعضاء محتملين في التنظيم فهم قد يمارسون سلوكا يضر بالمصالح الأمريكية. وفي الكويت نفسها يرصدها أقرب الدول العربية والإسلامية إلى الولايات المتحدة، فإنها شهدت عدة حوادث خلال عام ٢٠٠٢، سبق ذكرها، تعد دليلا على أن تنظيم "قاعدة الجهاد" أو المتعاطفين معه- لا يزال لديه قدرة على إزعاج الولايات المتحدة. فقد أظهرت الأحداث أن هناك بعض الدوائر السياسية الكويتية تتعاطف مع القاعدة، الأمر الذي عكسته التداعيات التي ترتبت على موضوع اسقاط الجنسية عن الكويتي سليمان أبوغيث المتحدث باسم القاعدة، فمثلا تجد أن "الحركة الكويتية للتغيير" قد أصدرت بيانا وصفت فيه قرار الحكومة الكويتية في هذا الشأن بأنه "مهزلة وبادرة خطرة وتهكما في غير المواطنة في بلد يدعي الديمقراطية ويرفع شعارها" معتبرة أن هذه الخطوة جاءت لإرضاء الإدارة الأمريكية. وظهرت ملامح هذا التعاطف في المناقشات التي دارت في الكويت حول وضع "الحسينيات" الشيعية و"الجمعيات" السنية، حين شرعت الحكومة في وضع هذه المؤسسات تحت الرقابة، تلبية لمطلب الولايات المتحدة. ولما هبت واشنطن بتنفيذ عملياتها العسكرية في أفغانستان انتقلت المشاعر المناهضة للسياسة الأمريكية من الشارع الكويتي إلى أروقة مجلس الأمة "البرلمان" على أيدي "الإسلاميين"، الذين أدانوا هذه العمليات، بما حدا بأحد رموز التيار الليبرالي في البلاد إلى وصف هذا الموقف بأنه "كارثة".

والاعتبار الخامس هو أن تنظيم "قاعدة الجهاد" بات يشكل الطرف الذي من الممكن أن تتجه إليه أصابع الاتهام كلما تعرضت مصالح الولايات المتحدة وحلفائها إلى هجمات، وهذا الوضع يغري بعض أنصاره وأشياعه، سواء كانوا دولا أم منظمات سياسية، بتدبير عمليات ضد المصالح الأمريكية، وهم متأكدون من أنهم سيبتعدون عن دوائر الاتهام، خاصة أن الولايات المتحدة تعمد إلى إلصاق كل ما يضرها بتنظيم

Abu Nour
www.alkottob.com

القاعدة، من أجل تبرير حملتها الدولية الراهنة ضد "الإرهاب"، والتي تحصد واشنطن من ورائها مكاسب ملموسة. كما أن هذا الوضع قد يدفع بعض الجهات في وقت ما إلى التعاون مع القاعدة، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر، من أجل القيام بعمليات ضد المصالح الأمريكية.

هذه الاعتبارات الخمسة تجعل تنظيم "قاعدة الجهاد" باستطاعته أن يشكل إزعاجا للولايات المتحدة الأمريكية في المدى المنظور. بل إن حلفاء واشنطن، أو حتى الدول الغربية التي يصنفها تنظيم "قاعدة الجهاد" في خانة العدو مرشحة لأن تدخل في الدائرة التي قد تطالها أذرع التنظيم، وهو الأمر الذي يظهر بجلاء، من التسجيل الصوتي الذي بثته قناة الجزيرة القطرية خلال شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٢ لأيمن الظواهري وهدد فيه بمزيد من العمليات ضد الأمريكيين، وكذلك ضد فرنسا وألمانيا.

أهم المراجع والمصادر

١. أيمن الظواهري. **فرسان تحت راية النبي**، وقد نشرت صحيفة "الشرق الأوسط" هذا الكتاب، الذي نجح أحد أعوان الظواهري في تهريبه إلى باكستان ومنها إلى لندن، حيث نشر على عدة حلقات، عام ٢٠٠٢.

٢. منتصر الزيات، (القاهرة: دار مصر المحروسة)، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

٣. هشام مبارك، **الإرهابيون قادمون: دراسة مقارنة بين موقف الإخوان المسلمين وجماعات الجهاد من قضية العنف (١٩٢٨ - ١٩٩٤)**، (القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية)، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

٤. ضياء رشوان، "تحولات الجماعات الإسلامية في مصر"، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام)، سلسلة **"كراسات استراتيجية"**، العدد رقم (٩٢)، السنة العاشرة ٢٠٠٠.

٥. ضياء رشوان، مستقبل الحركات الإسلامية بعد أحداث سبتمبر، دراسة مقدمة إلى الندوة التي عقدها مركز المستقبل للدراسات والأبحاث القاهرة - مصر بتاريخ ٨ سبتمبر ٢٠٠٢.

٦. د. جهاد عودة، د. عمار علي حسن، "عولمة الحركة الإسلامية الراديكالية: الحالة المصرية"، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، سلسلة **"كراسات استراتيجية"**، العدد رقم (١٢٠)، السنة الثانية عشرة ٢٠٠٢.

٧. خالد الحروب، "الإسلاميون ومسألة التدخل الخارجي: وجهات نظر"، مجلة **"المستقبل العربي"**، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد رقم (١٩٤)، إبريل عام ١٩٩٥.

٨. عمار علي حسن، "أوجه الشبه والاختلاف بين الجماعات الإسلامية الراديكالية في مصر"، دراسة مقدمة إلى ندوة عن "الحركة الإسلامية في مصر" "مركز دراسات التنمية السياسية والدولية، مؤسسة "الصحفيون المتحدون" ١٩٩٤.

Abu Nour www.alkottob.com

٩ ـ د. فيصل دراج، و جمال باروت (محرران)، "**الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية**"، (دمشق: المركز العربي للدراسات الاستراتيجية)، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ .

١٠ ـ نبيل عبد الفتاح، **الوجه والقناع: الحركة الإسلامية والعنف والتطبيع**، (القاهرة: دار سشات للدراسات والنشر والتوزيع)، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ .

١١ ـ عبد القادر شهيب، "مولو الإرهاب"، (القاهرة: دار الهلال)، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ .

١٢ ـ ريتشارد هرير دكمجيان، "**الأصولية في العالم العربي**"، ترجمة: عبد الوارث سعيد، (المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٩ .

١٣ ـ د. أحمد جلال عز الدين، "الإرهاب في الشرق الأوسط: أسباب الانتشار"، مجلة "**أوراق الشرق الأوسط**"، المركز القومي لدراسات الشرق الأوسط، العدد (١٥)، أغسطس ـ نوفمبر ١٩٩٥ .

١٤ ـ تقرير مصر المحروسة، عام ١٩٩٦، القاهرة: مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر، ١٩٩٧ .

١٥ ـ كمال السعيد حبيب، **الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة**، (القاهرة: مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى)، ٢٠٠٢ .

١٦ ـ إدريس لكريني، "مكافحة (الإرهاب الدولي) بين تحديات المخاطر الجماعية وواقع المقاربات الانفرادية"، مجلة "**المستقبل العربي**"، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد رقم (٢٨١)، يوليو ٢٠٠٢ .

١٧ ـ محمد نزال، "الحركات الإسلامية في مواجهة التسوية"، (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق)، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ .

١٨ ـ إبراهيم البيومي غانم، "الغرب في رؤية الحركات الإسلامية المصرية"، **مجلة القاهرة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد رقم (١٣٠)، سبتمبر ١٩٩٣ .

١٩ ـ أرشيف وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية، خلال عام ٢٠٠٢ .

٢٠ ـ أرشيف صحيفة **الحياة** التي تصدر في لندن باللغة العربية.

21 - www.isalamonline.net
22 - www.aljazeera.net
23 - www.ict.org.il
24 - www.bbcarabic.com
25 - www.cia.gov

Abu Nour www.alkottob.com

٤. الجماعة الإسلامية في إندونيسيا

تثير دراسة الجماعة الإسلامية في إندونيسيا العديد من الإشكاليات، وأول مصادر تلك الإشكاليات هو طبيعة الجماعة الإسلامية ذاتها والتي تتسم بالغموض الشديد سواء فيما يتعلق بماهيتها وطبيعتها وتاريخ تأسيسها وهيكلها التنظيمي، أو فيما يتعلق باعتمادها على أسلوب العمل السري، فضلا عن محدودية حجمها بالمقارنة بالحركات الإسلامية الأخرى، خاصة في العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط. ومن ناحية أخرى تتسم المعلومات المتاحة عن تلك الجماعة بالندرة الشديدة، فضلا عن أن معظم تلك البيانات والمعلومات المتوافرة مكتوبة باللغة الإندونيسية. باستثناء بعض المصادر المحدودة مثل بعض المقالات والحوارات الصحفية التي أجريت مع بعض قادة الجماعة.

وينقسم هذا النص إلى خمسة أقساء رئيسية. يتناول القسم الأول جذور نشأة وتطور الجماعة الإسلامية في إندونيسيا، ويتناول القسم الثاني الهيكل التنظيمي للجماعة وخصائص وسمات هذا الهيكل، سواء فيما يتعلق بالبناء التنظيمي للجماعة وقياداتها ورموزها التنظيمية، أو فيما يتعلق بعلاقة الجماعة بغيرها من الجماعات والتنظيمات الإسلامية الراديكالية في منطقة جنوب شرق آسيا وخارجها. ويتناول القسم الثالث أهداف واستراتيجيات عمل الجماعة وبناءها الفكري ومصادرها الفكرية. ويتناول القسم الرابع أهم أنشطة الجماعة خلال الفترة (٢٠٠٠-٢٠٠٢) وهي الفترة التي اتسمت بكثافة نشاط الجماعة في منطقة جنوب شرق آسيا. أما القسم الخامس فيتوفر على تناول استراتيجية تعامل الحكومة الإندونيسية مع الجماعة. وأخيرا تعرض خاتمة الدراسة لمستقبل الجماعة الإسلامية في ضوء الإجراءات التي اتخذت ضد الجماعة في إندونيسيا ومنطقة جنوب شرق آسيا بشكل خاص، والولايات المتحدة الأمريكية والأمم المتحدة بشكل عام.

أولا: جذور النشأة والتطور

١. جذور نشأة الجماعة الإسلامية في إندونيسيا

ارتبطت نشأة التيار الإسلامي الراديكالي في إندونيسيا، بشكل عام، و"الجماعة الإسلامية"، بشكل خاص، كفكرة أو كتنظيم، بفترة النضال الوطني ضد الاستعمار الأجنبي، سواء الهولندي أو

Abu Nour www.alkottob.com

الياباني، بالإضافة إلى النضال ضد النظام السياسي التسلطي في إندونيسيا خلال مرحلة ما بعد الاستقلال. ويعني آخر، فقد تطورت فكرة "الجماعة الإسلامية" في سياق تجربة المقاومة ضد الاستعمار الخارجي، جنبا إلى جنب مع تجربة المقاومة ضد النظم الاستبدادية في إندونيسيا انتهاء بنظام الرئيس سوهارتو. فقد أستقيت فكرة "الجماعة الإسلامية" من فكرة "دار الإسلام" التي تبناها عدد من الحركات الثورية التي ظهرت في الأربعينيات من القرن العشرين والتي هدفت إلى إنشاء دولة إسلامية في إندونيسيا. ورغم تعاون تلك الحركات مع الجيش الثوري الإندونيسي خلال مرحلة النضال ضد الاستعمار الهولندي، إلا أنها رفضت الخضوع للسلطة الوطنية الإندونيسية عقب حصول إندونيسيا على استقلالها في عام ١٩٤٩(١). وقد قاد تلك الحركات عدد من قادة الميليشيات العسكرية ذات الخلفية الإسلامية التحديثية"(*). ورغم اختلاف دوافع وأسباب تمرد تلك الحركات، إلا أن ما جمع بينها هو رفضها "العلمانية" كأساس للدولة الجديدة في مرحلة ما بعد الاستقلال، وسعي قادتها إلى تأسيس دويلات إسلامية" في الأقاليم التي سيطروا عليها بهدف إقامة "دولة إسلامية" في إندونيسيا عقب الحصول على الاستقلال، كما رفضت تلك الحركات التنازل عن سلطاتها للحكومة المركزية الإندونيسية عقب انتهاء الاستعمار الهولندي.

وتمثلت أولى تلك الحركات في "حركة سيكارماداجي ماردجان كارتو سوبرجو" Sekarmadji Maridjan Kartosuwirjo في إقليم غرب جاوة. ويعد كارتو سوبرجو هو الملهم السياسي لأبي بكر باعشير وزملائه في الجماعة الإسلامية. وقد ساهم كارتو سوبرجو في تأسيس "حزب الله" احد الميليشيات التطوعية التي تم تأسيسها تحت إشراف "مجلس مسلمي إندونيسيا" All Indonesian Muslim Council (Majelis Syuro Muslimin Indonesia) أثناء الاحتلال الياباني لإندونيسيا، كما ساهم في تحويل هذا المجلس إلىّ حزب سياسي بعد الحرب العالمية الثانية وانسحاب الاستعمار الياباني. وبعد إجبار سلطات الاستعمار الهولندية لقادة الحركة الوطنية الإندونيسية على توقيع اتفاق في عام ١٩٤٨، يقضي بسحب قادة الميليشيات الوطنية لقواتها من بعض أجزاء جاوة، أعلن كارتو سوبرجو تأسيس "الجيش الإسلامي لإندونيسيا" (Tentara Islam Indonesia, TII)، وركز على بناء جيش وسلطة وطنية خاصة به في منطقة غرب جاوة، كما شرع في بناء الهياكل الإدارية والسياسية في الإقليم. وفي خطوة أكثر تقدما قام كارتو سوبرجو بإعلان "دولة إندونيسيا الإسلامية" Negara Islam Indonesia رسميا في ٧ أغسطس ١٩٤٩. وأطلق على المناطق الواقعة تحت سيطرة "الجيش الإسلامي لإندونيسيا" اسم "دار الإسلام" Darul Islam. وقد أدت تلك الخطوة إلى صراع دموي بين كارتو سوبرجو والسلطة الوطنية الإندونيسية طوال ثلاثة عشر عاما متواصلة حتى تم القبض عليه في عام ١٩٦٢.

أما الحركة الثانية فتتمثل في "حركة جنوب سولاويزي" South Sulawesi بقيادة كاهار موزاكار Kahar Muzakkar. ويرجع تمرد موزاكار على السلطة الوطنية الإندونيسية والجيش الوطني الإندونيسي إلى عدم تحقيق طموحاته بعد انتهاء الاستعمار، خاصة بالنظر إلى الدور الذي قام به في مجال تعبئة الحركة الوطنية المقاومة للاستعمار منذ منتصف الأربعينيات، ثم قيادة المقاومة الوطنية أ

---

* يشير مفهوم "الإسلام التحديثي" في إندونيسيا إلى الاتجاه الإسلامي الذي يعتقد في أهمية زيادة دور الإسلام في الحياة السياسية والاجتماعية، دون أن يعني بالضرورة تغيير الدستور أو إلغاء الأساس الأيديولوجي للدولة في إندونيسيا. كما يعتقد هذا الاتجاه أيضا في التفسير الحرفي للقرآن الكريم والسنة، ويمثل هذا الاتجاه حاليا جماعة المحمدية بالإضافة إلى الأحزاب السياسية الإسلامية. أما مفهوم "الإسلام التقليدي" فيشير إلى الاتجاه الإسلامي الذي يمزج بين الإسلام والثقافة الأندونيسية، ويمثل هذا الاتجاه جماعة "نهضة العلماء"، بالإضافة إلى مختلف القوى السياسية الأخرى.

Abu Nour www.alkottob.com

منطقة جنوب سولاويزي ابتداء من عام ١٩٥٠ بالتنسيق مع الجيش الإندونيسي، مما أدى إلى تمرده على السلطات والجيش الوطني الإندونيسي. غير أنه يلاحظ أن موزاكار كان معنيا بالتركيز على سولاويزي، وبالأخص جنوب سولاويزي، دون أن يطمح إلى تأسيس دولة إسلامية مستقلة، مما دفع به في عام ١٩٥٣ إلى إعلان سولاويزي جزءا من "دولة إندونيسيا الإسلامية" بقيادة كارتو سوبرجو، مع ملاحظة استخدام موزاكار اسما مختلفا للدولة الإسلامية التي أعلن عن تأسيسها كارتو سوبرجو، حيث استخدم اسم "جمهورية إندونيسيا الإسلامية" Negara Republik Islam Indonesia (NRII). ومثله مثل كارتو سوبرجو، يعد موزاكار من الإسلاميين التحديثيين. وعلى الرغم من ضعف الروابط العملية بين الحركتين، إلا أنهما حافظا على الاندماج فيما بينهما كحركة واحدة على الأقل على المستوى النظري أو على المستوى المعلن.

وأخيرا، جاء التمرد الثالث في إطار حركة "دار الإسلام" في "آتشيه". وتعد تلك الحركة بمثابة الجذور الرئيسية لحركة "آتشيه الحرة" Gerakan Aceh Merdeka (GAM) التي ظهرت في عام ١٩٧٦.

وقد شهدت تلك الحركات بأفرعها الثلاثة تدهورا شديدا نتيجة هزيمتها عسكريا والقبض على قادتها بحلول منتصف الستينيات، مما أدى إلى استسلام بعض قادتها للحكومة الإندونيسية الرسمية، واندماج البعض في المؤسسة العسكرية الإندونيسية، وهروب البعض الآخر إلى ماليزيا. وقد شهدت بقايا تلك الحركات وأنصار فكرة "دار الإسلام" ضربة قاسية على يد نظام الرئيس سوهارتو في منتصف السبعينيات. وقد لجأت وكالة المخابرات الإندونيسية خلال تلك الفترة إلى إحياء فكرة "دار الإسلام" وإقناع - أو إجبار - أعضاء تلك الحركة ممن اندمجوا في الجيش الإندونيسي على الاتصال ببقايا أعضاء تلك الحركة وإقناعهم بأهمية التعاون مع أجهزة الأمن الإندونيسية بهدف القضاء، على خطر المد الشيوعي بعد سقوط جنوب فيتنام تحت سيطرة التيار الشيوعي في عام ١٩٧٥. يدعوى أن فكرة "دار الإسلام" هي الضمان الأكثر فعالية لمواجهة هذا الخطر. وقد نجحت المخابرات الإندونيسية من خلال تلك الطريقة في استمالة، والوصول إلى، معظم أعضاء، وأنصار حركة "دار الإسلام" خلال تلك الفترة والقبض عليهم بدعوى الانتماء إلى إحدى الجماعات الإسلامية المجهولة. أطلقت عليها المخابرات الإندونيسية "كوماندو الجهاد" Komando Jihad واتهامها بالسعي إلى تأسيس دولة إسلامية في إندونيسيا وتطبيق أفكار كارتو سوبرجو. وقد نجحت السلطات الأمنية الإندونيسية من خلال تطبيق تلك الخطة، والتي أعدها أحد المسئولين في وكالة المخابرات الإندونيسية ومستشارو الرئيس سوهارتو، في القبض على حوالي ١٨٥ شخصا بحلول منتصف عام ١٩٧٧ بتهمة الانتماء إلى هذا التنظيم(٢). غير أنه على الرغم من تلك الضربات ظل بعض قيادات وأنصار حركة دار الإسلام يعيشون في الخفاء.

وقد لعبت تجربة حركة "دار الإسلام" دورا مهما في تطور "الجماعة الإسلامية" من خلال عدد من المحاور. المحور الأول هو سعي بعض أعضاء الحركة إلى تأسيس "جماعة إسلامية" كخطوة رئيسية نحو بناء الدولة الإسلامية. ومن الأمثلة البارزة هنا هو جاوز توفيق Gaos Taufik، أحد قيادات حركة دار الإسلام والتي قر مع عدد من الأعضاء السابقين للحركة إلى إحدى القرى بشمال سومطرة. ووفق بعض التقارير دعا توفيق في عام ١٩٧٥ الشيخ عبد الله عمر- أحد الدعاة الشباب في ذلك الوقت- لحضور اجتماع بمنزل أحد أعضاء الحركة البارزين بمدينة ميدان، قاموا خلاله بمناقشة انتهاكات حكومة سوهارتو للشريعة الإسلامية. وانتهى الاجتماع باقتراح توفيق على الحاضرين الانضمام إلى تنظيم أو جماعة أطلق عليها "الجماعة الإسلامية" تلتزم بالتطبيق الصارم للشريعة الإسلامية. إلا أنه تم القبض على توفيق في عام ١٩٧٧، وعرفت خلالها تلك القضية بقضية "الجماعة الإسلامية"، كما تم القبض على عبد الله عمر في عام ١٩٧٩(٣).

Abu Nour www.alkottob.com

أما المحور الثاني، فقد تمثل في اندماج بعض عناصر حركة "دار الإسلام" والتي ظلت تعيش في الخفاء في مؤسسة "شبكة نجروكي" و"معهد المؤمن" الذي أسسه بعاشير والشيخ عبد الله سنجكار. وكان من أبرز هؤلاء، سانوسي داريس Sanusi Daris، وزير الدفاع في حركة كاهار موزاكار، الذي ظهر مرة أخرى في منتصف الثمانينيات، وعمل كمهرة وصل بين الإسلاميين الراديكاليين في جنوب سولاويزي وأبو بكر بعاشير (٤٤). وتمثل المحور الثالث في تأثر مؤسسي الجماعة الإسلامية، عبد الله سنجكار وأبو بكر بعاشير، بخبرة حركة دار الإسلام، فقد مثلت الحركة النموذج السياسي الملهم لقادة ورموز الجماعة الإسلامية، وفي مقدمتهم أبو بكر بعاشير. فقد انطلقت تجربة "دار الإسلام" من افتراض أنه لتأسيس دولة إسلامية كان لابد من إنشاء "جماعة إسلامية" Jemaah Islamiyah كشرط ضروري مسبق، وهي الفكرة التي استقاها أبو بكر بعاشير واتباعه من تلك التجربة. كما عبر عبد الله سنجكار في منتصف السبعينيات عن الحاجة إلى ضرورة تأسيس جماعة منظمة أو تنظيم أطلق عليه "الجماعة الإسلامية" يأخذ على عاتقه الجهاد من أجل تأسيس دولة إسلامية. وفي خطوة أكثر عملية نحو تجسيد فكرة "الجماعة الإسلامية" قام عبد الله سنجكار وأبو بكر بعاشير في أواخر عقد السبعينيات بتأسيس ما عرف بـ شبكة نجروكي Ngruki Network والتي ضمت عددا من المضطهدين على يد نظام الرئيس سوهارتو، وشهدت تلك الشبكة توسعا ملحوظا في نهاية عقد الثمانينيات بسبب انضمام أعداد متزايدة من الإندونيسيين ممن تعرضوا للاضطهاد السياسي على يد رموز نظام سوهارتو خلال تلك الفترة. واعتمدت قيادة تلك الشبكة على "معهد المؤمن الإسلامي" Al-Mukmin Islamic Boarding School in Ngruki بالقرب من "سولو" بوسط جاوة.

وهكذا، يمكن أن نشير هنا إلى ملاحظتين مهمتين بخصوص المفاهيم المستخدمة خلال تلك المرحلة، لا تخلوان من دلالة مهمة بشأن نشأة وتطور الجماعة الإسلامية في إندونيسيا: تتمثل الملاحظة الأولى في استخدام مفهوم "الجماعة الإسلامية" خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات، سواء من جانب أعضاء حركة "دار الإسلام" أو "معهد المؤمن"، ليشير إلى معنى محدد وهو "المجموعة / الجماعة التي تطبق فيما بينها الشريعة الإسلامية كخطوة أو مرحلة أولى لإقامة الدولة الإسلامية" (٤٥). وفي إطار هذا المفهوم حدث قدر كبير من التداخل بين أنصار حركة "دار الإسلام"، من ناحية، ومجموعة أبي بكر بعاشير وعبد الله سنجكار في إطار معهد "المؤمن" و"شبكة نجروكي"، من ناحية أخرى. الملاحظة الثانية هي اختلاق أجهزة الأمن الإندونيسية، خاصة وكالة المخابرات، لمفهوم "كوماندو الجهاد"، واتساع نطاق استخدامه فيما بعد، ليشير إلى بقايا أعضاء حركة دار الإسلام، بينما لم يستخدم أعضاء تلك الحركة هذا المفهوم. أما مفهوم "الجماعة الإسلامية" فقد استخدم من جانب الحكومة ابتداء من الثمانينيات ليشير إلى "التنظيم" الجديد الذي سعى أعضاء حركة دار الإسلام إلى تأسيسه خلال تلك الفترة.

وتأتي أهمية هاتين الملاحظتين بالنظر إلى الخلاف حول تاريخ تأسيس الجماعة الإسلامية كتنظيم. ويرجع هذا الخلاف إلى عوامل عديدة يأتي في مقدمتها ما سبق الإشارة إليه من قدم استخدام "الجماعة الإسلامية" كمفهوم أو أيديولوجية، وتعدد استخدام المفهوم بين أنصار حركة دار الإسلام والحكومة وأعضاء معهد المؤمن بقيادة أبي بكر بعاشير وعبد الله سنجكار، واستخدامه من قبل الحكومة في منتصف السبعينيات كمرادف لحركة "كوماندو الجهاد" (٤٦). غير أنه يجب التمييز بين استخدام الجماعة الإسلامية كمفهوم وإنشاء الجماعة الإسلامية كتنظيم، إذ ترجع الأخيرة إلى منتصف التسعينيات فقط أثناء وجود عبد الله سنجكار وأبي بكر بعاشير في ماليزيا (٤٧). وهو ما يعني أن إنشاء الجماعة الإسلامية كتنظيم قد تم خارج إندونيسيا.

وبالإضافة إلى الدور المهم الذي لعبته حركة "دار الإسلام" كمصدر مهم للإلهام السياسي والديني لقادة ومؤسسي الجماعة الإسلامية، إلا أنه لا يمكن الفصل بين تأسيس "الجماعة الإسلامية" وسيطرة النظم السياسية

Abu Nour www.alkottob.com

التسلطية في إندونيسيا منذ الاستقلال وحتى سقوط نظام الرئيس سوهارتو في مايو ١٩٩٨، ومحاولة تلك النظم تكريس الطابع والأساس العلماني للدولة والسياسة من خلال عقيدة "البنسيلا". فقد تميزت فترة الرئيس سوكارنو بفرض فلسفة "البنسيلا" كفلسفة محورية للدولة والسياسة والمجتمع والتي استندت إلى خمسة عناصر هي: التوحيد، والإنسانية، والقومية، والسيادة الشعبية، والعدل الاجتماعي. ورغم الدور الذي لعبه التيار الإسلامي خلال عقد الستينيات في مقاومة التيار الشيوعي والتنظيمات الشيوعية في إندونيسيا خلال تلك الفترة، إلا أن الرئيس سوهارتو عمد خلال عقدي الستينيات والثمانينيات إلى تهميش وإضعاف دور التيار الإسلامي من خلال إلغاء كافة الأحزاب الإسلامية ودمجها في عام ١٩٧٣ في حزب واحد هو حزب "التنمية المتحد" الذي آمن بفلسفة البنسيلا كأيديولوجية وحيدة، بالإضافة إلى استخدام القوة العسكرية للقضاء على التيار الإسلامي الراديكالي أو تلك التي ترفض فلسفة "البنسيلا". غير أنه مع أواخر عقد الثمانينيات حاول سوهارتو توظيف القوى الإسلامية لتعويض التراجع في دعم الجيش له. وعلى الرغم من التحول النسبي في استراتيجية تعامل نظام سوهارتو مع التيار الإسلامي، إلا أن هذا التحول ظل محدودا ولم يحل دون قبضة الأجهزة الأمنية على تلك القوى. وقد ساهمت تلك البيئة في خلق حافز لدى القوى الإسلامية لتبني أهداف أكثر راديكالية تجاه النظام السياسي والمجتمع الإندونيسي، على نحو ما عكسته تجربة إنشاء الجماعة الإسلامية في عام ١٩٩٥.

وجاء التطور الأهم الذي شهده التيار الإسلامي عقب التحولات المهمة التي شهدها النظام السياسي في إندونيسيا في عام ١٩٩٨، وبدء عملية التحول الديمقراطي واتجاه النظام السياسي نحو مزيد من الانفتاح السياسي بالمقارنة بالعقود السابقة(٨). فقد أدت تلك التحولات إلى احتدام المنافسة بين عدد من الفاعلين السياسيين والاجتماعيين ليس فقط من أجل الوصول إلى السلطة، ولكن من أجل إعادة صياغة السياسة الإندونيسية وهوية الدولة والمجتمع على أيديولوجية البنسيلا والأساس العلماني للدولة. وكان "الإسلام"، بشكل عام، و"الإسلام السياسي"، بشكل خاص في مقدمة هؤلاء الفاعلين. فقد وجدت القوى الإسلامية في هذا التطور فرصة مهمة للعمل على إعادة مناقشة وطرح العديد من القضايا التي أثيرت عقب الاستقلال وخلال عقد الخمسينيات، خاصة هوية الدولة الإندونيسية، وما ارتبط بها من قضايا فرعية مثل تطبيق الشريعة الإسلامية، وإلغاء سياسة البنسيلا، وهي القضايا التي استطاعت الأنظمة السياسية المتعاقبة خلال العقود السابقة إغلاقها أو على الأقل تعطيلها. وهكذا، أدت تلك التحولات إلى تصاعد الطموحات السياسية لدى التيار الإسلامي، بشكل عام، والراديكالي، بشكل خاص.

ولم يقتصر دور البيئة السياسية الجديدة بعد انهيار نظام سوهارتو على تشجيع التيارات الإسلامية الراديكالية القائمة نحو تطوير أهدافها وآليات عملها، ولكنها ساهمت في ظهور وتأسيس جماعات إسلامية راديكالية جديدة، كان أهمها على سبيل المثال جماعة "عسكر الجهاد" بقيادة جعفر عمر تالب Gaafar Umar Thaleb في ٣٠ يناير ٢٠٠٠ والتي تعد الجناح العسكري لـ "منتدى اتصالات أهل السنة والجماعة" Forum Komunikasi Ahlul Sunnah Wal Jamaah الذي تم تأسيسه في أوائل عام ١٩٩٨ على يد عدد من رجال الدين المتشددين في إندونيسيا والذي يرأس مجلس إدارته جعفر عمر تالب. بالإضافة إلى "جبهة بامبيلا إسلام" (جبهة الدفاع عن الإسلام) Pembela Islam Front التي تم تأسيسها في ١٧ أغسطس ١٩٩٨ بعد سقوط نظام سوهارتو مباشرة(٩). وقد تفاوتت استراتيجيات عمل القوى الإسلامية خلال تلك المرحلة، فبينما فضلت بعض القوى الاندماج في النظام السياسي أو العمل من داخل النظام والتحول إلى أحزاب سياسية، رفضت قوى أخرى قبول النظام الجديد أو التعاطي معه. ورأت في المرحلة الجديدة فرصة مهمة لممارسة الضغوط على النظام السياسي وخلق بيئة غير مستقرة على المستويين المحلي والإقليمي تساهم في التهيأة في سقوطه(١٠).

Abu Nour www.alkottob.com

٢ . تطور الجماعة الإسلامية

يمكن التمييز بين مراحل ثلاث في تطور الجماعة الإسلامية في إندونيسيا ، سواء من حيث تطور قدراتها التنظيمية أو توجهاتها الفكرية.

المرحلة الأولى: مرحلة تطوير البناء التنظيمي للجماعة

بدأت تلك المرحلة عقب خروج أبي بكر بعاشير وعبد الله سنجكار من السجن في عام ١٩٨٢ ، واستطاعت "الجماعة" خلالها التركيز على تطوير قدراتها وبنائها التنظيمي من ناحية، والعمل على دعم نفوذها داخل قطاعات المجتمع الإندونيسي، من ناحية أخرى. فقد قام بعاشير وسنجكار عقب خروجهما من السجن بالعودة إلى مدرسة "لقمان الحكيم" بجوكرتا واستكمال بناء "شبكة لجوكرتا"، من خلال التركيز على محورين رئيسيين. الأول هو العمل على تجميع أعضاء وطلبة مدرسة وشبكة لجوكرتا ممن تعرضوا للاعتقال والسجن على يد نظام سوهارتو، وتنظيم لقاءات واجتماعات شهرية لتلك المجموعات. أما العنصر الثاني، فقد تمثل في العمل على بناء شبكة من الخلايا محدودة العدد (٨ – ١٥ فردا) ممن يعيشون في قرية أو منطقة واحدة، تلتزم تلك الخلايا بتطبيق الشريعة الإسلامية فيما بينها، حيث يقوم أعضاء تلك الخلايا بأداء القسم على الطاعة لأوامر وتعليمات بعاشير وسنجكار ما لم تكن تلك الأوامر تخالف الله ورسوله. وقد عُرفت تلك الخلايا بنظام "الأسرة" Usrohوالتي نظر إليها بعاشير كآلية لبناء المجتمع المسلم الذي شكل في تصوره مقدمة ضرورية لبناء الدولة الإسلامية. وقد شكل هذا النظام أحد الظاهر الرئيسية لتأثر بعاشير بالأفكار التنظيمية لحسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين في مصر.

ومن ناحية أخرى، استطاعت "الجماعة الإسلامية" تطوير نفوذها داخل قطاعات المجتمع الإندونيسي خاصة طلبة الجامعات، وتطوير علاقتها بالقيادات الطلابية. وقد استغلت الجماعة خلال تلك المرحلة تأثير الثورة الإيرانية على قطاعات الشباب والطلبة في إندونيسيا، حيث انتشرت خلالها حلقات النقاش التي ركزت على قضايا تطبيق الشريعة الإسلامية وانتهاكات نظام سوهارتو للشريعة. وتركز النشاط الإسلامي للطلبة خلال تلك المرحلة في جامعة "يوجياكارتا" Yogyakarta بوسط جاوة التي تحولت إلي مركز للصحوة الإسلامية خلال تلك المرحلة. وقد لعب الدور الأساسي في هذا السياق كل من فكر الدين مقتي Fikiruddin Muqti ومقليانسياه Muchliansyah اللذين لعبا دورا مهما في تعبئة الصحوة الدينية بين طلبة الجامعة من خلال مسجد "سوديرمان" Sudirman بالقرب من جامعة يوجيا كارتا. بالإضافة إلي عرفان سوريادهاردي Irfan Suryahardy والمعروف بعرفان س. أواس Irfan S. Awwas (أخو فكر الدين مقتي)، من خلال إصداره في عام ١٩٨١ مجلة "الرسالة" التي ركزت على نشر اقتباسات من أحاديث وخطب آية الله الخميني، ومقابلات ولقاءات مع رموز وأعضاء حركة "دار الإسلام"، بالإضافة إلي توجيه النقد إلي سياسات نظام سوهارتو. كما قام عرفان في عام ١٩٨٢ برئاسة مكتب "الهيئة التنسيقية لمسجد الشباب" Coordinating body of Mosque Youth إلي أن تم القبض عليه في عام ١٩٨٣ بتهمة التخطيط لتأسيس دولة إسلامية وتعبئة الشباب بغرض محاكاة نموذج الثورة الإسلامية الإيرانية(١١).

المرحلة الثانية: مرحلة الانتشار وتطوير القدرات العسكرية

بدأت تلك المرحلة مع هجرة معظم قيادات الجماعة إلي ماليزيا ابتداء من عام ١٩٨٥ . فقد قام أبو بكر بعاشير وعبد الله سنجكار، عقب قبول المحكمة الإندونيسية العليا في فبراير ١٩٨٥ الاستئناف ضد الحكم الصادر بشأن تخفيف مدة العقوبة ضدهما إلي ثلاث سنوات وأربعة أشهر وطلب استدعائهما، بالتهريب إلي ماليزيا في أبريل من نفس العام. وجدير بالذكر أن بعاشير قد فسر انتقال قادة الجماعة إلي ماليزيا لا باعتباره هروبا ولكن بمثابة "هجرة" للهروب من أعباء الإسلام علي غرار هجرة الرسول (ص) من مكة إلي المدينة. وشملت المجموعة المهاجرة إلي ماليزيا بالإضافة إلي بعاشير وسنجكار كلا من فكر الدين مقتي (والمعروف أيضا بمحمد

Abu Nour www.alkottob.com

إلى عبد الرحمن أو أبي جبريل، والمسئول عن التجنيد والتعبئة بالجماعة، كما أصبح عضو اللجنة التنفيذية لمجلس المجاهدين في أفغانستان عام ٢٠٠٠ . وقد تم القبض عليه في ماليزيا في عام ٢٠٠٢ بموجب قانون الأمن الداخلي بتهمة الانتماء إلى الجماعة الإسلامية)، وأجوس سوناترو (Agus Sunatro عضو هيئة تحرير مجلة الرسالة في أوائل الثمانينيات)، وأحمد فلاح، وروسلي أريوس Rusli Aryus، وموين بوستامي Mu-bin Bustami، وفجار صديق Fajar Sidiq عضو هيئة تحرير مجلة الرسالة خلال فترة الثمانينيات والذي التحق بالجماعة في عام ١٩٨٦، وتم القبض عليه في ماليزيا في عام ٢٠٠٢ طبقا لقانون الأمن الداخلي بسبب انتمائه للجماعة الإسلامية)، وأجونج رياضي (Agung Riyadi تم القبض عليه في يناير ٢٠٠٢ في ماليزيا طبقا لقانون الأمن الداخلي، وهو أخو فجار صديق) (١٢).

(على الرغم من "هجرة" قيادات الجماعة، وعلى رأسهم بعاشير وسنجكار، إلى ماليزيا إلا أن ذلك لم يؤد إلى ضعف سيطرة تلك القيادات على الجماعة في إندونيسيا، وذلك لعدد من الأسباب أهمها تمتع تلك القيادات بهالة الأستاذية كجيل الجيل الثاني من الجماعة ممن تتلمذوا على أيديهم في مدرسة لجوركي، و علاقات النسب والمصاهرة التي ربطت بين تلك القيادات وعدد من القيادات الأخرى التي ظلت في إندونيسيا، بالإضافة إلى استمرار الاتصال بين الجانبين من خلال المبعوثين الشخصيين بين قادة الجماعة في ماليزيا وإندونيسيا.

وقد شهدت تلك المرحلة عددا من التحولات المهمة والمترابطة في إطار تطور الجماعة الإسلامية:

كان أول تلك التحولات هو اتجاه الجماعة إلى تطوير قدراتها العسكرية، أو ما أطلق عليه عبد الله سنجكار "اعداد القوة"، من خلال التركيز على إرسال عدد من عناصرها إلى أفغانستان للمساهمة في الحرب ضد الاتحاد السوفيتي بهدف تنمية المهارات والقدرات العسكرية لأعضاء الجماعة وتطوير كوادر جديدة في هذا المجال. وقد بدأت تلك العملية منذ منتصف الثمانينيات، حيث تم تكليف كل من عبد الله أنشوري Abdullah Anshori المكنى بأبي فاتح) وأندي محمد تقوي Andi Mohamed Taqwa أحد خريجي مدرسة لجوركي في أوائل الثمانينيات، لعب دورا مهما في ربط عدد من العناصر الباقية من حركة دار الإسلام بالجماعة الإسلامية من خلال تعريف تلك العناصر بعبد الله سنجكار وأبي بكر بعاشير، مثل تعريف سانوسي داريس، وزير الدفاع في حركة جنوب سولاويزي بعبد الله سنجكار وأبي بكر بعاشير في عام ١٩٨٤) في عام ١٩٨٦ بتولي مسئولية إرسال أكبر عدد ممكن من الأعضاء إلى باكستان وأفغانستان. وقد سافر محمد تقوي إلى أفغانستان حيث قضى بها فترة تمهيدا لتطوير تلك العلاقات. ومن ناحية أخرى، فقد مثل هذا التحول بداية مهمة لتطور العلاقة بين الجماعة الإسلامية والإسلاميين العرب وغير الأفغان في أفغانستان بقيادة أسامة بن لادن(١٣). ومع انتهاء الحرب السوفيتية الأفغانية، وتراجع حجم التمويل المادي الذي حظيت به الجماعة عبر أفغانستان خلال تلك المرحلة، اتجهت الجماعة إلى تطوير علاقاتها مع الجماعات المسلحة في منطقة جنوب شرق آسيا خاصة جبهة تحرير مورو الإسلامية في الفلبين.

أما التحول الثاني، والذي جاء كنتيجة طبيعية للتحول الأول وخروج الجماعة من موطنها الرئيسي (إندونيسيا)، فقد تمثل في تطور البعدين الدولي والإقليمي في نشاط ونطاق عمل الجماعة. إذ شهدت تلك المرحلة - بالإضافة إلى هجرة عدد من قادة الجماعة إلى ماليزيا - سفر بعض أعضائها إلى المملكة العربية السعودية (ذكرنا كودة Zakaria Qudah أحد أعضاء هيئة تحرير مجلة الرسالة)، وإلى السويد (محمد تقوي)، وإلى ألمانيا وهولندا (عبد الواحد المعروف بـ كادونجا - Kadungga)

وتمثل التحول الثالث في انفتاح الجماعة الإسلامية في إندونيسيا على الجماعة الإسلامية في مصر من خلال أحد أعضائها وهو عبد الواحد أو كادونجا الذي سافر إلى ألمانيا في عام ١٩٧١ لاستكمال دراسته، حيث ساهم في تأسيس "رابطة الشباب المسلم في أوروبا" Muslim Youth Assoiciation of Europe، واستطاع من

Abu Nour www.alkottob.com

خلال تلك الرابطة تكوين علاقات صداقة بالناشطين الإسلاميين المقيمين في أوروبا من منطقة الشرق الأوسط كما تأثر بالأفكار الراديكالية لهؤلاء الناشطين. وفي تطور أكثر تقدما انتقل كادوليها إلى هولندا في الثمانينيات حيث تعرف في عام ١٩٨٩ بأسامة رشدي، أحد قيادات الجماعة الإسلامية المصرية، وطوروه صداقة صداقة قوية كما تشير بعض المصادر الغربية(١٤)، والتي ترى أنها قد ساهمت في تطور علاقة الجماعة الإسلامية بإندونيسيا بالجماعة الإسلامية في مصر بشكل ملحوظ ابتداء من عام ١٩٩٥، وهو الأمر الذي لم تؤكده مصادر أخرى مصرية أو عربية. غير أن نفس تلك المصادر الغربية تشير إلى أن هذا الانفتاح على الجماعات الإسلامية المصرية قد أدى إلى حدوث انقسام داخل الجماعة الإسلامية أثناء وجودها في ماليزيا، حيث أسفر عن تيار اتجاه داخل الجماعة، مثله عبد الله سنجكار وأبو بكر باعشير، يدعو إلى تجاوز فكرة تأسيس دولة إسلامية في إندونيسيا والعمل على إنشاء "خلافة إسلامية دولية"، بينما تمسك الاتجاه التقليدي، ومثله فكر الدين مقتي وموقليانسياه بفكرة "دار الإسلام" وإنشاء دولة إسلامية داخل الحدود الإندونيسية. ولم يتم تسوية هذا الخلاف إلا بعد عودة قيادات الجماعة إلى إندونيسيا ابتداء من منتصف عام ١٩٩٨(١٥).

وأخيرا، تمثل التطور الرابع في تحول جاكرتا إلى نقطة تمركز الجماعة الإسلامية بدلا من وسط جاوة. فعلى الرغم من مركزية موقع مدرسة لحوركي، ومسجد "سوديرمان"، وانضمام أعداد متزايدة من الطلبة في مناطق جنوب سولاويزي، ولومبوك Lombok، وأمبون Ambon، وغرب سومطرة، ولامبونج Lambung إلى "الهيئة التنسيقية لمسجد الشباب" في "يوجياكارتا"، إلا أنه نحت تأثير الضغوط الأمنية في منطقة جاوة الجهت النسبة الغالبة من عناصر الجماعة الإسلامية في إندونيسيا إلى التمركز في جاكرتا. وقد بدأت بوادر هذا التحول مع أواخر عام ١٩٨٣، إلا أنه شهد تسارعا ملحوظا مع هجرة قيادات الجماعة إلى ماليزيا.

المرحلة الثالثة: تصاعد الجناح الراديكالي داخل الجماعة

وبدأت تلك المرحلة مع عودة مجموعة ماليزيا إلى إندونيسيا مرة أخرى في عام ١٩٩٨ عقب انهيار نظام سوهارتو، حيث توفي عبد الله سنجكار في نوفمبر ١٩٩٩ وتولى عقبه أبو بكر باعشير قيادة الجماعة. وقيزت تلك المرحلة بتصاعد الجناح الراديكالي داخل الجماعة والذي مثله عناصر الجيل الثاني، خاصة ممن تتلمذوا على يد عبد الله سنجكار أثناء وجودهم في ماليزيا، كما جاء تطور الاتجاه الراديكالي امتدادا أو نتيجة لمجموعة التحولات التي شهدتها الجماعة خلال فترة وجودها في ماليزيا على نحو ما سبق تناوله. وقد انعكس تطور التوجهات الراديكالية داخل الجماعة في أكثر من مظهر، كان أهمها تسارع تورط الجماعة في العديد من أعمال العنف والتفجيرات والتي أخذت اتجاها ملحوظا ابتداء من عام ٢٠٠٠، وتحول الجماعة إلى استهداف المصالح الغربية والأمريكية والمسيحيين خلال تلك المرحلة.

ومن بين التطورات المهمة التي شهدتها الجماعة خلال تلك المرحلة تأسيس "مجلس المجاهدين الإندونيسيين" Majelis Mujahidin Indonesia (MMI) بالتعاون مع مختلف القوى الإسلامية الإندونيسية الداعية إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. فقد دعت الجماعة تلك القوى إلى عقد اجتماع طارئ خلال الفترة (٥-٧) أغسطس ٢٠٠٠ عرف بـ "مؤتمر المجاهدين"، حيث تم الإعلان عن تأسيس "مجلس المجاهدين الإندونيسيين" والذي تبني مجموعة من الأهداف كان أهمها: العمل على إنشاء "خلافة إسلامية دولية جديدة". وقد سيطر أعضاء الجماعة الإسلامية على هذا المجلس، فتولى أبو بكر باعشير رئاسة "مجلس الحل والعقد" أو ما عرف بأمير المجاهدين، كما تولى عبد القادر براجا رئاسة قسم الفتوى بمجلس الحل والعقد، بينما تم تعيين كل من موقليانسياه وفكر الدين مقتي (أبو جبريل) في اللجنة التنفيذية المسئولة عن دعم موارد المجلس، بالإضافة إلى العديد من العناصر الأخرى(١٦). وقد أدى إنشاء هذا المجلس إلى حدوث انقسام كبير داخل الجماعة على نحو ما سنشير إليه الدراسة لاحقا. ويوضح الشكل رقم (٤ ١) تطور الجماعة الإسلامية خلال مراحل تطورها المختلفة.

Abu Nour www.alkottob.com

شكل رقم (٤ - ١)

مراحل نشأة وتطور الجماعة الإسلامية في إندونيسيا

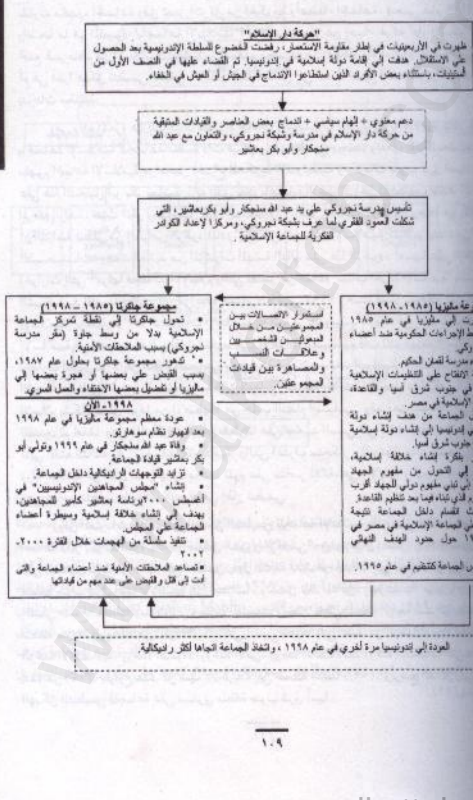

www.alkottob.com
Abu Nour

ثانيا: الهيكل التنظيمي والعلاقات الإقليمية والدولية للجماعة الإسلامية

١ . الهيكل التنظيمي

يتسم الهيكل التنظيمي للجماعة الإسلامية في إندونيسيا بقدر كبير من الغموض الذي يعود إلي مجموعة من الأسباب، أهمها عدم وضوح مفهوم "الجماعة الإسلامية" ذاته وطبيعة الجماعة، بالإضافة إلي تفاوت مفهوم الجماعة وفق تصورات كل من الحكومة وأعضاء الجماعة، فحتى عام ١٩٧٩ لم يكن واضحا ما هو المقصود "بالجماعة الإسلامية"، وهل هي تعبير عن إحياء لحركة "دار الإسلام"؟ أم أنها تجمع غير منظم من الإسلاميين المتشددين تجمعهم مجموعة من الأفكار والأهداف والطموحات المشتركة؟ أم هي أخرا هيكل تنظيمي حقيقي ؟ ويبدو أنها تتضمن إلي حد ما جميع الخصائص والسمات السابقة بدرجات مختلفة.

وفي واقع الأمر، مازالت هناك بعض الاتجاهات والتحليلات التي ترى أنه لا وجود مادي لما يسمي بالجماعة الإسلامية كجماعة منظمة ذات هيكل وبناء تنظيمي محدد. وتذهب تلك التحليلات إلي أن مفهوم الجماعة الإسلامية هو محض اختراع للحكومة الإندونيسية وحكومات جنوب شرق آسيا. وقد أكد علي هذا التحليل أبو بكر بعاشير ذاته الذي يُقدم باعتباره الزعيم الروحي للجماعة وقائدها الفكري في المرحلة الراهنة، حيث أنكر وجود مثل هذه الجماعة(١٧). غير أنه علي الرغم من وجاهة هذا الاتجاه، إلا أن الدراسة تنطلق من افتراض الوجود المادي والفعلي للجماعة الإسلامية كتنظيم ابتدا، من منتصف التسعينيات. وهناك العديد من المؤشرات المهمة الدالة علي هذا الوجود، أهمها علي الإطلاق أحد الحوارات التي أجرتها مجلة نداء الإسلام والتي تصدر عن جماعة "شباب الحركة الإسلامية" باستراليا مع الشيخ عبد الله سنجكار ذاته، في عدد فبراير- مارس ١٩٩٧، حيث أشار سنجكار إلي "الجماعة الإسلامية" باعتبارها أحد التنظيمات الإسلامية القائمة في إندونيسيا، وذلك في إطار تقسيمه للحركة الإسلامية في إندونيسيا إلي ثلاث فئات، هي: الأحزاب السياسية ذات التوجهات الإسلامية والتي اختارت العمل من داخل النظام السياسي والمشاركة في الانتخابات البرلمانية، والتنظيمات الإسلامية الاجتماعية التي اختارت العمل في مجالات التعليم والصحة والأنشطة الاجتماعية والتي لا تنطلق من الإسلام بشكل كامل خوفا من الاضطهاد من جانب النظام السياسي. وقد ذهب سنجكار إلي أن هاتين الفئتين لم تحققا حتى ذلك الوقت نجاحا ملحوظا علي صعيد السعي إلي إنشاء دولة إسلامية. وأخيرا تأتي الفئة الثالثة وهي "الجماعة الإسلامية" والتي اعترف سنجكار برئاستها، والتي تسعي إلي إقامة دولة إسلامية من خلال استراتيجية محددة تقوم علي عناصر ثلاثة، هي: الإيمان، والهجرة، والجهاد(١٨)، وهي عناصر تتطلب بطبيعتها التحرك في إطار تنظيمي.

ووفق المعلومات المتاحة حول الهيكل التنظيمي للجماعة الإسلامية يأتي علي قمة هذا الهيكل أمير الجماعة (أبو بكر بعاشير) بمعاونة "مجلس الشورى الإقليمي". ويقوم هذان المستويان بإدارة شئون الجماعة علي المستوي الإقليمي. أما علي مستوي دول المنطقة فتنقسم الجماعة إلي أربع مناطق رئيسية تغطي منطقة جنوب شرق آسيا بالإضافة إلي استراليا، وتشمل تلك المناطق: إندونيسيا، وماليزيا وسنغافورة، إقليمي صباح Sabah وسولاويزي وجنوب الفلبين، وأخيرا تغطي المنطقة الرابعة استراليا. وتنقسم كل منطقة بدورها إلي عدد من "الوكالات"، التي تنقسم بدورها إلي عدد من الوحدات أو الأقسام تشمل الوحدة الاقتصادية، ووحدة الدعوة، ووحدة الأمن، ووحدة الاتصالات، ووحدة العمليات التي تتكون من عدد من الخلايا يتراوح عدد كل منها بين أربعة إلي خمسة أعضاء(١٩). ويوضح الشكل رقم (٤ . ٢) الهيكل التنظيمي للجماعة علي مستوي منطقة جنوب شرق آسيا.

Abu Nour www.alkottob.com

شكل رقم (٤ ـ ٢)

الهيكل التنظيمي للجماعة الإسلامية في إندونيسيا ومنطقة جنوب شرق آسيا واستراليا

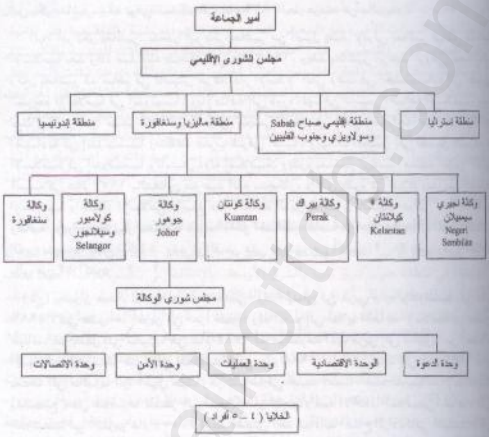

ويعتمد الهيكل التنظيمي للجماعة على بناء فضفاض يقوم على مجموعة من الخلايا المحدودة والمعزلة عن بعضها البعض إلى حد بعيد. كما تتفاوت درجة التنظيم من منطقة إلى أخري، فتتسم الجماعة على سبيل المثال في منطقة وسط جاوة بدرجة أعلي من التنظيم بالمقارنة بالمناطق الأخرى(٢٠). وقد تم إنشاء فرع الجماعة في سنغافورة في عام ١٩٩٩، حيث قام أبو بكر بعاشير عقب وفاة عبد الله سجكار في عام ١٩٩٩ باختيار إبراهيم مجي الدين Ibrahim Maidin كأمير لوكالة الجماعة في سنغافورة، الذي يقع تحت قيادة منطقة ماليزيا(٢١). وفيما يتعلق بالتمويل، يتضمن الهيكل التنظيمي للجماعة وحدة متخصصة تتوفر على إدارة الأنشطة الاقتصادية والتمويلية للجماعة تعرف "بالجهاز الاقتصادي" iqtisod. ويلاحظ علي عمل تلك الوحدة تركيزها علي تطوير مصادر للتمويل بعيدة المدى(٢٢).

Abu Nour www.alkottob.com

٢ . القيادات التنظيمية للجماعة

(أ) عبد الله سنجكار: هو القائد الأول للجماعة الإسلامية. و قد ولد عبد الله سنجكار في عام ١٩٣٧ لأسرة معروفة اشتهرت بالتجارة، وتنحدر من أصول يمنية بمدينة حضرموت. وقد اشتغل سنجكار بالدعوة الإسلامية، حيث قام في عام ١٩٦٩ بتأسيس إذاعة "الدعوة الإسلامية" والتي تم إغلاقها في عام ١٩٧٥، كما قام في عام ١٩٧٢بإنشاء "معهد المؤمن" بالتعاون مع أبي بكر بعاشير. وقد توفي سنجكار في عام ١٩٩٩ بعد عودته من ماليزيا.

(ب) أبو بكر بعاشير: ينحدر أبو بكر بعاشير من أصول يمنية. وتولي بعاشير قيادة الجماعة الإسلامية بعد وفاة عبد الله سنجكار في عام ١٩٩٩، وبعد بعاشير الزعيم الروحي للجماعة. وكان بعاشير قد ساهم في تأسيس حركة "دار الإسلام" التي دعت في الخمسينيات إلي تطبيق الشريعة الإسلامية في إندونيسيا. وبالإضافة إلي دوره المهم في تأسيس الجماعة الإسلامية، فقد لعب بعاشير دورا مهما أيضا في تأسيس "مجلس المجاهدين" الذي يعد واحدا من أهم الحركات الجهادية في إندونيسيا ومنطقة جنوب شرقي آسيا. ويهدف المجلس إلي تطبيق الشريعة الإسلامية في إندونيسيا وتأسيس دولة إسلامية. ويقوم بعاشير برئاسة "معهد المؤمن" الذي أسسه في عام ١٩٧٢ بالتعاون مع عبد الله سنجكار، والذي يقوم من خلاله بتدريس الدعوة الإسلامية والجهاد الإسلامي. ويبلغ عدد الطلبة الذين يدرسون بالمعهد حوالي ٢٠٠٠ طالب وطالبة. ويواجه بعاشير معارضة شديدة داخل الجماعة، خاصة من جانب قيادات الصف الثاني الذين يتهمونه بعدم الكفاءة. وقد تم القبض علي بعاشير في أكتوبر ٢٠٠٢ عقب وقوع أحداث بالي في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٢.

(ج) رضوان عصام الدين المعروف بالحنبلي: ولد الحنبلي في غربي جاوه بإندونيسيا في عام ١٩٦٦ لاثني عشر أخا آخرين في أسرة فقيرة. وقد انضم إلي خلايا الجماعة الإسلامية في مقتبل حياته، ثم انتقل إلي ماليزيا في عام ١٩٨٥ مع مجموعة المهاجرين إلي ماليزيا من أعضاء الجماعة، حيث سافر منها إلي أفغانستان في عام ١٩٨٨، واستقر هناك إلي عام ١٩٩٠ عاد بعدها إلي ماليزيا مرة أخري حيث ركز نشاطه في تجنيد أعضاء جدد للجماعة الإسلامية، وتشجيع بعض عناصرها للسفر إلي أفغانستان للجهاد ضد الاتحاد السوفيتي، ثم عاد إلي إندونيسيا في أكتوبر عام ٢٠٠٠. ويعد الحنبلي أحد قيادات الجناح الراديكالي المتشدد داخل الجماعة(٢٣). وتذهب الولايات المتحدة إلي أن الحنبلي يمثل أحد قيادات تنظيم القاعدة في منطقة جنوب شرق آسيا. وتقلد الحنبلي عدة مناصب داخل الجماعة الإسلامية، فهو قائد منطقة سنغافورة وماليزيا ، ورئيس "مجلس الشورى الإقليمي" للجماعة الذي يعد الجهاز المسئول عن صنع السياسات والقرارات علي المستوي الإقليمي. وتذهب المصادر الإندونيسية إلي أن الحنبلي يعد نائب أمير الجماعة والقائد العملياتي والفعلي لها، ومن ثم فهي تعتبر الحنبلي العقل المدبر للتفجيرات الرئيسية التي نفذتها الجماعة خلال الفترة (٢٠٠٠-٢٠٠٢). ويعد الحنبلي أحد قادة الجناح الراديكالي المتشدد داخل الجماعة الإسلامية الذي يرفض فكرة تجميد العنف أو ربط العنف بالبيئة الإقليمية والدولية، فضلا عن رفض فكرة العمل من داخل النظام السياسي أو التعاون مع القوي السياسية ذات التوجهات الإسلامية. وتشير كثير من المصادر إلي أنه يعد واحدا من أعضاء الجماعة الذين لعبوا دورا مهما في تطوير علاقتها بتنظيم القاعدة، بل وتذهب بعض التقارير الأمريكية إلي أن الحنبلي يعد أيضا القائد العملياتي لتنظيم القاعدة في منطقة جنوب شرق آسيا(٢٤).

Abu Nour www.alkottob.com

(د) فكر الدين مقتي، محمد إقبال عبد الرحمن المعروف بأبي جبريل: بعد محمد إقبال عبد الرحمن أو أبي جبريل القائد الثاني للجماعة بعد الحنبلي، وهو المسئول الأول عن تعبئة وتجنيد الأعضاء الجدد للجماعة الإسلامية، وأصبح في أغسطس ٢٠٠٠ عضو اللجنة التنفيذية لمجلس مجاهدي إندونيسيا. وقد تم القبض على أبي جبريل في ماليزيا في يونيو ٢٠٠١.

وفيما يتعلق بالخلفية الاجتماعية والتعليمية لأعضاء وقيادات الجماعة الإسلامية، تكشف قراءة الخلفيات الاجتماعية لأعضاء وقيادات الجماعة الذين تم القبض عليهم في مختلف دول المنطقة خلال السنوات الأخيرة عن التحسن النسبي لمستوياتهم المعيشية والتعليمية، من ناحية، وغلبة التعليم الفني والتطبيقي على أعضاء الجماعة خاصة في مجالات الهندسة والكمبيوتر والميكانيكا وتكنولوجيا المعلومات، من ناحية أخرى. ويتوافق ذلك مع ما ذهبت إليه بعض التحليلات من أن ذوي التعليم الفني والتطبيقي هم الأكثر استعدادا للاندماج في الحركات الإسلامية الراديكالية بالمقارنة بذوي الخلفية التعليمية الاجتماعية. وينطلق هذا التحليل من افتراض أن تأثر هؤلاء بالعلوم التطبيقية يلعب دورا مهما في قراءتهم الحرفية والحدية القاطعة للنصوص الدينية. وقد أكد هذا التفسير الرئيس عبد الرحمن وحيد ذاته في أحد أحاديثه أثناء زيارته لمدينة سيول الكورية في أبريل عام ٢٠٠٠، عندما أكد على أن الشباب في الدول النامية يميلون إلى تطبيق "التفكير القائم على النماذج والمعادلات" على النصوص الدينية(٢٥).

٣ . علاقة الجماعة الإسلامية بتنظيم القاعدة والتنظيمات الإسلامية في جنوب شرق آسيا

شهد العقد الأخير انفتاح الجماعة على عدد من التنظيمات والجماعات الإسلامية الجهادية المتشددة في منطقة جنوب شرق آسيا والشرق الأوسط، بالإضافة إلى تنظيم القاعدة، حيث تذهب العديد من التحليلات إلى أن بدء تطور تلك العلاقة يعود إلى أواخر النصف الثاني من عقد الثمانينيات من القرن الماضي. وفي هذا الإطار، شهدت الجماعة انفتاحا على جماعة "كومبولان ماليزيا" Kumpulan Militan Malaysia (KMM)، وجبهة تحرير مورو الإسلامية Moro Islamic Liberation Front (MILF). وقد تعددت أشكال تعاون الجماعة الإسلامية مع تلك الجماعات، وعلى سبيل المثال قامت الجماعة من خلال فرعها في سنغافورة بمساعدة جماعة كومبولان (التي تهدف أيضا إلى إقامة دولة إسلامية في منطقة جنوب شرق آسيا) في شراء سفينة لدعم عمليات الجهاد التي تقوم بها الجماعة في إندونيسيا، وفي المقابل قامت جماعة كومبولان بمساعدة الجماعة الإسلامية في الحصول على ثغرات الأمونيوم اللازمة لصناعة القنابل والمفرقعات المستخدمة في عمليات الجماعة. وبالإضافة إلى تلك الأشكال من التعاون والتداخل بين الجماعة الإسلامية وجماعة كومبولان، هناك تداخل آخر على مستوى العضوية، من خلال احتفاظ عدد من الأعضاء بالعضوية المشتركة بين التنظيمين.

ويأخذ التعاون بين الجماعة الإسلامية وجبهة تحرير مورو الإسلامية مستوى أكثر تقدما، خاصة في مجال التدريب. فقد سمحت جبهة تحرير مورو للجماعة الإسلامية في عام ١٩٩٧ بتأسيس معسكر للتدريب تحت إشراف الجماعة الإسلامية داخل معسكر "أبو بكر" التابع للجبهة، عُرف بمعسكر "الحديبية". وقد عمل فضل الرحمن الغوزي Fathur Rohman Al-Ghozi كخبير ومدرب في مجال المتفجرات بالتعاون مع جبهة تحرير مورو، فضلا عن دوره المهم كهمزة وصل بين الجماعة الإسلامية وجبهة مورو. ويوضح الشكل رقم (٤ ، ٣) أشكال التعاون بين الجماعة الإسلامية في إندونيسيا وبعض التنظيمات الإسلامية المتشدد في منطقة جنوب شرق آسيا وتنظيم القاعدة.

Abu Nour www.alkottob.com

شكل رقم (٤ - ٣)

علاقة الجماعة الإسلامية بالجماعات والتنظيمات الإسلامية المتشددة في جنوب شرق آسيا وتنظيم القاعدة

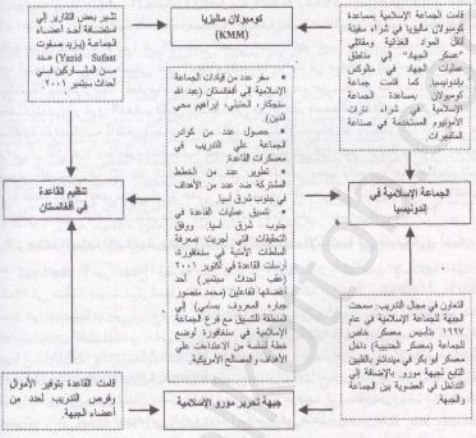

وتعود العلاقة بين الجماعة الإسلامية وتنظيم القاعدة إلي منتصف الثمانينات في ظل اتجاه الجماعة إلي تطوير كوادرها العسكرية والعملياتية، حيث قامت الجماعة بإرسال عدد من أعضائها إلي أفغانستان للحصول علي التدريب اللازم في معسكرات المجاهدين الإسلاميين هناك، والمشاركة في الجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفيتي. كما قام عدد من قيادات الجماعة، وعلي رأسهم عبد الله سنجكار والحنبلي، بزيارة أفغانستان، ولم تقتصر تلك العلاقات علي مجال التدريب فقط، ولكنها امتدت لتشمل اضطلاع الجماعة الإسلامية بتنسيق عدد من عمليات تنظيم القاعدة في منطقة جنوب شرق آسيا. وركزت الجماعة علي المساهمة في توفير الدعم اللوجيستي والفني اللازم لتلك العمليات دون المشاركة في مرحلة التنفيذ الفعلي. ووفق الخطط العملياتية التي كشفت عنها "الورقة البيضاء" التي أصدرتها وزارة الداخلية في سنغافورة في يناير ٢٠٠٣، اعتمد تنظيم القاعدة علي الجماعة الإسلامية في توفير التجهيزات الفنية واللوجيستية اللازمة لتلك العمليات كجزء من مسئولية الجماعة، علي أن تتولي القاعدة عملية التنفيذ الفعلي اعتمادا علي كوادرها الخاصة. مع ملاحظة أن ذلك لا ينفي اضطلاع الجماعة بتخطيط وتنفيذ عملياتها الخاصة في المنطقة.

Abu Nour www.alkottob.com

ولد تبع وقوع أحداث سبتمبر ٢٠٠١، ثم أحداث بالي في أكتوبر ٢٠٠٢، تأكيد العلاقة بين الجماعة الإسلامية وتنظيم القاعدة، سواء من جانب الولايات المتحدة الأمريكية واستراليا أو من جانب حكومات جنوب شرق آسيا، خاصة ماليزيا وسنغافورة. فقد ذهبت سنغافورة بعد قبض السلطات الأمنية هناك على خمسة عشر شخصا من المتشددين الإسلاميين في ١١ ديسمبر ٢٠٠١ بتهمة التخطيط لتفجير إحدى الأوتوبيسات التي تقل جنودا أمريكيين في سنغافورة، إلى أن ثلاثة عشر شخصا من هؤلاء ينتمون إلى خلايا الجماعة الإسلامية، بالإضافة إلى تلقي ثمانية منهم على الأقل التدريب في معسكرات القاعدة في أفغانستان. كما اعتمدت سنغافورة من ناحية أخرى في تأكيد تلك العلاقة على أحد شرائط الفيديو التابع للجماعة الإسلامية، والذي عثر عليه بمنزل محمد عاطف (أبو حفص المصري، الذي قتل أثناء إحدى الغارات الأمريكية في أفغانستان في ٢٠٠١/١١/١٦) في أفغانستان، أحد مساعدي أسامة بن لادن. ويعود الشريط إلى عام ١٩٩٩، حيث تضمن خططا للجماعة الإسلامية للهجوم على مواطنين أمريكيين، على نحو ما سيرد تفصيله بعد(٢٦).

ومن ناحية أخرى، تستند العديد من المصادر والتقارير الأمريكية في تأكيد تلك العلاقة إلى عدد من المؤشرات منها على سبيل المثال نتائج التحقيق مع عمر الفاروق، مسئول تنظيم القاعدة في جنوب شرق آسيا والمكلف بتنسيق عملياتها في المنطقة، والذي تم القبض عليه في إندونيسيا في يونيو ٢٠٠٢ وتم تسليمه إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ووفق المصادر الأمريكية فقد كشف الفاروق خلال التحقيقات التي أجريت معه أن تنظيم القاعدة قد حصل على دعم مادي وعملياتي من الجماعة الإسلامية، وأن المرشد الروحي للجماعة أبو بكر باعشير قد سمح له بالحصول على دعم الجماعة الإسلامية في تنفيذ بعض التفجيرات، بالإضافة إلى ما أعلنته أجهزة الاستخبارات الأمريكية من نجاحها في تعقب بعض الاتصالات التي أجراها فضل الرحمن الغوزي، عضو الجماعة الإسلامية، كان أحد تلك الاتصالات بعمر الفاروق(٢٧).

غير أنه في المقابل ترفض الحكومة الإندونيسية وجود أية صلة قاطعة بين الجماعة الإسلامية وتنظيم القاعدة، وعلى الرغم من اعتراف الحكومة الإندونيسية بمسئولية الجماعة عن تفجيرات بالي (٢٠٠١) وأعياد الميلاد (٢٠٠٠)، بل واعتراف الشرطة الإندونيسية في الرابع والعشرين من نوفمبر ٢٠٠٢ بالعثور على العديد من الكتب والأقراص المدمجة تحوي خطبا ومحاضرات لأسامة بن لادن، زعيم القاعدة، في منزل إمام ساموردا (المعروف بـ عبد العزيز)، أحد المتهمين الرئيسيين في تفجيرات بالي ورزيم الجنبة التي قامت بتنفيذ تلك التفجيرات(٢٨)، إلا أنه مازال هناك خلاف شديد داخل الحكومة الإندونيسية حول علاقة الجماعة بتنظيم القاعدة (٢٩).

وفي إطار هذا التناقض، ربما يكون من الأجدر فهم الموقف الرسمي للحكومة الإندونيسية من قضية علاقة الجماعة الإسلامية بتنظيم القاعدة في إطار عاملين رئيسين. الأول هو الصراع بين أجنحة ومؤسسات النظام السياسي الإندونيسي فيما يتعلق باستراتيجية التعامل مع الجماعة الإسلامية والتيار الإسلامي بشكل عام، على نحو ما سيتم تناوله فيما بعد، بالإضافة إلى التعقيدات والتداعيات التي ربما تترتب على تبني إندونيسيا لوجهة النظر الأمريكية خاصة فيما يتعلق باحتمالات ممارسة الولايات المتحدة المزيد من الضغوط لتطبيق "النموذج الفلبيني- الأمريكي" في مواجهة جماعة أبو سياف على حالة الجماعة الإندونيسية، وهو ما قد يؤدي إلى آثار سلبية شديدة على المجتمع الإندونيسي الذي لا يزال يعتقد قسم مهم منه في نظرية "المؤامرة" الأمريكية والغربية ضد الإسلام، والتي لا تستبعد تورط الجيش الإندونيسي ذاته في تلك المؤامرة. الثاني، هو ضرورة التفرقة بين العلاقة التنظيمية والمؤسسية وتلك القائمة على مجرد التأثر والإعجاب. وواقع الأمر فإن العلاقة بين الجماعة الإسلامية وتنظيم القاعدة قد لا تتجاوز في

Abu Nour www.alkottob.com

حقيقتها مجرد التأثر بتنظيم القاعدة وطالبان والتعامل مع أفغانستان الطالبانية باعتبارها نموذجا للدولة الإسلامية، فضلا عن التعامل مع القاعدة باعتبارها مصدرا لتمويل وتنفيذ عمليات الجماعة. وقد عكس هذا التأثر بشكل واضح المراسلات التي تمت بين بعض قيادات الجماعة والملا محمد عمر، والتي طلبت من الأخير إقناع الجماعة بشأن بعض القضايا والإشكاليات التي واجهتها، أو طلب مساعدتها في بعض الأمور.

ثالثا: الأهداف - استراتيجيات العمل - البناء الفكري للجماعة الإسلامية

١ . أهداف الجماعة الإسلامية

يتمثل الهدف النهائي للجماعة في إنشاء دولة إسلامية في منطقة جنوب شرق آسيا، على أن تبدأ نواة تأسيس تلك الدولة في إندونيسيا، ثم تتسع لتشمل كلا من ماليزيا وسنغافورة وبروناي وجنوب الفلبين. وتتبنى الجماعة مبدأ "الجهاد" الإسلامي كاستراتيجية محورية للوصول إلى هذا الهدف. وتستند الجماعة في هذا السياق إلى استراتيجية عمل تقوم على ثلاثة عناصر رئيسية حددها الشيخ عبد الله سنجكار في: قوة العقيدة، وقوة الأخوة، وأخيرا القوة المسلحة. وقد ركزت الجماعة في المراحل الأولى على إعادة بناء المجتمع الإندونيسي من خلال نشر التعليم الديني اعتمادا على مدرسة المؤمن، وتربية الدعاة، وتشكيل الخلايا والجماعات الصغيرة التي تلتزم بتطبيق الشريعة الإسلامية فيما بينها، إلا أنه سرعان ما تحولت الجماعة ابتداء من منتصف الثمانينيات إلى التركيز على بناء قدراتها العسكرية على نحو سبق تناوله.

ومن ناحية أخرى، أدت مجموعة التحولات التي شهدتها الجماعة، والتي سبقت الإشارة إليها، وانفتاحها على تنظيم القاعدة وبعض الجماعات الإسلامية المتشددة في العالم العربي، إلى حدوث تحول مهم في أهداف الجماعة وآليات عملها. فبدلا من الاقتصار على هدف إنشاء دولة إسلامية في منطقة جنوب شرق آسيا دعت بعض الاتجاهات داخل الجماعة إلى إنشاء خلافة إسلامية جديدة. وقد تبع ذلك تأثر الجماعة بمفهوم الجهاد الذي تبنته القاعدة والذي تركز على الهجوم على المصالح والأهداف الغربية، والأمريكية بشكل خاص، الأمر الذي انعكس على طبيعة آليات وأدوات عمل الجماعة ابتداء من نهاية عقد التسعينيات. وفي سياق هذا التحول المهم قامت الجماعة في عام ١٩٩٩ بتحويل عدد من خلايا الدعوة والخلايا ذات النشاط الاقتصادي إلى "خلايا عملياتية". ولم يقتصر ذلك على خلايا الجماعة في إندونيسيا فقط، ولكنه شمل كلا من ماليزيا وسنغافورة أيضا. وفي خطوة أكثر تقدما نحو مزيد من الراديكالية، قامت الجماعة في عام ١٩٩٩ بتأسيس "رابطة المجاهدين" من خلال تحالف الجماعة مع عدد من الجماعات والتنظيمات الجهادية المتشددة في منطقة جنوب شرق آسيا، شمل "جبهة مورو"، وبعض الجماعات الجهادية غير المعروفة التي تعمل انطلاقا من بنجلادش وتايلاند. وقد هدف هذا التحالف إلى توحيد الجماعات الجهادية في المنطقة وتعبئة الموارد الاقتصادية والمالية لتلك الجماعات بهدف الوصول إلى إنشاء دولة إسلامية في المنطقة(٣٠). وكانت تلك التحولات مقدمة مهمة لتبني الجماعة سلسلة من الهجمات ضد المصالح الأمريكية والغربية ابتداء من عام ٢٠٠٠، والتي عبرت عن تحول مهم في آليات واستراتيجيات عمل الجماعة الإسلامية.

وفي إطار سعي الجماعة إلى إنشاء دولة إسلامية واهتمامها بقضية الخلافة الإسلامية فقد واجهت عددا من الإشكاليات، جاء في مقدمتها تكييف وضع الدولة الأفغانية بقيادة الملا محمد

Abu Nour www.alkottob.com

عمر، خاصة بعد أن لُقب بأمير المؤمنين، وما إذا كانت أفغانستان تمثل نموذجا حقيقيا للدولة الإسلامية، وما هي تداعيات هذه التطورات؟ وهل يفرض ذلك على المسلمين الذين يعيشون في دول غير إسلامية، مثل إندونيسيا، الهجرة إلى أفغانستان؟ وعلى من تجب تلك الهجرة؟ فهل تقع على بعضهم أو جميعهم؟ وما هو موقف المساجد والمؤسسات الإسلامية في حالة وجوب الهجرة الجماعية على جميع المسلمين؟ كما شكلت المملكة العربية السعودية إحدى الإشكاليات المهمة التي واجهت الجماعة بعد إعلان بيعته للملا عمر أميرا للمؤمنين فما هو موقف المسلمين في المملكة، وما هو الموقف من حكامها؟ وما إذا كان صحيحا عدم جواز خلعهم رغم موالاتهم "للكفار" (الولايات المتحدة الأمريكية والغرب). وقد دفعت تلك الإشكاليات بأمير الجماعة في سنغافورة، إبراهيم صحي الدين، إلى إرسال خطاب إلي الملا عمر في الثالث من شهر مايو عام ٢٠٠٠، طالبا منه الإفادة بشأن حقيقة توليه منصب "أمير المؤمنين"، وإفتاء الجماعة بشأن تلك الإشكاليات. كما طلب منه في حالة عدم صحة توليه منصب "أمير المؤمنين" أن يقوم بدعوة علماء المسلمين لانتخاب خليفة شرعي للمسلمين واعتبار ذلك من الأمور الخطيرة التي يجب حلها في أقرب وقت ممكن(٣١).

٢ . المصادر الفكرية للجماعة الإسلامية

تتسم المصادر الفكرية للجماعة الاسلامية في إندونيسيا بالتنوع والتعدد، فبالإضافة إلي تأثر قادة الجماعة بخبرة "دار الإسلام"، إلا أنهم تأثروا أيضا بالحركات الإسلامية في العالم العربي خاصة جماعة الإخوان المسلمين والحركات الإسلامية الراديكالية في مصر. وعلي سبيل المثال، كان التأثر ببعض أفكار جماعة الإخوان المسلمين أكثر وضوحا فيما يتعلق بفكرة "الأسرة"، والتركيز علي أهمية بناء المجتمع المسلم كشرط ضروري لبناء الدولة الإسلامية. كما كان التأثر بالحركات الإسلامية الدينية الجهادية المصرية، خاصة الجماعة الإسلامية، أكثر وضوحا فيما يتعلق بالاعتماد علي البناء والهيكل التنظيمي الجامد والمحكم، والاعتماد علي العنف كتكتيك رئيسي ورفض التعامل مع النظام السياسي من الداخل أو التعاون مع القوي السياسية الأخرى بما في ذلك ذات التوجه الإسلامي، فضلا عن الاعتماد علي آلية العمل السري. كما تأثر الشيخ أبو بكر باعشير بالعديد من الشخصيات الإسلامية الأخرى في المنطقة مثل الشيخ تقي الدين النبهاني قائد حزب التحرير في الأردن. ولم يقتصر هذا التأثر علي الجوانب الفكرية والتنظيمية فقط، ولكنه امتد ليشمل أيضا الجوانب المظهرية مثل ارتداء "الجلباب" العربي والتلثم بالأسماء والألقاب العربية. ومن العوامل التي ساعدت علي تأثر الجماعة بالجماعات الإسلامية في العالم العربي هو سهولة اطلاعها علي الأعمال الفكرية لمفكري تلك الجماعات ومعرفة معظم أعضاء وقيادات الجماعة باللغة العربية.

غير أنه رغم هذا التأثر، يصعب تصنيف الجماعة الإسلامية في إندونيسيا بشكل محدد ودقيق، وهي في الأغلب أقرب إلي هجين نتاج التوفيق بين مختلف أنماط التيارات والحركات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي. وعلي سبيل المثال تميزت الجماعة الإسلامية في إندونيسيا باستهدافها المسيحيين، ويعزي ذلك - في أحد جوانبه- إلي ارتباط عبد الله سنجكار به "مجلس الدعوة الإسلامية" في إندونيسيا والذي انشغل إلي حد كبير بقضية النشاط التبشيري في إندونيسيا باعتباره تهديدا خطيرا لاستقرار الإسلام في إندونيسيا(٣٢)، فضلا عن تزايد قلق الأغلبية الإندونيسية المسلمة حول مستقبل الهوية الإسلامية للمجتمع الإندونيسي بسبب تزايد الأنشطة التبشيرية. وقد تعمق هذا القلق بعد تجربة انفصال تيمور الشرقية مما أدت إليه من تزايد الاقتناع لدي قطاعات واسعة من الشعب الإندونيسي بدور مسيحي إندونيسيا والغرب في تكريس الانفصال.

Abu Nour www.alkottob.com

٣ . البناء الفكري للجماعة

(أ) الموقف من النظم السياسية

قامت الجماعة على رفض فكرة العمل من داخل النظام السياسي، سواء من خلال المشاركة في الانتخابات والعمل المباشر من داخل البرلمان، أو من خلال التعاون مع القوى السياسية الأخرى بما في ذلك القوى ذات التوجهات الإسلامية التي تسعى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد. وقام مؤسس هذه الجماعة أبو بكر عباسي عبد الله سنجكار على أن التعاون مع تلك القوى أو النظام السياسي غير الإسلامي من شأنه "النيل من العقيدة". كما أنكر سنجكار اقتراح فؤاد أمسياري Fuad Amsyari الذي شغل بعد ذلك منصب سكرتير مجلس المجاهدين الإندونيسيين) العمل من خلال البرلمان الإندونيسي أو المشاركة في دعم القوى الحزبية ذات التوجهات الإسلامية بدلا من العمل من خارج النظام السياسي. واتساقا مع تلك الرؤية تبنت الجماعة الإسلامية موقفا مختلفا عن باقي الجماعات الإسلامية الراديكالية في إندونيسيا، خاصة "عسكر جهاد" و"جبهة الدفاع عن الإسلام"، فبينما انطلقت هاتان الجماعتان من تحريم الثورة على الحكومة الإسلامية مهما كانت جائرة أو متسلطة، فقد انطلقت الجماعة الإسلامية من جواز الجهاد ضد "أعداء الإسلام" حتى وإن كانوا حكاما مسلمين، انطلاقا من أن الخلافة الإسلامية هي شكل الحكم الوحيد الذي يمكن قبوله(٣٣١).

غير أنه مع تولي أبي بكر باعشير قيادة الجماعة في عام ١٩٩٩ وإنشاء "مجلس المجاهدين" وفي ظل النظام السياسي نحو مزيد من الانفتاح السياسي، شهدت الجماعة انقساما شديدا بشأن إمكانية التعاون مع القوى السياسية والحزبية ذات التوجهات الإسلامية والتي تدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. وفي هذا السياق تياران رئيسان، الأول هو التيار المعتدل، ويمثله أبو بكر باعشير، ويرى ضرورة انتهاز الانفتاح النسبي للنظام السياسي في إندونيسيا بعد انتهاء نظام سوهارتو وإمكانية التعاون مع بعض القوى السياسية الأخرى ذات التوجهات الإسلامية، فضلا عن ضرورة تجميد تكتيكات العنف بسبب عدم ملائمة التوقيت الزمني لمثل تلك التكتيكات. أما التيار الثاني فهو التيار الراديكالي ويمثله معظم أبناء الجيل الثاني من الجماعة، وعلى رأسهم رضوان عصام الدين (الحنبلي) وإمام سامودرا، وعلي غفرون Ali Gufron المعروف بمخلص Muchlas، وعبد الله أنشوري. ويرفض هذا الاتجاه أي تعديل على مبادئ الجماعة كما أسسها الشيخ عبد الله سنجكار.

وقد اتسعت هوة الخلاف بين هذين التيارين بعد تأسيس مجلس المجاهدين. فمرغم التوجه الراديكالي الذي اتخذه المجلس فيما يتعلق ببعض القضايا إلا أن التيار الراديكالي ذهب إلى أن تورط الجماعة في تأسيس هذا المجلس يمثل خروجا عن مبادئ وأفكار الجماعة كما أسسها سنجكار، خاصة فيما يتعلق بأولوية العمل السري إلى حين توفر الظروف المواتية لتأسيس الدولة الإسلامية. وفي هذا الإطار، فقد رفض التيار الراديكالي ترحيب مجلس المجاهدين التعاون مع ممثلي الأحزاب السياسية ذات التوجهات الإسلامية انطلاقا من التعاليم السابقة لعبد الله سنجكار. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن عدم كفاءة أبي بكر باعشير لتولي قيادة الجماعة، الأمر الذي أدى إلى سيطرة الحنبلي والتيار الراديكالي على عملية صنع السياسات الخاصة بالجماعة ومن ثم تورطها في عمليات التفجيرات والعنف خلال العامين الأخيرين، خاصة تفجيرات أعياد الميلاد في عام ٢٠٠٠، ثم تفجيرات بالي في عام ٢٠٠٢.

(ب) الجهاد / العنف

ولم يقتصر الخلاف بين التيارين المعتدل والراديكالي على قضية الانفتاح النسبي على النظام

Abu Nour www.alkottob.com

السياسي، ولكنه امتد ليشمل الموقف من العنف. فقد ذهب التيار المعتدل بقيادة بعاشير إلى ضرورة تجنيد العنف بداعي عدم ملائمة الظرف الزمني الراهن وأن تزايد اعتماد الجماعة على العنف من شأنه أن يضر بها خلال تلك المرحلة(٣٤) مع ملاحظة أن بعاشير لم يرفض جدوى استخدام العنف بشكل عام، ولكنه ذهب إلى ضرورة ربط استخدام العنف بالتوقيت الزمني. ويتوافق مع موقف بعاشير تعريفه للمفهوم الجهاد، حيث ينبني مفهوما للجهاد أقرب إلى الدفاع منه إلى الهجوم، إذ يقول في حديث له في إحدى حلقات برنامج "نقطة ساخنة"، على قناة الجزيرة القطرية، والتي أذيعت في ٢٠٠٢/١١/١٤ " مفهوم الجهاد الذي كنت أدرسه للتلاميذي كما بين القرآن والسنة، هو الجهاد لإقامة الدين، لإعلاء كلمة الله. عندما يهاجمنا هؤلاء نحن ندافع طبعا .. نحن ندافع .. ندافع عن ديننا وندافع عن أنفسنا، إذا كان هؤلاء يهاجموننا بالسلاح طبعا نحن ندافع بالسلاح هذا هو الجهاد"(٣٥) ويلاحظ تكرار كلمة "ندافع" في تعريفه للجهاد خمس مرات الأمر الذي يعكس محورية مستوى الدفاع في مفهومه للجهاد.

وفي المقابل يرى التيار الراديكالي أهمية الاعتماد على العنف كتكتيك محوري في عمل الجماعة. ويعد هذا التيار هو الأكثر تأثرا بتنظيم القاعدة وطالبان. وقد تبني مفهوما للجهاد أكثر اتساعا، سواء فيما يتعلق بالتعريف ليشمل بعدا هجوميا، أو فيما يتعلق بالأهداف ليتجاوز النظم السياسية الحاكمة في منطقة جنوب شرق آسيا أو المسيحيين من مواطني دول المنطقة؛ ليطول المصالح الأمريكية والغربية ومواطني تلك الدول، وهو ما عكسته سلسلة التفجيرات المنسوبة إلى الجماعة ابتداء من عام ٢٠٠٠، سواء تلك التي تم تنفيذها أو المخططة والتي تم إجهاضها لسبب أو لآخر، ولغة الخطاب المستخدم من قبل الجماعة ومحورية مفردات "اليهود" و"النصارى" و"المشركين". وعلي سبيل المثال فقد أنهي إبراهيم محي الدين، أمير الجماعة في سنغافورة، خطابه إلي الملا عمر في ١٦ أغسطس ١٩٩٩، بدعوته أن يأخذ الله "العيون والأخبار عن اليهود والنصارى والمشركين"(٣٦). كما اعترف العمري، أحد المسئولين عن تنفيذ تفجيرات بالي، أنه ومجموعته كانوا يهدفون من وراء التفجيرات قتل أكبر عدد ممكن من الأمريكيين، وأن تلك التفجيرات جاءت انتقاما من الولايات المتحدة بسبب قمعها للإسلام والمسلمين واعتدائها على العراق وأفغانستان وانحيازها المطلق لإسرائيل(٣٧).

رابعا: الأنشطة الرئيسية للجماعة الإسلامية خلال الفترة ٢٠٠٠-٢٠٠٢

قائمة بأهم التفجيرات التي قامت بها الجماعة الإسلامية خلال العامين الأخيرين:

تجدر الإشارة أولا إلي ملاحظة مهمة، وهي أنه رغم تعدد العمليات التي نسبت إلي الجماعة الإسلامية، سواء تلك التي تم تنفيذها بالفعل أو تلك التي تم التخطيط لها ولكن لم يتم تنفيذها لسبب أو لآخر، إلا أنه لا توجد أدلة قاطعة علي قيام الجماعة بجميع تلك العمليات، وذلك رغم أن بعضها قد نُسب إلي الجماعة عن طريق الحكومة الإندونيسية ذاتها. فقد أصبح العنف، بأغاطه وصوره المختلفة، أحد الظواهر الأساسية التي ميزت المجتمع الإندونيسي خاصة منذ سقوط نظام سوهارتو في مايو ١٩٩٨، ومن ثم لا يعدو العنف الذي يمارسه التيار الإسلامي الراديكالي في إندونيسيا كونه أحد أنماط ظاهرة العنف في المجتمع الإندونيسي، جنبا إلي جنب مع أنماط أخري عديدة مثل العنف ضد الصينيين الإندونيسيين من أصل صيني)، والعنف ضد الأقلية المسيحية، فضلا عن العنف الذي تمارسه الحركات الانفصالية بأنواعها المختلفة. وعلي سبيل المثال، قُدر عدد ضحايا العنف الإسلامي- المسيحي في منطقة

Abu Nour www.alkottob.com

مالوكو Maluku بمفردها خلال الفترة من يناير ١٩٩٩ إلي أكتوبر ٢٠٠١ بحوالي ٥٠٠٠ شخص. كما أصبحت تفجيرات القنابل أحد الظواهر الشائعة، فمنذ مايو ١٩٩٨ (سقوط سوهارتو) إلي ديسمبر ١٩٩٨، بلغ عدد تفجيرات القنابل (٦) حالات فقط، ارتفعت إلي (٢٠) حالة خلال عام ٢٠٠٠ (٣٨)، لا يمكن نسبتها جميعا إلي التيار الإسلامي بمفرده.

أولا: الأعمال المنفذة

عام ٢٠٠٠:

- أغسطس ٢٠٠٠: تفجير قنبلة أمام منزل سفير الفلبين في إندونيسيا، أسفر عن مقتل اثنين وجرح ٢٠ وقام بتنفيذ هذا التفجير "رابطة المجاهدين" انتقاما من الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الفلبينية ضد جبهة مورو. ويقال إن الحنبلي هو المسئول عن تدبير وتخطيط هذا التفجير(٣٩).

- ديسمبر ٢٠٠٠ (تفجيرات أعياد الميلاد): علي الرغم من اعتماد تلك التفجيرات علي تقنية محدودة المستوي إلا أنها تميزت بدرجة عالية من التنسيق والتركيز علي عنصري التزامن والانتشار الجغرافي علي أكبر عدد ممكن من الكنائس والمنشآت المسيحية، بهدف إحداث أكبر قدر ممكن من الذعر والخوف لدي المسيحيين في إندونيسيا. فقد اعتمدت تلك التفجيرات علي قنابل بسيطة، إلا أنها شملت ٣٨ كنيسة ومنشأة مسيحية موزعة علي إحدى عشرة مدينة إندونيسية، تركزت خلال الفترة من الساعة الثامنة والنصف إلي العاشرة مساء، أي خلال مدة لا تتجاوز ساعة ونصف فقط. وقد ترتب علي تلك التفجيرات مقتل تسعة عشر شخصا وإصابة حوالي مائة وعشرين آخرين بجروح مختلفة بالإضافة إلي بعض الخسائر المادية (٤٠). كما شهد الشهر نفسه تفجيرا (بالقنابل) لأحد القطارات في مانيلا (الفلبين)، أسفر عن مقتل ٢٢ شخصا. ووفق نتائج تحقيقات الشرطة الفلبينية فإن فضل الرحمن الغزي المسئول عن صنع القنابل في الجماعة الإسلامية هو المسئول عن تلك التفجيرات. وقد كشف الغزي عن مسئولية الجماعة الإسلامية عن تنفيذ تلك التفجيرات(٤١).

عام ٢٠٠١:

- ٢٢ يوليو ٢٠٠١ : هجوم بالقنابل علي كنيستي Gereja HKBP، و Gereja Santa Anaفي شرق جاكرتا، أسفر أحدهما عن جرح خمسة أفراد، و ٦٤ في الآخر.

- ١ أغسطس ٢٠٠١ تفجير قنبلة بمدخل مركز أتريوم التجاري Atrium Mallبوسط جاكرتا. وكشفت التحقيقات عن أن المركز التجاري لم يكن هو هدف الهجوم، بسبب انفجار القنبلة قبل موعدها المحدد. وقد أسفر الانفجار عن جرح ستة أفراد من بينهم حامل القنبلة. ورغم أن الشرطة الإندونيسية نسبت العملية إلي حركة أنشيه، إلا أن السلطات الماليزية استطاعت تمييز حامل القنبلة ويدعي توفيق عبد الحليم والمعروف بـ "الداني"، وهو ماليزي الجنسية(٤٢). وقد ذهب عمر الفاروق في اعترافاته أن توفيق عبد الحليم كان يهدف إلي اغتيال ميجاواتي، مما دفع الداني إلي الاعتراف بأنه كان يستهدف الصلوات الكاثوليكية الجماعية التي كانت تقام بأحد المباني الملحقة بالمركز التجاري.

- ٩ نوفمبر ٢٠٠١ : تفجير قنبلة بشمال جاكرتا في Gereja Petra

عام ٢٠٠٢:

- ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٢ : تفجير قنبلة بالقرب من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بجاكرتا

- ١٢ أكتوبر ٢٠٠٢ :(تفجيرات بالي) : أودت تلك التفجيرات بحياة أكثر من ٢٠٠ شخص. وبلغ

Abu Nour www.alkottob.com

عدد منفذي الهجوم حوالي عشرة أفراد. وقد جاء الهجوم وفق تصريحات العمروسي - أحد منفذي الهجوم- كنوع من الانتقام من الولايات المتحدة الأمريكية بسبب سياساتها تجاه الإسلام والعالم الإسلامي، وحربها ضد أفغانستان، بالإضافة إلى سياستها المتحازة إلى جانب إسرائيل(٤٣).

٢٠٠٢/١٢/٥: تفجير قنبلة في أحد المطاعم الأمريكية للوجبات السريعة (ماكدونالدز) في مدينة ماكاسار بإقليم سولاويزي، نتج عنه مقتل ثلاثة أشخاص وإصابة أحد عشر شخصا، بالإضافة إلى تدمير المطعم وإلحاق أضرار مادية أخرى بمعرض للسيارات بالقرب من موقع التفجير. ذهبت الشرطة الإندونيسية إلى أن منفذي التفجير ينتمون إلى الجماعة الإسلامية، وأن المشتبهين الرئيسيين في التفجير يعترفون أعضاء ممن اعترفوا بالضلوع في تفجيرات بالي(٤٤).

ثانيا: الأعمال المخططة التي لم تنفذ

بالإضافة إلى القائمة السابقة، أشارت العديد من المصادر في إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة والفلبين إلى قائمة أخرى من الاعتداءات والعمليات التي تم التخطيط لها ولكن لم يتم تنفيذها بسبب اكتشافها مسبقا أو بسبب القبض على مخططيها، أو بسبب تعديل الجماعة لخطتها. وفي هذا السياق يمكن أن نشير إلى عدد من الخطط البارزة التي تم الكشف عنها خلال عامي ٢٠٠٢-٢٠٠٣.

وفق "الورقة البيضاء" الصادرة عن وزارة الداخلية في سنغافورة السابق الإشارة إليها، قام فرع الجماعة الإسلامية في سنغافورة منذ منتصف التسعينيات بتطوير ووضع عدد من الخطط لتنفيذ مجموعة من العمليات ضد أهداف أمريكية وغربية، كما أدى وقوع أحداث سبتمبر ٢٠٠١ إلى تشجيع الجماعة على استهداف أهداف جديدة، وتعديل بعض خططها بما يتلاءم مع البيئة الأمنية الجديدة لأحداث سبتمبر ومتطلبات حالة الجهاد ضد الولايات المتحدة الأمريكية انتقاما لاعتداءاتها ضد أفغانستان. وفي أكتوبر ٢٠٠١ دعا إبراهيم محي الدين أمير الجماعة في سنغافورة مجموعة من أعضاء، وخلالها الجماعة في سنغافورة لتنفيذ عدد من العمليات والأنشطة "الجهادية" بدءا من الصلاة والدعاء للشعب والحكومة الأفغانية إلى المشاركة في عمليات جهادية مسلحة سواء داخل سنغافورة أو خارجها، ومرورا بجمع الأموال اللازمة لمساعدة الشعب الأفغاني وتمويل الأنشطة الجهادية. وتم تحديد أربع خلايا رئيسية داخل سنغافورة تكون مسئولة عن تلك الأنشطة، وهي: خلية أيوب، وخلية موسى، وخلية إسماعيل، وخلية يعقوب.

وركزت تلك الخطط على استهداف عدد من المؤسسات الغربية، بالإضافة إلى المواطنين الغربيين خاصة الأمريكيين، جنبا إلى جنب مع عدد من الأصول والمؤسسات والأهداف الوطنية. وقد أشارت الورقة المذكورة إلى التزام الجماعة بتقديم الدعم اللوجستي اللازم لعمليات القاعدة المخططة في سنغافورة ضد الأهداف الغربية، وذلك كجزء من التزامها بمفهوم الجهاد العالمي الذي يلتزم به تنظيم القاعدة. وبالإضافة إلى الأهداف الغربية، فقد ضمت تلك الخطط أيضا عددا من الأهداف والأصول والمؤسسات الوطنية في سنغافورة كجزء من آليات الجماعة لخلق بيئة إقليمية غير مستقرة في منطقة جنوب شرق آسيا تساهم في تحقيق هدف بناء دولة إسلامية في المنطقة.

وكشفت الورقة أيضا عن أن الجماعة قد طورت منذ منتصف التسعينيات ست خطط على الأقل لتنفيذها في سنغافورة وحدها. وقد اعتمدت في هذا الإطار آليات شبه متكررة في صياغة ووضع تلك الخطط، قامت على تصوير المواقع المستهدفة على شرائط فيديو لأكثر من مرة حتى يتم وضع تلك الخطة وصياغتها بشكل نهائي. وقد عثرت أجهزة الأمن في سنغافورة على خمسة شرائط فيديو في منازل وعقار إقامة عدد من أعضاء الجماعة، تضمنت خططا لتفجير عدد من المواقع والأهداف المقترحة كان من

Abu Nour www.alkottob.com

بين تلك الشرائط الخطة الخاصة بالهجوم على عدد من المواطنين الأمريكيين أثناء توجههم إلى محطة قطار "يي شن" Yishun MRT وهو الشريط الذي عثرت الولايات المتحدة الأمريكية على نسخة منه في منزل أحد مسئولي تنظيم القاعدة في أفغانستان، حيث استندت إليه سنغافورة والولايات المتحدة للتأكيد على وجود علاقة بين الجماعة الإسلامية وتنظيم القاعدة. ونعرض فيما يلي باختصار الخطط الأبرز للجماعة :

الخطة الأولى: تفجير عدد من القنابل ضد الأهداف الأمريكية. واستندت تلك الخطة إلى تقديم خلية موسى" بسنغافورة الدعم اللوجستي لتنظيم القاعدة لتنفيذ عدد من التفجيرات باستخدام القنابل ضد أهداف أمريكية وغربية في سنغافورة. وكان من المفترض أن يتم تنفيذ تلك الخطة خلال الفترة من ديسمبر ٢٠٠١ إلى يناير ٢٠٠٢، أو أبريل - مايو ٢٠٠٢. وكانت تلك الخطة من أكثر خطط الجماعة تنظيما وتطورا بالمقارنة بالخطط الأخرى ، وأظهرت حجم التعاون بين الجماعة وتنظيم القاعدة. *حتى أواخر سبتمبر ٢٠٠١ قام عضو الجماعة بسنغافورة فايز بن أبو بكار بافانا المعروف بـ* فايز) Faiz ben Abou Bakar Bafana بتكليف خليه "موسى" من خلال أخيه فتحي أبو بكار عضو الخلية للاستعداد لتقديم الدعم اللوجستي لإحدى العمليات التي يعتزم تنظيم القاعدة تنفيذها في سنغافورة ضد عدد من الأهداف الأمريكية، حيث قام أحد أعضاء تنظيم القاعدة بالفعل بزيارة سنغافورة في أكتوبر ٢٠٠١ قابل خلالها عددا من أعضاء الخلية (عدنان بن موسى، ومحمد نذير محمد عثمان، وإلياس، وفتحي أبو بكار)، وتضمنت خطة عضو تنظيم القاعدة الهجوم على السفارة الأمريكية والقواعد البحرية الأمريكية في سنغافورة باستخدام القنابل، بالإضافة إلى الأهداف التي يقترحها أعضاء الخلية، حيث أضاف هؤلاء إلى تلك الأهداف بعض المؤسسات البريطانية والأسترالية بسبب قربها من السفارة الأمريكية. وقام أعضاء الخلية بترتيب بعض الزيارات لبعض القاعدة إلى تلك المواقع وتصويرها على شرائط فيديو وتحميلها على اسطوانات كمبيوتر وإرسالها إلى عضو القاعدة. وقد عثرت السلطات الإندونيسية على نسخة من هذه الاسطوانة في مكتب فتحي أبو بكار في ٩ ديسمبر ٢٠٠١، مما أدي إلى إجهاض تلك الخطة.

ولم يقتصر الدعم اللوجستي على تجهيز شرائط الفيديو الخاصة بالمواقع المستهدفة فقط، ولكنه شمل توفير المواد اللازمة لتصنيع القنابل المستخدمة في التفجيرات. وفي المقابل شمل دور تنظيم القاعدة تصنيع القنابل ثم تنفيذ العمليات. وكان من المقرر أن يقوم تنظيم القاعدة بإحضار الأفراد المكلفين بتنفيذ تلك العمليات إلى سنغافورة على أن يقوم أعضاء خلية موسى بمغادرة سنغافورة قبل التنفيذ بيوم واحد، بعد إفادة أعضاء القاعدة بطبيعة المواقع المستهدفة وطريقه الوصول إليها ....الخ، حيث تقع مسئولية تنفيذ تلك العمليات على تنظيم القاعده بالكامل ابتداء من تصنيع القنابل إلى نقلها إلى مواقع العمليات وتفجيرها. وقد أدى القبض على أعضاء خلية موسى(*) إلى إجهاض تلك الخطة.

وقد حاول الحنبلي بعد القبض على أعضاء الخلية إحياء تلك الخطة وتنفيذها ولو علي مستوي أضيق نطاقا . في رسالة للتأكيد على قدرة الجماعة على تنفيذ خططها بصرف النظر عن الإجراءات الأمنية، وانتقاما في الوقت نفسه لأعضاء الخلية الذين تم القبض عليهم. وفي هذا الإطار سعي فضل

---

* تم القبض علي أربعة أعضاء من الخلية في ٩ ديسمبر ٢٠٠١، هم: عدنان بن موسي، والياس الذي تم القبض عليه أثناء إجرائه صفقه شراء نترات الأمونيوم من إحدى الشركات التي تقوم باستيراد المواد الكيماوية، وفتحي أبو بكار، ومحمد نذير، بينما تم القبض على باقي أعضاء الخلية خلال الفترة من ١٥- ١٧ ديسمبر ٢٠٠١ باستثناء هاشم بن عباس الذي تم القبض عليه في ٢٤ ديسمبر ٢٠٠١ .

Abu Nour www.alkottob.com

الرحمن بالشروع في شراء ستة أطنان من مادة T.N.T حيث قام بالفعل بدفع ثمن ١,٢ طن، والشروع في جمع ثمن ٤,٨ أطنان أخرين من قادة الجماعة في ماليزيا. وتم الاتفاق على شراء تلك الكمية من الفلبين من "مندانو" Mindanaoعلى أن يتم نقلها إلى إندونيسيا ثم إلى سنغافورة عبر ماليزيا، إلا أنه تم القبض على فضل الرحمن في يناير ٢٠٠٢ مما أجهض تلك الخطة بشكل نهائي.

الخطة الثانية: الهجوم على عدد من المواطنين الأمريكيين وأسرهم بالقرب من محطة "بي شن"؛ جاءت تلك الخطة بمبادرة من قائد خلية "أيوب" محمد حليم بن جعفر(**)، وهدفت إلى الهجوم على أحد الأتوبيسات التي تقل عددا من الأمريكيين وأسرهم في منطقة سيمبا وانج -Sembaw ang، تواجههم إلى محطة "بي شن". ونعود فكرة تلك العملية إلى عام ١٩٩٧، وعندما تلقى كل من محمد حليم بن جعفر، وجعفر بن مستوكي (Gaafer bin Mistoookiعضو خلية أيوب) رداسم بن عباس تعليمات من أحد القيادات الدينية للجماعة في عام ١٩٩٩ في "جوهور" لتخطيط لتنفيذ بعض العمليات ضد المصالح الأمريكية في سنغافورة، رأى هؤلاء في هذا البديل خيارا جيدا. وقام أعضاء الخلية بمناقشة الفكرة وإعداد الخطة وتصوير المواقع ووضع خرائط المنطقة المحيطة بالمحطة، حيث قام حليم بوضع خرائط المحطة بينما قام هاشم بتصوير موقع المحطة والمنطقة المحيطة بها ومداخل ومخارج المحطة، ثم تحرير شريط الفيديو وتسجيل تعليق وشرح للخطة باللغة الإنجليزية مسجلا على الشريط. ووفق تعليمات الخيلي قام فايز بن أبو بكار (عضو خلية موسى) بزيارة أفغانستان في عام ١٩٩٩ لعرض الخطة على عضو تنظيم القاعدة محمد عاطف (أبو حفص). وعلى أثر هذا العرض قام محمد عاطف بتكليف فايز بتدبير المواد اللازمة لصناعة القنابل المستخدمة، حيث قام فايز بدوره بإبلاغ تلك التطورات إلى الخيلي عند عودته إلى ماليزيا. وتم عرض الخطة مرة أخرى في نفس العام (١٩٩٩) على عدد آخر من أعضاء تنظيم القاعدة، في حضور محمد عاطف، بواسطة حليم أثناء وجوده في أفغانستان في ذلك الوقت للحصول على التدريب.

إلا أنه لأسباب غير معروفة لم يتم تنفيذ الخطة رغم أنها حازت قبول تنظيم القاعدة. وتذهب بعض التحليلات إلى أن ذلك يعود إلى عدم قدرة الجماعة الإسلامية على توفير المواد اللازمة لصناعة القنابل المستخدمة في تلك العملية، والتي قدرت بحوالي طنين من مادة "تي إن تي". وقد تم العثور على نسخة شريط الفيديو التي أرسلت إلى القاعدة بمنزل محمد عاطف في كابول بمعرفة القوات الأمريكية، حيث قامت الولايات المتحدة بإرسال نسخة إلى حكومة سنغافورة بناء على طلب الأخيرة في ٢٨ ديسمبر ٢٠٠١، كما تم العثور على النسخة الأصلية من الشريط في سنغافورة في ٢١ يناير ٢٠٠٢ بمقر إقامة حليم.

الخطة الثالثة: الهجوم على عدد من السفن البحرية الأمريكية والمواطنين الأمريكيين؛ جاءت تلك الخطة بمبادرة من خلية أيوب أيضا، للهجوم على عدد من السفن البحرية الأمريكية في منطقتي "كاتجي" و"بولاو تيكونج" Change & PulauTekongوفق نتائج التحقيقات السنغافورية قام أعضاء الخلية بوضع تصور تفصيلي لتلك العملية، وقد تم العثور على خريطة طبوغرافية وخطة العملية ضمن متعلقات قائد الخلية محمد حليم. وقد حاولت الجماعة إحياء تلك الخطة مرة أخرى في

** تم القبض على محمد حليم بن جعفر بالإضافة إلى كل من جعفر مستوكي وعبد الوهاب في يناير ٢٠٠٢، بينما تم القبض على محمد إسلام Mohamed Aslamفي أفغانستان في نوفمبر ٢٠٠١ بمعرفة قوات تحالف الشمال، وتم القبض على سيد إبراهيم في سبتمبر ٢٠٠٢، وهم من أعضاء خلية أيوب.

Abu Nour www.alkottob.com

أوائل عام ٢٠٠١ بناء علي طلب شخصين من منطقة الشرق الأوسط معلومات عن السفن الحربية الأمريكية في سنغافورة، حيث قام فايز بتكليف خلية موسى بتصوير موقع العملية ووضع تصور لها، حيث قام "إلياس" عضو الخلية بتصوير مسرح العملية علي شريط فيديو في نوفمبر ٢٠٠١، وقد تم العثور علي الشريط ضمن متعلقات محمد نذير عضو خلية موسى.

الخطة الرابعة: الهجوم علي بعض الأصول والأفراد الأمريكيين في قاعدة "بايا ليبار" الجوية Paya Lebar Airbase.وقد استطاعت الجماعة في أوائل عام ٢٠٠١ الحصول علي ما يزيد عن خمسين صورة فوتوغرافية لمنشآت داخل القاعدة بمساعدة أحد أعضاء الجماعة المعروف بـ أندرو جيرارد Andrew Gerard الذي عمل كفني بالقاعدة الجوية المستهدفة، إلا أن محمد حليم، قائد خلية أيوب، لم يكن راضيا عن تلك الصور بسبب تركيزها علي الأجزاء الواقعة خارج المنطقة الأمنية المهمة والتي كان من المفترض أن تكون قلب العمليات، وحيث تتركز القوات الأمريكية. وقد أصدر حليم توجيهاته إلي أعضاء خلية موسى بالبحث عن شخص آخر داخل القاعدة لتوفير تلك الصور، غير أنه حتى القبض علي أعضاء الخلية لم تستطع التوصل إلي هذا الشخص. وقد تم العثور علي الصور التي تم التقاطها ضمن متعلقات محمد حليم.

الخطة الخامسة: الهجوم علي المدرسة الأمريكية وعدد من الشركات والمؤسسات الأمريكية والإسرائيلية بسنغافورة: وكان من المفترض أن يقوم بتنفيذ تلك العمليات خلية إسماعيل التي تم تنشيطها عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، حيث بدأ أعضاء الخلية بالفعل في تصوير المواقع المستهدفة في نوفمبر ٢٠٠١، إلا أن القبض علي أعضاء الخلايا الأخرى في ديسمبر ٢٠٠١ أدي إلي تجميد الخلية لتلك الخطة.

الخطة السادسة: تفجير عدد من الأهداف الوطنية في سنغافورة. بالإضافة إلي مجموعة الأهداف السابقة، فقد تضمنت خطط الجماعة تنفيذ عدد من العمليات ضد أهداف ومؤسسات وطنية في سنغافورة بهدف خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار الداخلي بالإضافة إلي خلق حالة من التوتر في العلاقات الإقليمية في منطقة جنوب شرق آسيا خاصة بين إندونيسيا وكل من ماليزيا وسنغافورة. وقد شملت تلك الخطط قائمة واسعة من الأهداف منها تدمير خطوط المياه، ومطار "شانجي" Changi، ومحطة رادار في "بيجين هيل" Biggin Hill، ومقر وزارة التعليم. إلا أن أيا من تلك الخطط لم يتم تنفيذها ولم تتجاوز مرحلة التخطيط. وكان من المفترض أن يقوم بتنفيذ تلك الخطط خلية أيوب(٤٥).

الخطة السابعة: تفجير عدد من الكنائس بمدينة ماكاسار (إندونيسيا): كشفت قيادة الشرطة الإندونيسية أن منفذي عملية تفجير مطعم ماكدونالد كانوا يخططون لتنفيذ سلسلة من الاعتداءات علي عدد من الكنائس في مدينة ماكاسار وغيرها، علي غرار سلسلة تفجيرات عيد الميلاد في ديسمبر ٢٠٠٠. واستدلت الشرطة الإندونيسية بوجود عدد من الحرائط في منزل أحد المشتبه فيهم في عملية ماكدونالد أشير فيها إلي عدد من الكنائس، بالإضافة إلي العثور علي ٢٠٥ كيلو جراما من مادة "تي. إن. تي"، ودليل لتصنيع القنابل(٤٦)، بالإضافة إلي تلقي أعضاء الخلية أوامر بشراء ٥٠ أداة تفجير(٤٧).

الخطة الثامنة: تفجير سفارتي الولايات المتحدة وإسرائيل في الفلبين. تضمنت التحقيقات الأمريكية مع محمد منصور جبارة، أحد مسئولي الجماعة الذي تم القبض عليه عقب تفجيرات بالي، نقلا عن صحيفة "ذي أستراليان" الأسترالية في عددها الصادر في ٩ ديسمبر ٢٠٠٢، اعتراف محمد منصور بوجود مخطط لدي الجماعة لمهاجمة سفارتي الولايات المتحدة وإسرائيل في مانيلا، إلا أن الجماعة عدلت عن هذه الخطة

Abu Nour www.alkottob.com

بسبب ضعف عدد العاملين بالسفارة الإسرائيلية، وقتح السفارة الأمريكية بالحماية والأمن المشددين.(٤٨).

وتكشف سلسلة العمليات التي قامت بها الجماعة، أو تلك تم التخطيط لها والتي نسبت إلي الجماعة، عن عدد من الملاحظات المهمة، يأتي في مقدمتها اتساع نطاق أهداف الجماعة ليتجاوز الأهداف الوطنية والإقليمية ليشمل التركيز علي الأهداف الأمريكية والإسرائيلية والغربية، وسعي الجماعة إلي الاعتماد علي التنظيمات الخارجية، خاصة تنظيم القاعدة، في تنفيذ خططها العملياتية ضد الأهداف الأمريكية والغربية سواء فيما يتعلق بالأفراد القائمين بتنفيذ تلك العمليات أو الحصول علي الدعم المالي، بينما اقتصر دور الجماعة في معظم العمليات المخططة علي توفير الدعم الفني واللوجستي لتلك العمليات.

خامساً: استراتيجية تعامل الحكومة الإندونيسية مع الجماعة الإسلامية

لم تشهد الفترة السابقة علي وقوع أحداث سبتمبر بشكل عام، والفترة السابقة علي وقوع تفجيرات بالي في ديسمبر ٢٠٠٢ ملاحقة مكثفة من قبل الحكومة والسلطات الأمنية الإندونيسية لأعضاء الجماعة، رغم ملاحقة السلطات الأمنية في كل من سنغافورة وماليزيا لأعضاء وخلايا الجماعة. ومن ناحية أخري، رغم اتهام الجماعة بمسئوليتها عن بعض أعمال العنف والتفجيرات التي وقعت خلال أعوام ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١، إلا أن ذلك لم يستتبعه أيضا وضع الولايات المتحدة للجماعة علي قائمة التنظيمات الإرهابية، وذلك رغم دعوة كل من ماليزيا وسنغافورة إلي وضع الجماعة علي قائمة تلك التنظيمات. وقد رجع ذلك ربما إلي رغبة الولايات المتحدة في عدم إفساد علاقاتها بإندونيسيا خاصة مع وصول السيدة ميجاواتي للسلطة ورغبة الولايات المتحدة في دفع الاتجاه المعتدل للحكومة الإندونيسية الجديدة.

غير أن وقوع أحداث بالي أدي إلي اتخاذ العديد من الإجراءات الأمنية ضد الجماعة سواء علي المستويات المحلية، أو علي المستويين الإقليمي والدولي، وممارسة الولايات المتحدة الضغوط علي الحكومة الإندونيسية، وحكومات جنوب شرق آسيا بشكل عام، بغرض إقناعها باتخاذ إجراءات أكثر تشددا ضد الجماعة والحركة الإسلامية في إندونيسيا بشكل عام. فقد قامت العديد من دول المنطقة بوضع تشريعات أكثر تشددا لمواجهة الإرهاب بما في ذلك إندونيسيا، وإصدار نيوزيلندا "قانون مكافحة الإرهاب" Ter-rorism Suppression Act والذي بدأ تطبيقه في ١٧ أكتوبر ٢٠٠٢. كما قام البنك المركزي الإندونيسي بإجراء تحقيقات مكثفة حول مصادر التمويل المحتملة للأنشطة والجماعات الإسلامية المتشددة انتهت إلي نتائج محددة بشأن الأنشطة التمويلية للجماعة الإسلامية أو الأفراد المشتبه في انتمائهم إليها، وفرض إجراءات مشددة علي الأنشطة والتحويلات المالية لتلك الجماعات. ذلك بالإضافة إلي قرض سلسلة مكثفة من الملاحقات الأمنية في المنطقة، خاصة في ماليزيا وسنغافورة والفلبين، نتج عنها القبض علي عدد مهم من أعضاء وقيادات وخلايا الجماعة. كما نجحت الولايات المتحدة بالتعاون مع أستراليا ونيوزيلندا وعدد من حكومات جنوب شرق آسيا بمطالبة الأمم المتحدة بإضافة الجماعة علي لائحتها للمنظمات الإرهابية في ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٢، كما قامت الولايات المتحدة بإضافة الجماعة علي قائمة وزارة الخارجية الأمريكية للمنظمات الأجنبية الإرهابية، بما يعني التزام أعضاء الأمم المتحدة بالامتناع عن تقديم كافة أشكال الدعم والمساندة لأعضاء الجماعة.

إلا أنه علي الرغم من الضغوط الدولية والإقليمية التي فرضت علي الحكومة الإندونيسية لاتخاذ مواقف أكثر تشددا تجاه الجماعة، فقد اتسم موقف حكومة ميجاواتي تجاه الجماعة الإسلامية بقدر كبير

Abu Nour www.alkottob.com

من الغموض والتردد. فعلي الرغم من اعتراف الحكومة الإندونيسية بمسئولية الجماعة عن تفجيرات بالي ومجموعة التفجيرات التي شهدتها البلاد خلال الفترة (٢٠٠٠-٢٠٠٢)، خاصة تفجيرات عيد الميلاد في ديسمبر ٢٠٠٠، وتجاوب الحكومة نسبيا مع الضغوط الدولية والإقليمية من خلال إصدار بعض التشريعات الخاصة بمكافحة الإرهاب، وتطبيق تلك التشريعات بأثر رجعي لتمتد إلى المتهمين المسئولين عن الهجمات الإرهابية والتفجيرات التي وقعت خلال الفترة السابقة، وإعادة فتح ملفات تلك التفجيرات، بالإضافة إلى القبض على عدد من المشتبه فيهم من أعضاء الجماعة والقبض على أبي بكر بعاشير. فضلا عن موافقة الحكومة على استقبال محققين من مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف. بي. أي) ومدير المكتب ذاته، وتشكيل فريق مشترك من رجال الشرطة البريطانيين والأمريكيين والأستراليين للمعاونة في التحقيقات الخاصة بتلك التفجيرات، إلا أن الحكومة الإندونيسية لم تذهب إلي حد القطع بوجود علاقة بين الجماعة الإسلامية وتنظيم القاعدة، ورفضت القول بوجود خلايا للقاعدة في إندونيسيا، وظلت تلك القضية موضوعا للخلاف الداخلي بين مختلف رموز الحكومة والقوي والمؤسسات السياسية خلال فترة حكومة ميجاواتي، خاصة بين الجيش، ومؤسسة الرئاسة، ووزارة الداخلية. كما لوحظ أيضا حذر الحكومة في توجيه الاتهامات إلى قادة الجماعة، خاصة أبو بكر بعاشير، فبعد فترة من التردد قامت السلطات الإندونيسية بالقبض علي بعاشير في ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٢ بتهمة الضلوع في تفجيرات عيد الميلاد في عام ٢٠٠٠، والتخطيط لاغتيال السيدة ميجاواتي أثناء عملها كنائبة لرئيس البلاد، بالإضافة إلي انتهاك قوانين الهجرة، دون اتهامه بالضلوع في تفجيرات بالي ذاتها وذلك رغم اعتراف بعض الأشخاص الذين تم القبض عليهم أنهم تلقوا تعليمهم علي يدي أبي بكر بعاشير(٤٩). وفي المجاء أكثر تراجعا عن هذا الموقف أسقطت النيابة العامة عن بعاشير في ٢١ فبراير ٢٠٠٣ التهمتين الأولى والثانية، وإحلال تهمة مقاومة الحكومة الشرعية محل هاتين التهمتين.

ويعود تردد حكومة ميجاواتي في التعامل مع الجماعة الإسلامية إلي الصراع بين تيارين رئيسين في إندونيسيا بشأن طريقة التعامل مع الجماعة الإسلامية والإسلام الراديكالي بشكل عام. وقد اكتسب هذا الصراع أهميته في ضوء عاملين رئيسين الأول هو حساسية المرحلة التي شهدت تصاعد التيار الإسلامي الراديكالي بالنسبة لمستقبل ميجاواتي السياسي وتأثير أية إجراءات أمنية ضد التيار الإسلامي بشكل عام على احتمالات إعادة انتخابها، ومن ثم فقد شكلت الانتخابات الرئاسية التي كان من المخطط إجراؤها في يوليو ٢٠٠٤ قيداً مهماً على إمكانية اتخاذ أية إجراءات أمنية ضد التيار الإسلامي بما في ذلك التيار الراديكالي. والعامل الثاني هو اعتقاد هذا الصراع إلي رموز النخبة السياسية الحاكمة والمؤسسات السياسية والعسكرية. ويدعم التيار الأول إلي أستدعاء "نموذج مشرف" (نسبة إلي الرئيس الباكستاني برويز مشرف) في باكستان، والذي يقوم علي ضرورة تطبيق سياسة متشددة تجاه الجماعة والإسلام الراديكالي. ويستند مؤيدو هذا التيار إلي عدد من العائدات والامتيازات المتوقعة من تطبيق هذا السيناريو، خاصة إزالة القيود العسكرية الأمريكية المفروضة علي التعاون مع الجيش الإندونيسي والتي فُرضت عقب الاتهامات الأمريكية للجيش بانتهاك حقوق الإنسان في تيمور الشرقية عقب تصويت سكان الإقليم لصالح خيار الانفصال في أغسطس سنة ١٩٩٩، وتخفيض الديون التي يعاني منها الاقتصاد الإندونيسي. بالإضافة إلي ما يوفره هذا السيناريو من إمكانية تطوير العلاقات الإندونيسية-الأمريكية علي نحو قد يجعل من إندونيسيا، وهي أكبر دولة إسلامية، تلعب دور الجسر بين الغرب والعالم الإسلامي. وهكذا، عول هؤلاء علي الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي يمكن أن يوفره هذا السيناريو، كشرط ضروري لإعادة انتخاب السيدة ميجاواتي مرة أخري في الانتخابات الرئاسية التي أجريت في يوليو ٢٠٠٤. ويمثل هذا التيار رئيس وكالة المخابرات الإندونيسية الجنرال عبد الله محمود هيندروبرونو، ووزير الدفاع ماتوري عبد الجليل والذي أكد علي خطورة الإرهاب الدولي في إندونيسيا

Abu Nour www.alkottob.com

والحاجة إلى القضاء على الإسلاميين الراديكاليين. وركز وزير الدفاع بشكل خاص على الدعوة إلى تطبيق سياسة متشددة تجاه الجماعة الإسلامية(٥٠).

أما التيار الثاني فيري عدم جدوى "سيناريو مشرف"، أو بالأحرى فقد حذر من الآثار السلبية لاتباع سياسات متشددة تجاه التيار الإسلامي بمختلف فصائله. ويري هؤلاء، أن المجتمع الإندونيسي قد شهد تصاعد التيار الإسلامي بشكل متسارع عقب انهيار نظام سوهارتو، سواء بسبب رغبة أنصار هذا التيار في تقديم صورة أكثر إيجابية واعتدالا للإسلام، أو انتهاز حالة الانفتاح السياسي النسبي للنفاذ إلى المؤسسات السياسية ومؤسسات المجتمع المدني الإندونيسي، دون أن ينفي ذلك في الوقت نفسه نمو الإسلام الراديكالي، ومن ثم إذا كان الهدف هو تشجيع الاتجاه الإسلامي المعتدل، فإن تبني سياسة متشددة تجاه الحركات الإسلامية من شأنه أن يؤدي إلى إعاقة هذا التطور. ويري أنصار هذا الاتجاه أن اتباع سياسة أمنية متشددة تجاه الحركات الإسلامية الراديكالية من شأنه أن يعوق تطور الاتجاه المعتدل خاصة في حالة تعاطف الحركات الإسلامية المعتدلة مع نظيرتها الراديكالية، أو إدراك الحركات الإسلامية لتلك السياسة باعتبارها نوعا من تواطؤ/ تآمر الحكومة الاندونيسية مع الولايات المتحدة والأجهزة الأمنية الأمريكية، وهو ما كشفت عنه خبرة القبض على الشيخ أبي بكر باعشير. فقد فشلت ميجاواتي في الحصول على دعم جماعتي المحمدية ونهضة العلماء، واللذين يمثلان التيار الإسلامي المعتدل في إندونيسيا، في تبني استراتيجية متشددة تجاه الجماعة الإسلامية، وأعلن رئيس جماعة المحمدية أنه يعارض استراتيجية باعشير في تحقيق أفكاره وأهدافه" ولكنه أكد في الوقت نفسه على أن "القبض عليه (يقصد باعشير) لا يستند إلى شواهد وأدلة قانونية كافية، وأن الشرطة لا يجب أن تقبض على الناس بدون أدلة قوية"(٥١).

وعلى العكس من الامتيازات الاقتصادية ووعود الاستقرار السياسي التي يشر بها أنصار سيناريو مشرف، فإن أنصار سياسة المهادنة يؤكدون على خطورة التداعيات الاقتصادية والسياسية وعدم الاستقرار السياسي الذي يمكن أن يترتب على احتدام المواجهة بين الحكومة والحركات الإسلامية، بما في ذلك احتمالات عدم إعادة انتخاب ميجاواتي مرة أخري. ويشير هؤلاء إلى أن أحد عوامل عدم نجاح ميجاواتي في الوصول إلى السلطة في عام ١٩٩٩ هو تحفظ التيار الإسلامي عليها خاصة في ظل إدراك القوي الإسلامية لميجاواتي باعتبارها "سيدة علمانية". وعبر عن هذا التيار حمزة حاظ، نائب الرئيسة ميجاواتي، والذي رفض وجود إرهاب دولي في إندونيسيا أو الربط بين الإسلام السياسي في إندونيسيا وشبكات الإرهاب الدولي، والقائد العام للشرطة الجنرال داي بخنيار. فقد أعلن بخنيار في الثامن من يناير ٢٠٠٣ "لم نتوصل لأي نتائج بعد بوجود صلات بين الجماعة الإسلامية والقاعدة، ويعتمد ذلك على حجم التعاون معنا الذي تبذله أجهزة الأمن في ماليزيا والفلبين وسنغافورة"(٥٢). وعلي الرغم من دعوة وزير الدفاع إلي تبني سياسة متشددة إلا أن هناك عناصر قيادية أخري داخل المؤسسة العسكرية تؤمن بجدوى سياسة المهادنة، وجاء في مقدمة هؤلاء رئيس أركان الجيش الجنرال رامبراده ريكودو Raymizard Ryacudo، الذي دعا إلي إنشاء جهاز أمني جديد يتولى مهمة تنسيق الأعمال الاستخباراتية، في محاولة لتحجيم دور المخابرات العسكرية والجيش الإندونيسي فيما يتعلق بمهام الأمن الداخلي.

وبالإضافة إلى الصراع الحاد بين هذين التيارين، هناك عامل آخر ساهم في مضاعفة تردد الحكومة الإندونيسية في اتباع سياسة متشددة تجاه الحركات الإسلامية الراديكالية والجماعة الإسلامية، وهو نمو المشاعر القومية المعادية للولايات المتحدة الأمريكية والتخوف من أن تؤدي الاستجابة للمطالب الأمريكية واتباع سياسات متشددة تجاه تلك الحركات إلي تغذية تلك المشاعر

Abu Nour www.alkottob.com

واستدعاء الخبرات السلبية الإندونيسية السابقة مع التدخل الأمريكي. ومن الأمثلة التاريخية في هذا الإطار التدخل الأمريكي لمساندة التمرد السياسي في أندونيسيا في عام ١٩٥٨، ودعم النظام السياسي للرئيس سوهارتو، والأهم هو التدخل الأمريكي لمساندة انفصال تيمور الشرقية، بالإضافة إلي وجود تيار قوي يفسر الأزمة المالية الآسيوية التي طالت إندونيسيا واقتصادات شرق آسيا، باعتبارها مؤامرة أمريكية وغربية ضد تلك الاقتصاديات. وفي هذا الإطار، يصبح من المحتمل النظر إلي الإجراءات الحكومية ضد التيار الإسلامي باعتبارها نوعا من التدخل الأمريكي ضد الإسلام والاستقرار السياسي في إندونيسيا(٥٣).

وقد ساهمت تلك العوامل في فرض العديد من القيود علي قدرة حكومة ميجاواتي علي اتخاذ سياسة متشددة وواضحة تجاه الجماعة الإسلامية والحركات الإسلامية بشكل عام، ساهم في عدم وضوح تلك السياسة طبيعة شخصية ميجاواتي ذاتها والتي رأت بعض التحليلات أنها تتسم بالتردد وعدم القدرة علي الحسم، وافتقادها إلي الأيديولوجية السياسية الواضحة بالمقارنة بوالدها سوكارنو(٥٤)، بالإضافة إلي اعتماد نظامها السياسي علي حكومة ائتلافية تضم مختلف التيارات والقوي السياسية، الأمر الذي زاد من تعقيد عملية صنع واتخاذ القرار بشأن تلك القضية المعقدة بطبيعتها.

خاتمة: مستقبل الجماعة الإسلامية

رغم استمرار الجدل الداخلي في إندونيسيا حول استراتيجية التعامل مع الجماعة الإسلامية والتيار الإسلامي الراديكالي، إلا أن الجماعة تلقت خلال عامي ٢٠٠٢/٢٠٠٣ ضربات عديدة سواء في إندونيسيا أو في منطقة جنوب شرق آسيا أو داخل الدول الغربية. وشملت تلك الضربات، كما سبق القول، اعتقال عدد مهم من القيادات التنظيمية للجماعة وعلي رأسهم الزعيم الروحي لها الشيخ أبو بكر بعاشير، بالإضافة إلي اعتقال عدد مهم من خلايا وأعضاء الجماعة، فضلا عن وضع الجماعة علي قائمة التنظيمات الإرهابية سواء قائمة الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة أو الدول الأوروبية، وهو ما استتبعه تجميد أصول وأموال الجماعة في الخارج. وقد أثارت تلك الإجراءات تساؤلا مهما حول مستقبل الجماعة واحتمالات بقائها واستمرارها كجماعة إقليمية منظمة.

ورغم أهمية الإجراءات الأمنية التي اتخذت ضد الجماعة، إلا أن هناك اتجاها يري استمرار الجماعة دون أن تنال منها الإجراءات السابقة. ويستند هذا الاتجاه - رغم ضعفه في الواقع- إلي عدد من المبررات. يأتي علي قمتها طبيعة الجماعة الإسلامية ذاتها باعتبارها أقرب إلي الحركة السرية منها إلي التنظيم المركزي الذي يمكن تفكيكه من خلال الإجراءات الأمنية والقانونية. ومن ناحية أخري، يقلل هذا الاتجاه من أهمية الآثار السلبية - التي يمكن أن يرتبها القبض علي أبو بكر بعاشير أو محاكمته - علي القدرات التنظيمية والعملياتية للجماعة في ضوء عامل مهم هو ضعف ومحدودية سيطرة بعاشير علي الجماعة بالمقارنة بسيطرة الجناح الراديكالي داخل الجماعة، فضلا عما يشيره هذا الإجراء من آثار تحفيزية لدي أعضاء الجماعة وإثارة التعاطف مع الجماعة والإسلام الراديكالي بشكل عام. فعلي الرغم من أن التيار المؤيد للسياسة المتشددة تجاه الإسلام الراديكالي يطرح عملية القبض علي بعاشير باعتبارها دليلا علي تعاون الحكومة مع الحرب الأمريكية ضد الإرهاب، فإن هذا الإجراء لا

Abu Nour www.alkottob.com

يحلو من دلالة رمزية لدي التيار الإسلامي بشكل عام، والراديكالي بشكل خاص، والذي يطرح هذا الإجراء باعتباره نوعا من التآمر بين الحكومة والولايات المتحدة والغرب ضد الإسلام والشعب الإسلامي الإندونيسي، بما يحمله من إمكانية تحول بعناصر إلى رمز إسلامي مهم.

إلا أنه في الواقع يصعب القول بعدم تأثر الجماعة بتلك الإجراءات. ويمكن أن نشير هنا إلى عدد من العوامل المهمة التي قد تلعب دورا مؤثرا في مضاعفة الآثار السلبية للإجراءات الأمنية ضد الجماعة، أهمها:

١. ضعف حجم عضوية الجماعة كتنظيم: فعلي الرغم من عدم وجود تقديرات دقيقة حول إجمالي عضوية الجماعة، إلا أن المتفق عليه هو أن إجمالي عدد أعضائها يتسم بالمحدودية نسبيا رغم انتشارها جغرافيا في منطقة جنوب شرق آسيا، إذ لا يتجاوز وفق بعض التقديرات حوالي ٣٠٠ عضو فقط.

٢. عدم توافر عمق استراتيجي داخل المجتمع الإندونيسي بالمعنيين الاجتماعي والسياسي، فعلي الرغم من وجود بعض الأحزاب السياسية التي تنادي بتطبيق الشريعة الإسلامية، إلا أن نسبة قليلة من الشعب الإندونيسي هي التي تؤمن بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية، مقابل الساع حجم القاعدة الاجتماعية للجماعات الإسلامية التي تؤمن بالعلمانية كأساس للدولة والسياسة، خاصة جماعتا نهضة العلماء والمحمدية واللتان يصل حجم عضويتهما وفق تقديراتهما إلى ٧٠ مليون عضو (ما يزيد عن ٣٠٪ من الشعب الإندونيسي). ويعني ذلك حصار الجماعة الإسلامية اجتماعيا، من ناحية، وتزايد الإدراك الاجتماعي بأنها جماعة إرهابية، من ناحية أخري. ومن المتوقع أن يزداد هذا الحصار بعد حل بعض الجماعات الإسلامية الراديكالية مثل جماعة عسكر الجهاد.

٣. وقد تأكد ضعف العمق الاستراتيجي للجماعة داخل المجتمع الإندونيسي مع الانتخابات الرئاسية التي أجريت في يوليو ٢٠٠٤ والتي كشفت عن عدم قدرة أي من رموز التيار الإسلامي المعتدل في تلك الانتخابات - أمين رئيس أو حمزة حاظ- أو السيدة ميجاواتي ذاتها إذ لم يحصل رئيس إلا على ١٤,٦٪ فيما حصل حاظ على ١٢,٩٪ مقابل ٢٤,٩٪ للسيدة ميجاواتي بينما حصل المرشحان العسكريان الجنرال باسيانج بودويونو والجنرال واريتنو على ٣٣,٨٪، ٢٣,٨٪ على التوالي وهو ما أشار إلى أن الناخب الإندونيسي قد أصبح أكثر نزاعة بالخطاب المؤيد لفكرة الأمن والوحدة الإندونيسية على الخطاب الإسلامي وتفعيل "نموذج مشرف" على السياسة المعتدلة التي طبقتها ميجاواتي في مواجهة التيار الإسلامي المتشدد. وهو الخيار الذي تأكد في جولة انتخابات الإعادة التي أجريت في ٢٠ سبتمبر من العام نفسه. بين ميجاواتي والجنرال بودويونو بأغلبية ٦٠,٦٠٪ الذي ركزت حملته الانتخابية على محاربة الإرهاب بل أن الأهم من ذلك هو تحالف القوى السياسية للتيار الإسلامي المعتدل مع بودويونو في الجولة الثانية والتحالف مع حزبه لتشكيل ائتلاف قوى داخل البرلمان الإندونيسي، شملت تلك القوى: حزب التنمية المتحد بقيادة حمزة حاظ وحزب النهضة بقيادة علوي شهاب الجناح السياسي لحركة نهضة العلماء، وحزب العدالة والرفاه الإسلامي بقيادة هدايت نور واحد بالإضافة إلى دعم حزب الأمانة بقيادة أمين رايس وأن لم ينضم إلى الكتلة البرلمانية لحزب بودويونو وبالتالي شكلت الأحزاب الإسلامية الدعامة الرئيسية لائتلاف بودويونو(٥٥).

Abu Nour www.alkottob.com

الهوامش:

1. The Jemaah Islamiyah Arrests and the Threat of Terrorism", White Paper, presented to Parliament by Command of The President of the Republic of Singapore, 7th January 2003, p. 6.
2. International Crisis Group (ICG), "Al-Qaeda in Southeast Asia: The Case of the Ngruki Network in Indonesia", Indonesia Briefing, Jakarta/ Brussels, 8 August 2002, p.5.
3. Ibid, p.6.
4. Ibid, p. 4-5, 10.
5. Ibid, p. 6.
6 . Tatik S. Hafidz, "The War on Terrorism and the Future of Indonesian Democracy", **Working Papers**, no. (46), p. 1-4. March 2003, Institute of Defence and Strategic Studies, Singapore.
7. ICG, "Indonesia Backgrounder: How the Jemaah Islamiyah Terrorist Network Operates", **ICG Asia Report**, No. 43, 11 Dec. 2002. p 3.
8 . Tim Huxley, "Disintegrating Indonesia? Implications for Regional Security", **Adelphi Paper**, no. 349, International Institute for Strategic Studies (IISS), p. 64-65.
9. Greg Fealy, "Inside The Laskar Jihad", Inside Indonesia. http://insideindonesia.org/edit65/fealy.htm
10. Irman G. Lanti & Leonard C. Sebastian, Report on IDSS Panel Dialogue on The Future of Indonesia's Islam: The Question for An Equilibrium", Institute of Defence and Strategic Studies, Singapore. http://www.ntu.edu.sg/idss/reports.htm
11. ICG, "Al-Qaeda in Southeast Asia: The Case of the Ngruki Network in Indonesia", op., cit., p. 9-10.
12. Ibid, p. 20-21.
13. Ibid, p. 12.
14. Ibid, p. 12, 15.
15. Ibid, p. 16.
16. Ibid, p. 17.
17. Blontank Poer, "Tracking the Roots of the Jemaah Islamiyah", **Jakarta Post**, May 27, 2003.
18. "The Amir of the Islamic Group- Indonesia, Sheikh Abdullah Sungkar Talks to Nida'ul Islam about: Suharto's Detect, Defect and Destroy Policy towards the Islamic Movement", **Nida'ul Islam**, 17th Issue, Feb.- March 1997.

Abu Nour www.alkottob.com

http://www. Islam.org.au

19. "The Jemaah Islamiyah Arrests and the Threat of Terrorism", op., cit., p. 10.

20. Ibid, p. 9.

21. "The Jemaah Islamiyah Arrests and the Threat of Terrorism", op., cit., p. 6.

22. Ibid, p. 6.

٢٣ . المتهم بأنه العقل المدبر للتفجيرات في جنوب شرق آسيا" ، إذاعة B.B.C ، ٢٢/١٠/٢٠٠٢ .
http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid_2350000/2350857.stm

24. Council on Foreign Relations, "Jemaah Islamiya", Terrorism: Q & A. http://www.cfrterrorism.org/groups/jemaah_print.html

25. Kumar Ramakrishna, "Jemaah Islamiah: Aims, Motivations and Possible Counter-Strategies", Institute of Defence and Strategic Studies, Singapore, Oct. 2000.
http://www.ntu.edu.sg/idss/Perspective/research_050221.htm

26. "The Jemaah Islamiyah Arrests and the Threat of Terrorism", op., cit., p. 9.

٢٧ . جوانب من التحقيقات مع عمر الفاروق ، عميل القاعدة في جنوب شرق آسيا" ، جريدة الوطن، ٢١/٩/٢٠٠٢ .
http://www.alwatan.com.sa/daily/2002-09-21/first_page/first_page07.htm

٢٨ . كتب وتسجيلات لبن لادن في منزل المخطط الرئيسي لتفجيرات بالي" ، جريدة الحياة، ٢٥/١١/٢٠٠٢ .

٢٩ . "إندونيسيا تبدأ التحقيق مع الزعيم الروحي للجماعة الإسلامية في جنوب شرق آسيا" ، جريدة الحياة، ١٥/١٢/٢٠٠٢ .

30. The Jemaah Islamiyah Arrests and the Threat of Terrorism", op., cit., p. 7.

٣١ . راجع نص الخطاب المرسل من إبراهيم محي الدين إلي الملا عمر في ٣ مايو عام ٢٠٠٠ في:
Indonesia Backgrounder: How the Jemaah Islamiyah Terrorist Network Operates", op., cit., p. 34.

32. ICG, "Indonesia Backgrounder: How the Jemaah Islamiyah Terrorist Network Operates", op., cit., p. 3.

٣٣ . سيدني جونز ، "اعتداء بالي يهز إندونيسيا" ، اللوموند.

34. ICG, "Indonesia Backgrounder: How the Jemaah Islamiyah Terrorist Network Operates", op., cit., p. 3.

٣٥ . انظر: نص الحلقة علي الموقع الإليكتروني لقناة الجزيرة، برنامج "نقطة ساخنة"، حلقة "واقع إندونيسيا بين الحركات الإسلامية". http://aljazeera.net

٣٦ . انظر: نص الخطاب المرسل من إبراهيم محي الدين إلي الملا عمر في ١٦ أغسطس ١٩٩٩ في :
ICG, "Indonesia Backgrounder: How the Jemaah Islamiyah Terrorist Network Operates", op., cit., p. 33.

٣٧ . "المعتقل في تفجيرات بالي يعتبرها انتقاما للعراق وأفغانستان" ، الحياة، ١٢/١١/٢٠٠٢، ص ١٠ .

Abu Nour www.alkottob.com

38. ICG, "Indonesia: Violence and Radical Muslims, Indonesia Briefing Paper, 10 October 2001, p. 2, 3.

39. "The Jemaah Islamiyah Arrests and the Threat of Terrorism", op., cit., p. 7.

40. ICG, "Indonesia Backgrounder: How the Jemaah Islamiyah Terrorist Network Operates", pp. 27-29.

41. "The Jemaah Islamiyah Arrests and the Threat of Terrorism", op., cit., p. 7.

42. ICG, "Indonesia: Violence and Radical Muslims, Indonesia Briefing Paper, 10 October 2001, p. 5.

٤٣ ـ المعتقل في قضية بالي يعتبرها انتقاما للعراق وأفغانستان"، **الحياة**، ٢٠٠٢/١١/١٢، ص ١٠.

٤٤ ـ "إندونيسيا تكشف مخططا لسلسلة تفجيرات خلال الأعياد"، جريدة **الحياة**، ٢٠٠٢/١٢/١٥.

45. The Jemaah Islamiyah Arrests and the Threat of Terrorism", White Paper, presented to Parliament by Command of The President of the Republic of Singapore, 7th January 2003, pp. 27-30.

٤٦ ـ المشتبه بهما في هجوم مومباسا ملامحهما عربية، ومفجرو مكدونالدز في إندونيسيا نفذوا اعتداء بالي"، **الحياة**، ٢٠٠٢/١٢/٢٢، ص ٨.

٤٧ ـ "إندونيسيا تكشف مخططا لسلسلة تفجيرات خلال الأعياد"، **الحياة**، ٢٠٠٢/١٢/١٥.

٤٨ ـ "المشتبه بهما في هجوم مومباسا ملامحهما عربية، ومفجرو مكدونالدز في إندونيسيا نفذوا اعتداء بالي".

٤٩ ـ "إندونيسيا تكشف مخططا لسلسلة تفجيرات خلال الأعياد" مرجع سبق ذكره.

50. Tatik S. Hafidz, "The War on Terrorism and the Future of Indonesian Democracy", **Working Papers**, no. (46), p. 1-4. March 2003, Institute of Defence and Strategic Studies, Singapore.

51. imon Elegant, "after Bali: Waffling", Time, Vol. 160, No. 20, 11/11/2002.

٥٢ ـ إندونيسيا لم تتوصل إلى إثبات العلاقة بين منفذي تفجيرات بالي والقاعدة"، **الحياة**، ٢٠٠٣/١/٩، ص ٧.

53. Tatik S. Hafidz, "The War on Terrorism and the Future of Indonesian Democracy", op.cit.

54. Dr. Stephen Sherlock, "The Bali Bombing: What it Mean for Indonesia", Information and Research Services, Current Issues Brief, No. 42002-03, 22 Oct. 2003.
http://www.aph.gov.au/library/pubs/CIB/2002-03/03cib04.pdf

٥٥ ـ «هل يفتح بوديونو حقبة جديدة في تاريخ أندونيسيا؟»، **الحياة**، ٢٠٠٤/١٠/١٣ (بوديونو).

Abu Nour www.alkottob.com

١. ماذا بقي من جماعة الجهاد المصرية؟

لا يكن البحث في الحالة التي وصلت إليها جماعة الجهاد المصرية دون التطرق لكثير من الوقائع التاريخية التي حدثت في فترات سابقة وساقت ذلك التنظيم إلى الحالة التي هو عليها الآن. فالمؤكد أن كثيرا من المراقبين في الغرب وحتى في العالم العربي والإسلامي بل وأيضا في داخل مصر يسألون عن الأسباب التي جعلت العنف يتركز في الخارج ويتوقف في داخل مصر ويستغربون الفترات التي جعلت زعيم جماعة الجهاد الدكتور أيمن الظواهري يلقي بثقله خلف زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن فيتداخل التنظيمان متلمسا ذابت أفكار الرجلين ويصبح التنظيمان تنظيما واحدا خارج مصر ويتوارى إلى خلفية الصورة نشاط الجماعة داخل مصر.

ومن الضروري في البداية التوضيح بأن هدف تلك الدراسة ليس هو التأريخ لجماعة الجهاد في مصر مثل نشأتها حيث ورد ذلك في دراسات ومذكرات ولقاءات سبق نشرها(*) بل هدفها الرئيسي هو محاولة التعرف على الأوضاع الحالية لتلك الجماعة أو بصياغة أخرى الإجابة عن السؤال: ماذا بقي من جماعة الجهاد إلا أن عدم الإغراق في التأريخ لجماعة الجهاد لا يعني عدم التعريف بها وتقديمها في تلك الدراسة كما تقدم في نفسها في بياناتها ومطبوعاتها المختلفة حيث يعد ذلك هو التعريف الأدق للجماعة كما تضعه هي لنفسها.

أولا: تعريف الجماعة لنفسها

من خلال موقع "معالم الجهاد" الناطق باسم جماعة الجهاد المصرية على شبكة الإنترنت قبل إغلاقه تعرف الجماعة نفسها بصورة مفصلة نقوم بعرضها في التالي بحسب صياغات الجماعة كما هي دون

---

* من أهم الوثائق التي تتناول جماعة الجهاد المصرية: شهادة هاني السباعي، القيادي السابق في الجماعة والتي نشرها في أربع حلقات بجريدة الحياة اللندنية، وذلك بغض النظر عن صحة كافة الوقائع والتي وردت بها ووجود روايات وتفسيرات أخرى لها من آخرين شاركوا في تلك المرحلة. أنظر هاني السباعي وقصة جماعة الجهاد جريدة الحياة ، لندن ، الأعداد من ١٤١٨/٥ ، ١٤٤١٧ ، ٣١ سبتمبر ٢٧-

Abu Nour www.alkottob.com

أي تدخل أو تعديل بل فقط بعض الاختصار غير المخل لما ورد في تعريفها بنفسها:

اسم الجماعة: (جماعة الجهاد)

اتخذت الجماعة هذا الاسم لها لأن الجهاد هو الأمر الذي اجتمع عليه أفراد هذه الجماعة وليس لأن الدين هو الجهاد فقط ونحن نرى أن الجهاد ودعوة الناس إلى دين الله هما أهم السبل لإقامة دين الله وشرعه في الأرض وأما العلم والتربية وغيرهما فلابد أن يكونوا خادمين للجهاد لا مثبطين عنه. ولا يعني هذا أن نشاط الجماعة محصور في الجهاد فقط بل تقوم الجماعة بواجبات الإسلام الأخرى على قدر الاستطاعة مع تقديم واجب الجهاد والإعداد له على غيره من الواجبات الكفائية عند التعارض فهذا الاسم للتمييز وليس للحصر.

اعتقاد الجماعة

هو اعتقاد أهل السنة والجماعة وما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والقرون الثلاثة الأولى الفاضلة الذين توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض سواء في أبواب الإيمان والقدر والصفات وغير ذلك من أبواب العقائد وتعتقد الجماعة كفر الدول والأنظمة والمؤسسات التي تحكم بغير ما أنزل الله تعالى أو تتحاكم إلى غير شريعة الله أو تلزم الناس بالأنظمة المناقضة للإسلام أو تدعو إليها مثل العلمانية أو الديمقراطية أو الاشتراكية أو نحو ذلك.

منهج الجماعة

هو اتباع الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم سواء في أبواب الاعتقادات أو الأحكام - دون غلو أو تفريط - كما نقلها الأئمة الأعلام والعلماء الأثبات نلتزم بما اتفقوا عليه ونرجح بين أقوالهم فيما اختلفوا فيه حسب أصول العلم وقواعده ونلتزم الاحتياط فيما لم نتمكن الترجيح فيه.

أهداف الجماعة

وهذه الأهداف مأخوذة من الأهداف السامية التي جاءت بها شريعة الإسلام ومنها:

١- الدعوة إلى دين الله تعالى وبيان عقيدة السلف ونشر العلوم النافعة بين المسلمين التي تبصرهم بحقائق دينهم وبالواقع الذي يعيشونه.

٢- العمل على خلع الطواغيت الحاكمين بغير شريعة الله وإقامة حكم إسلامي وإعادة الخلافة الإسلامية بإذن الله تعالى ولا ترى الجماعة شرعية أية وسيلة من وسائل التغيير غير الجهاد مثل اعتماد الديمقراطية والعمل النيابي من خلال قنوات الأنظمة الطاغوتية والتي تنافي أصول عقيدة التوحيد.

٣- الإعداد لذلك من خلال تكوين جماعة مسلمة معدة إعدادا شرعيا وعسكريا كافيا لتحقيق الأهداف السابقة.

٤- مساعدة المجاهدين ودعمهم في الحركات الجهادية الأخرى في جميع بلاد المسلمين والتعاون مع كل المسلمين - أيا كان انتماؤهم المشروع - على البر والتقوى.

٥- العمل على وحدة المسلمين في بقاع الأرض والبعد عن كل ما يسبب الخلاف والشقاق بين المسلمين.

أسلوب عمل الجماعة: اعتماد السرية في العمل الجهادي

الأصل في دعوة الإسلام الجهر والعلن وذلك لأنها دعوة لعموم الخلق (...) ومع ذلك فقد ظل النبي صلى الله عليه وسلم مخفيا دعوته حتى أذن الله له (...) ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم لقومه

Abu Nour www.alkottob.com

بدأت سرية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخفي أمره ولا يدعو إلا خاصته وهذا وإن كان موجها بالوحي إلا أنه إذا علمت علة التخفي فإنه يمكننا القياس على ذلك والعلة كانت القلة والاستضعاف ثبت وجدا في دعوة قلها التخفي حتى يشتد عودها.

أما الأعمال العسكرية فالأصل فيها السرية وكيفما أمكن إخفاء المعلومات والأسرار فذلك واجب وهذا كله بهدف تحقيق عنصر المباغتة ومفاجأة الخصم وهو من أهم أسباب النصر أما أدلة السرية في الأعمال العسكرية فهي كثيرة (...) ويجب على كل من ينضم إلى جماعة الجهاد أن يلتزم بهذا الأصل إلا أن يطلب منه غير ذلك وقد تلجأ الجماعة إلى العلنية المحدودة في بعض الأعمال وخاصة فيما يتعلق بالدعوة من أجل الإعداد البشري ويتم هذا من خلال قنوات محدودة وإن السرية في الأعمال الجهادية هي رأس مال المجاهدين وتوفر عليهم كثيرا من الجهد وتمكنهم من مباغتة الخصم ومفاجأته.

ميدان عمل الجماعة

الجماعة عالمية لسببين: السبب الأول: أن أمة الدعوة أمة عالمية. السبب الثاني: أن أمة الإجابة أمة عالمية (...) ولا تفاضل بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم إلا بالتقوى والعمل الصالح (...) وأيضا فإنه يجب على المسلمين نصر إخوانهم إذا حل العدو بدارهم في أي بقعة من بلاد المسلمين وهذا واجب شرعي اتفق العلماء على وجوبه. وجماعة الجهاد تقبل في عضويتها كل المسلمين من مختلف البلدان كما أنه يمكن أن تشارك الجماعة في الجهاد في أي بقعة من العالم عملا بالمصالح الشرعية المعتبرة بعد الدراسة الصحيحة.

عضوية الجماعة

وتقبل جماعة الجهاد في عضويتها كل مسلم يلتزم بمنهج الجماعة واعتقادها وأهدافها ولا يكون منتهما في دينه أو خلقه أو عدالته والعضوية مقصورة على الرجال وللجماعة الحق في إبعاد أو معاقبة من يثبت في حقه فساد أو خيانة أو إفساد أو مخالفة لأصول عمل الجماعة وذلك على وفق لائحة التعزيرات الشرعية التي أقرتها الجماعة.

شعار الجماعة

دائرتان إحداهما كبيرة وأخرى صغيرة بداخلها والإطار بين الدائرتين جزؤه العلوي به قوله تعالى: (تغرا خفانا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) وجزؤه السفلي به اسم الجماعة - جماعة الجهاد - وبداخل الدائرة الصغرى لفظ الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وهذا الشعار إشارة إلى توحيد الجهاد على كل مسلم وأن الغاية من الجهاد هو نشر عقيدة التوحيد وحمايتها ويكون الشعار على ذلك بهذه الصورة الواضحة أسفل.

وجماعة الجهاد لا تعد أحدا بالنصر أو بإدراك غاية أهدافها فالغيب لا يعلمه إلا الله (...) والذي ينبغي أن يقال في هذا المقام: إن أي جهد يبذل في سبيل تحقيق هذه الأهداف هو عمل صالح مثاب عليه صاحبه - إذا خلصت النية - إن شاء الله تعالى وإن لم يدرك غاية الهدف أو توفي قبلها وأجره على الله (...) وأنه مع وجوب الأخذ بالأسباب ومع وجوب الإعداد قدر الاستطاعة فإن النصر ليس بالكثرة (...) فالنصر من عند الله وحده (...) وهو سبحانه ينزل نصره على من صدقت قلوبهم وصحت عزائمهم فالنصر يتعلق بأعمال القلوب أكثر من تعلقه بالأسباب الظاهرة.

ثانيا: النشأة التاريخية للجماعة

من المعروف تاريخيا وواقعيا أن جماعة الجهاد لم تتشكل ككيان موحد سوى في نهاية عام ١٩٨٠

www.alkottob.com
Abu Nour

وبداية عام ١٩٨١ عندما قام مؤلف كتاب "الفريضة الغائبة" المهندس محمد عبدالسلام فرج بتوحيد عدة مجموعات صغيرة سبق لها التشكل والتواجد في مصر منذ بداية السبعينيات ضمن جماعة واحدة حملت اسم الجهاد وعلى أرضية فكرية واحدة مثلها ذلك الكتاب الشهير. ومن المعروف أيضا أنه قبل ذلك التاريخ ومنذ نهاية الستينيات شهدت مصر عديدا من المحاولات الصغيرة لتشكيل جماعات تتبع فكر الجهاد كما تبلور فيما بعد مع مؤلف "الفريضة الغائبة" كانت أولها هي الجماعة التي تشكلت في حدود عام ١٩٧٦ وكان من أعضائها أيمن الظواهري الذي أضحى بعد عقود ثلاثة زعيم جماعة الجهاد الموجودة. ومنذ ذلك الوقت وحتى نجاح محمد عبدالسلام فرج في توحيد تلك الجماعات الجهادية الصغيرة في جماعة واحدة ظهرت وتلاشت عدة مجموعات شارك في تأسيسها أحيانا نفس الأشخاص الذين انتقلوا من جماعة لأخرى. وقد كانت أبرز تلك الجماعات تلك التي اصطلح على تسميتها بجماعة الفنية العسكرية وهي التي قام بتشكيلها خبير التربية الفلسطيني الأصل بجامعة الدول العربية بالقاهرة الدكتور صالح سرية عام ١٩٧٤ . وقد كان القوام الرئيسي لعضوية هذه الجماعة من طلاب كلية الفنية العسكرية وبعض العسكريين المصريين وقامت بمحاولة فاشلة لقلب نظام الحكم في مصر في صيف نفس العام انتهت بالقبض على قياداتها وأعضائها ومحاكمتهم وإعدام بعضهم وسجن البعض الآخر. وتعد تلك المحاولة أولى محاولات الحركات الجهادية المحلية المصرية لاستخدام القوة والعنف للوصول إلى الحكم كما أنها زرعت بداخل الجماعات الجهادية خاصية رئيسية ظلت مستمرة بداخلهم وتتعلق بالسعي الدائم إلى تجنيد عسكريين محترفين والتركيز في أعمالهم الانقلابية وعنفهم على قمة الدولة المصرية.

ثالثا: اندماج الجهاد والجماعة الإسلامية

بذلك الجذر التاريخي بدت جماعة الجهاد حتى بعد تشكيلها موحدة على يد محمد عبدالسلام فرج مختلفة في عديد من الجوانب عن الجماعة الإسلامية بالرغم من انتماء الاثنين إلى فئة الجماعات الدينية الجهادية المحلية. إلا أن تلك الاختلافات لم تمنع قيادة الجهاد وقيادة الجماعة من السعي نحو التوحد في جماعة واحدة لإنجاز المهمة الواحدة التي اتفقا عليها في ذلك الوقت وهي إنهاء حكم الرئيس السادات وإقامة دولة إسلامية في مصر. وقد تم توحيد الجماعتين في صيف ١٩٨١ تحت اسم "جماعة الجهاد" وهي التي نجحت في اغتيال الرئيس السابق أنور السادات في العرض العسكري المقام بمناسبة ذكرى الحرب في ٦ أكتوبر ١٩٨١ . كما سعت الجماعة الجديدة الموحدة إلى القيام بمحاولة انقلابية عنيفة غير معد لها جيدا في أعقاب الاغتيال وبالتحديد في مدينة أسيوط التي تقع على بعد نحو ٣٠٠ كيلومتر جنوب القاهرة وهي المحاولة التي لعبت فيها الجماعة الإسلامية الدور الأبرز بحكم تواجدها الكثيف في تلك المنطقة على خلاف تنظيم الجهاد. وفي هذا السياق يشار هنا إلى أحد الفوارق النوعية المهمة ما بين تنظيم الجهاد والجماعة الإسلامية من زاوية التواجد الجغرافي حيث نشأت الجماعة وتركزت فيما بعد في مناطق الوجه القبلي ثم امتد وجودها إلى بعض المناطق الشعبية والعشوائية في القاهرة الكبرى. أما جماعة الجهاد فقد نشأت معظم مجموعاتها الصغيرة ثم بعد ذلك التنظيم الموحد في القاهرة الكبرى أو المحافظات الشمالية من مصر ونادرا ما تواجدت عناصر جهادية في مناطق الوجه القبلي.

وقد ارتبط ذلك التوزيع الجغرافي المختلف للجماعتين بظروف تاريخية وأيضا بتصورات مختلفة بينهما حول الطريق الأمثل لقلب نظام الحكم وإقامة الدولة الإسلامية. فالجماعة الإسلامية كانت تعتمد على خليط من أساليب الحركة العلنية والسرية بحيث تؤدي الأولى إلى ضم عضوية جماهيرية واسعة لها بينما تؤدي الثانية إلى تشكيل أجنحة عسكرية كثيرة وفعالة تابعة لها. وقد ارتبط ذلك الخليط

Abu Nour www.alkottob.com

من الأساليب بتصور الجماعة لطريقة قلب نظام الحكم وإقامة الدولة الإسلامية وهو المعتمد على مزيج من التحركات والانتفاضات الجماهيرية وعمليات العنف العسكرية المتكررة والواسعة. من هنا فإن التواجد الجغرافي للجماعة قد امتد إلى مناطق واسعة في جنوب مصر حيث نشأت ثم إلى القاهرة الكبرى حيث سعت للتواجد الجماهيري والعسكري هناك. وعلى خلاف الجماعة فقد قامت نظرية التغيير عند الجهاد على العمل الانقلابي العسكري المفاجئ ضد قيادة الدولة في القاهرة والاستيلاء على الحكم فيها وهو ما أدى إلى تركيز الجهاد على التواجد في العاصمة والمناطق القريبة منها وفي نفس الوقت السعي لتحشيد أكبر عدد ممكن من العسكريين المحترفين وليس طلاب الجامعيات أو توجيهها كما كانت تفعل الجماعة الإسلامية. وقد ارتبط بتلك الاختلافات بين الحركتين اختلاف آخر في أساليبهما العسكرية العنيفة حيث ركز الجهاد دوما على استخدام وسائل عسكرية أكثر تدميرا واحترافا مثل الهجمات بالقنابل والعبوات المفخخة والموقوتة والموجهة عن بعد وأحيانا الهجمات الانتحارية. وقد ركز الجهاد في هجماته تلك على قيادات الدولة المصرية العليا كما كان الحال عندما استهدف كل من رئيس الوزراء ووزير الداخلية عام ١٩٩٣ . أما الجماعة فقد ركزت على كافة الأهداف التي يمكن لها الوصول إليها سواء كانت جنود وضباط شرطة صغار أو كبار أو مستولين سياسيين أو صناعة السياحة المهمة بالنسبة للاقتصاد المصري. وفي كل تلك الهجمات استخدمت الجماعة وسائل عسكرية أقل تقدما واحترافا من الجهاد حيث تركزت معظم عملياتها على استخدام الأسلحة النارية وبخاصة الرشاشة والآلية منها.

وقد ظهرت كل تلك التمايزات والفوارق بين الجماعتين بعد أن انفض التحالف القائم بينهما عام ١٩٨٤ على إثر خلافات كبيرة بين قيادات كل منهما أثناء وجودهم معا في السجون المصرية. وكنا نؤكد معظم روايات شهود تلك المرحلة فقد تلخصت الخلافات بين الجماعتين في ثلاث قضايا كانت ضمن الرؤى النظرية والأساليب الحركية حيث أتى الخلاف النظري الواضح حول مسألة العذر بالجهل رغم في حقيقتها كانت تتعلق بطريقة النظر والحكم على المجتمع المصري وأفراده فضلا عن ارتباطها بتصور عملي يتعلق بمن يمكن تحنيده، وفقا لهذه المسألة ليكون عضوا في إحدى هاتين الجماعتين. وتعلقت المسألة الثانية بقضية نظرية - عملية هي طبيعة العمل الذي يجب أن تقوم به كل من الجماعتين وهل يجب أن يكون عملا سريا تماما أم خليط من السرية والعملية وكانت قيادات جماعة الجهاد مع الأولى في حين انحازت قيادات الجماعة إلى الثانية. وترتب على هذين الخلافين الخلاف الثالث العملي - النظري وهو المتعلق بمن تحب مبايعته كأمير للجماعة الموحدة حينذاك حيث انحازت قيادات الجماعة إلى الشيخ الأزهري الضرير عمر عبدالرحمن بينما انحازت قيادات الجهاد إلى ضابط المخابرات العسكرية السابق عبود الزمر. وقد نشأ نتيجة لذلك خلاف نظري فقهي بين الجماعتين حول شرط الإمارة فرفع أعضاء الجهاد شعار "لا ولاية لضرير" في إشارة للشيخ عمر بينما رفع أعضاء الجماعة شعار "لا ولاية لأسير" في إشارة لعبود الزمر الذي بقي في السجن بينما أفرج عن عمر عبدالرحمن. ونتيجة لتلك الخلافات النظرية - العملية انشقت جماعة الجهاد الموحدة من جديد لتعود مرة أخرى إلى جماعتين هما الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد.

رابعا: مسار الجهاد بعد الانفصال عن الجماعة

كما سبق القول فقد اختلفت جماعة الجهاد عن الجماعة الإسلامية من حيث النشأة التاريخية والتطور فقد ظلت المجموعات الجهادية الصغيرة حية وقائمة بداخل الإطار الأوسع الذي مثلته جماعة الجهاد بعد أن انفصلت عن الجماعة الإسلامية عام ١٩٨٤ ومارست دورها في تغذيته من الناحية الواقعية وتحوله إلى تنديد من التنظيمات الصغيرة التي لا يجمعها سوى الاسم وجزء من التاريخ. كذلك فمن المعروف أن

Abu Nour www.alkottob.com

الجماعتين أي الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد كانتا تتبنيان رؤية فكرية وحركية واحدة فيما يخص أهداف عنفهما تلخصها مقولة مؤلف كتاب "الجهاد: الفريضة الغائبة" محمد عبدالسلام فرج ذو التأثير المباشر والعميق على الجماعتين حتى منتصف التسعينيات تقريبا وهي أن "العدو القريب أولى بالقتال من العدو البعيد". وتعني تلك المقولة من الناحية العملية أن الجماعتين كانت تجدان في الحكومة المصرية "العدو القريب" والوحيد الذي يجب أن يتوجه إليه عنفهما سعيا إلى الإطاحة بها والاستيلاء على السلطة بدلا منها ومن ثم تأسيس دولة إسلامية وإعادة أسلمة المجتمع المصري كله. أما "العدو البعيد" أو الخارجي سواء كان الدولة العبرية أو الولايات المتحدة أو غيرهما فلم يكن من الوارد وفقا لتلك الرؤية النظرية أن تبادر أيا من الجماعتين إلى التصدي للقتاله قبل الانتهاء من المهمة الرئيسية الأولى أي الإطاحة بالحكم المصري وتأسيس آخر إسلامي محله يكون هو أداة مواجهة ذلك العدو البعيد.

وقد تعرضت تلك الرؤية النظرية والحركية لهزة كبرى مع إعلان مبادرة الجماعة الإسلامية وقرارها بالتوقف عن العنف والتحول لجماعة سياسية - اجتماعية وبخاصة مع انضمام عدد كبير من قيادات وأعضاء الجهاد المقيمين الموجودون في السجون إلى مبادرة الجماعة بعد أيام من إعلانها في الخامس من يوليو ١٩٩٧. وفي خلال الفترة التالية حتى صدور قرار مجلس شورى الجماعة في مارس ١٩٩٩ بالوقف النهائي والشامل لكافة عمليات العنف انضمت أعداد أخرى من قيادات وأعضاء الجهاد إلى موقف الجماعة وبخاصة هؤلاء المقيمون في مصر والدول الأوروبية. إلا أن طبيعة الجماعة الإسلامية التي كانت تتمتع منذ تشكيلها في النصف الثاني من السبعينيات بكيان تنظيمي متماسك وقيادة موحدة ودرجة واضحة من الولاء والاستقرار الداخليين قد مكنتها من اتخاذ وتطبيق قرارا مركزي من قيادتها بالتوقف عن العنف والتحول كلية إلى جماعة سياسية - اجتماعية إسلامية سلمية. أما الجهاد فبالرغم من تبني كافة أعضاء وقياداته بداخل مصر تقريبا والغالبية الساحقة من المنفيين منهم في الدول الأوروبية نفس الموقف الجديد للجماعة الإسلامية وتحولها بعيدا عن العنف فلم يصدر أي قرار مركزي من أي هيئة قيادية من الجماعة يؤكد ذلك التحول نظرا لعدم وجود مركز قيادي حقيقي وفعال لذلك التنظيم. وقد نتج عن ذلك أن الدولة المصرية من ناحيتها لم تقم بأية إجراءات للتسهيل على أي من قيادات الجهاد ولا أعضائه مثلما فعلت مع الجماعة الإسلامية وظلت تتعامل معهم بقدر أكبر من الحساسية الأمنية التي تتعامل بها مع الجماعة الإسلامية.

خامسا: الظواهري وجماعة الجهاد

قبيل تلك السنوات كان تنظيم الجهاد قد بدأ يتعرض لتغيرات مهمة بدأت منذ النصف الثاني من الثمانينيات حين غادر مصر إلى أفغانستان وباكستان عدد من قياداته الذين قضوا أحكام السجن عليهم في مصر ومنهم أيمن الظواهري. وقد اجتمع هؤلاء معا حيث قرروا اختيار أمير لجماعة الجهاد واستقروا على أن يكون هو سيد إمام الشريف الذي أطلقوا عليه لقب عبدالقادر بن عبدالعزيز. والشريف من مواليد عام ١٩٥٠ وينتمي لمحافظة بني سويف في شمال صعيد مصر والتي تبعد عن القاهرة نحو مائة كيلومتر وهو خريج من كلية الطب عام ١٩٧٤ وتخصص في الجراحة. وقد كان الشريف متهما في قضية الجهاد الكبرى التي تلت اغتيال الرئيس المصري السابق أنور السادات عام ١٩٨١ والتي ضمت ٣٠٢ إسلاميا كان ضمنهم أيضا أيمن الظواهري وقد حصل الاثنان على نفس الحكم بالبراءة مما نسب إليهما من أفعال في تلك القضية. وقد غادر الشريف مصر منذ عام ١٩٨١ قبيل وقوع عملية اغتيال الرئيس السادات وظل في الخارج متنقلا بين بلدان عديدة كان اليمن آخرها حيث قامت السلطات هناك بالقبض عليه في أكتوبر عام ٢٠٠١ وتسليمه لمصر في فبراير عام ٢٠٠٤.

Abu Nour www.alkottob.com

وقد بدأ الشريف خبرة العمل الإسلامي السري الانقلابي مبكرا حيث كان عضوا إحدى المجموعات الجهادية الصغيرة التي تشكلت عام ١٩٦٨ تقريبا في ضاحية المعادي بجنوب القاهرة وكانت تضم معه كلا من أيمن الظواهري وتبيل البرعي وإسماعيل طنطاوي وغيرهم ممن أصبحوا بعد ذلك من القيادات الكبرى والمعروفة لذلك التيار الجهادي.

وحسب شهادة كثير من الإسلاميين فقد اختير اسم عبدالقادر بن عبدالعزيز للأمير الجديد للجماعة لأن المعروف لم تكن تريد أن يعرف الناس اسم الأمير الحقيقي وأيضا لأن الأمير الجديد نفسه سيد إماء كان يجب أن يكون العمل سريا. ونتيجة لذلك فقد كان المشهور آنذاك هو أن أمير الجماعة هو أيمن الظواهري لأن اسمه كان معروفا من خلال المحاكمات من خلال حديثه لوسائل الإعلام بالإضافة إلى أن الجيل القديم في الجماعة كان يعرف الدكتور الظواهري وليس الشريف الذي كان قد غادر مصر قبل اعتقال السادات. وظل الشريف يقود تنظيم الجهاد من باكستان وأفغانستان ويوجه أعضاءه من هناك حتى نهاية عام ١٩٩٢ حيث حدثت هزة كبيرة في التنظيم بسبب الكشاف جناح طلائع الفتح العسكري الخاص به وقيام السلطات المصرية بإلقاء القبض على نحو ألف شخص من أعضائه. أدى ذلك أزمة كبيرة داخل الجماعة وقد بعض قياداتها تيارا قويا يدعو إلى محاسبة قيادة الجماعة عما حدث وبخاصة أيمن الظواهري الذي كان معروفا للعامة كأمير لها. وطالب التيار المتمرد باستقالة الدكتور الشريف من إمارة الجماعة واختيار أمير جديد لها أكثر قدرة على إدارة شئونها اليومية منه وهو ما أدى به إلى تقديم استقالته فعلا من إمارة الجماعة ومن الجماعة نفسها ثم اختيار أيمن الظواهري أميرا لها بعد أن ظلت لفترة بلا أمير. وقد اعتزل الشريف بعد ذلك العمل الحركي وتفرغ للبحث والتأليف حيث أصبح أبرز منظري أفكار الجهاد المصريين على مستوى العالم بالرغم من عدم انخراطه في أي عمل تنظيمي بعد تلك الفترة ومن أبرز مؤلفاته الكتابين الضخمين اللذين يزيد كل منهما عن الألف صفحة: "العمدة في إعداد العدة" و"الجامع في طلب العلم الشريف".

أما الأمير الفعلي والرسمي الجديد للتنظيم أي أيمن الظواهري فهو من مواليد القاهرة في ١٩ يونيو ١٩٥١ وُلد كان أستاذا بكلية الصيدلة جامعة القاهرة التي تخرج أيمن من كلية الطب بها عام ١٩٧٤ ثم حصل منها على الماجستير في الجراحة عام ١٩٧٨ . ومن المعروف أن أيمن ينتسب إلى عائلة معروفة ذات ثقل اجتماعي - ثقافي مرتفع حيث كان جده لوالده محمد الأحمدي الظواهري شيخا للأزهر خلال الثلاثينيات كما كان خاله لأمه عبدالرحمن عزام أول أمين عام لجامعة الدول العربية. كما أنه من المعروف أن الظواهري قد بدأ التحاقه بالحركة الإسلامية الدينية المعروفة باسم "الجهادية" عام ١٩٦٨ حيث شكل مع آخرين جماعة صغيرة سرعان ما تفككت ليخرج بعدها عدة تجارب تنظيمية أخرى صغيرة حتى عام ١٩٨١ حين انضم إلى "جماعة الجهاد" الموحدة. وقد حوكم الظواهري مع أكثر من ٣٠٠ متهم آخر في قضية محاولة قلب نظام الحكم وأدين بالسجن ثلاث سنوات حيث خرج منه عام ١٩٨٤ . وخرج الظواهري من مصر إلى مكان غير معروف عام ١٩٨٦ حيث تأكد وجوده بعد عشر سنوات كاملة في أفغانستان التي لا يزال مقيما بها حتى اليوم.

كذلك فقد تميزت مسيرة الظواهري بسيطرة الطابع الفكري والتنظيمي عليها وليس العسكري فقد كان ذلك هو اهتمام الظواهري الرئيسي وبخاصة بعد خروجه من السجن عام ١٩٨٤ وتكثيف بعد اعتقاله من مصر بعدها بعامين حيث ألف عديد من الكتب والدراسات حول مفهومه للجهاد الداخلي وبعضها حول نقد رؤى تيارات إسلامية أخرى مثل الإخوان المسلمين الذين خصص لهم كتابا كاملا من النقد اللاذع لتجربتهم حمل اسم "الحصاد المر". كما كان الظواهري في خلال توليه زعامة الجهاد بعد عام ١٩٩٣ يشرف بنفسه على إعداد نشرات الجماعة الفكرية التي تناقش عديدا من القضايا الفكرية

Abu Nour www.alkottob.com

لها. أما الخبرة العسكرية للظواهري فهي في الحقيقة غير معروفة والأرجح أنه لا يملك تراكما له قيمة في هذا المجال كما توضح مسيرة حياته في مصر وخارجها.

وفي كل الأحوال فسيظل اسم الظواهري علامة فارقة في التحولات التي طرأت على نشاط وتوجهات الإسلاميين الجهاديين عموما ليس فقط لأنه نموذج مختلف تماما عن غالبية أعضاء التنظيمات الإسلامية الراديكالية الذين ينتمون إلى فئات اجتماعية متدنية أو متوسطة على أفضل تقدير ولكن أيضا لأن مواقفه وآراءه كانت دائما وراء انتقالات من الوزن الثقيل طرأت على تلك التنظيمات عموما و"جماعة الجهاد" خصوصا. واللافت أن الظواهري لم يمر بمراحل عدة قبل أن يصبح ناشطا "جهاديا" وإنما اقتحم في سن صغيرة ذلك الطريق الذي أوصله إلى ما آل إليه مصيره، فقبل أن يكمل السادسة عشر كان عضوا في خلية "جهادية" وقبل أن تطأ أقدام زملائه من الأصوليين الراديكاليين الأراضي الأفغانية كان قد سافر في منتصف العام ١٩٨٠ إلى مدينة بيشاور واستطلع الأجواء وعاين على الطبيعة الأوضاع هناك ثم عاد بعد شهور قليلة ليتم القبض عليه عقب اغتيال السادات. وداخل السجن كان الظواهري هو المعارض الأول لتولي الشيخ عمر عبد الرحمن زعامة الائتلاف بين تنظيمي "الجهاد" و "الجماعة الإسلامية" وظل على موقفه حتى تم فض التحالف بينهما في عام ١٩٨٤. وبعد خروجه كان الظواهري في طليعة الإسلاميين المصريين الذين توجهوا إلى أفغانستان حيث أعاد إحياء "جماعة الجهاد" واستقطب أعدادا كبيرة من هؤلاء الذين ذهبوا إلى هناك دون أن يكونوا أعضاء في تنظيمات بعينها وإنما لمجرد مناصرة المجاهدين الأفغان.

انشغل الظواهري في أفغانستان بعد توليه إمارة الجماعة رسميا وفعليا بمهمة إعادة إحياء التنظيم وتجنيد عناصر جديدة ووضع الأسس الفكرية له خصوصا بعدما أعلن عبود الزمر أكبر قادة الجهاد سنا وأكثرهم خبرة انضمامه إلى "الجماعة الإسلامية". وراح التنظيم تحت قيادة الظواهري يشدد من محاولاته لتوجيه ضربات عنيفة للنظام المصري وهو ما أخفق فيه بالرغم من نجاحه في اختراق الحواجز الأمنية والقيام ببعض العمليات الكبرى التي لم تنجح كان أبرزها محاولة اغتيال رئيس الوزراء المصري الأسبق عاطف صدقي بسيارة مفخخة تم تفجيرها عن بعد للمرة الأولى في مصر عام ١٩٩٣ ومحاولة اغتيال وزير الداخلية الأسبق حسن الألفي في عملية انتحارية كانت أيضا هي الأولى في مصر حتى ذلك الوقت. وفي عام ١٩٩٦ قام التنظيم بتفجير السفارة المصرية في باكستان بعملية انتحارية كبيرة كانت الثانية من هذا النوع التي يوجهها التنظيم لأهداف رسمية مصرية كما كانت الأولى التي توجه لأهداف من هذا النوع خارج البلاد. وقد تلقت جماعة الجهاد نتيجة لمحاولاتها هذه ضربات واسعة وقاسية من سلطات الأمن المصرية جعلتها عاجزة منذ ذلك الوقت عن تنفيذ أي عملية أخرى ضد أي أهداف مصرية سواء داخل البلاد أو خارجها.

على الرغم من نجاح الظواهري في ذلك الوقت في السيطرة على قيادة جماعة الجهاد فقد دخل في عدة صراعات مع قيادات أخرى كبيرة بداخلها. فقد دخل في أزمة مع الأمير السابق للجماعة سيد إمام الشريف حول كتابيه المشار إليهما سابقا إذ أن غالبية أعضاء الجماعة كان يعتقدون أن الكتابين من تأليف الظواهري حيث نشرا باسم حركي هو الشيخ عبد القادر بن عبد العزيز وهو اسم حركي تبين بعدها أنه يخص سيد أمام الشريف. وقد دخل الأخير في عام ١٩٩٥ في صدام مع الظواهري بسبب قيام "نشرة المجاهدين" الناطقة باسم الجماعة على نشر حلقات من كتاب "الجامع في طلب العلم الشريف" بعد حذف أجزاء منه فسارع الشريف إلى الاحتجاج واصدر بيانا حمل توقيعه استنكر فيه تحريف الكتاب وأعلن أنه سيطبعه من جديد وبالفعل نفذ ما وعد به. وقبل هذا

Abu Nour www.alkottob.com

الصدام كان الظواهري قد اصطدم بائنين من مساعديه الأول هو محمد مكاوي والثاني هو أحمد حسين عجيزة وكانا قد لحقا بالظواهري إلى أفغانستان في بداية التسعينيات وحاولا اختراق الحصار الذي فرضه الظواهري على المواقع القيادية في التنظيم لكنهما فشلا. فالشقة التي أولاها الظواهري لآخرين مثل ثروت صلاح شحاته ونصر فهمي حسانين وأحمد سلامة مبروك وطارق أنور ومرجان مصطفى سالم إضافة إلى شقيقه محمد الظواهري لم يكن في مقدور مكاوي أو حسين التأثير عليها وانفصل الاثنان عن الجماعة بعدما ألقت الشرطة المصرية عام ١٩٩٣ القبض على أعداد كبيرة من أعضاء التنظيم داخل مصر في القضية المعروفة بقضية طلائع الفتح السابق الإشارة إليها.

وإذا كان الظواهري لجأ إلى استخدام الحيل للتغطية على تنقلاته وأسفاره المتعددة فإن الأمر وصل لدى بعض أعضاء التنظيم إلى حد الحديث على قدراته الخارقة في مثل تلك الأمور وعندما تسللت مصر عام ١٩٩٨ عددا من قادة الجماعة ممن كانوا يقيمون في الخارج كشف هؤلاء في اعترافاتهم حقائق ووقائع لم تكن معروفة من بينها قصة ذهاب الظواهري إلى أميركا والتي لم تؤكدها غيرهم مصادر جادة موثوقة أمريكية أو غير أمريكية وكذلك قيامه بتدريب عناصر في التنظيم عام ١٩٩٠ على استخدام الطائرات ونجاحه من التسلل إلى مصر بعدما وقع في قبضة السلطات في دولة داغستان دون أن يعرف المسؤولون هناك أنه الشخص الذي يبحث عنه الجميع وأخيرا ما أثير عن إقدامه مع بن لادن على شراء أسلحة كيماوية وبيولوجية لاستخدامها عند الضرورة.

أما واقعتي حصول الظواهري على الأسلحة الكيماوية والبيولوجية وسجنه في داغستان فقد ذكرهما فقط مساعده أحمد سلامة مبروك الذي تسلمته مصر من أذربيجان عام ١٩٩٨ حيث ذكر أثناء جلسات المحاكمة في شهر ابريل العام ١٩٩٩ في قضية "العائدون من ألبانيا" التي اتهم فيها ١٠٧ من أعضاء تنظيمي "القاعدة" و"جماعة الجهاد" أن "الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين" حصلت على أسلحة بيولوجية وكيماوية تم شراؤها من دول في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق خلال السنتين اللتين سبقتا تأسيس الجبهة وأن تلك الأسلحة وزعت على عناصر تابعة للجبهة لاستخدامها عند الضرورة ضد أهداف أميركية في حال فشل تنفيذ عمليات ضد تلك الأهداف باستخدام المتفجرات والأسلحة التقليدية. وذكر مبروك الذي كان مقربا للغاية من الظواهري أن جهاز كومبيوتر ضبط معه في شهر سبتمبر عام ١٩٩٨ أثناء وجوده في أذربيجان سجل عليه مخطط لتنفيذ عمليات ضد أهداف أميركية في أنحاء متفرقة من العالم. وقال مبروك: إن الظواهري ظل يتردد منذ عودته من السودان إلى أفغانستان في ١٩٩٦ على دول تتخذ عناصر في التنظيم منها محطات وأماكن للإقامة والإيواء، بهدف عقد لقاءات معهم والوقوف على الظروف التي يعيشون فيها وشرح خطط التنظيم المستقبلية لهم. كما ذكر أنه توجه في نهاية عام ١٩٩٦ من أفغانستان برا عبر تركمنستان وكازاخستان وداغستان قاصدا أذربيجان واصطحب معه مساعده ثروت صلاح شحاتة وعددا آخر من اتباعه بهدف لقاء عدد من أعضاء التنظيم يقيمون في أذربيجان بينهم مبروك وأن الظواهري ومرافقيه كانوا يستخدمون جوازات سفر مزورة لدول عربية. لكن السلطات في داغستان التي تقع على الساحل الغربي لبحر قزوين من الجانب الشمالي لجبال القوقاز أوقفتهم على الحدود واكتشفت أنهم يحملون جوازات مزورة فقامت بترحيلهم الى العاصمة حيث اعتقلوا في سجنها. وأضاف مبروك أن السلطات في الجمهورية التابعة لروسيا لم تعلم أن المعتقلين مصريون وأن بينهم زعيم جماعة "الجهاد" حيث لم يكن أحد منهم يستخدم جوازا مصريا وأنها ظلت طوال ستة شهور في انتظار أن تتقدم إحدى الدول بالإبلاغ عن اختفاء رعايا لها من دون جدوى وأن بن لادن علم بالأمر فأرسل أحد مساعديه وتمكن من دفع كفالة لإطلاق المعتقلين على

Abu Nour www.alkottob.com

أساس أنهم ليسوا مصريين وأعادهم إلى أفغانستان.

سادسا: الجهاد والقاعدة

ظلت جماعة الجهاد حتى فبراير ١٩٩٨ تحتفظ برؤيتها الحركية والفكرية الجهادية المحلية القائمة على مقولة مؤلف كتاب "الجهاد: الفريضة الغائبة" محمد عبدالسلام فرج ذو التأثير المباشر والعميق على التنظيم وهي أن "العدو القريب أولى بالقتال من العدو البعيد". وتعني تلك المقولة من الناحية العملية أن التنظيم يظل يجد في الحكومة المصرية "العدو القريب" والوحيد الذي يجب أن يتوجه إليه عنفه سعيا إلى الإطاحة بها والاستيلاء على السلطة بدلا منها ومن ثم تأسيس دولة إسلامية وإعادة أسلمة المجتمع المصري كله. أما "العدو البعيد" أو الخارجي سواء كان الدولة العبرية أو الولايات المتحدة أو غيرهما فلم يكن من الوارد وفقا لتلك الرؤية أن يبادر التنظيم إلى التصدي لقتاله قبل الانتهاء من المهمة الرئيسية الأولى أي الإطاحة بالحكم المصري وتأسيس آخر إسلامي محله بكون هو أداة مواجهة ذلك العدو البعيد. وفي شهر فبراير ١٩٩٨ وقع أيمن الظواهري أمير جماعة الجهاد حينئذ على إعلان تأسيس "الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين" مع أسامة بن لادن وآخرين من قادة بعض الجماعات الإسلامية الجهادية لتتبنى الجماعة بذلك مقولة نظرية وحركية أخرى مضادة للمقولة التي أسست عليها عنفها السابق وهي أن "العدو البعيد أولى بالقتال من العدو القريب" وهي تلك التي قام عليها دوما نشاط تنظيم القاعدة والجماعات القريبة منه في مواجهتهم للولايات المتحدة والدولة العبرية والدول الغربية عموما.

وقد تسبب توقيع الظواهري على تشكيل تلك الجبهة في غضب بعض مساعديه الذين اعترضوا على الدخول في مواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية دون سبب وجيه وما يمكن أن ينتج عن ذلك من صدامات مع تلك الدولة العظمى سيكون من نتيجتها ضرب التنظيم وتدمير عناصره. ووفقا للترتيب التنظيمي داخل الجماعة في ذلك الوقت فان المحامي ثروت صلاح شحاتة المحكوم غيابيا بالإعدام مرتين في قضيتي محاولة اغتيال رئيس الوزراء المصري الأسبق عاطف صدقي و"العائدون من ألبانيا" كان أكثر المرشحين لخلافة الظواهري لكن إصرار الظواهري على التحالف مع بن لادن واعتراض شحاتة وآخرين جعل الجماعة تنقسم إلى قسمين: الأول ذهب مع الظواهري في تحالفه وضم نصر فهمي حسانين وطارق أنور إضافة بالطبع إلى محمد عاطف أبوستة المعروف باسم أبوحفص المصري الذي كان يدين بالولاء للظواهري رغم عمله ضمن تنظيم القاعدة منذ تأسيسه وليس جماعة الجهاد. وتزعم شحاتة القسم الثاني ومعه مرجان مصطفى سالم وبعض من عناصر الجماعة الذين كانوا يقيمون في دول أوروبية حيث رأوا أن ذلك التحالف سيتسبب في إفساد إقامتهم في تلك الدول وسيتيح الفرصة لأجهزة الاستخبارات في مختلف دول العالم للاحقتهم وتسليمهم إلى مصر أو الولايات المتحدة أو تنظيم محاكمات لهم في الدول التي يقيمون فيها. وقد حدث هذا بالفعل لبعض منهم حيث سلمت السويد لمصر لاحقا أحمد حسين عجيزة وألقت بريطانيا القبض على عادل عبد المجيد وإبراهيم عيدروس وصارت ملاحقة الأصوليين عموما والمرتبطين بابن لادن والظواهري خصوصا برنامجا يوميا لأجهزة الأمن في العالم كله.

كذلك فقد قويل تحالف الظواهري الجديد مع بن لادن برفض واسع من قيادات وأعضاء الجهاد في داخل مصر سواء من كانوا بالسجون أو خارجها. وإزاء تلك الضغوط تنازل الظواهري طواعية عن إمارته للجماعة في النصف الثاني من عام ١٩٩٩ على الأرجح تمهيدا للدخول في خلافات أو صراعات مع زملائه وفضل البقاء إلى جوار أسامة بن لادن والعمل معه ضمن الجبهة الجديدة. وجرت بعد ذلك اتصالات بين قادة جماعة الجهاد لترتيب الأوضاع داخلها لكنهم فشلوا في اختيار بديل للظواهري

Abu Nour www.alkottob.com

تعاونوا بطالبونه بالعمل معه في إطار الجبهة الجديدة. وبذلك فقد تحول الظواهري ليصبح فقط قائدا لذلك القسم الصغير من جماعة الجهاد الذي تحول من عنف الداخل إلى عنف الخارج متحالفا مع أسامة بن لادن. أما أغلبية أعضاء الجماعة الأصلية فقد أعلنوا في عديد من البيانات خلال الأعوام السابقة ولف كل أشكال العنف وبدء تحولهم إلى جماعة سياسية - اجتماعية ذات أيديولوجية إسلامية مثلما تعلن "الجماعة الإسلامية" منذ عام ١٩٩٧ في مصر.

وفقا لما سبق فإن التحولات الرئيسية التي عرفها تنظيم الجهاد في علاقته بالقاعدة نشأت من انضمامه لرؤية بن لادن للجهاد الخارجي ثم من استقالة أيمن الظواهري من إمارة الجهاد في نهاية عام ١٩٩٩ واستقلاله باسم التنظيم وأعضاء المقيمين في أفغانستان وباكستان وبعض البلدان الأسيوية الأخرى. وفي هذا الإطار تظهر حقيقتان مهمتان تجب الإشارة إليهما: الأولى أن ذلك التحول في اتجاه العنف لدى الظواهري والقريبين منه من أعضاء الجهاد إنما نتج عن تأثر مباشر برؤية المنشق السعودي أسامة بن لادن التي قامت دوما على المواجهة مع الخارج وليس مع الداخل وذلك بعد أن قضى الظواهري نحو ثلاثين عاما منذ بدء نشاطه الإسلامي في نهاية الستينيات منخرطا في أفكار وممارسات مواجهة الداخل. وتتعلق الحقيقة الثانية بعدد وطبيعة المصريين القريبين من القاعدة على وجه العموم حيث أن أكثر التقديرات لعددهم لا تصل بهم إلى ٥٠٠ شخص بينما تذهب تقديرات أخرى أكثر واقعية إلى أنهم يتراوحون بين ١٠٠ و١٥٠ شخص فقط. أما عن طبيعتهم فكل التقديرات تقريبا تجمع على أن غالبيتهم الساحقة من المنتمين إلى جماعة الجهاد والذين سبق القبض عليهم في مصر وقضوا فترات في سجونها وبالتالي فهم جميعا معروفون لمختلف الأجهزة الأمنية المصرية وغيرها من الأجهزة الأمنية الدولية. وفي هذا السياق تتوضح كافة المؤشرات والمعلومات المتجمعة عن ذلك القطاع خلال السنوات العشر السابقة إلى أنه لم ينجح في تجنيد أي أعضاء مصريين جدد في صفوفه تقريبا سواء في داخل مصر أو في خارجها وظل عدد المنتمين إليه ثابتا تقريبا عند الأرقام السابقة بل وتعرض للنقصان سواء بسبب قتل بعضهم أو القبض على البعض الآخر.

في ظل التقدير السابق لطبيعة وعدد المصريين الموجودين ضمن تشكيلات تنظيم وشبكة القاعدة خارج مصر من المهم التطرق إلى خاصيتين رئيسيتين لهم. تتعلق الخاصية الأولى بطبيعة الانتماءات التنظيمية التي يتوزع بينها هؤلاء في المناطق التي يقيمون بها خارج مصر. وتؤكد مؤشرات عديدة أنهم كانوا ينقسمون منذ بداية التسعينيات إلى قسمين رئيسيين: الأول المنتمين تنظيميا إلى جماعة الجهاد الخارجية التي يقودها أيمن الظواهري ويمثلون الأغلبية الساحقة منهم بينما اقتربت مجموعة قليلة منهم من أسامة بن لادن منذ وصولهم لأفغانستان وعملوا مباشرة تحت قيادته وبالقرب منه. فأما القسم الأول فقد مرت علاقتهم بالمنشق السعودي بثلاثة مراحل منذ وصولهم مع قائدهم الظواهري لأفغانستان في نهاية الثمانينيات: الأولى علاقة تعاون عن بعد للاستفادة من حصيلتها المادية والتدريبية في محاولاتهم لقلب نظام الحكم في مصر عبر عمليات عنف متواصلة ضده وهي المحاولات التي باءت جميعها بالفشل وتعرضت جماعة الجهاد كلها بسببها لضربات عنيفة من النظام المصري. وبدأت المرحلة الثانية في العلاقة منذ فبراير ١٩٩٨ بعد توقيع الظواهري مع بن لادن على تأسيس الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين وهو ما كان سببا في انشقاق جماعة الجهاد وخروج الظواهري وتلك المجموعة منها وتشكيلهم جماعة الجهاد الخارجية والتحاق الباقين - وهم الأغلبية - في مصر والدول الأوروبية بالجماعة الإسلامية في تخليها عن العنف. وبعد سنوات من التعاون في ظل تلك الجبهة توضح مؤشرات عديدة أن جماعة الجهاد الخارجية قد اندمجت مع المجموعات التي يقودها بن لادن في نهاية عام ٢٠٠١ لكي يشكلوا معا تنظيم "قاعدة الجهاد" الذي بدأ الإعلان عنه بذلك

Abu Nour www.alkottob.com

لأول مرة منذ نوفمبر ٢٠٠١ والأرجح أن ذلك الاندماج قد تم لمواجهة الظروف الجديدة التي طرأت بعد هجمات سبتمبر وبدء الحرب الأمريكية ضد "الإرهاب" في أفغانستان ثم العالم كله بعد ذلك وهي المرحلة الثالثة في العلاقة المستمرة حتى الآن.

أما الخاصية الثانية لتلك المجموعة المصرية فهي تتعلق بالأدوار التي يقومون بها ضمن التحالف مع بن لادن ثم الاندماج بعد ذلك معه. وفي هذا الإطار يبدو واضحا أن تلك الأدوار كانت تتوقف على التقسيم السابق لها وما مرت به من مراحل. فأعضاء القسم الأول الذين انضموا لبن لادن منذ البداية مثل صبحي أبو ستة المعروف باسم "أبوحفص المصري" قد اقتربوا منه لدرجة كبيرة وأضحوا مسؤولين عن ملفات مهمة معه ضمن آخرين غير مصريين من جنسيات أخرى. أما أعضاء القسم الثاني أي أعضاء الجهاد الخارجي فقد فرضت على الأرجح ظروف تحالفهم مع بن لادن ثم اندماجهم معه بعد ذلك إسناد أدوار ذات أهمية لهم ضمن الجبهة العالمية ثم التنظيم الواحد بعد ذلك وذلك في إطار التمثيل النسبي لهم باعتبارهم ممثلين لجماعتهم سواء في الجبهة أو في التنظيم الجديد "قاعدة الجهاد" وليس باعتبار أهميتهم الشخصية. وقد ظل ما يميز المصريين بداخل الجبهة العالمية ثم التنظيم هو خبراتهم السابقة الطويلة في العمل الإسلامي التنظيمي والعنيف والتي قد تكون أحد أسباب بروز أدوارهم بالإضافة لما سبق ذكره. وقد بدا واضحا مثلا من تحليل العمليات التي قامت بها القاعدة خلال السنوات السابقة أن التركيز الرئيسي لدور المصريين كان منصبا على تلك التي تمت في منطقة شرق أفريقيا وهو الأمر الذي يوضح حجم ومدى التأثير المصري في تلك المنطقة على عمليات القاعدة ويجد تفسيره في الوجود المبكر لعدد من أعضاء جماعة الجهاد المصرية فيها منذ بداية التسعينيات.

وفي هذا السياق يشار إلى أن أسامة بن لادن لم يكن يتمتع حين ذهب إلى أفغانستان بأي خبرات تنظيمية أو حتى يملك جماعة تابعة له لكن الظواهري أفاد الرجل بشدة ونقل إليه خبراته الواسعة في العمل التنظيمي. وحين كانت جماعة الجهاد تعمل وحدها دون تحالف مع بن لادن منذ بداية عقد التسعينيات وقبل التحالف الذي تم العام ١٩٩٨ كان الظواهري يمد بن لادن بالخبرات وفي الوقت نفسه كان زعيم الجهاد على بينة بتفاصيل ما يحدث في صفوف المجموعات المحيطة بن لادن ولما أتى موعد التحالف وتشكلت الجبهة وجد الظواهري نفسه ملما بكل التفاصيل وعلى بينة تامة بكل الحبايا والأسرار فجاءت العمليات العسكرية التي نفذت بعد ذلك متسقة مع أسلوب جماعة الجهاد المصرية من حيث الدقة وطريقة التنفيذ. فالمعروف أن جماعة الجهاد والتنظيمات الجهادية الأخرى التي تعتنق أفكارا متشابهة اعتمدت منذ سنوات أسلوب العمليات الانتحارية وكانت أول تلك العمليات العام ١٩٩٣ هي محاولة اغتيال وزير الداخلية المصري السابق حسن الألفي حين فجر عضو التنظيم ضياء الدين محمود حافظ نفسه أثناء مرور موكب الألفي قرب مقر الوزارة ووزع الظواهري لاحقا شريط كاسيت بصوت حافظ تحدث فيه عن أسباب إقدامه على التضحية بنفسه. وفي نوفمبر ١٩٩٥ نفذ اثنان من عناصر التنظيم عملية انتحارية استهدفت تفجير السفارة المصرية في باكستان وأصدرت جماعة الجهاد بيانا تبنت فيه العملية وأعلنت أنها نفذت لعقاب الحكومة الباكستانية لإقدامها على تسليم جهاديين إلى الحكومة المصرية. وغير بعيد عن ذلك فقد كانت جماعة الجهاد من أوائل الجماعات التي أصلت لشرعية العمليات الانتحارية والتي اعتمدتها القاعدة بعد ذلك كأسلوب مميز لها وذلك عندما وضعت بحثا بعنوان "العمليات الاستشهادية من المنظور الشرعي" نشرت جزءا منه في العدد الرابع والأربعين من نشرة "المجاهدون". وقد انتهت الجماعة في ذلك البحث المهم إلى مجموعة من الأحكام التي تم اتباعها وتطويرها بعد ذلك ضمن صفوف القاعدة والجماعات الدائرة في فلكها لتصبح قاعدة نظرية وشرعية

Abu Nour www.alkottob.com

غيرها الكثير من أفعالها . ومن تلك الأحكام جواز العمليات الانتحارية حيث أقرت الجماعة في بحثها "جواز إتلاف النفس لمصلحة إظهار الدين" و"إجماع العلماء على جواز اقتحام المهالك في الجهاد" و جواز حمل الواحد على العدو الكبير في الجهاد" و"خروج من قتل نفسه لمصلحة الدين عن النهي الوارد في قوله تعالى: ولا تقتلوا أنفسكم إنه كان بكم رحيما" و"خروج من عرض نفسه للقتل في سبيل الله عن النهي في قوله تعالى: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" و"فضل الصبر لمن لين الأمر والقتال حتى الموت ورفض الاستئسار" و"فضل الصبر عن القتل وعدم النطق بالكفر" وفضل الصبر عن القتل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" و"جواز إتلاف النفس للمصلحة العامة" و"جواز قتل النفس لعدم إفشاء الأسرار تحت التعذيب". أما التطور الأخير في علاقة الجهاد بالقاعدة فقد بدأ في الظهور في الفترة التالية للاحتلال الأمريكي – البريطاني للعراق في أبريل ٢٠٠٣ حيث ظهر واضحا في خطابات أسامة بن لادن وأيمن الظواهري خلال تلك الفترة تبلور نظرية جديدة لمعنى مختلفة عما سبق للاثنين أن تبنياه منذ إعلان تأسيس الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين في فبراير ١٩٩٨ . ووفقا لتلك الرؤية فإن أولويتي القتال خلال المرحلة الراهنة تبدوان متساويتي الأهمية ويجب القيام بهما في نفس الوقت وهما "قتال العدو البعيد" و"قتال العدو القريب". يعني ذلك أن التصالح الفكري والحركي بين رؤية أسامة بن – لادن زعيم القاعدة – الأصلية أي أولوية "قتال العدو البعيد" ورؤية أيمن الظواهري – أمير الجهاد الخارجي – الأصلية أي "قتال العدو القريب" قد تم وأصبحت الرؤية الجديدة التي تتبناها القاعدة كتنظيم أو كنموذج في خليط من هاتين الرؤيتين. يعني ذلك من الناحية الواقعية أن القاعدة كتنظيم وشبكة من المنتمين والمتعاطفين والمتحالفين أصبحت توجه عنفها إلى نظم الحكم في الدول العربية والمسلمة في نفس الوقت الذي توجهه المصالح الأمريكية خصوصا والغربية عموما حيث أصبحا وفق رؤيتها الجديدة عدوا واحدا تجب مواجهته وفق قاعدة ضرورة "قتال العدو البعيد والعدو القريب في وقت واحد".

سابعا الهيكل التنظيمي للجهاد

قبل تشكيل الجبهة التي جمعت بن لادن والظواهري كان مجلس شورى جماعة الجهاد يتكون من الظواهري أميرا وثمانية أعضاء هم: شقيقه محمد الذي يعرف باسمين هما "الأستاذ سمير" و"المهندس" والمعاني ثروت صلاح شحاتة ويستخدم أسماء حركية هي "محمد علي" و"أبو السماح" و"أبو محمد" وعبد الله محمد رجب عبدالرحمن واسمه الحركي "أحمد حسن أبو الخير" وعادل عبد القدوس ويعرف بثلاثة أسماء حركية هي "حازم" و"علاء" و"عثمان" وأحمد سلامة مبروك المعروف باسم "أبو الفرج المصري" ونصر فهمي نصر ويستخدم اسمين حركيين هما "محمد صلاح" و"أبو إبراهيم" وصرحان مصطفى سالم الجوهري ويستخدم ثلاثة أسماء حركية هي "عيسى" و"سامي" و"محمود" وإبراهيم العيدروس. أما "المجلس التأسيسي" للتنظيم فيتكون من لجان تشرف على العمل التنظيمي كل في اختصاصه ويتكون من اللجان الآتية:

– لجنة التنظيم المدني الداخلي: وتختص بمتابعة أعضاء الجماعة داخل مصر من العاملين في مجال الدفوة دون العمل العسكري وكان المسؤول عنها احمد سلامة مبروك.

– اللجنة الأمنية: وكان مسؤول عنها ثروت شحاتة وتختص بإعداد المعلومات عن أعضاء التنظيم وكيفية الاتصال بهم والمقومات الفقهية والشرعية والجسمانية والنفسية عن كل عضو وتحديد الأعمال

Abu Nour www.alkottob.com

التي يمكن لهم القيام بها ويتم ذلك بعد أن تلتقي اللجنة ترشيحات بأسماء الأعضاء من مسئولي المجموعات داخل مصر. كذلك كان من مهام اللجنة مساعدة أعضاء لجنة العمل الخاص داخل مصر وتوفير المأوى لهم وإعاشتهم وتوفير ما يلزمهم من وثائق للتنقل والتخفي وتضليل أجهزة الأمن وتدبير الأسلحة والمتفجرات.

- لجنة العمل الخاص (اللجنة العسكرية): وكان مسؤولا عنها محمد الظواهري وتتولى كل النواحي العسكرية للتنظيم ومتابعة نشاط الأفراد التابعين لها سواء داخل البلاد أو خارجها وتوجيههم وإعطاء التكليفات لهم على كل المستويات وتحديد أسلوب تنقلاتهم وتحركاتهم وأهداف العمليات العسكرية وكيفية التنفيذ.

- لجنة الوثائق: كان مسؤولا عنها شوقي سلامة الذي سلم لمصر من ألبانيا وتتولى إعداد مستلزمات قادة التنظيم وأعضائه من أوراق رسمية وبطاقات هوية وجوازات سفر وشهادات تأدية الخدمة العسكرية وتأشيرات الدول التي ينوي أعضاء التنظيم أو قادته السفر إليها.

- اللجنة المالية: كان مسؤولا عنها نصر فهمي نصر وتختص بتوفير الدعم المالي للتنظيم الذي يتم عبر قنوات عدة أهمها أسامة بن لادن وتبرعات المتعاملين مع الجماعة والأموال التي تجمع من بعض المساجد في دول مختلفة وكذلك نسبة عشرة في المائة من دخل أعضاء الجماعة.

- لجنة أسر المعتقلين داخل مصر: تتولى جمع المعلومات عن أسر أعضاء التنظيم ممن يقضون فترات العقوبة أو المعتقلين على ذمة القضايا وتدبير الوسائل المناسبة لإرسال مبالغ لذويهم.

- اللجنة الشرعية: مسؤول عنها مرجان مصطفى سالم وتختص بالعمل على إعداد الأبحاث الشرعية للتنظيم والتي تتناول رأي وردود فعل الجماعة تجاه الأمور الشرعية والخلافية والفقهية التي تعترض التنظيم والرد على ما يوجه له من نقد.

- اللجنة الإعلامية: وتتولى طباعة الأبحاث والكتب والبيانات الخاصة بالتنظيم وتوزيعها داخل مصر وخارجها. وقد انتقلت معظم تلك اللجان والمسئولين عنها بعد التحالف بين الظواهري وبن لادن لتعمل أولا في إطار الجبهة العالمية ثم بعد ذلك في إطار تنظيم "قاعدة الجهاد".

Abu Nour www.alkottob.com

٦. حركة المقاومة الإسلامية- حماس

تعد حركة المقاومة الإسلامية – حماس- أبرز حركات المقاومة المسلحة على الساحة الفلسطينية، وهي امتداد لحركة الإخوان المسلمين. وقد ركزت رؤية الحركة في المرحلة الأولى على بناء الفرد والأسرة والمجتمع تمهيدا لإقامة الدولة الإسلامية، ولم تكن مواجهة الاحتلال مطروحة ضمن رؤيتها وحركتها خلال تلك المرحلة، ولكنها اضطرت لاحقا، تحت وطأة انتفاضة ١٩٨٧، إلى بدء عمليات مواجهة الاحتلال. وفي هذا السياق، يلخص بعض الدارسين دور حماس والحركات الإسلامية في فلسطين بالقول "أن العامل الإسلامي لم يغب يوما عن النزاع العربي – الإسرائيلي منذ ما قبل زعامة الحاج أمين الحسيني وصولا إلى نشوء حركة فتح، فقد بقي دور الحركة الإسلامية السياسي محدودا نسبيا خلال العقدين الماضيين. غير أن اندلاع انتفاضة ١٩٨٧، أحيا دور الحركة وأعطاها وزنا خاصا بالمقارنة مع المعارضة الخارجية (١).

وقد أعلن عن نشأة حماس رسميا في الرابع عشر من ديسمبر ١٩٨٧، أي بعد نحو أسبوع على اندلاع الانتفاضة. وأحيطت نشأة الحركة بالعديد من التساؤلات لاسيما بعد أن دخلت في سباق مع القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة، التي تسيطر عليها منظمة التحرير، ودخولها أيضا فيما أعتبر سباق على السيطرة على الشارع الفلسطيني، وإدعاء تفجير الانتفاضة والتحكم فيها. وقد ممكن الأساس الإيديولوجي الحركة من القيام بعمليات مقاومة مسلحة نوعية على نطاق واسع، الأمر الذي جعلها المنظمة الأولى من حيث القدرة على القيام بعمليات مقاومة مسلحة، وجعلها في الوقت نفسه الهدف الأول للرد الإسرائيلي.

وأدى انطلاق حماس من أساس إيديولوجي يقول بأن فلسطين من النهر إلى البحر أرض وقف إسلامي لا يجوز التنازل عن شبر واحد منها، إلى رفض الحركة لكافة مبادرات واتفاقات التسوية السياسية التي تنهض على أساس قرارات الشرعية الدولية والتي تتحدث فقط عن حدود ما قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧، بما يعني اختزال فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة. ومن هنا بدأت بعد توقيع اتفاق أوسلو وتكوين السلطة الوطنية الفلسطينية عملية مواجهة مزدوجة، وبات على حماس مواجهة قوات الاحتلال والسلطة الوطنية في الوقت نفسه، لاسيما بعد أن بدأت الأخيرة تتحرك من أجل تنفيذ بنود الاتفاقات الموقعة مع إسرائيل. وكثيرا ما هددت المواجهات بوقوع اقتتال فلسطيني – فلسطيني.

في المقابل، بدا واضحا أن حركة حماس عاجزة عن بلورة فكر يتعاطى مع ما هو مطروح من اتفاقات للتسوية

Abu Nour www.alkottob.com

السياسية، أو تقديم حلول خارج الأساس الإيديولوجي الذي يحصر الصراع في كونه صراع وجود، ومن حاول الاجتهاد في البحث عن أسس للقبول بوجود السلطة الوطنية الفلسطينية، ودخول اللعبة السياسية، كان مصيره الطرد من الحركة. وحتى بعد التحولات الدولية والإقليمية التي ترتبت على اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، لم تبادر الحركة بإدخال تكييفات جديدة على مواقفها جريا على قاعدة المواءمة السياسية، واتسع نطاق المواجهة فدخلت الحركة كغيرها من الحركات الإسلامية، وحركات المقاومة المسلحة عامة، القائمة الأمريكية "للمنظمات الإرهابية"، وبدأت تتعرض للملاحقات الأمنية، وأطلقت يد قوات الاحتلال الإسرائيلي في اغتيال القيادات والكوادر على النحو الذي تجسد بوضوح إبان عملية إعادة احتلال الأراضي الفلسطينية في العملية التي عرفت باسم " السور الواقي".

وعندما تحركت الولايات المتحدة بطرح خطة للتسوية السياسية بالاشتراك مع الاتحاد الأوروبي وروسيا الاتحادية والأمم المتحدة، والتي عرفت باسم "خريطة الطريق"، اشترطت أن تقوم الحكومة الفلسطينية الجديدة بنزع سلاح وحظر نشاط منظمات المقاومة المسلحة وعلى رأسها حركة حماس. في المقابل، نشطت أطراف عربية على رأسها مصر، سعت بالأساس إلى حوار بين الحكومة الفلسطينية وحركات المقاومة الفلسطينية عامة بهدف التوصل اتفاق يتضمن هدنة مؤقتة لإتاحة الفرصة أمام الحكومة الفلسطينية الجديدة للسير في خطة التسوية. وعلى الرغم من وجود مؤشرات أولية على إمكانية نجاح هذا الحوار، فإن عمليات تفجيرية جديدة وقعت داخل إسرائيل، أو فلسطين ١٩٤٨ ، وأعلنت حماس مسئوليتها عنها، الأمر الذي أعاد خلط الأوراق مرة أخرى، وهدد بوقوع مواجهات مسلحة جرى التحذير منها مبكرا على أساس أنها متضمنة في سياق شروط حكومة شارون للموافقة المشروطة على خطة خريطة الطريق.

في هذا السياق طُرحت العديد من التساؤلات حول حركة المقاومة الإسلامية- حماس، من حيث النشأة والدور، ومن حيث قدرتها على إبداء قدر من المرونة بالنظر إلى الأسس والمنطلقات الإيديولوجية للحركة، وطبيعة نظرتها للصراع، وأيضا بشأن قدرتها على التحول إلى حركة سياسية تستخدم الأدوات المتعارف عليها في تحقيق أهدافها في مرحلة ما قبل إنشاء الدولة وما بعدها.

عموما حتى نحيط بمجمل الاعتبارات الخاصة بحركة المقاومة الإسلامية - حماس- باعتبارها حركة تحرر وطني مسلحة، سوف نتناول أولا نشأة وتطور الحركة، ثم نتناول بعد ذلك نشاط الحركة وموقفها من جهود التسوية السياسية، وأخيرا حدود قدرة الحركة على تبني مواقف تتسم بالمرونة والتعاطي مع مشروعات التسوية السياسية المطروحة.

أولا: نشأة ونشاط حركة الإخوان المسلمين في فلسطين

تعد حركة حماس امتداد لحركة الإخوان المسلمين أو جناح من أجنحتها. وتعود جذور حركة الإخوان في فلسطين إلى ثلاثينيات القرن العشرين التي توطد وجودها في فلسطين مع مشاركة المنتطوعين من الإخوان من مصر والأردن في حرب ١٩٤٨ . وتعد الفترة حتى عدوان يونيو ١٩٦٧ هي فترة توطيد وجود الحركة في قطاع غزة تحديدا. وأدى احتلال إسرائيل للضفة وغزة في حرب يونيو ١٩٦٧ إلى قطع العلاقة بين الحركة الأم في مصر وعناصرها في فلسطين.

ويقدر ما أدى انقطاع العلاقة إلى إضعاف الحركة في فلسطين، بقدر ما أدى في الوقت نفسه إلى نضج الحركة واعتمادها على الذات، وبلورة توجهات فلسطينية لأتباع الحركة في الضفة والقطاع. ويلاحظ بداية أن نشاط الإخوان المسلمين في الأراضي الفلسطينية لم يكن موجها بأي شكل من الأشكال ضد قوات الاحتلال، بل كان منصبا على هدف بناء الفرد المسلم والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، وصولا إلى الدولة المسلمة. ولذلك لم

Abu Nour www.alkottob.com

يدخل الإخوان المسلمين في فلسطين -الضفة والقطاع - في مواجهة مع قوات الاحتلال، ولم يكن من بين أهدافهم في هذه الفترة مواجهة قوات الاحتلال، بل أنهم عملوا لتحقيق الأهداف السابقة، بوجب تراخيص لمزاولة نشاطات اجتماعية وثقافية ورياضية حصلوا عليها من قوات الاحتلال. في الوقت نفسه لم تنظر قوات الاحتلال إلى نشاط الإخوان المتركز في المجالات الثقافية والاجتماعية على أنه يمثل خطرا عليها، بل أنها عملت على تشجيع هذا النشاط ظنا منها أنه سوف يضعف نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية.

وربما يفسر هنا التوجه من قبل الإخوان المسلمين ما ذكرته بعض الكتابات والتحليلات في هذه الفترة عن وجود علاقات تحتية بين الإخوان المسلمين والاحتلال الإسرائيلي، فقد رأى البعض أن إسرائيل، وعلى غرار نظم حكم عربية عديدة، شجعت نشاط الإخوان المسلمين ووفرت لهم الأجواء الملائمة للنمو والعمل بحرية بهدف ضرب حركة المقاومة الوطنية التي تمثلها منظمة التحرير الفلسطينية، علمانية الأساس والتوجهات، وأن الإخوان المسلمين في المقابل لم يركزوا على مواجهة الاحتلال تقديرا منهم لعدم القدرة على المواجهة في هذه المرحلة، وأنه لابد أولا من بناء المجتمع الإسلامي من أسفل وصولا إلى الدولة الإسلامية.

من هنا نهضت رؤية حركة الإخوان المسلمين في الأراضي الفلسطينية في ذلك الوقت، وتحديدا في قطاع غزة، على مبدأ تجنب مواجهة قوات الاحتلال، والاكتفاء بالعمل على تحقيق الأهداف التالية:

- تطبيق فكر الإخوان المسلمين القائم على بناء الفرد والأسرة والمجتمع الذي سيؤدي إلى إقامة الدولة الإسلامية.

- تجنب الصدام مع قوات الاحتلال أو الفصائل الفلسطينية الأخرى الذي قد يؤدي إلى القضاء على المشروع الإسلامي أو تأجيله وتأخيره عشرات السنين.

وفي هذا الإطار، لم تسمح قيادات حركة الإخوان المسلمين في فلسطين لشباب الحركة باللجوء إلى العنف في مواجهة قوات الاحتلال على نحو ما كانت تفعل منظمات وحركات المقاومة الأخرى المنضوية تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية. إلا أنه سرعان ما بدأت فكرة المقاومة ومواجهة قوات الاحتلال تجذب شاب الحركة. كما أن إعلان فصائل فلسطينية أخرى الكفاح المسلح واستخدام بعضها لمصطلح الجهاد "ضد العدو الصهيوني" قد أدى إلى إثارة حماس بعض القيادات لفكرة المقاومة وإثارة سخط الشباب الراغب في الجهاد. وفي هذا السياق، يقول عماد الفالوجي- إحدى قيادات الحركة- "كان الشباب في الحركة يتسمون بالعنف والتمرد، ويقودون العمل أحيانا دون الرجوع إلى القيادات التقليدية التي كانت غير مقتنعة بالمواجهة اقتناعا كاملا لأنها ترى أن الأمور لم تنضج بعد وليس من الضروري أن نحذو حذو الفصائل الأخرى"(٢).

وبدا واضحا أن تمسك قيادات الإخوان بعدم مواجهة قوات الاحتلال أو الفصائل الفلسطينية الأخرى التي كان ينظر لها الإخوان باعتبارها غير إسلامية، قد دفع قطاعات معينة داخل الحركة إلى القيام بعمليات استعراض للقوة واللجوء إلى العنف على النحو الذي ظهر في خروج جناح من الحركة بقيادة الشيخ حجازي البربار عن الخط العام للحركة بقيادة الشيخ أحمد ياسين وتنظيم مسيرة جابت شوارع قطاع غزة في السادس من يناير عام ١٩٨٠ بمشاركة أكثر من خمسة آلاف عضو، ومهاجمة مؤسسات الحزب الشيوعي الفلسطيني وبعض دور السينما ومحال بيع الخمور.

في مرحلة تالية حاولت حركة الإخوان المسلمين المشاركة في أعمال جهادية، ولكنها كانت تتجنب الصدام مع قوات الاحتلال، حيث ركزت "جهادها" وعملها المسلح والعنيف في خدمة الهدف الأول لها وهو إنشاء الدولة الإسلامية. وفي هذا السياق، أنشأت الجماعة منظمة الجهاد والدعوة (مجد) عام ١٩٨٥، والتي ركزت على جمع المعلومات عن المتعاونين مع قوات الاحتلال وتجار المخدرات وأصحاب محلات الفيديو وأمور أخرى تتعارض مع تعاليم الإسلام. وقام أعضاء المنظمة بحرق محلات بيع شرائط الفيديو والخمور وخطف أشخاص

Abu Nour www.alkottob.com

منهمون بالتعاون مع قوات الاحتلال، ولكنها تجنبت القيام بأي مواجهة مباشرة مع قوات الاحتلال الإسرائيلي في ذلك الوقت.

ومن جانبه قدم الشيخ أحمد ياسين تفسيره لعدم تركيز حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة على مواجهة الاحتلال الإسرائيلي فقال: "عندما بدأنا عملنا لنشر الدعوة ، حددنا إستراتيجيتنا بأننا لا نريد الصدام مع أي من التنظيمات أو الأحزاب الفلسطينية أو العربية أو الحكومات. لقد حددنا عدوا واحدا هو الذي سنواجهه ونهاجمه، ولكن عدونا الذي نريد مواجهته متمكن ويمتلك آلة وقوة ، في نفس الوقت إمدادات حركتي ضعيفة، فإذا ما تمت المواجهة فإنه سرعان ما يقضي عليها وتنتهي. لذا فإنني وزنت الأمر ، وتساءلت هل أدخل المعركة الآن ؟ هل أوجلها غدا؟ كانت هذه التوازنات هي التي تقرر تأجيل دخول الصراع مع العدو الإسرائيلي".

في الوقت نفسه بدا واضحا أن أنصار حماس كان لديهم شعور قوي بأنهم يسيطرون على الشارع الفلسطيني، وأن بروز منظمات فلسطينية أخرى لا يعدو أن يكون نتيجة غياب نشاط الحركة الإسلامية في الميدان نفسه، يعني أن الحركة الإسلامية- الإخوان المسلمين تحديدا- غابوا عن ساحة المقاومة المسلحة، لذلك برزت تنظيمات فلسطينية أخرى، ليس لأنها تسيطر على الشارع، ولكن بسبب عدم تواجد الحركة الإسلامية في الميدان. وفي هذا السياق، يقول عماد الفالوجي: "حماس هي الفصيل الإسلامي الذي تربينا على منهجه الخاص أما الفصائل الأخرى فهي علمانية لا تتبع النهج الإسلامي. ومن زاوية أن أبناء حماس تميزوا بالعلم والثقافة والالتزام الديني، أما عناصر الفصائل الأخرى فقد كنا ننظر إليهم على أنهم شباب وطنيون انتموا لتلك الفصائل في غياب العمل السياسي الإسلامي لسنوات طويلة ولغياب الحركة الإسلامية عن الساحة الفلسطينية لسنوات أطول، واستغلت هذه الفصائل هذا الغياب وترعرعت في الستينيات والسبعينيات(٣).

ثانيا: انتفاضة ١٩٨٧ كنقطة فاصلة في نشأة حركة حماس

على الرغم من حرص حركة الإخوان المسلمين في فلسطين، وتحديدا في قطاع غزة، على عدم الصدام مع قوات الاحتلال خشية ضرب المشروع والقضاء عليه، فقد جاء تفجر الانتفاضة الفلسطينية في الثامن من ديسمبر ١٩٨٧ ليضع حركة الإخوان المسلمين أمام حالة جديدة تقتضي منها اتخاذ موقف محدد من أعمال المقاومة التي شاركت فيها مختلف طوائف الشعب الفلسطيني، وتسابقت المنظمات إلى إذعاء تفجير الانتفاضة وتوجيهها. ومما زاد من الضغوط على الحركة توجه قطاع كبير من شبابها إلى المشاركة في أعمال المقاومة وتحدي قرارات القيادة. كما المحه النقاش داخل "المجمع الإسلامي" نحو التأكيد على أن عدم مشاركة الحركة في أعمال مقاومة الاحتلال سوف يضعف سيطرة الحركة على أعضائها ويشوه موقفها أمام الجماهير الفلسطينية.

وأدت هذه الضغوط إلى توجه حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة بقيادة الشيخ أحمد ياسين نحو المشاركة في عمليات مقاومة قوات الاحتلال، وكانت البداية هي صدور منشور يحمل توقيع "حركة المقاومة الإسلامية" بتاريخ الرابع عشر من ديسمبر يدعو إلى تصعيد المقاومة. ويصدور هذا المنشور انخرط الإخوان المسلمين في قطاع غزة في عمليات المقاومة ونشطوا في المشاركة في قيادة الأنشطة الجماهيرية في مواجهة قوات الاحتلال. وفي فبراير ١٩٨٨، أصدر الشيخ أحمد ياسين قرارا بتشكيل جهاز سري جديد باسم "حركة المقاومة الإسلامية – حماس"، وكان ذلك بمثابة خروج واضح عن الخط العام للإخوان المسلمين في فلسطين والذي كان يتسم بالحذر والمحافظة.

وعلى الرغم من بدء مشاركة الإخوان المسلمين في عمليات مقاومة الاحتلال وتصعيد الانتفاضة، إلا أن التنظيم لم يدخل عن حذره، ففضل أن تكون عملية المقاومة تحت مسمى آخر غير الإخوان. ولذلك جاء إنشاء حركة المقاومة الإسلامية – حماس، كما أن الخوف من تعرض الحركة لضربة إسرائيلية كبرى كان وراء تأخير

Abu Nour www.alkottob.com

إعلان ميثاق حركة حماس الذي كان ينبغي أن يشير إلى علاقة حماس بالإخوان المسلمين، وهو الميثاق الذي صدر في شهر أغسطس من عام ١٩٨٩ .

وقد ركزت مواد الميثاق، الذي أشارت المادة الثانية منه إلى ارتباط الحركة بالإخوان المسلمين، على شرح وتفصيل التحول الذي طرأ على توجهات حركة الإخوان وعملها إلى مقاومة الاحتلال في الوقت المناسب. كما فصل الميثاق علاقة حماس بتنظيمات وحركات المقاومة الأخرى. ويلاحظ بداية أن حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة، ورغم بداية مشاركتها القوية في تصعيد الانتفاضة، لم تتخلص بعد من الشعور بالتقصير لعدم المشاركة في عملية مقاومة الاحتلال من البداية، ومن ثم حرصت على تبرير التأخير في ميثاق حركة حماس. وجاء في الميثاق: " لما نضجت الفكرة ونمت البذرة وضربت النبتة بجذورها في أرض الواقع بعيدا عن العاطفة المؤقتة والتسرع المذموم، انطلقت حركة المقاومة الإسلامية لتأدية دورها مجاهدة في سبيل ربها تتشابك سواعدها مع سواعد كل المجاهدين من أجل تحرير فلسطين".

وحددت المادة الحادية عشرة من الميثاق رؤية حماس للصراع مع إسرائيل، فجاء في هذه المادة: "تعتقد حركة المقاومة الإسلامية أن أرض فلسطين أرض وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة ولا يصح التفريط بها أو بجزء منها، أو التنازل عنها أو عن جزء منها ولا تملك ذلك دولة عربية أو كل الدول العربية ، ولا يملك ذلك ملك أو رئيس أو كل الملوك والرؤساء، ولا تملك ذلك منظمة أو كل المنظمات سواء كانت فلسطينية أو عربية". وعادت لتأكيد ذلك في المادة الثالثة عشرة من الميثاق التي جاء فيها: " تتعارض المبادرات وما يسمى بالحلول السلمية والمؤتمرات الدولية لحل القضية مع عقيدة حركة المقاومة الإسلامية ، فالتفريط في أي جزء من فلسطين، تفريط في جزء من الدين".

وحرصت حركة حماس في ميثاقها على توضيح علاقتها بكافة منظمات المقاومة الموجودة على الساحة الفلسطينية، وميزت في هذا الإطار بين المنظمات ذات الخلفية الإسلامية - مثل الجهاد الإسلامي- وغيرها من الحركات والمنظمات المنضوية تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية والتي تستند إلى أسس علمانية. وداخل الفئة الأخيرة كانت حماس تميز أيضا بين حركات قريبة من الدائرة الإسلامية - مثل فتح- وأخرى تراها منفصلة الصلة بالأساس الديني مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وقد كان هناك صدى واقعي لهذا التمييز على النحو الذي ذهب إليه عماد الفالوجي بالقول: "كانت فتح الأقرب للحركة الإسلامية بحكم أنها لا تعادي الإسلام، وعلى العكس تماما فقد كان كوادر فتح في أغلبهم وفي طبيعتهم الفاتحة متدينون يقيمون الصلاة ويصلون معنا". ويضيف في موضع آخر من مذكراته أن أبناء حماس كانوا يشاركون أبناء فتح احتفالاتهم بانطلاق الحركة "..لأننا كنا نعتقد أن فتح انبثقت من رحم الإخوان المسلمين وأن مؤسسي فتح في أغلبهم من الإخوان المسلمين". ويضيف: "أما علاقتنا مع الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية فقد كانت أكثر تعقيدا ، ففتح تصنيل لا يعادي الإسلام، أما الشعبية والديمقراطية فموقف حماس المبدئي أنها فصائل يسارية تحمل فكرا معاديا للإسلام وموقفنا منها موقف التكفير وهو أن هؤلاء كفرة شيوعيون ملحدون وكانت علاقتنا معهم متوترة. وكنا لا نشارك الجبهتين احتفالات الانطلاق، فالرأي أنه لا يجوز أن نهنئ انطلاق فصيل معاد للإسلام والمسلمين"(٤).

وفيما يخص علاقة الحركة بالحركات الإسلامية الأخرى يشير ميثاق حماس أنها تعتبر "الحركات الإسلامية الأخرى رصيدا لها وتسأل الله الهداية والرشاد للجميع" . ويضيف الميثاق: "فهي وإن اختلفت معها في جانب أو تصور، اتفقت معها في جوانب وتصورات، وتنظر إلى تلك الحركات إن توافرت النوايا السليمة والإخلاص لله بأنها تندرج في باب الاجتهاد". ولكن من الناحية العملية كانت حماس تتعامل مع حركة الجهاد الإسلامي باعتبارها "جماعة تمردت على الحركة الأم". فهي في المحصلة النهائية انشقاق على حركة الإخوان المسلمين. وفي الوقت نفسه رأت قيادة حماس أن حركة الجهاد تبادر بتبني عمليات المقاومة التي تقوم بها عناصر حماس أو غيرها من الشخصيات المستقلة.

Abu Nour www.alkottob.com

وحددت المادة ٢٥ من ميثاق حماس أسس العلاقة مع منظمات المقاومة الأخرى وجاء فيها: أن حركة حماس "تبادلها الاحترام وتقدر ظروفها والعوامل المحيطة بها والمؤثرة فيها، وتشد على يدها ما دامت لا تعطي ولاءها للشرق الشيوعي أو الغرب الصليبي، وتؤكد لكل من هو مندمج بها أو متعاطف معها بأن حركة المقاومة الإسلامية حركة جهادية أخلاقية واعية في تصورها للحياة وتحركها مع الآخرين، تمقت الانتهازية ولا تتمنى إلا الخير للناس أفراد وجماعات... وتطمئن كل الاتجاهات الوطنية العاملة على الساحة الفلسطينية من أجل تحرير فلسطين، بأنها لها سند وعون".

أما منظمة التحرير الفلسطينية فقد خصصت الحركة للعلاقة معها المادة (٢٧) من الميثاق وجاء فيها: "منظمة التحرير الفلسطينية من أقرب المقربين إلى حركة المقاومة الإسلامية، ففيها الأب أو الأخ أو القريب أو الصديق، وهل يجفو المسلم أباه أو أخاه أو قريبه أو صديقه، فوطنها واحد وعدونا مشترك". وأضافت المادة نفسها: "وتأثرا بالظروف التي أحاطت بتكوين المنظمة وما يسود العالم العربي من بلبلة فكرية نتيجة للغزو الفكري الذي وقع تحت تأثيره العالم العربي منذ ادحار الصليبيين، وعززه الاستشراق والتبشير والاستعمار، ولا يزال، تبنت المنظمة فكرة الدولة العلمانية، وهكذا نحسبها ...، والفكرة العلمانية مناقضة للفكرة الدينية مناقضة تامة، وعلى الأفكار تبنى المواقف والتصرفات وتتخذ القرارات. ومن هنا ومع تقديرنا لمنظمة التحرير وما يمكن أن تتطور إليه وعدم التقليل من دورها في الصراع العربي الإسرائيلي، لا يمكننا أن نستبدل إسلامية فلسطين الحالية والمستقبلية لتتبنى الفكرة العلمانية، فإسلامية فلسطين جزء من ديننا ومن فرط في دينه خسر، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ويوم أن تتبنى منظمة التحرير الفلسطينية الإسلام كمنهج حياة، فنحن جنودها ووقود نارها التي تحرق الأعداء وإلى أن يتم ذلك نسأل الله أن يكون قريبا".

ويبدو واضحا أن هذه المادة التي شكلت جوهر موقف حماس من منظمة التحرير قد وضعت حدودا لإمكانية التنسيق والتعاون، بل وكشفت في الوقت نفسه عن تطلع حركة حماس لقيادة الشارع الفلسطيني انطلاقا من رؤيتها الإيديولوجية التي تتعامل مع فلسطين باعتبارها أرض وقف إسلامي.

في الوقت نفسه لم تنكر حماس سعيها إلى السيطرة على الشارع الفلسطيني، وتأكيد قيادتها لكافة المنظمات، ومثلما أجلت حركة الإخوان المسلمين دخول حلبة مقاومة قوات الاحتلال خشية ضرب المشروع، فقد فعلت حركة حماس الأمر نفسه عندما حرصت في البداية على تجنب الصدام مع المنظمات الفلسطينية الأخرى. وفي هذا السياق، يقول عماد الفالوجي في مذكراته: "كنا قد اتخذنا قرارا بضرورة الحوار مع كافة الفصائل العاملة على الساحة الفلسطينية والبعد -مهما كلف الثمن- عن أي اصطدام لإدراكنا بأننا لن نربح شعبيا في أي صدام مع أي حركة من الحركات العاملة، وخاصة مع القيادة الوطنية الموحدة وكذلك مع حركة الجهاد الإسلامي"(٥).

ولم ينف الفالوجي سعي حركة حماس من البداية إلى وراثة دور منظمة التحرير الفلسطينية وتحديدا حركة فتح. ويقول الفالوجي أن الفرصة جاءت عندما وجهت منظمة التحرير الفلسطينية الدعوة إلى حماس لدخول المجلس الوطني الفلسطيني، حيث انقسمت الحركة إلى اتجاهين رئيسيين بشأن تلك الدعوة:

الاتجاه الأول: نادى بضرورة الدخول السريع في منظمة التحرير الفلسطينية واستغلال قوة حماس وزيادة نموها وتراجع القيادة الوطنية في المناطق الفلسطينية، الأمر الذي يترتب عليه أن تكون حماس الوريث الشرعي للمنظمة بدلا من فتح.

الاتجاه الثاني: دعا إلى عدم دخول منظمة التحرير الفلسطينية لأن الدخول يعني فقدان التميز وفقدان الطريق وبالتالي لا يمكن الدمج بين منهجين متناقضين، النهج الإسلامي للحركة والنهج العلماني لمنظمة التحرير، إضافة إلى الفساد الكبير والخلافات التي تمزق المنظمة وديكتاتورية القيادة داخل المنظمة.

Abu Nour www.alkottob.com

وكحل وسط بين هذين الاتجاهين، وضعت حركة حماس مجموعة من الشروط لدخول المجلس الوطني حددتها في ثلاثة:

١- إعادة تمثيل القوى الوطنية والإسلامية داخل منظمة التحرير الفلسطينية بما يتلاءم مع حجمها الحقيقي على الأرض، وطلبت حماس الحصول على ٤٠٪ من مقاعد المجلس الجديد في حال التعيين، مقابل ٤٠٪ لحركة فتح وتوزيع النسبة الباقية (٢٠٪) على باقي الفصائل الفلسطينية.

٢- أن يكون المجلس الوطني الجديد غير ملزم بقرارات المجلس السابقة، بمعنى عدم التزام المجلس الجديد بقرارات مجلس الأمن رقم ٢٤٢ و٣٣٨ أو الاعتراف بإسرائيل.

٣- صياغة دستور جديد لمنظمة التحرير، باعتبار أن حماس لم تشارك في صياغة الدستور القديم(٦).

ولم ترد قيادة المجلس الوطني الفلسطيني على هذه الشروط، الأمر الذي أشر إلى فشل المحاولة.

ثالثاً: حماس والحوار بين الفصائل الفلسطينية قبل إنشاء السلطة الوطنية

تعد فكرة الحوار بين الفصائل الفلسطينية من أجل التوصل إلى صيغة للتفاهم والتنسيق، فكرة محورية. وقد فرضت الفكرة وجودها على الفصائل الفلسطينية مبكراً، ومن قبل توقيع اتفاق أوسلو وتشكيل السلطة الوطنية الفلسطينية. وقد بدئت فكرة الحوار ملحة للغاية مع اندلاع الانتفاضة الكبرى في الثامن من ديسمبر ١٩٨٧. ففي هذه الانتفاضة بدأ يظهر على السطح وبقوة دور التيار الإسلامي، وتحديداً دور حركة الإخوان المسلمين، الحركة التي كانت تنأى بنفسها عن المشاركة في أعمال مقاومة الاحتلال تجنباً للدخول في مواجهات مبكرة مع قوات الاحتلال قد تؤدي إلى القضاء على المشروع أو تعطيله.

ومع قرار الحركة المشاركة في الانتفاضة وتأسيس حركة حماس، ورفضها دخول القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة، بدا ملحاً التوصل إلى تفاهم يحول دون الصدام المسلح على الأرض، لاسيما في ظل تصاعد دور ونفوذ التيار الإسلامي في الأراضي الفلسطينية كجزء من ظاهرة عالمية للمد الديني.

ويعود أول اتصال رسمي بين حركتي فتح وحماس إلى شهر أبريل ١٩٩٠، عندما أرسل الشيخ عبد الحميد السايح، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني آنذاك، يدعو فيها حركة حماس للمشاركة في أعمال اللجنة التحضيرية التي تشكلت من أجل الإعداد لإعادة تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني. وردت الحركة بأن قبولها الدعوة مشروط بأن يكون الانتخاب وليس التعيين هو الوسيلة المعتمدة لاختيار أعضاء المجلس الوطني وأن تتراجع منظمة التحرير عن قرارها الاعتراف بقرارات الأمم المتحدة التي تقر لإسرائيل بحق الوجود. وفي حالة عدم إمكانية الانتخاب فإن التمثيل النسبي يكون حسب حجم التأييد الشعبي، حيث تقدر حماس وزنها الشعبي بما يوازي ٤٠٪ من مقاعد المجلس الوطني الفلسطيني(٧) وقد كانت هذه الشروط كافية لوأد المحاولة الأولى.

وجاء الاتصال الثاني بين فتح وحماس على خلفية تصاعد التوتر بين أنصار الحركتين في شمال الضفة الغربية في أوائل أغسطس ١٩٩٠، الأمر الذي أدى إلى عقد لقاء عاجل بين وفدين من الحركتين في صنعاء في الثالث عشر من أغسطس، جرت فيه مناقشة قضية العلاقة بينهما والوضع المتأزم في المعتقلات، حيث طلبت حماس في اللقاء إشراكها في اللجنة النضالية العليا التي تشرف على الأوضاع الحياتية للمعتقلين، وهو ما رفضته حركة فتح على أساس أن الانضمام للجنة مشروط بالانضمام لمنظمة التحرير(٨).

ومع استمرار التوتر بين أنصار الحركتين في الأراضي الفلسطينية، وتدهور الأوضاع في المعتقلات وشكوى حركة حماس من ممارسة معتقلي فتح لسياسات تمييزية ضد معتقلي حماس، التقى وفدي الحركة مجدداً في عمان واتفقا على ورقة مشتركة اشتملت على ستة مبادئ تحكم العلاقة بين الحركتين وتركز على الحوار والتفاهم لحل

Abu Nour www.alkottob.com

المشاكل، حيث نجح الطرفان في إنهاء مشكلة السجون وتمثيل حماس في لجان المعتقلين كسائر الفصائل(٩).

وعلى الرغم من ذلك، لم تتوقف الاحتكاكات بين عناصر حركتي حماس وفتح، لاسيما مع التوجه نحو عقد مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط، وبلغ التوتر ذروته في مايو ١٩٩١، وتواصلت اللقاءات المشتركة الهادفة فقط إلى التهدئة ونزع فتيل المواجهات، ولم يكن مطروحا في ذلك الوقت مناقشة قضايا الخلاف الجوهرية.

وفي ١٩٩١/٧/١٦ تلقت حماس دعوة جديدة من الشيخ عبد الحميد السايح رئيس المجلس الوطني الفلسطيني لحضور اجتماعات اللجنة التحضيرية لوضع الأسس لتشكيل المجلس الوطني الفلسطيني، ولكن حماس اعتذرت مجددا عن عدم الحضور، وكررت شروطها لدخول المجلس الوطني، والتي سبق تقديمها وظلت بلا رد من رئاسة المجلس (١٠).

وجرى أول لقاء رسمي بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس في عمان في ١٩٩١/٩/٢٨، وترأس وفد منظمة التحرير أبو علي مصطفى، عضو اللجنة التنفيذية آنذاك وأمين عام مساعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وترأس وفد حركة حماس ناطقها الرسمي إبراهيم غوشة. وجرى في اللقاء، بحث موضوع دخول حركة حماس منظمة التحرير الفلسطينية وسبل التنسيق لتعزيز الانتفاضة، والمشروع الأمريكي المقترح للتسوية.

وعلى الرغم من كل هذه الجهود، فقد استمر التوتر قائما بين فصائل منظمة التحرير وحركة حماس في ضوء عدم الاقتراب من مناقشة قضايا جوهرية تتعلق بالرؤية المستقبلية أو التنسيق وتوزيع الأدوار، فقد غلب على توجه منظمة التحرير العمل على استيعاب حماس كفصيل صغير ضمن فصائل المنظمة- عرض الشيخ عبد الحميد السائح رئيس المجلس الوطني الفلسطيني على حركة حماس الحصول على ١٨ مقعدا من بين مقاعد المجلس البالغة ٤٥٠ مقعدا - هنا بينما تقدر حماس وزنها بأكثر من ثلث مقاعد المجلس حيث طالبت رسميا بـ ٤٠٪ من مقاعد المجلس .. وفي المقابل بدا واضحا أن حركة حماس ركزت في الحوار على طرح نفسها كفصيل رئيسي لا يقل عن حركة فتح وهو ما يؤكده مطالبتها بحصولها وحركة فتح على نفس الحصة من مقاعد المجلس الوطني (٤٠٪) وهكذا، غاب عن الطرفين الرغبة في التوصل إلى أجندة وطنية مشتركة نتيجة الإدراك المسبق بالتناقض الجذري في الرؤى والمنطلقات.

وجرت محاولة أخرى للحوار بين حماس وفتح بوساطة من الأمانة العامة للمؤتمر العربي الإسلامي في الفترة من ٢- ٤ يناير ١٩٩٣، حيث عقد لقاء بحضور حسن الترابي، الأمين العام للمؤتمر والرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات ووفد من فتح برئاسة سليم الزعنون وآخر من حماس برئاسة موسى أبو مرزوق. وركز اللقاء على مناقشة قضايا ميدانية في مقدمتها تطويق عواقب الاشتباكات التي جرت في غزة، وتدعيم اتفاقيات وقف الاقتتال والاتفاق على آليات محددة لتنظيم العلاقة بين الحركتين بشكل يمنع حدوث توترات جديدة . وقد رفضت حماس دعوة عرفات لدخول منظمة التحرير والاعتراف بها كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني. وعلى الرغم من مغادرة عرفات ورئيس وفد منظمة التحرير للاجتماع، تم توقيع اتفاقية ثنائية نصت على تشكيل ثلاث لجان، الأولى للحوار والمتابعة، والثانية لشئون المبعدين ضمت كل القوى الفلسطينية، والثالثة للتنسيق العام في الداخل وتبادل المعلومات وترتيب العلاقة بين الحركتين. وتم الاتفاق على أن يعود أربعة ممثلون الوفدين إلى الخرطوم بعد أسبوعين لتسميه أعضاء اللجان والتباحث في آلية وأماكن اجتماعاتها. وفي ١٨ يناير ١٩٩٣ حضر وفد حماس، ولكن وفد فتح لم يحضر (١١)

وقد شهد عام ١٩٩٣ صراعا مفتوحا بين حماس وفتح، حيث اعترضت حماس بقوة على مواصلة منظمة التحرير المشاركة في المفاوضات الثنائية مع إسرائيل. وفي الوقت الذي حاولت فيه حماس فرض موقفها المعارض للتسوية عبر تصعيد الانتفاضة، فإن حركة فتح، والتي كانت قد بدأت مفاوضات سرية مع إسرائيل في أوسلو، عملت على تهدئة الساحة الفلسطينية تمهيدا لتطبيق الاتفاق الذي سيتم التوصل إليه مع إسرائيل.

Abu Nour www.alkottob.com

رابعا: موقف حماس من اتفاق أوسلو والسلطة الوطنية

ما أن تشكلت حركة المقاومة الإسلامية حماس، حتى شاركت بقوة في عمليات المقاومة، وبدأت في تصعيد الانتفاضة بالإقدام على عمليات نوعية تمثلت في تصفية العملاء وخطف جنود الاحتلال ووضع العبوات الناسفة. وقد تركز نشاط حماس بالأساس في قطاع غزة، ولم تقم بعمليات مقاومة في الضفة الغربية إلا على نحو محدود للغاية. ونظرا لتقدير حماس لنفسها باعتبارها القوة الأولى عمليا في الشارع الفلسطيني، فقد اصطدمت سريعا بمنظمة التحرير الفلسطينية وتحديدا القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة. ويشير عماد الفالوجي إلى هذه القضية بالقول: "...مع سخونة الأحداث وصراع الفصائل على قيادة الشارع الفلسطيني، كان لابد من خوض التجربة والمغامرة بالاشتراك في الكفاح المسلح" (١٢).

وبدا واضحا أن حماس دخلت في سباق مع القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة من أجل السيطرة على الشارع الفلسطيني والإدعاء بتحريك الانتفاضة وقيادتها. ففي أغسطس ١٩٨٨ نشرت حماس بيان يطالب المواطنين في الضفة والقطاع بتنفيذ إضراب عام في موعد مغاير للموعد الذي حددته القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة، وهو ما دعا الأخيرة إلى وصف بيان حماس بأنه يرمي إلى خدمة العدو عبر العمل على شق الصف الفلسطيني. وقد انعكس ذلك سلبا على مقاومة الشعب الفلسطيني، حيث أدى التضارب في الدعوة إلى الإضراب على سبيل المثال إلى إجهاد المواطنين، كما أدى أيضا إلى شق الصفوف وأظهر التنافس بين الجانبين جليا. وقد دعت القيادة الوطنية الموحدة حماس إلى الانضمام لها، وهي الدعوة التي رفضت من قبل حماس.

وقد جرت محاولات عديدة لاحتواء الصراع بين فتح وحماس والعمل دون تحوله إلى صراع مسلح مفتوح. وفي هذا الإطار تم في ٢١ سبتمبر ١٩٩٠ توقيع "ميثاق شرف بين فتح وحماس" من ثلاثة عشر بندا دعت إلى "...تنسيق الجهود في مواجهة العدو الصهيوني بما يعزز الوحدة الوطنية الفلسطينية على قاعدة حرية الرأي والاجتهاد الفكري والسياسي". كما دعا الميثاق إلى "تشكيل لجنة مركزية مشتركة بين فتح وحماس، وأخرى فرعية لحل الخلافات، وتطوير العمل المشترك، واعتماد الحوار البناء وسيلة لفض المنازعات، وإنهاء المشاكل العالقة، وحشد الطاقات ضد العدو الصهيوني". ولم يؤد هذا الاتفاق سوى إلى تهدئة العلاقات لفترة محدودة، إذ سرعان ما تفاقمت الخلافات من جديد، وصلت إلى حد الاشتباكات المسلحة في فبراير ١٩٩٢، وهو الأمر الذي تم بعرف طريق التهدئة إلا بعد تشكيل لجنة وساطة من قادة فتح وحماس وفلسطينيي ١٩٤٨، انتهى بتوقيع اتفاق صلح في ١٣ يوليو ١٩٩٢ (١٣).

وقد أثار اشتراك حركة الإخوان المسلمين في أعمال المقاومة دهشة إسرائيل التي ظن قادتها "أن التيار الإسلامي تحت سيطرتهم"(١٤) وفي محاولة من جانب قوات الاحتلال لقطع الطريق على حركة حماس ومنعها من التوسع في أعمال المقاومة، وجهت قوات الاحتلال ضربة قوية للحركة استهدفت بالأساس توصيل رسالة لقيادة الحركة بأن مشروعها الذي تعد له منذ فترة طويلة بات في خطر شديد. وأن هذا المشروع يمكن أن ينتهي إذا لم تتوقف الحركة عن المشاركة في أعمال المقاومة. وكان أبرز تلك الضربات خلال هذه الفترة تلك التي جاءت في أواخر عام ١٩٨٨ عبر اعتقال ١٢٠ من قيادات المجمع الإسلامي وحركة حماس من بينهم عبد العزيز الرنتيسي. في المقابل نشطت حماس في الرد بتصعيد الانتفاضة والبدء في خطف جنود الاحتلال لأول مرة في ١٧ فبراير ١٩٨٩.

وقد أدى ذلك إلى تكثيف قوات الاحتلال ضرباتها للحركة، حيث قامت باعتقال زعيم الحركة الشيخ أحمد ياسين في ١٥ يونيو ١٩٨٩ وحوالي ٢٦٠ عضوا من الحركة. وفي أواخر ١٩٩٠ وأوائل ١٩٩١ وجهت قوات الاحتلال ضربة جديدة للحركة أسفرت عن اعتقال ١٧٠ من نشطاء الحركة في قطاع غزة والضفة الغربية. وعندما أقدمت الحركة على خطف الجندي الإسرائيلي تسيم توليدانو في ديسمبر ١٩٩٢ لمبادلته بالشيخ أحمد

Abu Nour www.alkottob.com

ياسين، انتهى الأمر بمقتل الجندي، وقرار إسرائيل بإبعاد ٤٢٥ مسئولا في الحركة إلى مرج الزهور بجنوب لبنان، وهي الخطوة التي مثّلت بداية ظهور ما سمي بقيادة حماس في الخارج.

وعلى الرغم من كل هذه الضربات، فقد تمكنت الحركة من إعادة بنا، قواعدها وكوادرها من جديد، وعندما تولى بشير حماد مسئولية الجهاز العسكري للحركة في مايو ١٩٩١، شكل جهاز جديد أسماه " كتائب الشهيد عز الدين القسام"، وكثف عمليات خطف المشتبه في تعاونهم مع سلطات الاحتلال. وفي مرحلة تالية وتحديدا مع مطلع عام ١٩٩٢ بدأ الجهاز في عملياته ضد المستوطنين، فقتل أول مستوطن في الأول من يناير ١٩٩٢ .

وفي هذه الفترة رفضت حركة حماس مؤتمر مدريد للسلام، وأكدت الحركة أنه لأسباب شرعية ودينية لعدم الاعتراف بإسرائيل كمغتصب لأرض إسلامية، ولأن فلسطين أرض وقف إسلامي للأجيال القادمة لا يجوز لأي فرد كان أن يفرط فيها، ومن ثم لا يمكن لحركة حماس أن تشارك في أي عملية سياسية تستند إلى قرارات الأمم المتحدة. وفي أعقاب ذلك، وتحديدا بعد توجه حركة فتح إلى إجراء اتصالات بإسرائيل في أوسلو من أجل التوصل إلى اتفاق للتسوية السياسية، بدأت العلاقة تتوتر من جديد بين فتح وحماس، فالأولى أرادت تهيئة الأجواء أمام وقف الانتفاضة تمهيدا لتطبيق مشروع التسوية، والثانية رفضت ذلك بشكل قاطع وأصرت على تصعيد أعمال المقاومة.

ومع اتجاه حركة فتح إلى المفاوضات السرية في النرويج، وهي التي أدت في النهاية إلى اتفاق أوسلو، عملت فتح على تهدئة العلاقة مع حركة حماس حتى لا تعوق تنفيذ الاتفاق وقتع تطبيقه على الأرض وتهدد بوقوع اشتباكات مسلحة. وفي هذا الإطار، عقد اجتماع بين حركتي فتح وحماس في الخرطوم في يناير ١٩٩٣ لكنه لم يؤد على اتفاقات محددة.

رفضت حماس اتفاق أوسلو بشكل قاطع، وأكدت عدم جواز الاتفاق مع العدو على أي جزء من أرض فلسطين. ففلسطين من البحر إلى النهر هي أرض وقف إسلامي على الأجيال القادمة، ولا يجوز التنازل عن أي جزء منها. وكانت حركة حماس تعتقد أن السلطة الوطنية الفلسطينية لن تصمد طويلا لأنها تحمل بداخلها مقومات إخفاقها. وكانت لدى حماس قناعة بأن الصراع بين الأجهزة الأمنية والخلافات الداخلية، إضافة إلى سخط وعدم قناعة الشارع الفلسطيني باتفاقات أوسلو، كل ذلك سوف يطيح بهذه الاتفاقات ومعها السلطة الوطنية الفلسطينية.

ومن جانبها عملت حركة حماس على إظهار عجز السلطة الوطنية الفلسطينية وعدم قدرتها على السيطرة على الشارع الفلسطيني، وبدأ ذلك ببدء تنفيذ بعض العمليات النوعية مثل واقعة خطف جندي إسرائيلي – فاكسمان– والإصرار على أن تكون حماس فقط هي التي تتولى عملية التفاوض مع إسرائيل على ثمن الإفراج عنه. فقد رفضت حركة حماس السماح للسلطة الوطنية الفلسطيني بلعب أي دور في المفاوضات أو القيام بأي دور ولو شكلي، فقد كان هدف حماس هو إظهار عجز السلطة الوطنية الفلسطينية وعدم قدرتها على ضبط الأوضاع ، وفي الوقت نفسه إظهار حركة حماس باعتبارها القوة الحقيقية في الأراضي الفلسطينية. وكان لافتا للنظر رفض حركة حماس مناشدات الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات لها بتقديم معلومات له عن الواقعة حتى يتحدث بشأنها مع الأمريكيين الذين طلبوا منه ممارسة مهامه كرئيس للسلطة الوطنية. وقد سمحت حركة حماس للحركة الإسلامية داخل الخط الأخضر بدور وساطة وذلك كنوع من الدعم السياسي لها.

في الوقت نفسه أحدثت حماس نقلة موضوعية في عملياتها، فبعد أن كانت تركز على تشجيع أنصارها على استخدام الحجارة، ثم الطعن بالسكاكين وإطلاق الرصاص، بدأت في عمليات خطف الجنود، ثم تنفيذ تفجيرات داخل حدود ١٩٤٨ . وبعد تسلم السلطة الوطنية لمهامها، أحدثت حماس قفزة كبيرة في عملياتها التي ارتفعت من حوالي أربع عمليات سنوياً في الفترة من ١٩٨٧ إلى ١٩٩١ ، إلى ١٨ عملية في عام

Abu Nour www.alkottob.com

١٩٩٢، ثم وصلت إلى ٥٢ عملية في عام ١٩٩٣، ٧١٪ منها إطلاق نار، كما شهد هذا العام بداية تنفيذ التفجيرات داخل الخط الأخضر، وبلغ عدد قتلى إسرائيل بفعل عمليات حماس في عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣، ٧٧ قتيلا و ١٧٢ جريحا.

وعلى الرغم من تراجع عدد العمليات التي قامت بها حماس خلال الفترة (١٩٩٤-١٩٩٧) إلا أنها تميزت بارتفاع عدد الخسائر البشرية الناجمة عنها، الأمر الذي يعكس تطور تقنية تنفيذ تلك العمليات. فبينما بلغ إجمالي عدد العمليات المنفذة خلال تلك الفترة (٣٤) عملية، بلغ عدد القتلى الناتج عن تلك العمليات (١٨٩) قتيلا، بالإضافة إلى إصابة (٩٨٤) آخرين. كما يلاحظ، من ناحية أخرى تراجع حجم تلك العمليات سنويا خلال تلك الفترة، فقد انخفض عدد تلك العمليات من (١٥) عملية في عام ١٩٩٤ إلى (٧) عمليات فقط في عام (١٩٩٥)، انخفضت إلى (٨)، (٤) عمليات في عامي ١٩٩٦، ١٩٩٧ على الترتيب(١٥) كما يلاحظ، أيضا أن الشق الأكبر من عمليات حماس قد تم داخل إسرائيل، ربما بهدف عدم إحراج السلطة الوطنية الفلسطينية، من ناحية، وتجنب ملاحقاتها الأمنية من ناحية أخرى (١٦). ويذكر أن الفترة من ١٩٩٨ وحتى نهاية عام ٢٠٠٠، لم تشهد تنفيذ أي عملية من جانب حماس، ويرجع ذلك إلى تفاهم سري بين حماس والسلطة الوطنية الفلسطينية (١٧).

خامسا: قيادة حماس في الخارج

ظهرت قيادة حماس في الخارج بعد الضربات الأمنية التي تعرضت لها قياداتها في الداخل في أعوام ١٩٨٨، ١٩٨٩ ، ثم ١٩٩٠، وبعد عملية إبعاد عدد مهم من قيادات الحركة إلى مرج الزهور بجنوب لبنان عام ١٩٩٢. فهنا بدأ الحديث عن قيادة حماس في الخارج وبدأ يظهر نوع من الازدواجية في القيادة. وأصبحت لحركة حماس قيادة في الخارج مثلها في ذلك مثل غيرها من التنظيمات الفلسطينية الأخرى، بعد أن كانت حماس تفاخر بوجودها على أرض الوطن وممارسة النضال من على الأرض الفلسطينية. وكان ظهور قيادة الخارج متطلبا بعد ممارسة حماس عمليات المقاومة المسلحة، ومن ثم تعرض قياداتها وكوادرها للملاحقة الأمنية والنفي إلى الخارج.

وبعد عام ١٩٩٠عاما فاصلا في بروز قيادة حماس في الخارج، غير إنشاء مكتب سياسي للحركة خارج فلسطين للاستفادة من الأوضاع التي ترتبت على غزو الكويت وحرب الخليج الثانية. وفي هذا السياق، عملت حماس على استثمار هذه الأوضاع فأنشأت لجنة سياسية لحماس في الخارج، وكان متصورا أن تكون وظيفة هذه اللجنة تقديم التقارير إلى قيادة الداخل التي تأخذها بعين الاعتبار عند وضع تصورات العمل. ولكن ما حدث عمليا هو أن هذه اللجنة باتت عمليا نواة قيادة حماس في الخارج، كما أن اعتقال قيادات الداخل قد حول قيادات الخارج إلى القيادة الوحيدة للحركة بحيث "أصبح دور القيادة في الداخل هو تنفيذ وتوزيع البيانات والتعليمات التي كانت تأتي من مكتب الخارج".(١٨) وقد تولى موسى أبو مرزوق قيادة حماس في الخارج. وكان التركيز الأساسي لقيادات الخارج هو العمل على تصعيد المقاومة المسلحة دون التوقف أمام أي اعتبارات قد تفرضها الأوضاع الداخلية. ولم تكن قيادات حماس الخارج ترفض خوض صراع مفتوح مع عناصر المنظمات الفلسطينية الأخرى أو عناصر السلطة الوطنية الفلسطينية بعد تشكيلها، وهو ما كانت ترفضه عناصر حماس الداخل بما فيها الجناح العسكري للحركة، كتائب الشهيد عز الدين القسام، التي أكدت أكثر من مرة على مبدأ "حرمة الدم الفلسطيني".(١٩) وعلى خلفية هذا الموقف تصاعدت الخلافات بين حماس الداخل والخارج لاسيما بعد قبول حماس الداخل بالحوار مع السلطة الوطنية وتوصلها أكثر من مرة إلى مذكرة تفاهم مع السلطة الوطنية الفلسطينية. وفي هذا السياق، يقول عماد الفالوجي، أحد مهندسي عملية الوساطة بين حماس والسلطة الوطنية،

Abu Nour www.alkottob.com

"إن موقف قيادة حماس الخارج لا يخدم جماهير حماس ولا مصلحة الحركة ومستقبلها، فالقيادة التي أكتوت بنار الاحتلال وأسست حركة حماس ودفعت ثمنا باهظا من الشهداء والجرحى والمعتقلين، هي الأقدر على اتخاذ القرار السليم والحكيم الذي يخدم المصلحة العامة ومصلحة الحركة"(٢٠).

ويضيف الفالوجي: أن حماس الخارج " تعارض أي تهدئة ، بل تسعى إلى مواصلة العمل العسكري ضد السلطة وضد الاحتلال رغما عن السلطة وحماس الداخل حتى تحرج السلطة وتزعزع سيطرتها وتظهرها بأنها لا تمثل الشعب الفلسطيني"(٢١).

سادساً: حماس وفكرة العمل السياسي إلى جانب العسكري

أدت الضربات الأمنية التي تعرضت لها حركة حماس من ناحية، والحوارات التي دخلت فيها قيادات حماس الداخل مع السلطة الوطنية الفلسطينية من ناحية ثانية، وبروز التنافس بين حماس الداخل والخارج من ناحية ثالثة، وطرح الأخيرة، على لسان موسى أبو مرزوق، لفكرة عقد هدنة مع إسرائيل، أدى كل ذلك إلى جدل داخل الحركة حول الموقف من العمل السياسي، وهل يجب على حماس أن تمتلك جناح سياسي وآخر عسكري؟.

يقول عماد الفالوجي إن طرح هذه الأفكار قد كشف افتقاد حماس للثقافة السياسية اللازمة للتعاطي مع الجدل الدائر حول هذه القضايا. ويؤكد أن الحركة الإسلامية "كانت تركز في تربية أفرادها على الفهم الديني والتربية الدينية على الجهاد، ولكن كانت تغفل تماما في منهجها العام البعد السياسي أو أن تنعلم الفعل السياسي العالمي... وبالتالي كان هناك ضعف واضح كلما اقتربنا من العمل السياسي وأحست كوادر الحركة المتقدمين ومنهم قادة الحركة بأنه ليس لديهم الثقافة السياسية الواعية الكافية للشروع في عمل سياسي متقدم"(٢٢).

وقد أدى هذا الإحساس إلى تصاعد الجدل داخل الحركة وانقسامها بين تيار مؤيد للتوجه السياسي للحركة ووضع تصورات وحلول سياسية للقضية الفلسطينية، وآخر يرفض تماما تعاطي السياسة مؤكدا على أن حماس حركة جهادية تعمل على تحرير أرض فلسطين من البحر إلى النهر، لا دخل لها بالسياسة ولا ينبغي عليها تعاطيها.

ويقول الفالوجي أنه تولى قيادة التيار المطالب بأن يكون لحماس جناح سياسي يتولى وضع التصورات المستقبلية ويخطط للتعامل معها. وطرح في ذلك الوقت افتراضا يتعلق بموقف الحركة فيما لو نجحت مفاوضات التسوية السياسية وتوصلت منظمة التحرير إلى اتفاق مع إسرائيل ونشأت سلطة وطنية فلسطينية على أرض فلسطين، وقامت بإجراء انتخابات. ورأى الفالوجي أن على حماس أن تمتلك جناحا سياسيا لاسيما بعد أن طرح رئيس المكتب السياسي للحركة موسى أبو مرزوق بشكل علني للمرة الأولى عقد هدنة مع إسرائيل. وأشار الفالوجي هنا إلى تجربة حزب الله في جنوب لبنان الذي لم يحل امتلاكه لجناح عسكري قوي دون تطويره لجناح آخر سياسي حتى لا يتهم بالإرهاب وأنه لا يجيد سوى لغة القتل (٢٣). وقد تمكن هذا التيار من تنفيذ رؤيته، حيث تم الإعلان عن إنشاء " حزب الخلاص الوطني الإسلامي" الذي اعترفت به السلطة الوطنية فورا وبدأ ممارسة نشاطه السياسي.

سابعاً: حماس وانتفاضة الأقصى

مع اندلاع انتفاضة الأقصى في الثامن والعشرين من سبتمبر عام ٢٠٠٠، صعدت حركة حماس من عمليات المقاومة، وعادت إلى القيام بعمليات استشهادية داخل إسرائيل ردا على عدوان قوات الاحتلال على الشعب

Abu Nour www.alkottob.com

الفلسطيني في الضفة والقطاع. وكان واضحا أن حركة حماس عملت على تكثيف ضرباتها في العمق الإسرائيلي مستفيدة من حدوث تنسيق غير مسبوق مع منظمات فلسطينية أخرى بما فيها كتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح. ويذكر هنا أن حماس قامت خلال عام ٢٠٠١ بسبع عمليات استشهادية داخل إسرائيل (٢٤) وكان هدف حماس الحقيقي من وراء تصعيد أعمال الانتفاضة وعسكرتها هو التأكيد على عدم سلامة التوجه السلمي لمنظمة التحرير والسلطة الوطنية الفلسطينية، وبالإضافة إلى محاولة كسب الشارع الفلسطيني (٢٥) ومع استمرار عمليات حماس الاستشهادية وتصعيد عمليات المقاومة ضد قوات الاحتلال والمستوطنين، وأيضا إصرار حركة حماس على التمسك برؤيتها ورفض تهديدات السلطة الوطنية، أقدمت الأخيرة على وضع زعيم الحركة الشيخ أحمد ياسين رهن الإقامة الجبرية بمنزله في السادس من ديسمبر ٢٠٠١ (٢٦) وهو الأمر الذي هدد بتصعيد المواجهة المسلحة بين السلطة الوطنية وعناصر حركة حماس. وقد استخدمت حماس سلاح العمليات الاستشهادية داخل إسرائيل، وأيضا ضد أهداف إسرائيلية في الضفة والقطاع، وهو الأسلوب الذي جذب عناصر من تنظيمات أخرى إسلامية - حركة الجهاد وجناحها العسكري سرايا القدس- وعلمانية مثل الجبهة الشعبية، بل أن حركة فتح نفسها لجأت إلى هذا الأسلوب في ذروة الانتفاضة.

وتظل حركة حماس صاحبة السجل الأكبر في القيام بهذه العمليات، والتي تم استئنافها مجددا بعد لقاء شارون - أبو مازن في السابع عشر من مايو ٢٠٠٣ .

ثامنا: حماس وإصلاح السلطة الوطنية

ترفض حماس فكرة إصلاح السلطة الوطنية، وترى أن الإصلاح الوحيد هو التخلص من اتفاقات أوسلو وإطلاق يد المقاومة في مواجهة إسرائيل. وقد عبر عن ذلك المتحدث باسم الحركة عبد العزيز الرنتيسي في ٣٠ يونيو ٢٠٠٢ بالقول إن "السلطة الوطنية ملتزمة باتفاقية أوسلو، وما لم تتنصل منها فلن تكون هناك إصلاحات"(٢٧).

وفيما يخص مسألة تعيين رئيس للوزراء، أكد إسماعيل أبو شنب أحد قادة الحركة، أنه لا فائدة من هذه الخطوة التي جاءت في وقت تفرض فيه الإملاءات والرغبات على السلطة الوطنية الفلسطينية. ووصف تلك الخطوة بأنها "لا تقدم ولا تؤخر وتأتي في وقت غير مناسب وفي ظل ضغوط أمريكية على الرئيس عرفات. وأكد أن "الأولوية تأتي في مقاومة الاحتلال وأن التغييرات الشكلية سواء كان رئيس وزراء أو تغيير وزراء في الوزارة الجديدة لن يكون لها أي انعكاس على أرض الواقع بسبب ظروف الاحتلال ."(٢٨).

تاسعا: حماس وفكرة نزع سلاح المقاومة الفلسطينية

ترفض حماس على نحو قاطع فكرة نزع سلاح منظمات المقاومة، وترى أن هذا السلاح موجه إلى الاحتلال وسيظل كذلك إلى أن يزول الاحتلال. وتنطلق حركة حماس في رفضها لفكرة نزع السلاح من استيعابها لدروس تاريخية نابعة بالأساس من تجربة نكبة ١٩٤٨ . وفي هذا السياق، يقول الشيخ أحمد ياسين مؤسس وزعيم الحركة "لقد نزعت الجيوش العربية التي جاءت تحارب إسرائيل السلاح من أيدينا بحجة أنه لا ينبغي وجود قوة أخرى غير قوة الجيوش، فارتبط مصيرنا بها، ولما هزمت هزمنا وراحت العصابات الصهيونية ترتكب المجازر والمذابح لترويع الآمنين، ولو كانت أسلحتنا بأيدينا لتغيرت مجريات الأحداث". وقراءة هذه الرؤية تفيد بأن الحركة ترغب في الاحتفاظ بسلاحها حتى رحيل الاحتلال، كما أن السلاح هنا يكون للدفاع عن النفس في حال التعرض لعدوان من جانب قوات الاحتلال (٢٩).

Abu Nour www.alkottob.com

لذلك تمسكت حركة حماس برفض فكرة نزع سلاح المقاومة قبل تحرير الوطن، وفي نفس الوقت عملت حماس على تلافي تصعيد الموقف مع الحكومة الفلسطينية الجديدة، فعقد قادة الحركة لقاء مع رئيس الوزراء الفلسطيني محمود عباس في ٢٣ مايو ٢٠٠٣، وحرصوا على تأكيد أن اللقاء، تم بناء على طلب من رئيس الوزراء ذاته، وأنه لم تتم مناقشة فكرة نزع السلاح أو وقف عمليات المقاومة. وواقعيا لا يمكن تصور عدم مناقشة عمليات حماس، إذ كان هدف اللقاء هو إقناع حركة حماس بوقف عمليات المقاومة من أجل تهيئة الأجواء أمام تنفيذ خريطة الطريق.

ومن جانبها أكدت حركة حماس عدم جدوى الرهان على خطة خريطة الطريق لاعتبارات عديدة أبرزها عدم الثقة في الجانبين الأمريكي والإسرائيلي، وأيضا عمومية ما ورد فيها من أفكار ومبادئ. وفي هذا الإطار، يقول خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي للحركة: "من يقرأ خريطة الطريق سيتيقن أنها عبارة عن عناوين عامة وفي شقها الفلسطيني ملزمة ومقيدة ضمن جدول زمني محدد. وفي شقها الإسرائيلي غائمة ومطاطة وغير محددة لا في مضمونها ولا في برنامجها الزمني، بمعنى آخر هذه الخطة سوف تدفع بنا إلى أن نكون تحت رحمة القرار الأمريكي الصهيوني، وهذا لا يجوز". وأضاف أن أي حكومة فلسطينية "ستمضي في التعاطي مع استحقاقات خريطة الطريق الأمنية، ستجد نفسها في مواجهة الشعب الفلسطيني في معظمه وليس فقط مع حركة محددة". (٢٩)

ويبدو واضحا أن موقف حماس الرافض لوقف أعمال المقاومة المسلحة، ورفض نزع سلاح منظمات المقاومة كان يحظى بمساندة منظمات فلسطينية عديدة من بينها كتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح نفسها. وقد أدى هذا الموقف المتماسك إلى البحث عن صيغ جديدة بعيداً عن نزع السلاح، وفي هذا السياق طرحت فكرة "الهدنة المؤقتة".

عاشراً: حماس واستئناف الحوار بين الفصائل الفلسطينية

سبقت الإشارة إلى الحوارات التي جرت بين حركة فتح ومنظمة التحرير وحركة المقاومة الإسلامية - حماس قبل توقيع اتفاق أوسلو. وقد سعت حركة حماس من جانبها إلى الحصول على اعتراف المنظمة بها كقوة رئيسية في الساحة الفلسطينية، وجر المنظمة إلى برنامج الحركة بصفة عامة. في المقابل سعت فتح - أو منظمة التحرير- بالأساس إلى ضم الحركة إلى المنظمة كفصيل صغير واستيعابها تماما على اعتبار أن المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني.

وكان واضحا منذ البداية أن صعوبات عديدة تحيط بالحوار، فالخط العام للمنظمة غير مقبول من حماس، وما تطرحه حماس لا تقبله المنظمة. فالحل الذي كانت تطرحه منظمة التحرير في ظل "الخط الوطني" كان يقوم على "حل الدولتين" وفق برنامج السلام الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٨٨. أما الحل الذي تطرحه حركة حماس والذي يدعو إلى إقامة دولة إسلامية على كامل أرض فلسطين بما فيها أراضي ١٩٤٨، فلا تقبله منظمة التحرير (٣١).

وبعد توقيع اتفاق أوسلو وتشكيل السلطة الوطنية الفلسطينية، صعدت حركة المقاومة الإسلامية حماس عملياتها ضد القوات الإسرائيلية، وبدأت في القيام بعمليات استشهادية داخل إسرائيل، الأمر الذي عرض السلطة الوطنية لضغوط إسرائيلية واتهامات تراوحت بين العجز والتواطؤ. ومع بروز تهديدات بوقوع اقتتال فلسطيني فلسطيني، تم استئناف الحوار بين الجانبين، السلطة الوطنية وحركة حماس، وحرصت الأخيرة على تأكيد أن الحوار يتم مع حركة فتح، وليس السلطة الوطنية لأنها لا تعترف بالأخيرة.

Abu Nour www.alkottob.com

وقد بدأت الحوارات في القاهرة عام ١٩٩٥، ثم انتقلت إلى الداخل مع تشكيل "لجنة المتابعة العليا للقوى الوطنية والإسلامية" لرعاية الحوار التي توصلت إلى أسس عامة لمشروع وثيقة وطنية. وعلى الرغم من التوصل إلى اتفاقات حول معظم ملاحظات وتحفظات حركتي حماس والجهاد، فقد انتهى الحوار إلى عدم توقيع الوثيقة نتيجة تراجع حركة حماس عن التوقيع على وثيقة تتبنى رؤية منظمة التحرير الفلسطينية التي تستند إلى قرارات الشرعية الدولية وقرار المجلس الوطني الفلسطيني لعام ١٩٨٨ بشأن القبول بدولة فلسطينية في حدود ما قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧.

وتعليقاً على فشل أعمال اللجنة، أكد زعيم حماس الشيخ أحمد ياسين في ١٦ أغسطس ٢٠٠٢ أن الحركة "ترفض أي وفاق وطني إذا كان يعني أن نعترف بإسرائيل أو أننا نتنازل عن حقوقنا في أراضي ١٩٤٨ أو نقاومه ضد الاحتلال، فهذا ليس وفاقاً وطنياً، وسيكون مرفوض من قبلنا" (٣٢).

وقد تم استئناف الحوار مرة أخرى في القاهرة في ٢٤ يناير ٢٠٠٣، وشاركت فيه مختلف الفصائل الفلسطينية، وكان الحوار الأول من نوعه الذي تشارك فيه عشر فصائل فلسطينية. وقد جرى في هذا الحوار بحث فكرة مصرية حول "توقيع اتفاق هدنة" تتعهد بموجبه فصائل المقاومة بوقف كافة العمليات المسلحة لمدة زمنية محددة من أجل إتاحة الفرصة أمام استئناف عملية التسوية السياسية.

حادي عشر: حماس والتعاطي مع مشروعات التسوية السياسية المطروحة

على الرغم من أن حركة المقاومة الإسلامية - حماس تنطلق في العمل من اعتبارات إيديولوجية، إلا أنها لمست الدليل أكثر من مرة على قدرتها على إبداء مرونة في مواقف كثيرة، والتكيف مع متغيرات إقليمية ودولية صحيح أن هذه المرونة لم تطل المنطلقات والقناعات، على الأقل من الناحية الرسمية، إلا أنها عملت على تكيف مع متغيرات عديدة مرت بها المنطقة والقضية الفلسطينية ذاتها. ويبدو ذلك واضحاً في الجدل الذي انطلم مبكراً داخل الحركة بين الاتجاهات المؤيدة لتشكيل جناح سياسي للحركة وتلك الرافضة لهذه الفكرة، وأيضاً في توجه الحركة نحو استبدال أدوات النضال حسب المتغيرات الإقليمية والدولية، هذا إضافة إلى الدخول في حوارات ومفاوضات مع السلطة الوطنية من أجل الحصول على دور سياسي للحركة. كما بدت مؤشرات مرونة حماس واضحة عندما استجابت قيادة الحركة "التقليدية" لضغوط الشباب الراغبين في المشاركة في عمليات المقاومة عكس توجه حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة قبل تشكيل حماس، وذلك بعد اندلاع انتفاضة ١٩٨٧.

وعلى الرغم من رفض حركة حماس لاتفاقيات أوسلو ورفضها الاعتراف بالسلطة الوطنية الفلسطينية، إلا أن إدارة داخل الحركة بدأ يطالب بضرورة التعاطي مع السلطة وتغيير أسلوب التعامل معها من أجل تمكين الحركة من اتباع أساليب تتوافق والتحولات التي ترتبت على وجود وعمل السلطة الوطنية. وطرح في هذا السياق ضرورة امتلاك الحركة لجناح سياسي تجنباً لانهام الحركة بممارسة الإرهاب وتضفيها ضمن المنظمات الإرهابية التي لا تؤمن بالعمل السياسي. وفي هذا الإطار، يقول عماد الفالوجي: "إن تجربة حزب الله في امتلاك جناح عسكري لتحرير الأرض، وآخر سياسي حتى لا يتهم بأنه لا يجيد سوى لغة القتل" كانت تجربة ملهمة للحركة. يضيف- قبل توقيع اتفاق أوسلو- "في مرحلة الانتفاضة، في وجود الاحتلال، كان العمل العسكري مهماً، أما في حالة قيام السلطة الوطنية ونجاح العملية السياسية يجب أن تكون هناك آلية جديدة، لأن الحماس للعمل العسكري الذي كان متوافراً في فترة الاحتلال قد يقل، وبالتالي لابد أن يكون لحماس مؤسسات تحت جناح السلطة الوطنية، وفي الوقت نفسه لديها الجهاز العسكري الذي يعمل داخل المناطق المحتلة وداخل إسرائيل" (٣٣).

Abu Nour www.alkottob.com

وعلى الرغم من أن حركة حماس قد فصلت الفالوجي في مرحلة تالية بسبب خروجه عن خط الحركة، إلا أنه يمثل في النهاية تيار موجود داخل الحركة ويعبر عن نفسه من وقت إلى آخر. وتكشف حوارات الفالوجي في السجن عن استعداد مبكر للوصول إلى تسوية سياسية مع إسرائيل مع استخدام مصطلحات معينة كالهدنة بدلاً من معاهدة سلام. وفي هذا الإطار، يقول الفالوجي في حوار مع أحد الأكاديميين الإسرائيليين في السجن: "إذا وافقتم على الاعتراف بحق شعبنا الفلسطيني على هذه الأرض بالعيش وإقامة الدولة الفلسطينية والانسحاب حتى حدود ١٩٦٧، والانسحاب من القدس، وتفكيك المستوطنات، وتحرير وإطلاق سراح كل الأسرى، يمكن أن تقبل حماس بهذا الحل المؤقت وتطرح هدنة مع إسرائيل. نحن نسميها هدنة وغيرنا مثل منظمة التحرير الفلسطينية تسميها معاهدة سلام، النتيجة بالنسبة لإسرائيل واحدة... أنت قلت أن الهدف لدولة إسرائيل هو الأمن، وأنها تريد أن تتكون آمنة وأن تطمئن على مستقبلها.. إذا لا تبحثوا كثيرا في الأسماء والمسميات، نحن نسميها هدنة وغيرنا يسميها عملية سلام، وأنتم سموها الاسم الذي تريدون، ولكن في النهاية وفي المجمل نحن نعطيكم الأمن إذا وافقتم على هذه الشروط" (٣٤).

بل إن الفالوجي لم يرفض مبدأ إدخال تعديلات على حدود ما قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧ من أجل هدف "الهدنة"، إذ يقول: "المهم هو المبدأ، مبدأ توافق على الانسحاب والاعتراف بحقنا على حدود عام ١٩٦٧، وقد يحتاج ذلك على بعض التفاصيل، على أن نستمع إلى آرائكم وتستمعوا إلى آرائنا" (٣٥).

ويبدو أن طرح من هذا النوع قد أحدث قدر من التوتر لدى أنصار الحركة والمؤمنين بخطها العام، فعملوا على تقديم قراءتهم لهذه المواقف، وصبت تلك القراءة في اتجاه التأكيد على أن "مرجعية الحركة الشرعية لطرح الهدنة مقابل شروط محددة مقتصرة على زمن محدد، وإذا كان هدف تحرير الأرض وإزالة إسرائيل لا تتوفر فيه شروط تحقيقه الآن، فإن تلك المدة يجب أن تكون فرصة لتحسين الأداء العسكري استعداداً لاستئناف المقاومة لأن الهدف الكلي لم ينجز بعد" (٣٦).

ولابد من التأكيد على أن مثل هذا التوجه لا يمثل الخط العام للحركة. كما أنه لم يحسم حتى الآن. صحيح أن تيار من الحركة قرر إنشاء حزب سياسي وحصل على الترخيص من السلطة الوطنية، وشارك رموزه في الانتخابات بصفتهم شخصيات مستقلة، إلا أن الصحيح أيضا أن الفالوجي تم فصله من الحركة وبانت مواقفه وسلوكه سلوكاً شخصياً لا يعبر بالضرورة عن الحركة، بمعنى أن دخوله الانتخابات التشريعية وتقلده منصب وزاري في حكومة السلطة الوطنية كان أمرا شخصيا.

غاية ما يمكن التأكيد عليه هنا هو أن حركة حماس التي أنشأها الإخوان المسلمين في قطاع غزة بعد اندلاع انتفاضة ١٩٨٧، ركزت نشاطها الأساسي في العمل العسكري المقاوم. وبعد توقيع اتفاق أوسلو وتشكيل السلطة الوطنية لم تعزل نفسها عن المتغيرات الإقليمية والدولية، حيث برزت داخلها تيارات تطالب بالتعاطي مع واقع وجود سلطة وطنية، وضرورة تشكيل جناح سياسي للحركة حتى لا تتهم الحركة بالإرهاب وبأنها لا تعرف سوى لغة القتل، وهو ما تحقق بإنشاء "حزب الخلاص الإسلامي". كما أنها دخلت في سلسلة حوارات مع السلطة الوطنية من أجل التوصل إلى أجندة وطنية مشتركة. وبمرور الوقت بدأت تظهر داخل الحركة أصوات تطالب بالبحث عن أساس شرعي لقبول عملية تسوية سياسية وفق حدود ما قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧.

من هنا يمكن القول أن تقدم عملية التسوية السياسية سوف يزيد من وتيرة خطى تحول حماس إلى حركة سياسية تعمل وفق أسس العمل السياسي في الدولة الفلسطينية. وهو تحول يعيد الحركة مجددا إلى مبدأ عملها الرئيسي قبل الانتفاضة، أي العمل الدعوي، من أجل بناء الفرد والأسرة والمجتمع المسلم تمهيدا لإقامة الدولة الإسلامية.

ويمكن أن تقدم الحركة في هذا الإطار – في حالة اكتمال ونجاح هذا التحول – نموذجاً لتحول الحركات

Abu Nour www.alkottob.com

الإسلامية التحريرية إلى حركات إسلامية سياسية- اجتماعية داخلية تركز على عملية إقامة الدولة الإسلامية التي يمكن أن تكون مدخلاً لتحرير باقي أرض فلسطين.

الهوامش:

(١) أحمد سامح الخالدي وحسين جعفر آغا، "المعارضة الفلسطينية : دور حيوي في المرحلة المقبلة"، مجلة **الدراسات الفلسطينية**، العدد ١١، صيف ١٩٩٢، ص ص ٣-١٣.

(٢) عماد عبد الحميد الفالوجي، **درب الأشواك: حماس، الانتفاضة والسلطة**، (عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢) ص ١٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٤) المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٥) المرجع السابق، ص ٥١.

(٦) المرجع السابق، ص ص ٥٥-٥٧.

(٧) أنظر تفاصيل قصة الحوار واللقاءات في خالد الحروب، "ما هو الخلل السياسي في الحوار الفلسطيني الفلسطيني"، جريدة **الحياة** اللندنية، ١٢/١٠/١٩٩٣.

(٨) المرجع السابق.

(٩) المرجع السابق.

(١٠) المرجع السابق.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) عماد عبد الحميد الفالوجي، درب الأشواك: حماس، الانتفاضة والسلطة، مرجع سابق، ص ١٨.

(١٣) مهيب سليمان أحمد النواتي، **حماس من الداخل** (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢) ص ١٧٣-١٧٤.

(١٤) المرجع السابق، ص ٥٧.

(١٥) المرجع السابق، ص ص ٩١-٩٤.

(١٦) المرجع السابق، ص ص ٩١-٩٤.

(١٧) المرجع السابق، ص ٩٤.

(١٨) عماد عبد الحميد الفالوجي، درب الأشواك: حماس، الانتفاضة والسلطة، مرجع سابق، ص ص ٢١٤-٢١٥.

(١٩) مهيب سليمان أحمد النواتي، حماس من الداخل مرجع سابق، ص ص ١٥٤-١٥٩

(٢٠) عماد عبد الحميد الفالوجي،، درب الأشواك: حماس، الانتفاضة والسلطة، مرجع سابق، ص ص ١٦١-١٦٤

Abu Nour www.alkottob.com

(٢١) المرجع السابق، ص ١٦٤ .

(٢٢) المرجع السابق، ص ص ٢٢٢-٢٢٥ .

(٢٣) المرجع السابق، ص ٢٢٩ .

(٢٤) مهيب سليمان أحمد النواتي، حماس من الداخل مرجع سابق، ص ص ٩٤-٩٦ .

(٢٥) ماجد كيالي، "الانتفاضة والمقاومة والعمليات الاستشهادية: التأثيرات والإشكاليات"، مجلة **دراسات فلسطينية**، العدد ٥٢، خريف ٢٠٠٢، ص ص ٤٣-٥٦ .

(٢٦) الجزيرة نت، ٢٠٠١/١٢/٦، www. aljazeera.net

(٢٧) موقع حركة حماس على الانترنت.

(٢٨) موقع حركة حماس على الانترنت.

(٢٩) الجزيرة نت، ٢٠٠١/١٢/٧

(٣٠) حوار مع خالد مشعل، جريدة **الخليج** - (الشارقة)- ٢٠٠٣/٥/١٤

(٣١) أحمد سامح الخالدي وحسين جعفر آغا، المعارضة الفلسطينية : دور حيوي في المرحلة المقبلة، مرجع سابق، ص ٩ .

٣٢ موقع حركة حماس على الانترنت، مرجع سبق ذكره.

٣٣ عماد عبد الحميد الفالوجي،، درب الأشواك: حماس، الانتفاضة والسلطة، مرجع سابق، ص ص ٢٢٩-٢٣٠ .

٣٤ المرجع السابق، ص ص ١٣٧-١٣٨ .

٣٥ المرجع السابق، ص ١٣٩ .

٣٦ محمد جمعة، "بين عملية غزة ومبادرة حماس: دلالات التوقيت وواجب المراجعة"، مجلة **القدس**، العدد ٤٤ السنة الرابعة، أغسطس ٢٠٠٢، ص ٣٢ .

Abu Nour www.alkottob.com

٧. حركة "الجهاد الإسلامي" في فلسطين

تندرج حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، كحركة إسلامية جماهيرية مجاهدة مستقلة، ضمن حركات الإحياء الإسلامي المعاصر، بما تحمله من خصائص الحركات الاجتماعية التغييرية والثورية، والتي تسعى إلى الإنتاج الذاتي لمجتمعاتها على مثال جديد وقوى وسلطات جديدة. بيد أن خصوصيتها تتجاوز أداء حركات الاحتجاج الدينى الأخرى في ظل أنظمة التجزئة المستقلة حيث تتمثل في مواجهة واقع كيان محتل، وبذلك يتداخل البعد الديني مع البعدين الوطني والسياسي ضمن واقع اجتماعي غير مستقر يخوض في مرحلة تحرر. ويشكل الموقف من القضية الفلسطينية أبرز مكونات أيديولوجية الحركة وأهم بواعث انطلاقها وتمايزها عن القوى الوطنية والإسلامية، وصلب الحراك الثقافي والسياسي والعسكري إلى يومنا هذا. وليس هناك تنظيم فوق قطري للجهاد الإسلامي، حيث لا يشكل تنظيماً مركزياً واحداً عبر أركان العالم الإسلامي، وذلك على الرغم من التقارب الأيديولوجي وبعض أشكال التنسيق والتعاون بين تنظيمات مختلفة للجهاد الإسلامي.

أولاً: تأسيس وتطور الحركة

١- المرحلة التمهيدية

وهي المرحلة التي احتضنت ميلاد الحركة، وتمثلها المرحلة المصرية منذ عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٨١، حيث شهدت حقبة السبعينيات في مصر صعود حركات الإحياء الإسلامي بفعل جملة من الشروط السوسيولوجية والسياسية تراكمت منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧، وما تلاها من تراجع وانحسار الأيديولوجية الاشتراكية والقومية وبروز الخيار الإسلامي وقواه. وتبرز بصمات فتحي إبراهيم عبد العزيز الشقاقي، مؤسس وأمين عام الحركة، من قرية " زرنوقة " بالقرب من يافا في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، والذي شردت عائلته من القرية بعد تأسيس الدولة العبرية عام ١٩٤٨، وهاجرت إلى قطاع غزة حيث استقرت في مدينة رفح، وهي أسرة فقيرة حيث كان الأب عاملاً. ولد الشقاقي في مخيم رفح للاجئين عام ١٩٥١، وفقد أمه وهو في الخامسة عشرة من عمره، وكان أكبر أخوته، ودرس في جامعة بير زيت بالضفة الغربية وتخرج في دائرة الرياضيات. وعمل لاحقاً في سلك التدريس بالقدس في المدرسة النظامية ثم في مدرسة الأيتام. وفي أثناء عمله درس مرة أخرى الشهادة الثانوية، ثم التحق

Abu Nour www.alkottob.com

بكلية الطب في جامعة الزقازيق (مصر)، وعاد إلى الأراضي المحتلة ليعمل طبيباً في مستشفى المطلع بالقدس، وبعد ذلك عمل طبيباً للأطفال في قطاع غزة.

وقد كان الشقاقي قبل عام ١٩٦٧ ذا ميول ناصرية، ولكن هزيمة عام ١٩٦٧ أثرت تأثيراً بارزاً على توجهاته، حيث قام بالانخراط في عام ١٩٦٨ بالحركة الإسلامية، وهو الانخراط الذي توطد بعد سفره لدراسة الطب في جامعة الزقازيق عام ١٩٧٤، حيث كان الوضع الإخواني والإسلامي عموماً فيها أحفا في التحسن في ظل سياسات الرئيس السادات بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهو ما انعكس على التنظيم الإخواني الفلسطيني وفي أوساط الطلاب الفلسطينيين القريبين منه في مصر ومنهم الشقاقي. إلا أن عوامل تتعلق بالاختلاف الواسع في الخلفية الثقافية والفكرية، إضافة لاختلاف المؤثرات السياسية والاجتماعية بين جيلين كاملين من الإخوان المسلمين الفلسطينيين، أدت إلى أن الكتابات الإخوانية الكلاسيكية التي أنتج معظمها في الأربعينيات والخمسينيات، لم تعد كافية بالنسبة للشقاقي وجيله لصياغة رؤية إسلامية للعالم ولا للإجابة على الأسئلة الأساسية المتعلقة بالإسلام والعصر، أو المتعلقة بالإسلام وفلسطين.

وفي تلك المرحلة القلقة للبحث عن إجابات للأسئلة الصعبة ضمن السياق الإسلامي تعرف الشقاقي على كتابات الشيخ محمد الغزالي التي اكتشف من خلالها "أن الإسلام عالم كبير يشمل كل مناحي الحياة". كذلك فقد بدأ يقرأ كتابات سيد قطب التي تركت فيه أثراً كبيراً، واحتل عنده مكانة خاصة بسبب قدراته الفكرية والعقائدية وبلورة جوانب التحدي الذي يواجه المسلمين وآليات المواجهة. وبالنظر إلى نجاح سيد قطب في تجسيد الموقف المعارض من السلطة والرافض للمساومة أو التعاون معها، فقد أصبح بشكل ما بالنسبة للشقاقي نموذج الموقف الإسلامي الثوري. كما اعتبر الشقاقي حسن البنا زعيماً إسلامياً مؤسساً لاتجاه اتعباثي إسلامي قام بالتوفيق بين اتجاهين إسلاميين، أحدهما سلفي والآخر إصلاحي. وتكمن أهمية البنا بالنسبة للحركة في ثلاثة جوانب قام بالتركيز عليها في سياق السعي لإعادة إحياء الدعوة الإسلامية، وهي: الانبعاث والتنظيم والتنشئة. كما استفاد الشقاقي أيضاً من تجربة الشيخ عز الدين القسام (١٩١٩ - ١٩٣٥) والذي استلهم قيم الإسلام وآيات الجهاد والقيم القرآنية في معركته ضد الاحتلال، واختار المسجد كمنطلق، وانتقى أصحابه وأتباعه من أهل الدين والعقيدة. كذلك فقد كان القسام بالنسبة للحركة رمزاً للوعي والرؤية الناضجة والواضحة على المستوى الاجتماعي والسياسي، بتأسيسه تنظيما ثوريا صلبا قاد الجهاد المسلح، وبصياغته لنظرية ثورية اتسمت بالنضوج الفكري ووضوح الرؤية والتحليل المعمق للمجتمع وظروفه السياسية، ومزجه الدعوة للجهاد في سبيل الله بالدعوة للجهاد في سبيل الوطن. ونتيجة إدراك القسام بأن المقاومة والثورة هما طريق الحرية والاستقلال، فقد رفع راية الكفاح المسلح الثوري والمنظم بدلاً من أشكال النضال السياسي. ومثلما انتقى القسام اتباعه بعناية فائقة ولمن بين الفقراء وتبنى أساليب تنظيمية صارمة، كذلك فعلت حركة الجهاد الإسلامي بعد ذلك مع الشقاقي. ومثلما رفض القسام ورفاقه مبدأ الحوار مع بريطانيا في مواجهة موقف جماعة المفتي (الوطنيين)، وجماعة النشاشيبي (المعارضين)، ومجموعة الأحزاب التقليدية في الثلاثينيات، رفض الشقاقي وأنصار الجهاد مبدأ الحوار مع سلطات الاحتلال الإسرائيلي، بينما تقدم بعض الاتجاهات الوطنية والدينية الفلسطينية على إجراء، مثل هذا الحوار أو عقد اللقاءات. وكانت الثورة الإسلامية في إيران مصدر إلهام إضافي على صعيد الفكر والممارسة لمؤسس حركة الجهاد، حيث سعى منذ البداية إلى استيعاب واستلهام تعاليم الإمام الخميني الذي رأى فيه رمزاً وملهماً وقائداً للثورة الإسلامية، ليس في إيران فحسب، بل في كل مكان. وسعى الشقاقي أيضاً إلى استلهام دروس هذه الثورة الإسلامية ومحاولة تطبيقها على السياق الفلسطيني، حيث أكدت هذه الثورة أن الإسلام هو الحل، وأن الجهاد هو الأسلوب الأمثل، وجعلت النظر إلى القضية الفلسطينية من منظور إسلامي أمراً ممكناً، وذلك في ظل الفتاوى المتعددة للإمام الخميني في ذلك الشأن.

وتوصل الشقاقي، بعد بروز البرنامج المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية وقبول مشروعات التسوية واستعداد

Abu Nour www.alkottob.com

للنظمة لقبول بقيام سلطة وطنية على أية منطقة يتم تحريرها أو انسحاب إسرائيل منها، بما يشتمل عليه ذلك من قبول ضمن بقرارات مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨، إلى رفضه دخول ميدان الصراع الوطني ضد الاحتلال تحت هذه المظلة وقناعته الواضحة بوجود تفاوت ضعف في المشروع الوطني الفلسطيني، تتركز حول الأيديولوجية السياسية الوطنية التي استبعدت وسعت إلى تغييب وإقصاء الإسلام من محتواها الفكري. وفي الوقت نفسه أدرك مؤسس الجهاد الإسلامي إشكالية الحركة الإسلامية والوطنية التقليدية والتي كانت غائبة عن المسألة الوطنية طيلة سنوات الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، والتي تتمثل في وجود "وطنيون بلا إسلام، وإسلاميون بلا فلسطين"، بما كان يعني بالنسبة له فقدان البوصلة والدوران في حلقة مفرغة لا تنتج إلا مزيداً من الضعف والعجز والهوان لأمة تعيش أزمة حضارية شاملة في مواجهة الهجمة الغربية الشرسة التي تعد فلسطين هي مركزها وعنوانها الرئيسي.

وإذ تلاقح فكرة الإسلام، كدين للمتحرر من كل عبودية والثورة على كل ظلم، مع قضية فلسطين المغتصبة، لدى الشقاقي إلى تنبيه مفهوم الجهاد في معادلة ذات عناصر ثلاثة: الإسلام كمنطلق، الجهاد كوسيلة، فلسطين كهدف للتحرير. واعتبر مشروع الشقاقي للجهاد الإسلامي أن حل هذه الإشكالية لن يتم سوى عبر كشف الأبعاد القرآنية والتاريخية والواقعية للمسألة الفلسطينية التي يتوجب أن ترتفع إلى مستوى القضية المركزية للحركة الإسلامية والأمة الإسلامية، بدون أن يعني شعار "إسلامية المعركة" نقيضاً لشعار "وطنية" أو "قومية" المعركة، ولا بغير البعد الوطني أو القومي لها بل يتكامل معها. فهي معركة وطنية وقومية إسلامية وأساس الإجماع الوطني. واستند الشقاقي، ومن بعده الحركة، في التركيز على البعد الإسلامي للقضية الفلسطينية على ما أعطاه القرآن لفلسطين من مكانة بارزة وأهمية خاصة من خلال حادثة الإسراء والمعراج، ومباركته وتقديسه لأرض فلسطين في أكثر من موطن فيه، إضافة لما جاءت به الأحاديث النبوية والتراث الإسلامي في شأن بيت المقدس ومكانته ومنزلته الرفيعة عند الله، وما أوردته الأحاديث عن عظم أجر الرباط والجهاد في بلاد الشام.

في ظل تلك المفاهيم الجديدة المختلفة عما شاع في أوساط الإخوان المسلمين الفلسطينيين والمصريين في ذلك الوقت، لم يكن هناك مهرب للشقاقي من الاختلاف مع الجماعة الأم والخروج منها ليقوم مع مجموعة من أصدقائه في مرالي عام ١٩٧٨ بتأسيس "الجهاد الإسلامي" الفلسطيني ليكون بمثابة أول محاولة حديثة لإعادة الوحدة بين الديني والسياسي والوطني على الساحة الفلسطينية منذ أن غابت تلك الوحدة عام ١٩٤٨. وأصبح الجهاد الإسلامي بذلك أول تنظيم خارج إطار الوطنية الكيانية الفلسطينية يضع مقاومة الاحتلال على رأس أهدافه، وهو ليس امتداداً أو انشقاقاً تنظيمياً لأحد أو عن أحد. وكان التطور الأخر البارز أيضاً عام ١٩٧٨ هو تشكيل تنظيم "الطلائع الإسلامية" داخل الجامعات المصرية والذي ضم حوالي ٦٠ كادراً، وحدد رسالته ودوره كقوة تجديد داخل الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية على مستوى الفكر والمنهج والتنظيم وعلى مستوى الأداء داخل فلسطين. وبرز المجال الخاص بين الطلائع والإخوان حول تغييبهم للجهاد، أو مهادنتهم للحكومات، واتباعهم السبل السلمية الديمقراطية في التغيير وقبولهم دخول البرلمانات والوزارات، وبوسطية موقفهم تجاه الولايات المتحدة الأمريكية وموقفهم المتشكك من الثورة الإسلامية في إيران، إضافة لموقفهم المتذبذب من اتفاقية كامب ديفيد التي عقدها الرئيس السادات مع إسرائيل. وشكلت مجلة "المختار الإسلامي" المصرية، على مدار ١٣ شهراً، المنبر الإعلامي لأخبار وأفكار وطروحات مشروع "الجهاد الإسلامي" في كافة قضايا الفكر والسياسة والجهاد، ومثلت أيضاً مادة التثقيف الأساسية لأعضاء التنظيم وسبيلاً لاستقطاب الأعضاء الجدد. وتعاظم دور فتحي الشقاقي باعتباره القائد المؤسس والمنظر لأيديولوجيا كل من "الطلائع" و"الجهاد"، إضافة لآخرين، وبدأت مرحلة انتقال "الطلائع الإسلامية" و"الجهاد" إلى فلسطين منذ عام ١٩٨٠، حين كان الطلبة أعضاء التنظيم يغادرون إلى قطاع غزة لقضاء العطلة الصيفية ويقومون بنشاطات دعوية في المساجد مبشرين "بالجهاد الإسلامي" ويخرضون الفئات والحرارات مع القوى الإسلامية والوطنية.

في ظل تلك الأجواء، اعتقل فتحي الشقاقي في مصر في عام ١٩٧٩، بسبب تأليفه كتاب "الخميني، الحل

Abu Nour www.alkottob.com

الإسلامي والبديل"، ثم أعيد اعتقاله في ١٩٧٩/٧/٢٠ على خلفية نشاطه السياسي الإسلامي لمدة أربعة أشهر، وغادر مصر إلى فلسطين في ١٩٨١/١١/١ سراً بعد أن كان مطلوباً لقوى الأمن المصرية، قاد بعدها حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وسجن في غزة عام ١٩٨٣ لمدة ١١ شهراً، ضمن حملة اعتقالات في شهري أغسطس وسبتمبر من العام نفسه، شملت العشرات من أبناء الحركة. وتعتبر هذه المجموعة الإسلامية التي ضمت العشرات من تنظيم الجهاد أول تنظيم إسلامي يتم اعتقاله منذ الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧، حيث كان الموقف الإسلامي التقليدي حتى عام ١٩٨٣ يتجنب الصدام السياسي أو الأمني المباشر مع سلطات الاحتلال. ثم أعيد اعتقاله مرة أخرى عام ١٩٨٦ وحكم عليه بالسجن الفعلي لمدد ٤ سنوات و٥ سنوات مع وقف التنفيذ "لارتباطه بأنشطة عسكرية والتحريض ضد الاحتلال الإسرائيلي، ونقل أسلحة إلى داخل القطاع". وقبيل انقضاء فترة سجنه قامت السلطات العسكرية الإسرائيلية بإبعاده من السجن مباشرة إلى جنوب لبنان في مطلع أغسطس ١٩٨٨، بعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى. تنقل الشقاقي بعد ذلك بين العواصم العربية والإسلامية لمواصلة جهاده ضد الاحتلال الإسرائيلي إلى أن اغتاله جهاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد) في مالطا يوم الخميس ١٩٩٥/١٠/٢٦، وهو في طريق عودته من ليبيا إلى دمشق، بعد جهود قام بها لدى الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي بخصوص الأوضاع المأساوية للشعب الفلسطيني في ليبيا على الحدود المصرية.

٢- المرحلة التأسيسية

مرت الحركة خلال تلك المرحلة بعدة مراحل فرعية أفضت في نهايتها إلى ظهور وتبلور الحركة بالشكل الذي تبدو عليه حالياً. فهناك أولاً المرحلة التي امتدت منذ عام ١٩٨٠، الذي يعتبر التاريخ الرسمي لتأسيس حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وحتى عام ١٩٨٣، حيث واصلت النواة الطلابية الأولى التي تم تشكيلها في مصر النشاط المنظم داخل فلسطين، منذ عام ١٩٨٠، بعد أن أنهت دراستها الجامعية واستقرت في الأراضي المحتلة، وباشرت نشاطاً جماهيرياً، وإعلامياً، وتعبوياً، وركزت فيه على الانتشار الفكري والسياسي، متوسلة بآليات دعوية وتبشيرية مختلفة في كافة الساحات والميادين والأماكن، كالمساجد والشوارع والمدارس والمعاهد والجامعات والبيوت والجمعيات الخيرية والمؤسسات النقابية. واستطاعت هذه الطلائع تشكيل تيار جماهيري "جهادي" في الشارع الفلسطيني في فترة قياسية، خاصة في مؤسسات التعليم العالي والمساجد - التي ارتفع عددها - وساعدت على عودة النشاط السياسي الإسلامي في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد غياب شبه تام، إذ اقتصر نشاط الفئات والتيارات الإسلامية الأخرى على الجانبين الدعوي والأخلاقي. وبرزت بالتالي الأبعاد الثورية - الاحتجاجية لخطاب هؤلاء الطلائع بالمزج بين السياسة والدين، وربط الوطنية بمفاهيم الشريعة، ونشر أيديولوجيا دينية تحمل المسألة الوطنية وتؤكد مركزيتها فكرياً وبرنامجياً. وساعد التماثل بين كوادر التنظيم وقياداته على تنامي النضالية الاجتماعية والسياسية لكوادر "الجهاد" بخاصة الانتماء لأصول اجتماعية شعبية، كما ساهم في صياغة الراديكالية في الممارسة والثورية في الخطاب، ووفر الربط بين الاحتجاجين السياسي والاجتماعي للانطلاق من منطلق ديني وطني.

ونشط الاتجاه الثوري في المساجد، على وجه الخصوص، مستغلاً خطابه التحريضي السياسي الواضح والصريح وموسعاً قاعدته الشعبية عبر خطب الجمعة التي تميزت بجرأتها وتناولها لكافة القضايا على الساحتين الإسلامية والفلسطينية، وبات الخطاب السياسي جزءاً من خطاب الوعظ الديني، والاهتمام بإقامة الاحتفالات والمناسبات الدينية المختلفة، كما تم استثمار صلاة الجماعة والعيدين لإظهار التحدي المباشر للاحتلال. كذلك فقد كان هناك حرص على القيام بتظاهرات سياسية سنوية في ذكرى "يوم القدس العالمي" في الأسبوع الأخير من شهر رمضان بالتعبئة في ساحات المسجد الأقصى، وأضحت المهرجانات، كالمساجد، حقلاً خصباً لتجنيد الأعضاء، والأنصار. كما أقيمت المعسكرات الصيفية لتنظيم مزيد من الدورات التثقيفية الفكرية والسياسية الجادة، وأداء

Abu Nour www.alkottob.com

الصلوات جماعة وتلاوة القرآن، ومباشرة الأنشطة الرياضية والترفيهية المختلفة، وصياغة الرؤية العقائدية للأعضاء وفق أسس الإسلام الثوري، فضلاً عن استخدامها لبنا، الوضع التنظيمي ووضع الخطط والبرامج المستقبلية للحركة. إضافة لذلك فقد كانت هناك أيضاً المجولات الميدانية على العديد من المدن والقرى، خاصة تلك التي قام بها الشقاقي.

ويلاحظ أن تيار الجهاد الإسلامي الفلسطيني لم يهتم بتأسيس جمعيات أو نقابات ضمن آليات انتشاره، كما هو دأب الإخوان المسلمون، بما يتناغم ورؤيته للعمل المؤسساتي وعدم جدوى المؤسسات الإسلامية كمؤسسات حزبية تكرس الروح الحزبية وتدعو إلى التنازل عن كثير من أهدافها في مواجهة ضغط الأنظمة بدعوى الحفاظ عليها. وفي المقابل، دعا تيار الجهاد إلى اعتبار المسجد مؤسسة للأمة "لأنها المؤسسة الإسلامية النظيفة التي تحوي كافة طبقات الشعب"، وتقديم بعض الخدمات الاجتماعية والطبية من خلاله. وهكذا تعاظم دور الحركة في الجانب التعبوي الدعوي والسياسي والإعلامي.

وتميزت هذه المرحلة من عمر "الجهاد الإسلامي" بالخلاف بين هذا التيار والتيارات الإسلامية التقليدية، وأهمها حركة الأخوان المسلمون. فبينما تميزت العلاقة بين تيار الجهاد وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية بخلافات أيديولوجية عميقة، وشراكة تكتيكية ميدانية في مواجهة الاحتلال، فإن العلاقة بين هذا التيار و "الإخوان المسلمون" تميزت بإجماع ديني استراتيجي وخلاف تكتيكي حاد حول الطرق المناسبة لتحقيق الأهداف الإسلامية في إقامة دولة الإسلام وتحرير فلسطين. فحركة الجهاد التي تعود في أصولها إلى الإسلام، وتنادي ببعث الإسلام وإقامة دولته المعاصرة، تقوم على أساس الشريعة الإسلامية والمبادئ المستمدة من القرآن الكريم وسنة الرسول (ص)، والاستفادة من الموروث الإسلامي، عبر اجتهادات الأئمة والعلماء الكبار في التاريخ الإسلامي. مع النظر للحركة من منظور أنها حركة تجديدية داخل الفكر الإسلامي، نظرت إلى فلسطين بوصفها قضية المسلمين المركزية ودعت إلى تحريرها عن طريق الجهاد المسلح، مما أضفى على هذه المجموعة طابعاً وطنياً فلسطينياً محلياً، ظهر الإسلام من خلاله "ديانة تحرر"، تربط بين الإسلام والمقاومة المسلحة وتنظر إلى الوجود اليهودي في فلسطين على أنه رأس حربة للغرب في قلب العالم الإسلامي. وعليه فقد بلورت الحركة رؤية ثورية وفلسفة جديدة اعتبرت فيها الحرب ضد إسرائيل بالكفاح المسلح خطوة أولى وضرورية في عملية ترميم وتوحيد الأمة الإسلامية، وقاعدة ضرورية لصحوتها وعودتها الكاملة إلى القيم الإسلامية. وبحسب منظور قيادات حركة الجهاد، فإن القيادة الدينية التقليدية أغرقت الدين من محتواه السياسي والاجتماعي، وأبقته في نطاق الفعل الطقوسي والرسمي، وأصبحت غير جديرة بقيادة الجمهور الفلسطيني، تماماً، كما الحركة الوطنية الفلسطينية التي استبعدت الإسلام وعملت على إقصائه، وسادت في أوساطها العلمانية والتغريب والتنكر لعقيدة الأمة وتراثها.

وميدانياً تحول هذا الخلاف إلى صراع مكشوف على شرعية تمثيل الاتجاه الإسلامي الفلسطيني، وتركز الصراع بالأساس في ساحتين هما: الجامعات والمساجد. وخفت قليلاً حدة هذا الصراع منذ عام ١٩٨٥، مع بداية مواجهة تيار الجهاد للاحتلال الإسرائيلي، حيث نشطت الحركة في طباعة المنشورات السرية الداعية إلى الثورة وقيادة التظاهرات والاعتصامات الجماهيرية، ولعبت دوراً بارزاً ورياديا في انتفاضة أبريل ١٩٨٥ - إثر حادث إطلاق أحد جنود الاحتلال النار داخل المسجد الأقصى. كما قامت الحركة بإعادة طباعة وتوزيع مجلة "الطليعة الإسلامية" في الأرض المحتلة، والتي أصبحت لاحقاً بمثابة منشور سري تلاحقه سلطات الاحتلال وتصادره وتعتقل من يوزعه. وحمل التنظيم الوليد اسم "المجلة"، وطاردته سلطات الاحتلال أيضاً، خاصة في ٢٨ أغسطس ١٩٨٣، حيث فرضت الإقامة الجبرية، لمدد متباينة، على قيادات مهمة في الطليعة الإسلامية، منهم الشقاقي ورمضان عبد الله شلح وعبد العزيز عودة. وزاد بروز قوة التنظيم عقب تراجع فصائل منظمة التحرير الفلسطينية بعد الخروج من بيروت، عام ١٩٨٢، إلى المنفى في تونس وغيرها، وحصار تشكيلاتها وقياداتها وعضويتها في الداخل الفلسطيني.

Abu Nour www.alkottob.com

وتلى تلك المرحلة مرحلة أخرى امتدت منذ عام ١٩٨٤ وحتى عام ١٩٨٧، ويمكن تسميتها بمرحلة التأسيس للعمل المسلح الذي استمر طوال تاريخ الحركة بعد ذلك. وكانت العملية المسلحة الأولى هي اغتيال أحد طلاب المدرسة اليهودية في الخليل في أغسطس ١٩٨٣، والتي أدت إلى قيام إسرائيل بحملة اعتقالات واسعة في صفوف الحركة وقياداتها ومنهم الشقاقي وحوالي ٢٥ آخرين، مما دفع إلى التعاطف الشعبي مع الحركة والالتفاف حولها، الأمر الذي مهد لها للانتقال إلى مرحلة "الجهاد المسلح الشرعي" في مواجهة الاحتلال. وقد كان الاحتلال هو العامل الأهم لتجسيد ونشر أفكار الحركة بين الفلسطينيين، بأهمية مواجهة "الظاهرة الإسرائيلية" عسكرياً في سياق شعار "القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية المعاصرة". ومن العوامل المهمة التي ساهمت في انطلاق العمل المسلح للجهاد، إضافة لأيديولوجيا الجهاد الإسلامي المسلح التي دعت لها الحركة، عوامل عدة من أهمها: الاتصالات التي أجرتها قيادة الحركة ببعض المعتقلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية ممن ينتمون إلى التجمع الديني الذي تشكل داخل السجون وعرف بـ "الجماعة الإسلامية"، والتنسيق المؤقت الذي حصل بين الحركة ومجموعة من سرايا الجهاد الإسلامي، وهي مجموعة عسكرية تشكلت منذ مطلع الثمانينيات بعد خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت. وتمخض "الحلف" العسكري الجديد عن بعض العمليات، كان أشهرها عملية باب المغاربة أو عملية البراق في منتصف أكتوبر ١٩٨٦ والتي تعد أقوى العمليات المسلحة والنوعية الكبرى للحركة، حيث قام مقاومو الحركة خلالها بإلقاء ثلاث قنابل يدوية على جنود من لواء جفعاتي الإسرائيلي، أثناء احتفال بالقرب من "حائط المبكى"، مما أدى إلى جرح ستة منهم وقتل والد أحدهم. وفي نفس تلك الفترة التي سجن فيها الشقاقي، قام سبعة من أعضاء الجهاد بالهرب بنجاح من سجن غزة المركزي حيث كانت تعتقلهم سلطات الاحتلال.

بيد أن التنسيق والتعاون بدأ لاحقاً يخف تدريجياً مع ذيوع شبهة العلاقة بين "السرايا" و"فتح" التابعة للرئيس (الراحل) ياسر عرفات، إذ أن تأكيد حركة الجهاد الدائم على أنها لم تخرج من عباءة "فتح" قد دفع بها إلى الانطلاق في المقاومة بمشروعها العسكري المستقل، وتزامن ذلك مع تراجع تدريجي للمشروع الوطني الذي تقوده منظمة التحرير الفلسطينية بعد ضرب بنيتها العسكرية القاعدية في لبنان، وتخليها عن الكفاح المسلح باعتباره خياراً استراتيجياً إلى إطار غايته الأساسة مواصلة النشاط الدبلوماسي. وفي سياق تزايد الصدقية في الحركة الإسلامية بجملتها، نشطت الحركية الثورية للجهاد، حيث تم تنفيذ عملية عسكرية قتل فيها قائد الشرطة العسكرية الإسرائيلية في قطاع غزة في ٢ أغسطس ١٩٨٧، وجرت محاولة لتفجير سيارة ملغومة في سبتمبر ١٩٨٧، ووقعت مواجهة مسلحة بين أربعة من أعضاء الجهاد مع قوات الأمن الإسرائيلية في حي الشجاعية بمدينة غزة في ٦ أكتوبر ١٩٨٧، أدت إلى قتل ضابط أمن إسرائيلي واستشهاد أعضاء الجهاد الأربعة، فضلاً عن عشرات العمليات الناجحة التي استهدفت العسكريين الإسرائيليين بالأساس.

وتعرضت الحركة لضربات إسرائيلية موجعة لاسيما في المرحلة التي واكبت اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى في عام ١٩٨٧، وهي الفترة نفسها التي شهدت توجهها نحو تعزيز بنيتها التنظيمية وتحولها من تنظيم نخبوي إلى حركة جماهيرية، حيث أن البنية التنظيمية للحركة - وقتئذ - كانت تضم فقط نواة مركزية قيادية لا يتلوها سوى دائرة المتعاطفين والموازرين من الجماهير، دون وجود دوائر أخرى وسيطة مرنة. وقد ترافق مع تلك التحولات الداخلية في الحركة والضغوط الخارجية عليها ذلك التحول المهم الذي طرأ داخل جماعة الإخوان المسلمين الفلسطينية بتشكيلهم لحركة "حماس" وانخراطهم في مقاومة الاحتلال، مما انتزع زمام المبادرة من حركة الجهاد وأفقدها شيئاً من تميزها داخل التيار الإسلامي، حيث ازدادت سيطرة "حماس" وشعبيتها وأخذت التيار الأوسع انتشاراً وقاعدة في الشارع الفلسطيني. بيد أن الحركة لجحت في تخطي تلك الصعاب وبسرعان ما عاودت نشاطها السياسي والعسكري في مطلع أكتوبر ١٩٨٨.

وفي المرحلة التالية ركزت الحركة على المستوى التنظيمي الداخلي، حيث أعادت تنظيم نفسها في محاولة منها

Abu Nour www.alkottob.com

لترتيب العلاقة التنظيمية بين الداخل الفلسطيني والخارج، وإضفاء طابع "الشورى والديمقراطية" على أنشطة أعضائها وآلية اتخاذ القرارات فيها. وفي هذا الإطار، قامت الحركة في عام ١٩٩٢ بعقد أول مؤتمر لها في إحدى الدول العربية الذي أسمته لاحقتها "المؤتمر العام الأول"، حيث جرت فيه بلورة البرنامج الأساسي للحركة، وتكون من أحد عشر فصلاً، شملت: الاسم، والتعريف، والمبادئ العامة للحركة، والأهداف، والوسائل، وشروط منح العضوية وحقوقها وواجباتها وتعليقها أو إسقاطها، والبنية التنظيمية للحركة ومؤسساتها والتي تم تفصيلها في فصول خاصة شملت المؤتمر العام، ومجلس الشورى العام، والأمين العام، ومجالس الشورى المحلية، وألحق بالمواضيع السابقة فصل للأحكام العامة. كما أقر المؤتمر اللوائح الداخلية الملحقة بالنظام الأساسي، وتكونت من ست لوائح شملت لائحة المؤتمر العام، ولائحة مجلس الشورى العام، ولائحة مجالس الشورى المحلية، ولائحة الانتخابات المركزية، ولائحة الوحدات التنظيمية والتنجيد، ولائحة الجزاءات والعقوبات، ولائحة أنظمة إدارة الاجتماعات. كما انتخب المؤتمر العام الأول مجلس شورى الحركة وأمينه العام الدكتور فتحي الشقاقي.

ثانياً: الهيكل التنظيمي للحركة

يقع على رأس البنية التنظيمية للحركة وكما حددها النظام الأساسي المؤتمر العام، وهو السلطة التشريعية العليا للحركة، ويتولى رسم استراتيجيتها وسياساتها العامة في كافة المجالات، وقراراته ملزمة لكافة مؤسسات وأجهزة الحركة، ويتم اختيار أعضائه بالانتخاب - إذا لم يتعذر ذلك - من كافة مناطق الوجود الفلسطيني المنتشرة فيها الحركة، إضافة إلى أعضاء بحكم مسئولياتهم وأدوارهم في الحركة. ويجتمع المؤتمر العام مرة كل أربع سنوات ليقر النظام الأساسي أو يعدله، وينتخب مجلس الشورى العام، ويناقش ويقيم أعمال الفترة السابقة ويقدم التوصيات ويقر البرنامج السياسي والخطط المستقبلية للحركة.

يلي المؤتمر العام، مجلس الشورى العام، وهو السلطة التنفيذية في الحركة، وقراراته ملزمة لكافة مؤسساتها، كما يقوم بدور تشريعي فيما بين دورتين متتاليتين للمؤتمر العام. ويتكون المجلس من خمسة عشر عضوا، ينتخب المؤتمر العام سبعة منهم ويعين المجلس اثنين آخرين، ثم يختار المجلس بالتشاور مع فعاليات الأرض المحتلة بقية أعضائه من داخل الأرض المحتلة، ودورة المجلس أربع سنوات شمسية.

أما الأمين العام فهو "مسئول الحركة الأول والمتحدث الرسمي باسمها والممثل لها"، وينتخبه مجلس الشورى العام من بين أعضائه المنتخبين وبأغلبية ثلثي أعضائه، وولايته أربع سنوات شمسية، تنتهي بانتهاء دورة مجلس الشورى العام وانتخاب الأمين العام الجديد. ويلحق الأمين العام في الهيكل البنيوي للتنظيم، مجالس الشورى المحلية الموزعة على المناطق المختلفة ومهمتها تنفيذ أهداف الحركة وخططها المرحلية المقرة من قبل الأجهزة المركزية داخل الحركة. ويصفة عامة، تؤكد الحركة على أن كافة أمورها تخضع للحوار والتشاور، باستثناء الخروج على استراتيجيتها ومبادئها العامة، مع مراعاة آداب الاختلاف والنصيحة في الإسلام.

ثالثاً: الإطار الفكري للحركة

كما توضح وثائق الحركة الرسمية وما صدر عنها من نشرات ومطبوعات، فإن إطارها الفكري ينقسم إلى ثلاثة محاور رئيسية:

١. المبادئ العامة للحركة، وهي حسب صياغات الحركة تتمثل في:

- تلتزم حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، أداةً لتحليل وفهم طبيعة الصراع التي تخوضه الأمة الإسلامية ضد أعدائها، ومرجعا أساسيا في صياغة برنامج العمل الإسلامي للنهضة والمواجهة.

Abu Nour www.alkottob.com

- فلسطين - من النهر إلى البحر - أرض إسلامية عربية يحرم شرعا التفريط في أي شبر منها، والكيان الصهيوني وجود باطل، يحرم شرعا الاعتراف به على أي جزء منها.
- يمثل الكيان الصهيوني رأس الحربة للمشروع الاستعماري الغربي المعاصر في معركته الحضارية الشاملة ضد الأمة الإسلامية، واستمرار وجود هذا الكيان على أرض فلسطين وفي القلب من الوطن الإسلامي يعني استمرار وهيمنة واقع التجزئة والتبعية والتخلف الذي فرضته قوى التحدي الغربي الحديث على الأمة الإسلامية.
- لفلسطين من الخصوصية المؤيدة بالبراهين القرآنية والتاريخية والواقعية ما يجعلها القضية المركزية للأمة الإسلامية التي بإجماعها على تحرير فلسطين ومواجهتها للكيان الصهيوني؛ تؤكد وحدتها وانطلاقها نحو النهضة.
- الجماهير الإسلامية والعربية هي العمق الحقيقي لشعبنا في جهاده ضد الكيان الصهيوني، ومعركة تحرير فلسطين وتطهير كامل ترابها ومقدساتها هي معركة الأمة الإسلامية بأسرها، ويجب أن تسهم فيها بكامل إمكاناتها وطاقاتها المادية والمعنوية، والشعب الفلسطيني والمجاهدون على طريق فلسطين هم طليعة الأمة في معركة التحرير، وعليهم يقع العبء الأكبر في الإبقاء على الصراع مستمرا حتى تنهض الأمة كلها للقيام بدورها التاريخي في خوض المعركة الشاملة والفاصلة على أرض فلسطين.
- وحدة القوى الإسلامية والوطنية على الساحة الفلسطينية، واللقاء في ساحة المعركة، شرط أساسي لاستمرار وصلابة مشروع الأمة الجهادي ضد العدو الصهيوني.
- كافة مشاريع التسوية التي تقر الاعتراف بالوجود الصهيوني في فلسطين أو التنازل عن أي حق من حقوق الأمة فيها، باطلة ومرفوضة.

٢ - أهداف الحركة، وهي تتمثل في التالي حسب صياغات الحركة:
- تحرير كامل فلسطين، وتصفية الكيان الصهيوني، وإقامة حكم الإسلام على أرض فلسطين، والذي يكفل تحقيق العدل والحرية والمساواة والشورى.
- تعبئة الجماهير الفلسطينية وإعدادها إعدادا جهاديا، عسكريا وسياسيا، بكل الوسائل التربوية والتثقيفية والتنظيمية الممكنة، لتأهيلها للقيام بواجبها الجهادي تجاه فلسطين.
- استنهاض وحشد جماهير الأمة الإسلامية في كل مكان، وحثها على القيام بدورها التاريخي لخوض المعركة الفاصلة مع الكيان الصهيوني.
- العمل على توحيد الجهود الإسلامية الملتزمة باتجاه فلسطين، وتوطيد العلاقة مع الحركات الإسلامية والتحررية الصديقة في كافة أنحاء العالم.
- الدعوة إلى الإسلام بعقيدته وشريعته وآدابه، وإبلاغ تعاليمه نقية شاملة لقطاعات الشعب المختلفة، وإحياء رسالته الحضارية للأمة والإنسانية.

٣- وسائل الحركة لتحقيق أهدافها، وتشمل حسب صياغات الحركة الوسائل التالية:
- ممارسة الجهاد المسلح ضد أهداف ومصالح العدو الصهيوني.
- إعداد وتنظيم الجماهير، واستقطابها لصفوف الحركة، وتأهيلها تأهيلا شاملا وفق منهج مستمد من القرآن والسنة، وتراث الأمة الصالح.
- مد أسباب الاتصال والتعاون مع الحركات والمنظمات الإسلامية والشعبية، والقوى التحررية في العالم لدعم الجهاد ضد الكيان الصهيوني، ومناهضة النفوذ الصهيوني العالمي.
- السعي للقاء قوى شعبنا الإسلامية والوطنية العاملة على أرض المعركة ضد الكيان الصهيوني، على أرضية عدم الاعتراف بهذا الكيان، وبناء التشكيلات والمنظمات والمؤسسات الشعبية اللازمة لنهوض العمل الإسلامي والثوري.

Abu Nour www.alkottob.com

- اتخاذ كافة الوسائل التعليمية والتنظيمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والإعلامية والسياسية والعسكرية، مما يبيحه الشرع، وتتضحه التجربة من أجل تحقيق أهداف الحركة.
- استخدام كل طرائق التأثير والتبليغ المتاحة والمناسبة من وسائل الاتصال المعروفة والمستجدة.
- انتهاج مؤسسات الحركة وتنظيماتها من أساليب الدراسة والتخطيط والبرمجة والتقويم والمراقبة بما يكفل استمرار الحركة وتقدمها.

رابعاً: الحركة وتفاعلات انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٢

تلامست الحركة مع استمرارية انتفاضة الأقصى والاستقلال وحق العودة، منذ اندلاعها في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠، وأصبحت رقماً مهماً في معادلاتها. وأعادت الانتفاضة الحركة إلى وضعية أفضل مما كانت عليه إثر نهاية انتفاضة الأولى (١٩٨٧-١٩٩٣) وتوقيع اتفاق أوسلو وتوابعه. وقد رأت الحركة أن تلك الانتفاضة قد طُرحت في سن التسوية من أجل تحسين الموقف الفلسطيني التفاوضي، بدلاً من التفاعل معها كمشروع استراتيجي للهبة والتحرير وكمحاولة قوية وجادة لاستنهاض الأمة، فقد تم التعامل معها كمشروع للاستثمار العاجل والربح، بل كفقاعة، لعملية التسوية. ورأت الحركة أن عملية التسوية كانت نتيجة لمسار طويل من الابتعاد عن محاربة القضية وجوهرها الحقيقي، حيث حاولت أطراف أوسلو طيلة سبع سنوات تجفيف كل الينابيع "الجهادية" في الشعب الفلسطيني، ودخلت الحركة الإسلامية طوراً من المحنة والابتلاء الحقيقي الذي أسفر تقريباً عن تكسير بنيتها العسكرية وفقدانها لمعظم إمكاناتها الجهادية، مادياً وبشرياً، بل إن الروح المعنوية لدى قطاعات واسعة من أبناء الحركة الإسلامية سجلت انخفاضاً ملحوظاً وصل أدنى نقطة من التشاؤم والإحباط وربما اليأس. إلا أن انتصار المقاومة الإسلامية وانسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان، ثم انسداد أفق التسوية بعد فشل قمة كامب ديفيد - ٢ في يوليو ٢٠٠٠ بين السلطة الفلسطينية وحكومة أيهود باراك، أدى إلى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية في سبتمبر من العام نفسه.

وقد كان ذلك المناخ المتلئ بالحماس الوطني والديني والذي عاد فيه الشعب الفلسطيني إلى خيار الانتفاضة والمقاومة، هو الأكثر ملائمة لانبعاث جديد لحركة الجهاد الإسلامي، فقد سعت الحركة - ومعها فصائل المقاومة الأخرى - إلى استيعاب جماهير الشعب الفلسطيني ووضعها حسب تعبيرها "في حالة جهادية قتالية قادرة على دحر المشروع الصهيوني وهزيمته على أرض فلسطين". وسمح ذلك السياق للحركة بالنشر الواسع والكثيف لرؤاها وشعاراتها بين فئات الشعب الفلسطيني حول ضرورة الالتزام بالجهاد كفريضة للتحرير وللقتال بما يترتب على ذلك من فريضة "بناء التنظيم القاتل". وهي - حسب الحركة - ليست مسألة اختيارية خاضعة لحسابات الربح والخسارة، بل هي من باب التكليف الشرعي الذي يؤثم تاركه، فرداً أو جماعة، إثم ترك الصلاة. وواصلت الحركة ترسيخ وتأكيد ثوابتها غير القابلة للمقايضة أو المساومة أو التراجع والتنازل، خاصة هدف تحرير فلسطين.. كل فلسطين، وتصفية "الدولة" اليهودية فيها، وهو ما يفرد تأكيد الحركة على أن تحقيق هذا الهدف لن يتم سوى بالجهاد أو القتال كوسيلة. وأكدت الحركة اختيار تلك الوسيلة عبر رابطها الدينية من أن فلسطين إنما هي أرض اقتطعت من دار الإسلام واحتلها الأجنبي، ومن ثم فإن الموقف الإسلامي الشرعي الذي عليه إجماع الأمة عند احتلال العدو الأجنبي لأي بلد من بلدان المسلمين هو وجوب القتال لدفع الاحتلال والعدوان، وأكدت الحركة في ذلك السياق على أن الجهاد الدفاعي هو فرض عين على أهل البلد المسلم الذي تعرض للعدوان والاحتلال - وهو هنا فلسطين - فإذا لم تحصل بأهل البلد الكفاية لرد العدوان ودحر الاحتلال، وجب القتال على من يليهم، ثم على من وراءهم ولو شمل الأمة كلها، وهكذا حتى تحصل الكفاية ويطرد العدو من أرض فلسطين. ومن الأهمية بيان أن هذه الطروحات التي تبنتها ونشرتها الحركة تعد شديدة الجاذبية والقابلية في عملية التجنيد والتعبئة، رغم حجم التنظيم الصغير نسبياً للحركة، والذي تعتبره قياداتها عنصراً إيجابياً ساعدها في أداء رسالتها الجهادية دون الانغراق في الحسابات السياسية والحرص على الحفاظ على العلاقات أو المكاسب والمصالح.

Abu Nour www.alkottob.com

في ظل ذلك السياق مرت الحركة وتعرضت لعديد من التطورات المهمة الرئيسية التي يمكن إجمال أبرزها في التالي:

١- الموقف من الاعتقالات السياسية

عانت الانتفاضة من تجليات تناقض وتصادم ثنائية السلطة - المقاومة، وعدم قدرة السلطة الفلسطينية للتحول إلى سلطة مقاومة، لاعتبارات عدة، مما انعكس سلبا على خيار المقاومة بكافة صورها وأشكالها، وفقدت المقاومة البيئة الحاضنة والملاذ الآمن وحرية الفعل والحركة. وفي حدود هامش المناورة السياسية، سعت قيادة السلطة إلى التوظيف السياسي للانتفاضة لمعالجة حالة الانسداد في الأفق السياسي واستخدامها كورقة سياسية لتحسين شروط التفاوض، ثم الارتداد عليها، كما حدث في الانتفاضة الأولى. فالتسوية مازالت خيار السلطة الأول والاستراتيجي، في ضوء شروط واستحقاقات أوسلو وليس الانقلاب عليه أو التحرر منه. ووفق مقتضيات أوسلو التي تجاوزتها الانتفاضة، والضغوط الخارجية والإقليمية بإلقاء اللوم على السلطة، اضطرت السلطة الوطنية الفلسطينية إلى البحث عن سياسات يجب أن تقوم بها لتأكيد جدارتها ومصداقيتها تجاه حركات المقاومة ومن بينها حركة الجهاد الإسلامي، لكن الحركة رفضت أن تكون السلطة حارساً لأمن الدولة العبرية، وطالبتها بأن تكون حامية ومدافعة عن الأمن الفلسطيني والشعب الفلسطيني ومصالحه، وألا تستجيب للضغوط الخارجية. ومع ذلك، غضت السلطة الطرف عن هذه الدعوات، وواصلت إجراءات وتدابير ما أسمته وقف إطلاق النار ومحاربة العنف والإرهاب، واستمرت في سياسة الاعتقالات لكوادر وفعاليات الانتفاضة، عبر التنسيق الأمني الثنائي، والثلاثي، ومظلة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وتكثيف الضغوط على المقاومة. وأكدت الحركة إزاء ذلك أنها لن تقبل بالظلم من قبل السلطة، وستدافع عن نفسها بكل ما لديها من قوة، مع مراعاة أن السلاح لن يشرع إلا في وجه الاحتلال الصهيوني الغاشم.

وشهد منتصف يناير ٢٠٠٢ ذروة التصعيد في إجراءات السلطة الأمنية تجاه الحركة وفصائل المقاومة، خاصة إثر مبادرة قوات الأمن الفلسطينية باعتقال أحمد سعدات، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأربعة من كوادر الجبهة، على خلفية مقتل وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي. وقد جاء ذلك في سياق الرضوخ لمطالب شارون للسلطة باعتقال "الإرهابيين" وتجريد المنظمات الفلسطينية من السلاح، وجمع الأسلحة غير المرخصة من أفراد السلطة، وفرض حالة "التهدئة" وتثبيت وقف النار. وانتظمت هذه الإجراءات مع تجديد الرئيس (الراحل) ياسر عرفات تعهده ببذل ماته في المائة من الجهد لوقف هذا "العنف" وما سبق أن شرعت فيه السلطة من شن حملة اعتقالات واسعة طالت العشرات من كوادر ومسئولي حركات المقاومة، خاصة من حماس والجهاد الإسلامي وفتح، بل وأفراد من الشرطة الفلسطينية. وقامت السلطة ضمن تلك الإجراءات بوضع الشيخ أحمد ياسين الزعيم الروحي لحركة حماس قيد الإقامة الجبرية، كما قامت بإغلاق أكثر من ٢٦ مقراً ومكتباً ومؤسسة رياضية ودينية واجتماعية لحركتي حماس والجهاد الإسلامي في قطاع غزة والضفة الغربية، بدعوى إعادة النظام وضبط الأمور خدمة للمصلحة الوطنية العليا". ثم جاء قرار السلطة بإعلان "حالة الطوارئ" في الأراضي الفلسطينية، مطلع ديسمبر ٢٠٠١، متضمنة عدة إجراءات بالغة الخطورة، منها منع الإخلال بالنظام العام، ومعاقبة كل من لا يلتزم قرار وقف النار، وحظر حمل السلاح لغير قوات الأمن الوطني والشرطة والأجهزة الأمنية، وحظر أي مسيرة أو تظاهرة من دون ترخيص رسمي من جهات الاختصاص، ومنع العبث بالمسيرة التعليمية، أو إخراجها عن أهدافها أو تحريض الطلبة على الخروج من المؤسسات التعليمية، والحيلولة دون استخدام دور العبادة في الدعاية السياسية. وكان عرفات، في خطاب سابق له للشعب الفلسطيني، في ١٦ ديسمبر ٢٠٠١، قد ركز على وقف العمليات والهجمات "الانتحارية" ومحاسبة المسئولين عنها، ووقف إطلاق قذائف الهاون ضد إسرائيل، وهو ما قابلته حركتا حماس والجهاد بإعلان تمسكهما باستمرار المقاومة ضد الاحتلال ومشروعه الاستيطاني. وإدانتهما سلوك بعض الأجهزة الأمنية الفلسطينية التي عادت للملاحقة ومطاردة المقاومين، بل ووصل الأمر في قطاع غزة إلى حد إطلاق

Abu Nour www.alkottob.com

النار عليهم ومصادرة أسلحتهم وسياراتهم واعتقالهم، وفرض الإقامة الجبرية على عديد منهم.

وقد رأت الحركة أن اللاأخلاقي في سياسة الاعتقالات السياسية، عدا كونها مرفوضة وطنياً وأنها جريمة يجب إيقافها، أنها تمارس بوسائل ماكرة منها ما يعتمد على الاستدراج، ومنها ما يعتمد على القرصنة والخطف، ومنها ما يعتمد على مداهمة المنازل. والاعتقالات السياسية، في رؤية الحركة، محرمة دينياً، وأثم من يمارسها أو يقبل بها. وحرصت الحركة على توجيه رسالة لقيادة السلطة "بأننا نعيش مرحلة تتباين في ظروفها عن المرحلة السابقة التي تحملنا فيها الكثير حفاظاً على حرمة الدم الفلسطيني، وأنهم استنفدوا كل مبررات الحديث عن السلاء، وأن لهم أن يكفوا عن هذا الهراء". وأكدت "سرايا القدس"، الجناح العسكري لحركة الجهاد، أنها لن تسمح بالمساس بأي مقاوم تحت أي مبرر، وأن حرمة الدم الفلسطيني هي شعارها بحق كل فلسطيني طالما لم يخرج عن الخط الوطني. وأعلن أمين عام الحركة دكتور رمضان عبدالله شلح أن حركته والمقاومة ليست جيشاً نظامياً يقف على خطوط النار حتى تصدر له أوامر بوقف العمليات أو وقف إطلاق النار، فهي حركة مقاومة شعبية ضد احتلال أجنبي. وأكد شلح أن الحركة ستتحمل كل ظلم يقع عليها من جانب السلطة، وستعض على الجراح من أجل الحفاظ على وحدة الشعب الفلسطيني وتفويت الفرصة على عدوه بتحويل الصراع معه إلى صراع فلسطيني - فلسطيني. وقد أعلنت الحركة في إطار ردها على تهديدات محمد دحلان، رئيس جهاز الأمن الوقائي في قطاع غزة، للفصائل المقاومة بالالتزام بقرارات السلطة في شأن وقف النار وإلا اضطرتها لاتخاذ إجراءات صارمة ضدها، بأن التاريخ لم يشهد من قبل شعباً قام بحماية أمن محتليه مثلما تقوم به السلطة الفلسطينية حالياً. كما أكدت الحركة في عديد من المناسبات على أنه "لا مساومة على خط الجهاد والمقاومة دفاعاً عن الشعب الفلسطيني، طالما العدو الصهيوني متواجداً على أي شبر من الأراضي المحتلة، ولا يمكن للحركة بأي حال من الأحوال أن تتنازل عن أسلحتها لأي طرف كان، فهذه الحرب ضد شعبنا لا يمكن مواجهتها بالركوع لعدونا، كما يريد المقامرون"، وأن سلاح المقاومة هو السلاح الشرعي في "مجتمعنا الفلسطيني، والمقاومة هي القانون الشرعي، إسلامياً ودولياً، وأي عمل ضد القانون الإنساني والدولي عمل ضد الشرعية".

٢- الموقف من جدل "العمليات الاستشهادية"

في ضوء قناعات وثوابت الحركة من أن وجود الاحتلال هو الذي فرض المقاومة بأشكالها المختلفة، وأن أي حركة تحررية تقاوم الاحتلال والظلم إنما تسعى إلى تقويض وجوده فوق الأرض التي يغتصبها ودحره عنها، فهي فقط التي تصوغ أشكال فعلها الجهادي بما يتناسب مع تحقيق أهدافها التي لن تتم أو تأخذ طريقها إلى التحقق، إلا بإيلام المحتل والغاصب وبث الرعب في قلبه حتى يندحر عن المغصوب من الأرض ويقر بحقوق الفلسطينيين فيها. في ظل ذلك ترى الحركة أن فعل الاستشهاد هو أعلى درجات المقاومة وأن العمل الاستشهادي هو المسئول عن المأزق التاريخي غير المسبوق الذي تعيشه إسرائيل في ظل الانتفاضة منذ نشأتها وهو الذي يكشف عن انسداد الأفق في مجال الخيارات السياسية أو العسكرية لهذه الدولة ، حيث حقق الشعب الفلسطيني من خلال العمليات الاستشهادية حالة من توازن الإرادات وتوازن الفاعلية بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي. فحسب رؤية الحركة أمتلك الشعب الفلسطيني عن طريق العمل الاستشهادي، وللمرة الأولى، القدرة على التأثير في عمق الدولة اليهودية، بما يوازي قدرة هذه الدولة على التأثير في الشعب الفلسطيني، وبحيث ترك هذا الأسلوب النوعي من الجهاد تأثيراته العميقة على كل مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والنفسية فيها، وفي الحد من حركة الهجرة إليها ورفع وتيرة النزوح اليهودي منها، وقوض أمن سكانها ونال من مشروعها الاستيطاني، وجعل من المستوطنات في الأراضي الفلسطينية المحتلة عبئاً سياسياً وأمنياً عليها. وترى الحركة أن العمل الاستشهادي الفلسطيني، بالقدر الذي كان يجسد عمق إيمان الشعب الفلسطيني بعدالة

Abu Nour www.alkottob.com

قضيته ومدى استعداده للتضحية في سبيلها، فإنه كان ضرورة اقتضتها طبيعة الصراع لزيادة فعالية الكفاح الفلسطيني وتقليص التفاوت الهائل في الخسائر البشرية بين الطرفين.

وترى الحركة أن الانتفاضة والمقاومة قد نجحتا في هزيمة خطط جيش الاحتلال وأساليبه الأمنية والعسكرية، وبيانات اليد الطولى والمبادرة بيد حركات المقاومة، وأضحى جيش الاحتلال في خانة رد الفعل، حيث ارتفعت خسائره البشرية على سبيل المثال – نقلا عن الحركة– من ١٩٨ قتيلاً من الجنود والمستوطنين في عام ٢٠٠١ إلى ٤٣٦ قتيلاً في عام ٢٠٠٢ وهي نسبة غير مسبوقة في تاريخ الصراع. كما ترى الحركة أن العمليات الاستشهادية قد وضعت استراتيجية إسرائيل في استخدام القوة إلى حدودها القصوى موضع شك عميق، وأظهرت أن هناك حدوداً للقوة ولا حدود للمقاومة، بظهور قوة الردع المضاد التي مثلتها تلك العمليات. وترى الحركة أن الفعل الاستشهادي قد وصل إلى حد تهديد الدور الإسرائيلي الإقليمي، حيث نجحت المقاومة في تخطي كامل الترتيبات الأمنية الإسرائيلية وتسديد ضرباتها القوية، بفعلها الاستشهادي، للداخل الإسرائيلي الذي شكل دوما قاعدة ارتكاز آمنة ومستقرة وعصية على الاختراق بما سمح لإسرائيل بممارسة دورها الإقليمي دون قلق. وتخلص الحركة إلى أن الشعب الفلسطيني قادر على ادامة الاشتباك مع كيان ليس بمقدوره تحمل الخسائر البشرية وحالة انعدام الأمن والخسائر المادية والاقتصادية التي جلبتها له الانتفاضة والمقاومة، وإن هذا الكيان يعيش مأزقاً تاريخياً بكل المقاييس، وأن استمرار الانتفاضة بمعنى هذا المأزق، خاصة وأن المقاومة تثبت كل يوم قدرتها على تطوير نفسها، وابتكار أساليب جديدة وتوسيع رقعة المواجهة.

وإزاء إدراك الحركة أن وأد الانتفاضة يمثل هدفاً مركزياً ومحورياً لحكومة أرييل شارون، فإن الجدل حول العمليات الاستشهادية بالنسبة لها يتجاوز مجرد مناقشة إحدى وسائل المقاومة من أجل تطويرها أو جعلها أكثر تأثيراً على العدو وأكثر خدمة لمصلحة الشعب الفلسطيني، بل يمتد الأمر ليس لمجرد المطالبة بوقف هذه العمليات وإنما إلى وقف كل أشكال النضال، حتى القذف بالحجر أو مجرد التظاهر ضد الاحتلال. أي أن هذه الدعوة – حسب تقدير الحركة – باتت تحمل في واقع الحال دعوة إلى وقف كل أشكال الكفاح المسلح أو حتى رد العدوان والدفاع عن النفس، وبخاصة "أرقى أشكال جهاده ضد الاحتلال الإسرائيلي وهو سلاح الاستشهاد الفلسطيني، الذي جعل العدو يقف للمرة الأولى في تاريخ الصراع ضمن وضعية دفاعية، حيث يدور الجزء الأخطر من هذا الصراع داخل حدود ما قبل ١٩٦٧". وترى الحركة أنه لتسويق ذلك، يتم "صناعة مفاهيم سياسية وفكرية أخرى لحقائق الصراع ضد الكيان الصهيوني، في سياق التزوير والاستخفاف بالحقائق الماثلة والوقائع الجارية على الأرض، مثل دعوات السلطة الفلسطينية المتكررة، بفعل الضغوطات والإملاءات، للوقف التام لما أصطلح على تسميته بعسكرة الانتفاضة". وتؤكد الحركة رفضها القاطع للدعوات المنادية بوقف العمليات الاستشهادية بزعم أن هذا النمط يقدم "صورة سيئة" عن الفلسطينيين، عبر استهداف "المدنيين"، أو أن العمل الاستشهادي هو المسئول عن الأوضاع المزرية التي يعيشها الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال لأنه يعطي لحكومة الكيان الصهيوني الذريعة لمواصلة حرب القتل والتدمير والاغتيالات وحرف ومصادرة الأراضي وتوسيع رقعة الاستيطان وتواصل الاجتياحات اليومية، وعن توجه الكيان الصهيوني خلف القيادة اليمينية بزعامة أرييل شارون، والمسئول عن تراجع دعم الرأي العام الغربي للقضية الفلسطينية وعن ارتفاع أصوات عديدة في الغرب، وخاصة في أوروبا، تندد بالعمليات الاستشهادية وتراها عقبة في طريق السلام. كما أكدت الحركة رفضها التام للقول بأن تلك العمليات تطيح "بالإنجازات الوطنية الفلسطينية" وأنها لا تخدم المشروع السياسي الفلسطيني، بل تقوضه وتدمر مسيرة الاستقلال الفلسطيني وحلم الوصول إلى الدولة، ومن ثم فقد رفضت بالتالي كل ما يطرح عن ضرورة "ترشيد" المقاومة بالبحث عن وسائل كفاحية أخرى، كالعودة إلى مواجهات الحجارة ذات الطابع الشعبي على غرار ما وقع في الانتفاضة الأولى، أو، كحد أقصى، توجيه العمليات الفلسطينية واقتصارها على الجنود الإسرائيليين في الضفة الغربية وقطاع غزة.

Abu Nour www.alkottob.com

وأبرزت الحركة أيضاً رفضها لما رأت أنه توافق بين رؤية رموز السلطة الفلسطينية وأطراف مؤثرة في النظام الرسمي العربي للعمليات الاستشهادية، وهو ما ظهر في بدء وسائل الإعلام العربية – الرسمية وشبه الرسمية – حملة موازية ضد العمل الاستشهادي مكررة تحميل هذا العمل – وليس الحكومة الإسرائيلية – المسئولية عما يلحق بالشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة من قتل يومي، واجتياحات ودمار واعتقالات وحصار وخنق اقتصادي، بحيث باتت كل الاعتداءات الإسرائيلية اليومية على الشعب الفلسطيني ينظر إليها باعتبارها نتائج مباشرة للعمليات الاستشهادية، وليست سياسة إسرائيلية ثابتة ومستمرة. ورأت الحركة أن ذلك يتوافق مع مسعى تزييف الوعي العالمي حول ما يجرى على أرض فلسطين، بتصوير أن "الإرهاب الصهيوني" اليومي الممارس ضد حياة الفلسطينيين وممتلكاتهم وكرامتهم هو "دفاع عن النفس"، وأن أرييل شارون الذي يقود هذا الإرهاب ويوجهه هو "رجل سلام"، وبالتالي تغييب متعمد لحقيقة الاستشهادي الفلسطيني كضحية احتلال استيطاني وقهر يومي في مواجهة عدو متفوق بالإمكانات وأساليب القتل، وبين صورة الاستشهادي المسوقة في الغرب كإرهابي أصولي محركه نوازع الكراهية الدينية والحقد العنصري ضد اليهود لمجرد كونهم يهوداً. وتخلص الحركة إلى أنه انطلاقاً من واقع الهزيمة التاريخية التي يجسدها النظام الرسمي العربي وانسياقاً مع عادة إعلان الهزيمة قبل خوض الحرب، فقد تعامل هذا النظام مع الحملة الإعلامية الغربية من نقطة التسليم بمقولاتها، وضرورة "تصويب" الأوضاع وفق هذه المقولات بانسجام كامل معها.

وفي معرض رد الحركة على هذه المقولات، ترى بداية فيما يتعلق بالتأثيرات السلبية التي تتركها العمليات الاستشهادية على صورة النضال الفلسطيني لدى الرأي العام الغربي، أنها لا تنكر مدى تأثير الرأي العام على أية قضية من قضايا التحرر في العالم، لكنها تلفت الانتباه إلى حقيقة المجهل والخطأ في الاعتقاد بأن الرأي العام وحده يمكن أن يحرر وطناً أو يعيد حقوقاً لأصحابها. وتعيد الحركة للتذكير بأن الرأي العام في العالم كله لم يتفق على عدالة قضية من قضايا القرن العشرين كما اتفق على عدالة القضية الفلسطينية، ومن ثم تتساءل الحركة: ما الذي أنجزه الرأي العام العالمي للقضية الفلسطينية؟ وما الذي يمكن أن ينجزه في غياب الطرف القادر على توظيفه ضمن معركته العسكرية أو السياسية الحقيقية التي يخوضها على الأرض؟ وترى الحركة أنه من الحقيقي أن العالم قد تعاطف مع الشعب الفلسطيني كما لم يفعل من قبل، ولكنه لم يتجاوز حدود التعاطف الوجداني إلى حدود الفعل، وهذا أمر طبيعي فليس من طبيعة الرأي العام أن يكون بديلاً عن صاحب القضية. وتعتقد الحركة أن المسألة تكمن في أن النظام الرسمي العربي والذي هُزم عسكرياً وسياسياً واقتصادياً أمام "المشروع الصهيوني"، يعول كثيراً على الرأي العام العالمي الذي أصبح سلاحه الوحيد في معركة السلام، بعد أن أسقط كل الخيارات الأخرى في مواجهة هذا المشروع، وبالتالي فإن أي تحول في اتجاهات الرأي العام إزاء القضية الفلسطينية يعتبر بمثابة كارثة كبرى بالنسبة للنظام الرسمي العربي، الذي ترى الحركة أنه لم يبذل جهداً يذكر لكسب الرأي العام العالمي إلى جانب قضايا الأمة وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

وعلى صعيد آخر، ترفض الحركة النظر إلى الاعتداءات والاجتياحات والاغتيالات والاعتقالات التي تقوم بها الحكومة الإسرائيلية تجاه الشعب الفلسطيني باعتبارها نتيجة للعمليات الاستشهادية الفلسطينية، وترى في ذلك قفزاً على حقائق الصراع التاريخية، حيث بدأ هذا "الإرهاب" منذ بداية "المشروع الصهيوني"، وتجسد في مئات المجازر والاعتداءات ولايزال. وتؤكد الحركة على أن ما تمارسه إسرائيل إنما "هو تنفيذ لنهج صهيوني ثابت، يقوم على الإرهاب كوسيلة رئيسية لتحقيق الأهداف الصهيونية بإخراج الشعب الفلسطيني نهائياً من ساحة الصراع". وترى الحركة أن الدعوة إلى الحفاظ على "مكسب" قيام الدولة الفلسطينية ليس سوى وهماً ومخرجاً وقتياً لأمريكا وإسرائيل من المأزق الراهن، فلن يكون هناك سوى مجرد حكم ذاتي موسع لمعازل بشرية تحت مسمى

Abu Nour www.alkottob.com

"الدولة" يكون من أوجب واجباته الحفاظ على أمن الدولة العبرية، ولن يتم الوصول إليه إلا بعد الدخول في متاهات حلول مرحلية طويلة الأمد. وفي هذا السياق، ترى الحركة أن "الإنجاز الوطني الوحيد الذي يرويه الدم وليس الذي يجود به العدو ثم يخطه - حين يريد - في عملية واحدة، وأي سلطة لا تريد أن تكون سلطة مقاومة سوف تفقد حتما قدرتها على الحياة، بسيادة وحرية، ولن تكون نتاج إرادة الشعب، وإنما تعبيراً عن ميزان التسوية السياسية ومعابرها".

كما تؤكد الحركة على أن كفاح الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع قد تجاوز اعتماد خيار التظاهر الشعبي ومواجهات الحجارة، بوصفه الشكل الكفاحي الأساسي على غرار ما بدأ في الانتفاضة الأولى، فضلاً عن تغير الكثير من عوامل الاشتباك على الأرض خاصة اتجاه إسرائيل نحو الحرب الشاملة على الفلسطينيين بكافة تياراتهم ورموزهم، وخروج قوات الاحتلال من التجمعات والمدن الفلسطينية وهو ما يتيح للجيش الإسرائيلي المقدرة على التكيف مع الواقع الجديد والبقاء في "المناطق" دون أن ترهقه المواجهات الشعبية على عكس ما كان الحال عليه في انتفاضة ١٩٨٧ . وبخصوص مسألة استهداف "المدنيين"، تتساءل الحركة أولاً: "من أين جاءت كذبة المدنيين في التجمع الاستيطاني؟" ثم ترد بأن "من يوجد بقوة الاغتصاب على أرض ليست له لا يعتبر مدنياً في حال من الأحوال، فضلاً عن أن الكيان الصهيوني هو ثكنة عسكرية وغالبية المستوطنين هم جنود في الآلة العسكرية الصهيونية، ومن يراقب تعداد قوات الاحتياط التي نفذت المجازر، عليه أن يسأل من أين جاء هؤلاء؟". وتخلص الحركة إلى أنه يبدو مقبولاً اختيار أسلوب قتالي آخر في سياق بحث قوى المقاومة عن أفضل الطرق لإيلام العدو وإلحاق الهزيمة به، إذا كانت هناك وفرة من الخيارات، وهذا غير صحيح، حيث تبدو العمليات الاستشهادية بمثابة اختيار ضروري لا مهرب منه، وأي حديث غير ذلك لا يمكن تصنيفه سوى "ضمن الدعوات المشبوهة التي تستهدف أمن العدو وحده".

وعلى الرغم من تأكيد الحركة دوماً على شعارها: "الدم بالدم .. والسن بالسن .. والمدني بالمدني" وأن الدم الفلسطيني ليس رخيصاً كما يظن الإسرائيليون، فقد طرح أمينها العام، د. رمضان عبد الله شلح، قبيل نهاية مايو ٢٠٠٢ مبادرة بخصوص النظر في استهداف أو تحييد ما يسمى "بالمدنيين" إذا ما قامت قوات الاحتلال الإسرائيلي بإعمال مبدأ التبادلية وعدم استهدافها المدنيين الفلسطينيين، مذكراً بمقتل أكثر من ٤٠٠ طفل فلسطيني، "بدم بارد"، إضافة لعشرات الشيوخ والنساء من الفلسطينيين على أيدي قوات الاحتلال الإسرائيلي. وفي هذا السياق لم تتردد الحركة في رفض وإدانة بعض المحاولات الإسرائيلية والأمريكية لتشويه صورتها وصورة المقاومة الفلسطينية بزعم وجود علاقات بينها وبين تنظيم القاعدة، حيث نفى بشدة الدكتور محمد الهندي، أحد قادة الحركة، وجود أي تنسيق بين الحركة وبين تنظيم القاعدة، ورفض تصريحات شاؤول موفاز وزير الدفاع الإسرائيلي، في ١٩ ديسمبر ٢٠٠٢، أثناء زيارته للولايات المتحدة والتي عرض فيها أمام نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني معلومات استخباراتية إسرائيلية أدعى فيها أن هناك تعاوناً بين خلايا تنظيم القاعدة وحركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية بهدف ما أسماه المساس بمواطنين في إسرائيل وفي جميع أنحاء العالم. واعتبر الهندي أن تلك المعلومات ليست سوى استمرار "لمسلسل تلفيقات المخابرات الصهيونية للربط بين التنظيمات الفلسطينية والقاعدة"، مؤكداً أن حركته وكل قوى الشعب الفلسطيني داخل فلسطين تقاوم الاحتلال والعدوان الإسرائيلي المتواصل على الشعب الفلسطيني، وأن ادعاءات موفاز تأتي في سياق ترويج الأكاذيب من أجل إظهار مقاومة الشعب الفلسطيني على أنها إرهاب.

Abu Nour www.alkottob.com

٣- الحركة وأطروحات التسوية

ترى الحركة أن ما يجرى الكشف عنه بين الحين والآخر حول "مبادرات للتسوية" إنما يرمي إلى امتصاص الوقت واستيعاب الفعل المقاوم ووأد الانتفاضة والتخفيف على إسرائيل من عبء المقاومة وإطالة عملية "التفاوض"، والتي لا تعدو أن تكون سوى اتفاقيات أمنية تصب لصالح الدولة العبرية وتحميل السلطة الفلسطينية مسئولية إقرار الأمن. وتنصرف رؤية الحركة هذه إلى توصيات تقرير ميتشيل وورقة زيني، التي ترى أنها تهدف إلى الضغط على القيادة الفلسطينية - عبر الحصار والتهديد - للإذعان والقبول بالإملاءات الإسرائيلية وشروط التسوية الشارونية خاصة في ورقة زيني التي تنص على حق إسرائيل في التدخل العسكري في "مناطق" السلطة للبحث عن واعتقال المقاومين، ومطالبة السلطة بتفكيك ما تسميه "بالبنى التحتية للإرهاب" وتسليم المطلوبين. أي المقاومين. وفي هذا السياق، اعترضت الحركة أيضاً على ما يعرف بوثيقة "بيريز - قريع". كما تعتبر الحركة أن قرار مجلس الأمن الدولي الذي ينص على إقامة "دولة" فلسطينية، جنباً إلى جنب مع "دولة" إسرائيل، قراراً هزيلاً، حيث يظهر وكأن الأصل إسرائيل وأن فلسطين مجرد تابع، وينطوي على تجاهل متعمد لحقيقة أن الشعب الفلسطيني هو صاحب الأرض وصاحب التاريخ. وترى الحركة أن الولايات المتحدة تدفع بمبعوثيها، من أمثال أنطوني زيني، ودينك تشيني بهدف إنقاذ الدولة العبرية من مأزقها والالتفاف على دماء الشعب الفلسطيني وتضحياته وانتصاره الوشيك، وأبدت عدم ترحيبها بهؤلاء جميعاً. وأكدت الحركة أن الشعب الفلسطيني تيقن من عدم جدوى اللقاءات الأمنية والسياسية مع الحكومة الإسرائيلية، وأشادت في ٤ مارس ٢٠٠٢ بخطوة السلطة "بتجميد" هذه اللقاءات.

كذلك اعتبرت الحركة خطاب الرئيس الأمريكي بوش ورؤيته في ٢٤ يونيو ٢٠٠٢، بمثابة "إعلان حرب" للسلام المزعوم، وإعلان وصاية أمريكية - صهيونية على واقع ومستقبل الشعب الفلسطيني ودول وشعوب الأمة بأسرها، وأنه يمثل إعلاناً صهيونياً ومشروعاً إسرائيلياً مطابقاً لموقف شارون واليمين الصهيوني في الدولة العبرية، وتعبيراً عن التزام كامل من جانب الإدارة الأمريكية بأمن إسرائيل وبحقها في الدفاع عن نفسها، فيما تسمى المقاومة الفلسطينية ودفاع الفلسطينيين عن أنفسهم إرهاباً. وترى الحركة أن الرئيس الأمريكي الذي "لا يعد الشعب الفلسطيني بأكثر من دويلة أمنية مهمتها حفظ أمن إسرائيل، يريد أن يفرض وصايته وهيمنته على الشعب الفلسطيني والإرادة الفلسطينية، فيُعين من يشاء ويزيح من يشاء وينصب على الشعب الفلسطيني قيادة سياسية وأمنية عميلة تأثر بأمر واشنطن وتل أبيب". وترى الحركة أيضاً "أن تهديد سوريا وتحريضها على العمل تحديداً ضد حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله وحثها على طرد كل فصائل المقاومة الفلسطينية، يدل على وقاحة أمريكية منقطعة النظير، يتجاهل بها الرئيس الأمريكي أن عناصر المقاومة الفلسطينية هم لاجئون فلسطينيون احتل الكيان الصهيوني أرضهم وبحرهم، بموافقة بوش، حق العودة إلى وطنهم فلسطين". ومن ناحية أخرى، ترى الحركة أن دعوة الرئيس بوش الدول والحكومات العربية إلى التطبيع مع إسرائيل مقابل مطالبتهم بوقف دعم الانتفاضة وملاحقة حركات المقاومة الفلسطينية، تجعل "من رئيس أقوى دولة في العالم مجرد ناطق باسم الخارجية الصهيونية ومسئولاً للدعاية والترويج في حكومة شارون".

وتواصلا مع هذه الرؤية، أعلنت الحركة في ١٩ أغسطس ٢٠٠٢ رفضها للاتفاق الذي أعلن عنه بين السلطة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية المسمى "غزة / بيت لحم"، وذلك كما أعلنت الحركة لأنه "أولاً يُعيدنا هذا الاتفاق إلى النتائج القاتلة التي جرها علينا اتفاق "غزة - أريحا أولاً"، ويجعلنا رهينة لنوايا العدو الصهيوني المجرم القائمة على المجازر والمؤامرات، والأخطر من ذلك أن هذا الاتفاق يقامر بوحدة

Abu Nour www.alkottob.com

الشعب الفلسطيني وأمنه الداخلي ويستقبل القضية الفلسطينية، حيث يهدف العدو الصهيوني إلى تفتيت جبهتنا الداخلية التي عززتها الانتفاضة والمقاومة ودماء الشهداء وعذابات المعتقلين".

٤- الحركة والنظام الرسمي العربي

على الرغم من رؤية الحركة لنفسها بأنها بمنأى عن هيمنة وشروط النظام العربي الرسمي الذي ترى أنه بعد هزيمة ١٩٦٧ قد تخلى عن فكرة تحرير كامل فلسطين لصالح شعار إزالة آثار العدوان، أي تحرير الأراضي العربية المحتلة عقب ٥ يونيو ١٩٦٧، إلا أنها أعلنت - الحركة- عن ترحيبها بأي تقارب أو تلاحم بين المقاومة وعمقها العربي والإسلامي. وتكشف رسالة الحركة في ٢٦ مارس ٢٠٠٢ إلى قمة بيروت العربية، عشية الاجتياح الإسرائيلي الشامل، عن قناعة الحركة بأن فلسطين قضية العرب والمسلمين جميعاً، ولا يجوز لأي طرف عربي التنازل عن هذا الالتزام والتبشير بحتمية التطبيع مع "الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين"، وأن هذا الكيان في عقيدة الأمة كيان غاصب وغير شرعي لن تعترف به حتى لو اعترفت به كل الأنظمة العربية، وستستمر في الجهاد والكفاح المسلح، جنباً إلى جنب مع كل القوى الحية والشريفة في الشعب والأمة حتى تحرير آخر شبر من أرض فلسطين. وأكدت الحركة على أن شعوب المنطقة تتطلع إلى هذه القمة وتنتظر منها العمل والتأكيد بوضوح وبشكل قاطع -حسب صياغات الحركة- على التالي:

- دعم الانتفاضة والمقاومة الفلسطينية والتأكيد على مشروعيتها واستمرارها لتمكين الشعب الفلسطيني من التحرير الكامل لجميع الأراضي المحتلة وعدم التنازل والتفريط في ذرة من التراب الفلسطيني.
- تحرير القدس وعدم المساومة عليها أو القبول بأي حل أو وضع من شأنه المساس بالسيادة الفلسطينية - العربية والإسلامية - الكاملة عليها.
- الالتزام باستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني والتمسك بها وعلى رأسها حق عودة اللاجئين إلى وطنهم ورفض التوطين والتعويض الذي لا معنى له سوى أن يدفع العرب "ثمن قيام الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين".
- عدم مد طوق النجاة للكيان الصهيوني لإنقاذه من "المأزق التاريخي الذي وضعته فيه الانتفاضة وصنعت معه نوعاً من توازن الرعب بالاستشهاديين الأبطال الذين حققوا انتصار شعبنا في صراع الإرادة مع العدو الصهيوني".
- "وقف كل أشكال التطبيع مع العدو، وإغلاق مكاتبه التمثيلية وسفاراته وطرد سفرائه من العواصم العربية قبل أن تطرد الشعوب حكامها المطبعين مع العدو من قصورهم".
- رفض المخططات الأمريكية لضرب العراق وقوى المقاومة والجهاد، وعدم تسهيل مهمة العدوان الأمريكي في الخفاء وإدانته في العلن.
- فتح الحدود أمام الشعوب العربية والإسلامية وتمكينها من نصرة شعب فلسطين ودعم الانتفاضة والمقاومة بالمال والخبرة والسلاح بما "يُمكن الشعب الفلسطيني من الدفاع عن نفسه أمام آلة الحرب الصهيونية الجهنمية المزودة بأحدث الأسلحة الأمريكية الفتاكة".

٥- الحركة والفعل المقاوم

ساهمت حركة الجهاد الإسلامي بصورة واضحة في عمليات المقاومة وذلك على النحو الذي يبرزه الجدول التالي لإحصائي عمليات ونشاطات الحركة ضد الأهداف الإسرائيلية خلال عام ٢٠٠٢ كنموذج لتلك العمليات.

Abu Nour www.alkottob.com

جدول رقم (٧ ـ ١) العمليات المنفذة بواسطة حركة الجهاد الإسلامي خلال عام ٢٠٠٢ .

تاريخ التنفيذ	طبيعة العملية	مكان العملية	الخسائر الإسرائيلية	ملاحظات
٢٠٠٢/١/٣٠	عملية استشهادية -أمنية	الطيبة	إصابة رجلي مخابرات و جرح ثلاثة جنود	استشهاد مراد عبد الفتاح أبو عسلي (٢٢ عاما)
٢٠٠٢/٢/١٥	الاشتباك مع العدو أثناء اقتحام قرية صيدا	قرية صيدا طول كرم	مقتل قائد وحدة دوفدوفان	استشهاد أنور عوني عبد الغني (٢٢ عاما) وجرح واعتقال العشرات من المجاهدين
٢٠٠٢/٢/١٨	عملية استشهادية	غوش قطيف	العديد من القتلى والجرحى	استشهاد علي محمد أبو ركبة
٢٠٠٢/٣/٥	عملية استشهادية	الطولة	مقتل ١٠ إسرائيليين وجرح أكثر من ٤٠ آخرين	استشهاد عبد الكريم عيسى خليل طحاينة
٢٠٠٢/٣/٨	مواجهة مع دبابة إسرائيلية	مخيم عبدة		استشهاد الحاج سليمان الديس
٢٠٠٢/٣/١٥	هجوم مسلح	مستوطنة دوغيت	مقتل مستوطن وجرح آخرين	استشهاد كمال عبد الناصر رجب
٢٠٠٢/٣/١٧	عملية استشهادية	القدس	إصابة عدد من الإسرائيليين	استشهاد اكرم اسحق عبد الله التيتيني (٢٢ عاما) من بيت لحم ضاحية الدوحة
٢٠٠٢/٣/١٩	تبادل نار بالأسلحة	مستوطنة البعزر	وقوع عدة إصابات مباشرة	استشهاد نبيل محمد النتشه وعلي يوسف أبو بسمة
٢٠٠٢/٣/٢٠	عملية استشهادية	قرية أم الفحم	مقتل ١٠ إسرائيليين، و ٣٠ جريحا	استشهاد رأفت أبو ديك (٢٠ عاما)
٢٠٠٢/٣/٢٢	هجوم مسلح بالقنابل	مستوطنة غوش قطيف	قتلى وجرح العديد من الإسرائيليين	استشهاد محمد سليمان يوسف أبو حسنين
٢٠٠٢/٣/٢٦	هجوم مسلح على حاجز أمني	معبر كيسوفيم جنوب غزة	إصابة اثنين أحدهما نائب قائد وحدة المدرعات	استشهاد وضاح ابراهيم عاشور البطش (٢١ عاما) ومصطفى محمد مصطفى الأسود (٢٧ عاما)
٢٠٠٢/٣/٢٩	هجوم مسلح على مستوطنة	مستوطنة نتساريم	قتيلان وأربعة جرحى	استشهاد محمد أحمد خزيق
٢٠٠٢/٤/٦	هجوم على مستوطنة	مستوطنة رفح يام غرب رفح	مقتل مستوطن وإصابة أربعة آخرين	استشهاد أيمن زكي الجزار ، وطارق سليمان أبو حسنين
٢٠٠٢/٤/١٠	عملية استشهادية	حيفا	مقتل ١٢ اسرائيلي وإصابة ثلاثين آخرين	استشهاد راغب أحمد عزت جرادات (١٧ عاما)
٢٠٠٢/٤/١١	هجوم مسلح	مستوطنة ايلي سناي	إصابة جنديين نقول أحدهما في حالة خطرة	استشهاد محمد محمود عبد العزيز الاسكافي
٢٠٠٢/٤/١٢	هجوم مسلح	معبر ارئيس جنوب غزة	مقتل جندي وإصابة سبعة	استشهاد حاتم طلال أبو قنيز

Abu Nour www.alkottob.com

تاريخ التنفيذ	طبيعة العملية	مكان العملية	الخسائر الإسرائيلية	ملاحظات
٢٠٠٢/٤/١٩	تفجير سيارة	غوش قطيف	عدة اصابات	استشهاد عبدالله حسن عودة
٢٠٠٢/٤/١٩	اقتحام مستوطنة	نتساريم	وقوع عدة إصابات بدرجات متفاوتة	استشهاد محمد ياسر ارحيم وسالم محمد حسونة
٢٠٠٢/٥/٣	مهاجمة كتلة عسكرية (rbg)	معبر ايرز	إصابة الكتلة	استشهاد أحمد إسماعيل صالح (٢٠ عاما)
٢٠٠٢/٥/٥	هجوم استشهادي على مستوطنة كيسوفيم	مستوطنة كيسوفيم- غزة	إصابة ثلاثة جنود، إصابة أحد هم خطيرة	استشهاد محروس مصباح البحطيطي وحازم زكريا الوادية
٢٠٠٢/٥/٢٢	مهاجمة دورية	غرب مدينة جنين	إعطاب آلية عسكرية صهيونية	استشهاد القائد خالد محمود زكارنة قائد عمليات سرايا القدس شمال الضفة الغربية
٢٠٠٢/٥/٢٢	استشهادي اعترضته شرطة العدو	الطوله		استشهاد محمد عوض حمدية (٢٠ عاما)
٢٠٠٢/٦/٥	عملية استشهادية	حيفا - طريق مجدو	قتل ثمان عشرة جنديا وجرح أكثر من ثلاثين	استشهاد حمزة عارف السعودي (١٨ عاما)
٢٠٠٢/٦/٨	هجوم مسلح عبر البحر	مستوطنة نوغيت	لا توجد خسائر للعدو	استشهاد السيد محمد الثتر وعاند علي المباشر
٢٠٠٢/٦/٢١	مهاجمة جنود الاحتلال	معبر بيتحانون (ايرز)- قطاع غزة	لم يعلن عنها	استشهاد حاتم محمود محمد نصير ووائل عدنان عجور وإسماعيل خميس الشرافي
٢٠٠٢/٨/٢٥	هجوم بالأسلحة الرشاشة	معبر المنطار شرق مدينةغزة	إصابة عدة جنود	استشهاد محمد نافذ أبو مرسا (١٩ عاما، غزة)
٢٠٠٢/٩/٣	اشتباك مسلح أثناء اقتحام مدينة الخليل	بلدة إذنا الخليل	لم تذكر أي خسائر	استشهاد خالد يوسف طميزة
٢٠٠٢/٩/٩	اشتباك مع الوحدات الإسرائيلية الخاصة	الياسون قضاء جنين	لم يعلن عنها	استشهاد القائد معمر قاسم دراغمة (٢٣ عاما)
٢٠٠٢/٧/٢٢	هجوم بالأسلحة الرشاشة	مستوطنة غوش قطيف دير البلح -غزة	إصابة جنديين بجراح خطيرة	استشهاد عماد موسى أبو عيشة (٢٠ عاما)
٢٠٠٢/٧/٢٣	اشتباكات داخل مستوطنة اقترقها المجاهدون	كوسوفيم شرق دير البلح -غزة	عدة إصابات	استشهاد أحمد جابر عايش (٢٠ عاما) وتامر عبد النبي أبو عرمانة (١٩ عاما)
٢٠٠٢/٩/١٠	اشتباك مسلح	حي الزهراء/ جنين	جرح ثلاثة جنود	استشهاد عبد الكريم بسام السعدي (١٨ عاما)
٢٠٠٢/١٠/٦	اشتباك مسلح	جنوب مخيم جنين	لا توجد إصابات	استشهاد سامي محمد نورمي
/١٠/١٤ ٢٠٠٢	اشتباك مسلح	على طريق نابلس- جنين	لم تذكر اى اصابات	استشهاد أحمد كليب سباعنة ومحمد نافع عبد القادر موسى
/١٠/٢١ ٢٠٠٢	سيارة مفخخة	الخضيرة شمال تل ابيب(مفرق - كركور)	مقتل ١٦ إسرائيليا وجرح أكثر من ٥٠ آخرين	استشهاد منفذي العملية (محمود فوزي حسنين وأشرف صلاح الأسمر)
/١٠/٢٩ ٢٠٠٢	استدراج العدو الى مكمن والاشتباك معهم	زيتا قضاء طولكرم	مقتل ضابط وجرح آخر	استشهاد خالد احمد اسعد أبو العز

Abu Nour www.alkottob.com

تاريخ التنفيذ	طبيعة العملية	مكان العملية	الخسائر الإسرائيلية	ملاحظات
١١/١٥/ ٢٠٠٢	عملية إطلاق نار على مجموعة من المستوطنين	وادي النصارى الخليل	مقتل ١٣ إسرائيليا بينهم العقيد درور فايتسبرغ	استشهاد أكرم إلهنيني وولاء مرور وذياب المحتسب
١١/١٢/ ٢٠٠٢	استشهادية تفجر قارب للصيد	البحر الأبيض المتوسط على بعد ٩ كم من غزة	جرح ٤ جنود واغطاب وغرق زورق البحرية الإسرائيلية	استشهاد جمال اسماعيل ومحمد المصري
٢٠٠٢/١٢/٢	مهاجمة موقع عسكري بالأسلحة الرشاشة	مستوطنة نتساريم قطاع غزة	جرح جنديين حسب اعتراف العدو	استشهاد محمود محمد شلدان (١٩ عاما)

ونشير هنا إلى عدد من الملاحظات المهمة بشأن طبيعة العمليات التي قامت حركة الجهاد بتنفيذها خلال عام ٢٠٠٢ .

١- لم يقتصر دور الحركة على العمليات الاستشهادية فقط، بل تنوعت أشكال فعلها المقاوم، ومثلت بعض العمليات تطوراً نوعياً ملحوظاً على صعيد الفعل المقاوم، وضعت "سرايا القدس"، الجناح العسكري لحركة الجهاد، تحت الأضواء العربية والدولية في ضوء قدرته على اختراق الإجراءات الأمنية الإسرائيلية في بعض العمليات.

٢- أدى قيام جيش الاحتلال باغتيال الشهيد رائد الكرمي، قائد "كتائب شهداء الأقصى"، الجناح العسكري لحركة فتح، في الضفة الغربية إلى عدول الأخيرة عن عدم ممارسة الفعل المقاوم داخل حدود فلسطين ١٩٤٨، أو ما يسمى بالخط الأخضر، وبرز التنسيق واضحاً بين الجناحين العسكريين لحركة الجهاد الإسلامي وفتح في بعض من العمليات، في سياق العلاقة الجيدة والحوار الدائم بين الجهاد وقيادات فتح في الداخل من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية وحماية الانتفاضة والمقاومة وضمان استمرارها.

٣- شاركت حركة الجهاد بدور ملحوظ في مقاومة الاجتياح الإسرائيلي الشامل لمدن وقرى وبلدات الضفة الغربية ونشير هنا على سبيل المثال إلى دور الحركة في مقاومة الاجتياح الإسرائيلي الشامل لمدن وقرى الضفة الغربية في ٢٩ مارس ٢٠٠٢ عشية القمة العربية في بيروت، وبرز دورها ضمن الصمود الباسل لمخيم جنين على وجه الخصوص، وبالأخص الدور الذي لعبه محمود طوالبة، مهندس التفجيرات في الحركة، في نصب الكمائن والتي أودت بحياة عديد من جنود الاحتلال. وعلى الرغم من فقدان الحركة العديد من كوادرها بسبب سياسة الاغتيالات والتصفية الجسدية والاعتقالات والملاحقة في تلك المواجهات، إلا أنها واصلت عملياتها بهدف إثبات عدم قدرة إسرائيل على كسر إرادة المقاومة وتحطيم المعنويات والقدرات.

٦- الحركة والحوار الفلسطيني

تبدي الحركة استعدادها للمشاركة في أي حوار فلسطيني داخلي يمكن أن يجنب الساحة الفلسطينية مزيداً من المشكلات والخلافات بما يصب في خدمة الاحتلال الإسرائيلي، في ظل إجماع كافة القوى الوطنية والإسلامية على ضرورة استمرار الانتفاضة والمقاومة. وتكرر الحركة إيمانها بأن خلافها السياسي والأيديولوجي مع أي طرف أو جزء من أجزاء الشعب الفلسطيني لا يمكن حسمه إلا

Abu Nour www.alkottob.com

بالحوار الفكري والسياسي بعيداً عن العنف الذي يجب أن يوجه فقط نحو "العدو الصهيوني المشترك"، وتتوافر لدى الحركة الرغبة في صياغة برنامج وطني من أجل مقاومة الاحتلال، خاصة وأنها تنتقد غياب التنسيق المسبق بين القوى الفلسطينية في الحوار، بيد أنها لا تربط عملياتها العسكرية بفعاليات هذا الحوار، لأنها بالأصل لم تتفق على وقف المقاومة. وبهذا الخصوص، شاركت الحركة ضمن القوى الوطنية والإسلامية في "حوارات الداخل" والتي أفرزت ما يسمى بوثيقة ٥ أغسطس وأبدت عليها بعض التحفظات، بما يتوافق واستراتيجية وثوابت الحركة. كما شاركت في "حوارات القاهرة" مع الحكومة المصرية، خاصة على صعيد التركيز على كيفية توحيد الصف الفلسطيني، على خلفية الإشكاليات الميدانية التي حدثت في قطاع غزة. والحركة ليست ضد مبدأ الحوار الذي يسعى لتحقيق وحدة الصف الفلسطيني في مواجهة "العدو الصهيوني"، على قاعدة أن المقاومة هي الناظم العملي لوحدة القوى الفلسطينية في هذه المرحلة.

إلا أن الحركة رفضت الاقتراح الذي قدمته السلطات المصرية، في منتصف ديسمبر ٢٠٠٢، إلى حماس والجهاد وسائر فصائل المقاومة بالعمل على "تهدئة" عملياتها ضد إسرائيل في الوقت الراهن، بدعوى عدم التأثير في نتائج الانتخابات الإسرائيلية لصالح شارون، وأوضحت موقفها من مختلف القضايا في الورقة المقدمة من جانبها في حوارات القاهرة، والتي تضمنت عدداً من المحددات تراها الحركة ضرورية لأي برنامج وطني فلسطيني:

أ: الأهداف الوطنية، وهي حسب صياغة الحركة كما جاءت في ورقتها تتمثل فيما يلي:

- دحر الاحتلال الصهيوني عن الأراضي الفلسطينية، كمقدمة لممارسة الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره على ترابه الوطني.
- الكفاح لتمكين اللاجئين الفلسطينيين من ممارسة حقهم الثابت في العودة إلى ديارهم، واعتبار هذا الحق في مقدمة الثوابت الوطنية.
- تحقيق وتكريس الوحدة الوطنية الفلسطينية على كافة الأصعدة على قاعدة استمرار المقاومة والتصدي للعدو الصهيوني.
- العمل على تطوير التفاعل والدعم الشعبي والرسمي العربي والإسلامي والعالمي للقضية الفلسطينية، والتصدي لمحاولات التدخل الأجنبي المفروض في الشأن الداخلي الفلسطيني، ومحاولات فرض الوصاية على الشعب الفلسطيني.

ب: الوسائل، وقد بلورتها الورقة - وحسب صياغة الحركة لها - فيما يلي:

- التأكيد على حق شعبنا في مقاومة العدوان والاحتلال الصهيوني بكل أشكاله، وعلى شرعية هذه المقاومة.
- مواصلة الانتفاضة والمقاومة بكافة أشكالها، والنضال السياسي المؤدي إلى تعزيز المقاومة، وتحقيق الأهداف الوطنية أعلاه.
- التأكيد على البعد العربي والإسلامي للقضية الفلسطينية كعمق إستراتيجي، وإبراز البعد والطابع التحرري والإنساني لقضيتنا الفلسطينية، والتأكيد على أهمية العمل من أجل حشد تأييد وتفاعل هذه الدوائر لصالح كفاحنا المشروع، ولتعزيز صمود شعبنا، ومقاومته للعدوان الصهيوني.

جـ: الوضع الداخلي الفلسطيني، وقد طرحت الحركة في ورقتها عدة تصورات ومقترحات للتعامل معه، كان أبرزها حسب صياغاتها ما يلي:

- تشكيل مرجعية سياسية تشارك فيها كافة القوى الحية في شعبنا، والمتفقة على الأهداف الوطنية أعلاه، بحيث تحقق جماعية القيادة والمشاركة في القرار الوطني، وإقرار السياسة والممارسة على قاعدة

Abu Nour www.alkottob.com

الالتزام بدعم المقاومة لتحقيق الأهداف الوطنية. وتتحمل القيادة الوطنية الموحدة مسئولية قيادة العمل الوطني وفق أهداف البرنامج الوطني، وذلك بصورة مؤقتة تتخذ خلالها القرارات بالتوافق، سعياً إلى إجراء انتخابات ديمقراطية وشاملة لكل قطاعات شعبنا في الداخل والخارج.

- تتكفل "القيادة الوطنية الموحدة" بإعادة صياغة وتشكيل البنى الداخلية الفلسطينية، بما يخدم أهداف النضال الوطني الفلسطيني، على أسس ديمقراطية تكفل العدل والمساواة، وممارسة التعددية السياسية، وضمان الحريات العامة والحاصة، بما في ذلك حرية الصحافة والنشر والتعبير والتنظيم والتجمع والتظاهر في إطار المحافظة على النظام العام والوحدة الوطنية.

- التأكيد على ضرورة استمرار الحوار الوطني على الأسس الواردة أعلاه لبلورة البرنامج الوطني المشترك، الذي يستجيب لأهداف شعبنا وتطلعاته ومصالحه الوطنية الراهنة والاستراتيجية.

ولم يتبين للحركة إجابة مصرية واضحة حول ما الذي يمكن الحصول عليه لصالح الشعب الفلسطيني مقابل دعوة "التهدئة". ومع ذلك حرصت الحركة على الموافقة على مواصلة الاتصالات والحوار.

٧- الحركة والسلطة الفلسطينية: أزمة كنيسة المهد نموذجاً

مثلت أزمة كنيسة المهد في إبريل ٢٠٠٢ تعبيراً مهما عن علاقة التوتر بين حركة الجهاد الإسلامي والسلطة الوطنية الفلسطينية، فقد أدانت الحركة وفصائل المقاومة "صفقة" كنيسة المهد، ضمن تفاعلات وتداعيات الاجتياح الإسرائيلي الشامل للضفة الغربية، وحصار قوات الاحتلال منذ ٢٠ أبريل ٢٠٠٢ لكنيسة المهد في بيت لحم، وبداخلها قرابة ٢٠٠ فلسطيني من المدنيين والمقاومين، اتخذوا من الكنيسة، تلك البقعة الأكثر قداسة، ملاذاً آمناً. وأكد الناطق باسم رئيس الوزراء الإسرائيلي في ١٥ أبريل، المطلب الإسرائيلي الرسمي بأن على المعتصمين داخل الكنيسة الاختيار بين السجن داخل إسرائيل، أو النفي مدى الحياة، الأمر الذي يتناقض مع رفض وإصرار رئيس السلطة الفلسطينية على عدم النفي إلى الأبد خارج الأراضي الفلسطينية، كذلك عدم تسليم أي فلسطيني إلى إسرائيل لمخالفة ذلك لكافة القوانين والمواثيق والاتفاقات الموقعة حسب اتفاقية أوسلو، والتي تقضي بعدم تسليم أي فلسطيني "مطلوب" لإسرائيل إذا ما حاكمته السلطة الفلسطينية. بيد أنه مع تزايد كثافة الضغوط والرغبة في فك حصار الرئيس (الراحل) ياسر عرفات، رضخت السلطة واعتمدت مبدأ محاكمة وتجريم المقاومين بقبولها محكمة صورية وغير قانونية لكوادر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المتهمين باغتيال وزير السياحة الإسرائيلي، رحبعام زئيفي، بعد اعتقالهم في ٢١ فبراير ٢٠٠٢، حيث عقدت المحكمة العسكرية المدنية، في مجمع المقاطعة برام الله حيث كان يحاصر الرئيس عرفات، جلستين لها في ٢٢ و ٢٤ أبريل وأصدرت في ٢٥ أبريل أحكاماً بالسجن عليهم، لمدد تراوحت ما بين ستة إلى ١٨ سنة. وقامت السلطة، بعد موافقة شارون على اقتراح للرئيس الأمريكي جورج بوش في ٢٨ أبريل، بوضعهم ومعهم أحمد سعدات الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والعميد فؤاد الشوبكي تحت حراسة أمنية بريطانية - أمريكية في سجن أريحا.

واعتبرت الحركة أن تلك "المحاكمة المهزلة" - كما أسمتها - تعد سابقة خطيرة، وأن القبول بالمحاسة الأنجلو - أمريكية أخطر وأشد، وأبدت الحركة تخوفها من انعكاسات القبول الفلسطيني بإعطاء الولايات المتحدة رسمياً دور "السجان" للشعب الفلسطيني. وتوافقت الحركة مع رؤية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في انتقاد هذا الاتفاق معتبرة أن السلطة الفلسطينية -وبغض النظر عن التبريرات التي قدمتها لتلك الموافقة- "ارتكبت خطيئة جديدة في سلسلة أخطائها وأن تنازلها الجديد سيفتح شهية أعداء الشعب الفلسطيني، في واشنطن وتل أبيب، وأن هذه الصفقة مرفوضة بكل

Abu Nour www.alkottob.com

المقاييس والمعايير". وحذرت الحركة من اعتماد هذه السابقة "والتي تؤسس لمحاكمة كل المناضلين الوطنيين الفلسطينيين، وتعد نقطة تحول خطيرة للغاية في مسار النضال الوطني الفلسطيني، وتعطي مؤشراً بالغ الدلالة على خطورة التوجهات السياسية التي ستقدم عليها السلطة لاحقاً واستعدادها للرضوخ للإملاءات الأمريكية والصهيونية التي تستهدف تبديد الحقوق الوطنية وتصفيتها". وطالبت الحركة "بالإفراج الفوري عن كافة المقاومين والمناضلين، والالتفات إلى الفاسدين والمفسدين داخل السلطة وإخراج عملاء المخابرات المركزية الأمريكية من الأراضي الفلسطينية".

بيد أن الأمر كان أكثر خطورة بشأن كيفية حل أزمة حصار كنيسة المهد، وتزايد التهديدات الإسرائيلية باعتماد الخيار العسكري لإنهاء الأزمة. فبعد مفاوضات طويلة - سرية وعلنية - ومقابل فك الحصار عن الكنيسة، أعلنت السلطة الفلسطينية عن قبولها بإبعاد ١٣ فلسطينياً، تنتهمهم إسرائيل بالتورط في عمليات "دامية" ضد الإسرائيليين في الضفة الغربية أو داخل العمق الإسرائيلي إلى قبرص، تمهيداً لإعادة توزيعهم على بعض دول الاتحاد الأوروبي، ونفي ٢٦ آخرين، تعتبرهم إسرائيل أقل خطراً، إلى قطاع غزة بعد أن تعهدوا خطيا "بنبذ العنف"، بينما تم إطلاق سراح ٨٤ آخرين، ليس لإسرائيل مأخذ عليهم. ومكمن الخطورة في هذه الصفقة والتي أدت إلى حل "سلمي" لأزمة كنيسة المهد وفك حصار الرئيس عرفات، أنها تمت وفق مرجعية أمنية إسرائيلية، تقرر تصنيف المقاومين من صفوف الشعب الفلسطيني إلى فئات "أكثر خطورة" و"أقل خطورة". وعللت السلطة ذلك، بأنه إزا، صعوبة الخيارات المتاحة ما بين التسليم لإسرائيل، أو التصفية الجسدية والاختطاف، أو النفي، فإن "تشريع" الإبعاد والنفي داخل الوطن وخارجه، -حسب ادعاءات السلطة- أملته ضرورات تجنب "كارثة" بخصوص المحاصرين داخل الكنيسة، وأنه يمثل حسب مصادر فلسطينية رسمية، "أقل الممكن سوءاً"، وأنه ساعد على تجنب مجزرة مروعة".

وتوافقت الحركة مع رؤية فصائل المقاومة للأزمة وما تمخض عنها من حل صفقة، حيث رأت "أن الأصل هو الإصرار والثبات على تحميل إسرائيل وحدها المسئولية السياسية والأخلاقية كاملة عن حصار واحدة من أقدس بقاع العالم، ووضع المجتمع والرأي العام الدوليين أمام ضرورات محاسبة إسرائيل وحدها عن الرسالة الإنسانية والأخلاقية لكنيسة المهد، ومسئوليته عن التدخل من أجل فك الحصار ووضع حد لما تقوم به القوات الإسرائيلية، وليس من مسئوليات السلطة الفلسطينية أو واجباتها تقديم طوق النجاة لأرييل شارون وحكومته وجنوده وشعبه". كما رأت الحركة أنه من شأن اعتماد المرجعية الأمنية الإسرائيلية والقبول الفلسطيني بها - حتى وإن كان اضطرارياً - أن يشكل سابقة لإسرائيل في فرض خيار الإبعاد على الشعب الفلسطيني الرافض للاحتلال. ورفضت الحركة ومعها الفصائل الفلسطينية المقاومة الاتفاق واعتبرته "كارثة" حيث إنه يحرم الشعب الفلسطيني من شرعية وجوده في فلسطين، ويتناقض إبعاد الفلسطينيين الوارد فيه قسراً عن أراضيهم مع مبدأ حق العودة وقدسيته، ويمثل تجاوزاً لمبادئ الشعب الفلسطيني وثوابته، وإهانة لجهاده ونضاله، ويوجه ضربة قاصمة لإنجازاته، حيث ظل على مدار أكثر من ٥٠ عاماً يرفض سياسة الإبعاد ويقاومها، متمسكاً بالبقاء على أرضه وفي وطنه. وحذرت الحركة من واقع انفراد فئة محدودة باتخاذ قرارات مصيرية، وحالة الارتباك والخلط بين المرونة التكتيكية في تسويات سياسية غامضة، ومعالجة مبدأ استراتيجي أصيل لا يجوز التنازل عنه بمواقف تكتيكية، فالمرونة و "الواقعية" لا تعني التنازل الطوعي عن الحقوق المشروعة الثابتة.

انعكست الضغوط العسكرية الإسرائيلية والسياسة الأمريكية على جدل الإصلاح الفلسطيني الداخلي الذي أضحى محاصراً بين الضرورات الوطنية والإملاءات الخارجية، حيث شككت الجهاد في

Abu Nour www.alkottob.com

جدوى الإصلاح المطروح في الساحة الفلسطينية، بناء على ما أسمته "الإملاءات الأمريكية – الصهيونية" التي تضع له أجندة خارج الأجندة الوطنية. واعتبرت الحركة أنه إذا كان الهدف من وراء حديث الإصلاح الآن – والذي تم في السابق لمجاهل كافة الدعوات إليه – شغل الشعب الفلسطيني عن جرائم الاحتلال الإسرائيلي وعن مقاومته، فإنه يصبح مؤامرة ضد الشعب الفلسطيني. ورفضت الحركة تغليب البعد الأمني في هذا الإصلاح والذي يصب في وأد الانتفاضة، وجددت مطالبها بتشكيل قيادة طوارئ مباشرة تشرف على كل جوانب الإصلاح في جميع المؤسسات، وفق معايير فلسطينية خالصة، من انتخابات حرة وشاملة، وفصل كامل بين السلطات، وبناء المؤسسات على أسس ديمقراطية وإعلاء سيادة القانون. وأعلنت الحركة في نهاية مايو ٢٠٠٢ أنه في حالة إعادة هيكلة وبناء منظمة التحرير الفلسطينية كإطار يشمل الشعب الفلسطيني وقواه والعدول عن احتواء السلطة للمنظمة ولجانها ومؤسساتها وعدم تفريغ المنظمة من مضمونها، فإن حركة الجهاد لن تقف ضد هذا التوجه.

على صعيد آخر، توافقت حركتا الجهاد الإسلامي وحماس على رفض عرض الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات في مطلع يونيو ٢٠٠٢، بتخصيص عدد من المقاعد لهما في مجلس وزراء معدل، ورفضت الجهاد مبدئياً المشاركة في أي مؤسسة تأتي تحت مظلة اتفاقية أوسلو. واستند ذلك الموقف على موقف آخر للحركة يتضمن رفض المشاركة في أي انتخابات لا تستند إلى أساس شعبي ويكون مصدر شرعيتها هو الاتفاقيات مع إسرائيل والتي لم يؤخذ رأي الشعب فيها منذ البداية. وفيما يخص المجلس التشريعي الفلسطيني الذي ترفض الحركة المشاركة في انتخابات أعضائه، تؤسس الحركة موقفها هذا على أن إسرائيل شاركت في تحديد كل ما يتعلق بالمجلس التشريعي الفلسطيني، من حيث طبيعته ووظيفته وصلاحياته وعدد أعضائه، وكذلك كل ما يتعلق بالعملية الانتخابية وشروطها ومتطلباتها، بما يضمن إفراز مجلس محدود الصلاحيات مرهون بإرادة إسرائيل ومحكوم بتحقيق رغباتها ومصالحها المدعومة أمريكياً، وهذا يعطي إسرائيل الحق في المشاركة في تقرير مصير الشعب الفلسطيني وتحديد مستقبله ورسمه. كما ترى الحركة أن ما جرى من انتخابات للمجلس قد كرس تقسيم الشعب الفلسطيني وفجوته، إذ اقتصرت تلك الانتخابات على سكان الضفة الغربية وقطاع غزة، وأغفلت مستقبل أكثر من ٤,٥ ملايين فلسطيني في الشتات، ناهيك عن فلسطيني الـ ٤٨، بل إن مشاركة سكان القدس المحتلة في هذه الانتخابات تم "بالمراسلة" عبر مكاتب البريد، بما يعني الإقرار باعتبارهم أجانب يقيمون على أرض غير فلسطينية، بما يكرس ضم القدس وتهويدها. باختصار، ترى الحركة أن هذه الانتخابات ليست ذات جدوى، وهدفها إضفاء شرعية على السلطة الفلسطينية، وأن المجلس الذي أفرزته هو مجلس محكوم ومقيد سلفاً بسقف الاتفاقيات مع إسرائيل، والتي لا ترى لسلطة الحكم الذاتي وظيفة أهم من الحفاظ على الأمن الإسرائيلي.

ومثلما رفضت حركة الجهاد في يوليو ٢٠٠٢ دعوة وزير الداخلية الفلسطيني عبد الرزاق اليحيى وقف العمليات الاستشهادية، أعادت رفضها في مطلع سبتمبر ٢٠٠٢، مؤكدة أن الاتفاقيات والتفاهمات الأمنية مع إسرائيل أضرت بالمصلحة العليا للشعب الفلسطيني. وأن ما تفعله إسرائيل من مداهمات ومعاودة حصار مقر الرئيس عرفات براء اللة، ومطالبته بتسليم "مطلوبين" يأتي في سياق الضغط المتواصل لوقف الانتفاضة. ودعمت الحركة "صمود" الرئيس الفلسطيني وناشدته التخندق مع شعبه وخيار المقاومة، وانتقدت دعوة وتصريحات رئيس الوزراء محمود عباس آنذاك لما أسماه وقف "عسكرة" الانتفاضة، معتبرة أنه "يريد إعادتنا إلى نفق أوسلو المظلم، وبعد وصولنا إلى قناعة بأن الفجوة بين الحد الأدنى من التنازلات من جانب إسرائيل والحد الأقصى لما يمكن أن يقبل به

Abu Nour www.alkottob.com

الفلسطينيون أصبحت واسعة ولا يمكن ردمها". واستكملت الحركة نقدها لتصريحات رئيس الوزراء الفلسطيني بقولها: "إن الرهان على الشارع الإسرائيلي في إسقاط أريئيل شارون غير مجد، حيث إن هذا الشارع لا يختار بين اليسار واليمين، ولكن بين اليمين المتطرف والأكثر تطرفاً، وأن الرهان يتوجب أن يكون على الشارع الفلسطيني والمقاومة وحدهما".

أخيراً فقد ردت الحركة على دعوات بعض رموز السلطة الفلسطينية لتنشيط "قانون الأحزاب السياسية" بتأكيد أنها لا ترى ضرورة لإنشاء حزب منبثق عن الحركة أو عن دوائرها، لأن الحزب بحاجة إلى وجود سيادة وطنية يمارس من خلالها نشاطه، وهذا غير متوفر. ورأت الحركة أن الغرض الحقيقي وراء تلك الدعوات هو تنفيذ ما تسعى إليه أطراف عديدة لنزع سلاح الحركة التي لاتزال تعتبر نفسها في مرحلة التحرر الوطني، وأنه من غير المفيد في ظروف كهذه إنشاء حزب سياسي، حيث تواصل الحركة مشروعها الجهادي المقاوم ومشروعها الإسلامي الشامل ورؤيتها الحضارية.

Abu Nour www.alkottob.com

٨. حركة المجاهدين فى كشمير

أولا : النشأة التاريخية لحركة المجاهدين فى كشمير

تنتمى حركة المجاهدين فى كشمير إلى نموذج الحركات الاستقلالية الانفصالية. وتختلف الآراء بصدد النشأة التاريخية للحركة، فالبعض يرجعها إلى الأربعينات حيث شهد إقليم كشمير حركة مقاومة ضد الهيمنة الهندية على الإقليم. وفى الخمسينات شكل سيرزا أفضل بيج "جبهة الاستفتاء"، وهدد باستخدام الخيار العسكرى إذا ما تواصلت سياسة الضم التدريجى لكشمير إلى الهند. وفى الستينيات أنشأت "جبهة الاستفتاء" تنظيمين عسكريين غايتهما تحرير كشمير من الاحتلال الهندى، هما "جبهة تحرير جامو وكشمير"، و"منظمة الفتح" (١). إلا أن الإطار الفكرى والأيديولوجى لهذه الجبهة هو إطار علمانى، ومن ثم يصعب اعتباره مصدراً أساسيا لنشأة حركة المجاهدين فى كشمير.

ويرجع فريق آخر من الباحثين نشأة الحركة إلى أواسط الثمانينات كنتيجة للسياسات الهندية فى كشمير وإدماج الولاية فى الدولة الهندية وإجراء انتخابات مزورة تضمن وجود حكومة موالية للهند فى كشمير، الأمر الذى أدى إلى إضعاف المعارضة المسلمية الكشميرية، وإلى انشقاق القطاع الأكبر من الشباب وتشكيلهم منظمات إسلامية ترفع راية الجهاد الإسلامى. وتتصدى بقوة لكل رموز الارتباط بالهند، وتسعى إلى شل نشاط القوى السياسية التقليدية، ذات الثقل المهم فى وادى كشمير مثل حزب المؤتمر الوطنى (٢).

ويرى فريق ثالث أن نشأة الحركة ترجع إلى نهاية الثمانينات، نتيجة عدد من العوامل التى ارتبطت بتلك الفترة مثل قيام الثورة الإسلامية فى إيران، ونجاح المجاهدين الأفغان فى طرد القوات السوفيتية من أفغانستان بالإضافة إلى فشل الهند فى تأكيد سيادتها على الإقليم (٣).

وتشير المصادر الهندية إلى أن حركة المجاهدين قد تأسست فى البداية فى مطلع الثمانينيات فى الپنجاب پاكستان على يد مجموعة من العناصر العقائدية الإسلامية عرفت من قبل "بحركة الأنصار"، ثم أخذت اسم "حركة المجاهدين"، والتى تأسست فى الأصل للجهاد فى أفغانستان ضد الاحتلال السوفيتى، وتوجت فى تجنيد خمسة آلاف متطوع من پاكستان وكشمير الحرة التابعة لپاكستان. ومع استمرار القتال فى أفغانستان قامت پتجنيد ستة آلاف متطوع من الدول الإسلامية الأخرى حيث قامت بتدريبهم فى معسكراتها فى أفغانستان. ومع وصول طالبان إلى السلطة فى أفغانستان تحولت الحركة إلى شبكة دولية من المقاتلين من أجل تحقيق الأهداف الإسلامية فى

Abu Nour www.alkottob.com

العالم، فهى عضو فى تنظيم القاعدة العالمى الذى أسسه أسامة بن لادن. وقد وقع فازلر رحمان خليل أحد قادة حركة المجاهدين على فتوى بن لادن بالهجوم على المصالح الأمريكية والغربية والتى صدرت فى فبراير ١٩٩٨، ومنذ عام ١٩٩٢ والحركة تمارس نشاطها فى جامو وكشمير (٤).

ومن الواضح أن تحليل المصادر الهندية لنشأة حركة المجاهدين فى كشمير قد تأثر بمحاولات الهند ربط حركة المجاهدين بتنظيم القاعدة بهدف الحصول على الدعم الأمريكى لمواجهة نشاط هذه الحركة. فى حين تشير حركة المجاهدين فى وثائقها المنشورة على شبكة الإنترنت إلى أن تنظيم القاعدة، جنبا إلى جنب مع اليهود والهندوس قد تضافرت جهودهم لتشويه الجهاد الإسلامى (٥).

ويشير مصدر آخر إلى أن حزب المجاهدين قد أنشئ فى ١٩٨٩/١٢/٢٢ كجناح عسكرى للجماعة الإسلامية التى كانت تمارس نشاطها فى كشمير منذ عام ١٩٣٠، واكتفت بالكفاح السياسى حتى سنة ١٩٨٩، وأن مرجع تأخرها عن دخول ميدان الكفاح المسلح هو اختلاف وجهات نظر قاداتها حول جدوى الكفاح المسلح ضد الحكم الهندى. وسبق إنشاء هذا الحزب تكوين جماعات مقاتلة صغيرة مثل "أنصار الإسلام"، و"أسرة ضياء" (نسبة إلى ضياء الحق)، و"أسود الله" و غيرها. و قد تم إنشاء الحزب بناءا على نصيحة من سيد على جيلانى وغيره من القادة، والتحقت به المجموعات المقاتلة الصغيرة.

ويشير ذات المصدر إلى وجود أحزاب جهادية أخرى إلى جانب حزب المجاهدين، منها "حزب الجهاد"، الذى تفرع عن "رابطة الشعب" التى كان يقودها شبيرشاه وفاروق رحمانى، والذى تمتع بشعبية كبيرة فى سرينجار والمناطق الريفية واستشهد العديد من قادته البارزين خلال معاركهم مع الجيش الهندى، وحركة "الإخوان المسلمون" بقيادة هلال بيك والتى قامت باختطاف و قتل العديد من الشخصيات الهندية المهمة والسياسيين الموالين للهند فى كشمير، و"حزب الله"، و"حزب آل عمر"، و"حزب البراق". بالإضافة إلى "حزب تحريك المجاهدين"، و"المجاهدون المسلمون"، و"حركة المجاهدين" وبالرغم من أن عمل حركة المجاهدين منفصل عن حزب المجاهدين، إلا أن الخلافات بينهما ترجع فى رأيه إلى أسباب شخصية وليست أيديولوجية (٦).

ومن ناحية أخرى، يشير أحد الباحثين الهنود إلى أن الجماعات المقاتلة فى كشمير يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع تختلف فيما بينها من حيث الأهداف والوسائل والدعم المحلى والتكوين الإثنى. النوع الأول يضم مجموعة من المقاتلين الذين يقاتلون من أجل استقلال كشمير، حيث ينتمى حزب المجاهدين إلى هذا النوع. النوع الثانى يضم أساساً الباكستانيين الذين لهم أهداف أوسع من أهداف حزب المجاهدين، ففكرة الجهاد بالنسبة لهم ليس استقلال كشمير، ولكن بناء الخلافة الإسلامية، وتنتمى جماعة "الشكر طيبة" إلى هذا النوع، حيث تمتلك هذه الجماعة مصادرها الخاصة فى التمويل من داخل وخارج باكستان، ومن ثم لا تعتمد اعتماداً كاملاً على الحكومة الباكستانية فى أنشطتها الجهادية. أما النوع الثالث فهو جماعة المرتزقة التى تتكون أساساً من الأفغان، حيث تنتمى حركة المجاهدين - وفق هذا التصنيف - إلى هذا النوع (٧).

وتشير مصادر هندية أخرى إلى أن قوات الأمن الهندية فى كشمير قد واجهت اثنتى عشرة جماعة جهادية عنيفة، تختلف من حيث حجمها وتوجهاتها الأيدلوجية، كان من بينها حزب المجاهدين، وحزب الله، وحركة المجاهدين، والإخوان المسلمين (٨).

وقد أشارت تلك المصادر إلى عدد من الجماعات والتنظيمات الإسلامية الجهادية التى تتلقى دعماً مباشراً أو غير مباشر من باكستان، منها على سبيل المثال حركة الأنصار التى تحولت إلى حركة المجاهدين، ومقرها فى مظفر آباد بكشمير التابعة لباكستان، وجماعة لشكر طيبة ومركزها الرئيسى فى ميردك بباكستان، وحزب المجاهدين، وجيش محمد، والبدر وطريق الجهاد. (٩)

Abu Nour www.alkottob.com

ومن خلال العرض السابق يتضح ما يلى :

١- تعدد الجماعات الجهادية فى كشمير ذات الأيديولوجية الإسلامية، وأن محور الاختلاف بين هذه الجماعات يرجع إلى ظروف النشأة الخاصة بكل منها، وإلى الاختلاف حول بديلين أساسيين فيما يتعلق بمستقبل كشمير الأول هو الاستقلال والثانى هو الانضمام إلى باكستان وإن كانت تتفق جميعها على ضرورة الاستقلال عن الهند. وتتعاون هذه الجماعات فيما بينها بشكل أو بآخر، باعتبار أن الاستقلال عن الهند هو الشرط الأول لتحقيق أى من البديلين.

٢- أن هناك اختلافات من حيث النشأة التاريخية لهذه الجماعات، فحركة المجاهدين فى كشمير خرجت من بين أحشاء حركة المجاهدين التى تأسست للجهاد فى أفغانستان ومن ثم لها روابطها بالجماعات الأفغانية، أما حزب المجاهدين فقد نشأ فى كشمير كامتداد للجماعة الإسلامية التى كانت تمارس نشاطها سلمياً فى كشمير منذ عام ١٩٣٠ ثم تحولت إلى الكفاح المسلح عام ١٩٨٩ . كما أن هناك بعض الجماعات التى قامت بتشجيع من باكستان لتمارس نشاطها فى كشمير وذلك بحكم الروابط الإستراتيجية والثقافية والتاريخية والدينية التى تربط كشمير بباكستان.

٣- أن جميع الجماعات الجهادية تتبنى الأيديولوجية الإسلامية أو أيديولوجية مستمدة من الإسلام كأساس لفكرها وأهدافها وحركتها، ولا يستثنى من هذا إلا جبهة تحرير كشمير ذات الاتجاه العلمانى.

٤- يمكن تفسير حالة التعددية السابقة استناداً إلى نمط من أنماط البناء التنظيمى الذى درجت عليه هذه الجماعات وهو ما يعرف بالتنظيم العنقودى، الذى يقوم على أساس مركزية التخطيط ولامركزية الحركة، بحيث تنقسم الجماعة إلى عدة جماعات صغيرة تخضع كل منها لقيادة مباشرة، وقد لا تعرف هذه الجماعات بعضها بعضاً، ولا ينشأ اتصال تنظيمى بينها، وتتمتع باللامركزية وحرية الحركة ولكن فى نطاق السعى إلى تحقيق أهداف محددة. وقد يكون هناك نوع من أنواع توزيع الأدوار والمهام بين هذه الجماعات الصغيرة. ويرجع تبنى هذه الجماعات إلى هذا النمط من التنظيم العنقودى إلى محاولاتها تجنيب ضربات قوية من الأطراف المعادية لها، وتعقيد مهمة هذه الأطراف فى ملاحقتها أمنياً. ومن ثم فالرأى الأغرب إلى الدقة بشأن حركة المجاهدين فى كشمير هو أن هذه الحركة قد جمعت بين عدد من الجماعات التى تتبنى أيديولوجية إسلامية تقوم على الجهاد كفلسفة لعملها وأداة لتحقيق أهدافها. ومن ثم لا يمكن الفصل بين جماعة وأخرى، خاصة وإنها قد اتفقت حول هدف محدد له الأولوية وهو التخلص من الهيمنة الهندية على كشمير.

ثانياً : البنية التنظيمية لحركة المجاهدين فى كشمير

كما سبق الإشارة، تتكون حركة المجاهدين فى كشمير من عدة جماعات ذات أيديولوجية إسلامية تتبنى الجهاد كأسلوب لنشاطها من أجل تحقيق أهدافها، وأنها وإن كانت تعانى من بعض الاختلافات إلا أنها تتفق على هدف محدد هو الاستقلال عن الهند. ونتيجة لهذه الوضعية فإن دراسة البنية التنظيمية لحركة المجاهدين فى كشمير لابد وأن تشمل مستويين، الأول هو مستوى البنية التنظيمية للجماعات الرئيسية، والثانى هو الإطار التنظيمى الذى يجمع هذه الجماعات على المستوى السياسى والعسكرى. ومن ثم نبدأ أولاً بتوضيح البنية التنظيمية لثلاث جماعات أساسية هى حزب المجاهدين، وحركة المجاهدين، وجماعة لشكر طيبة، ثم نشير ثانياً إلى الإطار التنظيمى الذى يضم هذه الجماعات.

أ- البنية التنظيمية لحزب المجاهدين

١- البنية التنظيمية لبعض الجماعات الرئيسية فى حركة المجاهدين فى كشمير :

يشير أحد الباحثين الهنود إلى أن حزب المجاهدين أنشأ فى عام ١٩٩١ "مجلس الشورى الأعلى"، والذى يمثل المركز الرئيسى لصنع القرار بالحزب. وقد ترأس هذا المجلس سيد صلاح الدين الذى أعاد تنظيم الحزب إلى

Abu Nour www.alkottob.com

أجنحة إدارية وأخرى عسكرية، بحيث يكون قادة الجماعة الإسلامية-التنظيم الأم-مسئولين عن الأجنحة الإدارية لحزب المجاهدين، ويكون لهم دائما القدرة على التحكم والسيطرة على قادة الأجنحة العسكرية. كما أن للحزب جناحه النسائي الذي لا تتوافر معلومات عن مدى قوته(١٠).

ويذكر باحث آخر أن حزب المجاهدين يهتم أساساً بالناحية العسكرية بينما تضطلع الجماعة الإسلامية بالشق السياسي. ويرأس الحزب قائد أعلى و نائب له، كما أن لكل جناح من أجنحة الحزب قائدا خاصا وتدريبات عسكرية وتثقيفا أيديولوجيا ومخابرات خاصة. وتتكون من هذه الأجنحة القيادة المركزية للحزب، وتخضع كل القرارات لعملية الشورى. وتتشعب الشبكة التنظيمية للحزب في كل مدن وقرى كشمير. وبالإضافة إلى الأجنحة، قام الحزب بتشكيل مجالس محلية لإدارة شئون العديد من المناطق الريفية، كما أنشأ العديد من المؤسسات الاقتصادية في المناطق المدنية والريفية. وقد صرح قادة الحزب بأن ٧٠٪ من الشباب المجاهد في كشمير ينتمي إلى الحزب، وأن قوته العددية تتراوح ما بين(٢٠-٢٥) ألفا (١١).

ب- البنية التنظيمية لحركة المجاهدين

لا تتوافر معلومات مؤكدة حول البنية التنظيمية لحركة المجاهدين إلا أنه وفقا لمصادر هندية فإن إدارة مكافحة الإرهاب الأمريكية قد ذكرت في تقرير لها أن هناك مستويين للحركة، الأول هو المستوى العالمي ويرأسه فازيل رحمان خليل، أما المستوى الكشميري فيتزعمه سعدت الله خان. وفيما يتعلق بكشمير يتمركز أعضاء حركة المجاهدين في مظفر آباد وباكستان، ومنها يقومون بأعمالهم القتالية في كشمير. وللحركة معسكرات تدريب في باكستان وأفغانستان ويتبعها عدة آلاف من المؤيدين والمتعاطفين الموزعين في أزاد كشمير وباكستان وجنوب كشمير ومناطق دورا بالهند.

وتتشكل الحركة في الأساس من باكستانيين وكشميريين وأفغان، والعضوية مفتوحة في الحركة لكل من يساندها في أهدافها ويقبل بالتدريب لمدة أربعين يوماً. وتعتمد الحركة على تجنيد المتطوعين من حركة طالبان الذين جاءوا من عدة دول إسلامية. وتمتلك الحركة قوة مقاتلة أساسية تتكون وفقا للمخابرات الباكستانية من ٥٠٠ مقاتل متمرس، وتستخدم في عملياتها الأسلحة الثقيلة والخفيفة والقنابل ومدافع المورتار والمتفجرات والصواريخ(١٢).

ج- البنية التنظيمية لجماعة لشكر طيبة

لشكر طيبة هو الجناح العسكري لمركز الدعوة والارشاد، والذي يركز على وظيفتي الوعظ والجهاد. والمركز هو مؤسسة دينية تأسست في عام ١٩٨٧ وأقامت مقرا لها في مدينة مردك التي تبعد ثلاثين ميلا عن لاهور. وقد مولت الجماعة في البداية بأموال عربية وباكستانية، إلا أنها استطاعت فيما بعد تطوير مصادر تمويلها الذاتية من خلال تأسيس عدد من مصانع الحديد والملابس. ويتبع المركز حوالي ثلاثين مدرسة، تضم خمسة آلاف طالب. ولا يصبح هؤلاء أعضاء تلقائيين في جماعة لشكر طيبة ،ولكن فقط أولئك الذين يرغبون في الحصول على تدريب عسكري في باكستان وأفغانستان. وبعد فترة التدريب التي تشتمل على حرب العصابات ،واستخدام السلاح يتم تغيير اسم المتدرب إلى اسم بطل أسطوري. وبالرغم من أن أعضاء هذه الجماعة يأتي اغلبهم من مدارس الدعوة ومن باكستان فان هناك من يأتي من منظمات أخرى. وبالرغم من اعتماد الجماعة في المراحل الأولى على المخابرات الباكستانية إلا أنها استطاعت في مراحل تالية توفير و تعبئة مصادرها المستقلة للدخل. وتنشط عناصر الحركة في وادي كشمير وبونش وراجاورى ودودا (١٣) .

Abu Nour www.alkottob.com

٢ - الإطار التنظيمي الشامل لحركة المجاهدين

اتجهت تلك المنظمات إلى إنشاء مظلة واحدة تعمل تحت رايتها ،فعلى المستوى السياسى اتحد اثنان وثلاثون حزبا وتنظيماً سياسياً فى منظمة واحدة تسمى "حزب اتحاد المجاهدين" برئاسة محمد صلاح الدين، ترفع راية الجهاد كطريق أوحد لتسوية المسألة الكشميرية وفقا لقرارات الأمم المتحدة. ومن أهم المنظمات التى انضمت إلى هذا الحزب: الجبهة الإسلامية الموحدة ،والجماعة الإسلامية الكشميرية ،وحليشيا آل عمر ،كما اتحدت المنظمات الجهادية العسكرية فيما يعرف باسم "المجلس الموحد لمجاهدى كشمير" بزعامة سيد صلاح الدين أمير حزب المجاهدين(١٤)

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن حزب اتحاد المجاهدين والمجلس الموحد لمجاهدى كشمير يختلفان عن مؤتمر جميع أحزاب التحرير الكشميرية الذى يتزعمه سيد على جيلانى والذى يمثل ائتلاف حزبى يضم الجماعة الإسلامية ومؤتمر الشعب الكشميرى ،وجبهة تحرير جامو وكشمير ،ومجلس اتحاد المسلمين ولجنة العمل الكشميرية ،حيث يضم الأخير منظمات ليست إسلامية التوجه أيديولوجيا ،فى حين أن عضوية حزب اتحاد المجاهدين والمجلس الموحد لمجاهدى كشمير تقتصر على المنظمات الإسلامية التوجه.

من خلال التحليل السابق يمكن القول أن البنية التنظيمية لحركة المجاهدين فى كشمير قد أخذت بمفهوم التنظيم العنقودى التى سبق وأن أشرنا إليها، وهى فكرة تقوم على مركزية التخطيط ولامركزية التنفيذ والحركة. وتوضح بعض الدراسات التى أجريت على البنية التنظيمية لهذا النوع من الحركات وجود عدة مستويات لهيكلها التنظيمى كالقيادة ،ثم الخلايا العنقودية ،فأجهزة الدعم اللوجيستى التى تقوم بتقديم التسهيلات اللازمة لنشاط هذه الحركات (١٥).

وفى هذا الصدد ، تشير إحدى الدراسات الهندية إلى أنه توجد فى باكستان من ٨ إلى ١٠ آلاف مدرسة دينية مسجلة وبين ٤٠٠ ألف إلى ٥٠٠ ألف مدرسة غير مسجلة. ووفقاً لأحد التقارير الباكستانية، يقدر إجمالى الطلاب فى هذه المدارس بحوالى ١,٧ مليون، ويتم تمويل هذه المدارس عن طريق بعض الدول الإسلامية كالسعودية وليبيا وباكستان، ويمثل طلبة وخريجى هذه المدارس مصدر مهم للمتجندين فى تلك الجماعات والتنظيمات الإسلامية.

وتتم عملية التجنيد والتدريب بتلك الجماعات عبر ثلاث مراحل، حيث يتلقى المجند فى المرحلة الأولى التعليم الدينى والمبادئ الأولية لإطلاق النار واستخدام السلاح. أما فى المرحلة الثانية فيرسل المجند إلى أحد معسكرات التدريب، حيث يتلقى تدريباً حول استخدام المتفجرات والقنابل واستخدام وسائل الاتصال. وتشير بعض التقديرات إلى وجود حوالى ٩٠ معسكراً للتدريب فى باكستان وآزاد كشمير، يوجد ٣٠ معسكراً منها فى آزاد كشمير، حيث تقوم حركة المجاهدين بتوفير الملاجئ والملابس اللازمة لعمل مثل المعسكرات. ووفق التحليلات الهندية، تعتمد تلك المعسكرات على المخابرات الباكستانية فى توفير السلاح وأجهزة الاتصال والمتفجرات.

أما المرحلة الثالثة فيتم فيها فرز وانتقاء المجندين وتكليف بعض تلك العناصر بمهام دفاعية محددة بالقرب من خط السيطرة، أو القيام بعمليات هجومية داخل خط السيطرة فى شكل جماعات محدودة (٣-٤) أفراد(١٦).

ثالثاً: أيديولوجية حركة المجاهدين فى كشمير

كما سبق القول فإن حركة المجاهدين فى كشمير تضم عدة جماعات تتبنى الإسلام كمصدر لأيديولوجياتها، وأن هذه الجماعات وإن اختلفت فى بعض توجهاتها بصدد مستقبل كشمير ،الا انها قد اتفقت على الجهاد والكفاح المسلح كأداة رئيسية لتحرير كشمير من السيطرة الهندية.

Abu Nour www.alkottob.com

ومن ثم يمكن أن نقتصر فى دراسة حركة المجاهدين فى كشمير على الجماعة التى تطلق على نفسها "حركة المجاهدين"، خاصة وأن الهيكل التنظيمى لهذه الحركة ذاتها والجماعات الأخرى يأخذ شكل الهيكل العنقودى ، بنفسه بدوره الى عدة جماعات فرعية تطلق على نفسها اسماء مستمدة من التاريخ الإسلامى كجماعة البدر، والمدينة، وجيش محمد وغيرها، ومن ثم سوف نناقش فى هذا الجزء أهم الرؤى الأيديولوجية لأهم الجماعات التى تشكل معا حركة المجاهدين فى كشمير :

١ - أيديولوجية حزب المجاهدين

ينطلق حزب المجاهدين من مبدأ "الجهاد" كاستراتيجية أساسية لتحرير كشمير من الاحتلال الهندى. ويؤيد الحزب خيار الانضمام إلى باكستان عبر تطبيق قرارات الأمم المتحدة التى تؤكد على حق الشعب الكشميرى فى تقرير مصيره، ومن ثم فإنه لا يؤمن بمبدأ القومية الكشميرية لأنها فى نظره هى التى جرت كل الويلات على الشعب الكشميرى. كما يؤمن الحزب بأن الأقليات غير الإسلامية الموجودة فى كشمير لها حق تقرير مصيرها فى الانضمام إلى الهند أو الى باكستان، رافضا فكرة اضطهاد الأقليات على أساس اختلاف الأديان، كما و لا يحيذ الحزب فكرة التدخل فى الشئون الداخلية للأقليات غير الإسلامية عدا الذين يثبت أنهم عملاء الهند(١٧).

ويشير أحد الباحثين الهنود إلى أن أيديولوجية الحزب هى أيديولوجية الجماعة الإسلامية فى كشمير وباكستان ، وأن معظم كوادر الحزب تنتمى إلى جامو وكشمير، وأن الحزب يدافع عن اندماج كشمير فى باكستان وأسلمة كشمير (١٨). ويضيف أنه بسبب اقترابه من الجماعة الإسلامية فإنه لم يساند نفرة طالبان داخل باكستان لان الجماعة الإسلامية الباكستانية كانت تساند حكمتيار الذى كان يقاتل طالبان فى أفغانستان. كما يضيف الباحث نفسه أن الحزب بعيد عن تأثير المخابرات الباكستانية فى المرحلة الحالية حيث يتلقى التوجيهات والأفكار من خوزى حسين أحمد، أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان(١٩).

٢ - أيديولوجية حركة المجاهدين

تقوم أيديولوجية حركة المجاهدين - وفق وثائق الحركة - على العناصر التالية:

- حركة المجاهدين هى منظمة جهادية هدفها هو التوعية بحقيقة الجهاد من خلال العمل على إزالة الشكوك والتشويش المثار حول هذا المفهوم.

- أن الأمة الإسلامية قد فقدت عظمتها وتميزها واحترامها فى العالم، وأن جهود البهود وتنظيم القاعدة والهندوس قد تضافرت من أجل جعل الجهاد عملا من أعمال الإرهاب و الرعب، والحقيقة أن عدم اجماع المسلمين على الجهاد هو السبب الأساسى لما آل اليه حال المسلمين .

- أن حركة المجاهدين تسعى إلى التمييز بين الإرهاب والجهاد، إذ يقوم الإرهاب على القتل بدون تمييز، وهو ما يدينه الجهاد ويحظره، لأن الجهاد هو مواجهة السلاح بالسلاح، ومن ثم فإن الجهاد يحظر القتل دون تمييز، كما أن الجهاد يضمن الأمان للنساء و الشباب والأطفال وغير المسلمين من الناس دون تمييز بغض النظر عن العقيدة أو الجنس أو الطائفة، فضلاً عن أن الجهاد يؤكد على الحقوق الشخصية والعقيدية لغير المسلمين طالما لم يعتدوا على المسلمين.

- إن الجهاد هو رمز للسلام والأزدهار والرخاء، والعدالة والتقدم، وأداة قوية لانتشار الإسلام. ولتحقيق هذه الأهداف فإن الجهاد يدافع بقوة عن ضرورة الارتباط بالتكنولوجيا الحديثة، وإعداد الجيوش وتقديم المساعدة للمقهورين وفقا لما جاء بالقرآن الكريم. وأن الجماعة تدعو العالم إلى عدم الانخداع بالدعاية الموجهة ضد الإسلام والمجاهدين.

Abu Nour www.alkottob.com

- أن تاريخ أوروبا وأفريقيا وجنوب شرق آسيا يجب أن يبقى كعامل مرشد وعين مفتوحة تجاه مروجي الدعايات الموجهة ضد المجاهدين، فهذا التاريخ يوضح أن غير المسلمين فضلوا العيش تحت قوانين الإسلام، عندما احتل المجاهدون المسلمون أقاليمهم، لذلك فان حركة المجاهدين قررت تحرير الإنسانية المقهورة في العالم والقضاء على التمييز والظلم والإرهاب والكفر أيا كان مصدره (٢٠).

وتعكس العناصر السابقة أن أيديولوجية حركة المجاهدين تدور حول أهمية الجهاد بوصفه أحد المفاهيم المحورية في الإسلام، كما تربط الحركة بين التمسك بمفهوم الجهاد والحفاظ على المكانة الدولية المهمة للإسلام والمسلمين. كما تميز الحركة بوضوح بين مفهومي الإرهاب والجهاد باعتبار أن الأول يقوم على القتل بدون تمييز أو ضوابط بينما يقوم مفهوم الجهاد على مواجهة السلاح بالسلاح وفق ضوابط محددة. ومن ناحية أخرى، تؤكد الحركة على عدم التناقض بين الجهاد والتقدم العلمي والتكنولوجي، وتؤكد في هذا السياق على أن الجهاد يقتضي الارتباط بالتقدم العلمي والتكنولوجي. وأخيراً تؤكد الحركة على أن الجهاد رسالة إنسانية بالأساس تسعى إلى تحرير المقهورين والقضاء على التمييز والظلم والكفر. كما تربط الحركة بين الجهاد وانتشار الإسلام. ومن اللافت للنظر أن الحركة تنفي صلتها بتنظيم القاعدة استناداً إلى مخالفه مع "أعداء الإسلام" مما أدى بدوره إلى تشويه مبدأ الجهاد.

وتشير المصادر الهندية إلى أن حركة المجاهدين هي حركة سنية، وأن أفكارها قريبة من الفكر الوهابي، وأنها تنطلق من تفسيرات متشددة للإسلام، فضلاً عن رفضها لمبادئ التعددية والديموقراطية وحقوق الإنسان والمساواة بين الرجل والمرأة باعتبارها أفكاراً ناتجة عن التأثير الفاسد للغرب في المجتمعات الإسلامية. ووفق المصدر ذاته، فإن الحركة تنطلق من رسالة إنسانية عالمية(٢١).

والواقع أنه لا توجد وثائق أو معلومات خاصة بحركة المجاهدين توضح موقفها من التعددية السياسية والحكم البرلماني وقضية المرأة، إلا أن توافقها مع حكومة طالبان أثناء حكمها لأفغانستان وما ذكرته إحدى وثائقها بأن طالبان أقامت الحكم الإسلامي.(٢٢)، ربما يكون مؤشرا على موقفها بصدد هذه القضايا، إلا أنه لا يمكن الاستناد الى هذا الاستنتاج وحده كأساس للتعرف على رؤيتها بصدد هذه القضايا.

٣ - أيديولوجية جماعة لشكر طيبة

تقترب أيديولوجية لشكر طيبة من أيديولوجية حركة المجاهدين من حيث أن هدفها لا يتوقف على استقلال كشمير وإنما يمتد الى إقامة الجامعة الإسلامية، وإقامة دولة الخلافة الإسلامية من الجزائر إلى الفلبين .(٢٣)، وهي كما سبق أن أشرنا الجناح العسكري لجماعة الدعوة والإرشاد ومن ثم تنطلق أيديولوجيتها من أيديولوجية الدعوة والإرشاد، والتي تجعل من الدعوة الإسلامية هدفها والجهاد وسيلتها .

وهكذا، يمكن القول أن هناك اتفاقا أيديولوجيا فيما بين الجماعات السابقة حول مبدأ الجهاد كأداة رئيسة لتحرير كشمير، وإن كانت تختلف فيما بينها فيما يتعلق بالهدف النهائي من تحرير كشمير، فبينما يرى حزب المجاهدين أن الهدف النهائي هو إقامة دولة إسلامية مستقلة في كشمير، ترى حركة المجاهدين وغيرها أن إقامة الدولة الإسلامية في كشمير هو المقدمة لإحياء دولة الخلافة الإسلامية في العالم .

Abu Nour www.alkottob.com

رابعاً: تأثير أحداث سبتمبر ٢٠٠١ على حركة المجاهدين فى كشمير

فرضت أحداث سبتمبر ٢٠٠١ قيوداً شديدة على قرص عمل حركة المجاهدين فى كشمير من خلال ما أفرزته تلك الأحداث من تحولات مهمة فى البيئة الأمنية الدولية بشكل عام، ومنطقة جنوبى آسيا بشكل خاص، خاصة بعد انضمام باكستان إلى التحالف الدولى ضد الإرهاب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والدعم الباكستانى للحرب الأمريكية فى أفغانستان والإطاحة بنظام طالبان وتفكيك تنظيم القاعدة، وهى التطورات التى أدت إلى خلق واقع استراتيجى جديد فى منطقة جنوبى آسيا. وقد ضاعف من الآثار السلبية لتلك التطورات الضغوط الشديدة التى تعرض لها نظام برويز مشرف فى باكستان من أجل إعادة هيكلة نظام التعليم وتحجيم دور الجماعات والتنظيمات الإسلامية بشكل عام، والجهادية بشكل خاص، بالإضافة إلى مجموعة الالتزامات الدولية فى مجال مكافحة الإرهاب التى أقرتها الأمم المتحدة، خاصة القرار رقم (١٣٧٣). والأهم من ذلك هو تجاهل الخطاب السياسى الأمريكى وقرارات مجلس الأمن أهمية التمييز بين الإرهاب وأعمال المقاومة المشروعة ضد الاحتلال. وقد وجدت الهند فى تلك التطورات فرصة مهمة لممارسة المزيد من الضغوط على الحكومة الباكستانية واضعاف الموقف الباكستانى فى إدارة الصراع حول كشمير.

وفى هذا الإطار، اضطرت الحكومة الباكستانية إلى التجاوب مع الضغوط الأمريكية والدولية لاتخاذ بعض الإجراءات ضد الجماعات والحركات الإسلامية سواء الباكستانية أو الكشميرية. وبالفعل اتخذت السلطات الباكستانية إجراءات أمنية مهمة ضد قادة هذه الجماعات. ثم جاء خطاب الرئيس الباكستانى برويز مشرف فى الثانى عشر من يناير ٢٠٠٢ ليؤكد هذا التوجه الجديد، وليعيد صياغة الموقف الباكستانى من القوى الإسلامية المساندة لحركة المجاهدين فى كشمير. فقد اتهم برويز هذه القوى بإثارة العنف الطائفى فى باكستان وبتضليل الآلاف من الباكستانيين وتوريطهم فى أفغانستان. كما هاجم المدارس الدينية واتهمها بتخريج وإنتاج أنصاف المثقفين من رجال الدين ونشر التفكير السلبى والكراهية والعنف. كما أعاد الخطاب تعريف الجهاد فى الإسلام رافضاً قصره على الجهاد العسكرى مؤكداً أهمية الجهاد ضد الأمية والفقر والتخلف والجوع باعتباره "الجهاد الأكبر" الذى تحتاج إليه باكستان. فضلاً عن تأكيده أن باكستان ليست مسئولة عن القيام بمسئولية الجهاد المسلح فى العالم.

وفيما يتعلق بكشمير أكد مشرف: "لا يمكن لأى باكستانى أن يتخلى عن قضية كشمير، وسنستمر فى تقديم الدعم المعنوى والسياسى والدبلوماسى للكشميريين ولن نحيد بوصلة واحدة عن موقفنا المبدئى من قضية كشمير، ينبغى التوصل إلى تسوية لقضية كشمير بالطرق السلمية وبموجب رغبات الشعب الكشميرى وقرارات الأمم المتحدة، ينبغى علينا التوصل إلى حل لتلك المشكلة، ولن نسمح لأى منظمة أن تتورط فى أعمال إرهاب باسم كشمير. نحن ندين أحداث ١١ سبتمبر وأحداث الأول من أكتوبر و١٣ ديسمبر. وسنعاقب بشدة كل فرد يتورط بأعمال إرهاب، وسنتخذ عقوبات صارمة ضد أى فرد أو مجموعة أو منظمة باكستانية فتكشف تورطها فى أعمال الإرهاب فى بلادنا أو خارجها. إن سلوكنا ينبغى أن يكون دائما منسجما مع الأعراف الدولية (٢٤).

وقد مارست الهند ضغوطاً شديدة على باكستان من خلال حشد القوات العسكرية على الخط الفاصل فى كشمير وعلى خط الحدود مع باكستان وهددت بشن حرب وقائية ضد "الإرهاب" من خلال الهجوم المباشر على ما اسمته قواعد الإرهاب والتنظيمات الإرهابية، وقد ردت باكستان بحشود مماثلة، الأمر الذى بات يهدد بالدلاع حرب بين الدولتين، وهو ما دفع الولايات المتحدة للتدخل لنزع فتيل الأزمة، والضغط على باكستان من أجل منع تسلل المقاتلين الكشميريين عبر خط السيطرة، اضطر بعدها مشرف إلى الإعلان عن مجموعة من الإجراءات الجديدة لمنع التسلل عبر خط السيطرة (٢٥).

وهكذا، تفاعلت العوامل الدولية مع الأوضاع الإقليمية لتفرز واقعا جديدا يحيط بالقضية الكشميرية. وعلى المستوى الداخلى، أتاحت الظروف الدولية للقوات الهندية الفرصة لاتخاذ المزيد من الاجراءات الأمنية

Abu Nour www.alkottob.com

الشديدة بدعوى مكافحة الإرهاب، خاصة مع وقوع الهجمات ضد البرلمان المحلى فى كشمير (الواقعة تحت السيطرة الهندية) ثم مقر البرلمان الهندى فى أواخر عام ٢٠٠١ . ومن ناحية أخرى، أدت الظروف التى تعرض لها اعضاء ميلشيات طالبان فى أفغانستان إلى هروب بعض أفراد تلك الميلشيات إلى كشمير، الأمر الذى أدى الى بروز متغير جديد على الساحة المحلية فى كشمير. من ناحية ثالثة أعلنت الهند عن اعتزامها اجراء انتخابات برلمانية فى كشمير التابعة للهند لانتخاب برلمان جديد وتشكيل حكومة جديدة، وهو الأمر الذى رفضته معظم الجماعات الجهادية بالإضافة إلى جبهة تحرير كشمير العلمانية، وإن كانت بعض الأحزاب فى كشمير قد أعلنت مشاركتها فى الانتخابات، وهو ما فرض متغيرا جديدا على الساحة الكشميرية كان له أثره الواضح على نشاط حركة المجاهدين فى كشمير، خاصة أن حزب المجاهدين كان قد طرح مبادرة للتفاوض مع الهند، تضمنت وقفه لعملياته لفترة محددة (٣٦) .

ومن ثم، يمكن القول أن حركة المجاهدين فى كشمير بفصائلها المختلفة قد واجهت ظروفا صعبة ومعقدة على الصعيد الدولى والإقليمى والمحلى، فعلى المستوى الدولى تم إدراجها ضمن المنظمات الإرهابية، وتم تجفيف مصادر التمويل الخارجى التى كانت تلعب دورا مهما فى تمويل نشاط الحركة، إضافة إلى أنها فقدت حليفا مهما كان يوفر لها قدرا من الدعم الفنى والبشرى والمادى تمثلا فى نظام طالبان فى أفغانستان الذى لقى هزيمة ساحقة على يد القوات الأمريكية، كما أن الحليف الاستراتيجى التقليدى المتمثل فى باكستان قد تعرض لضغوط شديدة لفك ارتباطه اللوجستى بها. أيضا على المستوى الداخلى كانت هناك العديد من المتغيرات التى فرضت المزيد من الضغوط على هذه الحركة وعلى أنشطتها ولو نسبيا.

خامسا: نشاط حركة المجاهدين فى كشمير: عام ٢٠٠٢ نموذجا

بداية لابد من الإشارة إلى عدد من الملاحظات المنهجية حول طريقة رصد أنشطة حركة المجاهدين فى كشمير خلال عام ٢٠٠٢ كنموذج لأنشطة الحركة.(٣٧)

١ . رصد الدليل نشاط حركة المجاهدين بفصائلها المختلفة وليس الفصيل أو الجماعة المسماة بحركة المجاهدين ،خاصة أن هذه الجماعة قد واجهت صعوبات بالغة بعد انهيار حليفها المتمثل فى نظام طالبان فى أفغانستان. كما استبعد من هذا النشاط نشاط جبهة تحرير كشمير ذات الاتجاه العلمانى ،بحكم اختلافها الأيديولوجى مع باقى الجماعات التى تكون حركة المجاهدين فى كشمير وفقا للمفهوم المستخدم فى هذا الدليل.

٢ . إن حركة المجاهدين بفصائلها المتعددة لم تدرج على الإعلان عن مسئوليتها عن العمليات التى تقوم بها إلا فى حالات نادرة، ومن ثم فإن المصدر الأساسى للمعلومات عن نشاط هذه الحركة هو السلطات والمصادر الهندية، التى درجت على المبالغة والتهويل فى بعض الحالات والتهوين أو التجاهل فى حالات أخرى، ومن ثم لم يكن هناك بديل سوى الاعتماد على المصادر الصحفية والإعلامية فى رصد الأنشطة التى قامت بها حركة المجاهدين، وتدقيق تلك العمليات والأنشطة من خلال المقارنة بين ما جاء فى تلك المصادر وما جاء فى المصادر الهندية للتأكد من وقوع بعض العمليات وحجمها ونتائجها .

٣ . إن الدليل لا يدعى رصد كافة الأنشطة التى قامت بها حركة المجاهدين فى كشمير خلال عام ٢٠٠٢ نظرا لعدم توافر المعلومات المؤكدة حول كافة هذه الأنشطة. وقد تم حصر هذه الأنشطة تبعا لنوعيتها والأطراف الموجهة لها وبمكان حدوثها بقدر ما توافر من معلومات اطمئن إليها الباحث .

٤ . حاول الدليل من خلال تحليل المعلومات المؤكدة المتاحة أن يقدم تحليلا لبعض الأنشطة، كعدد العمليات الموجهة للناشطين السياسيين من الأحزاب السياسية بكشمير (الخاضعة للهند) ،وعدد القتلى الذين أوردت سلطات الأمن الهندية بيانات بأسمائهم، بالإضافة إلى تحليل البيانات الواردة من جانب السلطات الهندية حول الأسلحة التى

Abu Nour www.alkottob.com

تم ضبطها من خلال المعارك التى وقعت مع حركة المجاهدين فى عام ٢٠٠٢ مقارنة بالسنوات السابقة خاصة سنة ٢٠٠١ ، بهدف تفهم الإمكانات المتاحة لهذه الحركة .

وفى هذا الإطار ، يمكن عرض أنشطة حركة المجاهدين فى كشمير من خلال المحاور الثلاث التالية:

١ - العمليات البارزة لحركة المجاهدين وفقا لتصنيفها .

٢ - أعداد القتلى من حركة المجاهدين وفقا للبيانات الصادرة عن السلطات الهندية.

٣ - كميات الأسلحة المضبوطة من خلال المعارك التى وقعت بين السلطات الهندية وحركة المجاهدين.

وقد اشتملت أنشطة حركة المجاهدين على مجموعة من العمليات يمكن تصنيفها على النحو التالى :

- محاولات التسلل عبر الخط الفاصل بين كشمير الحرة وكشمير الخاضعة للسيطرة الهندية.
- هجمات على معسكرات للجيش الهندى .
- هجمات على مركز لقوات الأمن الهندية .
- هجمات على معابد هندوسية .
- هجمات على قوافل ومعسكرات الحجاج الهندوس .
- هجمات على مراكز الاقتراع فى الانتخابات.
- هجمات على القرى والمنازل .
- محاولات للهجوم على مراكز الحكومة والبرلمان فى كشمير .
- محاولات للهجوم على مقار الأحزاب الكشميرية المشاركة فى الانتخابات .
- محاولات لاغتيال الساسة ورجال الحكومة والأحزاب والنشطاء السياسيين الهنود .
- هجمات على المتعاونين مع السلطات الهندية .
- زرع ألغام فى الطرق التى تسلكها سيارات الأمن والجيش الهندى .
- مواجهات فى الميادين مع قوات الأمن الهندية .
- هجمات على الرافضين لنشاط حركة المجاهدين .
- هجمات قروية.

وفيما يلى نقدم عرضا تحليليا لأهم هذه الأنشطة :

تحليل نشاط حركة المجهدين فى كمبر من خلال العمليات البارزة للحركة.

١- محاولات اختراق الحد الفاصل بين كشمير الحرة وكشمير الخاضعة للسيطرة الهندية.

جدول رقم (٨ - ١)

محاولات اختراق خط السيطرة بين كشمير الحرة وكشمير الخاضعة للسيطرة الهندية من جانب عناصر حركة المجاهدين فى كشمير خلال عام ٢٠٠٢

الشهر	يناير	مايو	يونيو	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	الإجمالى
عدد العمليات	٣	٢	١	٥	١	٢	١	١٥

يلاحظ من بيانات الجدول رقم (٨ -١) أن الفترة من فبراير إلى أبريل لم تسجل فيها أى عمليات اختراق، ويرجع ذلك إلى أنها الفترة التى شهدت تصعيدا عسكريا على الحدود بين الهند وباكستان مما جعل اختراق خط السيطرة مسألة شديدة التعقيد والحساسية، خاصة مع الالتزام الرسمى الباكستانى بمنع التسلل عبر هذا الخط من أجل تجنب وصول التصعيد العسكرى مع الهند الى المواجهة العسكرية الشاملة.

Abu Nour www.alkottob.com

أما شهر أغسطس فقد شهد أكبر عدد من محاولات اختراق خط السيطرة الأمر الذى ادى الى عودة التوتر على الحدود بين الهند وباكستان، ثم بدأت مرحلة من الهدوء النسبي ومن ثم سجل شهر سبتمبر حالة اختراق واحدة وسجل شهر أكتوبر حالتين، بينما سجل شهر نوفمبر محاولة واحدة .

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن المحاولات المذكورة هي المحاولات التى شهدت مواجهة بين المجاهدين والسلطات الهندية، ومن ثم فيمكن افتراض وجود محاولات أخرى ناجحة لاختراق خط السيطرة إلا انه لا توجد معلومات محددة حول تلك المحاولات .

٢- الهجوم على معسكرات للجيش الهندى فى كشمير:

شهد عام ٢٠٠٢ عدة محاولات للهجوم على معسكرات للجيش الهندى منها تسع محاولات مؤكدة يوضحها الجدول التالي.

جدول رقم (٨-٢)

محاولات الهجوم على معسكرات الجيش الهندى من جانب عناصر حركة المجاهدين

خلال عام ٢٠٠٢

الشهر	مايو	يونيو	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	الاجمالى
عدد العمليات	٢	١	٢	١	١	٢	٩

وجدير بالذكر أن هذا النمط من العمليات يمثل تحولا فى استراتيجية الحركة، بهدف الحصول على الأسلحة من هذه المعسكرات لإعادة استخدامها فى المواجهة مع الجيش الهندى وقوات الامن الهندية، وهو ما يمثل محاولة لتعويض مصادر السلح التى فقدتها الحركة .

٣- الهجوم على مراكز الشرطة الهندية :

جدول رقم (٨-٣)

العمليات المسجلة لهجوم عناصر حركة المجاهدين على مراكز الشرطة الهندية

من جانب حركة المجاهدين فى كشمير خلال عام ٢٠٠٢

الشهر	مايو	يونيو	أغسطس	سبتمبر	نوفمبر	الإجمالي
عدد العمليات	٢	١	٢	٢	٢	٩

ويأتى هذا النمط من العمليات فى نطاق التحول السابق الإشارة إليه بهدف إضعاف معنويات قوات الأمن الهندية وإرباكها ، وبالتالى إضعاف قدراتها على القيام بالمهام المكلفة بها ضد حركة المجاهدين ،كما أن الحصول على السلاح كان هدفا واضحا فى بعض هذه العمليات ،حيث أشارت بعض المصادر إلى سرقة بعض الأسلحة والذخائر من هذه المراكز.

٤ - استخدام الألغام ضد الجيش الهندي

فى إطار هجماتها على الجيش الهندى استخدمت حركة المجاهدين الألغام لتفجير بعض المركبات التابعة للجيش الهندى ،ومن أهم العمليات التي أمكن رصدها فى هذا الإطار: انفجار لغم فى سيارة للجيش الهندى فى ٢٣ أبريل على طريق سارينجار - جامو السريع وانفجار لغم فى سيارة للجيش الهندى فى باهيلجام جنوب شرقى سارينجار فى ٢٨ يونيو وانفجار لغم فى سيارة تابعة للإدارة العسكرية الهندية فى كشمير فى قرية كاشادورا فى

Abu Nour www.alkottob.com

١٣أغسطس ،كذلك انفجار لغم فى منطقة ترال على بعد ٤٠ كم من سارينجار أثناء مرور مجموعة من الجنود الهنود عليه نتج عنه مقتل خمسة جنود هنود.

وتعكس الأنشطة السابقة تنوع السياسات والأدوات المستخدمة من جانب حركة المجاهدين فى كشمير ضد الجيش الهندى ،الأمر الذى يعنى انه يمثل هدفا محوريا لعملياتها فى كشمير. غير أن المسئولين الهنود لم يعلنوا عن كل العمليات التى تعرض لها الجيش ،ومن ثم يمكن القول أن عدد العمليات المنفذة من قبل الحركة يتجاوز الأرقام المعلنة. وعلى سبيل المثال فقد أشار أحد التقارير الهندية أن عدد الألغام التى تم ضبطها فى كشمير قدرت بحوالى ١١٠ لغم أرضى ،إلا أن المقارنة مع عدد الألغام التى تم ضبطها فى سنوات ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١ والتى بلغت ٢٦٤، ٣٨٦، ٣٠٥ على التوالى، تبين انخفاض العدد المتاح من الألغام لقوات المجاهدين، وهو ما يمكن تفسيره فى ضوء عدد من العوامل، منها انخفاض العدد المتاح من الألغام لقوات حركة المجاهدين، أو ازدياد الحرص من جانب هذه القوات على ذخائرها نتيجة ضعف مصادر التعويض، أو انخفاض كفاءة القوات الهندية.

٥ ـ هجمات على المعابد الهندوسية وقوافل ومعسكرات الحجاج الهندوس

شهد عام ٢٠٠٢ تنفيذ عدد من العمليات ضد المعابد الهندوسية وقوافل ومعسكرات الحجاج الهندوس فى كشمير، كان أبرزها الهجوم ضد معبد راجوت (مارس، نوفمبر)، ومعبد باتشتكار (نوفمبر) والهجوم على قوافل الحجاج الهندوسى (أغسطس) والهجوم على معسكر للحجاج الهندوسى (نوفمبر)، وانفجار قنبلة على متن حافلة للحجاج الهندوسى (أكتوبر).

والواقع أن هذه الهجمات وغن كانت هجمات متكررة خلال الأعوام السابقة وفقا للمصادر الهندية، إلا أنها تحمل فى طياتها بعداً خطيراً فيما يتعلق بتوجهات حركة المجاهدين نحو أصحاب الديانات الأخرى، فالأصل هو أن الإسلام يحترم أصحاب هذه الديانات، كما أن الأيديولوجية المعلنة للحركة تشير إلى احترامها لأصحاب الديانات الأخرى بما فيهم الهندوس طالما أنهم لا يتخذون مواقف معادية ضد المسلمين. ويبدو أن القيام بهذه العمليات ضد المعابد الهندوسية والحجاج الهندوس يأتى رداً على ما تعرض له المسلمون من أعمال قتل وعنف فى بعض الولايات الهندية الأخرى، حيث تزامنت هذه العمليات تقريبا مع التوترات التى شهدتها بعض الولايات الهندية بين الهندوس والمسلمين، والتى ألحقت خسائر كبيرة بالأقليات المسلمة فى هذه الولايات. كما يمكن تفسير هذه الهجمات باعتبارها رداً على الموقف المتشدد الذى اتخذه المجلس الهندوسى العالمى تجاه تطورات الأوضاع فى كشمير، والذى نظم العديد من المظاهرات الحاشدة فى المدن الهندية للضغط على الحكومة الهندية للقيام بعمل عسكرى كبير ضد باكستان وفى كشمير على وجه التحديد. وأيا كان الدافع لهذه العمليات، فإنها برأى الباحث قد جاءت فى وقت غير مناسب، لأنها قدمت لوسائل الإعلام الهندية وللسياسة الهندية الفرصة المواتية لزيادة حملتها الدولية على المقاتلين فى كشمير والتأكيد على أنهم مجرد منظمات إرهابية.

٦ـ الأنشطة المتعلقة بالانتخابات الكشميرية

يقوم موقف الحركة على معارض إجراء أية انتخابات هندية فى القسم الواقع تحت السيطرة الهندية، بدعوى أن الهدف الهندى الرئيسى من تلك الانتخابات هو محاولة احتواء القضية الكشميرية وترسيخ شرعية وجودها فى كشمير. وفى هذا الإطار، عارضت الحركة بشدة الانتخابات البرلمانية التى أجريت فى سبتمبر ٢٠٠٢، كما سعت إلى إفساد هذه الانتخابات من خلال القيام بعدد من العمليات بهدف تعطيلها أو معاقبة المشاركين فيها من أبناء الشعب الكشميرى فى هذا الإقليم.

ومن ثم فقد شهدت الفترة من شهر يونيو وحتى شهر نوفمبر (٢٠٠٢) العديد من الأنشطة شملت:

- الهجوم المباشر على الحملات الانتخابية.
- الهجوم على مقار الأحزاب المشاركة فى الانتخابات، فقد تعرض المركز الرئيسى لحزب المؤتمر الهندى لهجوم فى

Abu Nour www.alkottob.com

سرينجار، كما تعرض مقر حزب المؤتمر الوطني في ذات المدينة لهجوم مماثل (٢٠٠٣/٩/١٧).

- تهجوم على منازل ومقار بعض الناشطين السياسيين الحزبيين ومحاولة اغتيال بعض الشخصيات الحزبية والوزارية التابعة في حكومة كشمير خاصة المرشحين في الانتخابات.

- التهجوم على مراكز الاقتراع كما حدث في بونش، وراجوري، وهيرا نجار، وردوا، وسارينجار، وجامو، وبعض المراكز الأخرى في المناطق الثلجية.

ويوضح الجدول رقم (٨-٤) عدد العمليات الموجهة إلى الناشطين السياسيين في الأحزاب السياسية بكشمير الخاضعة للهند

جدول رقم (٨-٤)

عمليات حركة الجهاد في كشمير الموجهة إلى الناشطين السياسيين الحزبيين في الإقليم الكشميري الواقع تحت السيطرة الهندية خلال عام ٢٠٠٢

معارضون للانضمام	حزب المؤتمر الهندي	حزب الشعب الديموقراطي	حزب المؤتمر الوطني
٣	١	١	٢

نلاحظ أن حوالي ٤٠٪ من هذه العمليات قد جرت خلال الفترة من يوليو إلى سبتمبر ٢٠٠٢، حين انصب اهتمام الحركة على التهديدات لإجراء الانتخابات البرلمانية. مما يعني أن الهدف الرئيسي لتلك العمليات هو تقليل فرص المشاركة على الناشطين السياسيين لمنعهم من المشاركة في هذه الانتخابات. وقد نال حزب المؤتمر الوطني الحاكم أكبر عدد من هذه العمليات كما هو موضح بالجدول السابق، والتي طالت عدداً من قيادات الحزب على مختلف المستويات.

٧- قتال المدن:

كانت المعارك التي خاضتها مقاتلو حركة المجاهدين ضد قوات الأمن الهندية من أبرز أنشطة الحركة خلال عام ٢٠٠٢، ويوضح الجدول رقم (٨-٥) هم هذه المعارك ومواقع تنفيذها. وقد تم استبعاد المعارك التي وقعت في نطاق بعض المدن والتي كانت موجهة في الأساس لاعاقة إجراء الانتخابات، باعتبار أنه قد تبين الإشارة إليها. كما تم اعتمادنا في تحديدها على الأسلوب الذي اتبعه المقاتلون وهو تبادل إطلاق النار مع قوات الأمن الهندية مباشرة ولمدة طويلة نسبياً وصلت في بعض الحالات إلى أكثر عشر ساعات.

جدول رقم (٨-٥)

عمليات قتال المدن التي قامت بها حركة المجاهدين في كشمير ضد قوات الأمن الهندية خلال عام ٢٠٠٢

الشهر	مارس	يونيو	يوليو	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
عدد العمليات	١	١	٣	٢	٣	٢	١	١

ويلاحظ على تلك المعارك:

- أنها تقوم على المواجهة المباشرة بين المقاتلين من حركة المجاهدين وقوات الأمن الهندية، وعادة ما كانت تقع في المباني الرئيسية بالمدن. ولا شك أن أهداف السياسي من هذه العمليات قد تمثل في الاعلان المباشر والواضح عن استمرار نشاط الحركة رغم كل الضغوط والصعوبات التي تواجهها، والمتغيرات الجديدة التي تضع حدوداً لنشاطها.

- وعلى مستوى آخر هدفت تلك العمليات إلى إستنزاف معنويات قوات الأمن الهندي وإثناءكم على عدة قدرا

Abu Nour www.alkottob.com

قوات الأمن الهندية على الحفاظ على الأمن حتى في المدن الرئيسية التي تتمتع بمواجد أمنية كبير.

- كذلك تحمل هذه الهجومات رسالة رد واضحة من جانب قوات حركة المجاهدين على الانتهاكات الجسيمة التي ترتكبها قوات الأمن الهندية في حق أبناء الشعب الكشميري، وهي انتهاكات سجلتها منظمات وجمعيات حقوق الإنسان الدولية المحايدة، وجماعات حقوق الإنسان الهندية.

- إن هذه المعارك والتي تقع داخل كشمير أو بعيدا عن الخط الفاصل بين كشمير الهندية وكشمير الحرة، توضح أن القضية الكشميرية وإن كانت تتداخل مع العلاقات الباكستانية الهندية في بعض الجوانب إلا أنها تتمتع بقدر من التمايز والاستقلالية عن هذه العلاقات.

- تركزت هذه المعارك في مدينة سارينجار الحساسة الصيفية لكشمير وهي مركز ثقل مهم في نظام ولاية كشمير، الأمر الذي يعطي لهذه المعارك صدى واسع في مختلف أنحاء الولاية.

٨- قتال القرى

شهدت بعض القرى الكشميرية عددا من العمليات العسكرية من جانب حركة المجاهدين. ووفقا للمعلومات المتاحة يمكن تصنيف هذه العمليات على النحو التالي:

أ- مواجهات مع عناصر من قوات الأمن الهندية.

ب- الهجوم على منازل في بعض القرى التي رفض أبناؤها المشاركة في تقديم المساعدة للمقاتلين.

ج- الهجوم على بعض المنشآت في القرى ومحاولة الاحتماء بها كالمساجد والمدارس.

وإن كان النوع الأول من هذه العمليات قد وقع في مطلع عام ٢٠٠٢ إلا أن النوعين الأخيرين قد ظهرا بدءا من شهر أغسطس، خاصة في قرى دودانيان، ومنتيا كوت، وجان وبذ، ودودا سان، وأد هاليور، وكلها في منطقة جامو. والملاحظ أن معظم سكان هذه القرى من المسلمين، الأمر الذي يثير التساؤل حول الأسباب التي أدت إلى قيام مقاتلي حركة المجاهدين بهذه العمليات. وقد رأى بعض المحللين أن هذه الهجمات قد عادت إلى الأسباب التالية:

- دخول عدد كبير من المقاتلين الأفغان إلى كشمير الأمر الذي دفع السكان إلى عدم تقديم الدعم والمساعدة لهم بوصفهم غرباء.

- رفض بعض سكان القرى الانخراط في أعمال العنف.

- حاجة بعض المقاتلين إلى بعض الاحتياجات الأساسية كالطعام والمال، الأمر الذي دفعهم إلى القيام بمثل هذه العمليات، خاصة مع ضعف مصادر تمويل مناضليهم.

ومن ثم فمثل هذا النوع من العمليات يمثل تحولا سلبيا في نشاط بعض فصائل حركة المجاهدين، ويمكن أن تنتج عنه بعض التداعيات السلبية على أنشطة الحركة، خاصة افتقادها التعاطف الشعبي اللازم. لهذا النشاط، وتوفير ذريعة جيدة لاستخدام تلك العمليات من جانب السلطات الهندية لتشويه صورة الحركة على المستوى الإعلامي الداخلي والخارجي لتشويه حركة المجاهدين.

٩- الإضراب العام

شهدت كشمير ثلاثة إضرابات عامة غطت جميع أنحاء الجزء الخاضع من كشمير للهند، وجاءت كلها بناء على دعوة من حركة المجاهدين لإثبات الشعب الكشميري أدت إلى حدوث حالة من الشلل التام في عدد من المدن والمناطق الكشميرية في كشمير. وهذه الإضرابات العامة الثلاثة هي:

- إضراب عام في يوم الشهيد في ٢٠٠٢/٧/١٣.

- إضراب عام لمقاطعة الانتخابات التي أجرتها السلطات الهندية. وقد اختلف موعد هذا الإضراب من منطقة لأخرى تبعا لمراحل إجراء الانتخابات خلال الفترة أكتوبر - نوفمبر ٢٠٠٢.

- إضراب عام في ٢٠٠٢/١٢/١٩ استجابة لدعوة حركة المجاهدين بعد صدور حكم بإعدام ثلاثة من الكشميريين الذين اتهمتهم السلطات الهندية بالاشتراك في حادث الاعتداء على البرلمان الهندي بنيودلهي في ديسمبر ٢٠٠١.

والملاحظ أن أداة الإضراب العام وإن كانت أداة غير حسمة في الأساس، إلا أنه كان لها بعض التداعيات

Abu Nour www.alkottob.com

السلبية في بعض المحافظات شمال وشمال شرق أفغانستان، حيث تسيطر حركة طالبان على ما يقرب من ٧٠٪ من مساحة هذه المحافظات، وتعاونهم، بالإضافة إلى دخول الحركة في مواجهات مع قوات الأمن الباكستانية التي سعت إلى فك هذا الارتباط.

عدد القتلى من حركة المجاهدين في جامو وكشمير خلال عام ٢٠٠٢

بلغ عدد قتلى من المجاهدين في جامو وكشمير خلال عام ٢٠٠٢ وفقاً للمصادر الهندية ٥١٥ قتيلاً منهم ٩٠ من الأجانب بنسبة ٦١٪ من إجمالي القتلى بانخفاض سبعة ٣٥٪ عن عام ٢٠٠١ الذي شهد مقتل ٢٠٢ قتيلاً. إلا أن نسبة الأجانب من القتلى قد زادت زيادة حقيقية من ٥٨,٨٪ عام ٢٠٠١ إلى ٦١٪ عام ٢٠٠٢. والملاحظ على الأرقام التي أوردتها المصادر الهندية أنظر جدول رقم ١٦، أن عدد القتلى كان أقل من عام ٢٠٠٠، إلا أنه أعلى من الأرقام الواردة عن السنوات من ١٩٩٠ وحتى ١٩٩٩. كما يلاحظ على هذه الأرقام انخفاض المستمر لأعداد القتلى من الأجانب وفقاً لهذه المصادر، إذ تشهد تسعينيه تصاعداً مستمراً، المقصود بالأجانب هنا هم الباكستانيين والأفغان وغيرهم من المقاتلين من الدول الإسلامية الأخرى.

ويمكن تفسير انخفاض عدد القتلى في عام ٢٠٠٢ مقارنة بعام ٢٠٠١ استناداً إلى عدة احتمالات. منها انخفاض عدد العمليات أو تطور كفاءة المقاتلين من حركة المجاهدين في التعامل مع قوات الأمن الهندية. أو انخفاض كفاءة القوات الهندية. والأرجح عندنا أن الاحتمال الأقرب لتفسير هذه الظاهرة هو انخفاض عدد محاولات تسلل المجاهدين خلال شهور الفترة محل البحث بفعل الضغوط الدولية والإقليمية الشديدة على القوى المساندة لحركة المجاهدين وبصفة عامة، تفسر بيانات الجدول رقم (١٦) إلى حد ما الملاحظات المهمة:

- أن الانخفاض العام لأعداد القتلى من المجاهدين في الفترة من ١٩٩٩ - ٢٠٠٢، هو الملاحظ نحو التصاعد في الأساس، الأمر الذي يعكس الازدياد المستمر في العمليات التي يقوم بها المجاهدين في كشمير ضد القوات الهندية.
- أن أكثر السنوات تصاعداً منذ عام ٢٠٠٠ وحتى كشمير ٢٠٠٢، هي عام ٢٠٠١، الذي شهد ارتفاعاً قدره ٣٠٢ قتيلاً بارتفاع قدرة ٢٥٪ عن عام ٢٠٠٠.
- إن عام ٢٠٠٢ قد شهد انخفاضاً في عدد القتلى بنسبة ٢٥٪ تقريباً من أعداد القتلى في عام ٢٠٠١.
- تصاعد المستمر لأعداد القتلى من حركة المجاهدين الأجانب حتى وصلت نسبة هؤلاء في عام ٢٠٠٢ إلى ٦١٪ من إجمالي القتلى.

جدول رقم (٨- ٦)

عدد القتلى من حركة المجاهدين في جامو وكشمير حتى ٣١ أكتوبر ٢٠٠٢

السنة	إجمالي عدد المقاتلين الذين قتلتهم قوات الأمن الهندية	عدد القتلى الأجانب الذين قتلتهم قوات الأمن الهندية	نسبة القتلى الأجانب
١٩٩٠	٣٠٠	...	...
١٩٩١	٣٠٠	...	...
١٩٩٢	١٩٢٧	...	...
١٩٩٣	١٠٠٠	...	...
١٩٩٤	٨٠٠	...	...
١٩٩٥	١٠٧٥	...	...
١٩٩٦	١٠٠٠	...	...
١٩٩٧	٨٠٣	...	...
١٩٩٨	١٣٣٠	...	...
١٩٩٩	١٣٠٠	٢٠٠	١٥٪
٢٠٠٠	٥١٠	٢٠٠	٣٩٪
٢٠٠١	٨٤٤	٥٠٠	٥٩٪
٢٠٠٢	٥١٥	٣١٠	٦١٪
الإجمالي	١٥٠٧٦	٤٥٣٦	...

Abu Nour www.alkottob.com

من ناحية أخرى أوردت سلطات الأمن الهندية قائمة ببعض أسماء القتلى من الباكستانيين خلال عام ٢٠٠٢ تبعا للمنظمات التي ينتمون إليها، ويوضح الجدول رقم (٨-٧) توزيع هؤلاء القتلى.

جدول رقم (٨-٧)

توزيع القتلى الباكستانيين وفقاً لانتمائهم السياسية، خلال عام ٢٠٠٢

المنظمة	لشكر طيبة	جيش محمد	البدر	حركة المجاهدين	حزب المجاهدين	غير معروف
العدد	٣٠	١٥	٥	٣	١	٤٥

من الواضح من خلال البيانات الواردة في الجدول السابق أن أكبر عدد من القتلى هو من منظمة لشكر طيبة ثم جيش محمد، في حين جاء حزب المجاهدين في الترتيب الأخير. ولا يمكن القول من خلال هذه البيانات أن منظمة معينة أو فصلاً معيناً من المنفصائل التي تكون حركة المجاهدين هو الأكثر نشاطاً، نظراً لأن عدد القتلى الذين لم يتم تحديدهم من حيث الانتماء لمنظمة معينة يصل إلى ٤٣ قتيلاً وهو يقترب من إجمالي العدد الذي تحدد انتماؤه وهو ٤٥ قتيلاً، إلا أن هذا التصنيف يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه في موضع سابق حول طبيعة بناء الهيكلي لحركة المجاهدين الأقرب إلى التنظيم العنقودي الذي يتكون من عدة جماعات منفصلة عن بعضها البعض، وتتمتع بقدر كبير من حرية الحركة في إطار تحقيق أهداف معينة.

تحليل نشاط حركة المجاهدين من خلال الأسلحة والذخائر التي تم ضبطها من جانب السلطات الهندية

يوضح الجدول رقم (٨-٨) كميات الأسلحة وأنواعها التي قامت قوات الأمن الهندية بضبطها في جامو وكشمير خلال السنوات من ١٩٩٠ إلى أكتوبر ٢٠٠٢. ويشير فحصاً يلي إلى بعض الملاحظات التي يمكن استخلاصها من البيانات الواردة في الجدول:

١ - تنوع الأسلحة التي يستخدمها حركة المجاهدين في كشمير إذ تشمل بنادق هجومية، ثم عدد الطلاق مدفعية، قاذفة صواريخ، بنادق قنص، مدافع مورتار، مسدسات، أجهزة لاسلكي، قنابل يدوية، ذخائر متنوعة، ألغام مضادة للأفراد والعربات، مدفع مضاد للطائرات، قاذفات لهب، ألغام ومتفجرات منفجرة. وهذا التنوع في الأسلحة يرجع إلى تنوع العمليات التي تقوم بها، إلى مدى توافر مصادر التمويل والتسليح.

٢ - أن الاتجاه العام للكميات المضبوطة من الأسلحة خلال الفترة من ١٩٩٠ حتى عام ٢٠٠١ هو الاتجاه نحو التصاعد المستمر للكميات المضبوطة من معظم أنواع الأسلحة الشرجة في الجدول، وهو ما قد يعود إلى أحد أمرين الأول هو زيادة كفاءة قوات الأمن الهندية في ضبط الأسلحة، والثاني هو زيادة الأسلحة المتاحة لقوات المجاهدين، أو للأمرين معاً.

٣ - أن مقارنة بيانات عامي ٢٠٠١، ٢٠٠٢ تكشف أن الاتجاه العام هو انخفاض كميات الأسلحة المضبوطة من كافة الأنواع، وبنسب مرتفعة، تصل في بعض الأنواع إلى ما يزيد عن ٥٠٪ مما تم ضبطه عام ٢٠٠١، وهو ما يمكن تفسيره بانخفاض كميات الأسلحة التي حصلت عليها قوات المجاهدين خلال عام ٢٠٠٢، أو بازدياد حرصها على الاحتفاظ بهذه الأسلحة نظراً لصعوبة تعويضها، أو انخفاض عدد العمليات، حيث أن ضبط هذه الأسلحة عادة ما يتم في أعقاب المواجهات التي تقع بين المجاهدين وقوات الأمن الهندية.

Abu Nour www.alkottob.com

جدول رقم (٨-٨)

الاسلحة التى تم ضبطها فى جامو وكشمير فى ٣١ أكتوبر ٢٠٠٢

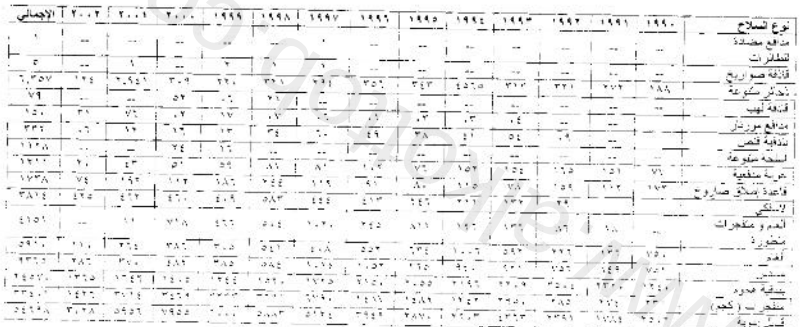

نوع السلاح	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٢	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥	١٩٩٦	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٩	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢	الإجمالي
مدافع مضادة للطائرات	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
قاذفة صواريخ	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
مدافع مضادة للدبابات	١٨٨	٢٧٧	٢٣١	٣١٢	٣٤٣	٤٥٦٥	٣٥٤	٣٩١	٣٠٩	٢٨٥٦	٢٠٣٧	٢٠٥٧	٢٠٣٤	٢٠٣٥٧
قاذفة لهب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
مدافع مورتار	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
بندقية قنص	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
أسلحة مصنوعة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
بندقية سنفية	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
قاعدة إطلاق صاروخ	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
لاسلكي	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
أقلام و متفجرات	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
متفرقة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
أخرى	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
مسدس	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
بندقية هدوء	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
متفجرات (كغم)	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
قنبلة يدوية	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—

www.alkottob.com
Abu Nour

خاتمة:

وأخيرا نشير إلى عدد من الملاحظات العامة بشأن حركة المجاهدين في كشمير

أولا: إن حركة المجاهدين في كشمير استمرت في ممارسة نشاطها رغم كشمير ما تواجه من الظروف الدولية والاقليمية والداخلية المعقدة التي واجهتها، والتي تشكلت في مجملها خيرا على هذا النشاط، إلا أن الحركة استطاعت أن تتكيف بدرجة أو بأخرى مع هذه الظروف في حدود الامكانات المتاحة

ثانيا: كان لهذا الصمود الذي أثمر على استراتيجية حركة المجاهدين. فقد تعددت أساليب ممارسة النشاط وتوجهاته بصورة واضحة خلال عام ٢٠٠٢. ويمكن القول أن العوامل الداخلية لم تقل في تأثيرها على نشاط الحركة عن العوامل الدولية والاقليمية. فقد غيرت العوامل المتعلقة داخليا الانتخابات البرلمانية في الجزء المحتل بسيطرة الهندية على حركة القيام بمرحلة معينة من الانشطة بقصد صنع جزء هذه الانتخابات أو تعطيلها أو الحد من مشاركة المواطنين الكشميريين فيها إلى أقل حد ممكن

ثالثا: بدأت تظهر بعض التوجهات غير المبررة من قبل بعض فصائل الحركة خاصة الفصائل ذات الصلة بحركة طالبان، حيث قامت الحركة بمهاجمة مكان بعض القرى للاستيلاء على الطعام والمال، هي امور لا تسئ إلى إنها تسئ إلى حركة ما له من تاريخ وسمعة، كما أدى وجود بعض العناصر الأجنبية إلى صفوف الحركة إلى ضعف التأييد والمساندة الشعبية اللازمة لنشاطها في بعض المناطق

رابعا: لم تعد حركة المجاهدين في كشمير أي أدبيات توضح موقفها من بعض القضايا السياسية المهمة، والتي تعرضت لانتقادات متعددة من قبل القوى المعادية لها. مثل موقفها من التعددية السياسية والديمقراطية والمرأة

خامسا: واجهت الحركة ضغطا في مصادر التمويل بعد الاجراءات التي اتخذت في العديد من دول العالم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر توجت قرار مجلس الأمن ١٣٧٣. وقد أدت تلك الاجراءات التي حدثت تحول في توازن القوى داخل كشمير حيث تراجعت العمليات التي كانت تقوم بها الفصائل التي يعتمد في نشاطها على الدعم الخارجي كحركة المجاهدين، في حين برز بسببها نشاط الفصائل المعتمدة على مصادر تمويل داخلية كالشكر طيبة وجيش محمد. كما ترجع نشاط حزب المجاهدين الذي أعلن عن مبادرة للتفاوض من خلال علاقته وقف موقت لاطلاق النار من جانب واحد في شهر مايو الا أن هذه المبادرة لم تثمر شيئا محددا.

سادسا: بدأت بعض البوادر الأولية تدور تحول في بعض جوانب استراتيجية الحركة عبر عنها المتحدث باسم جيش محمد الذي أشار إلى امكانية نقل العمليات الى مدن أخرى الهند. وأيدة من الامكانات والموارد التي تسمح له بالاستمرار في محاربة الهند لمدة خمس سنوات قادمة، إن كانت هذه الرؤية على ما يبدو قاصرة على هذا الفصيل حيث لم يذكر أي جماعة كشميرية أخرى أي رأي في هذا الشأن.

سابعا: يبقى أن نشير إلى أن حركة المجاهدين في كشمير إن حققت بعض المكتسبات في ظل الظروف المعقدة التي أحاطت بها بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ إلا أن استقبال الحركة بقبل تعاطف حيث ان الآثار السلبية على المتغيرات الجديدة دوليا و إقليميا بالنسبة لنشاط الحركة لم تبلور إلى رأي في صورتها النهائية بعد.

Abu Nour www.alkottob.com

الهوامش:

(١) د. السيد عمر، "سياسات القوى السنية الداخلية في كشمير"، في: د. محمد السيد سليم، د. محمد سعد أبو عامود (محرران)، قضية الكشمير، (القاهرة: مركز الدراسات الآسيوية، كلية الاقتصاد جامعة القاهرة، ٢٠٠٢)، ص ١٣٣.

(٢) د. طاهر أمين، المقاومة الشعبية في كشمير: الجذور النظرية الخيارات، ترجمة محمد الصافي، (إسلام أباد: معهد الدراسات السياسية، ١٩٩٩)، ص ٧٨، ص٨٧.

(٣) د. محمد سعد أبو عامود، "الإشكاليات الجديدة للأمن في آسيا"، في د. محمد السيد سليم (محرر)، أسسه والتحولات العالمية، (القاهرة: مركز الدراسات الآسيوية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٨)، ص ١٦.

(4) adl.net

(5) harkat ul mujahideen

(٦) د. طاهر أمين، مرجع سابق، ص ص ١١٦ - ١١٧.

(7) suba chandran, "kshmir:issues and actors".
http://www.ipcs.org/issues/articles/369kissuba.html

(8) adl.net.op.cit

(9) www.jihad.com

(10) Suba Chandran, "The Hizbul Mujahideen".
http://www.ipcs.org/issues/articles/405kasssuba.htm

(١١) د. طاهر أمين، مرجع سابق، ص ص ١١٦ - ١١٧.

(١٢) www.adl.net.op.cit

(13) Suba Chandran, "Militant Groups In Kashmir :An Analysis".
http://www.ipcs.org/issues/articles/258ipsuba.html

(١٤) د. السيد عمر، مرجع سابق، ص ص ١٣٤ - ١٣٥.

(15) http://marg.reu.AshokKrishna

(16) www.ipcs.org/issues/articles/566terkrishna.html

(١٧) د. طاهر أمين، ص ص ١١٨ - ١١٩.

(18) Suba Chandran, "The Hizbul Mujahideen", op.cit.

(19) Suba chandran, "Militant Roups in Kashmir", op., cit.

(20) Harkat-ul-Mmujahideen, op., cit.

(21) adl.net.op.cit

(22) Harkat ul Mmujahideen, op., cit.

(23) Suba Chandran, "Recent Development in Kashmir. IBID. Articles 101.

www.alkottob.com
Abu Nour

(٢٤) راجع خطاب الرئيس برويز مشرف ونص باكستان إلى الأمة، إسلام أباد، ١٢/١/٢٠٠٢، مديرية الأفلام والمطبوعات، وزارة الإعلام.

(٢٥) حول الضغوط الهندية على باكستان أنظر طارق عادل الشيخ "العلاقات الهندية الباكستانية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر"، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، مؤسسة الأهرام، العدد ١٤٧، يناير ٢٠٠٢، ص ١٣١، ص ١٣٤.

(٢٦) أنظر موقع BBC على الانترنت (http://www.bbc.com) بتاريخ ١٧/٨/٢٠٠٢.

(٢٧) اعتمدنا في رصد نشاط حركة المجاهدين على: موقع شبكة BBC الإخباري على الانترنت، وموقع شبكة CNN الإخبارية (http://www.cnn.com)، وجريدتي: الأهرام القاهرية، الحياة اللندنية، خلال عام ٢٠٠٢.

www.alkottob.com
Abu Nour www.alkottob.com

www.alkottob.com

Abu Nour

www.alkottob.com

الحركات الإسلامية: الأفكار والرؤى

www.alkottob.com

Abu Nour www.alkottob.com

جزء خاص عن أفكار ورؤى أسامة بن لادن

١. ملامح تطور خطاب بن لادن قبل وبعد سبتمبر ٢٠٠١

تعتبر مجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على نيويورك وواشنطن نقطة البداية الحقيقية في تعرف العالم على أسامة بن لادن، ليس فقط من زاوية كونه زعيم تنظيم "قاعدة الجهاد" الذي يواجه الولايات المتحدة الأمريكية في حربها الشاملة على الإرهاب، ولكنها كانت أيضا نقطة البداية للتعرف على التصورات والرؤى والأفكار التي يحملها بن لادن وتشكل غيرها مواقفه الحركية من مختلف القضايا العالمية. فمنذ ذلك الوقت، وبالتحديد منذ ٧ أكتوبر ٢٠٠١، تاريخ العدوان الأمريكي للإطاحة بنظام طالبان، حيث ألقى بن لادن وزعيم نائبه المصري أيمن الظواهري والمتحدث الإعلامي باسم تنظيمه الكويتي سليمان أبو غيث كلمات ثلاث متتالية، تلك الحرب، أعتقد رغم أنه عدة صور واضحة لبيت أفكاره وتصوراته ورؤاه في رسائل وكلمات وخطب وجهها عبر وسائل الاعلام المختلفة على فترات زمنية متقاربة.

فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يتابع فيها خطاب لبن لادن باللغة العربية موجه عبر وسيلة إعلامية واسعة الانتشار، هي قناة الجزيرة القطرية. بهدف الوصول إلى أوسع جمهور ممكن سواء كان عربيا أو مسلما أو غربيا وأجنبيا بصفة عامة. وعقب ذلك الخطب "المنشئي" والتأسيسي" للفكر الذي أقام زعيم القاعدة، شهدت السنوات الأربع التي تلته نحو ٢١ رسالة وكلمة وخطابا ومقابلة وجهها بن لادن باللغة العربية وتم نقلها عبر وسائل إعلام وإتصال عربية، بينما أجرى في نفس الفترة حوارين صحفيين فقط مع صحيفتين باكستانيتين نشرا باللغة الإنجليزية فضلا عن لاذينة. ويبدو بذلك حجم المادة المنشورة والمذاعة لأسامة بن لادن بعد مجمات سبتمبر ٢٠٠١ أكبر بكثير مما هو متداول ومنشور قبلها. فعدد الكلمات والبيانات والرسائل والخطب والمقابلات التي أجراها بن لادن منذ نهاية التسعينيات وحتى نهاية ٢٠٠٤ بلغ حوالي ٢٩ وثيقة باللغة العربية، وتحو ١١ مقابلة صحفية بالطريقة لوسائل إعلام غير عربية. وبذلك فإن نحو ٢٤٪ فقط من تلك الوثائق المنسوبة لبن لادن باللغة العربية، وعددها ٧ فقط، قد قبل مجمات سبتمبر، بينما ظهر بعدها نحو ٢٢ وثيقة بنسبة تقارب ٧٦٪ من إجمالي تلك الوثائق. وعلى الرغم الآخر فإن تركيز بن لادن على وسائل الإعلام الاخبية غير العربية كان واضحا قبل مجمات سبتمبر أكثر منه بعدها، حيث أجرى قبلها ٩ لقاءات صحفية نشرت وأذيعت باللغة الإنجليزية تمثل نسبة ٩٢٪ من إجمالي تلك

Abu Nour www.alkottob.com

اللقاءات، بينما لم يجر بعد الهجمات سوى الحوار من قبل أسامة بن لادن مع صحفيين باكستانيين، قد نقل فقط ٨٠ من إجمالي حوارات الأجنبية.

وتوضح تلك المقارنة بين مرحلتي ما قبل هجمات سبتمبر وما بعدها أن اهتمام بن لادن قبل الهجمات كان مركزا على مخاطبة الجمهور العربي أكثر من الجمهور العربي المسلم، وهو ما أدى إلى تفوق عدد لقاءاته مع وسائل الإعلام العربية، وبالتحديد الأمريكية والبريطانية، على ما ألقى وأجراه من خطابات وكلمات وألقى مع وسائل إعلام ناطقة باللغة العربية بنسبة ٩ إلى ٧. وبعد الوضع محكوما بشدة في مرحلة ما بعد الهجمات، حيث ما أصبح تركز خطاب زعيم القاعدة على التوجه نحو الجمهور العربي والمسلم والذي حظي بتغطية الكلمات والرسائل والخطب، حيث أجرى ٢٢ منها باللغة العربية بشكل أكبر فقط من فقط بالغتين الأردو والإنجليزية مع صحفيين باكستانيين جمهورهم الرئيسي من مسلمي باكستان الذين يحظى فيها بن لادن وأفكاره بشعبية واسعة. ويعبر ان هذا التغيير في توجه خطاب بن لادن بعد هجمات سبتمبر مقصودا منه ومدخل ضمن استراتيجيته التي تضمنت توسع قطاعات من المسلمين والعرب حول العالم تبنى هذا التحالف مكانا مركزيا في تلك الاستراتيجية، وهو ما يعضده ذلك التوجه. ولا يقدر من تلك الخلفية وبحد القول بوجود جمهورين، تجنب هذه هجمات سبتمبر أمام أي وسيلة إعلام عربية للقاء بن لادن، وهو ما قد يفسر جزئيا عدم إجراء مثل تلك اللقاءات في هذه الفترة، مع ذلك، فمن الواضح أن توجه خطاب زعيم القاعدة يختلف اشكاله إلى الجمهور العربي والمسلم باللغة العربية لم يتبع من وصول القسم الأكبر من ذلك الخطاب بصورة فورية ومباشرة إلى قطاعات واسعة من الجمهور العربي عبر وسائل الإعلام التي اختار كل من تلقى بن لادن وتفاعل من مقدمة الأمر، التي تضمنها في مقدمة اهتمامه بها بعد هجمات سبتمبر.

كذلك يوضح تحليل خطاب بن لادن في مرحلتي ما قبل هجمات سبتمبر وما بعدها أن معدل تكرار وسائل وخطب وألقاءات زعيم القاعدة قد اختلف كثيرا، فتعاد الاحصائي لاشكال لخطاب عدد لهجمات البعثات في الفترة المستدة منذ عام ١٩٨٨ تقريبا وحتى هجمات سبتمبر ٢٠٠١ بلغ ١٦ مرة، أي بمعدل ١٦ مرة سنويا تقريبا. أما مرحلة ما بعد سبتمبر والتي بلغت ٣ سنوات وثلاثة شهور حتى أواخر ديسمبر ٢٠٠٤ فقد شهدت ٢٤ مرة تحدث فيها زعيم القاعدة أو أجرى له صحفيين، بما يجعل معدل تلك الفترة بلغ نحو ٧ مرات سنويا تقريبا. وتوضح الفترتين بين المرحلتين أن معدلات الحديث المتاحة بن لادن قد ارتفعت في المرحلة الثانية لهجمات سبتمبر أكثر من أربع مرات عن معدلات حديثه المسموح في المرحلة السابقة عليها، ويعمل تفسير ذلك الفارق الضخم بين المعدلات السنوية في المرحلتين بعد تفسيره في حالة الفترة الأولى والتي امتدت إلى أطول فترة فيها بن لادن يتنقصه ويعقبه بعد الهجمات مع التحالف الغربي على مستوى العالم كله، وهو ما دفع به إلى مزيد من الاختباء بينما المكون المتحرض والتعبوي المركزي في استراتيجيته تحوض هذا الصراع وذلك الحرب.

كذلك فقد اختفت الوسائل التي بث عبرها أسامة بن لادن رسائله وخطبه وألقاءاته في مرحلتي ما قبل هجمات سبتمبر وما بعدها. ففي المرحلة الأولى اقتصرت تلك الوسائل على التغطية منها، أي الصحافة المكتوبة والتلفزيون والإرسال عبر الهاتف، أما في الفترة الثانية فقد طرأ اهتمام خاص بالوسيلة الجديدة نسبيا، وهي الإنترنت، كوسيلة رئيسية في نقل خطاب بن لادن بالإضافة إلى استمرار الاهتمام بالقنوات التلفزيونية الفضائية. الموقف نفسه من الصحافة المكتوبة، أما الفاكس، فمعدل الاتجاه أن تغير وسائل نقل خطاب زعيم القاعدة بين المراحلتين، هو في حد ذاته، مهم منه التي سعيه نحو الاستفادة بالقدرات الاتصالية الأوسع التي توفرها التوسعات الحضارية الجديدة في مراعاة الصراع مع التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. كذلك فإن تكرار اللجوء إلى شبكة الإنترنت لبث خطب بن لادن قد ارتبط بظاهرة أوسع تتمثل في تركيز الحركات الدينية الجهادية على الإنترنت كوسيلة للتعبئة وبث الأفكار، والمواد ذات الطابع الحركي باعتبارها ملاذا مهما تستخدمه في الحرب التي تخوضها مع ذلك التحالف، وبه، وهو ما أدى إلى تحول العمل على الإنترنت بالنسبة للمنظمات والمجموعات، كأفراد السابعين

Abu Nour www.alkottob.com

للحركات الجهادية لي ما تتحوا بطلقون عليه الجهاد الإليكتروني. وفضلاً عن ذلك، فقد منحت الانترنت للجهات المتابعة لتلك التوجهات من الحركات والأفراد من حالة الحصار الأمني المشددة التي واجه تعاني منها بعد هجمات سبتمبر من أجهزة الأمنية في مختلف دول العالم.

وفي إطار ذلك لاقتسام بوسيلتي الاتصال الجماهيري الرئيسيتين، التلفزيون والإنترنت، في نقل مختلف أشكال خطاب زعيم القاعدة إلى أوسع جمهور ممكن، بدأ واسعة مدى المنظور الذي والمدى الذي تمر به تقديم تلك الأشكال. فقد حرصت الجهات التي تعد المواد السمعية والبصرية والإلكترونية لبن بتم تقديم، عبر القاعدة، وحفاظ عليها على مستوى عالٍ من الجودة الفنية والتقنية المطلوبة من أجل تقديم في أفضل صورة ممكنة وحسب مصممين، وفي بعض الوقت تم استخدام وسائل المزج الإلكتروني والتلفزيوني متطور والأصوات والتعبيرات والرسوم والخرائط لإخراج المادة المقدمة عبر التلفزيون أو الإنترنت بصورة تحقق وصول أوسع قطاعات من جمهور المشاهدين أو المستمعين، أو لتوصيل رسائل معينة لهذا الجمهور أو لجهات معينة. وفي هذا الإطار فقد نجا زعيم القاعدة إلى الرد على ما يردد عن الإشاعات حول مرضه أو مصرعه بتقديم عدد من الرسائل المسجلة له عبر وسائل الإعلام الجماهيري، بعضها يتجاوز في مدتها خمسة دقائق، مما كان يحدث الحيرة والرد على تلك الإشاعات، وغير بعيد عن هذا الجانب تلقي في تقديم بن لادن إلى جمهوره عبر التلفزيون والإنترنت، فقد ظهر أحياناً واضح بعد طويل ملابسه وهيئته والطريقة التي يجلس بها لمخاطب جمهوره، وبوجه أو عباءة مدثرة للمشهور التي جانبه، مما في ذلك الأيمان التي يرتديها.

بذلك يصبح واضحاً أن مرحلة ما بعد هجمات سبتمبر ٢٠٠١ قد مثلت مرحلة محطمة نوعياً في تطور خطاب أسامة بن لادن من حيث الشكل والرسالة والجمهور المستهدف والتكرار. السمري، وهو ما ارتفع به أيضاً تطور موازٍ في مضمون ذلك الخطاب سنوضحه في دراسات التالية في ذلك الفرع. الخاص بالمحتوى زعيم القاعدة. وثالثاً، وكما سبقت الإشارة، فقد مثل خطاب التفسير الذي ألقاه بن لادن في ٧ أكتوبر ٢٠٠١ وبعد خطاب نائبه المصري أيمن الظواهري وخطاب المتحدث الإعلامي باسم تنظيمه الكويتي سليمان أبو غيث تمثل الرابعة الجريمة في شكل ومضمون خطاب زعيم القاعدة. ثمن المهم هنا التطرق لبعد رابع من البعض.

بصفة، وبحث أن ملك الكلمات كانت في الأصل موجهة من القادة الإسلاميين الثلاثة غير مباشرة للمسلمين، فمن المنطقي أن يكون السيناريو الأول حولها هو: التي من كان يوجه كل من القادة الثلاثة مخاطباً: حيث بيده، أصبح أن هدت عدة مخاطبين مختلفين في الكلمات البيان.

تكلمة بن لادن لم يرد فيها سوى مخاطبين اثنين: الأول هو كل مسلم والثاني هو أمريكا وشعبها. وبعد مخاطب بن لادن الأول، أي كل مسلم، مرتين في كلمته طالبه فيهما، أو بهت تحديد دينه (...) لالة الخاطئ من جزيرة محمد صلى الله عليه وسلم». أما الثاني، أي أمريكا وشعبها، فقد وجه له بن لادن تهديده الذي تناقلته وسائل الإعلام: «لن تحلم أمريكا وغير بعيش في أمريكا بالأمن قبل أن يعيشه واقعاً في فلسطين وقبل أن تخرج جميع الجيوش الكافرة من أرض محمد». ويخاطب المخاطبون ويرد عددهم في كلمة غير الظواهري حيث بيد ها بالأول وهو «أمة الإسلام» ثم ينتقل بعدها صامتاً لكي يوجهها أي مخاطب آخر هو «الشعب الأمريكي» الذي كرر الحديث إليه خمس مرات. وبعدها انتقل إلى مخاطب ثالث هو «المسلمون» وحتى كلمته مخاطبة الرابع وهو «أيها المجاهد والعلماء» ألف دعوة والمؤمنون المحبون لله ورسوله». وكما فعل بن لادن فقد كانت الرسالة التي وجهها الظواهري إلى «أمة الإسلام» (المسلمون، والشباب المجاهد، العلماء، المصلحون، المؤمنون المحبون لله ورسوله) هي مطالبتهم بأن يقفوا مع عدد المسلمين الصابرين، وأن يكونوا، وكما كان استجاب النبي صلى الله عليه وسلم، عندما تجمعت عليه قريش، لا لاجئين في المدينة. أما الشعب الأمريكي، فقد وجه إليه الظواهري سؤالاً هي بدايه كلمته قام هو بالإجابة عليه بعدها، وهو: «لماذا كل هذا العداء عند أمريكا وعند إسرائيل. لماذا كل هذه الكراهية في قلوب المسلمين عند أمريكا؟». وبعد تقديمه أجابه على السؤال بتقل الظواهري لكي يحتر الشعب الأمريكي في

Abu Nour www.alkottob.com

فقررين بمهجة أقل حدة كثيرا عن لهجة بن لادن من «حرب خاسرة جديدة تفقد فيها أبناءك وتفقد فيها أموالك»، كما حدث من قبل في حروب أخرى في فيتنام ولبنان والصومال.

أما المتحدث باسم تنظيم القاعدة سليمان أبو غيث فقد اتفق مع الظواهري في البدء بتوجيه كلمته إلى "الأمة" دون أن يضع لها أي صفة لاحقة بها كما فعل الظواهري بتحديدها في "أمة الإسلام"، ثم كرر توجيه حديثه إلى أمريكا" و"الشعب الأمريكي" ثلاث مرات واحدة منهم يشرح فيها أسباب ما حدث في واشنطن ونيويورك يوم الحادي عشر من سبتمبر من وجهة نظره، والمرتان الأخريان يوجه فيهما التحذير المماثل في ذروته لذلك الذي أطلقه الظواهري من «إعلان الحرب على أفغانستان وعلى المجاهدين بقيادة أسامة بن لادن». وانتقل أبو غيث بعد ذلك لكي يوجه حديثه إلى "أمة المليار أمة الإسلام أمة الجهاد أمة محمد وأحفاد أبو بكر وعمر وخالد بن الوليد"، ثم إلى "أبناء الأمة وشباب الأمة ورجال الأمة ونساء الأمة"، معلنا إياهم الانقسام بين «خندق أهل الإيمان وخندق أهل الكفر»، مؤكدا لهم أن داعي الجهاد يدعوهم.

ويبدو واضحا من ذلك أن القادة الإسلاميين الثلاثة قد حرصوا على مخاطبة أمريكا وبخاصة شعبها بصورة متكررة تراوح مضمونها ما بين طرح تفسيرهم لهجمات واشنطن ونيويورك وبين تحذيرهم وتهديدهم لهم بدرجات متفاوتة. وربما يعكس ذلك التركيز الواضح على مخاطبة الشعب الأمريكي فهم القادة الإسلاميين الثلاثة لتخوفات الأمريكيين مما حدث في واشنطن ونيويورك وإمكانية تعرضهم وبلادهم لأحداث وخسائر أخرى سواء في الحرب أو على هامشها، ومن ثم السعي إلى تعظيم تلك التخوفات لخلخلة الروح المعنوية للشعب الأمريكي بما يترتب على ذلك من احتمالات انقسام الرأي العام حول جدوى الحرب في القضاء على الإرهاب. كذلك يبدو واضحا أن اختلاف مسميات المخاطب الثاني في الكلمات الثلاث ما بين "الأمة" و"كل مسلم" و"المسلمون" و"شباب المجاهد" وغيرها لا يعد سوى من قبيل التنويع والإجمال والتخصيص لكيان واحد هو "أمة المليار" مسلم التي استهدف الثلاثة من مخاطبتها استنهاضها جميعا أو بعض مكوناتها وتحريضهم على خوض "الجهاد" معهم ضد الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها.

وعند النظر إلى بعض القضايا التي تضمنتها الكلمات الثلاث وفي مقدمتها رؤية القادة الإسلاميين الثلاثة للموقف الناشئ حينئذ ما بين الولايات المتحدة وأفغانستان ومن رأت أنهم الإرهابيون المسؤولون عن تفجيرات واشنطن ونيويورك، نجد أنها واحدة تقريبا مع اختلاف طفيف في الصياغات. فهذا الوضع في تقدير الثلاثة وبصياغة الظواهري إنما كان وضعا «اجتمعت فيه أمم الكفر على فئة من المسلمين وفئة المجاهدين والمرابطين». فقد كانت الولايات المتحدة التي «ألبت على تلك الفئة كما يقول بن لادن «حتى الدول التي تنتسب إلى الإسلام». فما كان يحدث - ولا يزال - هو معركة واضحة الملامح والأطراف «معركة فاصلة بين الإيمان والكفر»، كما يحددها أبو غيث، أدت إلى انقسام العالم بأسره إلى معسكرين لا ثالث لهما حسب تقدير بن لادن: «معسكر كفر ومعسكر إيمان لا نفاق فيه». وينفرد الظواهري بالإضافة لذلك عن رفيقيه في تقديره لما يحدث من مواجهة بأنه «يعد من «الأوقات الحرجة العصيبة»، وهو التقدير الذي يسعى إلى تجاوزه قبل نهاية كلمته حتى لا يؤثر على المسلمين الذين يخاطبهم بعقد مقارنة بين تلك الأوقات وما شهده الرسول وأصحابه عندما اجتمعت عليهم قريش والأحزاب «فنصرهم الله عليهم».

ويمثل تفسير ما جرى من تفجيرات في واشنطن ونيويورك يوم الحادي عشر من سبتمبر القضية الثانية التي استوقفت القادة الإسلاميين الثلاثة في الحديث عنها خلال كلماتهم. وقد اتفق الثلاثة بصياغات مختلفة ومتشابهة على أن ذلك كان بسبب السياسات الأمريكية العدوانية ليس فقط تجاه الشعوب العربية والإسلامية ولكن أيضا تجاه شعوب وبلدان أخرى غيرهم مثل شعب اليابان الذي «قتل منه مئات الألوف كبارا وصغارا»، كما يقول بن لادن، أو شعب فيتنام كما يشير بن الظواهري. وتشير تلك النتيجة إلى أن المعركة التي يخوضها هؤلاء الإسلاميون ضد الولايات المتحدة الأمريكية كما يطرحون في كلماتهم ليست بسبب ديانة شعبها المسيحية بل بسبب السياسات التي تقوم بها حكوماتها المتعاقبة تجاه مختلف الشعوب والبلدان سواء العربية والإسلامية أو البوذية والكونفوشيوسية

Abu Nour www.alkottob.com

والشتشرية، وهو الأمر الذي يؤكده الفصل بين "الشعب الأمريكي" وتلك الحكومات كما يبدو واضحاً في الكلمات الثلاث. إلا أن أبو غيث ينفرد عن رفيقيه بتعميم تلك الجهاد الذي يدعو إليه لكي يشمل "اليهود والنصارى" بالرغم من تأكيده الواضح في فقرة سابقة على التمييز بين الشعب والحكومة في الولايات المتحدة بقوله: «على الشعب الأمريكي أن يعلم أنه يتحمل المسئولية الكاملة وأن ما يجري له هو بسبب تأييده لهذه السياسة التي تمارسها الحكومة الأمريكية».

أما عن مسئولية بن لادن وتنظيم القاعدة عن تفجيرات واشنطن ونيويورك – وهي القضية الثالثة في "الكلمات" – فهي لا تبدو واضحة أو مؤكدة في الكلمات الثلاث التي لم يتضمن أي منها اعترافاً صريحاً بالمسئولية عنها، على الرغم من استفاضة القادة الثلاثة في شرح الأسباب التي يرون أنها دفعت إليها، الأمر الذي حاول البعض تأويله ليكون دليلاً على تلك المسئولية. وفي هذا الإطار فإن تأكيد بن لادن وحده على أن من قام بتلك التفجيرات هو «كوكبة من كواكب الإسلام طليعة من طلائع الإسلام»، يمكن تفسيره من أحد جانبين في ضوء نفيه السابق المتكرر لمسئوليته عنها: إما أنه أراد استثمار التأكيدات الأمريكية غير الموثقة – حتى الآن – بمسئوليته عنها في إخافة الأمريكيين من احتمال تكرارها خاصة في ظل الحرب التي بدأت بالفعل ضده ولا يمكن إخفاؤها. أما الجانب الثاني فهو أنه تأكد من وجود بعض المجموعات الإسلامية غير المرتبطة به في تنفيذ تلك التفجيرات، وعلم أن جهات أخرى غير إسلامية ولا عربية قد نجحت في توظيفهم في تلك العمليات المدبرة بدقة متناهية، وهو الأمر الذي ترجحه شواهد عديدة. فأراد استثمار ذلك في تحقيق نفس هدف الإخافة للأمريكيين المصابين بالرعب منذ وقوع تلك التفجيرات.

وبعد تحديد "العدو" كما يتصوره الإسلاميون الثلاثة هو القضية الرابعة المهمة التي يمكن البحث عنها في كلماتهم، ويبدو واضحاً أن العدو المؤكد الواضح في الكلمات الثلاث مسمى ومقصود هو الولايات المتحدة الأمريكية التي لم يرد اسم أي دولة أخرى كعدو غيرها. ومع ذلك يبدو الإسلاميون الثلاثة في كلماتهم مجمعين على أن ذلك التعريف للعدو يتسع ليشمل «أمريكا ومن يحالفها» في تلك الحرب، حسب صياغة أبو غيث، والذين هم «أئمة الكفر» بحسب تعبيره المشترك مع الظواهري، الذي يذهب في رؤيته لخطورة ذلك الحلف إلى تشبيهه بالحلف الذي عقدته قريش مع القبائل الأخرى ضد الرسول وأصحابه والذين يطلق عليهم في التاريخ الإسلامي اسم "الأحزاب". أما بن لادن فيتفرد عن رفيقيه بتصور أكثر كونية واتساعاً للحلف المعادي له بقيادة أمريكا حيث يرى أن العالم بأسره والذي يطلق عليه "المنافق" قد «وقف خلف رأس الكفر العالمي»، الذي هو أمريكا، بما في ذلك «حتى الدول التي تنتسب إلى الإسلام» لكي يطاردوا «هذه الفئة التي خرجت تفر بدينها إلى الله». وربما يكون ذلك التصور للعدو عند زعيم القاعدة نابعاً من خبرته الطويلة والوحيدة منذ بداية نشاطه الإسلامي في أفغانستان عام ١٩٧٩ كمجاهد إسلامي دولي يرى أن دوره الوحيد هو قتال أعداء الإسلام الخارجيين والذين أضحوا وفقاً لمحرضيه الخاصة يشملون العالم كله تقريباً. كما يبدو أن غياب ذلك التعريف الكوني الواسع للعدو عند الظواهري وأبو غيث يرجع إلى اختلاف خبرتهم في النشاط الإسلامي عن خبرة بن لادن، حيث قضيا معظم سنوات ذلك النشاط في بلدانهم يقاتلون "عدواً" محدداً وواضحاً هو أنظمة الحكم فيها.

وبعيداً عن القضايا الرئيسة التي شملتها الكلمات الثلاث فإن التطرق إلى أساليب تبريرها والبرهنة على صحة المواقف المتخذة منها، يمكن له أن يضيف مزيداً من الفهم لها. وبصفة عامة فقد استخدم الإسلاميون الثلاثة في كلماتهم ثلاثة أساليب لذلك وهي: النصوص الدينية الإسلامية، والمشابهات التاريخية، والتدليل عبر القضايا السياسية. ويلاحظ بالنسبة للنصوص الدينية الإسلامية أن الاستخدام قد اقتصر على الآيات القرآنية دون اللجوء إلى الحديث النبوي أو أي نصوص أخرى إسلامية، وذلك عند الظواهري وأبو غيث اللذان أورد كل منهما آية كريمة واحدة في كلمته، بينما لم يورد بن لادن آية واحدة في كلمته. وبالرغم من ذلك فقد بدا واضحاً أن صياغة كلمة بن لادن هي الأكثر تأثراً بالقرآن الكريم واستلهاماً لبعض صياغاته ومعانيه من رفيقيه اللذين غلب على صياغاتهما

www.alkottob.com
Abu Nour

الضخم الذي يحيط بالأحزاب للأسلوب السياسي الذي يتبعه. كذلك فإن كلمة بن لادن ... من المصطلحات الغربية المستخدمة فيها على غرار المسلحين الآخرين الذين تدربوا في أفغانستان. جميع المصطلحات السياسية والتاريخية الخاصة، وإن كانت لا تعكس ذلك الانحراف بالضرورة عن الحقائق التاريخية والظواهري يقدر ما يعكس القدرات الخطابية لكل منهما، حيث أن ألف كلمة من كلمات بن لادن تعادل مكتوبة مسهبة.

ثم استخدم المشبهة التاريخية قدم مكرر في الخطابات البلاغية بدرجات متنوعة كل الخطابات في هذه الظواهري الذي أشار إلى الحرب الأهلية الجزائرية في عدة أماكن وتواريخ سابقة، وخاصة في قصيدته "الحرب الصليبية" عصر كما أشار الظواهري إلى خبرة حماية المسلمين للأندلس والتي أكدت ... من خلال أن مكرر ... المشبهة في الفترة المسيحية فشابهته بالرحلة أخرى أكثر إيجابية للموقف الحالي وهي غزوة الأحزاب التي تصور فيها الرسول المسلمين على قريش والقبائل المتحالفة معها، يعكس رغبة الظواهري كقيمة مستخدمة عند من شابهته بالرحلة في سياقاتهم المختلفة لتقديم موقفه في الحرب الجزئية والتي يرى أنها المشبهة جديدة من ملاحم الأمة وصولاً إلى ... في مصر، الإيمان بتكرر فيها لمعارك الكبرى في تاريخ الأمة مثل خطوط وحين جانب ... المقدس ... الأمر ... فقد نقل إلى المشابهة التاريخية في كلمته تسلل على جنسه التشبيه التي استخدم ... على الرغم من استخدام التي ... مع جدت لوريا قبل ذلك لم يحظ بهذه شهرة ... التي سيكون بداية موقوفها هو ... ال حظر ... خطاب ... في أفغانستان، أمين لادن فهم وإدراك لوطنه في كلمته إلى المشابهة استرجعه المشهورة فهم لما استخدمته من قبله وهو مهزومة أمريكا التي هو شر بسبب مما دفعاه منذ سنوات المسلمين، لأن ... بدأ ... جميع ... يستعين عادة ... هذا لمثل ...

أما الأسلوب الثالث، التسلل عند القصب فيستخدمه القادة الإسلاميون لتبرير ... في كلمته لهم يكن له أن كمة صورة الولايات المتحدة كعضو عضو ... مسير حلم الأمة تقريبه ... بالمشابهة ... يشير هذا الانتظار بقدر ... بضرب الثلاثة في التركيز على الدور الأمريكي في عداء ... ضد ... الذي ... الأمة ... في ... المسلمين ... قصعة ... قتل ... أو بلغة الظواهري نمل ... أمريكا في رسمه المجرمين التي جرعته حب ... الدنيا ... طلب حب الحياة المستمرة المذكورة عند حسين عندما ... بأنني نفسه ضرب النحل وحياة ... عند عنصر ... يمثل القصة البديلة في الأطروحة والتي ... ورد عند ... بأنها في كلمتي بن لادن والظواهري كدلائل ... على ... بدلاً من حتى الدول العربية والإسلامية ... وتصوراً بن لادن وأيمن ... في إثارة قصة ... أمريكا لأنها من القوى ... دور عنصر مقدمات المسلمين، كما يقول أبو عبيد ... وهو الأمر الذي ... أكثر ... وضوحاً عند بن لادن في تهمته الأخير لأمريكا بأنها لن تنعم بالأمن ... قبل أن تخرج جميع الجيوش الكافرة من ... الذي ... تعيش فيه ... وسلبه ... ومقدرات الظواهري أخيراً مقدمته رابعة حين ... أمريكا ... وتعهد ... بها ... أنها ... الحكومات الفاسدة في بلدان ... وتصفيتها وتوريد ... وغير الواضح في التفسيرين السابقين ... الرابعة ... في كل من الإسلاميين الثلاثة بحديثه الإسلامية لمنطقة ... الجغرافي والوطني من حيث تغيير ... في الخطاب ... الأمر الذي يظل الخبرة وهذا الاستخدام في كل الأحوال تعتد بها القادة الإسلاميين الثلاثة مختلفين في كلماتهم للإعلان ... عن ... توجيه ... مع آخرين ... الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين في ٢٢ فبراير ١٩٩٨ ... حيث ... استخدام القضايا الثلاثة الأولى ... فيه لتبرير قيام تلك الجبهة وتحرير القدس المسجد ... بها من ... فشل الأمر بكل ... خلف ... مدنيين وعسكريين قوض عدن على كل مسلم أمكنه ذلك في كل بلد تستهدفه ...

Abu Nour www.alkottob.com

٢. فلسطين في "رؤية" أسامة بن لادن

مدخل

توضح القراءة المتأنية لكل الكلمات والأحاديث الصحفية والخطب والرسائل المنسوبة لأسامة بن لادن التي أتيحت إليها مقدمة هذا الفرع من الدليل أن قضية فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي حظيت عامة بحيز غير قليل من الاهتمام الخاص منه وأنها قد وردت تقريبا في كل ما هو معروف عن تلك الأشكال والصور التي برر بها مسلك بن لادن. وقد تبلور هذا الاهتمام من جانب زعيم تنظيم القاعدة في صورة رؤية متكاملة لهذا الجانب وبصفة خاصة بعد متماسكة وواضحة المعالم منذ أن تطورت خطابات أبي مصعب فلسطين بحلول أبعاده. عصر النظر عن صحة أو خطأ هذه الرؤية والمقصود بظهور الرؤية هنا هو الطريقة التي يعرض بها أسامة بن لادن القضية الفلسطينية والصراع القائم بسببها وحولها مع عدة أطراف مباشرة وغير مباشرة في مقدمتها الدولة العبرية، وذلك عبر مجموعة من الأبعاد والجوانب المكونة لهذه الطريقة من النظر والإدراك.

وبعد مفهوم "الرؤية" للصراع القائم حول القضية الفلسطينية مفهوما مركبا يحتوي في داخله على مجموعة عناصر مترابطة لكل منها تعريف ودلالات خاصة بعد، ويشكل الرؤية الشاملة للصراع من تفاعلها معا جميعا الأمر الذي لا يصح معه اعتبار أحدها فقط مرادفا لتلك الرؤية. وبعد المفهوم الفرعي الأول في الرؤية هو تنبيه الصراع أو بالأحرى الغاء للصراع من حيث تعريف طبيعة الصراع، وفلسفة الطرف المعادي ضمنه، ثم الدولة العبرية من حيث البناء والدور، والأطراف الأخرى المنخرطة مباشرة في الصراع مثل الولايات المتحدة، وأخيرا الأطراف المسؤولة عن ربح أو خسارة الصراع. وتشكل مراحل وظهور ذلك الصراع، ثم فهم الصراع، وهذا المعنى يحتوي على تحليل وتفاعلات وتتابع تطور الصراع، وأطرافه الداخلية والمتعددة، والظروف المباشرة التي صاحبت نشأته وتطوره، ثم رصد للعلاقات الأساسية داخل هذا الصراع، وأخيرا الوصول إلى نتائج محددة وواضحة حول كل تلك القضايا. ويعد فهم الصراع بذلك هو السند المرجعي لأي سلوك أو موقف بشأن الصراع، فهو بمثابة القاعدة الأساسية التي ستبنى عليها المواقف الأخرى الفرعية في رؤية الصراع وما يرتبط به من مواقف، وهو بتعبير بسيط من أين نشأ هذا الصراع وكيف تفاعل وتطور؟ ثم يأتي بعد ذلك مفهوم "الحل" للصراع، وهو يتضمن تصورات عامة عن الكيف أن يتم تفسيره وفي أي إطار تفسير؛ من حيث المبدأ أيضا افتراض أن تتوفر في مفهوم فهم الصراع عند من السمات التي تعطي له الحد من السابقة في مقدمتها ضرورة كونه شاملا عند الوقوف على كافة القضايا الأساسية للصراع، بتناولها بالتحليل والتعمق الدقيق. أما السمة الثانية فهي أن فهم أو صراع يكون بالضرورة أيديولوجيا، يعني احتوائه على موقف من الصراع وقضاياه الرئيسة بغض النظر عن كونه أو جماعة بشرية محددة في زمن محدد من الصراع يعكس معتقداتهم بشأنه، واهتمامها به، وبعد السمة الثالثة لفهم الصراع إلى وجوب كونه متصور بالوضوح والتفصيل في طرح قضايا الصراع، حتى لا يعد الوضوح والحسم المرتبط بكون لفهم تأثير سلبي بالغ على المواقف المستندة عليه.

أما المفهوم الفرعي الثاني للرؤية فهو "الحل" للصراع، ويشمل ذات المفهوم الهدف النهائي الذي يراد من وجوده طرح الرؤية وكشف الاستراتيجية المشروعة للوصول فعلا إلى الهدف المرجو، والتكتيكات التي ينطلق من خلالها

Abu Nour www.alkottob.com

هذه الاستراتيجية. وعلى الرغم من وجود تعريفات عديدة للاستراتيجية لكل منها وإفقها الموضوعية والنسبية، فإن القاسم الأعظم بينها هو القول بأن مصطلح الاستراتيجية يتصرف الى الحفاظ والتوسع الى بمقاييس الوضع الكلي للدولة، الذي تستخدم فيه القوة بشكل مباشر أو غير مباشر من أجل تحقيق الهدف النهائي للطرف الذي يتبعها والاستراتيجية بذلك يجب أن تتضمن أربعة عناصر رئيسيه على الأقل: الهدف الاستراتيجي، والخطة، والوسائل والأدوات، وأخيرا الموارد الأساسية الاقتصادية والعسكرية والسياسية ... الخ، والاستراتيجية لا تتصرف فقط الى مجرد فعل للعمل، أو الإيداع العسكرية، ولكنها تتضمن معرفة لكافة المحاور الأخرى التي يمكن أن تساهم بوجه ما في الصراع وقضاياه، وهي لا تتسع بتصور شرعة النهاية النهائي لفهم الصراع، فبعض عناصرها سيتغير بما يمكن أن يؤدي الى تغيير بعض أسسها، فهي كيان متطور، وقادر على التلاؤم مع مقتضيات الزمان والمكان والأدوات وتغير القوى المشاركة باستمرار.

اولا: بداية اهتمام بن لادن بالقضية الفلسطينية وحجمه

يرجح قراءة كلمات وخطابات بن لادن الصحفية والخطب والرسائل المصورة بأن بداية اهتمام بن لادن بالقضية الفلسطينية يعود الى نهاية النصف الثاني من الثمانينات (١٩٨٨ - ١٩٨٩ تقريبا) وهي كلمة القاها الشيخ عبد الله عزام الاحتلال السوفيتي لأفغانستان (١١). وفي هذه الكلمة التي لم تتم نشرها كاملة في أي مكان وجود منها منشوراً فقط بحوالي ٨٠ كلمة لم تتطرق بن لادن لأي قضية سوى الاحتلال الذي كانت جديدة حينئذ في أفغانستان، حيث وجه بدء الى المسلمين في كل مكان من العالم للتحرك بما أسماه بساحة الجهاد في أفغانستان لإعلاء راية الجهاد وإعلاء راية الإسلام، حيث تعبر أن الوظيفة الحالية وبمثل تكليفة حلال بعد ذلك، فهي الرسالة التي وجهها بن لادن الى جميع علماء الأمة الإسلامية بعد الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠، وحيني: «الجهاد العسكرية الأمريكية التي للمملكة العربية السعودية، ودول خليجية أخرى استعداداً لشن الحرب على العراق». وعلى الرغم من أن الموضوع الرئيسي لتلك الرسالة كان هو التهجير على تواجد تلك القوات الأمريكية في الأراضي السعودية خصوصاً والعربية عموماً، فقد عرف فيها الى القضية الفلسطينية باعتبار أن اغتصاب اليهود لفلسطين والى المقدسيين كان مقدمة لما أسماه «احتلال الصليبيين لبلاد الحرمين الشريفين» أثناء حرب تحرير الكويت (١٢). وبعد ذلك لوتقفة أب الرسالة الأخرى المفتوحة التي وجهها بن لادن في ٣ ديسمبر ١٩٩٤ باسم «لجنة النصيحة والإصلاح / مكتب لندن» الى الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي عام المملكة العربية السعودية، رئيس هيئة كبار العلماء، وإدارة البحوث العلمية والإفتاء، والى أعضائها عنوان رسالة مفتوحة الى بن باز بطلان فتوى بالقطع مع اليهود (١٣). فقد حمدت تلك الرسالة، كما يوضح عنوانها، كامنة للقضية الفلسطينية وبخاصة ما يتعلق بالرد على الإسلامية الشرعية الإسلامية عقد معاهدة وسلم بين دولة مسلمة وغيرية ولم يعبر بذلك التوقيت في الأولى من الوثائق المسربة بأن لابن لادن أي مشاكل في المستقبل أيضا بالقضية الفلسطينية، والذي توصل بعد ذلك في الوثائق السالمة، ومن بين تلك الوثائق الخطاب العلني الذي أرسله من لابن الى الملك فهد بن عبد العزيز ملك السعودية عام ١٩٩٥ بشأن بعض القضايا الداخلية في المملكة، والذي يصف قضية فلسطين بأنها «أم القضايا الإسلامية» (١٤).

ويؤكد تحليل مضمون كل الوثائق العربية والإنجليزية المسربة بن لادن والساحة أنه قد تطرق في مقابلاتها العظمى بصورة من الصور الى القضية الفلسطينية. فمن بين الوثائق العربية والبالغ عددها ٢٩ وثيقة لم يغب ذكر القضية الفلسطينية سوى عن ثلاث منها هي: كلمته التي ألقاها في حفل أبو بكر، الفعال منه الاحتلال السوفيتي لأفغانستان والسابق الإشارة اليها، ورسالته الى أتباعه التي تدعو الى الاعتداء للغرب الأمريكي لأفغانستان الذي تم في ٧ أكتوبر ٢٠٠١ - ١٥١٢، ثم الكلمة التي ألقاها بمناسبة الذكرى الثانية لهجمات الحادي عشر من سبتمبر على نيويورك وواشنطن (١٦). وبهذا تكون القضية الفلسطينية قد وردت في ٢٦ وثيقة أخرى معروفة بن لادن باللغة العربية، أي بنسبة تقارب من ٩٠٪ من إجمالي تلك الوثائق، وكانت القضية الفلسطينية أكثر حضوراً في وثائق بن

Abu Nour
www.alkottob.com

لان دائرة الانجليزية حيث انني على دراية في الاحوال عشر دائرة المعارف التي تصدر ٢٠ مجلد، يمكن ان تجمع
ظهر ان اهتمام اسامة بن لادن بالقضية الفلسطينية لم يكن جديدا او طارئا، بل استند جذوره الى العائلة نفسها
من الوثائق المنسوبة اليه نفسه والتي تعود الى بداية التسعينات تقريبا، وتحديدا الى عام ١٩٩٢ م. وتوضح تلك
تلك الوثائق أن هذا الاهتمام لم يكن يقتصر للوجدة فحسب، بل امتد ليشمل الاحياء من جدة نفسها، وذلك بحسب
السياق الذي تحاط بها والظروف التي احاطت مساعدته وتطورها.

ويظهر كلمة على كل الوثائق العربية والانجليزية الخاصة بأسامة بن لادن بصريح ان معلومات بكرار. فالصفحات
الرئيسية المتعلقة بالقضية الفلسطينية كانت كثيرة، اقل في الوثائق العربية الصادرة، والعديدين التي تطرح عدد من الأمور
لهذه القضية بكرار اسم فلسطين والصفحات المتشقة منه مثل فلسطيني، وفلسطينيين حوالي ١٨١
مرة، بمعدل يقارب ان متوسط ورود في الوثيقة الواحدة يصل لنحو سبع مرات. أما للصفحات، فلسطين فقد تكرر
مثل يهودية، ويهودي، فقد بكررت في الوثائق العربية نحو ١٨٧ مرة، في حدود ٧٠٦ مرات في الوثيقة الواحدة.
وأتت كلمة اسرائيل ومشتقاتها مثل اسرائيلي، واسرائيلية، وصهيونية بعدد ذلك بكرار ورودها ٨١ مرة، في
بمعنى متوسطاً قدره ٣ مرات تقريب في كل وثيقة، وتأتي في المرتبة الثالثة، ومشتقاتها مثل صهيوني،
وصهيونية، ويهودية، بمعدل عدد مرات تكرارها في الوثائق ٣٨ مرة، بمعدل مرة واحدة تقريباً في كل
وثيقة. أما في الوثائق والخصوصية فقد ورد اسم فلسطين ومشتقاتها نحو ٣١ مرة، في متوسط ٢٨ مرة، في كل
الواحدة، في حين ورد، كلمة يهود والصفحات المشتقة منها ٧١ مرة، في متوسط ٦٥ مرة، تقريبا في الوثيقة
الواحدة، أما كلمة اسرائيل ومشتقاتها فقد وردت ٣٨ مرة، في الوثائق الخصوصية بمعدل ٣٥ مرة، في الوثيقة
الواحدة، وغيرها فقد تكررت كلمة صهيون ومشتقاتها ٤ مرات فقط في تلك الوثائق، بمعدل مرة واحدة
تحو مرة واحدة في كل ثلاث وثائق.

بذلك، فان الوثائق المنسوبة لأسامة بن لادن والمدرجين العربية والانجليزية، يوضح ان قضية
الفلسطينية بصورة واضحة ومنذ وقت طويل، وهو ما تؤكده ورود في العائلة، أو أحدها من بين الوثائق، وان حجم
معدل تكرارات للمصطلحات والكلمات المرتبطة بهذه القضية في تلك الوثائق، يؤكد ان هذه القضية كانت من
لان قضية حيوية بالنسبة لاهتمامه بهذه القضية عدد أحيانا على مجال سنتحدث بعدها، فقد ساهمت وسائل بشكل أخيرة
القضائية السابقة في أفغانستان تصدر عليها، أحد مواقع طويل أحد وهو ١٧٠ ألف، من مجموع ٢٠٠ ألف، مقاتل تقريباً، من
التي الحديث عن فلسطين، القضية الفلسطينية وتحديدا تقرير، تعالى بشكل أكبر الأخيرة، في مقدمة التي صدر عند
عبارات يدعو الى قتل اليهود والصليبيين، وكان حين تذكر طريقة، أو عدداً، كان موجوداً، بشكل دائم قرارين حملة من
الحديث الشريف الذي أخرجه الشيخان من جزيرة العرب، أكثر تركيزاً على اخراج الأمريكيين من جزيرة العرب، لكن
بدأنا نرى في الآونة الأخيرة، بشكل أو بآخر بكرار، وتضمنه قضية فلسطين، أو ما سموها اسم قضية الأقصى
في المقدسة، وأصبحت قضية الحرمين الى القائم الثاني، ان سمح للحديث، فما تعليقك على ذلك؟ .. كثيرة من الأمور
واضحة، حيث قال: لا شك أن اليهود فرض عين لتحرير الأقصى، وكذلك المسجد مقدس في فلسطين، وفي سيناء، وفي
العراق، وفي جميع بلاد الإسلام، ولا سبيل الى تحرير جزيرة العرب من المشركين، فقد كذلك الوضع، فمن أكثر أن
فضيلة تقديم، أو بعض الكلام، انه يقال ان أساسه الآن ومنع قضية فلسطين، فهذا أمر صحيح، فالقضية
محتواه، فقد ١٤٠٧ هجرية تحت المسلمين على مقاومة الأعداء، وهذا الجهاد، ثم الأمريكان، ثانية، ان احتلال
باحدها الأمريكان، ويعتقدها، للجهود وقتنو كبير احتلوا في فلسطين فهذا أرض، وهذا، أرض، وهذا، بعد
قاله من لأن من أن اهتمامه المعلن بالقضية الفلسطينية، ما قبله التي، أكد في حادثة ثم، وفي عام ١٤٠٧
هجرية، فهذا يعني أن بداية هذا الاهتمام تعود الى الفترة من منتصف ١٩٨٦ م، أي منتصف الثمانينيات
وهي المقابلة لعام ١٤٠٧ هجرية الهجري. وقد أكد محللان سيمبسان خلف بن لادن، حركة سياسية فلسطين من
مقابلتهما، منه قد اهتمامه بالقضية الفلسطينية، الأسبق عند لبنان، تطول، من تحرير، مجتمعة الغربي

Abu Nour
www.alkottob.com

التي تصدر في لندن والمعروف بتأييده لبن لادن أجاب عن سؤال وجه له حول تلك العلاقة بأنه سمع منه ذلك شخصياً عند مقابلته له في نوفمبر ١٩٩٦ في أفغانستان وأنه قد أكد له مركزية القضية الفلسطينية في فكره وحركته (٨). أما السيد جمال خاشقجي الكاتب والمحلل السعودي المعروف والمختص لبن لادن فقد ذكر في حلقة أخرى من نفس البرنامج أن الربط بين القضية الفلسطينية والقضايا الأخرى في فكر بن لادن "دائماً موجود" واضاف: "لقد سمعت لأسامة بن لادن يتحدث عن فلسطين منذ عام ١٩٨٥ وتوجد أشرطة له في فلسطين، فالقول بأن أسامة بن لادن ليس له اهتمام بفلسطين قول غير صحيح (٩).

ثانياً: رؤية بن لادن للقضية الفلسطينية والصراع مع اسرائيل

يقتضي التحليل الشامل والتفصيلي للوثائق الخاصة بأسامة بن لادن التي تفصل رؤيته للقضية الفلسطينية والصراع مع الدولة العبرية وفق لمفهوم الرؤية السابق تقديمه التوزيع بين المفاهيم والمحاور الفرعية التالية.

أ- فهم الصراع:

(١) إسرائيل (الطبيعة - الدور)

يبدو من قراءة وثائق بن لادن أنه لم يتوسع كثيراً في التعريف بطبيعة الدولة العبرية وكيفية نشأتها والأدوار التي تقوم بها، مثل توسعه في الحديث عن مفاهيم ومحاور أخرى فرعية تتعلق بالقضية الفلسطينية والصراع مع إسرائيل. ومع ذلك ففي جملة تعد الوحيدة من نوعها في كل وثائقه من زاوية وضوحها ودقة مصطلحاتها يقول بن لادن أن العدو اليهودي الحالي ليس عدواً مستقراً في بلاده الأصلية محارباً من الخارج حتى يجوز معه الصلح، بل هو عدو صائل مغتصب للدين والدنيا، وعليه ينطبق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (العدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط، بل يدفع بحسب الإمكان. وقد نص على ذلك العلماء، أصحابنا وغيرهم) (١٠). ويعني ذلك التعريف أن إسرائيل كما يراها بن لادن ليست دولة أصيلة مستقرة بصورة طبيعية في الأراضي التي توجد عليها وتقوم بالاعتداء على جيرانها من الخارج انطلاقاً من ذلك الوضع المستقر الطبيعي كأي دولة أخرى في العالم، بل هي عدو معتد على هؤلاء الجيران من داخل أرضهم التي احتلها بدون حق. وانطلاقاً من ذلك التعريف يرى بن لادن أنه لا يجوز الصلح مع ذلك العدو المعتدي من الداخل كما قد يجوز أحياناً مع العدو المحارب من الخارج انطلاقاً من وضع سياسي وجغرافي مستقر وطبيعي.

وتبدو طبيعة اسرائيل الجغرافية والسياسية حسبما يرى بن لادن متنامية وهادفة للتوسع من أجل الوصول إلى إسرائيل الكبرى، فهو يعتقد أن "من أهم أهداف الحملة الصليبية الجديدة تهيئة الأجواء وتمهيد المنطقة بعد التقسيم لقيام ما يسمى بدولة إسرائيل الكبرى التي تضم داخل حدودها أجزاء كبيرة من العراق ومصر مروراً بسوريا ولبنان والأردن وكامل فلسطين وأجزاء كبيرة من بلاد الحرمين (١١)". وقد ورد مصطلح "إسرائيل الكبرى" حسب هذا المفهوم الذي طرحه بن لادن لها سبع مرات في مواضع مختلفة من وثائقه، مذكراً في معظمها بالدول والمناطق المرشحة لضمها إليها، ومؤكداً فيها على ما سيحيق بتلك الدول والمناطق من جراء ذلك. ويرتبط ما يرى بن لادن أنه سيلحق بتلك الدول والمناطق من جراء توسع اسرائيل بالدور الأساسي الذي يراه لها، حيث يستخلصه من مقولة ابن تيمية السابقة في أنه "إفساد الدين والدنيا"، الأمر الذي يؤدي إلى أن تكون مواجهتها هي الواجب الأول بعد الإيمان بالله وبكل السبل المتاحة والممكنة وبدون أي يشترط فيها أي نوع من الشروط. وفي ظل هذا "الإفساد للدين والدنيا" يرى بن لادن أن قيام "إسرائيل الكبرى" سوف يجعل ما يجري في فلسطين تجاه أهلها في ظل "إسرائيل الصغرى" نموذجاً يراد تكراره في سائر المنطقة على يد التحالف الصهيوني الأمريكي: قتل للرجال والنساء والولدان، وسجون وإرهاب وتهديم للبيوت وتجريف للمزارع، ونسف للمصانع، والناس في خوف دائم ورعب حيث هم ينتظرون الموت في كل لحظة من صاروخ أو قذيفة تهدم بيتاً وتقتل أختاً وتئد رضيعاً (١٢).

www.alkottob.com
Abu Nour

(٢) طبيعة الصراع مع إسرائيل وأطرافه

يبدو واضحاً من ذلك أن بن لادن يتبنى مفهوماً مركباً وفي نفس الوقت بسيطاً للصراع مع إسرائيل التي لا تظهر بمفردها مطلقاً كطرف وحيد مواجه للطرف الإسلامي عنده. وفي البداية فإن بن لادن بصورة لا تقبل الشك يؤمن بفكرة "صراع الحضارات" التي يعيد صياغتها بطريقته عبر مذهبه ومصطلحاته الدينية. فقد وجه إليه مراسل قناة الجزيرة الفضائية تيسير علوني سؤالاً محدداً في هذا السياق طالباً تعليقه على ما يقوله صموئيل هنتنجتون وأمثاله من حتمية صراع الحضارات، وترديد العامة لكلمة الصليبية والصهيونية يشير إلى أن الكثير يؤمنون بهذه المقولة بحتمية صراع الحضارات؟، ولم يتردد بن لادن كثيراً في الإجابة بالموافقة حين قال: "لا شك في ذلك، فهذا أمر واضح مثبت في الكتاب والسنة، ولا يصح لمؤمن يدعي الإيمان أن يكذب هذه الحقائق، فالمعتبر عندنا ما جاءنا من كتاب الله ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولكن اليهود والأمريكان جاءوا بخرافة يروجونها على منابر المسلمين، وبعضهم للأسف حكام المنطقة وكثير من من ينتسبون للثقافة بالدعوة إلى السلام والسلام العالمي. هذه الخرافة لا أساس لها بتاتاً" (١٣). وهذا الصراع الدائم المستمر الأوسع من الصراع مع إسرائيل والذي تعد الأخيرة مجرد جزء منه أو حلقة فيه، هو عند بن لادن سلسلة طويلة من الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي. "فمنذ الحرب العالمية الأولى التي انتهت قبل أكثر من ٨٣ عاماً، وسقط العالم الإسلامي بأسره تحت أعلام الصليب، تحت الحكومة البريطانية، وتحت الحكومة الفرنسية، وتحت الحكومة الإيطالية، قسموا هذا العالم بأسره، وسقطت فلسطين تحت الإنجليز، ومنذ ذلك التاريخ وإلى اليوم أكثر من ٨٣ عاماً يسام إخواننا وأبناؤنا وأخواتنا في فلسطين سوء العذاب، وقد قتل منهم مئات الألوف وسجن مئات الألوف بل فوق مئات الألوف" (١٤).

أما الحلقة الحالية من تلك الحروب الصليبية المتواصلة، وهي تلك التي بدأتها الولايات المتحدة الأمريكية حسب رؤية بن لادن منذ غزوها لأفغانستان في السابع من أكتوبر ٢٠٠١ والتي تتم لصالح إسرائيل أيضاً، فهي "أشد وأعنف وأشرس حملة صليبية تقوم على العالم الإسلامي منذ فجر التاريخ الإسلامي، فقد مرت حروب صليبية سابقة لكن لم يسبق لمثل هذه الحملة مثيل" (١٥).

وهذا الصراع المتواصل منذ قرون وتلك الحروب التي اندلعت خلاله بما في ذلك الحرب الحالية الدائرة في عدة جبهات منها الجبهة الفلسطينية كلها حسب بن لادن ذات طابع ديني لا يقبل الجدل حوله، "والذين يحاولون أن يغطوا هذه الحقيقة الواضحة الجلية التي أجمع العالم بأسره في معرفتها على أنها حرب دينية، إنما هم يخادعون الأمة، يريدون أن يصرفوها عن حقيقة هذا الصراع". ويرتبط ذلك الجوهر الديني للصراع وحروبه بما يرى بن لادن أنه حقيقة مثبتة "في كتاب الله سبحانه وتعالى، وفي سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فلا يمكن بحال من الأحوال أن ننسى هذا العداء بيننا وبين الكفار، فالعداء عقدي، فلابد من الولاء مع المؤمنين وأهل لا إله إلا الله، ويجب البراء من أهل الشرك والكفر والإلحاد" (١٦). ويؤكد بن لادن هذا المعنى بصورة أكثر وضوحاً في وثيقة أخرى عند حديثه عن الأمريكيين وما يريدونه من العراق بعد احتلالهم له، بقوله إن "ذلك الحدث الهائل أخطر أمر الذي أظهر الأمور على حقيقتها للجميع، حيث يظهر مدى حقدهم الدفين على ديننا وأن الصراع صراع ديني عقدي والعداء عداء حضارات فهم حريصون على تذويب الهوية الإسلامية في جميع العالم الإسلامي، فهذا هو موقفهم الحقيقي منا. أما موقفهم من الشعوب الأخرى فهم يستطيعون التعايش مع جميع المناهج الأرضية في الشرق أو الغرب لأن هذه المناهج يمكن تطويعها والاحتيال عليها بما يمكنهم من استنزاف خيرات الشعوب واستعبادها وامتلاكهم على المحاور التي يريدونها. ولكن التحدي الحقيقي لهم هو في العالم الإسلامي حيث إن التحدي الرئيسي تحدٍ عقدي ديني رئيسي وليس تحدياً اقتصادياً أو عسكرياً بالدرجة الأولى، فمقصودهم هو القضاء على الإسلام قبل كل شيء لأنهم على قناعة تامة بأن مخططاتهم في بلادنا على اختلاف محاورها ولاسيما الاقتصادية والفكرية والعسكرية والأمنية لا يمكن تنفيذها إذا كان الإسلام قائماً وحاكماً في المنطقة لأن المسلمين حينئذ يملكون العقيدة والإرادة والقدرة على

www.alkottob.com
Abu Nour

مقاومة محفظاتهم، ودفع طلبهم ورد الصاع بالصاع [١٧].

وفي ظل هيمنة ذلك المنظور لطبيعة الصراع في فلسطين وحولها واعتباره حلقة من حرب حضارية عالمية ومتواصلة منذ العالم الإسلامي ذات جوهر ديني، يحدد من لأن يصبح لا تحتمل النفس الأطراف الرئيسية في ذلك الصراع بوضوح ذلك الخلق المعاصر، حول فلسطين عندما يقول: "أضاف طرفان في الصراع: الفلسطيني العاشق والمتحالف مع الصهيونية اليهودية والتي تتزعمها أمريكا وبريطانيا وإسرائيل، والطرف الآخر هو العالم الإسلامي [١٨]، ويماثل الطرف الأول المعادي كما يراه من لأدن في هذا الصراع وهذا القتال بين الأمان، الفلسطيني، ان قوى قائمة بالأساس حسب من لأدن "أمة صليبية وبين اليهود، أي دولة تتحالف مع ذمي اليهود، فلا تحوس الا نفسها ويذكر من لأدن نفس المعنى في نص آخر عند إجابته على سؤال آخر في نفس اللقاء البحثي، حيث يقول مفصلاً أكثر: نحن في معركة قوية وحاسمة كما ذكرت اليوم بيننا وبين اليهود، وليس بيننا وبين اليهود فقط، بل بيننا وبين أمتهم إسرائيل وبين حاميتها من الصليبيين [١٩]، أما عن اليهود كما يراهم أسامة بن لأدن، فإن الصراع بينهم وبين الإسلام باستمرارهم أعداء "قاتلوا والذين في قلوبهم مرض" أن هذا سلاح دائم مع اليهود فهو قد كثر ما أنزل على محمد (صلعم) [٢٠]، وفي ونشفه أخرى يعتقد بن لأدن حسب نص اليهود كما يراها، حدث أنهم هم الذين أشروا على المخالق ... فما بالك بالمخلوق، وهم قتلة الأنبياء ورفضة العهود ... وأربابه الربا بأسهل الطرق، ولا يعتقدون بدين ان الناس عبيد لهم، بمن في محمد لفتل [٢١].

ووجود اليهود بدولتهم إسرائيل في قلب المتحالف اليهودي الصليبي كما يسميه أسامة بن لأدن والذي يواجه المسلمين لا يقوم وجود عدو آخر مركزي يتحالف ذلك المتحالف وهو الولايات المتحدة الأمريكية التي يرى أنها تمثل الطرف الصليبي فيه، فحسب يرى من لأدن فإن أمريكا تحتل عقلها وأفعمت شعبها مرارا ومكررا منذ أكثر من ثلاثة وخمسين سنة، وهي التي اعتدت بإسرائيل، وهي التي دعمتها، وهي التي أسقت الشعب جسرا جويا (عام) ١٩٩٣ للهجرة لموافق ١٩٧٣ (صلاحا) أنه سيكسون الرئيس الأمريكي حينذاك ومنتصرا سيكسرا من أمريكا إلى تل أبيب بالسلاح والعتاد والرجال، وتر على مجريات المعركة، فكيف لا نقاتلهم، يجب على كل مسلم أن يقاتلها [٢٢]، وبناء على ذلك فإن من لأدن يرى أن العلاقة بين اليهود والإسرائيليين والولايات المتحدة قد وصفت من اتحالهم إلى حد أن "الذين يقودون بين أمريكا وإسرائيل هم أنفسهم، مخططون للأمة، هم خونة حتوا الله ورسوله، خانوا أنفسهم، خانوا أمتهم، يخدمون الأمة" [٢٣]، ويذهب من لأدن إلى وصف أدق لطبيعة ذلك العلاقة كما يراها حيث يعتقد أن من يحرك الولايات المتحدة في الخفية ليس سوى اليهود "الإسرائيليين الذين استطاعوا عن طريق القوى المسيطرة عن القوى الغربية الكبرى بشكل عام، بصفة أخص على مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة وبريطانيا، على أمريكا يوجد التسلط الأسر نمائية، للسيطرة شبه تامة، على المؤسسات الإعلامية، داخل البيت الأبيض كما هو أصبح واضحا على الملأ، وزير الدفاع يهودي، وزيرة الخارجية الأمريكية يهودية، مسئولو سي أي إيه (وكالة المخابرات المركزية الأمريكية)، الأمن القومي، كبار المسئولين يهود" [٢٤]، وهذا التواجد والنفوذ اليهودي والإسرائيلي يدخل في حد ذاته الفساد الأمريكية أي حسبما يرى من لأدن إلى أن تتحول الحكومة الأمريكية إلى "عميلة لأسر نيل وتخدم مصلحة إسرائيل على مصلحة شعبها"، ويرجع ذلك إلى أن قساوسة هذا الحكومة ويعرفون "أن سيلتوا هو على سدة الحكم، وهو الأمر الذي يؤدي بدوره إلى أن الشعب الأمريكي والعرب عموما سيدخل في حيرة حائلة، في حجم لا يحتمل" [٢٥].

من هنا فإن من لأدن يعتقد أنه على المسلمين أن يشيعوا من إن هجوم البيت على أي بقعة في العالم الإسلامي إنما للهاجم الحقيقي هو إسرائيل [٢٦]، حتى لو كانت الولايات المتحدة الأمريكية هي غيرها من الدول الغربية هي التي تقوم به، أما ثاني التركيز الذي بدا واضحا أن من لأدن في السنوات الأخيرة قد راح يضعه على الولايات المتحدة أكثر من إسرائيل كعدو "ينسى للعالم الإسلامي فهو يحمد شيئا نعيد في ما يعتقد هو من أن فإن لفرنسي بعد فرنسي واجب على كل مسلم بأن لكل من القسنتين أهمية الخاصة، إلا أنه وكت يقول

Abu Nour www.alkottob.com

أحيانا قد تتوفر مقومات تبني حتى القضيتين تدفع بها أكثر من شيوعها فتصرف بهذا الاتجاه دون عمل للآخر. الآخر. وبسبي بن لادن تحوّل هذه المواجهة بين العدوين "انتقال من واجب الى واجب، والانتقال من واجب الى واجب أكد منه لا خرج ضمه شرعاً، وكلها يخدم بعضه بعضاً، فتضرب الأمريكان لقضية فلسطين يخدم مسرحيه القضيتين الخرمين. (لعكس بالعكس، ضرب الأمريكيين (الذين) يعتبرون هم خط دفاعي للمشهود في مناطق نفوذ المنطقة الشرقية "بالسعودية"، فلا تعارض بين الأمرين (٢٧). وفي كل الاحوال فبالنسبة بن لادن الذي يخاطب من خلال تسميته "شباب الإسلام" فإن الأولوية في هذه المقابل وفي هذه المرحلة يجب أن تكون لأشد الكفر من الأمريكيين واليهود الذين لن ينتهوا عن عدوانهم إن لم يكفوا عن تسلطهم علينا، لا سالجهاد (...) وإنكم لن تجدوا إلى انتصيب جمهوركم، وتبديد طاقاتكم في معارك جانبية مع الأنظمة، والأطراف، بل وكرارا لضرب عقور راس الكفر حتى تنهار، وعندما ينهار سوف تتداعى له بقية الأطراف بالانهيار والاندثار والاندحار" (٢٨). ويوضح احد اتباع اسامة بن لادن بصورة مفصلة كيف يرى شخصه المواجهة مع الولايات المتحدة في ظل شخصيتها بالمراسل عندما يقول في مقاله منشورة له: "إن التشيخ بن لادن يدرك جيد التشيخ لامني والقصكرية والتسيس والتعاون المافي الموجود بين أمريكا وال صهيون وانظمة الردة وعتقد – مل يعمل على ذلك" إن اصعاف، في ظروف من هذه الاظروف الحالية، بتصرة يساهم في الصراع لحمل التصحيح للعالما المسلمين، على رأسها قضية فلسطين وأن أي صراع، أو اتصالا مع أي ظرف يجر ويحكم الواقع إلى التصادم مع حلفائه، هذا الوعي هو الذي سيظل حفظه الله. تتبنى سعفي حاضرة الى قرار واقع متخيل غير صحيح أو قسا تتعلق بأولويته فهو قتال لاسركيين متمثلة بدلك من تجرد الى تضيق: (أعانوا الذين يلونكم من الكفار.) التوبة: ١٢٣ (، والذين يلونه هو باعتبار مشروعه هذه احمة الكفر الدولي، سواء من ناحية مكانسته فهو يعرفها جيدا فكانت بدلك اهدافه واضحة وتتناسب مع مشروعه وهي ضرب المصالح لأمريكية في العالم وليس إسقاط أمريكا او الهيمنة حكم الله من أمريكا. (أن التشيخ يخدم قضية فلسطين بتقديمه للمصالح الأمريكية لأن اسرائيل تعتبر إحدى ولاياتها في البلاد الاسلامية، لا تعرى بين امريكا وال صهيون" (٢٩). ويسوق نفس المؤلف في مقالة أخرى أسبابا اخرى لتبرير أولوية استهداف الأمريكيين من جانب بن لادن بأنه قد ادرك أن تشكل سيكر حشيقة العولمة والتي تعني الإغراق الشامل على المقومات العقدية والسياسية والاقتصادية والقيمية للوجود الحضاري للأمة لاسلامية. فكان نتيجة للتشخيص قوله تعالى: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) بمعنى قتال العدو الاقرب إلى الناس الذي يعيش معهم في كل دقائق حياتهم. في البيت والمدرسة والشارع والعمل. أنها العولمة بزعامة امريكا الكافرة. لذا فإن الجهاد ضدها يكون من الأولويات لأنها غاية عن العصر واحتلال الكفر هذا المقر، إلى تحرير فلسطين والصلاة في القدس (٣٠).

وبالإضافة إلى هذا المعيار المزدوج الأصلي، فإن بن لادن يضيف إليه عدداً اخر داخلي مما، في التبرير الى الغاء عدد اليهود في الصليبيين "و في الصراع الخاص مع الدولة المعينة، ويضيف بن لادن هذا العدد حسين تحديثه لطبيعة الصراع كما يراها بقوله: "فهذا الصراع في جزء منه صراع فكري داخلي، ولكنه في الأبعاد الأخرى صراع بين الكفر العالمي ومعه المرتدون الموم يزعامته أمريكا الشره من جهة، وبين الامة الإسلامية وطليعتها سراب المجاهدين من جهة أخرى. وهذه الأسر الحاكمة العميلة الظالمة في المنطقة اليوم التي تقمع كل حركة إسلامية وتفرض على الشعوب ممارسات تخدم دينها ودنياها إنما هي نفس الأسر التي باعت فلسطين منذ عشرات السنين قبل قرن من الزمان وهي اليوم تقوم بذلك من وكالة عن أمريكا وحلفائها وهما يشكل امتداداً للحروب الصليبية السابقة على العالم الاسلامي. ويظهر على السياسات الداخلية لبلادنا يتضح لنا معنى التبعية الصهيونية عليه، فالمتحالف لأمريكي غير مسموح له حليه حدث عنه ولا حرج" (٣١). ويصل بن لادن في نظريته إلى هذا البعد الداخلي إلى نظمة الحكم في الدول العربية والمسلمة، إلى حد حكم يرتدهم عن الاسلام نتيجة لما يرى هو انه احبار منه للحد الخارجي حي، حوبه على الإسلام و المسلمين، وهو احبار يرى أن سببته في قاموس السياسة هي الكراسي مقابل خيانة. أن تعريفه في قاموس الشرع حسب فهم بن لادن له فهو "الردة، حيث الحيرة والظهور للكفار على المسلمين والمعاونة في بسنا من نواقض الإسلام العشرة المخرجة من الملة والتي لا يسع المسلم كائنا من كان وفهمه، كائن حاله، وظرفه إلا

Abu Nour
www.alkottob.com

Abu Nour www.alkottob.com

لادن في وجود بعد "يهودي" في ذلك الصراع. فجوهر الصراع المستمر منذ القرن الحادي عشر وحتى اليوم هو أنه "صليبي" - وهو الأمر الذي لا ينتافي حسب وجهة نظره مع وجود ذلك البعد "اليهودي" الذي الطابع المركزي في الصراع. كذلك فإن لادن يرى أن هناك طرفاً داخلياً في هذا الصراع تجب مواجهته بنفس روح مواجهة العدو المزدوج الخارجي، وهو الأنظمة الحاكمة في البلدان العربية والإسلامية التي يعتقد أنها بسبب موالاتها لهذا العدو الخارجي فهي قد ارتدت عن الإسلام بما يوجب قتالها معه. وفي النهاية فحسب فهم بن لادن لطبيعة الصراع مع الدولة العبرية واليهود عموماً، فهو صراع حتمي مكتوب على المسلمين منذ الأزل، وهو "بضعة صراع محسومة نتيجته لصالح المسلمين الذين بشروا بذلك في عديد من النصوص القرآنية والنبوية بالطريقة التي فهمها بها أسامة بن لادن.

(٣) المسئوليات التاريخية عن الصراع وعن احتلال فلسطين

بالانتقال إلى القسم المتعلق بطريقة فهم بن لادن لمسئولية بعض الأطراف الأخرى عن احتلال فلسطين وقيام دولة إسرائيل فيها نجد العديد من المؤاخذات "الصليبي حسب مصطلحاته" يسير واضحاً في كثير من وثائقه التي تلقي بتلك المسئولية على طرفين رئيسيين: الأول هو الحكام والأنظمة العربية بصفة عامة مع التركيز على بعضها بشكل خاص. والثاني هو منظمة الأمم المتحدة.

فبخصوص بمسئولية الأنظمة والحكومات العربية على وجه العموم، يرى بن لادن بوضوح أن ضياع أراضي المسلمين ابتداء بفلسطين ووصولاً إلى الأندلس وغيرها من بلاد الإسلام الضائعة (حتى) بسبب خيانات الحكام وتخاذل المسلمين" (٣٧). ويشار هنا إلى أن إشارة بن لادن إلى مسئولية عموم المسلمين وبعض طوائفهم وفئاتهم كالعلماء عن احتلال فلسطين لم تتكرر كثيراً في وثائقه، حيث تظل المسئولية الرئيسة في هذا السياق حسب تصوره ملقاة على عاتق الأنظمة والحكومات. ويستحضر بن لادن في هذا السياق عدة مرات مصطلح "الخيانة" التي يصفها مرة بأنه كبرى وأخرى بأنها عظمى، لتوصيف تلك المسئولية كما يراها. كذلك فإن بن لادن يعود مرات عديدة إلى تاريخ نظم الصراع حول فلسطين لكي يؤكد دعواه بمسئولية الأنظمة والحكام العرب عن احتلال فلسطين. فيقول في إحدى الوثائق "إن مواقف هؤلاء الحكام في هذه القضية المحورية منذ تسعة عقود هو تعهدهم للإنجليز بالسماح لليهود بتكوين دولة لهم على أرض فلسطين، ثم الخذلان لأهل فلسطين، بل والمخادعة لهم مرات عديدة لكي يلقوا أسلحتهم (...) ثم قبل صدور قرار المظمة الصهيونية، أو ما يعرف بـ الأمم المتحدة - لتقسيم فلسطين لإقامة دولة يهودية فيها؛ لم يحرك حكام العرب ساكناً، بل بقوا أعضاء في هذه المنظمة وما زالوا إلى اليوم، ولم يفعلوا شيئاً يذكر للحيلولة دون ذلك إلا بما يندى له الجبين. فلما قامت دولة اليهود بعد قرار التقسيم بساعات؛ نشبت حرب مصطنعة، ثم ما لبث حكام الدول العربية أن انقذوا على توقيع هدنة مؤقتة استجابة لأمر أمريكي، وانتهى طلبت منهم في العام الذي يليه هدنة دائمة، وهكذا كادوا يدنون فلسطين وأهلها وهم أحياء" (٣٨). ولم يقف حديث بن لادن عن مسئولية الأنظمة والحكام العرب عند ما وقع في فلسطين قبل أكثر من نصف القرن، بل هو يرى أن نفس المسئولية متواصلة حتى المراحل الأخيرة الراهنة للقضية الفلسطينية. ويقول في ذلك المجال: "ثم استمرت المؤامرات مروراً بمؤتمر مدريد وما تبعه، وتواصل السعي لإجهاض الانتفاضة الأولى. ثم ما جرى في مؤتمر شرم الشيخ عام ١٤١٦ للهجرة الموافق ١٩٩٦ للميلاد - بدعمهم لليهود و"النصارى ضد المستضعفين من أهلنا في فلسطين، ثم مبادرة بيروت التي تضمنت الاعتراف باليهود، وجزءاً كبيراً مما احتلوه من أرض فلسطين. وأخيراً مؤامر "خارطة الطريق" (٣٩).

وفي سياق المسئولية العامة التي يحملها بن لادن للحكام والأنظمة العربية عن ضياع فلسطين واستمرار الصراع حولها، فإنه لا يحتل حتى اليوم نصائح من يعتقد أنهم أعداء "الإسلام" خارجيين، يركز على مسئولية خاصة يرى أن النظام السعودي يتحملها، حيث يرى "أنه لما هب الشعب المسلم في فلسطين في جهاده الكبير ضد الاحتلال البريطاني عام ١٣٥٤ هـ الموافق لعام ١٩٣٩ م، عجزت بريطانيا أن تقف أمام المجاهدين أو أن توقف جهادهم،

Abu Nour www.alkottob.com

تم أوحى إليهم شيطانهم أنه لا سبيل إلى إيقاف الجهاد المسلح في فلسطين إلا بواسطة الملك عبد العزيز والذي استطاعته خداع المجاهدين. وقد قام الملك عبد العزيز بمهمته تلك حيث أرسل ابنه فائقيا مع قادة المجاهدين في فلسطين وأبلغاهم بتعهد الملك عبد العزيز بضمان عهود الحكومة البريطانية بأنها ستخرج إذا أوقفوا الجهاد وستلبي مطالبهم. وهكذا تسبب الملك عبد العزيز في ضياع القبلة الأولى للمسلمين"(٤٠). ولا نجد بن لادن في هذا السلوك الذي يتهم به مؤسس المملكة العربية السعودية غرابة له، فهو حسب رأيه كان "يسير على نهج أسلافه من أخذاً الجهاد الدين سيرًا الجيوش السبعة بقيادة الإنجليز تحت قيادة أكبوب باشا إرجل المخابرات الإنجليزية نفسها بذلك على التحرك الشعبي الجاد لتحرير فلسطين فأكملوا المؤامرة ووقعوا هدنة موقف القتال وذلك في عام ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٩ م. "أما خيانتهم العظمى فكانت في أيلول عام ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م للقضاء على انتفاضة الأقصى الأولى"(٤١). وفي مواضع أخرى أقل تكرارا يشير بن لادن إلى مسئوليات حاسمة أخرى عن نهب فلسطين وتراخ قضيتها متحملها حكام وأنظمة عربية أخرى غير السعودية، ومنها السلطة الفلسطينية التي كان مرأسها ياسر عرفات حيث وإني يصفها بالعلاقة وبرى أنه قد "حي" بها لتمارس ما عجزت عن تحقيقه سلطات الاحتلال اليهودي من قمع ضد الشعب الفلسطيني المسلم، ومحاربة لحركاته الجهادية وفي مقدمتها حركة المقاومة الإسلامية (حماس)"(٤٢). ويذكر بن لادن حاكمين عربيين حرين، كرر الإشارة إلى أحدهما وهو الرئيس المصري السابق أنور السادات عدة مرات، برى أنهما متحملان جزءا مهما من تلك المسئولية التاريخية وأنهما قد نالا الجزاء الذي يستحقان من وجهة نظره. فجاهر الملك عبد الله بن الشريف حسين قتل على يد بطل من أبطال فلسطين، وظاهر "نور السادات الذي رموه بالخيانة ثم سيروا على دربه قتل على يد بطل من أبطال مصر المسلمة خالد الإسلامبولي"(٤٣).

أما قسما يخص منظمة الأمم المتحدة، فهي قد حظيت بهجوم مستمر من أسامة بن لادن في عديد من وثائقه محملاً إياها مسئولية رئيسية عن احتلال فلسطين ر مستمرار. "قضية الفلسطينية بأرضنا هي المتصدرة حتى اليوم. ولم تقف مسئولية الأمم المتحدة في رؤية بن لادن عند حدود القضية الفلسطينية، فهي حسبما يرى في المرات الثمانية والثلاثين التي ورد ذكرها في وثائقه هي تعد مسئول بصورة مباشرة عن قضايا أخرى في بلدان العالم الإسلامي وعلى أبرزها إندونيسيا والصومال والعراق والسودان وأفغانستان. ويلخص النص التالي رأي بن لادن في دور ومسئولية الأمم المتحدة عن القضية الفلسطينية: "إن لدين يحيلون ماسيه اليوم ويريدون أن يحلوها في الأمم المتحدة إنما هم منافقون يخادعون الله ورسوله وخادعون الذين آمنوا، وهل مأسأة إلا من الأمم المتحدة؟! من الذي أصدر قرار التقسيم عام ٤٧ لفلسطين؟ (من) أبح بلاد الإسلام لليهود؟ الأمم المتحدة بقرارها في ١٩٤٧، نهؤلاء، الذين يزعمون أنهم زعماء للعرب ومازالوا في الأمم المتحدة هم كفروا بما أنزل على محمد، عليه الصلاة والسلام، الذين يحيلون الأمور إلى الشرعية الدولية هم كفروا بشرعية الكتاب الكريم وسنة المصطفى، عليه الصلاة والسلام. فهذه هي الأمم المتحدة أنتي عانيت منها ما عانيتا، فلا مذهب إليها مسلم يحال من الأحوال، ولا يذهب إليها عاقل، وإنما هي أداة من أدوات الحرية"(٤٤). ويرجع نظر بن لادن إلى ما يعتقد أنه مسئولية الأمم المتحدة عما جرى ويجري في فلسطين إلى طبيعة هذه المنظمة الدولية كما يراها. فما هي "إلا أداة صليبية صهيونية وإن تستترت ببعض الأعمال الإغاثية"(٤٥)، وهي ليست سوى واحدة من "أدوات تتسلل الشعوب واستغلالها (...) والتي يشكل اللوبي الصهيوني أحد أخطر وأصعب أرقامها"(٤٦). ويصل عداء بن لادن للأمم المتحدة إلى حد تخصيص جائزة صليه في إحدى خطبه من ينجح في أن يضل كوفي أنان أو رئيس الأمريكية عن كثير من قضايا العالم الإسلامي.

Abu Nour www.alkottob.com

ب- حل الصراع:

بالانتقال إلى المحور الثاني الرئيسي في رؤية بن لادن للقضية الفلسطينية، وهو المتعلق بحل الصراع الدائر حولها، يتضح من وثائقه المختلفة أنه قد ركز على محورين فرعيين ضمنه، يتعلق الأول بالهدف النهائي أو الاستراتيجي الذي يسعى لتحقيقه ويرتبط الثاني بالوسائل والأدوات التي يمكن عبرها الوصول لذلك الهدف.

(١) الهدف النهائي أو الاستراتيجي

بوضح الفحص والتحليل لمدلول مواثائق بن لادن أنه لم يفصل أبداً بين الهدف النهائي للصراع حول القضية الفلسطينية كما يراه، وهو إعادة فلسطين إلى أيدي المسلمين كاملة، وبين أهداف أخرى تخدم فيها رؤيته الفكرية الأشمل، فهو بداية يضع فلسطين وهدف عودتها ضمن أولى أخرى صممه كما يظهر في دعوته إلى النفير أي سير الهدة الأمة "من رشدها بعز فيه أهل طاعته ويمن فيه أهل معصيته ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ويحكم فيه بالعدل ويصنع فيه بالحق، وتعود فيه راية الجهاد خفاقة، لتستعيد الأمة عزتها وكرامتها، وترفع راية التوحيد فيه من جديد فوق كل أرض سلاماً سليبة، ابتداء بفلسطين ورسولاً إلى الأندلس وغيرها من بلاد الإسلام الضائعة (٤٨). وبتبين أن بن لادن لا يقبل عودة فلسطين لمجرد العودة بل بشرط أن يقترن ذلك بهدف آخر، هو أن يتم فيها تحكيم "الشرع وتكون كلمة الله هي العليا"، وهو هدف يرى "أنه يستحق الجهاد من أجله مثل هدف تحرير الأرض نفسها. ويوضح بن لادن مدى اقتران الهدفين الذين يصف إليهما أهدافاً أخرى في دائرة أخرى حيث يقول: "أؤكد أننا جزء من هذه الأمة، وأن هدفنا هو تحرير أنفسنا والسعي لرفع الظلم والذل والهوان والخروج عنها، ورفع الأحكام الوضعية التي فرضتها أمريكا على عمالئها في المنطقة، لتحكم هذه الأمة بكتاب ربها الذي حفظه سبحانه وتعالى (...) هذا أن نجتمع هذه الأمة على كلمة سواء، نحت كتاب ربنا سبحانه وتعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وأن تتحرر هذه الأمة بقيام الخلافة الراشدة مع الأمة الإسلامية عموماً التي يبشر رسولنا عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح، أن الخلافة الراشدة ستعود بإذن الله سبحانه وتعالى، والمطلوب من الأمة أن توحد جهودها في هذه الحملة الصليبية (٤٩). ويبدو واضحاً هنا أن تحرير فلسطين لا يفصل عند بن لادن عن قيام الدولة الإسلامية فيها ولا عن هدف أوسع وهو إعادة دولة الخلافة الراشدة التي يعتقد بن لادن أنها ولا شك عائدة.

وبذلك لا يفصل ذلك الاستمرار في الأهداف النهائية والاستراتيجية للصراع حول القضية الفلسطينية عن تصوره الأصلي لطبيعة ذلك الصراع الذي يعتقد أنه "وكما سبقت الإشارة، صراع قديم متجدد إلى عمق بعيد في التاريخ الإسلامي ويمتد حديثاً النشأة مع قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. فهو كما يعتقد بن لادن قد بدأ مع الحروب الصليبية التي استمرت لنحو قرنين من الزمان (١٠٩٩-١٢٩١ ميلادية)، وفي "تون ذلك الصراع امتد القديم حسب رؤية بن لادن فقد تساعت من المسلمين دولتهم الموحدة تحت شعار الخلافة الراشدة كما سقط تحكيم الإسلام كما يعتقد في عديد من المناطق والبلدان المسلمة من هنا فهو يقرن بين تلك الأهداف الثلاثة معاً لاعتقاده بالترابط معاً عبر ذلك الصراع الطويل الممتد الذي يعد الصراع حول فلسطين مجرد حلقة أخيرة فيه.

(٢) الوسائل والأدوات

يبدو واضحاً من مجمل وثائق أسامة بن لادن أنه منحاز بصورة لا تقبل التأويل في تصوره للوسائل والأدوات التي يمكن بها تحقيق الهدف النهائي السابق ذكره مع الأهداف الأخرى المقترنة به، إلى "الجهاد" الذي يسوق صوراً ومسميات عديدة له. ويصور "أولية خاصة من بن لادن الحجارة للجهاد كطريق رئيسي وضعه مباشرة بعد الإيمان عندما يقول: "والآن نتحدث عن ما هو واجب المسلمين تجاه هذه الحرب الصليبية الجهوية تجاه هذا الإسلام (...) إن أوجب الواجبات بعد الإيمان اليوم هو دفع: فعال العدو الصائل على شيخ الإسلام رحمه الله، وأن دفع العدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط فالجهاد اليوم متعين على الأمة

Abu Nour www.alkottob.com

بأسرها ، هي واقعة في الإثم إلى أن تخرج من أبنائها و أموالها و طاقاتها ما يكفي لقيام الجهاد الذي يدفع بأس الكفار عن جميع المسلمين في فلسطين و غيرها . فيجب على المؤمنين أن يجاهدوا لإحقاق الحق و إبطال الباطل كل بحسب طاقته . ويسوق بن لادن بعد ذلك الحديث النبوي المشهور الذي يتضمن صور الجهاد المختلفة سواء باليد أو باللسان او بالقلب، لكي يربط بعدها مرة أخرى بين الجهاد والإيمان ويعدد صور الجهاد التي تضمنها الحديث الشريف، يقول: فما إنما مؤمنون إذا فحص مجاهدون في سبيل الله لنصرة الدين. فالمؤمن الذي عجز عن الجهاد بيده و لسانه يجب عليه أن يجاهد بقلبه، و من ذلك أن يستنفر في بعض أعداء الله ، يدعو عليهم و أن يستنفر في موالاة المؤمنين و المجاهدين و يدعو لهم و يستشعر الاخوة الإيمانية التي تربطه بالمسلمين في جميع مشارق الأرض و مغاربها ، و ينبغي أن يستشعر أن أهل الإيمان في قسطاط واحد و أن أهل الكفر في قسطاط واحد إلى أن يمن الله على لأمة بعودة تعضم المسلمين تحت لوائها بإذن الله، و ينبغي أن يحدث نفسه بالجهاد في سبيل الله بيده و لسانه و هذا أضعف الإيمان"(٥٠).

ويستقل بن لادن في تلك الوثيقة ووثائق أخرى إلى الجهاد بالنفس أو القتال لكي يجعل منه أهم و أسمى صور الجهاد وأشكاله ، وهو يرى أنه "إن كان متعينا على الأمة بأسرها إلا أنه في حق الشباب أكد مما هو في حق الكهول و الشيوخ"(٥١). ويخاطب بن لادن هؤلاء الشباب في موضع آخر من نفس الوثيقة قائلاً: "لم أنتم أولى السباب بالاجتهاد في الجهاد فهم أولى المعنيين بقرضيته اليوم كما أشار إلى ذلك الشيخ طي رحمه الله في المواقفات. و اعلموا أن استهداف الأمريكيين و اليهود بالقتل في طول الأرض وعرضها من أعظم الواجبات و أفضل القربات إلى الله تعالى. كما أوصيهم بالالتفاف حول العلماء الصادقين و الدعاة المخلصين العاملين و أوصيهم بالاستعانة على قضاء حوائجهم بالكتمان و لا سيما في الأعمال العسكرية الجهادية. و أيضركم عامة و إخوتنا في فلسطين خاصة أن أعوانكم المجاهدين ماضون في طريق الجهاد لاستهداف اليهود و الأمريكيين"(٥٢). ويضرب بن لادن أمثلة عملية للمتاتج لإيجابية التي يرى أن الجهاد باليد، أو القتال، يحققها لصالح القضية الفلسطينية ومنها قوله أن العنو بسعى لضرب الجيوب الإسلامية المتلهفة لتحرير فلسطين عن طريق الجهاد الذي أكد من خلال عمليات اطلا الحجارة بشباب الجهاد المسلم في فلسطين أنه السبيل الوحيد الناجع في مواجهة العدو والتكفيل بتحرير الأرض ان شاء الله" (٥٣).

ويوضح التحليل الدقيق لنظرة بن لادن للجهاد بالسلاح باليد، أو استخدام القوة: أنه يملك رؤية متكاملة في هذا السياق تبدأ باقتناعه المباشر بأن "القتال في سبيل الله جزء لا يتجزأ من ديننا ، بل هو ذروة سنام الدين ؛ كيف يبقى الدين بدون ذروته، وهو ضرورة مُلحّة لحماية أمتنا وعزتها وبقائها"(٥٤). ثم ينتقل بن لادن بعد ذلك للبرهنة على صحة تجاوزه هذا للقوة فيلجأ إلى استخدام نفس المنطق الذي يستخدمه عدوه الرئيسي فيقول: "وقد صدق عدونا وهو كذوب، إذ قال معلماً لأبنائه: "أنت تقاتل إذن فأنت موجود، عده هي لحقيقه التي يعلمونها أبناؤهم ويربلون الينا بعكسهم . كما أن القتال مطلقاً ضرورياً لبقاء الدول الكبرى، وانظروا التاريخ إن شئتم - بما في ذلك تاريخ أمريكا - فقد اشتعلت عشرات الحروب خلال ستة عقود فقط. لأن ذلك من أعظم ضرورانها الملحة. فيرو أن تتخلى الولايات المتحدة الأمريكية قراراً صادماً بإنهاء الحروب في العالم فهي تعلم قبل غيرها أن ذلك اليوم هو بداية تفككك ولايانها وانهيارها !(...) فحذرو كل دعوة لإلقاء السلاح تحت اسم الدعوة للسلام، لأنها في الحقيقة دعوة لتخديرنا واستسلامنا، ولا يُروّج لمثل هذه الدعوات إلا جاهلٌ أو منافق"(٥٥). يبين هذا النص شديد الأهمية والدلالة قدرة بن لادن على قراءة الأساس الفلسفي الذي قامت عليه التجربة الأمريكية خصوصاً وجه عهم من التجربة الغربية عموماً، كما يبين مدى اقتناعه بأن هذا الأساس نفسه هو الملازم لبنا أنة إسلامية قوة موحدة لن يكتب لها أن تعيش في العالم الحالي بدون امتلاك تلك القوة الهائلة.

وفي دقطة أخرى يطرح بن لادن بصورة مباشرة الهدف المرحلي من امتلاك تلك القوة الكبيرة التي يسعى اليها. حيث راى أن الأمريكيين والغربيين عموماً لم يبدو ا في الاهتمام بالقضية الفلسطينية والسعي للتوصل حل لها

Abu Nour www.alkottob.com

حتى لو لم يكن عادلاً إلا بعد هجمات سبتمبر ٢٠٠١ التي بنا، على "تناقضاتها تحرك بوش ويليبر قالوا حان الآن الوقت لإقامة دولة صديقة لفلسطين - سبحان الله - منذ عشرات السنين ما حان الوقت إلا بعد هذه الضربة؟ فهم لا يفقهون غير لغة الضرب وغير لغة القتل، فكما يقتلوننا لابد أن نقتلهم حتى يحصل هناك توازن في الرعب" (٥٦).

وهذا التوازن للرعب يرى بن لادن "أنه يصل لأول مرة "بين المسلمين والأمريكان في هذ العصر الحديث، وكان النتيجة للأمريكيين يفعلون بنا ما يشاءون. وتقع الصحيفة من أن نصبح أو نتأوه". ويعود بن لادن مرة أخرى إلى الأساس الفلسفي للتجربة الأمريكية والذي يستند إلى احترام القوة والخوف منها. حيث "الغربيون عموماً و"الأمريكيون خصوصاً" لا يفقهون إلا "إذا وقع الضرب على رؤوسهم" وهو ما ارتبط بانتقال المعركة إلى داخل أمريكا والتي "عند بن لادن هو أصلها "حتى يتم النصر" أو نلقى الله سبحانه وتعالى دون ذلك" (٥٧). وحتى سعي بن لادن إلى نزع الرعب هنا. أجاب عن سؤال وجه له حول حقيقة سعيه لامتلاك سلاح نووي أو كيماوي أو بيولوجي، بقوله أن حق الدفاع عن النفس هو حق لكل البشر. "فمتى وقت تحوزن إسرائيل قنبلة الميات من الرؤوس النووية والقنابل النووية، يسقط فيه الغرب الصليبي على هذا السلاح بنسبة كبيرة، لا تعتبر هذه تهمة بل هو حق ولا نقبل من أحد أن يوجه تهمة لنا" (٥٨). ويستدرك بن لادن في إجابته عن السؤال "المتالي عبثرة معتبراً أن امتلاك تلك الأسلحة ليس فقط حقاً للمسلمين بل هو أيضاً واجب عليهم. وإلى جانب تلك القوة العسكرية والوسائل التي تعبر عنها يدعو بن لادن لامتلاكها في المقام الأول لتحقيق هدفه النهائي من الصراع حول القضية الفلسطينية. تأتي الوسائل والأساليب الاقتصادية التي يطرحها لتحقيق نفس الهدف والتي توجد دراسة مستفلة حولها في ذلك القسم الخاص.

وبنظرة أخرى إلى وثائق بن لادن يتضح أن بن لادن يطرح في عديد منها ما يمكن اعتباره "خطة" متكاملة ومتعددة الجوانب لتحقيق الهدف النهائي الذي يطرحه على نفسه. وفي هذا الإطار يقول بن لادن: "إن أمة الإسلام تعاني على الظلم والطغيان، على الجور والعدوان، على الذل والامتهان، فليس الخبر بأعز عندنا من دمنا، ولا الأموال بأغلى علينا من أعراضنا، ولا الموت بأصعب في حسنا من حياة الذل والهوان. فالوسيلة ممكنة ومتاحة لكل فرد من أفراد أمتنا، وهي كما تالتالي: (١) رفض الهيمنة الاستسلامية والسعي لخلعه الأمة للخروج بمظاهرات شعبية وعصيان مدني حتى سقوط الحكومات الخائنة. (٢) السعي للخروج على أنظمة الكفر واتفاق المدن ارتفعوا عن دينهم وحاولوا أسلمتهم وقتالهم. (٣) ضرب المصالح الأمريكية المنتشرة في العالم بشكل عام وعلى أرض أمتنا العربية والإسلامية بشكل خاص. (٤) مقاطعة البضائع الأمريكية والمهزومة. (٥) قتل الأمريكان واليهود حيثما وجدوا. أو طعنهم بسكين. أو رميهم بحجر... الخ. (٦) دعم المجاهدين والوقوف وراءهم والشد من أزرهم والدعم لهم" (٥٩). وتأتي مثل تلك الخطط التفصيلية ضمن تصور نظري عام يأتي ضمنه الجهاد بطرحه بن لادن بقوله أنه "يسعى على دعاة الإصلاح أن يعملوا أن الطريق لإصلاح الأمة وتوحيدها تحت كلمة التوحيد: ليس بالمحاضرات النظرية وتأليف الكتب فقط، ولكن لابد أيضاً من مشروع عملي تتخرط فيه الأمة كلها كلٌ بحسبه ابتداء بالفرد وانتهاء إلى الله وانتهاء بالقتال في سبيل الله" (٦٠).

ولي النهاية يطرح بن لادن دوره الشخصي فيما يرى أنه جهاد الضروري لمواجهة العدو اليهودي - الصليبي عموماً واليهودي الإسرائيلي خصوصاً، والذي يلخصه في عملية التحريض حيث يقول: "نحن واجبنا والذي فرض علينا هو أن نحرض الأمة على الجهاد في سبيل الله، ضد أمريكا وضد إسرائيل وضد أعداء الله. وسارلنا في هذا الخط نحرض الناس. وما حصل بفضل الله سبحانه وتعالى من تحرك شعبي في هذه الشهور الأخيرة يستثر في الاتجاه الصحيح لإخراج الأمريكان من بلاد المسلمين" (٦١). ويبرر بن لادن قيامه بهذا الدور "نظراً للظروف التي تحيط بنا، وبعد القدرة على الحركة خارج أفغانستان فواجبنا أن نقوم بما نيسر لنا". ويفصل بن لادن صور التحريض الذي يقوم به والأساس الديني الذي يستند إليه فيقول: "نحن حرضنا منذ سنتين وأصدرنا بيانات وأصدرنا فتاوى في هذا الباب، وغير ذلك أيضاً من التحريض المستمر في لقاءات كثيرة ونشر في الإعلام". ويرجع بن لادن أساس هذا الدور التحريضي إلى أن الله قد كلف به رسوله (صلعم) وأنه بذلك يعد واجباً على المسلم وذلك استناداً إلى

Abu Nour www.alkottob.com

الآية الكريمة: (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا...). ثم ينتقل من لادن بعد ذلك إلى الدور العملي في الجهاد، والذي كرر تخره به في عديد من مناسبه، فيقول (يفصل الله نحن شكلنا مع عدد كبير من إخواننا الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين، ونعتقد أن كثيرا من هؤلا، أمورهم تسير بشكل جيد. ولدينا حركة واسعة نرجو الله ان يفتح عليهم في المستقبل في نصرة الدين والانتقام من اليهود والنصارى وأمريكا) (٦٢).

ثالثا: لماذا لا تضرب القاعدة أهدافا إسرائيلية؟

بعد تلك التقاطعات السابقة حول رؤية أسامة بن لادن للقضيتين الفلسطينية والصراع لدائر حولها، مثل التساؤل المشروع والتصاوري حول علاقة تلك الرؤية بالواقع العملي لتصرفاته، أو بصياغة أخرى مدى انخراط تنظيم قاعدة الجهاد الذي يقوده بن لادن والجماعات المنتمية إلى فلكه في مواجهة عملية مع الدولة العبرية. وتعود أهمية التطرق إلى ذلك الواقع العملي إلى أنه يشكل المستوى العملي الذي يظهر النص والرؤية النظرية مجسدة ولا تكتسب أي معان حقيقية بمعزل عنه وتظهر في هذا السياق الملاحظة المحورية وهي أن التنظيم أو الجماعات المنتمية إلى فلكه والمحتفظة بتواجده في مختلف دول العالم لم تقم بأي عمليات تذكر تقريبا ضد أهداف إسرائيلية بمناطق الدولة العبرية أو خارجها. وقد ذهبت بعض الكتابات في تفسير ذلك الأمر إلى حد القول بتسعية أو باختبار لمتغيرات لإستراتيجية للتنظيم وللبعض من الفروع المنتمية في فلكه بحيث عملت على توجيهها نحو أهداف أخرى وابعادها عن الأهداف الإسرائيلية في الداخل والخارج. إلا أن شكوكا عديدة تحيط بذلك التفسير، وترجح وجود أسباب أخرى وراء ذلك الندرة في عمليات القاعدة وفروعها ضد الأهداف الإسرائيلية الداخلية والخارجية.

والأكثر ترجيحا هو أن القاعدة قد اختارت استراتيجية بعينها تجاه الدولة العبرية هي التي وصلتنا إلى أوضح السابق وصفه. فمن ترجيه، كانت الدولة العبرية، ستا بالنسبة لتنظيم قاعدة الجهاد أو لكل التنظيمات والجماعات والأفراد المنتمين إليه لسوء في حربه وأهدافه، أبرز الأعداء بصورة مستمرة له بغض منه وجود أعداء آخرين لهم سواء، كانوا الاتحاد السوفيتي السابق في بعض المراحل أو الولايات المتحدة في المرحلة الحالية أو النظم الحاكمة في بلدانه في مراحل غيرها. وعلى خلاف تصورات كثيرة غير دقيقة، فقد مثلت الدولة العبرية بالنسبة لرغيم تنظيم قاعدة الجهاد أسامة بن لادن وكل قياداته منذ بدايته التسعينات أبرز الأعداء، الذين يسعى لمواجهتهم بجانب الولايات المتحدة، وذلك كما يظهر التحليل لسابق لكافة لوثائق والأحاديث والخطب المنسوبة إليه منذ ذلك الوقت. وإذا كان ذلك هو المعنى على صعيد الرؤية الفكرية، فعلى الصعيد العملي لم يبدأ توجيه ضربات لأهداف يهودية أو إسرائيلية حول العالم من القاعدة التنظيم أو لتشكل سوى مع عملية تفجير المعهد اليهودي في جربا بتونس في بداية عام ٢٠٠٢، والتي تؤكد المؤشرات - حتى الآن - أن من قاموا بها ليسوا محسوبين على التنظيم كما حاول المتحدث الرسمي باسمه لادعاء بعد ذلك، بقدر ما انهم إسلاميون يشتركون معه في التوجهات العامة و الأهداف.

وأتى بعد ذلك العملية المزدوجة التي وقعت في موسكو بكينيا في نهاية نفس العام، والتي وضح تماما أنها قد نفذت بتخطيط وتنفيذ تنظيم قاعدة الجهاد نفسه. فبالإضافة لبيانات المسئولية عن العمليتين التي صدرت عن التنظيم، فإن مكانهما وتفاصيلهما الدقيقة والملابسات المحيطة بهما تؤكد جميعها أنه هو المسئول عنهما. ويعود من اختيار الهدفين والمكان الذي تمت فيه العمليتان أن ذلك التنظيم قد أراد في ذلك الوقت أن يبدأ مرحلة جديدة في مواجهته للدولة العبرية يسعى خلالها إلى توجيه ضربات لمصالحها في المناطق التي توجد له بها خلايا ومجموعات تنشط والسابق الإشارة إليها، وأنه اختار كينيا التي سبق لسلفه - الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود - الصليبيين - ضرب السفارة الأمريكية فيها عام ١٩٩٨، والمعروفة بأنها من بين قواعد المخابرات الإسرائيلية في أفريقيا. في نفس الوقت، فربما يكون التنظيم قد راهن على أن الظروف الأمنية الصعبة التي تم تحمل دون تنميته هاتين العمليتين،

Abu Nour www.alkottob.com

سوف تدفع مزيداً من التنظيمات والجماعات والأفراد الإسلاميين المتحمسين معه في معركتها والمعادين والمضرين من السياسات الأمريكية والإسرائيلية إلى محاولة استهداف المصالح الإسرائيلية في مختلف مناطق العالم التي يوجدون بها والتي قد لا يكون في بعضها أي تواجد تنظيم القاعدة. إلا أن السنوات التي مضت منذ ذلك الوقت لم تشهد أي عمليات قام بها "التنظيم" أو أحد "فروعه" ضد أي أهداف إسرائيلية خارجية أو داخلية سوى تلك العملية الفاشلة التي تمت من مدينة العقبة الأردنية قبل عدة شهور وقصف فيها صنيا ، إيلات الإسرائيلي بقذائف الهاون. ونسبها "تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين" لنفسه.

ولأرجح أن عدم استهداف القاعدة أو "فروعها" للمصالح الإسرائيلية الداخلية والخارجية خلال كل تلك السنوات يأتي رغم توسع الدعوة العبرية في سفدمة اعمدا ء بعود إلى الأسباب. أول تلك الأسباب ربما يرجع إلى القدرات الأمنية العالية لأجهزة الأمن والاستخبارات الإسرائيلية والتي مكنتها حتى اليوم من حماية تلك المصالح الإسرائيلية وبخاصة في ظل تعاونها الوثيق مع الأجهزة المماثلة في "الولايات المتحدة" وكافة الدول الغربية الأخرى وتعديد من تلك الموجودة في الدول العربية. وربما يرجع ثاني الأسباب إلى عدم قدرة أفكار وتوجه القاعدة احترق الشعب الفلسطيني سواء في الأراضي المحتلة بعد ١٩٦٧ أو داخل الخط الأخضر وهو الأمر الذي ألعى تقريباً أي قدرة لها على القيام بأي عمليات ضد أي أهداف إسرائيلية في الداخل. وربما يكون هذا الفشل في اختراق الشعب الفلسطيني يعود بصفة رئيسية إلى وجود المنظمات الإسلامية الفلسطينية المقاومة وبخاصة حماس والجهاد الفلسطيني وقدرتها الكبيرة على الحرج بين عمليات المقاومة المؤثرة والعمل السياسي والاجتماعي النشط في صفوف هذا الشعب مما يغنيه عن أي أفكار أو تجارب تأتيه من تنظيم القاعدة. كذلك فمن الوارد أن يكون تنظيم القاعدة يدرك بوضوح مدى الضرر الذي يمكن أن يسببه للمقاومة الفلسطينية عموماً والإسلامية منها خصوصاً في حالة قيامه بتنفيذ عمليات باسمه بداخل الدولة العبرية، حيث سيكون ذلك بمثابة ترخيص للدولة العبرية لتوجيه انظار العالم بعيداً عما تقوم به من فظائع في الأراضي الفلسطينية بحجة أنها قد صارت الآن دولة ضحيه للإرهاب الإسلامي والعربي على العالم أو بتعبير آخر معهم. ويؤيد هذا لا أن بدء أي هجمات على جوانبها في حين الفلسطينيين. كما أنه سيكون مرحباً أيضاً للحكومة الإسرائيلية لتشويه صورة المقاومة الإسلامية الفلسطينية بتوريط صور علامة باعتبارها جزءاً من القاعدة التي باتت رمزاً للإرهاب في العالم كله.

الهوامش والمصادر:

١. وردت في كتاب "أسامة بن لادن: مجدد الزمان وقاهر الأمريكان" تأليف "بي جنتل الأسدي" من-ص: ٤٢٤-٤٢٦، موقع "منبر التوحيد والجهاد" على شبكة الانترنت:
http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info

٢. وردت على شبكة الإنترنت في موقع: http://www.freehomepages.com/hwarzen/laden

٣. وردت في كتاب "أسامة بن لادن: مجدد الزمان وقاهر الأمريكان" السبق ذكره، من-ص: ٤٢٦-٤٣٤.

٤. خطاب "أسامة بن لادن إلى الملك فهد بن عبد العزيز، ٣ أغسطس ١٩٩٥"، ورد في كتاب "أسامة بن لادن: مجدد الزمان وقاهر الأمريكان"، مرجع سبق ذكره، من-ص: ٤٣٤-٤٥٥.

٥. كلمة أسامة بن لادن للباكستانيين، لاثنين ٢٤ سبتمبر ٢٠٠١، قناة الجزيرة الفضائية، وهي كلمه

Abu Nour www.alkottob.com

ألقاه بمناسبة مقتل بعض المتظاهرين الباكستانيين في كراتشي الذين خرجوا احتجاجاً على تعاون الحكومة الباكستانية مع الولايات المتحدة الأمريكية استعداداً لغزو أفغانستان.

٦ ـ كلمة أسامة بن لادن في الذكرى الثانية لهجمات الحادي عشر من سبتمبر، ١١ سبتمبر ٢٠٠٣، قناة الجزيرة الفضائية.

٧ ـ اللقاء الصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني لمراسل الجزيرة في أفغانستان وله تذعه قناة الجزيرة، ٢١ أكتوبر ٢٠٠١، ورد في موقع "مركز الدراسات والبحوث الإسلامية" التابع لتنظيم قاعدة الجهاد:

www.alneda.net

www.alneda.com

www.alneda.org

٨ برنامج تحت المجهر، قناة الجزيرة الفضائية، ١٠ سبتمبر ٢٠٠٢، موقع الجزيرة نت.

٩ برنامج تحت المجهر، قناة الجزيرة الفضائية، ١٨ أبريل ٢٠٠٢، موقع الجزيرة نت.

١٠ رسالة مفتوحة إلى ابن بز بطلان فتواه بالصلح مع اليهود"، مرجع سبق ذكره.

١١ خطبة أسامة بن لادن المعروفة باسم "خطبة عيد الأضحى"، ١٦ فبراير ٢٠٠٣، قناة الجزيرة الفضائية.

١٢ المرجع السابق.

١٣ ـ اللقاء الصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني لمراسل الجزيرة في أفغانستان، مرجع سبق ذكره.

١٤ ـ كلمة أسامة بن لادن، قناة الجزيرة الفضائية، ٤ نوفمبر ٢٠٠١.

١٥ ـ اللقاء الصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني لمراسل الجزيرة في أفغانستان، مرجع سبق ذكره.

١٦ ـ كلمة أسامة بن لادن، ٤ نوفمبر ٢٠٠١، مرجع سبق ذكره.

١٧ ـ كلمة أسامة بن لادن للأمة وللمسلمين في العراق خاصة، قناة الجزيرة الفضائية، ٦ مايو ٢٠٠٤.

١٨ ـ اللقاء التليفزيوني مع أسامة بن لادن الذي أجراه مراسل الجزيرة في أفغانستان جمال إسماعيل في نهاية عام ١٩٩٨، وبثته قناة الجزيرة الفضائية في ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١، كما ورد نصه الكامل في كتاب: "بن لادن والجزيرة وأنا" الذي ألفه بعض مراسل بعد أن ترك العمل مع قناة الجزيرة ويوجد في عدد من المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت، ص ص: ٧٢ ـ ١١٢.

١٩ ـ اللقاء الصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني لمراسل الجزيرة في أفغانستان، مرجع سبق ذكره.

٢٠ ـ المرجع السابق.

٢١ ـ خطبة أسامة بن لادن المعروفة باسم "خطبة عيد الأضحى"، مرجع سبق ذكره.

٢٢ ـ اللقاء الصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني لمراسل الجزيرة في أفغانستان، مرجع سبق ذكره.

٢٣ ـ كلمة أسامة بن لادن، ٤ نوفمبر ٢٠٠١، مرجع سبق ذكره.

٢٤ ـ اللقاء التليفزيوني مع أسامة بن لادن الذي أجراه مراسل الجزيرة في أفغانستان جمال إسماعيل، مرجع سبق ذكره.

٢٥ ـ اللقاء الصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني لمراسل الجزيرة في أفغانستان، مرجع سبق ذكره.

Abu Nour www.alkottob.com

٢٦ ـ اللقاء التليفزيوني مع أسامة بن لادن الذي أجراه مراسل الجزيرة في أفغانستان جمان إسماعيل، مرجع سبق ذكره.

٢٧ ـ اللقاء الصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني مراسل الجزيرة في أفغانستان، مرجع سبق ذكره.

٢٨ ـ بيان من منظمو القاعدة إلى الأمة الإسلامية بمناسبة مرور سنة على بدء الحرب الأمريكية في أفغانستان بتوقيع أسامة بن لادن، ١٢ أكتوبر ٢٠٠٢، ورد في موقع "مركز الدراسات والبحوث الإسلامية" التابع لتنظيم قاعدة الجهاد:

www.alneda.net
www.alneda.com
www.alneda.org

٢٩ ـ انظر مقالة "ابن لادن والقضية الفلسطينية" المنشورة باسم أبو ابن الهلالي في عديد من المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت، من بينها المواقع السابقة.

٣٠ ـ انظر مقالة "إجابات حول الفكر السياسي للإمام أسامة بن لادن حفظه الله"، المنشورة باسم نفس المؤلف في عديد من المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت، من بينها الموقع السابق.

٣١ ـ رسالة أسامة بن لادن إلى المسلمين في بلاد الحرمين خاصة وإلى المسلمين في غيرها عامة، ١٥ ديسمبر ٢٠٠٤، وردت في عديد من المواقع الإسلامية منها منتدى الأنصار الإسلامي

http://fws.net/helaiwbn/free/osamah5_04_1.rm

٣٢ ـ بيان أسامة بن لادن حول مبادرة ولي عهد السعودية حول الصراع العربي ـ الإسرائيلي، ١٥ مارس ٢٠٠٢، ورد في كتاب أسامة بن لادن: مجدد الزمان وقاهر الأمريكان"، مرجع سبق ذكره.

٣٣ ـ انظر مقالة "إجابات حول الفكر السياسي للإمام أسامة بن لادن حفظه الله"، مرجع سبق ذكره.

٣٤ ـ اللقاء التليفزيوني مع أسامة بن لادن الذي أجراه مراسل الجزيرة في أفغانستان جمال إسماعيل، مرجع سبق ذكره.

٣٥ ـ اللقاء الصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني مراسل الجزيرة في أفغانستان، مرجع سبق ذكره.

٣٦ ـ خطبة أسامة بن لادن المعروفة باسم خطبة عمد الأبيض، مرجع سبق ذكره.

٣٧ ـ "رسالة مفتوحة إلى ابن باز سطلان فتواه بالتضييع على اليهود"، مرجع سبق ذكره.

٣٨ ـ أسامة بن لادن، "توجيهات منهجية"، الجزء الثالث، وهي عبارة عن تجميع لكلمات ومحاضرات ألقاها بن لادن بعد سقوط أفغانستان عام ٢٠٠١، وردت في عديد من المواقع الإسلامية منها منتدى الأنصار الإسلامي:

http://fws.net/helaiwbn/free/osamah5_04_1.rm

٣٩ ـ المرجع السابق.

٤٠ ـ إعلان الجهاد على الأمريكيين المحتلين لبلاد الحرمين، ٢٣ أغسطس ١٩٩٦، ورد في أكثر من موقع إسلامي على شبكة الإنترنت، منها موقع الجهاد "ون لاين":

http://www.jehad.net/
http://www.aljihad online.hos.it/

٤١ ـ بيان أسامة بن لادن حول مبادرة ولي عهد السعودية حول الصراع العربي ـ الإسرائيلي، مرجع سبق ذكره.

٤٢ ـ خطاب أسامة بن لادن إلى الملف فهد بن عبد العزيز، مرجع سبق ذكره.

Abu Nour www.alkottob.com

٤٣. بيان أسامه بن لادن حول مبادرة ولي عهد السعودية حول الصراع العربي – الإسرائيلي، مرجع سبق ذكره.
٤٤. كلمة أسامة بن لادن، ٤ نوفمبر ٢٠٠١، مرجع سبق ذكره.
٤٥. كلمة أسامة بن لادن للأمة وللمسلمين في العراق خاصة، قناة الجزيرة الفضائية، ٦ مايو ٢٠٠٤.
٤٦. رسالة أسامة بن لادن بعرض الهدنة الى أوربا، قناة الجزيرة الفضائية، ١٥ أبريل ٢٠٠٤.
٤٧. كلمة اسامة بن لادن للأمة وللمسلمين في العراق خاصة، مرجع سبق ذكره.
٤٨. "رسالة مفتوحة الى ابن باز ببطلان فتواه بالصلح مع اليهود"، مرجع سبق ذكره.
٤٩. "اللقاء" لصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني مراسل الجزيرة في أفغانستان، مرجع سبق ذكره.
٥٠. خطبة أسامة بن لادن المعروفة باسم "خطبة عيد الأضحى"، مرجع سبق ذكره.
٥١. المرجع السابق.
٥٢. المرجع لسابق.
٥٣. "رسالة مفتوحة الى ابن باز ببطلان فتواه بالصلح مع اليهود"، مرجع سبق ذكره.
٥٤. كلمة أسامة بن لادن، قناة الجزيرة الفضائية، ٤ يناير ٢٠٠٤.
٥٥. المرجع السابق.
٥٦. اللقاء" لصحفي مع أسامة بن لادن الذي أجراه تيسير علوني مراسل الجزيرة في أفغانستان، مرجع سبق ذكره.
٥٧. المرجع السابق.
٥٨. اللقاء" التليفزيوني مع أسامة بن لادن الذي أجراه مراسل الجزيرة في أفغانستان جمال إسماعيل، مرجع سبق ذكره.
٥٩. بيان أسامه بن لادن حول مبادرة ولي عهد السعودية حول الصراع العربي – الإسرائيلي، مرجع سبق ذكره.
٦٠. كلمة أسامة بن لادن، قناة الجزيرة الفضائية، ٤ يناير ٢٠٠٤، مرجع سبق ذكره.
٦١. اللقاء" التليفزيوني مع أسامة بن لادن الذي أجراه مراسل الجزيرة في أفغانستان جمال إسماعيل، مرجع سبق ذكره.
٦٢. المرجع نسابق. وانظر كذلك إعلان الجبهه الإسلامية العالمة لجهاد اليهود والصليبيين، ٢٢ فبراير ١٩٩٨، صحيفة القدس العربي، لندن، ٢٣ فبراير ١٩٩٨.

Abu Nour www.alkottob.com

٣. التفكير الاقتصادي لأسامة بن لادن

تجدر الإشارة إلى ملاحظة مهمة عند تناول التفكير الاقتصادي لدى تنظيم القاعدة بشكل عام، وزعيمها أسامة بن لادن بشكل خاص، مفادها أن تنظيم القاعدة لم يهتم كثيرا بتطوير فكر اقتصادي متكامل في بناء المجتمع الإسلامي، فكل ما هنالك بعض الآراء المتناثرة حول بعض القضايا الاقتصادية، مثل تحريم الفائدة باعتبارها ربا محرم إسلاميا. وربما يكون هذا مستغرب من زاوية أن القاعدة وعند البداية قد تأسست على قاعدة محاربة الشيوعية وما تسميه بالعلمانية. وبمعنى آخر، فإن تنظيم القاعدة منذ نشأته مثل الجماعات الأشد راديكالية تحت أمة لا تتبنى أيديولوجية أخاصة من البساطة بمكان أن تضيف أفكار تفتقر إلى محاربة العدو الأيديولوجي- السياسي في حالة اليسار والسياسي العلمي في حالة القاعدة) لا البحث في كيفية بناء المجتمعات التي تتبناها. وربما كان ذلك أيضا واحدا من القواسم المشتركة بين الحركات الإسلامية الجهادية العميقة وغير العنيفة، من ناحية. وحركات الإسلامية السياسية الاجتماعية، إذ أن الأخيرة يحكمها المشاركة على عملها قد عكفت على دراسة مجتمعاتها وتكييف برنامجها وفقا لما تعاني منه هذه المجتمعات من مشكلات حالة وعلى رأسها المشكلات الاقتصادية- الاجتماعية، وعلى أساس رؤيتها المستقاة من المصادر الإسلامية.

وفي إطار تلك الملاحظة سوف نركز هذا الجزء من الدليل على تناول ثلاث قضايا رئيسية، الأولى هي محاولة الوقوف على حجم الأبعاد الاقتصادية في تنظيم القاعدة كظاهرة دالة، خاصة بالنظر إلى الحركات الإسلامية الأخرى. القضية الثانية هي موقع المتغير الاقتصادي في تفكير أسامة بن لادن وطبيعة المطالب الاقتصادية التي ركز عليها خطاب بن لادن خلال السنوات الأخيرة، وأخيرا مدى مسئولية أحداث سبتمبر- باعتبارها أكبر عمل موجه إلى الولايات المتحدة بسبب إلى تنظيم القاعدة- عن الأزمة الراهنة التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي، بهدف الوقوف على مدى دقة الافتراضات التي طرحت- سواء من جانب القاعدة أو غيرها من مصادر التي عزت تلك الأزمة بشكل كامل إلى أحداث سبتمبر.

أولا، الأبعاد الاقتصادية لدى تنظيم القاعدة

يختلف موقع المتغير الاقتصادي لدى الحركات الإسلامية وفقا لموقع الحركة بالنسبة لخريطة الحركات الإسلامية بشكل عام. فالحركات الإسلامية لديها توليفة الأهمية الرئيسية لقضايا العقيدة والإيمان مقابل تراجع اهتمامها بالقضايا ذات الطابع الاقتصادي (قضية إصلاح المجتمعات ونظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية كجزء من التراجع العام لقضايا المعاملات. وبمعنى آخر، لا تركز تلك الحركات على إعادة هيكلة الأبنية الاقتصادية للمجتمع بقدر ما تركز على إصلاح المعتقدات الإنسانية لدى الأفراد والحكومات والمجتمعات، والتي ترى أن ما يشوبها من شوائب هو الأصل فيما عانوه من مشكلات

Abu Nour www.alkottob.com

اقتصادية واجتماعية .الخ. ومن ثم يغيب عن أدبيات نقد الحركات النموذج المثالية لمختلف المعطيات بين الناس التي لا تتماس بصورة أو بأخرى مع العقيدة وأصولها بما في ذلك المعاملات الاقتصادية سواء الفردية أو الجماعية. والنموذج الأبرز هنا هو حالة الحركات المتطرفة السلفية مثل حركات التكفير والهجرة التي لا تنطوي مطلقاً في تصوراتها الفكرية لأي معالجة للملامح التفصيلية للمجتمع المثالي الذي تسعى إليه، بل في ذلك الملامح الاقتصادية والاجتماعية. ورغم أنهم تدين على المستوى العيني كافة الأنشطة والعلاقات والممارسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القائمة داخل المجتمع إلا أنها تتجه إلى بناء مجتمعاتها الخاصة الصغيرة المغلقة والحرص على عدم الانخراط في تلك الأنشطة والمؤسسات والأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالدولة، بهدف الحفاظ على البقاء العقيدي لأعضائها، حيث تعتمد أغلب تلك الحركات على نوعين من الممارسات الاقتصادية، الأول هو ما يقوم به أعضاء الحركة من أنشطة التجارة الصغيرة المتحولة الهامشية التي تعتمد على رؤوس أموال متعسفة لمعايشة أو من الزراعة العينية لقطع محدودة من الأراضي الصالحة للزراعة أوذلك في حالة جماعات التي تواصل البقاء بداخل المجتمعات الأكبر مادياً وجسدياً ولكنها تنفصل عنها شعورياً وروحياً. أما الحركات التي تهجر المجتمعات فأكبر إلى المناطق الزراعية أو الصحراوية المنعزلة. فإن أعضاءها يعتمدون في معيشتهم على الاقتصاد العائلي البدائي سواء كان زراعياً أو رعوياً.

أما في حالة الحركات الجهادية العنيفة فإن الأبعاد الاقتصادية لا تظهر واضحة في أسسها الفكرية إلا بالقدر الذي تتماس فيه مع هدفها الرئيسي الخاص بإقامة العقيدة الصحيحة في ديار الإسلام لدى البعض ودفع العدوان عنها لدى البعض الآخر. إلا أنه بالمقابل فإن الاهتمام بالجوانب الاقتصادية والمالية يمثل جزءاً مهماً من الأنشطة العملية لتلك الحركات على اختلاف أنواعه. ويظهر الاهتمام بالجوانب الاقتصادية لدى تلك الحركات في أحد شكلين أو في كليهما معاً: الأول باعتبارها أنشطة ضرورية يجب الأخذ بها لأداء الممارسة الجهادية كما تتصورها تلك الحركات وصولاً إلى تحقيق هدفها الرئيسي، من خلال توفير العتاد والعدد اللازمين لمواجهة الدولة "الكافرة الطاغية" في الداخل أو العدوان الخارجي على الإسلام وديار. أما الشكل الثاني الذي يتخذه الاهتمام بالجوانب الاقتصادية والمالية فهو باعتبارها في حد ذاتها أهدافاً يمتلكها "العدو" سواء الداخلي أو الخارجي، بكل بل ويجب استخدامها في الصراع معه بوصفه تحديات لها تؤدي إلى إفقاده بعض مقدوماته وأركان القوة التي يتفوق بها عليها، ثم يمكن له أن يؤدي في النهاية - ضمن تصور أوسع للمواجهة الجهادية - إلى هزيمه وانتصار تلك الحركات في معركتها الصغيرة معه.

ويكون هذان الشكلان أكثر وضوحا في حالة الحركات الجهادية العنيفة ذولية المجال كالقاعدة، التي تنطلق من مفهوم الجهاد الخارجي ضد من يرى أنهم أعداء الإسلام الخارجيين ويشكل خاص الجهاد الدفاعي الذي يرمي إلى الدفاع عن "دار الإسلام" ضد أي هجوم من عدو خارجي غير مسلم. وبتطلب الوقوف على طبيعة الجوانب الاقتصادية في أنشطة القاعدة الأخذ في الاعتبار الطبيعة التي استقر عليها مفهوم القاعدة بعد وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، والتي أصبحت تضم في الغالب مستويين رئيسيين، الأول هو تنظيم "قاعدة الجهاد"، الذي أعلن عن اسمه في قمة طورا الأولى في شهر أبريل ٢٠٠٢ والذي تأسس من دمج الفرع الخارجي لجماعة الجهاد المصرية بقيادة أيمن الظواهري مع المجموعات المنشقة حول أسامه بن لادن منذ استقراره في أفغانستان في عام ١٩٩٦، وهو الدمج الذي سبقه قيام تحالف بين الطرفين وجماعات أخرى إسلامية من باكستان وبنجلاديش في فبراير ١٩٩٨ تحت اسم الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين. أما المستوى الثاني لقاعدة فهي تلك الشبكة شديدة الانتشار من التنظيمات والجماعات والأفراد المنتمين للحركة الجهادية ودولية المجال خصوصاً والجهادية عموماً، والتي باتت منذ إعلان الولايات المتحدة ما عرف بالحرب ضد الإرهاب تقع تحت وطأة تهديدات يومية.

Abu Nour www.alkottob.com

وفي هذا الإطار، يمكن الحديث عن الجوانب الاقتصادية والمالية في اهتمامات القاعدة بمستوييها السابقين.

بالنسبة للشكل الأول باعتبار أن الجوانب الاقتصادية والمالية تمثل أساسا ضرورية يجب الأخذ بها لأداء الممارسة الجهادية كما تتصورها القاعدة، يلاحظ أن المستوى الثاني للقاعدة، أي تلك الشبكة شديدة الاتساع من التنظيمات والجماعات والأفراد المنتمين للحركة الجهادية دولية المجال خصوصا و الجهادية عموما، تسع في سبيل جمعها التمويل اللازم لقيامها بأنشطتها سواء المضادة للأنظمة المحلية في دولها أو الموجهة دوليا إلى من تراهم أعداء الأمة. خليط من الأساليب التي تتبعها الحركات الجهادية محلية الطابع والحركات الجهادية الأصولية - الانفصالية. وربما يضاف إلى ذلك مصدرا إضافيا للتمويل يتمثل في بعض الموارد التي تأتي لها من جانب المستوى الأول لتنظيم القاعدة "القاعدة الجهاد" - والذي يبدو أن لديه ثروات مالية وتنظيمية أكبر بكثير مما لدى حركات وجماعات القاعدة بالمعنى الثاني، مما يدفعه إلى مساندة بعضها في المواجهة الدولية التي تصطف فيها معه.

أما عن موارد تمويل تنظيم "القاعدة الجهاد" بقيادة أسامة بن لادن. فالحقيقة أنه من الصعب للغاية تحديدها بدقة. وإن كان من الممكن تصور نمط أقرب للواقعية لكيفية الحصول عليها وفقا لبعض المؤشرات المتوافرة حتى الآن. فمن ناحية أولى تبدو الثروة الشخصية الواسعة لقائد التنظيم أسامة بن لادن المنتمي لنسل العائلة التي تقدر بعض المصادر ثروتها بأكثر من خمسة مليارات دولار، هي المصدر الأول والرئيسي لتمويل تنظيمه. وبالرغم من أنه لا توجد تقديرات دقيقة لتلك الثروة الشخصية التي لا يعرف أحد بدقة شكل وجودها أو مكانه أو الاستثمارات التي توجد فيها، فإن مؤشرا مثل ذلك الذي ذكره بن لادن نفسه في حديث صحفي أدلى به عام ١٩٩٨ يمكن أن يوضح حجم تلك الثروة، حيث أكد أنه قد استثمر في فترة وجوده بالسودان منذ عام ١٩٩٢ حتى عام ١٩٩٦ نحو ١٥٠ مليون دولار في مشروعات مختلفة معظمها ضمن البنية الأساسية لذلك البلد وقد تركها وراءه هناك. من هنا فقد بات تقدير تلك الثروة إجمالا، بما فيها ما أنفق أو استثمر في السودان، بنحو ٣٠٠ مليون دولار هو الأقرب للحقيقة. ومن الضروري في ذلك الإطار التأكيد على أن تلك الثروة وبهذا الحجم لم تبق كما هي منذ ما بدأ بن لادن نشاطه المكثف في أفغانستان مع بداية الثمانينيات، حيث أنه من جانب أنفق أجزاء كبيرة منها في ذلك البلد وبخاصة منذ ذهابه الثاني إليه عام ١٩٩٦. ومن جانب آخر تعرضت مشروعات واستثمارات كثيرة له حول العالم، وبتم حصرها ضمن تلك الثروة، للمصادرة والتجميد بفعل الإجراءات الأمريكية والدولية التي بدأت بعد تفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨ وتكثفت بصورة غير مسبوقة بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ في واشنطن ونيويورك.

وبالإضافة للمصدر السابق فإن لأرجح أن تنظيم "قاعدة الجهاد" قد اتبع أيضا بعض أساليب جمع التمويل التي ملكتها الجماعات الجهادية الاستقلالية - الانفصالية وبخاصة في ظل تدخله وتعاونه معها في كثير من المناطق المشتعلة التي تنشط فيها و التي كانت تمثل ساحة مغايرة بالنسبة للتنظيم، إلى تلك الحركات في وقت واحد. ويشير هنا إلى أن التنظيم لم يكن فقط متلقيا لأموال عبر تلك الحركات والفضايا الإسلامية التي تقاتل من أجلها، بل على الأرجح أنه قد قدم لها أيضا الكثير من المساعدات المالية من موارده الخاصة وفي مقدمتها الثروة الشخصية لقائده. كما أنه من المهم الإشارة أيضا إلى أن التبرعات والمعونات الدولية التي يتم جمعها لصالح الأقليات المسلمة في الأقاليم المتنازع حول استقلالها من مختلف دول ومجتمعات العالم الإسلامي عبر عديد من الأشكال والهيئات، لم تذهب كلها أو أغلبيتها إلى القاعدة تنظيما وشبكة ولا إلى الحركات الجهادية الاستقلالية - الانفصالية، بل ذهب معظمها إلى الأعمال ذات الصبغة الإنسانية والإغاثية التي جمعت خصيصا لها. كذلك فمن المهم التأكيد على أن ما حظيت به بعض تلك الحركات من مساندة مالية رسمية من بعض الحكومات الإسلامية والعربية، لم يقم دليل حقيقي حتى الآن

Abu Nour www.alkottob.com

على ان القاعدة يستثنيها قد ظالها أي شيء منه على الرغم من كثير من الاتهامات التي تحملها وسائل لإعلام الأمريكية والغربية لبعض الحكومات الإسلامية عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر. كذلك ضمن تهم الإشارة هنا إلى ما أوردته تقارير رسمية ودراسات أمريكية وغربية جادة حول طبيعة النشاط الاقتصادي للحركات الجهادية الدولية عموماً والقاعدة خصوصاً، من انها لا تنخرط غالباً في أنشطة اقتصادية وصالة ذات طبيعة جنائية مثل تجارة المخدرات أو الدعارة أو تجارة الأطفال أو غير ذلك من أنشطة جنائية تهيمت تلك التقارير والدراسات جماعات إرهابة أخرى تصارعها خاصة في أمريكا ولاتينية وشرق القارة الأوروبية.

وبالرغم من تلك الموارد الواسعة نسبياً التي يتمتع بها تنظيم قاعدة الجهاد، فقد بدا واضحاً بعد بدء الحرب الأمريكية في أفغانستان في ٧ أكتوبر ٢٠٠١ وانتهت أربع جولة أساسية - مالية جديدة عرفتها العالم في شتى أرجاءه بقيادة الولايات المتحدة - أن التنظيم قد بلغ بعاني من جهة من تراجع موارده المالية ومن جهة أخرى زيادة نفقاته الضرورية للاستمرار في التواجد وتوجيه ضربات مقاومة للقوات الأمريكية في أفغانستان وأخرى مجرمية على أهداف أمريكية وغربية في مناطق مختلفة من العالم. وقد عكس البيان الذي أصدره قائد التنظيم أسامة بن لادن في الذكرى السنوية الأولى لبدء الحرب الأمريكية على أفغانستان أحمد بتاريخ ١٢ أكتوبر ٢٠٠٢ أبعاد تلك الأزمة المالية ومدى حاجته لموارد جديدة، فقد وجه بن لادن نفرة خاصة لمن أسماهم "أهل التجار وأصحاب الأموال الذين لا يقلون شأناً عن غيرهم في دفع هذه المعركة نحو هدفها المنشود، ومطلقاً القصود من تصدكي لعين الله في الأرض وتطبيق شريعته، دعاهم فيه إلى توجيه تلك الموارد مستخدمًا إياهم بقوله: إن إنفاقكم في سبيل الله اليوم واجب شرعي ومطلب صبح يفرضه عليكم انتماؤكم لدينكم وأمتكم، والمال الذي ستنفقونه وإن قل سيوفق سلاً طارق يرشد تدميرًا جسيماً. وقد بدا واضحاً مدى ضغط الأزمة المالية على التنظيم من استفزاز بن لادن لأصحاب تلك الثروة في نهاية الفقرة المخصصة بقوله "صغائر التجار وأصحاب الأموال إن دينكم اليوم سادیکم، وإخوانكم يستنفرونكم، والله ناظر إليكم فيما استخلفكم فيه هاانتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وانتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

والحقيقة أن حجم التمويل الذي يمتلكه تنظيم قاعدة الجهاد والمصادر التي يعتمد عليها لتوفيره وكذلك الأزمة المالية الحالية التي يبدو أنه تمر بها، تجعل التساؤل عن البنود الرئيسية والحقيقة لإنفاقه أمر مهماً. والواضح حتى اليوم ومن ما هو متوافر من مؤشرات ومعلومات خاصة بما تم انفاقه على بعض العمليات الإرهابية التي تبناها التنظيم أو حامت الشبهات حوله في القيام بها، ان إجمالي الإنفاق عليها لم يكن ضخماً بالصورة التي تشيعها بعض وسائل الإعلام. فالهجمات الأكبر في تاريخ الإرهاب الدولي على الإطلاق وتدميرًا، والتي لا يزال التنظيم متهماً بالقيام بها بالرغم من عدم وجود حكم قضائي بعد بذلك ولا حتى صدور قرار اتهام قضائي رسمي ضده، قد تراوحت تكلفتها حسب المصادر الأمنية والإعلامية الأمريكية بين ٣٢٥ و ٥٠٠ ألف دولار أمريكي، بينما لم تبلغ تكلفة تفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، والتي أدت القضاء الأمريكي مسئولية التنظيم عنها، أكثر من ربع هذا المبلغ. ويوضح هذان المثالان بإعتبارهما أكبر عمليتان قام بها التنظيم ضد أهداف أمريكية أن ما ينفقه على مثل تلك العمليات يمثل نسبة ضئيلة من الموارد المالية التي من المنتور انه يمتلكها. الأمر الذي يشير إلى وجود بنود أخرى لإنفاقه غير مثل تلك العمليات. والأرجح أن قدراً كبيراً من هذا الإنفاق قد وجه إلى:

- الى تمويل مشروعات مثل تلك التي تمت في السودان من ثروة أسامة بن لادن الخاصة وإلى مشروعات مماثلة تمت في أفغانستان بعد وصول طالبان إلى الحكم عام ١٩٩٦، والى إعانة وإقامة بضع

Abu Nour www.alkottob.com

آلاف من العرب الأفغان في أفغانستان بعد عودة بن لادن إليها في نفس العام، ثم بعد ذلك إلى تسليح هؤلاء وإمدادهم بما يلزمهم من مؤن وعتاد لمواصلة مواجهة القوات الأمريكية والغربية في أفغانستان منذ أكتوبر ٢٠٠١ وحتى اليوم.

أما عن الشكل الثاني للاهتمامات المالية والاقتصادية للحركات الجهادية ودلالة المجال باعتبار أن المصالح الاقتصادية للدول التي ترى أنها كافرة وتعتدي على ديار الإسلام تمثل أهدافاً معادية" يجب توجيه ضربات لها في الجهاد المسلح ضدها، فهو قد تطور كثيراً لدى تنظيم القاعدة خلال العشرة الأخيرة وبخاصة عام ٢٠٠٠ وقد مثل استهداف برج التجارة العالمي في نيويورك بكل ما يمثله من معان رمزية واقتصادية ومالية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وبغض النظر عن ثبوت المسئولية القانونية للقاعدة عنه، فثمة مؤشرات واضحة من أبرز المصالح الاقتصادية والمالية للاقتصاد الأمريكي أخر. وقد بدا واضحاً بعد شهر واحد من تلك الهجمات مدى وضوح معالمها ومستهدفيها لدى قادة التنظيم أسامة بن لادن، في حوار مطول أجراه معه مراسل قناة الجزيرة في أفغانستان بتاريخ ٢١ أكتوبر ٢٠٠١ ولم ينهه بأن كان نفسه وشاهد منه قد تحدث وبثت في مواقع إسلامية على شبكة الإنترنت وبعض الفضائيات العربية. وفي هذا الحوار يؤكد بن لادن - على الرغم من عدم اعترافه الصريح بمسئوليته عن أحداث سبتمبر - أن لها تداعيات كثيرة لم تنته بعد. في مقدمتها التداعيات الاقتصادية التي يستفيض في شرحها حسب رؤيته لها. وسماً بن لادن بالحديث عن الخسائر في دول سترت: حسب تقول: "فحسب اعترافاتهم هم أن نسبة الخسارة في سوق وول ستريت بلغت ١٦٪، وقالو هذا الرقم قياسي لم يحصل من قبل قط منذ أن فتحت البورصة قبل أكثر ٢٣٠ سنة ما حصل هذا الانهيار الضخم، وأس المال المتداول في هذه السوق يبلغ أربعة تريليون دولار، فإذا ضربنا ستة عشر في المائة في أربعة تريليون دولار حتى نعلم أن حجم الخسارة التي أصابت أسهمهم بلغ ٦٤٠ مليار دولار خسارتهم بفضل الله سبحانه وتعالى، وهذا الرقم يساوي ميزانية السودان مثلاً لمدة ٦٤٠ عاماً".

ثم ينتقل قائد القاعدة لحسابات اقتصادية أخرى يضيفها إلى ما يراه الخسائر الأمريكية من جراء هجمات سبتمبر، فمثلاً: "الدخل القومي الأمريكي السنوي هو ٣٠ مليار، وهم في الأسبوع الأول ما استغلوا شيئاً فقط نتيجة الصدمة النفسية (...) فلو ضربت ٢٠ مليار في أسبوع تصل إلى ٦٤٠ مليار، وهي كثير من ذلك، وتضيفها إلى ٦٤ مليار نكون وصلنا كم؟ وشكنا على ٨٠٠ مليار تقريب خسارة المباني والعمائر، فلنا أكثر من ٣٠ مليار. تم سرحوا إلى البوطة، أو قبل يومين، من شركات الطيران أكثر من - - - - ١٧٠ موظف (...) سوء شركات الطيران المقلة أو المصنعة (...) شركة واحدة من شركات الصاروخ لشهورة الأمريكية - إنترکونتيننتال قطعت عشرين ألف موظف بفضل الله سبحانه وتعالى. والتداعيات لا يستطيع أحد أن يحدد قيمة هذه الأموال من ضخامتها وكثرتها وتشعبها وهي في ازدياد بفضل الله سبحانه وتعالى، فالشاهد المبلغ يصل على أقل تقدير إلى أكثر من تريليون دولار بفضل الله سبحانه وتعالى، في هذه الضربات الموفقة المباركة. وننتهي من لادن حديثه بتحديد طبيعة أرباح التجارة العالمية ومن يعملون فيها كما يرى، حيث أن "الذين صوبوا فيها وقتلوا فيها هم قمة اقتصادية، وهم ليسوا مدرسة أطفال وتيبوا سكناً، والذين هم في هذه المراكز رجال يدعمون أكبر قوة اقتصادية في العالم تعيث في الأرض فساداً".

وبعد نحو ثلاثة أشهر على أحداث سبتمبر يوجه بن لادن خطابا هو الأخير العلني والكامل له قبل اختفائه - يقدم فيه تحليله السياسي - الاقتصادي لمبررات ونتائج هجمات سبتمبر على نحو مفصل، حيث يرى أنها كانت بمثابة: "ردود فعل لما يجري على أرضنا في فلسطين وفي العراق وفي غيرها (...) وكان هذا الرد المبارك بفضل الله سبحانه وتعالى. وهذه الضربات المباركة لها دلالات عظيمة، فقد أوضحت

www.alkottob.com
Abu Nour

جلاء، أن هذه القوة المتغطرسة المتكبرة – هبل العصر أميركا – تقوم على قوة اقتصادية عظيمة ولكنها هشة ما أسرع أن تهاوت بفضل الله سبحانه وتعالى. فالذين قاموا بالعمل (...) هزوا عرش أميركا وضربوا الاقتصاد الأميركي في صميم فؤاده وضربوا أكبر قوة عسكرية في عمق قلبها بفضل الله سبحانه وتعالى. فهذا دلالة واضحة على أن هذا الاقتصاد العالمي الربوي المسحوق الذي يستخدمه أميركا مع قوتها العسكرية لفرض الكفر والإذلال على الشعوب المستضعفة يمكن بسهولة أن يتهاوى، فتلك الضربات المباركة قد ألحقت بأميركا بأعترافهم هم في أسواق نيويورك وفي غيرها أكثر من تريليون دولار خسارة بفضل الله سبحانه وتعالى، وبإمكانات بسيطة".

ويبدو واضحاً في ذلك التحليل مدى أهمية الأبعاد الاقتصادية للقوة الأمريكية كما يراها بن لادن، وبالتالي مدى أهمية توجيه ضربات لتلك الأبعاد والمصالح في الحرب المفتوحة معها.

وينتقل هنا قائد القاعدة إلى وضع تصوره للمواجهة المستقبلية على الصعيدين العسكري والاقتصادي للولايات المتحدة الأمريكية، حيث يقول: "كما هو معلوم بن القتال لا بد له من عنصرين: عنصر الأنفس المقاتلة وعنصر المال مثل شراء السلاح، وهذا الأمر مؤكد في كتاب الله سبحانه وتعالى (...) فالقاعدة العسكرية الأمريكية وإن كانت مسافة بيننا وبينها بعيدة جداً واسطحنا لا تصل إلى طائراتها فبالإمكان بواسطة خطوط الدفاعية العريضة امتصاص هذه الضربات. وضربة أخرى (هي) ضرب القاعدة الاقتصادية التي هي أساس للقاعدة العسكرية فإذا انتهى اقتصادهم شغلوا بأنفسهم عن استعباد الشعوب المستضعفة. فأقول من المهم جداً التركيز على ضرب الاقتصاد الأميركي بكل وسيلة ممكنة". ويلخص بن لادن في نهاية خطابه تصوره ودعوته لتلك الحرب العسكرية – الاقتصادية ضد الولايات المتحدة بقوله: "أختصر كلامي وأركز على أهمية استمرار العمل الجهادي ضد أميركا عسكرياً واقتصادياً، وأن أميركا قد تراجعت بفضل الله سبحانه وتعالى وأن الزيف الاقتصادي مستمر إلى لسوء وذكر يحتاج إلى ضربات أخرى وأن يجتهد الشباب في البحث عن مفاصل الاقتصاد الأميركي، وبضرب العدو في مقاتله بإذنه سبحانه وتعالى".

ثانياً: المتغير الاقتصادي لدى أسامة بن لادن

على الرغم من تواضع المتغير الاقتصادي في فكر بن لادن بالمقارنة بالمتغير العسكري والعملياتي إلا أنه ظل حاضراً بالنظر إلى عوامل عدة. الأول هو طبيعة ظروف ونشأة أسامة بن لادن، فقد نشأ في أسرة ثرية، لأب عمل كرجل أعمال في قطاع البناء، والتشييد بالمملكة العربية السعودية، عُرف عنه مثابرة والعصامية والاعتماد الشديد على النفس، والاستعداد للمغامرة والمخاطرة. فقد بدأ أسرة بن لادن حياته كحمال في مرفأ جدة، تحول بفضل مثابرته وجهده خلال سنوات معدودة إلى أحد كبار مقاولي الإنشاءات بالمملكة العربية السعودية. كما استطاع والده بناء علاقة جيدة مع الأسرة السعودية الحاكمة، تمكن من خلال تلك العلاقة من الحصول على عقود تنفيذ مشاريع ضخمة بالمملكة(١). العامل الثاني هو الخلفية التعليمية والمهنية لأسامة بن لادن. فقد درس الاقتصاد بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، بالإضافة إلى عمله لفترة في مجال المقاولات بعد وفاة والده مباشرة قبل أن يتجاوز العاشرة من عمره. وقد أدت تلك العوامل إلى حضور العامل الاقتصادي بشكل أو بآخر في تفكير بن لادن.

غير أنه تجدر الملاحظة أن المتغير الاقتصادي لدى بن لادن كان أكثر وضوحاً منذ منتصف التسعينيات مع اتجاه خطاب بن لادن إلى التركيز على جهاد ضد القوات العسكرية في المملكة العربية السعودية، وحاث معظم لقضايا والتحملات الاقتصادية التي أثارها أو قدمها بن لادن في سياق مسألة

Abu Nour www.alkottob.com

الجهاد ضد القوات العسكرية الأمريكية وتناول الأوضاع الاقتصادية بالمملكة العربية السعودية. يمكن تحديد القطاعات الاقتصادية الأساسية التي ركز عليها بن لادن في حدود الوثائق التي تم الاطلاع عليها في: المقاطعة الاقتصادية للسلع والخدمات الأمريكية، الحفاظ على النفط كثروة اقتصادية إسلامية، الأزمة الاقتصادية بالمملكة العربية السعودية ومصادر دخل الأزمة، الأنظمة الربوية وآثارها الاقتصادية السلبية.

وسنشير فيما يلي إلى المضمون الاقتصادي لخطاب بن لادن منذ منتصف التسعينيات.

- احتلت الأداة الاقتصادية أهمية مبكرة في الفكر الجهادي لبن لادن ضد الولايات المتحدة، فقد دعا في الكثير من تصاريحاته إلى توظيف الأدوات الاقتصادية في الجهاد ضد الولايات المتحدة، بدأ من وجوب مقاطعة البضائع والسلع الأمريكية إلى وجوب ضرب القوات الأمريكية والاقتصاد الأمريكي. بل إن بن لادن قد أكد في إحدى مقابلاته مع شاة فهريدة (١٩٩٨) أن دعوته لمقاطعة البضائع وضرب الاقتصاد الأمريكي تعود إلى ما قبل بدء عملية الجهاد الإسلامي ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان(٢١)، وقد جعل بن لادن رافد مقاطعة البضائع والسلع الأمريكية في منزلة فرض العين، واستند في فكرة المقاطعة هذا ليس فقط إلى اعتبارها جزءاً من مقدرات الاقتصاد، بل تم اعتبارها العسكرية. فالأمريكان، ولكن لأن تلك الأموال أنفقت الأموال العربية) "أخذوا الأمريكان بعطوني للبنه ده فضلاً نسب احراتنا في فلسطين نهبة فرض عين".

- في رسالته إلى المسلمين، بشكل عام، ومسلمي الجزيرة العربية، بشكل خاص، "احرجوا المشركين من جزيرة العرب"٣، التي دعا فيها إلى إعلان الجهاد ضد القوات الأمريكية في المملكة العربية السعودية، اعتمد بن لادن على التحليل الاقتصادي لتبرير دعوته إلى إعلان الجهاد ضد احتلال بلاد الحرمين بواسطة جيوش للنصارى من الأمريكيين وحلفائهم، فبالإضافة إلى اعتماده على الكثير من الآيات القرآنية والأسانيد الدينية التي تحض على الجهاد ضد الوجود الأجنبي على الأراضي الإسلامية، كان لافتاً استخدام بن لادن التحليل الاقتصادي لتأكيد على أهمية هذا الجهاد. فقد استند بن لادن في سبرر دعوته للجهاد - التي تتمثل بالإضافة إلى الوجود الأجنبي الجهاد ضد النظام الحاكم في المملكة العربية السعودية - إلى تدهور الأحوال الاقتصادية للمواطن السعودي بكل فئاته. وقد استند بن لادن في هذا الإطار على عدد من المؤشرات الاقتصادية مثل ارتفاع الأسعار، وتدهور المستويات المعيشية لأصحاب الدخل المحدود، وتدهور القيمة الشرائية للريال السعودي أمام العملات الأجنبية الأخرى، وارتفاع قيمة الدين المحلي الذي قدرها آنذاك بحوالي (٣٤٠) ألف مليون ريال سعودي، وارتفاع قيمة الدين الخارجي، حيالة الساقطين بين الأوضاع الاقتصادية السائدة في المملكة العربية السعودية بشكل عام، وكون المملكة من أكبر الدول المصدرة للنفط.

كما لوحظ استخدام بن لادن للتحليل الاقتصادي لتفسير وتبرير بعض التفجيرات داخل المملكة العربية السعودية (تفجيرا الخبر والرياض)، إذ اعتبر تلك التفجيرات نتيجة طبيعية لعوامل المعاناة والفقر المرير، والظلم الفادح والبغي المذل والقهر. "إذا كان العامل الاقتصادي ممثلاً في الفقر قد جاء في الترتيب الأخير بين تلك العوامل، إلا أن احتوى الاقتصادي لا يغيب تماماً عن التفجيرات الأخرى خدمة المعاناة، كما يظل للتحليل الاقتصادي لاجتماعي لتلك الانفجارات من جانب بن لادن مسألة جديرة بالملاحظة(٤). وقد أكد جميع بن لادن من التحليلين الديني والاقتصادي في تحليله لواقع المملكة العربية السعودية في الرسالة ذاتها عندما حدد مصادر الأزمة الاقتصادية بالمملكة في مصدرين رئيسيين، الأول هو تعطيل النظام الحاكم لأحكام الشريعة الإسلامية، وإحلالها بالقوانين الوضعية والدماء مع علماء المسلمين. أما المصدر الثاني فقد تمثل في منح النظام عن حماية البلاد من محاولات التدخل الخارجي في سياسات المملكة. وقد أدى بن لادن التدخل الخارجي في السياسات الاقتصادية

Abu Nour www.alkottob.com

الخارجية للمملكة أهمية خاصة، حيث ركز في هذا الإطار على جانبين رئيسيين، الأول هو التدخل الخارجي في السياسة النفطية للمملكة من خلال تحديد أسعار وكميات النفط المنتجة بما يضمن تحقيق المصالح الاقتصادية للولايات المتحدة وحلفائها، والجانب الثاني هو تحميل المملكة باعباء وتكلفات خارجة عن السيطرة من خلال صفقات الأسلحة باهظة التكاليف التي تفرض على النفاء.

- لجأ بن لادن إلى التحليل الاقتصادي ذاته للتحذير من خطورة العلاقات الداخلية خلال مرحلة الجهاد. وأشار في هذا السياق إلى عدد من الآثار المترتبة لأي حالات داخلة قبل الانتهاء من إخراج القوات الأمريكية. تمثلت بالترتيب: استنزاف نفقات للشرطة، استنزاف النفقات التالية، تدمير البنية التحتية للدولة، تفكك المجتمع، وتدمير لصناعات النفطية، وتقسيم بلاد الحرمين واستغلال إسرائيل على الخليج الشمالي منها، باعتبار أن هذا التقسيم يعتبر "مطلبا ملحا للتحالف اليهودي- الصليبي"، وحيرا لأن أي قتال داخلي - مهما تكن مبرراته في ظل وجود قوات الاحتلال الأمريكي سيؤدي إلى حسم المعركة لصالح الكفر العالمي". وهكذا، يلاحظ حضور لتغيير الاقتصادي، يتمثل عدم، بقوة في تحليل بن لادن، والنفط بشكل خاص. فمن بين الآثار السبعة السبع لخطر الخلاف الداخلي، اعتبرت أربعة منها إلى الآثار الاقتصادية المباشرة (استنزاف الطاقات البشرية، استنزاف الموارد المالية، تدمير البنية التحتية تدمير الصناعات النفطية).

- وقد احتل عامل النفط حيزا مهما في تحليل بن لادن للمخاطر المتوقعة في حالة نشوب خلافات أو حروب داخلية بالمملكة العربية السعودية. فقد اعتبر أن تواجد القوات العسكرية الصليبية والأمريكية في دول الخليج الإسلامي هو "خطر الأخطر والسر الأخطر الذي يهدد أكبر احتياطي بترولي في العالم". وأن استنزاف الفعل في تلك الأماكن يعرض البترول لمخاطر الاحتراق مما يؤدي للاضرار بالمصالح الاقتصادية لدول الخليج وبلاد الحرمين بل واضرار خسيسة للاقتصاد العالمي. ودعا بن لادن إلى أهمية الحفاظ على تلك الثروة وعدد اقتصادها في المعركة لكونها ثروة إسلامية عظمى وقوة اقتصادية كبرى هامة لدولة الإسلام القادمة. كما حذر الولايات المتحدة من احراق هذه الثروة في نهاية الحرب (الحرب الأولى ضد العراق) تحت تأثير نخوف الولايات المتحدة من سقوط تلك الثروة في أيدي أصحابها الشرعيين الشعوب الإسلامية أو زعمه في إطار الصراع بينها وبين الاقتصاديين في أوروبا (الشرق الأقصى خاصة الياس التي تعتبر المستهلك الرئيسي لبترول المنطقة).

وهكذا، فبالإضافة إلى الخبر أهم الذي تمثله عامل النفط بشكل عام في تحليل بن لادن، تشير أيضا إلى ملاحظتين مهمتين، الأولى ما عكسه تحليل بن لادن من إدراك واضح لاتجاهات تطلب الخارجي على النفط العربي، وتصاعد السوق لاسيوية خاصة الصين كمصدر رئيسي للطلب المستقبلي على النفط. والثانية هي إدراكه للعلاقة بين استقرار سوق النفط واستقرار الاقتصاد العالمي، وإن كان للنظر أن بن لادن لم يفرج تلك العلاقة لتوظيفها للتأثير سلبيا على استقرار الاقتصاد العالمي، فقد ظل الحفاظ على استقرار الاقتصاد العالمي هدف مهما كما جاء في خطابه- ومن ثم أهمية الحفاظ على النفط كثروة وقيمة وصالحة.

أكثر من ذلك، فقد أعلن بن لادن في إحدى المقابلات التي أجرتها معه قناة الجزيرة القطرية في عام ١٩٩٨ رسالته إلى العالم الإسلامي في الالتزام بتطبيق أوامر الله في أمور الدين الدنيا، وأنه يدين اتباع "أمر الله سبحانه وتعالى فيستخلف ولا يبقى لنا دين ولا دنيا" معبرا عن تتبع الدين بسبب انتشار الكفر لأكبر في بلاد المسلمين(٤٥). أما ضياع "أمور الدنيا فقد اختزلها بن لادن في سوق أساسيين. القضية الأولى هي ضياع ثروات النفط وخصوصها المسروقة من جانب الولايات المتحدة، فيقول:

Abu Nour www.alkottob.com

أما من ناحية الدنيا فهذا البترول كان يوفر مبالغ زهيدة، ففي دول الخليج وفي السعودية شركة أرامكو وفي فترة سيكرة في عهد أمثال فيصل كان لا يدفع للمملكة من البترول الا بضع سعتين سنت للبرميل الواحد، يعني أقل من دولار. ثم شاء الله سبحانه وتعالى أن تأتي الحرب بين العرب واليهود في عام ١٩٧٣، فقطع العرب البترول فكسوا أنفسنا في تضاعف وارتفعت الأسعار الى أن وصلت الى ما يقرب من اربعين دولارا للبرميل الواحد. ووصلت الى ستة وثلاثين في السبعينات، ثم قام الأمريكان باحتكارالبترول، سيطرته على دول الخليج واجبارها على زيادة حجم إنتاجها النفطي ومن عوائدها هي السنوي، مما أدى الى نزول الأسعار، فنحن نتكلم عن أكبر سرقة عرفتها البشرية في التاريخ.

وقد قدر بن لادن حجم السرقة الأمريكية للنفط العربي بحوالي ١٤٧٨٣٥ مليون دولار سنويا، بما يقدر بحوالي ٣٦ تريليون دولار خلال ربع قرن(٦).

والقضية لتالية هي محاج الولايات المتحدة في توريط دول الخليج العربية في مشكلة الدين الخارجي اشعب الداخلي الأجنبي، وذلك على الرغم من التوازن النفطية الضخمة. وقد أرجع بن لادن ظهور تلك المشكلة الى السياسة الأمريكية الخاصة بالإقتصاد بشراء الأسلحة، من بحيث، وتنمية خدمة الربا المرتفعة.

- تأكد موقع المتغير الاقتصادي في تحليل بن لادن مع تصريح برجي لشجرة العائلة هجمات سبتمبر ٢٠٠١، وتحليله لموقع هذين البرجين بالنسبة للاقتصاد الأمريكي وبالنسبة للقوة الشاملة للولايات المتحدة، إذ يقول بن لادن في أحد مقابلاته مع قناة الجزيرة: الإجراح التجارة العالمية. الذين دمروا فيها وقتلوا فيها هم قوة اقتصادية وليسوا عسكرية أطفالا وليس سكرتارية، الذين هم في هذا المركز رجال، سكعون أكبر قوة متعددة في العالم بحث الذين في الأرض قساوة (٧).

- ولم يقتصر حضور المتغير الاقتصادي في تحليل بن لادن على الأدوات والأهداف الاقتصادية في طار عملية الجهاد ضد العدو الخارجي الولايات المتحدة)، فقد كان المتغير الاقتصادي حاضرا بقوة بنفس الدرجة أو أكثر- في تحليله للأوضاع الاقتصادية في المملكة العربية السعودية، ففي خطابه إلى الشيخ بن باز بتاريخ ٣٠ ديسمبر ١٩٩٤، بمناسبة الموقف الغامض لابن الباز من قضية الوجود العسكري الأمريكي على أراضي مملكة العربية السعودية، فيلاحظ على نقد بن لادن لنصوص موقف الشيخ من الباز بشأن الوجود العسكري الأمريكي ووجوب الجهاد ضد الولايات المتحدة، انتقد بن لادن موقف بن الباز من قصة القوانين والأنظمة والقوانين الوضعية المعمول بها في المملكة العربية السعودية والمشروعة من قبل النظام الحاكم. وعلى الرغم من صدور فتوى من الشيخ بن الباز تحرم تعاطي الربا، إلا أن بن لادن أخذ عليه عدم التفريق بين حكم من يتعاطى الربا فقط، وحكم من يشرع الربا ويقننه، مع أن الفرق بينهما واضح كبير، فمتعاطي الربا مرتكب فوقعة من أكبر الموبقات، أما مشرع الربا فهو مرتد كافر كفرا مخرجا من الملة يعمله هذا، لأنه جعل من نفسه ندا لله وشريكا له في التحليل والتحريم. وقد أشار بن لادن إلى اعتباره بحد مستقلا بعد شيوه -الله- حول الأنظمة الربوية. وقد عزى بن لادن الأزمات الاقتصادية والمالية والاجتماعية التي تمر البلاد الإسلامية في أحد أبعادها- إلى التعامل بالأنظمة الربوية وغيرها من المنكرات(٨).

- وقد كان للتحليل الاقتصادي لدى بن لادن أكثر وضوحا عندما قدم تحليل الأوضاع العامة بالمملكة العربية السعودية في خطابه إلى الملك فهد بن عبد العزيز في الثالث من أغسطس ١٩٩٥(٩)، إذ بدأ هذا بتحليل الأوضاع الاقتصادية، على نحو عكس ادراك بن لادن لكثير من مناهج التحليل الاقتصادي، واستخدام الأرقام والبيانات الاقتصادية. وقد ناقش بن لادن في خطابه عددا من المشكلات الاقتصادية والمشكلات التعليمية والصحية التي تواجه المملكة، شملت: ارتفاع حجم الدين الخارجي

www.alkottob.com
Abu Nour

ليصل إلى ٨٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي. وارتفاع الأسعار، وارتفاع تكلفة القصور الذاتية وعدم القدرة على صيانة المدارس والأبنية التعليمية، تدهور الخدمات الصحية، وعجز الدولة حتى عن صيانة المستشفيات القائمة، عجز الدولة عن بناء مستشفيات جديدة. تراكم مشكلة البطالة لتطول المؤهلات العليا. وقد عمد من لادن إلى تحليل مصادر مثل الأزمة، فحددها فيما يلي:

١. الفساد الاقتصادي داخل الأسرة الحاكمة وممارسة التوسع في بناء القصور الملكية التي حدة شكلت ضغطاً واستنزافاً شديداً من المال العام بالإضافة إلى ما خلقته من علاقات تنافسية داخل الأسرة الحاكمة.

٢. وجود الملك فهد في تدهور أسعار النفط، عندما بين لادن تلك المسئولة التي الوقوع تحت حالة التبعية المطلقة للولايات المتحدة فيما يتعلق بسياسة إنتاج وتسعير البترول، بدءاً من الانتاج لزيادة الانتاج خلال الثمانينات المتحدة على الأسعار، ولانخفاض الأسعار بالبرلمان أيضاً، حيثما مع العراق ما أدى إلى تحقيقين أسعار النفط إلى المستوى الحالي (منخفض التسعينات) لا يخدم مصالح المستهلكين الغربيين، مما أدى إلى لجوء الدولة خلال عقد التسعينات تحت تأثير الانفاق المتزايد والفساد الاقتصادي إلى السحب من الاحتياطي الدولي.

٣. عدم تحمل الجهاد على ايجاد مصدر آخر للدخل يحدث النفط.

٤. الانفاق الجنوني على شراء الحلف، في حرب الخليج رغم الأزمة المالية التي تمر بها، بلغا قدرها بن خطاب بن لادن بحوالي ستين مليار دولار، حصلت منها الولايات المتحدة على حوالي ثلاثين مليار دولار، بينما حصل باقي الحلف، على حوالي ١٥ مليار دولار، وصرف الباقي في عمولات وصفقات ورشاوى محلية، بالإضافة إلى الالتزام بعقد عدد من صفقات التسليح قدرها بن لادن في حطابه بحوالي أربعين مليار دولار، أبرمها لصفقات عسكرية معدنية مع الأمريكان، فضلاً عن عقد شراء طائرات النورندوب البريطانية الذي جاء بجملة تريليس وزراء بريطانيا حون ميجور دون أن تكون هناك طائفة بشرية في جيش البلاد لاستخدام هذه الطائرات. كما تمت أثناء حرب الخليج، فضلاً عن عدم كفاءتها، كما شهدت بذلك تلك الفتنة في فيتنام.

٥. القصف على وصحيد الدولة المالي في الخارج (قدرها الخطاب بـ ١٤٠ مليار دولار مع بداية تولي الملك فهد الحكم) بالكامل خلال سبع سنوات فقط.

٦. الاقتراض الربوي من البنوك المحلية والعالمية، وهنا تأتي الربا من الوعيد الشديد بمحاربة الله بالحرب... وبرغم هذا أتسد الواقع من أن نظام القروض الربوية التي تقدمها البنوك لا تزيد الفقير إلا فقراً ومن يعد يوداً...

وقد ناقش الخطاب البدائل المختلفة لمعالجة الأزمة الاقتصادية وآثارها الخاصة، مثل تخفيض الريال السعودي، أو زيادة الضرائب بهدف توفير المزيد من الدخل الحكومي، أو السير في سياسة الخصخصة، إلا أنه حذر من الآثار السياسة والاجتماعية لمثل هذه البدائل.

ثالثاً: مسئولية أحداث سبتمبر عن الأزمة الاقتصادية الأمريكية

وناقش فيما يلي في تقديم بتوهمي الموضوعة التطورات الاقتصادية الأمريكية السيئة على أحداث سبتمبر ٢٠٠١، ثم ناقش الأثر المباشر تلك الأحداث على الاقتصاد الأمريكي.

Abu Nour www.alkottob.com

١- مسيرة الاقتصاد الأمريكي خلال الفترة (٢٠٠٠- أغسطس ٢٠٠١)

بدأ عام ٢٠٠١ بانخفاض كبير في مؤشرات البورصة الأمريكية، وقد بدأ هذا الانهيار منذ شهر ماير وأخذ هذا الانخفاض يشتد حتى بلغت مستويات الانخفاض في أسعار الأوراق المالية الأمريكية مستويات لم تبلغها منذ أكثر من عامين، حينما كانت العديد من البلدان في أسيا وروسيا وبعض بلدان أمريكا اللاتينية تمر بأزمات اقتصادية وماليةخانقة. وكان الانهيار الأكبر هو ذلك الذي شهدته بورصة ناسداك الأمريكية التي يتم فيها تداول أسهم شركات التكنولوجيا الجديدة. وكان هذا الانهيار نتيجة لإعلان بعض الشركات المنتجة لأجهزة الكومبيوتر وبرمجياتها، ومن أبرزها شركة انتل عن توقع انخفاض كبير في أرباحها في الربع الأول من العام ٢٠٠١. ومن أحد أبرز نتائج تقلص مخططات عدد العاملين بالشركة بنسبة تتجاوز ٢٠٪ من إجمالي عدد العاملين. وقد ترتب على هذه الأمور تضعضعة ثقة الشركات العاملة في حقل التكنولوجيا الحديثة انهيار مؤشر بورصة ناسداك ليصل إلى أدنى مستوى له منذ نحو ٢٧ شهرا كاملة. ثم تبع هذا الانخفاض انخفاض آخر في مؤشر داو جونز وهو المؤشر الذي يقيس أداء أسهم الشركات الأمريكية. وقد كان هذا الانخفاض على مدار أسبوعين متتاليين، حتى وصل مؤشر داو جونز إلى أقل من ١٠ آلاف نقطة وهو ما يعد أقل مستوى له خلال عامين في يوم الثلاثاء ٢٠ مارس ٢٠٠١وقد تم إرجاع هذا الانهيار إلى العديد من الأسباب، يأتي على رأسها انخفاض معدل النمو الاقتصادي مع انخفاض الطلب الاستهلاكي والاستثماري. وبدأ تضعضع ثقة المواطنين في إمكانية استمرار النمو الاقتصادي مستقبلا لا سيما خلال الشهور الأخيرة من عام ٢٠٠٠.

١- انخفاض طلب المستهلكين وتدهور نفقاتهم: شهد الاقتصاد الأمريكي نموا ثابتا واستثنائيا في النصف الأول من عام ٢٠٠٠ ثم تواجي هذا النمو في النصف الثاني من ذات العام، وقد سبب الطلب المحلي في هذا العام بمعدل نمو مرتفع للغاية ثم بدأ في الهبوط بعد ذلك، حتى وصل إلى حد لا تتكاسن قريب نهاية العام. كما حققت الصادرات نموا كبيرا خلال التسعة أشهر الأولى من عام ٢٠٠٠ ثم بدورها بدورها للهبوط في الربع الأخير من العام. وفي سوق العمل فرغم أن نمو حجم العمالة كان قد شهد تباطؤا خلال العام، إلا أنه كان كافيا للمحافظة على معدل البطالة حول أقل معدلاته خلال ثلاثين عاما، إضافة إلى ذلك فإن معدل التضخم الأساسي في عام ٢٠٠٠ ظل منخفض نسبيا على الرغم من زيادة أسعار بعض المواد والبترول أسعار النفط مع زيادة أسعار المنتجات في السوق المحلي زيادة كبيرة خلال هذا العام مقارنة بالأعوام السابقة عليه.

وقد أدى النمو الأبطأ خلال عام ٢٠٠٠ في كل من دخول الأفراد وثرواتهم إلى تأثير ذلك على الاستهلاك مقارنة بالسنوات السابقة، فقد ارتفع الدخل الفردي القابل للتصرف فيه بنحو ٢,٢٥٪ بعد أن حقق نموا يزيد على ٣٪ في عام ١٩٩٩، وكان ذلك نتيجة لأن الدخل الفردي القابل للتصرف فيه لم يرتفع بالقيمة الاسمية (أي قبل حساب أثر التضخم) بنفس النسبة التي ارتفع بها في عام ١٩٩٩، ومع إضافة التأكل في هذا الدخل نتيجة لارتفاع الأسعار فإن نسبة أكبر من هذا الدخل تم إنفاقها على مقارنة بعام ١٩٩٩، وإضافة إلى ذلك فإن الثروة الإضافية للقطاع العائلي تقلصت في عام ٢٠٠٠ بعد زيادات كبيرة التي حققتها لعدة أعوام متتالية، حيث أن أثر التدهور في سوق الأوراق المالية كان كبيرا، بحيث لم يكن بمقدور الزيادة الكبيرة في قيمة العقارات السكنية أن تعوضها. ومن الأمور التي حدثت نتيجة للقفزات والزيادات المتوالية في قيمة الأسهم والسندات أن أثر زيادة ثروات الأفراد كانت تدفعهم إلى المزيد من الاستهلاك، وانسحر ذلك في مواجهة أثره الإيجابي على الإنفاق الاستهلاكي للأفراد لعدة أشهر بعد بلوغ أسعار الأوراق المالية لأعلى سعر وصلت إليه، لكن مع مضي الوقت وبدأ سوق الأوراق المالية في

الأفكار الفرعية

Abu Nour www.alkottob.com

الهبوط، فإن ذلك أدى بدوره إلى تحول آثر الثروة إلى ممارسة تأثير سلبي على الإنفاق الاستهلاكي للمواطنين الأمريكيين.

وكان من نتيجة أن انعكس كل ذلك على المؤشرات التي تحلل وتقيس مدى ثقة المستهلكين في الاقتصاد مستقبلاً. حيث انخفضت تلك المؤشرات في نهاية عام ٢٠٠٠ بشدة، واستمر ذلك حتى بداية عام ٢٠٠١، حيث وصل هذا المؤشر الهبوط عند شهر أكتوبر ٢٠٠٠ حتى سجل في فبراير ٢٠٠١ أسوأ معدل له منذ شهر يونيو من عام ١٩٩٦.

ب- انخفاض في الطلب الاستثماري: كانت الاستثمارات المخيفة لقطاع الأعمال قد ارتفعت بمقدار ١٠٪ في عام ٢٠٠٠، حيث بلغ معدل الزيادة في الاستثمار نحو ٢١٪ خلال الربع الأول من هذا العام، وهو ما يعد أقوى معدل خلال مثل هذه الفترة مقارنة بالأعوام السبعة. وقد تم تعزيز ذلك جزئياً إلى موجة شراء معدات الكمبيوتر الحديثة خاصة أجهزة الحاسبات الآلية أو تلك التي تعتمد في تشغيلها على الحاسبات الآلية بسبب تأجيل قرار شراء هذه المعدات في عام ١٩٩٩ خوفاً مما سمي بفيروس الألفية لأجهزة الحاسبات. وقد استمر معدل الاستثمار في النمو الإيجابي على الرغم من تباطؤ خلال الربعين الثاني والثالث من نفس العام، حيث بلغ هذا المعدل ١٥٪ خلال الربع الثاني ثم ٨٪ خلال الربع الثالث، إلا أنه خلال الربع الأخير من العام شهد هذا المعدل نمواً سلبياً استجابة للتباطؤ في الاقتصاد الذي أنحنى إنحناءً حاداً بدءاً المصارف في التشدد نسبي في منح الائتمان، وزيادة الشكوك حول الأرباح المتوقعة، وبلغت معدل النمو في استثمارات قطاع الأعمال نمواً سلبياً بلغ مقداره ١,٥٪ خلال هذا الربع. يضاف إلى ذلك أنه خلال نفس الفترة من عام ٢٠٠٠ بدأت نسبة المخزون للمبيعات في الارتفاع لتوضح أن الشكوك حول المستقبل الاقتصادي هي أكثر سوءاً وربما لم تكن معتقداً. فقد أظهرت الإحصاءات أن نسبة المخزون قد ارتفع بمقدار ٣,١٪ خلال العام، بحيث بلغت نسبة المخزون للمبيعات إلى أعلى معدل لها خلال عامين بنسبتها ١,٣٧، إذ ارتفع المخزون من السلع المصدرة بمعدل مقدر ٥,٨٪ عن المعدل المسجل خلال عام ١٩٩٩ بينما ارتفع المخزون من السلع غير المصدرة بمعدل مقدر ٤,٩٪ عن المستوى المسجل خلال عام ١٩٩٩ واستجابة للتباطؤ في الطلب والزيادة في المخزون، فإن قطاع الأعمال الصناعي أخذ يخفض من حجم إنتاجه خلال أشهر ثلاثة الأخيرة من عام ٢٠٠٠ شهراً بعد الآخر بكميات متزايدة في كل شهر عن الشهر السابق عليه. ونتيجة لهذا فإن أرباح الشركات العاملة في قطاعات الاقتصاد المختلفة بخلاف القطاع المالي أو الشركات العاملة في قطاعات الصناعة تختلف فروعها وذلك العاملة في قطاع الزراعة، ومقاطع قطاع الخدمات، سجلت انخفاضاً كبيراً في معدلات ربحيتها خلال الربع الأخير من عام ٢٠٠٠.

ج- دور السياسة النقدية: وإزاء هذا الوضع كان لابد من التدخل من قبل صناعي سياسة الأمريكية، وهو ما تم بالفعل من تخفيض تتعدد في السياسة النقدية الأمريكية عبر تخفيض أسعار الفائدة الأمريكية على مرات عدة، وعلى الرغم من ذلك كانت هناك شكوى عامة ومستمرة من قبل العديد من دوائر الأعمال والمواطنين من عدم تقدير نقاط الانخفاض الفيدرالي لتعمي النشاط الذي يمر به الاقتصاد الأمريكي. فقد كان نقاء الانخفاض الفيدرالي قد أفقده في الربع خلال شهر مايو عام ٢٠٠٠ على رفع أسعار الفائدة الأمريكية بمقدار نصف نقطة مئوية تجابهه ما كان يراه من تكثيف سحب الضغوط التضخمية في سبيل الاقتصاد الأمريكي. وقد أدى ذلك إلى زيادة المصاعب التي واجهت القطاع الإنتاجي حيث تزايدت عبء الفائدة عليه نتيجة لأن أغلب العاملين في هذا القطاع تستدين بسعر فائدة تعوم، أي سعر فائدة متغير تبعاً لمعدلات الفائدة السائدة التي تحدد التي حد بعيد بناءً على سعر الخصم الذي يحدده نظام الاحتياطي الفيدرالي. علاوة على أن رفع أسعار الفائدة لا يشجع المستهلكين على الائتمان من أجل تمويل طلبهم على الشراء، وخاصة من السلع المعمرة، وهو ما دفع بشكل خاص بحجم إنخفاض كبير في حجم

Abu Nour www.alkottob.com

مبيعات وبالتالي حجم الانتاج من السيارات الأمريكية خلال النصف الثاني من عام ٢٠٠٠ ورغم اجتياح البنك السوق المفتوح البيعة لنقد الاحتياط الفيدرالي بالكلفة بحث وبقرير مستوى سعر الفائدة مرتين في أعقاب ذلك خلال شهري أغسطس وأكتوبر ٢٠٠٠ إلا أنها لم ترى في المؤشرات الاقتصادية المتوافرة آنذاك ما يدفعها إلى خفض أسعار الفائدة الأمريكية وأجلت ذلك إلى اجتماعها التالي في نهاية يناير عام ٢٠٠١ إلا أن انتشاع مؤشرات النشاط الاقتصادي مع نهاية العام دفعت هذه المرة إلى إقرار خفض مفاجئ في أسعار الفائدة بمقدار نصف نقطة مئوية عن طريق مؤتمر تليفوني جمع أعضاء لجنة في يوم ٣ يناير ٢٠٠١ ثم إلى إقرار خفض آخر بذات المقدار عند اجتماعها يوم ٣١ يناير ليبلغ سعر الخصم بحلول ٤٥ ٪ ثم عادت هذه اللجنة إلى إقرار خفض جديد بمقداره نصف نقطة مئوية يوم ٢٠ مارس. وعلى الرغم من ذلك فإن مؤشر البورصة الأمريكية انخفض في اليوم ذاته بما يزيد على ٢٨٣ نقطة بسبعة أمثال المتعاملين كانوا قد توقعوا خفضاً أكبر في سعر الفائدة يبلغ ما بين ٧٥ ٪ ونقطة مئوية كاملة وهو ما لم يتحقق وقد توجه الاقتصاد لنظام الاحتياط الفيدرالي للتأثير في تعديل السياسة النقدية ثم لعدة كلمات ما احتوت من قرارات في التأثير على حالة النشاط المستقبلي. وما كان من نظام الاحتياط الفيدرالي سوى التأكيد من جديد على أن الهدف الذي سعى إليه لم هو مساندة المتعاملين في سوق الأوراق المالية. على أن هدفه هو الحفاظ على معدل نمو مستقر وغير تضخمي في الناتج المحلي الاجمالي الأمريكي. كما أن رئيس النظام عبر عن رأيه بأنه مستعد للتوقف عند ظهور مؤشرات جديدة تؤكد استمرار الاتجاه نحو انتشاط الاقتصادي

٥ - الرئيس بوش ومساندته المالية: ورغم هذا التدهور الاقتصادي في عهد الرئيس الجمهوري بوش إلى مستويات لم يبلغها من قبل. إلا أن فريس ربما كان هي واقع الحال من أكثر الناس ترحيباً بذلك. إذ أعطى هذا التدهور فرصة للرئيس لتنفيذ بعض من أهم جوانب برنامجه الانتخابي. يتعلق بأحد هذه الجوانب خطته الداعية لخفض الإيرادات الضريبية بمقدار ١٠٦ تريليون دولار على مدار عشرة أعوام. وقد وجد الرئيس دعماً سياسياً من جانب مجلس النواب الذي وافق على خفض بمقدار ٩٨٣ بليون دولار. التي يمكن القول بمعنى ما أن عمليات القاعدة قد ساعدت بوش على الوفاء ببعض وعوده السياسية

وكانت إيرادات الموازنة الفيدرالية الأمريكية قد حققت زيادة قدرها ١٠٧٥ ٪ خلال عام ٢٠٠٠ المالي، مقارنة بالعام السابق عليه وهو ما يعد أعلى معدل زيادة منذ عشرة أعوام كاملة. وقد أتت هذه الزيادة نتيجة لزيادة الحصيلة من الإيرادات الضريبة للأفراد بنسبة ١٤ ٪، حيث زادت الحصيلة على الأخص في الأعوام الأخيرة بمستويات تزيد على معدلات الزيادة الاسمية في دخول الأفراد. وكان التعامل الرسمي مع ذلك هو أن تكون الزيادة في مستويات الدخول خلال سنوات الازدهار الاقتصادي قد خلقت العديد من دافعي الضرائب إلى شرائح ضريبية أعلى. إضافة إلى زيادة الحصيلة الضريبية من الأرباح الرأسمالية التي حققها الأفراد نتيجة للازدهار في سوق الأوراق المالية وكذلك تسوية الأخيرة التي لا تتضمنها سنات دخول مواطنين من عوائد العمل. إضافة لهذا كله فإن حصيلة الضريبة عن أرباح الشركات ارتفعت بشدة هي الأخرى خلال العام المالي ٢٠٠٠ الذي ينتهي بنهاية شهر سبتمبر، أي قبل النشاط الاقتصادي الذي كان مشهوداً خلال الربع الأخير من العام ٢٠٠٠ أو بمعنى آخر السهور الثلاثة الأولى من العام المالي ٢٠٠١

ونتيجة لزيادة إيرادات الموازنة بمعدل أعلى من معدلات زيادة الانفاق فإن فائض الموازنة الموحدة ارتفع إلى ٢٣٦ بليون دولار خلال العام المالي ٢٠٠٠ وهو ما يزيد على ضعف ما تحقق من فائض في موازنة العام السابق عليه. ومن هنا جاءت فرصة الرئيس بوش في الوفاء بوعوده الانتخابية، إذ إن فائض الموازنة إلى جانب النشاط الاقتصادي أعطت بعض الوجاهة لاقتراح الرئيس الأمريكي بتخفيض الشرائح الضريبية. أو ما عبر عنه بوجوب إعادة هذا الفائض لجيوب المواطنين وهو ما سوف يدعم زيادة الطلب الاستهلاكي ويخرج الاقتصاد من أزمته. إلى جانب ذلك بالتصنيع فإن كل هذا قد أتى متوافقاً مع الايديولوجية المحافظة

Abu Nour www.alkottob.com

لأداء في بورصة وول ستريت الأمريكية، إذ انخفض المؤشر بمقدار يزيد على ٢٪، حيث أن ارتفاع معدل البطالة يعني المزيد من تدهور الاقتصاد وتوقع زيادة الانخفاض في انفاق المستهلكين. وخفض معدلات الإنفاق الاستهلاكي مما يدفع نحو المزيد من تباطؤ في النشاط الاقتصادي.

وبدأ أن محاولات انعاش الاقتصاد عن طريق السياسة النقدية التوسعية التي تمثلت في خفض معدل الفائدة ست مرات خلال العام وقيل ١١ سبتمبر قد ذهبت سدى. إذ أن بيانات البطالة في أغسطس أظهرت أن ما اتخذ من إجراءات لم يكن كافيا للتغلب على العوامل التي تدفع الاقتصاد نحو الركود.

وبوسط ذلك، أتت أحداث ١١ سبتمبر لتجعل معظم المراقبين يتجهون إلى ترجيح كفة أن الاقتصاد لا محالة في سبيله إلى تهوى خلال الربع الأخير من ذلك العام، بل إنه أصبح من الحتمي أن يمر برحلة ركود واضحة. ورغم أن البعض كان ما زال يشير إلى أن الأحداث لن يكون لها أثار اقتصادية طويلة المدى، وأن قوة الآلة الاقتصادية الأمريكية جبارة وستعمل على نهوض الاقتصاد سريعا، بل ربما تعمل زيادة الإنفاق العام المرتبطة بالمعونيات التي ستدفع وإعادة تعمير ما تردت على عمليات التحجير من هذه إضافة إلى الإنفاق العسكري على انعاش الاقتصاد، لكن لم يحدث هذا سوى بعد ضرور بعض الوقت.

ومن هذه الحقائق الواضحة ما حدث ببورصة وول ستريت منذ عودتها للنشاط يوم الاثنين ١٧ سبتمبر ٢٠٠١ بعد فترة غياب استمرت ستة أيام، وهي أطول مدة تغلق فيها أكبر بورصات العالم منذ الحرب العالمية الأولى. إذ انخفض مؤشر البورصة بشكل لم يحدث منذ عدة سنوات. وكانت حصيلة أول أسبوع للتعامل وهو الأسبوع المنتهي يوم الجمعة ٢١ سبتمبر هو انخفاض مؤشر البورصة بقدار يزيد على ١٤٪، وهو ما يعد أكبر انخفاض خلال أسبوع منذ أزمة الركود العظيم في ثلاثينيات القرن الماضي. وربما الأكثر دهشة هو أن هناك بعض القطاعات التي عانت من خسارة كبيرة بضعف تعرضها، إما لمخاوف في وقت قصير، ينشير هذ تحديدا إلى شركات الطيران وشركات السياحة والتأمين والنقل والنشر. فقد انخفضت أسهم شركات الطيران بنسبة تزيد على ٣٦٪، وقدرت حجم الخسائر بمقدار ٣٠٠ مليون دولار يوميا خلال فترة توقف حركة الطيران والتي امتدت نحو ١٣ يوما متصلة. وقد أعلنت عدة من الشركات مثل شركة "تورت وبست" أنها ستوقف تفصيل على الفور نحو عشرة آلاف موظف من العاملين لديها في أعقاب قرارها بخفض جدول الرحلات المزدحمة بدلهب مقدار يزيد على ٣٠٪ نتيجة لانخفاض طلب المسافرين. وقد نعت شركة تورت وبست بقية الشركات الأمريكية بل وبقية شركات الطيران العالمية لا سيما الأوروبية في فصل عدد من العاملين لديها بالفعل والعديد من الرحلات من جداولها العادية. ويقدر أن حجم الاستغناءات في قطاع النقل الجوي قد بلغ في الأسبوع الأول التالي لتفجيرات نيويورك وواشنطن نحو ١٠٠ ألف وظيفة، علاوة على أن شركة بوينج صانعة مصانع الطائرات علنت عن الاستغناء عن ٣٠ ألف موظف يمثلون ثلث عدد العاملين في قطاع تصنع الطيران المدنية بالشركة. وحيث أن أندج الخسائر قد نزلت بشركات الطيران ومن المنتظر أن تعاني منها لفترة من الوقت. فقد طالبت هذه الشركات بضرورة تدخل الحكومات لدعمها. وقد أقدمت الإدارة الأمريكية بالفعل على إقرار دعم هذه الشركات بمقدار ١٥ مليار دولار، منها دعم مباشر بمقدار ٥ مليارات دولار و١٠ مليار دولار عبارة عن ضمانات قروض تعقد لها. وقد حذت دول أوربية الموحدة حذو الولايات المتحدة في تقديم دعم لشركات طيرانها.

أما فيما يتعلق بقطاع التأمين فإن وكالة التصنيف "ستاندرد اند بورز" قدرت أن حجم خسائر التي ستتحمل شركات التأمين وإعادة التأمين الأمريكية قد يصل إلى ١٧.٥ مليار دولار. وأوضحت أن هذا الرقم قد يرتفع بصورة كبيرة مع التقدير النهائي لحجم الكارثة وحجم التعويضات المطلوبة. حيث أن أغلب الكوارث السابقة بينت أن حجم خسائر شركات التأمين وإعادة التأمين يزيد في الغالب عن التقدير الأولي.

Abu Nour www.alkottob.com

رغم ثمن يمكن القول أن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم تكن هي في الحقيقة السبب الرئيسي وراء دخول الاقتصاد الأمريكي في أزمة لطالت لفترة من الزمن، وربما كانت بمثابة العامل المساعد على تحول التباطؤ المتشدد في الاقتصاد الأمريكي منذ نهايته عام ٢٠٠٠ إلى كساد واضح بعد هذه الأحداث. ورغم حدوث خسائر كبيرة وحادة في عدد من القطاعات الاقتصادية كالطيران والسياحة والتأمين، إلا أن هذه الخسائر لم تصل بأي حال من الأحوال إلى حدود من شأنه به أسقط بين ليلة وضحاها بالأحداث بأن حجم الخسائر يصل إلى تريليون دولار. علاوة على نقطة قد يبدو غامضة إلا أنها كانت شديدة الأهمية للرئيس بوش وهو صاحب الركود الاقتصادي على أعطاء الرئيس حجة قوية للتقيد بما كان وارداً في برنامجه لاستخلاص من خفض ضريبي الضرائب حادة على الأثرياء والشركات الكبيرة كمكافأة لمناصريه الذين حملوه إلى منصب الرئاسة.

لذلك، نجد أنه يبرز الوقت حاد بعض الدراسات جهات محسوبة على تنظيم القاعدة لتتوخى بعض الموضوعية في تقييمها لأثر أحداث سبتمبر على الاقتصاد الأمريكي، وخاصة فيما يتعلق بحجم الخسائر الاقتصادية. فوفق إحدى الدراسات "قدرت الخسائر الاقتصادية للولايات المتحدة عقب الأحداث بقيمة ١٠ ملياز دولار إضافة إلى إلغ ما يقارب من ١٠٠ ألف وظيفة في الأسبوعين التاليين للاعتداءات فقط، ولهذا فقدت البطالة لتبلغ نسبة ٦٪ من مجمل القوى العاملة، وبعتبر هذا أعلى رقم قياسيا لم تسجل له منيل منذ ٢٠ عاما (١٠). كما حدث تغير كبير في الميزانية الفيدرالية من فائض بلغ ١٢٧ مليار دولار عام ٢٠٠١، وصل في عام ٢٠٠٣ إلى عجز قياسي قيمته ٣٠٠ مليار دولار، يعادل ٢،٧٥ من الناتج الاجمالي المحلي. وتنتهي الدراسة إلى أنه: "لقد بعد الغرور المباركة وحل رأس المال الأمريكي إلى طريق مسدود بعد أن فقد مصداقيته أمام العالم من جهة. وبعد أن أصبحت الحكومة عاجزة عن استعادة زمام المبادرة لانعاش الاقتصاد من جهة أخرى. كما نسبت الدراسة إلى أحداث سبتمبر التراجع في حجم الاستثمارات الأجنبية في الولايات المتحدة، حيث جاء بالدراسة: "قدرت إحصائية لوزارة التجارة الأمريكية في ٢٠٠٣/٦/٢٦ بتراجع الاستثمارات الأجنبية للعام الثاني على التوالي بنسبة تزيد على النصف، حيث تراجع إجمالي الاستثمارات العالمية في الولايات المتحدة بنسبة ٦٤٪ لتصل إلى ١١٤٧ مليار دولار أمريكي". وعضت هذه الدراسة لتذكر "في الفترة من ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وحتى ١١ سبتمبر ٢٠٠٣ أعلنت وأفلست مجموعة كبيرة من الشركات الأمريكية، فقد سرح ٦٠ ألف شركة وقد سرح ما لا يقل عن ١٤٠ ألف عامل أمريكي في نفس الفترة، وفقا لتقرير تصحيفة وول ستريت جورنال، وما زال مسلسل التسريحات والإفلاسات مستمرا حيث يسجل قطاعي الطيران الأمريكي، والتأمين أعلى معدلات الافلاس والتسريح للعمال. (١١).

إلا أنه في حدود ما وقع تحت يد الباحث من دراسات وبيانات صادرة عن تنظيم القاعدة أو من جهات متعاطفة معه أو محسوبة عليه لم تحدث مراجعة حقيقية في ضوء التطورات التي حدثت في الاقتصاد الأمريكي خلال عام ٢٠٠٣ وخاصة خلال الربع الأخير منه الذي شهد انتعاش قوي للاقتصاد الأمريكي. وكان مناط التركيز في كافة الكتابات هو "التركيز البالغ على الآثار الاقتصادية لاحداث سبتمبر، وعلى أن استنهاض الاقتصاد الأمريكي ربما يكون أكثر فعالية في القضاء على الهيمنة السياسية والعسكرية الأمريكية على العالم.

ويلخص بن لادن نظرته الى نتائج أحداث سبتمبر وما هو مطلوب في الفترة القادمة من وجهة النظر الاقتصادية فيقول: "لقد حدث بفضل سعينا على هذه الأحداث العظام (يقصد أحداث سبتمبر) ولكنني أحضر كلامي واركز على أهمية استمرار العمل الجهادي ضد أمريكا عسكريا واقتصاديا. وإن أمريكا قد تراجعت بفضل الله سبحانه وتعالى وان التزيف الاقتصادي مستمر إلى السوء ولكن يحتاج إلى ضربات اخرى، أن

Abu Nour www.alkottob.com

يحتهد الكتاب في البحث عن مصادر الاقتصاد الأمريكي وجذور القوة في مقدمتها بالطبع ويحلل ويتعالى (١٣٧).

ثم أخيرا نجد أن الاحتلال الأمريكي للعراق، السياسة الأمريكية تجاه تصدير العربي الاسرائيلي قد دفعت أوروبة للقارة لكي تشدد على صحبة موقفها من تولايات المتحدة، وبالتالي فإن جدة رومية لجماهير نعيبة وراء هذا الأطار، ذهبت إحدى الدراسات في سنة محددة للاهداف البراجماتية الأمريكي في المنطقة التي: "ان التواجد الأمريكي في المنطقة لا يكون رد فعل لقضية محددة كقرمان سيتير أو لتسلط رئيس عاشه. إن التواجد الأمريكي في المنطقه هو استراتيجية لا يمكن ابدا التنازل عنها. وهي على استعداد ان تقاتل دول المنطقة باكملها من أجل انقاذ في المنطقه كما انها على استعداد لعدم لقتال حلفائها من دول أوروبا لتحقيق أهدافها في المنطقة. ان المنطقه هي سرطان العالم المحيط، ومن سيطر على هذا السرطان فسوف يتحكم : يسود، ومن ثم عليه ان يسيطر على العالم بحذافيره بلا جهد حسب قناعتهم، وهو بالتحديد أهمية المنطقه بالنسبة لأمريكا، فمن السذاجه أن نظن أو نعتقد بسيطة عدد ان هذا الاعلان يعني به اعلان اخلاء السعوديه من القواعد الأمريكيه حقيقية على رغم توابع التحرك والانتقال من دولة إلى اخرى في منطقه لا يعدو أن يكون سعودة تحرك عسكري مكثف، ويتلقى الاستراتيجية نابعة، هي ضمن السيطرة على منابع النفط، السيطرة على الممرات وضمان سلامة وصول النوافح للصورة، وكل ما يحصل في حقليات الصورة فهم لا يقبل اكثر من تعبير في الدكور لانقاذ الصورة صحة حمالة خداعة، تروج على شعوب المنطقة، (المعقلين ١٣١).

(بالتأكيد الأهمية القصوى للمنطقه تكشف هذا التبرير ... المنطقه كلها، السعودية خصوصا، هي بل ان السعودية هي اكبر دول المنطقه مخزونا بل اكبر دول العالم وجودا، تصدير الخليج منتج ٦٣ من محصل الإنتاج العالمي، ويوجد في منطقة الخليج ٣٧ عملا يرسل على الأقل من الاحتياطي المعلن، وهو يعادل ثلثي احتياطي العالم. هذا هو الذي وضع الرئيس الأمريكي السادس يكتسبن لقرن في هذا المكان، "أصبحت الآن مسألة من سيطر على ما في الخليج تعني السيطرة الأمطار، تتكلم عندما نتحدث عن سيطرة على ما في العالم، فقال ان منطقة الخليج كانت ذات يوم تعني أي حد كبير بالمال ورأسمالي اليوم، لكن الآن تمتلك مصير العالم بدرجتها أو رصالها بمصير أوروبا، فهي تعارض حقا مشكله كبيرة، فمصيرهم معلق بشكل المنطقة، واضاف أمن مصيرهم يكتسفه مخاطر حمه هي يرون أن يفعله عليهم لي هذا المكان، لا يحس تعليمهم عليها في المعقد الذي بعده: لقد غابه فكرة يحلون حديثة ، طويله الأجل لا تنتهي يزال مجالم،...) لما سبق يتضح لنا ان التصريح مانعا، تواجد العسكري الأمريكي في المنطقه، بعد بالنسبه لهم بأسنا لأعطه سعة لهم الاستراتيجيه والتي يزولهم سيزولون حتما، ولنسف اهميه لمنطقة محط انظار الأمريكيين فمدى فقط، بل هي صحفة انظار قمون العالم كلها، قبيل مركزي في صينا خلف، امريكا الأوروبيون وحلفهم (الباقون) (١٤٤).

يشرح (جوزيف سيسكو) مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشئون، صدا ناميس النفط لدى الأمريكيين بانه يكون من ثلاثة عناصر أساسية، هي (١) استمرار القدرة على الحصول بواردات النفط، (٢) باسعار معقولة، (٣) بكميات كافية للوفاء بالاحتياجات الأمريكية المتنامية، واحد أصدقائهم الأوروبيين والاسيويين، وصدا ناميس النفط هو اكبر اهتمام العسكريه التي وسعت الولايات المتحدة جهدها العسكرية في منطقه خدمته وهي عاصمة على التحريف التي عودنا وسع اي شيء فصيل هذا المطلب.

(حتى لو حصلت الدول المنتجة للنفط بدفق النفط لامريكا، فهل سيعني ذلك أمريكا؟ كلا، لان

Abu Nour www.alkottob.com

مرتفعة فإنها ترفع أسعار منافسيها وكميات كافية هي تحديدها ولا أحد سواها، فلا يمكن تفضل من المنابع، عن تدفق النفط بالسعر المناسب والكمية الكافية. فتخفيض الانتاج من قبل المنتج يؤدي الى زيادة السعر، مما يؤدي الى الاسراف بالاقتصاد الأمريكي، وهو منافسه تقامه تعتمد اعتماداً كلياً عليه خارجي. وايقاف النفط عن أمريكا فامن النفط وسعره وكميته هو أمريكي لا يمكن المساومة عليه بحال من الأحوال. المصدرين أنفسهم، يقول أهرون كينجر، وزير الخارجية الأمريكي في مقطع ١٩٩٥م، ١٩٧٥م، أيالرغم من أن أية خطوة عسكرية أمريكية في الخليج ستكون شديدة الخطورة فإنني لا أستطيع القول بأنه لن تتوفر ظروف على المنطقة، تؤدي الى استعمالنا لقواتنا العسكرية. ان استعمال القوة العسكرية في حال الحلات حول سعر النفط هو شيء، لكن شيء مختلف خلقة خلق العالم العالمي هو شيء آخر). وهذا يعني أن أمريكا على استعداد لضرب مصدر النفط أنفسهم في حال أنه تهم لتسببات حيال السعر أو الكمية التي حد تؤدي الى اختناق الدول الصناعية. فالمحافظة على هذا المبدأ يقتضي شن حرب متواصلة لضمان هذه الركائز ثلاث، فمن السخف تعليق الوجود الأمريكي بمدام، رغم وضوح الأهداف الأمريكية، لضمان تدفق النواحد العسكري (١٥٥).

ويقضي تلك الدراسة لسببين ان اهتمام الولايات المتحدة بالمنطقة بسبب ما تحتويه في باطنه من ثروات نفطية هو أمر قديم جداً. حيث تعرض لبعض الاستراتيجيات السياسية والعسكرية الأمريكية منذ أربعينيات القرن الماضي، وخرج على ما عرف فيما بعد بمكسوين وميدا كاوتر اليرسين الامريكيين السابقين، لتنتهي باحتلال العراق وإثارة باقي دول المنطقة حيث تذكر الدراسة: «لقد مخططون بوزارة الدفاع الأمريكية المتقاعدون ان هناك عاملين الأرجح حاجة ليقاء قوة مواجهة ٢٥ الف جندي تساعد في ارساء الاستقرار في الخليج لمدة ستة على الأقل، حتى يتم تشكيل حكومة شرعية جديدة تبدأ مهامها بتوفير الأمن، ملاحظ ان هذا العدد يعادل ٦٣٪ تقريباً من قوات التدخل السريع المحددة للمنطقة، فتحركها في العراق يعني من التشرف في كل دول المنطقة، وربما هذا هو أحد أسباب الاستقصاء عن قاعدة سلطان الجوي المملكة السعودية)، ولكن اذا انتهت الحرب ولم تشكل الحكومة المنشودة التي تبدأ مهامها بتوفير الأمن مثلاً سكون لقرار (.....) ويجيب حتى مساعدتنا لصدام اجوال وليفتنزا مساعد وزير الدفاع الأمريكي، ولرجل الذي في البيت عون أنه ترى امكانية بشار قواعد عسكرية في العراق التي ستمنح بدلاً خليجيا صديقا جديداً لأمريكا، وتمنح بدلاً الخمينية لأساسية هي أن إزاحة هذا النظام ستمنح الولايات المتحدة حرية أكثر للحركة في الخليج، وان بمسمات وخلقا سكون أكثر حدة بدون النهديد العراقي». (١٥٦)

واخيراً تمضي الدراسة لتوكد على الصلة بين الولايات المتحدة واسرائيل بالقول: «... وأمريكا ملزمة بحماية أمن اسرائيل في داخلها وخارجها، وكذلك فرض الاقتصاده الاسرائيلي في المنطقة وإضعاف الجميع لضمان تفوق اسرائيلي عسكري واقتصادي امر بالغ الأهمية بالنسبة لأمريكا لأنها تعتبر اسرائيل رأس حربة لها في المنطقة وقوتها هي قوة لأمريكا وسيطرتها سيطرة لأمريكا. اضافة الى قيامها هو الآن عودة يسوع النصاري (١٧١).

ويؤكد هو مرة أخرى على صحة الدعوى التي تطلقها القاعدة من أنها قاعدة جهاد أعداء والصليبيين ليس لأسباب عقدية فقط. وانما لأسباب اقتصادية بالأساس وهو علاوة على ذلك فرصة لدعم القاعدة وحشد المؤيدين لها. والأمر المدهش ايضاً من جديد أنه هنا تشابهاً كبيراً بين القاعدة والجماعات الراديكالية اليسارية سابقاً في المنطقة وهو تشابه يصل الى حد التماثل في الرؤية لعداوة الولايات المتحدة لأنها تهدف الى نهب ثروات المنطقة. علاوة على تحالفها العضوي مع اسرائيل. ويصل هذا التماثل في التحليل الى منتهاه الى حد استخدام نفس الوصف أي القول بأن اسرائيل هي رأس حربة للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة.

Abu Nour www.alkottob.com

الهوامش والمصادر

١. انظر: أبو جندل الأردني، أسامة بن لادن، مجدد الزمان وقاهر الأمريكان، مركز الأسوة للجهاد الإعلامي (طبعة إلكترونية).

٢. انظر بعض المقابلة التي أجرتها قناة الجزيرة القطرية مع أسامة بن لادن في عام ١٩٩٨، والمنشورة في كتاب: أبو جندل الأردني، أسامة بن لادن، مجدد الزمان وقاهر الأمريكان، مرجع سبق ذكره.

٣. أعلان أسامة بن لادن الجهاد ضد الأمريكيين المحتلين لبلاد الحرمين، ٢٣ أغسطس ١٩٩٦.

٤. انظر المصدر السابق.

يقول بن لادن في رسالته: وقد نحن اليوم بدأ منها الحديث (يقصد أفغانستان) والعمل والمقاتلون لبحث سبيل الإصلاح قد حمل بأعباء الإسلام عامة، وبلاد الحرمين خاصة، ويريد ان نتدارس السبيل التي يمكن بسلوكها إعادة الأمور إلى نصابها، والحشود إلى أبنيتها، بعد أن عساء الناس من أبنيتهم من مكتب عظيم ومشروع ضخم في أمور دينهم ودنياهم، أصاب الناس بجميع فئاتهم، أصاب المدنيين كما أصاب العسكريين ورجال الأمن، أصاب الموظفين كما أصاب التجار، وأصاب الصغار والكبار، أصاب طلاب المدارس والجامعات كما أصاب المتخرجين من الجامعات العاطلين عن العمل، حتى شباب الأقوياء، بل أصبحوا يشكون شريحة عريضة في المجتمع أصبت أهل الدعارة كما أصاب أهل الزراعة وأصاب أهل الحضر والبدو، كما أصاب أهل البادية والريف، والكل يشتكي من كل شيء تقريباً. بيانات التوضع في بلاد الحرمين أشبه بمركان هائل يكاد أن يدفجر فيقضي على الكفر والفساد بهما كانت مصادره، وما انفجار الرماض والخبر إلا نذر لهذا السيل الهادر الذي يوشك ان المعاند (الكفر المرير)، فيهوي بالظلم الفاسح والبغي المنتن والغفر.

وقد شغل الناس بأمور معاشهم شغلاً عظيماً، الحديث عن الرزق الاقتصادي وغلاء الأسعار، وكثرة الديون واعسار المدينين هو حديث الجميع وحديث عنه ولا حرج، فهولاء موظفون من ذوي الدخل المحدود يحدثك بك عن ديونهم بعشرات وصنات الألوف من الريالات، ويتحدثون عن الدين الهائل (تضاعف قيمة الريال الشرعية مقابل معظم العملات الرئيسية) بينما يحدثك كبار التجار والمقاولين عن ديونهم بمئات والآف الملايين من الريالات على الدولة، وقد بلغت الديون الداخلية للمواطنين على الدولة أكثر من ثلاثمائة وأربعين ألف مليون من الريالات تزداد يومياً بسبب الفوائد الربوية المتراكمة عن ديونها الخارجية، والناس يتساءلون أيهما نحن أكبر دولة مصدرة للنفط، بل ويشعرون أن هذا عذاب من الله على قد لايهم سكتوا عن ظلم الحكام وعصيانه لغير الشرعية ومن يبررها عندهم المحاكم التي شرع الله، فتصادر أحكام القضاء الشرعية، وإباحة بلاد الحرمين لمستعلين الأمريكيين، وإيداع العلماء الصادقين وزجهم بالسجون لتسجين قلب وعضلاتها. هذا المصاب العظيم قد نبه له أهل الفضل الخير من المختصين في أمور الدين كما نبه له المختصين في أمور الدنيا كالتجار والاقتصاديين بالوجه، فبدأت تعلو فيه جهودها للتحرك السريع لتدارك الموقف، والجميع مجمع على أن البلاد تسير نحو هوة سحيقة وستسقط فتضيع لا يعلم مداها إلا الله، وعلى حد تعبير كبار التجار أن الملك نقود البلاد إلى مستنقع داعش، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كما أن العديد من الامراء يشاركون الشعب همومه ويعبرون في مجالسهم الخاصة عن أعتراضهم على ما يجري في البلاد من إرهاب وقمع وفساد، وإن تناقش الامراء المقدمين على المصالح الخمسة عند دمر البلاد، وأن النفط قد مزق شعبيته بعيداً...

Abu Nour www.alkottob.com

٥. الف . لتليفزيوني مع أسامة بن لادن لقناة هيرسل الجزيرة في أفغانستان حول استاجيل شن هجمات عام ١٩٩٨، ونشته قناة الجزيرة القطرية في ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١ كما وردة نصه الكامل في كتاب: بن لادن والجزيرة وأنا، الذي ألفه نفس المراسل بعد أن ترك العمل مع قناة الجزيرة، ويوجد في عديد من المواقع الاسلامية على شبكة الانترنت.

٦. قام بن لادن بحساب تلك التقديرات وفقا للمتغيرات التالية:

- أن سعر البترول المتوفر حاليا: ٣٦-٤٠-١٤٤ دولار، استنادا إلى هبوط ارتفاع في أسعار السلع الصناعية المعتمدة على النفط في الدول الصناعية اربعة ما كانت عليه في بداية الثمانينات.

سعر البترول حاليا: ٩٠ دولار للبرميل.

- حجم السرقة الأمريكية في كل برميل: ١٤٤-٩=١٣٥ دولار.

الانتاج اليومي من البترول للدول الاسلامية: ٣٠٠٠٠٠٠٠ برميل يوميا.

حجم السرقة اليومي: ١٣٥×٣٠٠٠٠٠٠٠=٤٥٠٠٠٠٠٠٠ مليون دولار يوميا.

حجم السرقة السنوية: ٤٥٠٠٠٠٠٠٠×٣٦٥=١٦٤٢٥٠٠٠٠٠٠ مليون دولار.

- حجم السرقة لكامل خلال ٢٥ سنة: ١٦٤٢٥٠٠٠٠٠×٢٥=٤١٠٦٢٥٠٠٠٠ مليون دولار

حجم ما يطالب به كل مسلم امريكا من سرقتها:

٣٦ تريليون ÷ ١٢٠ مليون مسلم = ٣٠٠٠٠ دولار لكل مسلم

٧. حوار غير منشور لمراسل قناة الجزيرة القطرية تيسير علوني مع أسامة بن لادن في ٢١ نوفمبر ٢٠٠١، نقلا عن: أبو جندل الازدي، أسامة بن لادن، محدد الزمن وقاهر الأمريكان، مرجع سبق ذكره.

٨. انظر "رسالة مفتوحة إلى أس بن" يبطلان فتواه بالتصالح مع اليهود"، وردت في كتاب "أسامة بن لادن، محدد الزمان وقاهر الأمريكان" السابق ذكره، ص-ص: ٤٢٦ ٤٣٤

٩. انظر نص خطاب اسامة بن لادن إلى الملك فيصد بتاريخ ١٩٩٥/٨/٣، نقلا عن: أبو جندل الازدي، اسامه بن لادن: محدد الزمن وقاهر الأمريكان، مرجع سبق ذكره

١٠. مركز البحوث والدراسات الإسلامية، "توقف الحساب الأمريكية: تقرير يستعرض الحساب الأمريكية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعسكريا منذ غزوة صنعاء وحتى الاحتلال الأخيرة في العراق"، ص ١٠٠

١١. المرجع السابق، ص-ص ١١- ١٥.

١٢. كلمة أسامة بن لادن، قناة الجزيرة القطرية، ٢٧ ديسمبر ٢٠٠١.

١٣. الشيخ يوسف بن صالح العييري، مستقبل الغرب والجزيرة العربية بعد سقوط بغداد: "المستقبل الدفني والعسكري والسياسي والاقتصادي"، مركز الدراسات والبحوث الاسلامية، ص ٢٤.

١٤. المصدر السابق ص ٢٨.

١٥. المصدر السابق ص ٢٨.

١٦. المصدر السابق ص ٣٨.

١٧. المصدر السابق ص ٤١.

Abu Nour www.alkottob.com

٤. التفكير العسكري - العمليات لأسامة بن لادن

مدخل: الأطار النظري للتحليل

لا توجد مشكلة كبيرة في ادراك الكيفية التي كان أسامة بن لادن يفكر بها على مستوى التفكير العملياتي. على الرغم من أن سجل افكاره لا تتصف بالمعايير الأكاديمية على انها عسكرية فهناك نصوص متعددة تحمل افكاره محددة له في هذا الاتجاه، وتسجل تفكيره (سلفي جهادي) مثل إعلان الجهاد أيضا تلك الأفكار استنادا إليه، وعمليات مسلحة خاصة، مثل تفجيرات بصورة ما تمثل الأفكار في الواقع. ويمكن إلى حد كبير فهم كل ذلك في إطار بعض المصطلحات والمفاهيم التقليدية السائدة في الدراسات الاستراتيجية الأمن - الدفاع)، لاسيما (دراسات العنف)، وحتى البحوث العسكرية. على الرغم من أن معظم ما تم القيام به من جانب عناصر القاعدة لم يكن تقليديا على الإطلاق. فالأفكار لا تختلف كثيرا عما طرحته قيادات جماعات عنف كثيرة، إلا أن تطبيقاتها العملية تبدو كانت مختلفة تماما.

لقد كان ثمة ميار في دراسات الأمن يؤكد أنه لا توجد فاصل قطع بين مضمار العنف (الإرهاب، الحرب المسلحة) وتوجهات العسكرية التقاسمة، فهو يتصل بمطلق إدارة أعمال القتال، بصرف النظر عن اختلاف الأدوات والأساليب. فالجماعات العنيفة (حاليا الجماعة الإسلامية سابقا) بحكم تكوين تنظيمات شبه عسكرية لديها إمكانيات عالية وتسليحية متطورة، والإرهابي يبدو لن يستطيع أبدا تكوان في أية مقاتل في حرب ويتصور نفسه جنديا، وتبعا لما يشير البه أيمن الظواهري وبالتالي هو نفسه أن أسلحتهم في البندقية والقنبلة، وميدان قتالهم هو شوارع المدينة، وأهدافهم هي النقط المحرجة للحكم، والحساسة في مجتمع الحديث، كما أن عمليات التنظيمات العنيفة قد تتخذ الكثير من مظاهر التي تقترن عادة بالقوات التقليدية، كالتدمير المادي والتأثير النفسي. لكن المشكلة - كما يقولون - هي أن المؤسسات العسكرية شعرت دائما بصعوبة الاعتراف بالإرهاب كمظهر من مظاهر الحرب، ولم يدخل جهد كبير لدراسة الحروب الصغيرة في الأكاديميات العسكرية (١)، فعادة ما كانت تلك الأمور تدرس في كليات الشرطة.

وعلى الرغم من أن الساحة الدولية كانت تشهد طوال القرن العشرين حروبا بصورة حقيقية تشنها تنظيمات مسلحة عنيفة ضد حكومات مختلفة، كالإرهابيين الثوريين في روسيا القيصرية، الجيش الأحمر في اليابان، والألوية الحمراء في ايطاليا، وبادر مايتهوف في ألمانيا، الجيش الجمهوري الأيرلندي في بريطانيا، ومنظمة الباسك في أسبانيا، والفود المتحدة في بيرو، وبعض التنظيمات الفلسطينية (كأبيلول الأسود)، وكذلك الجماعات الإسلامية الدينية المتطرفة (كجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر) في العالم العربي. وعلى الرغم من أن الظروف قد أرغمت كثيرا من المؤسسات العسكرية على العمل (كرجال مسلحين) في مواجهة كثير من تلك التنظيمات، إلا انه لم يتم الاعتراف بالتعامل معها بمنطق عسكري - عملياتي، على غرار ما كان قد بدأ يحدث مع جماعات المتمردين مسلحين في

Abu Nour www.alkottob.com

الحروب الداخلية، وإن كان قد تم التطرق لها تحليلياً في إطار مفاهيم تنظيمية مثل "القوات شبه العسكرية" Para-Military Forces، أو مفاهيم عملياتية ترتبط بالصراعات منخفضة الحدة - Low Intensity - Conflicts.

إلا أن تطور هياكل وأساليب عمل بعض تلك الجماعات داخل الدول الكبرى أو في محيطها الجغرافي، قد دفع في اتجاه اقتراحها أكثر من أطر التفكير العسكرية خلال الشهور الستة الماضية، وتحديداً تلك النظرة العلمية للحرب (في الولايات المتحدة) أو التقديمة للعمليات العسكرية النظامية (في بريطانيا). فتحول عمليات الإجرام الجنائي إلى منظمات للجريمة المنظمة (مثل المافيا) في روسيا، أدى إلى ادخالها ضمن مصادر تهديد الأمن القومي التي يمكن أن تعمل قوات المسلحة (وليس مؤسسات الأمن فقط) في مواجهتها، كما حدث فيما سمي "استراتيجية الأمن القومي الجديدة" في روسيا الاتحادية عام ١٩٩٢، وهو ما كانت الولايات المتحدة قد اتجهت للتعامل معه على نحو مماثل فيما يتعلق بتجارة المخدرات في أمريكا اللاتينية، خاصة كولومبيا، يضاف لذلك عدد كبير من دول العالم التي كانت الجيوش قد بدأت تخوض فيها "حروباً صغيرة" مع الجماعات المسلحة غير النظامية، كالجزائر التي بلغ عدد قتلى العمليات المسلحة فيها نحو ١١٥ ألف شخص في بداية العقد الجديد.

لكن نقطة التحول الرئيسية جاءت مع "هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١" داخل الولايات المتحدة التي حملت مسئولية شنها لتنظيم القاعدة الذي وصفها بعد ذلك باسم "غروزني نيويورك وواشنطن". فبعد ساعات قليلة من وقوع الهجمات وصف الرئيس الأمريكي جورج بوش ما حدث بأنه "إعلان حرب على الولايات المتحدة الأمريكية"، استناداً على نظرية عسكرية كان قد بدأ تطويرها قبل سنوات بشأن تشكل "التهديدات القادمة" للأمن القومي الأمريكي، وتمت صياغتها منقوصة متكاملة من السياسات ولا سيما بحساب في إطارها، تحت اسم "الحرب غير المتماثلة" Asymmetrical war (٢)، لبدء عسكرة التفكير في التعامل مع العنف المسلح غير النظامي، بعد أن كان هذا النمط من العنف قد تمت عسكرته عملياً، قبل وقت طويل، عبر شن هجمات "لا متماثلة" قامت القوات النظامية ذاتها من جانب جماعات العنف.

إن هذا التحول النظري قد ارتبط بتحول في مجمل ما يتصل بظاهرة الإرهاب (أو العنف المسلح) استناداً على عمليات ما أصبح يسمى فيما بعد "شبكة القاعدة" التي وضح أنها كانت قادرة على القيام بعمليات عنف غير مسبوقة، اعتبرت (بعد الهجوم على الإدارتين الأمريكية) لدى بيار واسع من محللي العلاقات الدولية، بدءاً لمرحلة جديدة من تطور النظام الدولي عرفت باسم مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١". فلم تكن القاعدة مجرد تنظيم عسكري ديني عنيف آخر، وإنما أقرب إلى "فاعل دولي غير رسمي" Non - State Actor، يرتكز على قاعدة جماهيرية - سياسية في أفغانستان، وثروات مالية هائلة، وكوادر بشرية شديدة الاحتراف، وأساس فكري متماسك، وتأييد ما على مستوى الرأي العام العربي والإسلامي، وارتباطات وامتدادات على الساحة العالمية يقوى صلبه وحلات ناشئة، مع قدامه بسلسلة من العمليات العنيفة الموجهة في الأساس للولايات المتحدة. فقد كانت القاعدة تمثل مقومات متكاملة لتنظيم شبه عسكري عنيف عابر للحدود، قادر على شن "حرب محدودة" بأشكال غير تقليدية.

في هذا السياق، يوجد مجال لمحاولة تحليل أفكار "أسامة بن لادن"، زعيم القاعدة، على أساس بعض الأطر التي تتسم بالدراسات الاستراتيجية، خاصة فيما يتعلق من العمليات العسكرية التي يمكن أن تتعلق مبادئ حربية يمكن اكتشافها مستقاة من أية قراءة عامة لممارس حرب المختلفة (٣)، بصرف النظر عن أسسها أو محتواها الدينية أو المذهبية، إلا في حدود ما تفيد به تلك الأمور في فهم بعض الحروب العسكرية. العملياتية لتنظيم القاعدة، وسوف يتم ذلك التحليل في إطار عدة محاور، تشمل موقع

Abu Nour www.alkottob.com

أساسة بن لادن في التنظيم فيما يتعلق بدلالاته "العسكرية"، وكذلك تصوراته لمفهوم العدو، وطبيعة الصراع، وأدوات القتال، وأساليب استخدام القوى المسلحة جوهريا وتدريبيا، وتصوراته لنتائج المعركة، مع مستوى من التقييم لتلك التصورات على نفس الأسس، بالارتكاز على نصوص أحاديثه ورسائله من ناحية، وتحليلات المسلحة للتنظيم من ناحية ثانية، وذلك في إطار خلفيته الدينية والعملية والظروف السياسية التي أحاطت به من ناحية ثالثة.

أولا: موقع أسامة بن لادن في هيكل "القاعدة"

إن نقطة الانطلاق هي أن أسامة بن لادن هو "مؤسس" تنظيم القاعدة، فهو له يتول قيادة التنظيم خلفا لزعيم سابق، أو استنادا على تيارات تنظيمية أو عشائرية قائم، كما شهدت حالات تنظيمات عنف كثيرة. إذ إنه هو الذي قام بالتنظيم وفق أفكاره، وبالتالي فمثل عمليات القاعدة تطبيقات لتلك الأفكار، أو على الأقل التوجهات الأساسية المتضمنة فيها. على الرغم من أنها ليست خارج الأطر العامة للملامح والعناصر الأساسية للرؤى الفكرية للأفغان العرب، التي تعتبر الحكومات العربية والإسلامية القائمة أنظمة كافرة، وتعتبر أن "الجهاد" هو الوسيلة الأساسية لتغيير تلك الحكومات، مع وجود تباينات واسعة بينها فيما يتعلق (٤٤) ، خاصة بالنسبة لتنظيم القاعدة تحديدا.

إن بدايات تأسيس "القاعدة" تعود على الأرجح إلى مرحلة "الجهاد" ضد القوات السوفيتية في أفغانستان، التي كشفت معاركها الأخيرة أفول مأساة الأفغان في حاضر عام ١٩٨٧ عن محورية الدور الذي يلعبه أسامة بن لادن كمقاتل، وليس مجرد "ممول"، بصورة مستقلة نسبيا عن "مكتب الخدمات" الذي كان يديره عبد الله عزام "وتبعا لمصادر مختلفة، يعد ابن أصحاب لادن بن لادن الخبرة في التعامل مع القضية الأفغانية، فور أن ركز معظم جهوده على العمل العسكري داخل أفغانستان، ورأى أن المقاتلات الخشنة التي كانت تقاتل في ساحة بيشاور، يمكن أن يستغنى عن الكثير منها، وأن تستثمر لصالح المجاهدين في أفغانستان". وبرزت بينه وبين عبد الله عزام خلافات بدور حول نقطتين:

الأولى: هي عملية تجميع "شباب العرب في منظمة واحدة في أفغانستان، وتحديدا جلال آباد" التي أطلق تنظيم القاعدة منها فيما بعد، والتي كان بن لادن قد بدأ بشكل جماعته بها فعلا في تلك الفترة.

الثانية: هي "التركيز على الجانب العسكري فقط، على حساب الجوانب الأخرى، "التي كان "مكتب الخدمات" الذي تتبنى فكر أقرب إلى "الإخوان المسلمين" يركز عليها.

كان "أسلوب عمل بن لادن في إنشاء القاعدة" كما يوضح ذلك - هو التنظيم الذي حوّل "القاعدة" من مجرد قاعدة (سجل) بيانات مرتبط بعملية تجميع وتنسيق وتوجيه من خارج مسرح العمليات، إلى منظمة شبه عسكرية كبيرة الحجم، تعمل في الميدان (باكستان) بنوع من الاستقلالية، إضافة إلى العنف المسلح الذي كان يرى أنه الأسلوب الأساسي للعمل، مع نوع من الهرمية التنظيمية (العملياتية). فالمهم كما أشرنا من بن لادن في أفغانستان كانت في الواقع "جهاد"، كما أن الجبهة الإسلامية لقتال اليهود والصليبيين (فبراير ١٩٩٨) التي حمل بيانها التأسيسي توقيع بن لادن وزعيم "جهاد" المصري حسنة أيمن الظواهري، وجماعتين من باكستان، ثالثة من بنجلاديش، كما أن بن لادن - حسب تعبير ناصر أبو فلاته - "فتح (راعب للجميع، وحاول استعاب كل راغب في القتال تحت عن مبنيه الفكري - السياسي، وكما من يرى أن الاستعاب كان معكوسا، حيث اسوعبت تلك التيارات بن لادن (٤٥)، وهنا بدأ تحديدا الى الوضع الخاص لتنظيم الجهاد، وزعيمه أيمن الظواهري في القاعدة، حتى يهيكلها كتنظيمة كما تطور تلقائيا فيما بعد.

Abu Nour www.alkottob.com

إن الهياكل التنظيمية الجهوية تتسم عادة بنوع من اللامركزية، على نحو لا يتيح وجود قيادة حديدية" مسيطرة على نشاطات التنظيم، ولم يكن "بن لادن" نفسه يرى دوره "كونيس تنظيم عسكري" على غرار "كارلوس" مثلاً. وإنما يرى نفسه في دور أشبه بدور "أبي مرشد" عند الزعيم روحي، يقود التنظيم من خلال تحديد التوجهات العامة، أو حسب تعبيرنا "الدور التحريضي" في الأساس. ي أنه أشبه "بالقيادات العليا" للجيوش. وليس "قيادات اركانها". خاصة وان القاعدة ثم تكن - رغم سيطرة الجانب القتالي على نشاطاتها - مجرد "منظمة عسكرية"، وإنما تنظيم سياسي - عسكري معقد، يضم أجنحة عسكرية، وشرعية، ومالية، وإعلامية، إضافة إلى جهاز أمني، ويحمل اللجنة العسكرية تحديداً - وهي ما نهتم هنا - تحت قيادة خاصة (٦١) ذات طابع سيعاتي، ومع ذلك يعتقد انها شديدة الاحتراف.

لكن تظل المسألة اعقد من ذلك، فالقاعدة في النهاية تنظم عنف جهادي مسلح راديكالي يفترض وجود سيطرة أكبر منا هو معتاد، كما أن الطاعة للقائد تمثل قيمة عليا في معظم التنظيمات الإسلامية العنيفة، خاصة وان القائد هو "شيخ"، يضاف إلى ذلك أنه المصول الرئيسي للتنظيم. على نحو يتيح له تحديد توجهاتها. ورغم مظهر "بن لادن الهادئ. الا أنه في الواقع شديد التطرف، يحمل أراء حادة، ومن شأن كل هذه الأوضاع والسمات الا تجعل من "اللامركزية الكاملة" - فيما يتصل بالعمليات المسموحه تحديداً - افتراضاً مضبوطاً. فقد وصفه كولين باول وزير الخارجية الأمريكي في احدى المرات بأنه شبيه رئيس شركة أو مؤسسة (صبور) (٧١)، وليس رئيس مجلس إدارة فهو في الواقع أقرب "بالشعيرات العسكرية" - إلى "قائد عام"، أو وزير دفاع، يفترض انه يمتلك "مدا تفويض" في تحديد أهداف العمليات المسلحة، فهناك مركزية في التخطيط، مع لا مركزية في "التنفيذ"، أو إدارة العمليات، خاصة عندما تحولت القاعدة إلى شبكة ممتدة عابرة للحدود.

ان وضع "القائد العام" هو أقرب وصف لموقع بن لادن في هيكل القاعدة، من الزاوية العسكرية، وبناء على ذلك يمكن الإشارة إلى ما يلي:

١- أن القيادة العامة هي التي تحدد الاتجاه العام للعمليات المسلحة العنيفة في كل مرحلة، سواء كان ذلك يتصل "بالعدو" الذي يتم توجيه العمليات إليه، أو الاستراتيجية العنيفة التي يتم اتباعها تحديد مع تطويرها حسب رؤيتها لنتائج العمليات، وفي كثير من الأحوال - خاصة وان الأمر يتعلق في النهاية بتنظيم عنيف وليس مؤسسة عسكرية - تحديد طبيعة الأهداف "Targets" التي سيتم توجيه العمليات المسلحة إليها. لقد كان هذا الدور واضحاً تماماً في حالة بن لادن، فبما يتصل بمركز تنظيمه - بغداد، فصائل أخرى من الأفغان العرب - على الولايات المتحدة"، واتباع استراتيجية الضربات الكبرى العنيفة ضدها، بالدفع في اتجاه استهداف المركز الاقتصادي" الأمريكية في بعض المراحل، مع التركيز على "مبدئي حرب" خاصة.

٢- أن القيادة العامة لابد أن توافق - إن لم توجه - على كل العمليات المسلحة الرئيسية التي يخطط أركان التنظيم "العسكرية لتنفيذها، فلا يتصور في الأوضاع العادية (قبل بداية تفكك مركز الشبكة في أفغانستان) أن تم مثل هذه العمليات دون موافقة من لادن، وتشير الإفادة التي نشرت منسوبة لرمزي بن الشيبة التي يوصف بأنه منفذ عمليات ١١ سبتمبر، وضبط الفيديو الذي عرضته قاعدة للتدريب على الهجمات في أفغانستان، وشريط الفيديو الذي عرضته المخابرات في دسمبر ٢٠٠١ حول لقاء بن لادن مع أحد الشيوخ السعوديين، والتسجيلات التي عرضت بعض الأفراد المخابرات الذين تتهمهم السلطات الأمريكية بأنهم هم الذين نفذوا الهجمات، إلى أن بن لادن كان يعلم ما يتم فعليا للعملية، وأنه وافق عليها باعتباره "القيادة العامة" - حسب التعبير المنسوب لابن الشيخ

Abu Nour www.alkottob.com

– في أفغانستان، وكانت لديه تقديرات محددة بشأن تداعيها المتصورة، بل إنه كان يعلم توقعها قبل أشهر من التنفيذ.

٣ – أن القيادة العليا (وليس فقط العامة) مستحول إلى قيادة عسكرية وقت الحرب. في مثل هذه التنظيمات، فالحرب – حتى بالنسبة للمؤسسات العسكرية – أكبر من أن تترك للجنرالات. وتشير الرسائل التفصيلية التي صدرت عن بن لادن بعد أن نجحت الحرب الأمريكية ضد حركة طالبان وتنظيم القاعدة في أفغانستان، إلى توجه عسكري – عملياتي واضح لأسامة بن لادن، حيث بدا واسعاً أنه توجه فيه حفظ عسكرية وأساليب قتال ونواح حربية شديدة التحديد. كما صدرت حوله مقالات عسكرية ذات طابع فني، من جانب محللين من "أنصار القاعدة" نشرت في مواقع إلكترونية مختلفة. تحدثت عن فن الحرب لدى القاعدة، أو "عبقرية الاستراتيجية العسكرية والسياسة للقاعدة النهائية" (٨)، في نطاق محدد، من خلال خليط معقد من التصورات التي تتضمن مصطلحات عسكرية.

في هذا السياق، تأتي أهمية تحليل الأبعاد "العسكرية" "العملياتية لتصورات "أسامة بن لادن"، فلم يكن ابن لادن بعيداً عن النشاطات العملياتية العميقة لعناصر شبكة القاعدة، التي أوضحت تحقيقات الرأي (مايو ٢٠٠٢) أنها لا تزال قادرة على العمل، بأسلوب تماثل ما كانت تقوم به سابقاً، في بعض مسارح عملياتها التقليدية، على الرغم من صور أكثر من حد، نفذت عام على نحو شبه عشوائي بطاقة عنيفة، كان من المفترض أنها أدت إلى تفكيكها.

ثانياً: "العدو الرئيسي" للقاعدة في تصورات ابن لادن

إن مفهوم "تصور التهديد" لا يكتسب قيمة تحليلية ذات أهمية في التعامل مع التوجهات المسلحة للتنظيمات الإرهابية العنيفة، على نرغم من مركزيته في الدراسات الأمنية. وهو أحد أهم جوانب الاختلاف بين تحليل السياسات العسكرية للدول، وبين يجب أن تكون عليه، وهو ما لم تكن تقوم به واسيا في بعض مسارح عملياتها التقليدية، على الرغم من صور أكثر من حد، نفذت عام على نحو شبه عشوائي بطاقة عنيفة، كان من المفترض أنها أدت إلى تفكيكها.

إن مفهوم "تصور التهديد" لا يكتسب قيمة تحليلية ذات أهمية في التعامل مع التوجهات المسلحة للتنظيمات الإرهابية العنيفة، على نرغم من مركزيته في الدراسات الأمنية. وهو أحد أهم جوانب الاختلاف بين تحليل السياسات العسكرية للدول، وبين يجب أن تكون عليه، وهو ما لم تكن تقوم به واسيا في بعض مسارح عملياتها التقليدية، على الرغم من صور أكثر من حد، نفذت عام على نحو شبه عشوائي بطاقة عنيفة، كان من المفترض أنها أدت إلى تفكيكها.

Abu Nour www.alkottob.com

رأسه الولايات المتحدة، من "المحاربين" الذين يجب محاربتهم مع وجود اختلافات بشأن "المجتمعات العربية والإسلامية"، أو "أهل الدمة"...الخ.

وقد تتجر خلاف وسع بين فصائل الأنحاء العرب حول تحديد "العدو الرئيسي". إذ كانت بعض الفصائل ترى أن "الأنظمة الحاكمة" في بلدانها الأصلية هي العدو الرئيسي، امتداداً للخط الجهادي (الفلسطيني) المتمثل في أن قتال العدو المباشر والقريب أولى من قتال العدو غير المباشر والبعيد، بينما كانت فصائل أخرى ترى أن اليهود والنصارى (اسرائيل والولايات المتحدة) هما العدو الرئيسي الأكثر خطورة. في حين كانت فصائل ثالثة تتبنى مفهوم "العدو الحالي الملح"، الذي يوجد في أية منطقة يتم فيها عملية محاربة للمسلمين أو الأقليات الإسلامية (٩). وقد انعكست تعبيرات العدو على اتجاهات حركة وعمليات الأفغان العرب بعد نهاية القتال في أفغانستان. فبينما عاد كثير منهم الى بلدانهم في بداية التسعينيات لتنفيذ أهدف متوجة إرهاب تشهدها المنطقة العربة في تاريخها المعاصر، كالجزائر ومصر واليمن والأردن وتسعودية وغيرها، انتقلت أعداد كبيرة من الأفغان العرب إلى بؤر قتال عملة مختلفة لمواصلة "الجهاد" في كشمير "البوسنة والشيشان وألبانيا...الخ، وأتجه تيار ثالث - تمثل في جماعة اسامة بن لادن أساساً - لمحاربة الولايات المتحدة، كعدو رئيسي.

لقد كان هناك ما يشير في أواخر الثمانينيات الى تبني أسامة بن لادن لمفهوم الأول للعدو (الحكومات)، استناداً الى خلفية سلفية متشددة لم تكن قد أصبحت فتالة اجتهادية بعد، على نحو ما تشير "مذكرة نصيحة" - و ١٢ مذكرة أخرى - وجهها إلى النظام في السعودية، تحدث فيها عن الفساد والإعلام وهدر الأموال وتطبيق الشريعة بشكل أشمل في المملكة. فقد بدا كمن يحاول اصلاح نظام من الداخل وفق تصوراته الشخصية، "التي تتضمن نوعاً من الضغط". وقد استمر هذا المفهوم لدى أسامة بن لادن، بدرجات مختلفة فيما بعد، كانت بعض مظاهره ما يلي:

ا - أنه عمى الرغم من أن "بن لادن" لم يعلن الجهاد ضد النظام في السعودية، إلا أن عمليات مسلحة عنيفة قد شنت من جانب عناصر تابعة له ضد أهداف أمريكية في الأراضي السعودية (الرياض، الخبر، ١٩٩٦). كما انه قام بأعمال تجنيد واسعة النطاق لعناصر سعودية (٥١ من بين ١٩ من المتهمين بتنفيذ هجمات سبتمبر سعوديين)، كما اتجه إلى شن هجوم سياسي حاد ضد النظام السعودي خلال حرب أفغانستان (١٩٩٠ - ١٩٩٢)، استخدم فيها اتهامات التكفير، مع الحديث عن "كنوز أي الرياض". فقد كانت هناك مواجهة حدة مستمرة بينه وبين النظام السعودي الذي قام أيضاً بسحب الجنسية منه، وشن حملة عنيفة ضده توقفت مع إجرا ات عملية لتجسد آماله أو محاولة تسميم من نقله طالبان.

ب - أن عناصر متحالفة مع "بن لادن" في إطار "التنظيم" أو الجبهة، قد قامت بشن عمليات مسلحة ضد عدد من "النظم العربية"، ونجحت خلال توجده في "سودان" دون توجهات منه، أو حتى حسب بعض المصادر - دون علم منه بذلك (١٠)، إلا أنه يصعب القول انه في ظل تحالفه مع عدد منها في إطار "الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين"، لم يكن يدرك وجود هذا التوجه الذي عبر عن نفسه عملياً بعنف في حالة اليمن، ثم السعودية مرة أخرى، على الرغم من أن اختلافات "أيديولوجية" أدى إلى خروج بعض العناصر ذات التوجهات المضادة للحكومات (مثل رفاعي أحمد طه ممثلاً للجماعة الإسلامية المصرية) من الجبهة.

هناك أيضاً ما يشير في أواخر الثمانينيات إلى محاولة من جانب "بن لادن" للتحرك في اتجاه مفهوم "العدو الحالي" الذي يستهدف المسلمين في أي دولة، عبر غزو "نموذج جغرافي"، فقد نقله ناشئ شهير للحكومة السعودية لقتال الشيوعيين في إطار حفظ لدعم الجماعات الإسلامية، بالليمن الجنوبي (قبل

Abu Nour www.alkottob.com

الوحدة مباشرة)، وتحدث في محاضرة عامة عن "خطر العراقي"، كما عرض تحليله الأفغان العرب المقاتلين "للجهاد" ضد العراق بعد غزوه للكويت، لكن كل ذلك كان أقرب إلى موجه تحريضي" لم يطبق على الأرض من حوله، ولم يكن معظم من خرجوا من أفغانستان إلى بؤر القتال الأخرى ضد المسلمين ينتمون لجماعته، في الوقت الذي كانت فيه فكرة "العدو الأمريكي" الرئيسي قد بدأت في التبلور لدى بن لادن، عندما بدأت القوات الأمريكية تتمركز في السعودية، في إطار عملية "درع الصحراء"، أثر غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠.

لقد تحولت الولايات المتحدة منذ ذلك الحين، وبشكل تصاعدي، إلى "العدو الأول" في تصورات ابن لادن، في ظل علاقة عدائية مستحكمة قرر في إطارها خوض حرب حقيقية ضد الأمريكيين. "رأس الكفر"، الذين اعتبر وجودهم في الجزيرة العربية، خاصة "بلاد الحرمين"، احتلالاً لبلاد المسلمين، وإن قيادتهم ومن معهم وممن شايعهم فرض عين على المسلمين، على نحو ما أشار إليه بيان مؤسس الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين (١٩٩٨)، الذي تضمن فتوى "توجب على المسلمين قتل الأمريكيين ونهب أموالهم أينما كانوا"، بعد أن كانت عناصر من جماعة بن لادن قد بدأت بخوض "الحرب صغيرة" ضد الأمريكيين عملياً منذ عام ١٩٩٣، في الصومال، مروراً بتنسيقه لتفجيرات الرياض وخبر في السعودية (١٩٩٦)، وتدمير السفارتين في كينيا وتنزانيا (١٩٩٨)، واستهداف المدمرة "كول" في اليمن (٢٠٠٠)، وصولاً إلى هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ داخل الأراضي الأمريكية.

في هذا الإطار، كان تصور بن لادن للعدو الأمريكي يتسم بملامح شديدة الخصوصية، توضح إلى حد كبير كيف يفكر على المستوى الاستراتيجي الذي كانت له انعكاساته على التوجهات العسكرية العملياتية للقاعدة، منها ما يلي:

١- معاداة كل ما هو أمريكي، أو من هو أمريكي في إطار اكتساحي، فرغم أنه حاول التمييز - لاعتبارات عملياتية - بين الرجل من ناحية، و"المرأة والطفل والشيخ الهرم" من ناحية أخرى في إطار دفاعه إزاء اتهامات استهداف المدنيين، إلا أن التمييز كان سطحياً فما "لم يطرح حتى ما يسنده شرعياً بشكل قوي، ولم يملك في النهاية إلا أن يقول إن "المستهدف" إذا يسر الله سبحانه وتعالى للمسلمين -- كل رجل أمريكي هو عدو لنا، من الذين يقاتلوننا فعلياً أو يدفعون الضرائب، فشعب ترفع أسهم بُشه عندما يقتل الأبرياء، شعب عندما تركب رؤوس الوحوش العظيمة الكبار (يقصد سبل كليتون) تزيد شعبية هذا "الرئيس"، شعب منحط لا يفهم معنى للقيم أبداً (١١)، فكل أمريكي عدو، وكل هدف أمريكي مستباح.

٢- تحميل العدو "خطيئته، أهدافه، سياساته) على أساس "أفكار شعبية" عامة، تجعلي الرغم من أن بن لادن لم يكن يبدو في أحاديثه كشيخ منصرف منفصل عن الواقع بشكل، في ظل استخدامه أسماء، ووقائع وبيانات وحتى أرقام، إلا أن الأفكار التي طرحها لم تختلف كثيراً عما هو سائد لدى رجل الشارع، فأمريكا تحمل بلاد الحرمين، وتكبل بمكبلين في سياستها، وكل ما يهمها هو النفط، وتهيمن بإعلام الذي هو بيد اليهود، وتهيمن سيطرون على أمريكا، وما أثر ذلك (١٢)، والمثير أنه لا يستخدم مثل هذه المقولات بشكل مخطط في ظل سياسة دعائية تدعم عملياته لدى الرأي العام، بل أنه بالفعل على قناعة بها، وهي تصورات سائدة على أي حال في "أوساط المسلمين المتشددين، ولم يبذ أحد من بن لادن على استعداد في أي مرحلة لتعديل صورة العدو، أو إعادة بشكل جذري.

٣- الاستهانة الشديدة بقوة الولايات المتحدة (عسكرياً واقتصادياً ومجتمعياً) بصفة عامة، فقد كانت له تصورات بسيطة حول إمكانية هزيمة "القوى العظمى"، اعتماداً على دروس كحرب فيتنام، أو التدخل

Abu Nour www.alkottob.com

السوفيتي في أفغانستان، وعمليات المارينز في لبنان (١٩٨٢) والصومال (١٩٩٣). فولايات الـ
كما يقول: "دولة عظمى ذات قوة عسكرية ضخمة، وذات اقتصاد عريض، ولكن كي ذلك ع
هشة، وأن قلة قليلة من "المجاهدين" يمكن أن يحطموا أسطورتها. فالجندي الأمريكي ازهر
على أداء المقاتلين؛ يستسلم بأعداد، والاقتصاد يمكن أن ساتر بسهولة، ولا توجد أي سـ
السياسيين، على نحو يمكن معه تصور إمكانية تجريع كبريائها وهزيمتها (١٣). فلم تكن محد
القوة" ومفاهيم "موازين القوى" تعكس بداية صورة على نكار أن لادن. لقد استخدم بن لادن أحد
التعبيرات التي شاع استخدامها خلال الحرب على العراق (٣ - ٢٠٠٠) من جانب وزير الاعلام العراقي محمد
سعيد الصحاف، وهو "العنز" لوصف "العدو الأمريكي" عام ١٩٩٨، وهو تعبير مشير ربما عبر بالضبط
- بعيداً عن معاني الاستخفاف التي حملت له مؤخراً - عن صورة أوضاع وقدرات أمريكا لدى ابن
لادن (١٤١)، على نحو يشير إلى مستوى حاد من الانفصال عن الواقع.

لكن هيمنة دور العنصر الرئيسي في تصورات بن لادن، لا تنفي وجود أبعاد أخرى، فقد ركز في
رسائله الأخيرة خلال حرب أفغانستان على "الأمم المتحدة" التي اعتبرها "أداة من أدوات الحرب وجزءا
من القوات الصليبية (١٥١)، وأشار كذلك إلى "حلفاء الولايات المتحدة" الذين حض المسلمين على
استهدافهم، كما قام بتشريح في رسائله الأخيرة عمى القضية الفلسطينية و استهداف اسرائيل
(الأغراض التي فسمها البعض بأنها تستهدف التأثير على الرأي العام)، لكن ذلك لم يكن مؤشر توسيع
لدائرة الأعداء، من جانبه، والمحاولة لاستيعاب صورة أكثر تعقيدا، بدت أمامه، في سرح العمليات.
فقد ظلت "أمريكا" مركز اهتمامه الأساسي، فكرة وعمياتها.

ثالثا: "سياسة القوة" في تصورات أسامة بن لادن

إن مفهوم "القوة" POWER اشكل أداة تحليليه مهمة لعباس طبيعة ومدى "العنف المسلح" الذي يتبناه
ابن لادن فكريا لتحقيق أهدافه، وطبقه القاعدة فعلا في عملياتها. فالقوة - وضع في هو مسلمة في
الدراسات الاستراتيجية - في محرك العلاقات الدولية، لكن القوة ليها المعنى؛ هي القدرة على التأثير
في سلوك الآخرين باستخدام وسائل مختلفة عسكرية وسياسة واقتصادية وبأساليب متعددة كالاقناع
والضغط والإكراه (العنف المسلح)، إلا أن القوة "عسكرية لا تستخدم عادة سوى كوسيلة أخيرة، يمكن
رئيسيين هما: التهديد باستخدام القوة بهدف الردع و الاجبار، أو الاستخدام الفعلي لها بهدف الدفاع أو
الهجوم، وهو - أي القوة - مفهوم تتعدد التعقيد. لا يمكن بالصفة البسيطة التي تبناها ابن لادن لمفهوم
"الجهاد" (المعقد أيضا)، والتي تتركز في عبارة محوريه تتكرر كثيرا في خطاباته هي "القتل والقتال".

إن الإطار لاستراتيجي العام الذي يحكم رؤية ابن لادن لاستخدام "القوة" يستند على تصورات
بسيطة قائمة في الفكر السلفي (المتشدد) الجهادي الذي سبقه (أو تشابه معه) الاطر الفكرية التي
حكمت حركة معظم تنظيمات وجماعات الأفغان العرب. فتصورات ابن لادن (العنيفة بطبيعتها) للصراع
في العالم، تقوم على أن هناك طرفين: الصليبية العالمية بالتحالف مع اليهودية الصهيونية تتزعمه
أمريكا ويرتبط إسرائيل، والطرف الآخر هو "العالم الإسلامي" الذي يتم الاعتداء على أرضه ومقدساته
وتنهب ثرواته (المشروعة)، واستنادا على ذلك، سيتم عمى أفكار ابن لادن توجهان محددان.

الأول: أن هناك حالة حرب بلا هوادة تحكم العلاقة بين الإسلام والمسلمين مع قوى الكفر العالمي
(التحالف الصليبي - اليهودي) التي استهدف تجييرات مختلفة لوصفها، تأهر الشرك والإلحاد، وقوى
الاستكبار، و هل الحرب"، واليهود والنصارى. وتدور هذه الحرب حول مسألة العقيدة. فهي حرب

Abu Nour www.alkottob.com

دينية»، تمثل أشكالها العملية في «حرب صليبية» تشن على المسلمين، وحرب مقدسة يرد المسلمون عن خلالها بالمثل» (١٦)، ومثل كل الحروب الدينية، فإنه لا توجد لها في فكره نهايات محددة.

الثاني: أن الجهاد (القتال) يمثل الوسيلة الأساسية لإدارة الصراع (الحرب في واقع الأمر) ضد الطرف الآخر كفروض عين، فلا يوجد سوى منطق قوة (أو أسلوب المباغتة حسب وصف أحدهم) بدون محددات دقيقة، وكأن القوة هدف في حد ذاتها. على الأقل، فيما يتصل بالتوجهات الاستراتيجية على الأجل القصير. ويشير إليه حديث نبوي كرره ابن لادن كثيراً، قال عنه الرسول (صلعم): «والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل». بعيداً عن المفاهيم والظروف المحددة المحيطة بالحديث الشريف.

إن أسامة بن لادن قد تبنى في أفكاره توجهاً عاماً «سياسة عسكرية» تستند على مبدأ «أقرب إلى «سياسة القوة» Power politics» بدون محددات دقيقة، على نحو كان من المنصور معه دائماً أن يفرز أشكالاً غير تقليدية «بلا حدود» من عمليات العنف، فالمفاهيم العملية لهذا المبدأ تشير إلى ما يلي:

١ – إن المسألة تتعلق باستخدام «القوة المسلحة» أو العنف «مسلح كأداة أساسية». يكاد تكون وحيدة، بعكس ما استطلع على استخدامات «وسائل أخرى» بالطبع توجد «طرقاً» ووسائل تأثير أخرى يشير إليها ابن لادن. لكنه يمكن تجاهلها عملياً. فالأساس لديه هو «حياة القتل والقتال». وقد انعكس ذلك فعلياً في شكل عمليات عنف مسلح متواصلة.

٢ – إن شكل استخدام القوة المسلحة لديه هو «الاستخدام الفعلي الذي» ليس التهديد باستخدامها: على الرغم من أنه كان يأمل بأن مؤدى الاستخدام «الفعلي» الذي نتائج ترتبط عادة بآثار التهديد. فالأساس «المكمل ما سبق لديه هو حيازة «الحرب والدمار»، وقد انعكس ذلك فعلياً في شكل عمليات تدميرية عنيفة.

٣ – أنه لا توجد «قوانين حرب» لدى ابن لادن، فيما يتصل بأساليب استخدام القوة، خاصة بالنسبة لاستهداف المدنيين. فقد كانت لديه تأويلات شرعية «لحكم التدمير» والبقعة على النبات، ومفهوم «براءات» وتبريرات يعتقد أنها عملية «كوضع الرجل الأمريكي»، الذي إلى توجه تدميري خير مقيد. أدى إلى سقوط الآلاف من الضحايا بدون تمييز.

وعليه، فإن النقاط السابقة تمثل في الأساس التوجهات الرئيسة الأكثر وضوحاً وتأثيراً في تصورات ابن لادن وتحركات منظمته، إذ استخدم «بن لادن» أساليب الدعاية السياسية والحرب النفسية إلى جانب القوة المسلحة. كما استخدم أسلوب «التهديد باستخدام القوة» بوضوح في واحدة من أخبر تصوره. عندما أكد على الحق في امتلاك أسلحة تدمير شامل بسبب أسبقية نووية مع «سريب أنياء حول محاولات نيه يهذا الشأن»، مضاف إلى ذلك محاولاته المستمرة لاقناع «الرأي العام بوجود «روابط شرعية» وعملية تحكم العمل العسكري للقاعدة». فلا توجد «إطلاق» على هذا المستوى.

لكن بعيداً عن التقييمات الأخلاقية لأفكار ابن لادن على هذا المستوى، فإن تشخيصه لأطر استخدام القوة «الحرب الدينية» ثم يميز بين ما هو ديني وما هو سياسي «بين المسيحية والصليبية، أو بين اليهودية والصهيونية»، سواء في فهمه لطبيعة وتوجهات الطرف الآخر، أو تحديده لتوجهات «صليبية أو» الآخرين. كما تم الاعتماد على مفهوم «شديد البداية للقوة» واستخداماتها في إدارة الصراع مع «العدو». بصرف النظر عن «التنفيذ» شديد الاحترافية لذلك، وهي سمات ارتبطت تاريخياً «بالإرهاب العقائدي الديني»، الذي لا يبالي فيه مستخدموه بالحدة والموت في ظل ما يعتقدون أنه حرب مقدسة، بأكثر من العنف

Abu Nour www.alkottob.com

(او حتى الإرهاب) السياسي، الذي يهدف إلى إحداث تأثيرات نفسية، مأكثر من (او على الأقل متناسبة مع) التأثيرات التدميرية.

رابعا: اتجاهات العمل الهجومي "للقاعدة" في ظل تصورات ابن لادن

ان التشكيلات التنظيمية التي اقامها أسامة بن لادن منذ بداية ما يسمى في تاريخه بالمرحلة السودانية" خلال أوائل التسعينيات، قد نبتت امتزاجا لتجربتين هجومية، وصلت إلى أقصى مدى لها، مع قيام جبهة ١٩٩٨"، التي اتخذ الإطار الهجومي في ظلها مضمونا قتاليا (جهاديا) ترجمه معظم التحليلات إلى ما يسمى "التأثيرات المعرفية" المرتبطة بعلاقاته مع أيمن الظواهري، وبعض قيادات جماعة الجهاد المصرية، التي كانت في واقع الأمر قد قدمت من مظلة "بن لادن الواسعة، التمويلية واللوجستية قبل ذلك بسنوات طويلة، وممارسة نشاطات عنيفة - بالتنسيق مع بعض العناصر التابعة له - منذ عام ١٩٩٣ على الأقل. وعلى أي حال، فقد وصلت تلك التوجهات إلى قمتها بشن هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، التي نسب تنفيذها إلى عدة خلايا ترتبط بما أصبح يعرف منذ ذلك الحين بشبكة القاعدة.

وتعد العمليات الهجومية التي قامت بها "جماعة بن لادن" خلال تلك الفترة وصولا إلى عام ٢٠٠١، من أكثر العمليات المسلحة التي قامت بها أية جماعات عنف دولية احترافا خلال النصف الثاني من القرن العشرين، إلى درجة أنه سادت خلال فترة طويلة في أعقابها، داخل النخبة المثقفة العربية على الأقل، حالة من عدم التصديق حول قدرة جماعة بن لادن على القيام بها، وفيما يتعلق بهجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تحديدا، على الرغم مما وضح بعد ذلك من انه تظلم شبه عسكري تمتلك موارد مالية ضخمة وقدرات تكنولوجية متطورة وربما ارتباطات استخبارية غير رسمية، اضافة إلى أن كوادر، من المتعلمين المحترفين الذين فكروا (أو تمكن أمثالهم) قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١، من تنفيذ عمليات عنف غير عقلية شديدة التعقيد، بدءا من اغتيال الرئيس السادات عام ١٩٨١، ووصولا إلى تفجيرات السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، والهجوم على المدمرة الأمريكية "كول" عام ٢٠٠٠، فالقاعدة لم تكن جماعة من إرهابيي الماضي الفقراء أو الهواة، وإنما أشبه مؤسسات إجرامية المنظمة الحديثة.

على أية حال، فإن تحليل التأثيرات المحتملة لأفكار ابن لادن على نشاطات القاعدة، يقتضي التمييز بين مستويين من الفكر العسكري العملياتي:

أ- مستوى عسكري عام، يرتبط بما يسمى في دراسات الدفاع "العقيدة العسكرية" أو "العقيدة القتالية". ويركز في الأساس على مجموعة من المبادئ الأساسية التي تمثل موجهات عامة للعمليات المسلحة، على غرار ما هو شائع مثلا بالنسبة للعقيدة العسكرية الإسرائيلية "النظامية" بشأن نقل المعركة إلى أرض الخصم، مبدأ الحرب الوقائية أو الخاطفة، التي تحدد التجاهات معينة لتخطيط العمليات.

ب- مستوى عملياتي فني، يرتبط بأسس إدارة العمليات ذاتها، وهو ما يشار إليه عادة باسم "مبادئ الحرب" التي تختلف من جيش لآخر. ولكن عقيدته العسكرية، لكن من أهمها المفاجأة، تركيز القوى التنسيق، الصدمة، الأمن، المرونة، وما إليها من مبادئ تتعلق بإعداد وتحركات القوة المهاجمة، والتعامل مع القوة المضادة، في إطار أهداف العملية ومسرح عملياتها.

ويتمثل الإسهام الأساسي "لابن لادن" - كما هو متوقع - في جماعة بعض المبادئ التوجيهية على المستوى الأول. فهو في النهاية قائد عام، ترتبط خبرته العسكرية بحرب العصابات غير التقاسمة في الجبال، وليس بعمليات "العنف المسلح" داخل المدن. لكن الأهم مما توضحه أقواله، أنه لم يطور نظر

Abu Nour www.alkottob.com

عسكرية - عملياتية، أو حتى إطارا متكاملا، فقد جاءت المبادئ التي ذكر استشهابين بالنسبة للعمليات الهجومية على شكل أقوال أو نصائح أو توجيهات متناثرة، رغم أن بعضها يظل شديد الأهمية في تحليل اتجاهات عمل القاعدة، خاصة وأن بعضه يتماشى مع "مبادئ" المنتزع الثاني، أعلاه.

١- حرية الحركة في التعامل مع "العدو"، أي استخدام كل الأساليب المشروعة في إيذائه، بغض "استحلال" العدو، في ظل "البراء" منه. فتبعا لوثيقة تعكس فكر "القاعدة" عسكريا، فإن بلاد الحرب إلا العهود، يجوز للمسلمين أن يضربوها بكافة الأضرار، لأن أهلها أحل دماءهم وأموالهم وأعراضهم للمسلمين. كما فعل الرسول (صلعم) مع المحاربين، خطف رعبهم (بني عنبل)، وقطع الطريق على قوافلهم (قوس)، وإغتال رؤساء هم (كعب بن الأشرف، سلمة بن أبي العقيبق)، وحرق أرزاقهم (بنو النضير)، وهدم حصونهم (الطائف)، وغير ذلك (١٧)، وعندهم ابن لادن أهل الغرب بلاد حرب.

٢- ضرب الخصم في مقتل، وهو مبدأ عام أشار إليه ابن لادن في حديثه عن "الضربات العظمى" ضربت أمريكا في أهم مقاماتها في نيويورك وواشنطن (١٨)، وترتبط ذلك عمليا باستهداف رمز العدو الاقتصادية (مركز التجارة) والعسكرية (البنتاجون) والسياسية (الكونجرس وربما خطة متزامنة الطائرة الرابعة التي سقطت في بنسلفانيا)، أو استهداف القاعدة الهشة للعدو، والتركيز على نقاط الضعف فيها (١٩)، فالهدف ليس فقط كسر "كبريائه"، وإنما تدمير حقيقي يهدف إحداث انهيار، فالغرض هو التغيير بالقوة وليس التأثير على الإرادة لأهداف سياسية.

٣- توسيع نطاق مسرح العمليات، فقد كانت ساحة القتال بالنسبة للقاعدة هي عقيدتها، أعداؤها الولايات المتحدة غير العالم، وتبعا لتعبيرات ابن لادن فإن ما هو منتظر من مقاتليه هو أن يشنوا غير أمريكا وإسرائيل، فرض الله واسعة، ومصالحهم منتشرة، وإن بدأوا اقصى ما يستصعبون ضربهما (٢٠)، وقد جرت بالفعل عمليات في دول أسيوية وإفريقية ومحاولات في أوروبا. لكن أخطر توجيهاته كانت الدعوة إلى نقل المعركة إلى وسط أرض العدو، وفي عقر داره بمستهدف الأراضي الأمريكية ذاتها (٢١).

٤- اتباع تكتيكات غير تقليدية في استهداف العدو، على نمط الحروب غير النمطية، غير نوع من التفكير في اللامعقول كالاعتماد على إمكانات بسيطة يجري من خلالها استخدام وسائل العدو ذاتها لتحقيق أهدافه، وهذا ما سوف نعرض له تفصيلا فيما بعد، إلا أن أهم ما أشار إليه في هذا الاتجاه هو الاعتماد على العمليات فدائية الاستشهادية (الانتحارية)، بأعداد كبيرة، على نحو يمكن أن يحقق انهياراً.

فضلا عن ذلك، توجد إشارات عديدة في خطابات ابن لادن، تدخل بدرة العمليات في بعض المراحل في المجال توسيع نطاقها وتصعيدها تدريجيا، في ظل اعتماد مفهوم "لا مركزية الجهاد" حيث تقوم خلايا لتنظيم أو عناصر الجبهة بتخطيط وإدارة عملياتها وفق ظروف مناطقها، وهو ما أدى إلى ضربات غير مفهومة، كاستهداف "ناقلة النفط الفرنسية" من جانب جيش عدن - أبين اليمنى (على ما يبدو) عام ٢٠٠٢، رغم عدم اشارة ابن لادن إلى تونس (٢٢)، كما أن اغتيال أحمد شاه مسعود قبل هجمات ١١ سبتمبر بفترة قصيرة يفسر على أنه دلالة على وجود مبدأ للعمليات الوقائية في تفكير ابن لادن.

لكن الواقع، أن الأهمية الحقيقية لعمليات القاعدة لا تأتي من استنادها إلى تلك المبادئ العامة الخاصة "بالعقيدة العسكرية"، باستثناء نقل المعركة إلى أرض الخصم، فمعظم التنظيمات المسلحة لتعبئة تفكر في نفس الاتجاهات تقريبا، وإنما تأتي من المبدئ الذهبي الذي حكمت منتزع الثاني العملياتي" تحديدا، كشن هجمات منسقة في بوم واحد أو في وقت واحد تقريبا (السعودية، نيويورك وواشنطن، هجمات خريف ٢٠٠٢، هجمات الرياض ٢٠٠٣)، اعتمادا على تخطيط دقيق طويل المدى.

Abu Nour www.alkottob.com

مع غياب كامل للإنذار المسبق بالنسبة للظرف المستهدف، وهو المستوى الذي لا بد أن فكر ابن لادن الهجومي قد أسهم فيه كثيراً.

خامساً: العمليات الدفاعية لمقاتلي القاعدة في ظل قيادة ابن لادن

أدت تطورات الأحداث في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إلى قيام الولايات المتحدة بشن هجوم عسكري شامل ضد أفغانستان في إطار ما أسمته "الحرب ضد الإرهاب"، بهدف إسقاط نظام حكم حركة طالبان المتحالفة مع القاعدة وتفكيك ذلك المعسكر الذي كانت كل المؤشرات الملموسة والدلائل الظرفية تشير وقتئذ إلى تورطه في شن هجمات نيويورك وواشنطن، لتجد "القاعدة" نفسها في وضع قتالي دفاعي لم تكن تصوره في مواجهة القوات النظامية الأمريكية.

وتشير الخطابات الأولى التي صدرت عن قيادة القاعدة (ابن لادن، الظواهري، أبو حفص، أبو مصعب)، إلى نوع من "الاستبشار" الذي يحمل في بعض جوانبه "ضمانة للذات"، ففي وقت من الأوقات عام ١٩٩٣، أعرب ابن لادن عن شعوره بمرارة شديدة بفعل "الهروب السريع جداً" للقوات الأمريكية من الصومال إثر مقتل عدد من جنودهم، فقد "كان يتمنى عليهم لو مكثوا أطول حتى يقاتلهم" [٢٣]، وقد حاولوا هذه المرة بأنفسهم إلى أفغانستان في ظل وجود عناصر قوة واضحة للقاعدة، تتمثل في:

- تنظيم شبه عسكري كبير الحجم من المقاتلين، معمل إلى جوار قوات طالبان.
- تاريخ أسطوري لأرض جليلة (أفغانستان) قهرت الغزاة بصورة ساحقة.
- قناعة حقيقية من جانب ابن لادن بحب الجندي الأمريكي، وهشاشة القوة الأمريكية إيمان عميق بقدرته من "تصوف" بشن معجزات و كرامات" لها أسس في الجهاد الأفغاني.
- خبرة شخصية لابن لادن ومقاتليه في حروب العصابات طويلة المدى على هذا المسرح.

كانت الأوضاع في مجملها غير تقليدية تماماً، فهي تطرح نموذجاً مثالياً "لحرب غير متوازية" بين قوة عسكرية متطورة حديثة، وقوات نظامية وشبه نظامية تنتمي إلى العصور الوسطى لكنها كانت قادرة في وقت ما على دحر قوة عظمى مايقة هي الاتحاد السوفيتي وليست لديها - حسب تعبير أسامة بن لادن - "عقدة فشل القوى العظمى" الأخرى (وهو ما أشار إليه أحد الدبلوماسيين الأمريكيين في أحد لقاءاتي معه في واشنطن). فحسب قوله: "يا أيها الناس لا يعظم عليكم وجه أمريكا وخيبتها. فقد ضربتهم والله مراراً، وقرصاً تكراراً، وأنهم أجبن قوم عند اللقاء" [٢٤]. لكن المشكلة أن الفصائل عن الوضع كان قد بدأ يحيط بتفكيره، بفعل تصوراته الراسخة حول "العدو" و"ضربات الصحة التي وجهتها القاعدة فعلياً لخصمها، مع "نفسية تقي بصعب من خلالها ادراك حقيقة التوازنات السياسية الخارجة حول أفغانستان وموازين القوة العسكرية المحيطة بمعركة القادمة.

ولقد طرح ابن لادن في مواجهة هذا الوضع تصوراً عسكرياً - سياسياً متكاملاً، يعكس تلك الأفكار "المبادئ" المتأثرة التي حكمت توجهاته بشأن العمل الهجومي، وذلك على مستويين مرتبط الأول بتصوراته للاستراتيجية العسكرية للقوات الأمريكية، والثاني بالاستراتيجية العسكرية لقوات طالبان / القاعدة، التي كانت قد بدأت تتشهر نحو أفعال حول قندهار وفي "تورا بورا"، وذلك كالتالي:

١- الاستراتيجية العسكرية الأمريكية في تصور ابن لادن

أكد ابن لادن على أن خبرة قتال طالبان / القاعدة مع العدو الأمريكي تبين أنه يعتمد في قتاله بشكل رئيسي على الحرب النفسية، نظراً لما يمتلكه من آلة دعائية ضخمة. وكذلك على القصف الجوي العنيف للأهداف، أبرز نقاط ضعفه وهو الخوف والجبن وغياب الروح القتالية [٢٥]. ومن ثم فإن هذا التصور

Abu Nour www.alkottob.com

تابعنا لدى بن لادن إلى درجة أنه كرر بالنص في رسالته النصيحة التي وجهها للعراقيين، عندما أن الحرب على العراق حلي وشك الانفجار.

ولا يوجد مجال، في سياق هذا المحور، لنقد هذه التصورات. لكن المؤكد أن بن لادن قد فهم الحرب بطريقة تختلف تماما عما تعنيه. إنه يمكن أن يتعامل معه عبر أساليب العصابات، فهي حرب لن يعد لا يوجد بها مجال للاتحاد المباشر الذي كان قد شكل ركيزته للجيش الأمريكي، لذا فإنه عبر الرغم من أن حرب أفغانستان كانت تتضمن عناصر أوسع بكثير مما أشار إليه، إلا أن ما استقر في ذهنه هو تلك العمليات غير المباشرة للحرب النفسية والقصف الجوي.

وقد ظل بن لادن على قناعته المتفائلة بشأن القوة الأمريكية. فعبر الرغم من تأكيده بأن هذه البلدة قد انتصروا في "تورا بورا"، لم يكن من الممكن إلا أن يشعر بأن شيئاً كبيراً قد حدث لنظمه الذي قتلت بعض قياداته وتشتت عناصره، إضافة إلى سقوط نظام "طالبان". لا أنه ظل يعتبر على أن معركته في أفغانستان أظهرت بوضوح مدى عجز الحكومة الأمريكية وحدى الضعف الأمريكي، وحدى هشاشة الجندي الأمريكي"، فرغم التطور الهائل في التكنولوجيا العسكرية، لم يستطيعوا أن يحددوا سيئا حسب تعبيراته - إلا بعضا قادهم على "المرتدين" و"المنافقين" من الأفغان "٢٦"... وهو ما دفع بعض كتبه منه لتغيير موقف.

٢ - الاستراتيجية العسكرية لطالبان / القاعدة في تصور بن لادن

احتلت تلك الاستراتيجية الجانب الأكبر مما طرحه بن لادن في نصوصه خلال الحرب. لقد اعتمدت تلك الاستراتيجية (الدفاعية) على مبادئ شهيرة في الخطاب العسكري العربي الحديث، وهي "الصمود والمقاومة" طويلة المدى، عبر خطة عسكرية متتالية المراحل، نبدو سريالية في بعض جوانبها. إلا أنها تقوم على ما يلي:

أ - استنزاف سريع العدو من خلال المقاومة الدفاعية العريضة التي تعتمد على أسلوب عسكري شهير هو "الانتشار"، مع حفر الخنادق المتقوقة والمعرفة على طول الجبهة، لاستنزاف أفضل للضعف للعدو قبل أن تتحول إلى نهاية تدمير تلك الخطوط، مع وجود "قوات خفيفة" سريعة تتحرك من خط دفاعي إلى آخر.

ب - استدراج قوات العدو إلى قتال طويل متلاحم مهلك، من خلال استغلال المواقع الدفاعية المجهزة في السهول والمزارع والجبال والمدن أيضا، بما يقسم به من تسمح بالتحرك لطالبان والقاعدة، وذلك من خلال أسلوب حرب العصابات (في أفغانستان أو حرب المدن والشوارع كما كان يدعو العراقيين).

ج - الاستمرار في قتال الأمريكيين في كل مكان عن طريق عناصر القتال الرئيسية (الأنصار المالية) من خلال "العمليات الاستشهادية"، التي يمكن أن تستهدف (في تلك المرحلة) حرب القاعدة "الاقتصادية" التي هي أساس للقاعدة العسكرية (التي ضعف شريعيا). "إذا" التهمت اقتصادها، فإنها تفقد القدرة على استعادة النفوذ (مستقطعة) "٢٧".

وفي الواقع، فإن مثل هذه الخطط الدفاعية، التي تبدو متكاملة، لا تعبر عن أكثر من نوع من التسطيح العسكري". وكان بن لادن نفسه يدرك ذلك في نهاية الأمر، فعلى الرغم من إصراره على أن الأمريكيين وقعوا في ورطة حقيقية بأفغانستان، حاول أن يبرر بكل الوسائل والمصطلحات، عن سبب استحالة تكيف جيش طالبان، أشار بوضوح إلى قلة الإمكانات المتاحة لرفع عدة العمليات

Abu Nour www.alkottob.com

اليومية في إطار "حرب العصابات" التي كان يتصور أنها التي تعبر عن الإمكانيات الحقيقية للمقاتلين الأفغان، وكان يعول في حقيقة الأمر على مساعدة الاستراتيجية الهجومية الناجحة للقاعدة، مع توجيهها نحو "التركيز على ضرب الاقتصاد الأمريكي بكل وسيلة ممكنة"، في الوقت الذي بدأ يتبع فيه أساليب سياسية، والدعوة لاستنزاف اليهود حلفاء الأمريكان، و"استهداف الحكام الكفرة المتحالفين معهم في المنطقة، في ظل دعاء بأن يفرج الله "كربة المجاهدين".

لقد كانت أكثر أفكار ابن لادن اكتمالاً وتحديداً من الناحية العسكرية "العملياتية"، هي أكثرها فشلاً في التطبيق على الأرض، فلم تتمكن القاعدة من الدفاع عن نفسها في مواجهة حرب نظامية حديثة، إلا أن ذلك لم يكن يعني أيضاً أنها هزمت تماماً، أو تفككت بشكل كامل، رغم أن مركزها التنظيمي في أفغانستان قد انتهى. فقد اتضح أيضاً أن هناك جموداً لا يمكن أن تحققها القوات النظامية مجتمعة في مواجهة مثل هذه التنظيمات، إذ تمكنت القاعدة من إعادة تنشيط بعض خلاياها، وقامت بشن عمليات متفرقة ومتواصلة الحدة، قبل أن يوضح عملية الرياض ٢٠٠٣، أن كوادر القاعدة لا تزال قادرة على العمل الهجومي المتوازن الواسع النطاق في ظل حالة من عدم اليقين حول المستقبل.

سادساً: نهاية العنف المسلح في ظل تقديرات ابن لادن

إن أحد المكونات التقليدية للتفكير الاستراتيجي، عبر المدى العسكري بالنسبة لأية قيادة تنظيمية تتعلق بنتائج العنف المسلح الحرب، وفقاً لتقديرات من شأنها، أو تشن عليه، ويرتبط تفكير ابن لادن، على هذا المستوى، بالأهداف التي كان يرمي إلى تحقيقها، وتقديراته لما تحقق أو لم يتحقق منها، خلال مسار أفعال العنف، وتتمثل مشكلة تقييم ذلك في جانبه، في وجود نوع من المعايير اللاتنظيمية التي تحكم توجهاته، بشأن مفاهيم مستقرة تتعلق بتلك المسألة، أهمها، مقولة متداولة لدرجة أصبحت تبدو معها وكأنها "مسلمة"، تؤكد على أن العنف المسلح هو وسيلة وليس غاية، فهو يهدف إلى تحقيق أهداف سياسية، وتتمثل تلك الأهداف عادة في التأثير على إرادة الخصم، بحيث تتصرف بصورة معينة، فالعنف ليس غاية في حد ذاته، كما أنه لا يهدف إلى القضاء على الخصم، باعتبار ذلك هدف لا عقلاني.

ولقد شن تنظيم القاعدة عمليات عنف مسلحة "موجعة" تمكنت في مجموعها حرباً حقيقية ضد الولايات المتحدة، لسبب أن "إدارة بوش" قد اعتبرتها كذلك، لكن لأن مؤشرات التدمير المادي، والخسائر البشرية، والإنفاق العسكري، والتداعيات العسكرية، والتحولات السياسية، التي نتجت عنها، لم ترتبط عليها، تشير بالفعل إلى أنها كذلك، وكان من شأن "زيادة تمديد" الانتهاء بها حدث، إلى الحد الذي وصف به عملية ١١ سبتمبر بأنها "عملية جريئة جميلة، ما عرفت البشرية لها مثيلاً" (٢٨). إلا أن المشكلة تأتي - كما تمت الإشارة - من اساليبه في تقييم "نتائج" أي من مغامراته الخاصة بالنصر والهزيمة.

كان من الممكن في منتصف التسعينيات أن يتم خدمة من أهداف "سياسة" مباشرة لعمليه العنف التي كانت قد بدأت ملامحها تتبلور في إطار استمرار سخط ابن لادن، فقد كان احتجاجه الأساسي يرتبط بالوجود "الاحتلالي" العسكري الأمريكي في السعودية، على نحو الذي عبر عنه الحديث الشريف الذي اتخذ شعاراً للقاعدة، وهو "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب"، وهو هدف وصل تمسكه به إلى درجة القول "أقسم بالله العظيم، الذي رفع السماء بلا عمد، لن تحكم أمريكا، ولا من يعيش في أمريكا، بالأمن قبل أن نعيشه واقعاً في فلسطين، وقبل أن تخرج جميع الجيوش الكافرة من أرض محمد صلى الله عليه وسلم" (٢٩). وبعيداً عن الجزء الخاص بفلسطين، كان "الخروج من السعودية" هو الهدف الثابت.

ولقد كان من الممكن تصور وجود دوافع سياسة عقلانية "معتقده الخاص" لذلك الهدف، نبدأ من

Abu Nour www.alkottob.com

الاعتقاد بأن وجود قوات "لعلوج الحمر الكافرة، التي تتألف - حسب تعبيره - من المؤسسات من الأمريكيات واليهوديات" يدنس أرض النبوة (١٣٠)، مبرراً بها قال به مبرراً من أنها قوات غازية محتلة تسلب ثروات بلاد (النفطية)، وصولاً إلى تحرير أن "النصر الحليف الكافرة" والنظم العربية الأخرى كذلك - تستند في بقائها على تحالفها مع الولايات المتحدة (كراديات)، وأن خروج القوات الامريكية سوف يسهل مهمة إسقاط حكوماتها، التي كانت تمثل الهدف الأساسي لمعظم فصائل الأفغان العرب. لكن كل هذه التفسيرات ليست كافية لفهم الصورة كما تبدو داخل رأس أسامه بن لادن، بفعل عاملين على الأقل:

١- أن العنف المسلح الإرهابي ضد الولايات المتحدة قد بدأ في كثير من الأحيان، أو معظمهم في الواقع، وكأنه هدف في حد ذاته، أي "فرض عين" بلا محددات، يرتبط بتفويضه لطبيعة العدو الذي بصرف النظر عن تحالفاته السياسية في الخليج، وقد انعكس ذلك عملياً في بروز "الاقتداء" كدافع في حد ذاته تحدث عنه بن لادن كثيراً، وأحاديثه حول "المعاملة بالمثل". أو "رد الصاع صاعين"، ومن الصحيح أنه ربما يفكر في أنه سيظل يفعل ذلك إلى أن يكف العرب، إلا أن السؤال كله يظل: بأسس دينية كما يصرحا، انتقائي.

٢- أن هناك ما يشير بوضوح إلى جموح شديد في أهداف بن لادن بدرجة لا تحتمل تفكيراً عقلانياً، بالمعنى السياسي. فقد كان يفكر في مواصلة قتال الأمريكيين إلى ان ينهار - وهي واحدة من نتيجة بالنهاية الولايات المتحدة، التي كان يشير دائماً إلى أنها "بلاد الله عريضة" (٣١). يشير بعض أقواله إلى تصورات معتدله أكثر رشدا "نهاية أمريكا". كقوله خلاصة الامر أن أمريكا دولة عظمى ذات قوة عسكرية ضخمة وذات اقتصاد عريض، ولكن كل ذلك على قاعدة هشة. لذا فانه بالامكان استهداف تلك القاعدة الهشة، والتركيز على أبرز نقاط الضعف فيها، وإذا ما حدثت في عنصر معشور تلك النقاط، فإنها "بإذن الله - ستتراجع وتنكمش، وتنحني عن قيادة العالم وظلمه" (٣٢). إلا ان السياق كله ايضا يشير إلى تصور بشأن "هزيمة أمريكا".

ان المبالغة الشديدة في تصور النتائج الجهنمية لأفعال العنف الإرهابي تمثل ملمحاً عاماً لكل جماعات العنف المسلح تقريباً. فمعتدي كان الجيش الجمهوري الأيرلندي أن يستكين من الجيش رئيسه الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر، ومجلس وزرائها في هجوم على فندق برايتون عام ١٩٨٥، قالت الشرطة التي دمرت عنه بعد العملية "لقد تم تحطيم أسطورة أن منع الحكومة البريطانية بالمناعة" (٣٣)، وفي تعليقه على هجمات ١١ سبتمبر قال بن لادن: "لقد حطمنا أمتنام أمريكا، فأصبحوا يرتجفون في جنبه مؤلف، وأصابع الاتهام الأخرى في سويداء قلبه، فأرغمنا أنف أمريكا في التراب، وهوغا كبريائها في أنطين، فانهار برجا نيويورك، وبذلك الانهيار انهار ما هو أعظم وأضخم، فانهارت أسطورة أمريكا العظمى، وانهارت أسطورة الديمقراطية، وظهر للناس أن قيم أمريكا في السافلين، وتحطمت أسطورة أرض الحرية، وتحطمت أسطورة الأمن القومي الأمريكي، وانهارت أسطورة الـ (CIA)، فلله الحمد والمنة" (٣٤). نأحياناً لا يحتوي هؤلاء نتائج أفعالهم، مما يفتح أذهانهم في اتجاه آفاق غير محددة، خاصة إذا كانت مثل هذه التنظيمات (كالقاعدة) تتمركز في أرض تكرامات والأساطير، وتعش في الماضي.

إن التعقيدات الخاصة بحالة تقسب الكيفية التي يرى بها بن لادن سائح العنف، على أساس من لمفاهيم والمقولات التقليدية المرتبطة بالدراسات الاستراتيجيه، تبدو غير مجدية. فلا توجد معايير محددة تمكن الاستناد عليها في تحديد تقديراته لأهداف ودوافع العنف، وبالتالي "الاوضاع" التي يمكن أن تتوقف ذاهاب في إطارها. وتتمثل أقل التفسيرات حدة لهذه المسألة في انه يعيش في عالم خاص، بعيد عن واقع، ويصدق فيما يعتقده (٣٥)، أما أكثر تلك التفسيرات حدة، فإنها تركز على أن اسامه بن لادن

Abu Nour www.alkottob.com

مثل "بإسلام الباسر" الذي يتصور أنه يمكن أن ينتصر عن طريق الإرهاب، وأنه في واقع الأمر أقرب إلى "الفوضويين" أو بصورة أدق "العدميين" (٣٦). لكن تقييما مضيرا جاء في مقال لفراهام، تولر بعنوان "براعم أسامة"، يشير على أنه إذا كان هدف هجمات هو تقويض العلاقة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي، فإنه قد نجح في ذلك بحدة، أما إذا كان هدفه هو تحطيم الولايات المتحدة، فإن العكس قد حدث، أصبحت الولايات المتحدة أكثر قوة وخطرا (٣٧). ومع كل هذا فلا تزال هذه المسألة في حاجة إلى نقاش، إلا أن النصيحة الواضحة هي أن "نشاطات القاعدة قد أدت إلى الإضرار الشديد بمفكر بن لادن (مفترض العالم الإسلامي)، لكن هو لا يهتم هو بذلك كثيرا، إذ أنه غالبا ما يكفر، وهكذا نعود مذكرة "العدمية" مرة أخرى إلى الأذهان.

هكذا، فإن هناك ملامح محددة يمكن رصدها وتحليلها بشأن التفكير العسكري - العملياتي لأسامة بن لادن، الذي كان - من هذه الزاوية - أقرب إلى قائد ميداني (بالمفاهيم العسكرية) لتنظيم قاعدة، وقد تمثل إسهامه الرئيسي في تحديد التوجهات الأساسية لعملياته، فيما يتصل بالهدف الرئيسي، وأسلوب الجهاد ("القوة العسكرية بلا حدود"). لكن يمكن المجادلة في أن إسهامه الفكري في جانب تفكيري العملياتي الهجومي الذي تعتنقه القاعدة بفعالية غير مسبوقة، كان محدودا. بينما كان إسهامه الفكري في الجانب العسكري - العملياتي الدفاعي الذي تمثله القاعدة نسبيا في تطبيقه، كان واسعا. لكن الأهم هو ما يبدو من وجود توجهات عدمية في تصوراته لأهداف العنف الإرهابي، وتتابع الحرب التي خاضت القاعدة - ولا تزال تقوم - بشنها

الهوامش:

(١) لمزيد من التفصيل، انظر: أريك موريس، والإرهاب: تشهيد والرد عليه، ترجمة د. أحمد حمدي محمود، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١)، ص ص ٣٥ - ٤٤.

(٢) لمزيد من التفصيل، انظر: محمد حسنين هيكل، "حريق أمريكي وعالمي"، وجهات نظر، العدد ٣٣، أكتوبر ٢٠٠١، ص ص ٤ - ١٢.

(٣) يمكن ببساطة شديدة تحليل بعض التوجهات لعلمانية للقاعدة على ضوء مبادئ حرب شهيرة يعتمدها الجيش الأمريكي، أو البريطاني، انظر: د. سيار ال. جوس، الكتنل العسكري: من قناة السويس إلى حرب الخليج، بيروت، باريس: منشورات موسسات الدراسة، منشورات بحر المتوسط، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص ص ٥ - ١٠.

(٤) حول التوجهات العامة للأفغان العرب، انظر: د. نبيلة حامد الماجد، "الأفغان العرب.. محاولة للتعريف" موقع إسلام أون لاين، ٧/١٠/٢٠٠١،

http://www.islamonline.net/arabic/mnous/2003/10/article2.shtml

(٥) انظر: على برنامج تحت المجهر، قناة الجزيرة الفضائية، حلقة عبد الله عزام (الجزء الثاني)، ٢٧/٣/٢٠٠٣، موقع الجزيرة نت، ٣/٣/٢٠٠٣،

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/7D131DC1-AD66-4401-A392-001A169698B6.htm

(٦) لمزيد من التفصيل، انظر: د. محمد فتحي سعيد، د. عبد المنعم محمد، الأفكار والأسرار، ط ١، سبتمبر ٢٠٠١، القاهرة: مركز المعلومات للسياسة والاستراتيجية، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ص ١٠١ - ١١٩.

Abu Nour www.alkottob.com

(٧) "تنظيم القاعدة وعلاقته بحركة طالبان"، حلقة خاصة في قناة الجزيرة ٢٩/١٠/٢٠٠١، موقع الجزيرة نت، ١١/١٠/٢٠٠١.

(٨) راجع على سبيل المثال مقال: "عقيدة الاستراتيجية العسكرية والسياسة للقاعدة الجهادية"، الموقع الإليكتروني لجلة الأنصار، ٩/٨/١٤٢٣هـ.

(٩) للتفاصيل حول تلك النقطة: د. نشأت حامد عبد الماجد، مرجع سبق ذكره، ٧/١٠/٢٠٠١.

(١٠) انظر رأي عبد الباري عطوان في ملف خاص، "تنظيم القاعدة وعلاقته بحركة طالبان"، قناة الجزيرة الفضائية، مرجع سبق ذكره.

(١١) "أسامة بن لادن يتحدث"، حلقة خاصة، قناة الجزيرة الفضائية، ٩/١٠/٢٠٠١.
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/0395644C-DDB5-4C98-B93B-D644E2C7478C.htm

(١٢) "بن لادن: هل أمسى أم ضحى الإسلام"، برنامج الاتجاه المعاكس، قناة الجزيرة الفضائية، ٢٢/١٠/٢٠٠٣، موقع الجزيرة نت ٢٧/١٠/٢٠٠٣).

(١٣) راجع نص خطبة أسامة بن لادن المعروفة باسم "خطبة عيد الأضحى"، قناة الجزيرة الفضائية، ١٦ فبراير ٢٠٠٣.

(١٤) "أسامة بن لادن يتحدث"، مرجع سبق ذكره.

(١٥) لمزيد من التفاصيل انظر: بن لادن والأمم المتحدة"، برنامج "أولى حروب القرن"، قناة الجزيرة الفضائية، ١٠/١١/٢٠٠١، موقع الجزيرة نت
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/11E8BE6A-9D74-46BC-BF18-22524D23E864.htm

(١٦) "أسامة بن لادن يتحدث"، مصدر سابق، ٢٣/٩/٢٠٠١.

(١٧) راجع: "مفجرات ١١ سبتمبر / أطول"، برنامج مسرى للغاية، قناة الجزيرة الفضائية، ١٢/٩/٢٠٠٢، موقع الجزيرة نت، ١٦/٩/٢٠٠٢.

(١٨) خطبة اسامه بن لادن المعروفه باسم "خطبة عيد الأضحى"، مرجع سبق ذكره.

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) انظر في هذا الشأن: كتاب "اسامة بن لادن: مجدد الزمان وقاهر الأمريكان"، تأليف "بن جندل الأسني"، ص ٩٢، موقع "منبر التوحيد والجهاد" على شبكة الانترنت:
http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info

(٢١) راجع نص خطبة أسامة بن لادن المعروفة باسم "خطبة عيد الأضحى"، مرجع سبق ذكره.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل، انظر: د. وحيد عبد المجيد، "حروب أمريكا بن بن لادن وصدام حسين"، القاهرة: دار مصر المحروسة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ص ٨١-٩٨.

(٢٣) "تنظيم القاعدة وعلاقته بحركة طالبان"، مرجع سبق ذكره.

(٢٤) راجع نص خطبة أسامة بن لادن المعروفة باسم "خطبة عيد الأضحى"، مرجع سبق ذكره.

(٢٥) المصدر السابق.

(٢٦) النص الكامل لحديث بن لادن، قناة الجزيرة الفضائية، ٢٧/١٢/٢٠٠١.

(٢٧) المصدر السابق.

(٢٨) راجع نص خطبة أسامة بن لادن المعروفة باسم "خطبة عيد الأضحى"، مرجع سبق ذكره.

www.alkottob.com
Abu Nour www.alkottob.com

(٢٩) بن لادن بين حلم الإسلامي والحرب الامريكية، حلقة خاصة في قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٢/١٠/٢٠٠١، موقع الجزيرة نت، ٢٣/١٠/٢٠٠١ .

(٣٠) أسامه بن لادن يتحدث، مصدر سبق ذكره.

(٣١) راجع نص خطبة أسامة بن لادن المعروفه باسم "خطبة عيد الأضحى"، مرجع سبق ذكره.

(٣٢) المرجع السابق.

(٣٣) أربت مورير، وألان هو، الإرهاب التهديد والرد عليه، مصدر سابق ص ص ٣٢-٣٣ .

(٣٤) راجع نص خطبة اسامة بن لادن المعروفة باسم خطبة عيد الأضحى، مرجع سبق ذكره.

(٣٥) تعليق "روبرت أوكلي" على حديث بن لادن، قناة الجزيرة القضائية، ٢٧/١٢/٢٠٠١، مرجع سبق ذكره.

(٣٦) رأى "ريتشارد رولو" في: كيف يفكر أسامه بن لادن، حلقة خاصة في قناة الجزيرة، ٣/١١/٢٠٠١، موقع الجزيرة نت، ٥/١١/٢٠٠١ .

(٣٧) جراهم شولر، براقو أسامه، موقع الجزيرة نت، ١٠/٩/٢٠٠٢ .

Abu Nour www.alkottob.com

المراجعات الفكرية للجماعة الإسلامية في مصر.. قراءة في "سلسلة تصحيح المفاهيم"

لعل التقاسم المشترك بين الفكري والحركات والجماعات الإسلامية في الدول العربية والإسلامية هو سعيها - تارة بعلانية ووضوح وتارة بإخفاء وسرية - إلى إعادة الاعتبار لمكانة ومكان قيم الدين ومقاصده في الحياة بأبعادها كافة التشريعية والتنفيذية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأمنية. لكن هذه الفعاليات التي اتخذت كل واحدة منها الإسلام منطلقا لفكرها وممارستها، أو دعت ذلك، أدركت أن سعيها في إعادة الاعتبار لموقع الإسلام في حياتنا أو للدفاع عنها جنبا إلى جنب لمواثل الاقصاء، كان يلزمها أن توجد لها معايير وضوابط متعددة لمخاطبة مجتمعاتها وحكامها وبقية القوى الفاعلة، أملا في إحداث التغيير الذي تريده. بيد أن الاتفاق بينها على التغيير هدفا ومقصدا، لم يقابله اتفاق مماثل على مضمونه وحدوده من جهة، أو اتفاق على وسائله وأشكاله من جهة أخرى.

وتنبئنا الخبرة العربية والخبرة الإسلامية - في تطوراتها - أن الوسائط قد تعددت والأشكال قد تنوعت بين حوار وصدام، وسلم وقتال، وقبول للواقع ورفض له، وتعايش معه وهجره منه، وتسليم بإسلاميته وإصرار على تكفيره، ولتزيفه بين المجاهدة وإسقاطه في بعضها. ولقد تعددت الحجج والآراء والاجتهادات في ذلك. وبعد في الوقت ذاته الواقع الذي سهل إنتاج هذه الأساليب. وأصبح الإسلام هو الحاضر الغائب بين الجميع، والعامل لأكثر من وجه. أو إن شئنا الدقة نبادي وكأنه أكثر من إسلام، بعدد الحجج ونقائضها بين الفعاليات الإسلامية وبين الوجهات التي خاطبتها بهذه الاشكال حكاما ومحكومين وأفرادا وجماعات، وبتوظيف لكل له حسب ما رأوا وأحبوا. ولعل أكثر أشكال التعسير التي هزت كيان بعض الدول والمجتمعات في العالمين العربي والإسلامي هو العنف الدموي. بما صاحبه ونتج عنه من خسائر في الأرواح والممتلكات واعتقالات وأحكام بالإعدام أو السجن لشباب في مقبل الحياة، ناهيك عن تهديد الأمن والاستقرار والسلم الاجتماعي[1].

وحين نسأل عن "المنتيجة النهائية" التي تحصلت من ذلك لا نجد إلا سلسلة من التراكمات السالبة والخبرات الخربة، والمزيد من الاتهام للإسلام ولكل ما خرج ويخرج من رحمه - صدقا أو ادعاء - من حركات، بالعنف والدموية والإرهاب والأصولية والظلامية، والرجعية والعنف في الماضي والمستقبل ورفض الحداثة ومعاداة الإنسانية إلى آخره مما أتبع عنه، خاصة في حقبه ما بعد انتهاء الحرب الباردة.

Abu Nour www.alkottob.com

ومصر الحضارة و تاريخ والدولة والمجتمع والأفراد والجماعات لم تكن مدعاة من هذا البعض من الدول العربية والإسلامية. الذي اعتز كيانه بالعنف والدماء، الذين استهدفي الإسلام فيهما زور وبهتان كعنوانين له. منذ تغلب فيها المنطق الدعوي إلى التغيير على أسس الإسلام من خمسي وقبول العيش في الدولة المجتمع إلى الغلظة والشدة والصدام في أواخر السبعينات وحتى أوائل الثمانينات. وقد تبادر إلى الذهن ثم سبق اعتقاد في أن هذا الانقلاب في المنطق الدعوي - فكرا وحركة - كان وليد الفترة المذكورة آنفا، وذلك ليس صحيحا بالمرة، والأمر في تفاصيله يحتاج وقفات طويلة، لانه يقتضي استعراضا تفصيليا لتاريخ الحركة الإسلامية وفصائلها في الخبرة المصرية قبيل ثورة يوليو ١٩٥٢ وبعدها، وربما قبل ذلك بكثير. لكن سياق موضوع هذه الدراسة، يفرض علينا الاقتراب أكثر من الفترة التي شكلت المنعطف التاريخي الأهم والأساسي في بلورة فكر التصحيح والمراجعة.

والذي لا شك فيه لدينا أن مصر خلال هذه الفترة قد اكتسبت خبرة من الفقر و تشدائد والمحن العظام بفعل نزيف الدم، وإزهاق الأرواح اللذين لم يقفا عند حد معين ولم ينتهيا عند مأساة قتل رئيسها الراحل انور السادات في أكتوبر سنة ١٩٨١ إذ أبت بعض فصائل الحركة الاسلامية فيها، خاصة من تنظيمي الجهاد والجماعة الإسلامية، إلا أن تمتد النزيف والإزهاق ليشمل بعض السياسيين و شخصيات ورجال الشرطة والأمن والأدباء والفنانين وقطاعات من الجماهير أطفالا ونساء ورجالا وشيوخا. ناهيك أيضا عما أصاب غير المصريين وخاصة من السائحين. فقد كان طبيعيا أن تتلقى فصائل العنف ضربات موجعة وملاحقات مقوضة لتنظيماتها، فتكسرت حدة عنفها عقب فشل الكثير من شبابها في مواجهات مع قوات الشرطة والأمن وإصدار أحكام الإعدام في حق بعضهم وأحكام السجن في حق بعضهم الثاني وفرار بعضهم الثالث إلى خارج مصر وتضييق الخناق على من حاول منهم تهديد الأمن بشكل أو باخر.

وبعد هدوء حدة العنف واستتباب الأمن والذي كان مدعاة لاستبشار المصريين، بدا ذلك الهدوء بالنسبة إلى فصائل الحركة الإسلامية - خاصة من تنظيم الجماعة الإسلامية التي كانت معظم قياداتها التاريخية خلف أسوار السجون تقضي أحكاما بالسجن يلغ كثير منها فوق العشر سنوات ناهيك عن أحكام السجن المزيد لبعضهم- مدعاة لأن ينتقط قيادات الجماعة الأنفاس هي ومن رافقها في السجون من أعضائها، وبدو أنها استفادت من حالة استرخاء العنف، كما استفاد المجتمع كله، بل وامتشفت هذه الحالة في تفكير مسان وعميق، لتسأل نفسها: وماذا بعد السجن الطويل؟ماذا بعد أن انقضى من العمر الكثير، وبقي أرذله بالنسبة إلى الكثيرين؟ وهل لابد من مواصلة التحصن في مواقف العنف والقتل وإراقة الدماء؟ وهل تسمح الظروف خارج الأسوار بذلك؟ وهل ثمة بديل خر للمنطق الدعوي في هداية الناس للإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وكيف يتأتى البديل؟ وما مكوناته؟ وما مدى ضرورته ولماذا؟ وما هي تكتيفه وتضحياته؟ ثم أمر كل ذلك من الشرع فقهه وأحكاما ومصادره؟!! هذه الأسئلة وأشباهها يبدو أنها ألحت على قيادات الجماعة الإسلامية، ولعلها انتهت وربما قنعت بأن تكون - كما ورد في الكتاب الأول من سلسلة "تصحيح المفاهيم" التي أصدرتها الجماعة الاسلامية - لها كلمة في مجمل الأحداث تعتنقة، وأسلوب التعامل معها، أن تترجم الكلمة في مراجعة مجمل سيرتها كحطوة أولى للإجابة على الأسئلة السابقة. بل لا يغالي بي ظنا إن المراجعة قادت إلى الإيمان بضرورة تصحيح الفكر وتصحيح الحركة، وإن تصحيح قابلها قاد إلى المبادرة برفض ما ران عليهما - أي الفكر والحركة - من عنف ودماء عبر مراحل. وأنها إمعانا في انسجام طريق التصحيح وتوكيد المبادرة آثرت إلا توثيق هذا التصحيح وما انطوى عليه من مراجعات فكرية في مجموعة من الإصدارات سمتها سلسلة تتصحيح" ونشرتها علي ملأ في مصر وخارجها. وما كادت قيادات الجماعة تصدر أربعة كتب في هذه السلسلة لا وتباينت لآراء والمواقف منها، وكأنها ألقت بحجر في مساء راكد!

Abu Nour www.alkottob.com

تحركت فيها ردود أفعال كثيرة، بين من شكك في صدق ما فيها، ومن أكد إخلاصه في التوبة والمراجعة، ومن تحفظ عنها، ومن توقف مفضلا الانتظار حتى تتضح الحقيقة.

فلم هذه الصحة؟ وماذا في هذه السلسلة الرباعية من أفكار ومضامين كي تحدث هذا التساؤل الشديد؟ أو بعبارة أدق ما الذي تم تصحيحه ومراجعته؟ وإلى أي مدى شكل تحدثنا له بعهد من قبل في فكر الجماعة "الإسلامية"؟ هذا ما سنحاول التوقف عنده سلبا وبرؤية تحليلية، قراءة استنطاقية تعتمد على الأتي:

- العودة مباشرة إلى الكتب الأربعة التي أصدرتها قيادات الجماعة الإسلامية من خلال إسوار سجن العقرب، ضمن السلسلة السالف ذكرها، في الأول من يناير عام ٢٠٠٢ وبشرتها مكتبة التراث الإسلامي في طبعاتها الأولى بالقاهرة، وقد حملت عناوين مبادرة وقف العنف: رؤية وتجربة، "نظرة شرعية"، "حرمة الدم في الإسلام وتكفير المسلمين"، "تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء"، و"النصح والتبين في تصحيح مفاهيم المحتسبين" (١).

وقد تم النظر فيها جميعا في هذه الدراسة على ترتيبها السالف، لا لشيء خاص في قيادات الجماعة الإسلامية لم ترتضه داخل السلسلة إلا لإدراك الاجتهادي أن الأول منها يبدأ بالتعريف بالأمر الذي دفع الجماعة إلى اتخاذ السلسلة وهو وقف العنف، والثاني يعرض بالنظر العام الذي يجب أن ننطلق منه مبادرات التصحيح والمراجعة، وهو وسطية الإسلام بعيدا عن تغلو في الدين وتكفير الناس، والثالث يتحدث عن المفهوم الأكثر استدعاء في الغلو والتكفير كرد فعل لهما وهو الجهاد، بما قد يؤدي إلى توظيف خاطئ لنظرية القتال في الإسلام، والواقع يكشف عن الوجه الآخر للجهاد داخليا وهو الحسبة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهكذا وجدنا أن هذا الترتيب هو الأنسب من حيث بدأ بالعام فالأقل عمومية فالخاص فالأكثر خصوصية في موضوع التصحيح والمراجعة، وبذلك تتكامل الكتب الأربعة وتتساند فيما أرادت أن تنتهي الجماعة فيها عن قضاياه ومفاهيم وأفكار.

اعتبار أن هذه الكتب بمثابة نصوص مكونة تعبر عن فكر الجماعة الإسلامية، وقد استبعد التي روافد شرعية وعقلية وتاريخية وسياسية كما سيرد. والفكر عموما إذا كان هو انعصار الخاطر في الشيء، فإنه ينهض على صاحب الفكر وهو هنا "قيادات التوبة" للجماعة الإسلامية والذين يتشكلون مرجعة عليا بعد أمير الجماعة، متمثلين الدكتور عمر عبد الرحمن، فما أسمى يجلس شوري الجماعة وجناحها العسكري. وقد ذكر على غلافة الكتب الأربعة أن من قام بالتأليف والإعداد هما: علي محمد علي الشريف، وأسامه إبراهيم حافظ، وأن من أمر التأليف وأعداد وراجعها: كرم محمد زهدي، وناجح إبراهيم عبد الله، وحمدي عبد الرحمن عبد العظيم، ومحمد شعبان الدين زينه. وقد تم محمود الدوالبي، وعاصم عبد الماجد، دون ترتيب بعينه. كذلك ينهض الفكر تأسيا على الواقع الذي عاشه ويعيشوا معه وهو بالأساس مصري وإن كانت ثم امتدادات خارجية. ثم ينهض ثالثا على مشكلة في هذا الواقع يفسر سعيها مفهوما أو مأزوما، كما فصلنا في موضع آخر (٢)، والمشكلة هنا كتاب في العنف يصوره التي صورت، والذي جاء إليقاف فكرا وحركة محددا للخروج من هذه المشكلة.

---

(١) تقع الكتب الأول في تسع وتسعين صفحة، والثاني في تسع وسبعين وتسعة وثمانين صفحة، والثالث في تسع وأربعين وماءة صفحة، والرابع في تسع وسبعين وماءة صفحة، وذلك من القطع الصغير، الخنصري، سوف نشير إلى الصفحات الأربعة جاء بين الأقواس بما قبل الدراسة أو في الهوامش إلى النص الأول "الكتاب الأول"، الثاني "الكتاب الثاني"، والثالث "الكتاب الثالث"، والرابع "الكتاب الرابع" وذلك وفق الترتيب المشار عليه في عنوان كل كتاب.

Abu Nour www.alkottob.com

هذه المجلد الإشارة إلى ملاحظتين في هذا السياق. أولاهما أنه بجانب القول إن فكر المراجعة والتصحيح للجماعة هو فقط فكر سياسي؛ لتداخل تسييسي ضمن غيره من الفكر وتضامنه وجعوبة فصله عن أصدقه الفكر الأخرى في الكتب الأربعة. والثانية أنه سوف نستخدم مصطلحات: فكر الجماعة الإسلامية وفكر التصحيح والمراجعة، وفكر القيادات التاريخية، والنصوص الأربعة، ولكتب الأربعة، كمترادفات لما صدر عن الجماعة حسب سياق ورود كل منها في حينه. وكذا مصطلحات: فكر التصحيح، وفكر المراجعة. إلى آخره مما يعبر عن الموجود من أفكار في هذه الكتب.

- إن رؤيتنا التحليلية للنصوص الأربعة سوف تعتمد على قراءتها وفق منطق تحليل النصوص المعمول به في دراسة الفكر عموما ودراسة الفكر السياسي خاصة، والذي يستلزم الحرص أحيانا بالتحليل الكيفي للنصوص، ويعتمد على قراءة ما يقوله النص مباشرة وما يقوله بصورة غير مباشرة استنباطية في ضوء ما يحتمل النص(٣). وبظرا لصعوبة قراءة نصوص تمتد أكثر من خمسمائة صفحة، وحتى لا ينتهي التحليل بسوء التأويل للنصوص هي بطبيعتها ضحية سوء التأويل، وبتبارا لست مناقشة التحيز معها أو ضدها، فقد آثرنا الاكتفاء بهاتين القراءتين دون القراءتين: الثالثة لما سكت عنه النص، والرابعة للمستفاد منه؛ إن لم نمنعنا هذا القيد من الاستفادة من هاتين القراءتين الأخريين في بعض مواضع التحليل. وسيتم تقديم هاتين القراءتين بالمنهجية المقارنة - كلما أمكن - سواء بين ما ورد في النصوص الأربعة، أو بين ما ورد في النص الواحد. أو بين ما أثير حول النصوص من ردود أفعال.

- إن طبيعة تحليلنا للنصوص لن تقف عند مجرد تفكيك عناصر الأفكار والمفاهيم الواردة فيها سير لأغوار ما فيها من تصويبات وتصحيح ومراجعة، بل ستتجه إلى محاولة تفسير ما تم تفكيكه، تعويلا على الفرضيتين السالفتين، خاصة الثانية منهما، وهو الأمر الذي سيستدعي عليا حمل التوقف للتصدي بالرأي والتقويم لبعض ما سيرد في كليهما - أي التحليل والتفسير - بعيدا عن أية إسقاطات تحيزية تحاول استنطاق النصوص الأربعة بمقول ما ليس فيها. أو لتحكي ما ينبغي أن تقوله. وذلك انطلاقا من اقتناع مفاده أن مثل هذه النصوص في حاجة إلى الاستفادة في عرض ما فيها، ولاستفاء في النظر إليها، فضلا عن الاستفادة في وزنها وتقويمها.

ونود أن نلفت النظر هنا إلى حقيقة أن تحليلا متكاملا ومتعمقا وشاملا للنصوص الأربعة، بصرف بمنهاجية واضحة للتعامل مع ما ورد فيها فرادى أو جماعة، لا تستعيبه هذه الدراسة. فذلك ينتهي به جهد بحثي جماعي، ليس لخطورة الجهة التي أنفقته وتشرفه في الخبرة المصرية، بل لخطورة ما فيها من تصحيح ومراجعة، بتغير - بصرف النظر عن الموقف من ذلك - فضلا عن خطورة ما تكشف فيها من تحول في فكر جماعة طالما تمت المرادفة بينها وبين العنف والمقاومة المسلحة، والصدام العسكري.

أولا: ما وراء فكر التصحيح والمراجعة من أسباب:

منذ اصدار الأحكام القضائية المختلفة في حق أعضاء تنظيم الجماعة الإسلامية، قيادات وقاعدة، وعلى مدار أكثر من ثمانية عشر عاما أثيرت دعوى - وبعضهم نشر وتم تداوله بشكل أو بآخر حول الحوار معها وسط ولايات متوسط بينها بين بعض الأجهزة الرسمية في الحكم والمقاتلة في تصحيح أفكارها ومراجعتها. ولقد قبلت آراء كثيرة في مدى تقبلها للحوار وتقبل أعضائها للوساطة وشروطها، فضلا عن تقبلهم لخيار العدول عن فكر العنف والصدام المسلح(٤). وقد استغل البعض بهذا الجدل بحثا عن حقيقته وأسبابه والمنطوي فيه. إلى أن جاء الخامس من يوليو سنة ١٩٩٧ وأتى نظر القضية العسكرية رقم (٢٣٥)، فإذا بأحد المهيمين في القضية يقف ليلقي بيان مذيلا بتوقيع قيادة الجماعة

Abu Nour www.alkottob.com

للجماعة الإسلامية ندعو فيه إخوانها إلى إيقاف العمليات القتالية وحقن الدماء[٥].

ثم فاجأت تلك القيادة الأوساط كافة في مصر ببيان آخر موقع منها يعلن الاستجابة لدعوة كان قد وجهها الشيخ عمر عبد الرحمن مفتي الجماعة، أصبحا في أكتوبر ١٩٩٨ - من الولايات المتحدة الأمريكية حيث يقضي عقوبة السجن المؤبد - مفتقداً دعوته إلى وحدة الصف والدعوة إلى الإسلام بالكتابة والخطابة والدرس والنصيحة والتعليم وإحوار وإظهار عظمة الإسلام. وتضمن بيان الجماعة الاستجابة لدعوة الشيخ وتدائه، والدعوة إلى إنهاء جميع العمليات المسلحة في مصر، وإدعم موقف الإخوان في الخارج بالاستعداد عن الجبهة ضد الأمريكيين، والجهاد ضد الأعداء لتحرير بيت المقدس[٦]. وعقب ذلك وقع مجلس شورى الجماعة على بيان صدر في مارس سنة ١٩٩٩ تضمن مبادرة بوقف العنف داخل مصر نهائيه، حيث فيه أن الجماعة قامت بذلك استمراراً للاستجابة لنداء الشيخ عمر عبد الرحمن، ولما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، وأن هذه المبادرة لا تعني التخلي عن ثوابت الجماعة وثوابت طريقها لنصرة الإسلام بالدعوة إلى الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله. ملتزمة بشرع الإسلام الحنيف، وأن أمر هذه المبادرة أمر التزام، فمقابله مصر لله على أعداء الإسلام، ولا يعني تخلي الجماعة عن الالتزام بمناشدة أبي الشعب المصري بمختلف شرائحه والتحاور مع المعتقلين في السجون، حتى يرفع الظلم عنهم ويناولوا حريتهم وحقوقهم، والتزامها بالنظر إلى من توفي من الجماعة على أنهم شهداء، وإلى من في السجون على أنهم مضطهدون مظلومون[٧].

وتوكيداً لاستمرار الجماعة فيما عزمت عليه ونادت به؛ أصدرت عن طريق قياداتها التاريخية سلسلة تصحيح المفاهيم في مصنفاتها الأربعة السالف التعريف بها، وطالبت المشتغلين بالحركة الإسلامية على اختلاف الأسماء التي أطلقتها عليهم - كما سيرد - بعدم التعرض عن "تصحيح والمراجعة". ثم كان اللقاء المباشر بعد ذلك بين الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس تحرير مجلة "المصور" المصرية وبين قيادات الجماعة في سجن "العقرب"، وتبادله الحوار معهم حول خبرة الجماعة في المدى والحجم الذي ينتظرهم والمستقبل الذي يأملون العيش فيه، حقيقة مبادرتهم بإيقاف العنف، وأسبابها والمتوقع لها من آثار ونتائج، وإمكان متابعة هذه المبادرة بمبادرة أخرى تعلن فيها الجماعة الاعتذار للمصريين عن الجرائم التي ارتكبت في حقهم وحق مصر[٨].

ولسنا هنا بصدد عرض وتحليل الأسباب التي حدت بمصر الجماعة الإسلامية وبقيادتها إلى اتخاذ الخطوات السابقة لأنها، الأعمال المسلحة في رجوع معظم لا بالقدر الذي يعرف مبرراً، ويقف بنا أمام الأسباب التي أوردتها قيادات الجماعة ذاتها من خلال نصوصها الأربعة، فذلك ما يدخل في نطاق موضوعنا ويتفق مع التزامنا به منهاجياً، فما هي حقيقة هذه الأسباب؟ إن متابعة النصوص الأربعة تكشف عن جملة من الأسباب أمكن رصدها كما ورد على لسان قيادات الجماعة فيها، وهي ذلك:

١. أن المبادرة بوقف العنف ليست مقايضة بين دين يعرض زائل من الدنيا أو بين اعلاء دين الله وشرعه وبين دنيء رخيصة جعلت وراء ظهر الجماعة، ولكنها استجابة لحكم الشرع في منع الاقتتال الذي ترتبت عليه مفاسد عظيمة، ثم هي واجب شرعي، تصدت له الجماعة بكل شجاعة، لا يتنافى مع واجب السعي لإعلاء دين الله وإقامة شريعته، فوقف الاقتتال واجب والدعوة واجب، وعلى الجماعة القيام بكلا الواجبين[٩].

٢. أن تحصيل المصالح أصل عام من أصول الشريعة، لأنها أنزلت لتحصيل المصالح ورفع المفاسد عن العباد، ولذلك أدلته المعتمدة والمغنية فضلاً عن أدلته في الحياة الإسلامية[١٠]، وأن ما حدث من عنف وإرهاق لأرواح يتنافى مع أصول القواعد الشرعية في تحصيل المصالح ودرء المفاسد، كما استقر

Abu Nour www.alkottob.com

س الجماعة أن تكون هناك وقفة، من ناحية لتقييم ما حدث. ومن ناحية أخرى لتقويم أوائل مقصود الشارع الحكيم(١١).

٣. أن العنف إذا كان قد وجه لإيقاف الاغتيالات والتعذيب لأعضاء الجماعة وإفتضاح البيوت والمساجد، ولسلب حرية الدعوة وحق عملاء المنابر ومنع إهانة النساء، وتروع الأطفال، فإن ذلك لم يحدث بل زادت حدته واتسع نطاقه. ولا شك في أنه قد تحقق من هذه التجربة الطويلة أن الدماء التي أهدرت وأريقت والمعارك التي استعرت وطحنت الكثيرين، لم تجلب مصلحة تذكر. بل تربت عليها عشرات المفاسد أو حمل بقاياها. لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح(١٢).

٤. أن الدين، والجهود والأموال التي أهدرت دون فائدة حادت عن وجهتها الحقيقية والأصلية. ومن ثم يجب أن توقف لتعديل مسارها إلى حيث العدو الحقيقي الذي يعاني منه الشعب المصري و المتمثل في الفقر والتخلف داخليا. والعدو الخارجي المتربص به وبدينه وبوطنه والذي استغل الدين والدماء التي سالت بين أتباع الدين الإسلامي كي يشوه صورته ويفسقه بالدموية والإرهاب حتى صار المسلم في الخارج رمزا مجسدا للإرهاب. وللدموية معا (١٣).

٥. أن العنف لعنف قد يكون بداية طيبة ينبني عليها ما يخفف من المعاناة ويعطي أجمع الفرصة للمشاركة الفعلية في هموم مصر ورفع المعاناة عنها. وذلك من مصالح المصريين كمسيحيين ومن مصالح مصر عامة التي تحتاج إلى جهود جميع أبنائها لتستعيد عافيتها وتقدمها ونهضتها. ومن مصالح الذين يرون التكفير فريضة غائبة والدعوة إليه وإزالة ما شوه منهجه القويم من شوائب لدعامات المنكرة (١٤).

٦. أنه يخشى إن استمرت الأمور على ما هي عليه من دمٍ وقتال وإطلاق نار، أن تتأجج في القلوب، أن يسقاط الأمر ولا يعود في مقدرة أي من الطرفين إعادة الأمور إلى نصابها، وأن يقرر استمرار المجابهة مفاهيم مغلوطة جديدة قد تستقر مع مرور الزمن، بحيث يظن أصحابها أن طول معايشتهم لها، واستخدامهم أنها حقائق شرعية، بل قد تتلقاها الأجيال التالية على أنها من الدين، لذا كان لزاما بيان الخطأ في ذلك وتصويبه للتحذير منه والحرص على عدم تكراره وتلافي بعض ما وقع منه بالفعل (١٥).

٧. أن الجماعة كجزء من الحركة الإسلامية يجب أن يكون واضحا أمامها الهدف الذي تسعى إليه، وتقويم كل خطوة تخطوها على ضوء مدى مساهمتها في تحقيق هذا الهدف، وحسبها استغلال الشجاعة الكامنة للإحجام عن أي قرار تراه صالحا بنفسها وبيئته ومن ثم الشجاعة للعدول عن أي قرار، أو خطوة قد أقدم عليها بعض أعضائها بالفعل. وتبين أنها لن تنأى عن الوصول إلى هدفها ولن يمس الشجاعة ترك رحى الحرب دائرة بين أبناء مصر. لتنطحن الدين ودعوته قبل أن تنطحن الجماجم والعظام(١٦)، وإذا كان الرسول (ص) قد رأى المصلحة في صلح الحديبية حيث موادعة قريش وترك قتالها، فالجماعة وقد تلقت عنه وتعلمت منه، جديرة بإيقاف الأعمال القتالية وسفك الدماء (١٧).

٨. أن الجماعة ما كانت ترجو يوما إلا رضا الله. ولا يهمها رضا مخلوق حتى تخاف سخطه، وأعمال العنف التي وصل بعضها إلى حد الاقتتال يجب أن تتوقف لأنها ليست من رضا الله في شيء، إذ الشرع يأمر بإيقافها، وإن سخط لبعض عمى الجماعة، ونبس من ورا، وذلك إعفاء لذنبه في الدين، والرسول (ص) حين قيل له يوم الحديبية: لم نعط الدنية في ديننا قال: أنا عبد الله، ولله لن يضيعني والجماعة إذ تبادر بوقف العنف لتصحح مسيرتها. ترجو أن يكون لها من هذا الفعل نصيب. فلا تضيع ولا يضيع بقية إخوانها. (١٨)

٩. أن معسل الأحداث التي مرت به المعركة الإسلامية عامة وبالجماعة الإسلامية خاصة داخل مصر

Abu Nour www.alkottob.com

أوجبت أن يكون لقيادات الجماعة كلمة في تجاوزات التي صاحبت قضايا تلك الأحداث، وذلك ضرورة واقعية وفريضة شرعية: واقعية للرغبة في عدم تكرار هذه الأحداث، وتكرار مفاسدها. وشرعية لأن أهل العلم والفقه عليهم أن يبينوا للناس ما أمكنهم السبيل إلى ذلك ويعيد عن الكتمان والتزييف ان تيسر لهم (١٩).

١٠. حقن دماء الشباب المسلم والحرص على سلامته، والعمل عليه. وعلى سلامة توجهه في الدين والدنيا. وإذا كان هذا الشباب على صغر في جسمه لله، وجسمه لدين الإسلام ويريد اعلاء كلمة الله ويحرص على مرضاة ربه، فلا شك في أنه يريد أن تقع ممارساته هذه في أقواله وأفعاله على هدى كتاب الله وسنة رسوله (ص)، وفهم علماء السلف الثقات الأثبات (٢٠) وذلك بعض ما يقع على عاتق قيادات الجماعة انطلاقاً مما ورد في السبب التاسع أنفاً.

١١. أن تغيير الاجتهاد والفتوى مما طرأ على النفس الإنساني ومما يقتضيه تغير الزمان والمكان، وليس لأحد العصمة إلا الرسول (ص)، وكل إنسان من تم يؤخذ منه ويرد سواء، والحق أحق أن يتبع، وأئمة السلف وعلماؤه قد غيروا اجتهاداتهم وفتاواهم، والمجتهد له ان يغير فتواه إذا رأى المصلحة في ذلك، وعنده أن يغلب وجوه الأمور ويدرس خياراته ويحسبها حسبة يعد أن يكون قد خلصت للشرعية والاختيار، والفقه في الدين تبغي على المصلحة الشرعية أو العرف قد تتغير حيث لا قدسية لها. وعندما ولي عمر بن الخطاب (رض) أبا موسى الأشعري الفقه - نصحه بالتعسير في القضاء الذي يقتضيه ان وجد الخير والمصلحة في غيره (٢١).

١٢. أن التاريخ الإسلامي وحيرة المسلمين عامة فيهما من الوقائع التي تؤكد عدم جدوى الخروج لرفع الظلم أو مواجهة الحكام، إذا ترتيب عليها مفاسد كثيرة، ومن الواجب الاعتبار و الاتعاظ بهذه الوقائع وهو ما يتسير مع مبادرة وقف العنف، خاصة وأن هذا الوجب قد قصرت فيه الجماعة وقياداتها - باعترافهم - لأسباب منها عدم الانفتاح على الحركات الإسلامية الأخرى، والانشغال بالعمل الموسي الدائب الذي حرمها من الراحة الذهنية للتفكير الهادئ تحت ضغط المطاردات العنيفة التي تعرضت لها (٢٢).

تلك كانت بعض الأسباب التي دفعت بها القيادات التاريخية للجماعة الإسلامية. وهي تودع تصرض لتصحيح ما زكى خروجها إلى وقف العنف والدعوة إلى مراجعة ما انطوى عليه ممارسته وبالسلفه من أسس تكريبة وشرعية متعددة، وقد تم عرض هذه الأسباب من واقع ما جاء في تلك النصوص، بعيداً عن تأويلات الآخرين لها واجتهاداتهم في تعدادها(٢٣).

وفي هذا السياق يمكن إيراد بعض الملاحظات على ما ذكرته الجماعة من أسباب:

الملاحظة الأولى: أن الأمر في المبادرة بوقف العنف وإيقافه مؤكد أنها لم تأت صحوة. وإنما سبقتها إرهاصات كثيرة بعضها في الثمانينات ومعظمها في التسعينيات من القرن الماضي، ورغم أن بعضها لم يكتب له التوفيق، إلا أن الجماعة ظلت على إدانتها في متابعة المبادرة بإيقاف العنف حاسة على المستوى القيادي ممثلاً في مفتيشها وشيخها د. عمر عبد الرحمن، أو مجلس شورى الجماعة، ويبدو أن الدعوة التي وجهها أمير الجماعة د. عمر عبد الرحمن إلى قيادات الحركة الإسلامية عامة بتغيير وسائل الدعوة إلى الله، وندائه يجعل ذلك منطلقاً جديداً في الحركة نحو هذا الهدف كان الأساس الذي انطلقت منه الجماعة لمتابعة ما بادئ به و لمرابطته على تحسسه، والانطلاق منه بعد ذلك لتصحيح ومراجعة بعض المفاهيم التي رأتها الجماعة وثيقة الصلة بوقف العنف وحركته، بشكل أو باخر.

ولكن يبقى السؤال: لماذا ظهرت الحركة نحو إيقاف العنف، وكأنها مادت وفي سياسة الخطوة

Abu Nour www.alkottob.com

حظوظ، هل هو من قبيل التدبر للحركة والتخطيط لها؟ أم هو التحسب لردود أفعالها وفق ما يسمح باستعمالها مرتجلا. وسعيه ذلك كلنا؟ أم أن مبادرة إيقاف العنف لم تكن قد تبلورت بعد ولزم أن تأتي عبر محاولات أولية متتابعة؟ أم لتستهل في إستدعاء لمخارج فكرية كالتي أنتجتها الجماعة مع سلسلة التصحيح الرباعية؟

والملاحظة الثانية: وانطلاقا من الملاحظة السابقة، يبدو من فهم السياق الزمني للمراحل التي مرت بها محاولات إيقاف العمليات العسكرية والقتالية عموما من قبل الجماعة أنها تركزت بحصة تكاد تكون أساسية في النصف الثاني من التسعينيات. ولا نعرف لماذا تأخر الإعلان عنها والمجاهرة بها من قبل قيادات الجماعة بعد فترة طويلة نسبيا من تكوّن تيار السجن. منذ اعتقال الرئيس الراحل أنور السادات في بداية الثمانينيات؟ إن أحد من هذه القيادات لم يجب على هذا السؤال، بل إن أي من كتب سلسلة التصحيح لم يتطرق إلى هذه المسألة إلا لماما دون تفصيل، رغم أهمية كشف غير الظاهر من محاولات إيقاف العنف. ذلك أن تأخر المبادرة بهذا الإيقاف إلى حيث قرب انقضاء عقوبة السجن التي حكم بها على الكثيرين من أفراد الجماعة وقياداتها بعد من المداخل المهمة التي تحجج بها البعض للزعم بوجود صفقة بين الحكومة المصرية وبين الجماعة قبل المهم بالافراج عمن انقضت عقوبتهم من أعضائها هذا إن حدث الافراج أصلا.

فهل تأخرت المبادرة نسبيا لأن النضج الفكري والفقهي لقيادات الجماعة قد استوى على سوقه خلال سنوات السجن؟ أم لأن الجماعة أرادت إثبات حسن نواياها وإحداث نوع من المصالحة مع المجتمع والسلطة والجماهير في مصر قبل الخروج من السجن. ومن ثم قبل البحث عن الاعتراف بشرعية الوجود؟ أم لأن الجماعة أدركت بعد طول تأمل وتفكير ورويه - أتاحتهما بلا شك فترة السجن - أن عدوها الحقيقي ليس الشعب المصري محكوما وحكومة؟ أم لأن فترة السجن - بطولها النسبي - نقلت الكثير من أعضاء الجماعة وقياداتها من ثورة الشباب وحميته واندفاعه ونهوره أحيانا التي حيث الحكمة والرشد ووزن الأمور. كذلك الذي عبرت عنه قيادات الجماعة وهي تواجه نفسها على عدم العجلة والاعتبار بوقائع التاريخ لاستفادة ذلك إذا. الملاحظة المستمرة والمطاردة حيث لا فرصة للتروي و التفكير برشد؟ أم أن الأمر أخيرا يرجع إلى العون الذي وجدته هذه القيادات داخل السجون. والمعاضة التي ساعدتهم على الاطلاع الفقهي الشرعي ووفرت لهم بيئة مناسبة للتصحيح والمراجعة؟

الملاحظة الثالثة: إن معاني النظر في الأسباب التي دفعت بها الجماعة لإيقاف العنف تؤكد أنها بادرت بذلك من تلقاء نفسها، إبتداء ليست استجابة لنداء أميركا للسجين في الولايات المتحدة الأمريكية، وما استكمالا لهذا النداء، وأن مسلكها هذا لم تمله أية اعتبارات خارجية بالاستمالة أو التضغط أو الصفقة أو أية وسائل أخرى. اللهم إلا الاكراه المعنوي المتمثل في ضرورة نقل المعركة إلى حيث أعداء مصر: مصر الدين والوطن والبشر. وهو إكراه استوجبته ضرورات شرعية وعقلانية وواقعية. ولم يكن مقابله - كما سبق وأن أكدت الجماعة - إعطاء الدنية في الدين أو عقد أية صفقات دنيوية رخيصة.

لكن ملاحظ في هذا السياق أن قيادات الجماعة صرحت أن مبادرتها وعائلة الآخرين مواقفهم عبثيا سيقتضها جهود في ذلك لم يقدر لها التوفيق، وهو ما فتح الباب لتساؤلات كثيرة عن أسباب الاخفاق، و لمسؤول عنه وتوجيهه وآثاره، وهل كان ثمة وسيط لنداوك الخطر وإيقاف العنف بين طرفي الصراع، كما أشاع البعض؟ بل هل كان ثمة وسيط في الحفاظ على عمق الهوة بين مواقف الطرفين؟ إن دراسة علمية لم تتصد للإجابة على هذه الأسئلة. قد تكون هذه محاولات لتعميم البحث في أسباب فشل محاولات الإصلاح قبل مبادرة الجماعة، وقد يحتجج البعض بأن الكشف عن هذه المحاولات مما يوقع في الحرج لأحد الطرفين أو لكليهما، لكن - وبنطلق الجماعة ذاتها - هل عمست المصالح المفاسد

Abu Nour www.alkottob.com

من جراء التعتيم وإخفاء المعلومات حول ما حدث قبل المبادرة، أو بعبارة أدق على كبت مصالح مصر ومصالح الدين ومصالح الجماعة قبل إنهيار تمسكوت عنها جرى؟ وإذا كانت الجماعة قد سكتت عن الخوض في أسباب إفشال محاولاتها تلك، فهل يأتي اليوم الذي يكشف فيه النقاب عن وجه الحقيقة؟!

الملاحظة الرابعة: أن خير الجماعة يفكر التصحيح والمراجعة ربما جاء متأخرا بعض الشيء عن مبادرة «وقف العنف»، وهو معني ان حركة الإيقاف كانت تهدأ الأوضاع الى حد كبير على نكر الاطلاق، الى أن بعد بكثير بعد امتناع الجماعة عن ممارسة العنف ومساندة فصائل الحركة الاسلامية في مصر أن تخلو جذورها، وكأن الجماعة أتت الآن لتحصد تكاملا في شرعية المسألة بين حركتها، وفكرها، وأن تقطع السبيل أمام أية تداولات تتشكك في ظهورها بشكل عشوائي أو بشكل صريح، بل على أسس عقلانية مدروسة ومخطط لها.

لكن لماذا سبقت الحركة الفكر على النحو السابق؟ إن الأمر يمكن أن نختلف فيه الاحتمالات ونتعدد، من قبيل أن قيادات الجماعة رأت أن تستحسب صيغة لبدء أمرها، وتطاعته واجبه دون إبطاء، لتتفكير فيها ربما رأت أن حرق العنف ونيرانه التي أتت على كثير من الأخضر واليابس في مصر لا تحتمل أية سرعة للمبادرة بإطفائها دون تردد أو انتظار لمبررات وحجج فكرية وشرعية، أو عرضة للتفكير المتأني، وربما لأن الجماعة رأت أن الخسائر الفادحة التي منيت بها صفوفها وصفوف الحركة الإسلامية عامة، دون تحقيق أهدافها، بارتداد هذه الأهداف إليها تعقدت واعتقالا وسابقة وعنفا مضادا، أوفي بالسعي إلى إيقافه، اي الخسائر من أي نمي آخر فكري او نظري، وربما لأن الجماعة أخيرا - رأت أن اختيار حبس نواياها في المصلحة والسلامة يحتاج فعل سلوس ممثلا في المبادرة يوقف العنف، وأن المفسرين الذين اكتنوها بعنف بعض اعضائها ليسوا في حاجة منها الى فلسفات وأفكار ونظرات تنهي ممارساتها، بقدر ما هم في حاجة إلى واقع مسالم يرافض للعنف على وجه عنه.

الملاحظة الخامسة: اذا كانت الأسباب السابقة قد فتنفسها - في نظر الجماعة الاسلامية - اعتبارات الموازنة بين المصالح والمفاسد، على ما هو مفصله في كتب التصحيح والمراجعة وكما كتبوها، فالذي لا شك فيه أن النظر موضوعي لفقه التوازن هذا بين مصالح ومفاسد، مرهق أن من الافراط القول بأن ما أعلى عنه الجماعة بتفصيل حتاري المراجعة والتصحيح، وإيقاف العنف، هو فقط حسب الدين او انتوا هيها الشرعي، ويؤكد في الوقت ذاته انه من الشريط القول بأن ما فرض عليها خسائر كان بعيدا تماما عن اية اعتبارات واقعية (برجماتية) متعلقة بوجود الجماعة ومستقبلها، بتطور الحياة في مصر، وبافاق الحركة الإسلامية داخلها وخارجها. فالأمر لا يقبل إفراطا في المثالية أو تفريطا في الواقعية على التحوين المطلقتين السالفين، اذا ما استحضرت جملة الأسباب التي نملت انها من لعه قده الجماعة في تها فتصحيح أنهم ربطوا الأسباب بفقه المصالح والمفاسد وقواعده، وتصحيح كذلك انهم دعوا حوتهيهم على مرضاة الله والنزول عند أوامره وسنة رسوله في التغيير والتصحيح، ولكن التصحيح كذلك انهم انحازوا إلى المسألة فحسابر كثيرة مادية ومعنوية الحقت بهم، وبالشعب المصري، وبشباب الحركة الإسلامية، ولأن ذلك قطع السبيل أمام المزيد من الحركة المفاسدة لأبعاد، الدين والوطن.

الملاحظة السادسة: أن فكر التصحيح والمراجعة خلا من اشارة أو إشارة خاطفة لتناول في الصراع أو النزاع معهما سواء من جهاز الشرطة، أو قوى الأمن، او غيرهم من الأجهزة التوسيعة في مصر، وكأنها أرادت أن تقدم مبادرتها بقرار إيقاف العنف في ذلك صناعة واتخاذا وتنفيذا، صفرة وسن واستغلال، أو أنها أرادت من ناحية أخرى أن ترفع الحرج عن أي من هذه الأجهزة، حتى لا يدعو وكأنها قد أدخلت في مساومة مع الجماعة أو وضعت لشروطها ومطالبها، أو أنها أرادت من ناحية ثالثة أن لا تدع أمام

Abu Nour www.alkottob.com

أي جهاز رسمي سوى خيار مقابلة إحسانها بإحسان مماثل. أو لأنها من ناحية رابعة كانت مقتنعة بأن محمل تطورات الواقع المصري وخبرته معها لن يبقى لها إلا المبادرة بالمسألة، دون أي مقابل حكومي، وبتمهيد مغاير لما كانت عليه قبل سجنها. أو لأنها من ناحية أخيرة رأت أن عليها أن تدفع بالتي هي أحسن، بأن تخرج إلى السلم عبر مدينة بسلك الطرف الثاني، عسى أن يكون ثمة ما يحفظ ذرها في خضم الدعوة من زراء ذلك، كما صرحت قاداتها، وهي تمثل خمرة مصلح أخلاقية. عندما احتج بعض الضحايا عليه، كما ورد تفصيله في السبب الثامن.

الملاحظة الأخيرة: أن فكر التصحيح والمراجعة لم يستبعد فكرة وجود عدة مشروعات بها، كما لم تعد هذا الفكر قبل التصحيح وإيقاف العنف، وإن كانت بعد التصحيح قد استبدلت فكرة العدو المعنوي ممثلا في التخلف والفقر، والعدو الخارجي ممثلا في إسرائيل والغرب والولايات المتحدة الأمريكية، والفريق من العلمانيين، بعدوها الداخلي في مصر، وهو ما سنرد تفصيله لاحقا، ولكنه يشير التمازل عن مدي محورية فكرة العدو في تراث الجماعة الفكري والحركي والتنظيمي، بمدي قابليتها لتغير وجهتها، وبمدي قابليتها لتغيير بتغيير الوجهة.

ثانيا: حول ملامح المنهاجية في فكر التصحيح والمراجعة:

من هي من يقرأ نصوص فكر التصحيح والمراجعة الأربعة أن تسأل: من أين يبدأ قيادات الجماعة الإسلامية حديثها عن هذا الفكر؟ والى أين انتهت؟ وما طريقة تناول ما تناولوه بين البدء وبين الانتهاء؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة تعد مقدمة لازمة لإجابة على تساؤلات فرعية ليست الإجابة عليها بأقل أهمية. وسأتي في مقدمة تلك الأسئلة: هل حكم فكر هذه القيادات خط منهاجي ومنح وحدة في نصوصهم الأربعة؟ وما هي ملامحه؟ وما ولوجيته؟ وما مدي منسوبته لما اعتمدوا بتصحيحه ومراجعته؟ أم أن الأمر لا يعدو – ولم يرق إلى مثل هذا الخط، وأنه لا يعدو أن يكون محاولة فردية اجتهادية لم تكتمل عناصره في رؤية منهاجية حازمة ومحددة؟.

ولعل أحدا يبادر قبل الإجابة على الأسئلة السابقة، فيقول: ما قيمة أن نتحدث عن المنهج والمناهج أصلا؟ بل ما قيمة أن نبحث عن منهج في فكر التصحيح والمراجعة، كما ورد في مصنفات الجماعة الإسلامية الأربعة؟ واقع الأمر أن قيمة الحديث عن المنهج واللامنهج تكمن في ما يؤدي إليه وجود المنهج من وضوح التحليل وموضوعيته وعلميته ووجود الأدلة وتحقيق تتكامل بينها حال بعددها، ورفع تناقضاتها أن وجدت، وترتيب الأفكار، وعرض وجوه القضايا فيها بطريقة محددة تتوافق معها وليست مفروضة عليها، ودقة الربط بين المقدمات والنتائج، والإجابة المناسبة على الأسئلة المثارة استنباطيا أو تجريبيا، أو من خلالهما معا. أو بواسطة أدوات منهاجية أخرى تستدعيها وتفعل توظيفيها. كما يأتي أهمية البحث عن منهج في فكر التصحيح والمراجعة بالنظر إلى أن الجماعة الإسلامية من خلال كتبها الأربعة أحوج ما تكون إلى إيجاد القبول لأفكارها وعدد التشكيك في صدق سرائرها ونصوصاتها. وكسب الاقتناع بالحجج والبراهين والأدلة التي أسست عليها هذه وتلك، تسهيل اكتشاف الفارق بين ما كانت عليه وبين ما طورته وجددت فيه من آراء وأفكار. واثبات أن مراتها في ظلمات السجون ولدت لديها الإحساس بفجوة الخطاب العام والمتوارث، خاصة أنها تعلم مدي سوء جراحها في جسد مجتمع المصري، ومدي تربص المتربصين بها فيه، وصعوبة إقناعهم بلغة طال تقوضها واستهجانها منطقها من قبل، سواء في الخطاب أم في الحركة[٢٤].

وبالإضافة إلى ذلك نشير هنا إلى ثلاث ملاحظات أولية، الملاحظة الأولى: أن أي من الكتب

Abu Nour www.alkottob.com

الأربعة لجماعته لم يتحدث عن منهج واضح لقناعاته في مرحلتها للمفاهيم التي أوردوها في هذه الكتب، وهو ما يوجب القول بأن الملامح التالية لمنهجيته تم استنباطها بعد قراءة مضامينه في سطوره. أما الملاحظة الثانية: فإن ما ورد في بعض صفحات هذه الكتب من أن الجماعة قد استندت فيما عرضته إلى منهج أهل السنة والجماعة والسلف الصالح لا يكفي في هذا الصدد دليلاً على وجود منهج مفصل للملامح، حديد واحد لم نرد تفاصيل مباشرة لحقيقة هذا المنهج ومقوماته مجتمعة في أي موضع من تلك الصفحات. والملاحظة الثالثة: أننا يجب أن لا نتعامل مع كل ما سبق ذكره على أنه فكر صدر عن جماعته بحثية بالمعنى الدقيق حتى نحاسبها على مدى التزامها بعلمية المنهج وفق شروطها الضابطة. وإن لا نتعامل أيضاً مع نصوص منجردة عن سياقاتها الزمني والمكاني والشخصي والموضوعي. وإنما الواجب حقيقة أن نتعامل مع جماعة لها ظروفها التاريخية والفكرية، فضلاً عن سجن كثير من أعضائها حاسة قاداتها الكبرى، ذهبت على مقتل بعضهم في المعتقلات العتيقة مع قوى الشرطة والأمن، وهو ما أوجد ظروفاً قذرت فيها العواطف بالحقائق والعقل بالإحساس. وهي ظروف تخوض أنظار إلى قضية المنهج من تخوض التصحيح بشيء من التسمية. من وتوكل ضرورة أن يكون الأكثر ملاءمة لهذه النسبة السعي إلى استنباط ملامح مواجهة عامة لأسلوب ما تمت دراسته فيما

وانطلاقاً مما سبق يمكن بعد قراءة هذه النصوص استنباط أهم ملامح المنهجيه في فكر التصحيح والمراجعة، فيما يلي:

١- استعمال الدليل الشرعي في تأصيل القضايا والمفاهيم والأفكار على ما عداه، مما يعني العودة بدخول هذه الثلاثية إلى القرآن والسنة أولاً إن كان مباشرين في الحديث عن أي منهما، مع اتيان ما يتعلق بهما من مصادر أخرى مكملة أو مبينة عليهما. وقد ظهر ذلك جلياً في مواضع كثيرة من النصوص الأربعة، فما من قضية تنشر أمراً شرعياً إلا واستدعت الجماعة لها "الدليل من القرآن والسنة، بشكل يلغ أحياناً حد الإسهاب، وما من إشارة إلى أية قراءة إلا وتم توثيقها. وما من حديث نبوي تم الرجوع إليه إلا وتم تخريجه من مصادر أصلية لبيان درجة صحته، خاصة من كتابي صحيحي البخاري ومسلم، إلا ما ندر عدم تدوينه، وهو قليل(٢٥).

أما المسائل الفقهية التي تم من خلالها كشف أوجه بعض لأحكام الشرعية - خاصة الاجتهادية فكان الغالب في تأصيل أبعادها العودة إلى المصادر الفقهية على تعدد مذاهبها في فقه أهل السنة والجماعة، دون غيرهم كالشيعة مثلاً - سواء القديم منها أو الحديث المعاصر. فكثيراً ما وردت أسماء أئمة الأئمة: مالك والشافعي والنووي والغزالي والآلوسي وابن عابدين والشهرستاني وابن سعد وابن قدامه والماوردي وأبي يعلى وابن تيمية وغيرهم من القدامى. ونادراً ما تم تأصيل الأمور الفقهية من المصادر الحديثة، ورغم ورود أسماء أمثال الألباني والقرضاوي ومحمد عمارة ومحمود شهران من المحدثين، إلا أن تلك صفحات النصوص الأربعة ضحيحة في إضافة أسماء أخرى إليهم. وقد استهف قيادات الجماعة بعض آرائها ولما لأول مرة تعويلاً على صفحات كثيرة من كتابات الشيخ القرضاوي، خاصة في مسألة الغلو في الدين من وجوهها المتعددة (٢٦). ونلحظ هنا سبق أن فكر التصحيح والمراجعة دعم بعض المسائل الفقهية بإشارات إلى أقوال بعض الصحابة، ورغم اعتراف الجماعة بأن عصرهم لم يخل من بعض ما خرج على مقتضى العدل، إلا أنها حرصت على الدفع بمدى في عدد تخريج الصحابة واعتبارهم خير هذه الأمة وخير قرونها، وأن لم يتم توثيق بعض هذه الأقوال (٢٧).

٢- عدم الاكتفاء كثيراً بتوثيق هو متن صفحات الكتب الأربعة، بما يوحي بأن هذه المسألة لم تكن تحتاج طريقة واحدة أو موحدة، فالمهم إتيان الإحالة الهامشية وكفى. ولذلك وجدنا خلطاً من طرق

Abu Nour www.alkottob.com

توثيق حتى في الصفحة الواحدة، فبعض الهوامش ذكر فيها اسم المؤلف ومصنفه وأجزاء المصنف إن وجدت وصفحاته، وبعضها الثاني اكتفى فيه بذكر المؤلف ومصنفه وجزئه إن وجد، وبعضها الثالث ذكر في الهامش اسم المؤلف فقط، وبعضها الرابع ورد اسم المصنف فقط، وبعضها الخامس لم يثبت فيه توثيق أصلاً في الهوامش. أكثر من ذلك فقد ورد أحياناً في متن بعض الصفحات ذكر للمؤلف دون أية إحالة هامشية، وورد في أخريات ذكر لمصنف دون إيه إحالة بعض، لا إلى المؤلف ولا إلى الأجزاء والصفحات. بل إن شاهداً أساسياً على ضعف الاهتمام بمسألة التوثيق عموماً أن أياً من النصوص الأربعة لم يرد فاتحة ما تم الرجوع إليه من مصادر ومراجع. إلا النص الرابع. وإن كان توثيقه قد سار على نهج التوثيق عامة في إسقاط سنة النشر وتاريخه، وربما كان هو النص الوحيد الذي أثبت دون غيره من النصوص مكان النشر في بعض المصادر والمراجع في آخر صفحاته.

وبصرف النظر عن أسباب عدم توحيد طريقة التوثيق على نحو مألوف. إلا أنها قد توقع في الحيرة والدهشة والارتياب وعدم الثقة في متابعة ما تم توثيقه. إن ظهرت الحاجة إلى مزيد من التفاصيل حول بعضه، سواء لاختبار أمانة نقل الجماعة من هذه النصوص، أو للرغبة في الاطلاع على مواد معرفية أو معلوماتية عن بعض المسائل التي أشير إليها بإيجاز. كذلك فإن الخلل في التوثيق قد يضعف حجية بعض ما تم الرجوع إليه ومن ثم معصداقيته، ناهيك عما قد يمكن أن يوجد فيه البعض مدخلاً للحكم على قيادات الجماعة بعدم الجدية وعدم الاهتمام بالوصول لبحث وتقرير الذي لم تغب عن كثير من العلماء. الذين نقدت عملهم هذه القيادات بعض الآراء والاجتهادات.

٣. الاستشهاد بالوقائع التاريخية في تأصيل وتوثيق بعض الأمثلة والمسائل ذات الامتداد التاريخي في الخبرة الإسلامية أو المصرية، مثل تتبع تاريخ فكرة التكفير في مصر (٢٨)، والعودة به إلى الخوارج في عصر الخليفة علي بن أبي طالب (رض) (٢٩)، وصور مواقف أهل الكتاب (٣٠)، ونماذج من صور الخروج على الحكام في تطورات الخبرة الإسلامية (٣١)، وصور الصلح ونماذجه بين المسلمين (٣٢)، ونماذج لاحتساب رئيسه في الخبرة المصرية المعاصرة (٣٣). والعرض لمواقف التي صرحت به قيادات الجماعة من استدعاء التاريخ أنه رغم أن هذه المنتجات تتناول زمناً غير زماننا، وظروف غير ظروفنا، ووقائع قد تختلف في بعض جزئياتها، أو تتفق في أخرى مع جزئيات واقعنا، ولكن هذه الوقائع تحمل لنا أعظم الدروس وأسمى العبر، فالعبرة مستخلصة والفائدة جملة والحكمة باهرة في هذا التاريخ العظيم. «هل هناك أفضل من تاريخنا يكي نأخذ منه العبرة؟ إنها حكمة لسنين تأتنا سهلة سلسة في عدة صفحات، إنه عطاء التاريخ الإسلامي لكل جيل بعد هذا الجيل العظيم» (٣٤).

وثمة أمور يجب ملاحظتها في توظيف فكر الجماعة للتاريخ. أحدها أن الجماعة رغم إعلانها بأن العيش مع درس التاريخ كله وليس الإسلامي فحسب يفضل العصر ويزدد الحيرة لما فيه من عظات وعبر (٣٥)، إلا أن معظم ما استقى من أدلة تاريخية في استشهاداتها - إن لم يكن كله - حاد من تاريخ المسلمين. ولعل عبارة «هل هناك أفضل من تاريخنا» تؤكد ذلك وتكشف في الوقت ذاته عن سبب الاعتماد على هذا التاريخ دون غيره. والأمر الثاني أن الجماعة على لسان قياداتها - في نصوص التصحيح - امتنكت شجاعة الاعتراف بالتقصير في العمل بفكرة الاعتبار بخبرات من سبقها (٣٦)، ولكنها أرجعت ذلك إلى أسباب سبق ذكرها، مثل عدم الانفتاح على الآخرين في الحركة الإسلامية، والانشغال بالعمل اليومي الذي يحرم القائمين على العمل للإسلام من الراحة الذهنية للتفكير المتأني، والانشغال بالمواجهات التي كانت مستمرة بدرجات متفاوتة مع قوات الشرعية (٣٧). والأمر الثالث أن هذا النهج في العودة إلى التاريخ هو أحد ركائز المنهج الاستقرائي الذي يعول عليه في دراسات الفكر الإنساني، وله امتداداته قبل فكر الجماعة في الفكر الإسلامي، خاصة مع ابن خلدون (٣٨). والأمر

Abu Nour www.alkottob.com

الرابع و لاخير أنه لا يمكن للاذعاء أن تعمد إلى توثيق التحليل والشواهد بعض ما جاء في التاريخ الإسلامي في فكر الجماعة يرقى إلى مساعة نماذج تاريخية كتلك التي تستخدم في بعض دراسات التنظير السياسي بصفة عامة والتنظير السياسي الإسلامي بصفة خاصة، لافتقاده الكثير من شروط تأسيس هذه النماذج(٣٩).

٤. الانطلاق من نهج أهل السنة و الجماعة والسلف الصالح، وأن الأصل في الحكم على أن نهج أمر هو مخالف للشرع مبني على مخالفته لهذا النهج. وقد سبق القول في مقدمة الحديث عن ملامح المنهج في فكر الجماعة أنه لا تفاصيل مباشرة حول نهج أهل السنة و الجماعة والسلف الصالح، فضلاً عن تجسيدها في سياق واحد، وهو ما دعاني إلى تتبع ما جاء في النصوص الأربعة للبنا بعض هذه التفاصيل وتجسيدها كملامح لهذا النهج. وهنا كان للقراءة غير المباشرة دورها في أن نعدد من تلك الملامح الموضوعية التي لا غلو فيها(٤٠)، والالتزام بالقواعد الكلية في العلاقة بين المصالح والمفاسد(٤١)، واتباع الدعوة إلى الله على العلم والعقل والشرع والرفق(٤٢)، وعدم تكفير أحد إلا بدليل ثابت، وعدم جواز الحكم بارتداد الأمة(٤٣)، أن أي حكم أو قرار شرعي لابد أن يرتكز على الواقع ومعطياته والدليل الشرعي المتضمن في الكتاب والسنة أو غيرهما من مصادر التشريع المعتبرة(٤٤)، وعرض أي عمل على نهج صادقة وأصل منضبط من كلام الله وسنة رسوله، فمن كانا متوافقين فالمقدم وإن كان ثمة قصور في أي منهما فينبغي أن يتوقف حتى يصح ذلك. والأمر مراب لتعمل وبركته والفائدة المرجوة منه(٤٥).

وهكذا تبدو الجماعة الإسلامية و التي اعتلت أن تهجها في الفكر والحركة ينهض على نهج أهل السنة والجماعة والسلف الصالح، تخاطب الآخرين بأن يحاسبوها على قدر اقترابها أو ابتعادها عن هذا النهج بالحجة والبرهان، وأنها تدفع، من ناحية أخرى، بمقدمة بأن النهج الذي تطلقت منه هو الذي ترض عنها الاعتماد في نصوصها الفكرية الأربعة على مصادر علماء أهل السنة و الجماعة، وأنه من الناحية الأخيرة يجب أن يفهم استبعادها لمصادر أخرى إسلامية أخرى من هذه الزاوية بمعرفية والمنهاجية، ليس لتحيز منها أو لرفضها، وإنما لمخالفتها لهذا النهج.

٥. الميل إلى أسلوب الحوار في الإقناع بالأفكار، حيث يجد من يتأمل نصوص فكر المراجعة في بعض صفحاتها منزع لدى قيادات الجماعة الإسلامية إلى تبادل حوارات بعضها - إن لم يكن معظمها - مفتعل أو مصنوع ومفترض مع أطراف أخرى، خاصة من المختلفين معهم أو الذين افترضوا اختلافهم أو رفضهم لفكر المراجعة من بعض فصائل الحركة الإسلامية. وهذا يعني أن الطرف الثاني من الحوار (المحاور) غير موجود من الناحية الواقعية لأنه لم يدخل في حوار أصلاً مع الجماعة، وإنما هو مستدعى أو متوهم، ومن ثم متخيل أو متوهم أن يدفع بآراء وأفكار في الحوار يرد بها (المحاور) وهو هنا قيادات الجماعة. وكان الجماعة تتوقع أن يكون لفكرها مردود عند الآخرين غير متفق مع ما جاءت به في نصوصه، وأنها لا تريد لهذا الاختلاف أن يستمر، وأن الوسيلة الأنسب لذلك هي تبادل الحوار الذي هو في الوقت ذاته تبادل للاقناع والاقتناع.

ولذلك جاء أسلوب الحوار في الأغلب الأعم ليزيل شبهات أرادت الجماعة أن لا يقع فيها المتوهم محاورته، أو لدفع بعض الاتهامات، أو لتعديل أي تعبير مواقف تراها الجماعة غير سليمة أو لا موقع لها من الأحكام الشرعية لتحقيق المصالح و لمفاسد، أو لنفي الصورة التي صنفات مع أية جهات حكومية مصرية، أو لبيان وجوه الخطأ في الاستدلال أو الخطأ في ممارسة بعض الأعمال لعدم شرعيتها.

ولعل من أبرز شواهد الحوار في نصوص فكر المراجعة تلك الحوارات التي أدارت أحيانا في شكل

Abu Nour www.alkottob.com

أسئلة وإبداء الإجابات عليها، بالأسلوب الإنساني وأحيانا أخرى بالأسلوب الخبري، حول شريعة التعامل بفقه المصالح والمفاسد مع الحكم غير الاسلامي(٤٦). وصيرات المراجعة والتصحيح(٤٧). وعرض أسباب توجيه النصح إلى شباب الحركة الاسلامية في تغيير معاملاتهم وسياساتهم تجاه المجتمع المصري ونبذ إلى جهاز الأمن المصري(٤٨). ودواعي الحديث عن تقنيط الغلو في الدين(٤٩). وقضية تكفير موظفي الحكومة(٥٠). وتقد أو تقويم أسباب المصالحة مع الشعب المصري وحكومته(٥١). ومدى ضرورة الغاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالبد(٥٢) وإزالة تشبهات حول ضوابط الجماعة لمناسبة خمسة وما بقي منها بعد هذا الضوابط وإمكان التشكيك في مقاصد الجماعة منها(٥٣).

٦. يسار الحكيم والرفق والموعظة في تبادل الحجة وتقبلها مع المختلفين من فصائل الحركة الاسلامية. وذلك بشكل امتدادا على نحو اخر لأسلوب الحوار السابق الحديث عنه. لكن هذا الملمح يبدو لمرحلة الأولى وكأنه التزام يمسيق فرض نفسه على لغة الحديث و خوار مع من رأنهم الجماعة اخرة الحركة الإسلامية. ويستم التعرض لحقيقة هؤلاء، باعتبارهم أحد فصائل الاخر غير العدو للجماعة لاحقا. ولكن ما يهمنا في هذا المقام هو التوكيد على أن نصوص الكتب الأربعة أبرت اتباع أسلوب اللين والعقلانية في دعوة أخرة لجماعة إلى تغيير مواقفهم أو بعض أفكارهم وآرائهم. أو لإعادة النظر فيها على نحو معطيات لواقع العصي في مصر وخارجها، وحقيقة وزن الحركة الاسلامية عموم وتحدياتها في كلا الواقعين. ولأجل ذلك خلا أسلوب تبادل الحجة ونصيحتها مع من خالفهم فكر الجماعة من الفصائل الأخرى من التعنيف، والتجريح، والشماتة، والتكفير، والعداء المباشر وغير المباشر، إمساندة الخصوم، أو إظهار التحالف معهم أو استعدائهم على اعتناء هذه الفصائل أو المخاصمة معهم.

ولقد تعددت أشكال هذا الأسلوب، مثل لفت النظر إلى ان الأفضل في مقاومة الظلم والاستبداد التصبر عليهما، بلا داعي للخروج دفعا لمفاسد أكبر، كانتشار كثيرة تحريق بخارجين أكثر من ضررهما(٥٤)، و نصح بالكف عن بدعة التكفير باعتبارها مفسدة كبيرة أحدثت أمة الإسلام(٥٥)، والمشاهدة بالجهر بالدعوة إلى الله بعيدا عن التشدد، والتخلي بخلال "رسول الرحمة" أمته والرفق بأبنائها(٥٦). و تبصير في الدعوة: خبر الوعي(٥٧)، وتقديد النصح للجماعة في اجتهاداتها حول جدوى الخروج والتغيير بالبد والنظر فيها لتبادل الحوار حولها(٥٨)، و أن مسلمي مصر هم المتضررون من العنف وذلك لصالح أعدائها وأعداء الإسلام(٥٩).

٧. الاستدامة في عرض وتحليل ما تمت مراجعته وذلك امتدادا لأسلوب التعامل بمنطق العدل في بحث المذهب والظواهر والقضايا والوقائع نفسانية والاجتماعية في أي من نظرياتها. الأمر الذي أدى بدوره إلى اللجوء إلى اختيار عينة من المصادر والأطر المرجعية التي تخدم هذا التحليل. ولقد اتجهت قيادات الجماعة الاسلامية "تي اللجو إلى أسلوب الانتقاء. أو إن صحت الدقة، فقد عرض عليها ما راجعته وما تفرع منه وتشعب أن تلجأ إلى ذلك. وظهر ذلك واضحا في انتقائها لمصادر بعينها للاحكام الشرعية وانتقائها لوجهات النظر التي تؤيد أفكارها وآرائها واستبعدت لمصادر ذات وجهات نظر المختلفة في فقه الخروج والحسبة والقتال والعلاقة مع غير المسلمين والتكفير والصلح بل أحرة من مذاهب وقضايا تعددت وجهات النظر فيها، واختلفت مذاهب الفقه حولها. ورغم ذلك بدا أن هناك إصرارا على استبعاد ما لم يتفق مع فكر الجماعة حتى من مصادر أهل السنة والجماعة. ولعل ذلك بعض ما يفتح باب مواخذة هذا الفكر على تحيزه، مهما كانت مبررات التحيز وظروف اصحابه السابق الاشارة إلى بعضها.

٨. التكرار والاستطراد في بعض صفحات نصوص فكر المراجعة. خاصة في الحديث عن الأمور الاكثر اتصالا بعلم اصول الفقه والأكثر تعلقا بالآراء الفقهية و لأكثر ارتباطا بفقه الواقع الناس الاجتماعي

Abu Nour www.alkottob.com

واستعداده التاريخي. وقد يبدو أن لذلك مبرراته في تعميق إقناع الآخرين بما أرادته قيادات الجماعة أو توكيد الآراء والأفكار بعرضها مرارا، لايجاد القبول والموافقة عليه أو اتاحة الفرصة لمن لم يفهم محتوى النص من أول مرة خاصة اذ انطوى على مسائل تحتاج المزيد من إعمال العقل بالتفكير لاصل مسائل أصول الفقه)، أو توكيد الرغبة في استبعاد ما ليس في النص وإسقاطه من الاعتبار واستبعاده، لكن آفة التكرار والاستفزاز أنه يفتح الباب للدخول في تفصيلات قد لا يكون لها طائل أو فائدة منه أو لا علاقة لها أصلا بالموضوع مناط الدراسة والحديث. كحديث فكر الجماعة عن موقع القتال والخروج مع أن سياق الموضوع كان يتحدث عن وقف العنف (٦٠)، وتكرار الكلام عن التكفير في الكتابين الأول والثاني(٦١)، والاسترسال في الوقائع التاريخية عن آثار الخروج(٦٢)، والوقائع التاريخية عن وقوع الأخطاء وارتكاب الذنوب في الصدر الأول(٦٣)، والاسترسال كذلك في الحديث عن بدعة تكفير جهال المسلمين والرد عليها(٦٤)، وتكرار الحديث عن أسباب المبادرة بوقف العنف، واتهمت عن الأعداء المعاصرين للجماعة (للدين ولمصر)(٦٥).

ولكن نظل هناك دواعي ومبررات مهمة للتكرار والاستطراد داخل تلك النصوص وهي أن هناك جملة من المسائل وردت في نصوص فكر التصحيح بحسب وصفها فقط بأنها أصولية (أي ترجع إلى أصول الفقه) فقط أو فقهية فقط أو سياسية فقط أو واقعية فقط، واعتبار هذه المسائل قد تستدعي التكرار لوجود تشابك وتداخل فيما بينها، من ناحية أخرى، فإن المفاهيم ذات الخصوصية الإسلامية - في المصدر والتأسيس - تستدعي بعضها البعض، والاستدعاء قد يحتاج تكرارا أحيانا وقد يحتاج استطرادا أحيانا أخرى للتوضيح والإبانة وتدعيم البرهان(٦٦).

٨. تبويب الأفكار وتصنيفها لتسهيل متابعة وفك اشتباك كثير من المسائل - خاصة الفقهية - التي يصعب تناولها والحديث عنها دون ردها إلى فقهها الكلي أو الجزئي، ولذلك وجدنا الخصوص الأربعة قد قسمت إلى أبواب. فالنص الأول قسم إلى ثلاثة، والثاني قسم إلى اثنين، والثالث قسم إلى اثنين أيضا، والرابع قسم إلى اثنى عشر بابا. وباستثناء النصين الثاني والثالث، لا يوجد تقسيم فرعي إلى مدخول في الغالبية، والأول وهلة يبدو من ذلك أنه لم يراع التوازن في مساحات تحليل بين هذه التقسيمات التي حد ت، على سبيل المثال وقع الباب الأول من النص الثالث في حوالي نيف عشرة صفحة، والباب الثاني في أكثر من مائة صفحة. والواضح أن ما شغل فكر التصحيح هو ترك تفريعات المفاهيم التي اختص بها كل نص للتعبير هي التفصيل في عدد الصفحات دون نظر لما يستدعيه كل تفريع منها وبغلائنه بما يستدعيه التفريعات الأخرى. ورغم ذلك ثمة حرص ظاهر في كل النصوص على ايراد حاشية - وإن لم يعبر عنها صراحة في النص الثاني - لخصت من خلالها قيادات الجماعة للقراء ما ورد في النص كله تقريبا، وما راته من رؤى إصلاحية، ومناشدة الاتفاق بشأنها خاصة مع الشباب المسلم المختلف معهم.

ثالثا: مضمون فكر التصحيح والمراجعة في وجهته إلى الأنا:

ما كان لفكر الجماعة الإسلامية أن يستطيع مضمون عن الآخر - مهما بلغ - يستبعد أنا، بنفسها من التصحيح والمراجعة، خاصة وأنها هي التي اتخذت خطوات النقد بكل أبعادها. ذلك أن في رؤيتها لنفسه يعد التصحيح والمراجعة مقدمة ليس لرؤيتها للآخرين فحسب، بل ولمضمون ما تتأسس عليه هذه الرؤية. فماذا في أنا، فكر الجماعة عن الجماعة؛ وما الذي تضع منه عليها؟ وما الذي سلطت عليه الأضواء في بنيتها الفكرية ومبادئ حركتها المستقبلية؟ وما الذي تركته للآخرين كي يعملوا عقولهم في كشفه وتجلوا بأنفسهم - نيابة عنها - تسلط الأضواء عنه؟ وماذا تركته أصلا؟ لم

Abu Nour www.alkottob.com

الذي اخرجته الجماعة من حسابها الفكري وفضلت ان يكون غائبا بحيث لا يكشف عنه النقاب لا بالقراءة المباشرة للنصوص المصحيح الأربعة ولا بالقراءة غير المباشرة، ولا حتى بقراءة سطحية لبعض المسكوت عنها! ولماذا غيبته؟ وهل غيبته حقا؟ ام أن ثمة عوامل - وربما عوامل - أبت عنها إلا أن تؤثر الصمت فلا نتكلم في الذي غيب واستتعد ؟ إن تحليلنا - في محاولة للإجابة على هذه الأسئلة - ينطلق من ثلاث رؤى تفكر التصحيح والمراجعة لأنا الجماعة الأولى هي رؤيته لذاتها الظاهرة للجماعة كما جاءت في نصوص هذا الفكر مباشرة من خلال التنقيب بعض المفاهيم او غير المباشرة المستنطقة في هذه المفاهيم. والثانية هي رؤيته لذاتها المسكوت عنها، أي التي لم يوجد لها خطاب مباشر أو غير مباشر. ولكن إهمال الفكر في تلك النصوص يمكنه - ساقين - أن يكتشف مساحة مرتبطة لهذه الأنا المسكوت عنها. والثالثة هي رؤيته لذاتنا الغدية - غير الحاضرة - في النصوص الأربعة، حيث لا رؤيه أصلا لأن مناط الرؤية غائب أو مغيب.

(١) مضمون فكر التصحيح والمراجعة في وجهته إلى الأنا الظاهرة:

والأنا الظاهرة كشف عنها هذا الفكر كما قلنا انفا من خلال مفاهيم اعتبرها مغلوطة لابد بوادرها أو يختفي جديدها واستقرارها. وقد حصرت الجماعة ما تمكن تسميته تحت خمسة عناوين عريضة، سنتم التوقف أمام كل منها بالحجم الذي تسعه بعض الملاحظات عليها(٦٧):

(أ) ما يتعلق بالمفهوم الأول (الجهاد):

وقد عرضت الجماعة في كتيبها ما يتعلق بمفهوم الجهاد من تصورات ومفاهيم غير صحيحة أو غير مضبوطة أو مغالية و مشوشة، وشملت تلك التصورات:

- تصور الخروج في تغيير بعض الاجتهادات حول الجهاد وغيره من الأمور الاجتهادية، وكأنها بالجماعة قد رادت في النهاية أن ترفع هذا الخروج بالتوكيد على ان التغيير حقيقة شرعية وعقيدة لا عصبانية فيها، ويجد له سندا بل أدلة كثيرة عند فقهاء المسلمين وعصباتهم. وعقيدة فإن الجماعات الإسلامية يسيع لا عنت عليها ولا تضمن أن هي راجعت قليلا أو كثيرا من أقوالها واجتهاداتها السابقة، إذا رأت الحق والمصلحة العامة فيه مداهمت شرعية(٦٨).

- تصور أن الجهاد هدف في حد ذاته وذلك غير صحيح. فرغم أنه من أعظم الاعمال وأيسر الطرق الى رضوان الله وجنته، إلا أنه ليس هدفا في ذاته وإنما هو وسيلة لرفع راية الدين إعلاء، كلمة الله تعالى، فإذا لم يحقق أهدافه وتحقق من ثم غايته كان تنوعا. وإلا كان مع عدم تحقيق الغاية منه غلوا وتشددا مذمومين في الشريعة(٦٩).

- تصور أن اجتهاد إذا أدى إلى إلف النفس في التهلكة لا حرج فيه. وذلك خطأ بل هو محرم شرعا وعقلا، "وللعلماء في ذلك أقوال كثيرة(٧٠)، ومعنى هذا أن الشباب الذين يقدمون على قتل الحكومات الغربية يهلكون أنفسهم دون أي نفع للإسلام والمسلمين، بل هم يسيئون في الكثير من المقاصد والنشر والتضحيل على الدعوة الإسلامية وعلى رجالها. وهذا لاشك في منعه وتحريمه(٧١).

- تصور أن اجتهاد يجوز معه قتل المدنيين. وذلك أيضا غير صحيح، فلذلك وضع الإسلام دستور حرب راعى فيه الحرمات وأمر فيه بالعدل والقسط. وهو ينقض على عشر مواد: عدم جواز قتل النساء و الأطفال والشيوخ، وعدم جواز قتل الأعمى والمقعد والمريض والراهب والعبد والفلاحين والصناع. وحرمة قتل المدنيين الذين ليسوا من المقاتلة، ولا يجوز التمثيل بالقتلى، ولا مهدم منازل المحاربين ولا تحرق محاصيلهم وزروعهم ولا تقتل دوابهم لغير مصلحة. ولا تقتل الرجل ما دام راهبا صحيحا، ولا يجوز

Abu Nour www.alkottob.com

قتل الرسل، ولا لقاتل الكفار والمشركين قتل دعوتهم الى الإسلام، ولا يجوز لقتلي العهد(٧٢).

- تصور شرعية الاقتراض بجواز قتل المستجير. فذلك خطأ رفع فيه بعض الشداد المسلم، لأن حكم الشرع فيهم هو نفسه حكم الشرع في المستأمنين، وذلك تفصيل لاحق.

- تصور جواز الخروج وتوظيف الجهاد عند السلطة القائمة، وذلك ما كشفت عنه شواهد كثيرة - ذكر منها فكر التصحيح حسنة - أكدت جميعها انه ما دامت مولية وجهه القتال شطر القائمين على الحكم إلا ويريقت الدم - المرجحة الظاهرة دون هدف في مواقف ومواقع لم تحسب خيرا وفي حوادث لم تدرس بعناية(٧٣).

- تصور ان في الصلح مداهنة في الدين، وذلك أبعد خطأ، اذ لا ضير في كل الأحوال من القتال، ولا حرج في البحث عن الصلح فهو خير للجميع واشد رشدا، ولابد له من تضحيات. ولذلك كانت الدعوة الى الصلح خطيئا عاما وجهته الجماعة الإسلامية إلى شباب كل الحركات الإسلامية. واذا جاز للصلح وترتب عليه نور إضافته جهود معقودة للمخلص من الاقتتال، فلا يبغي نفسها او التدخل منها نور التخلص من المواقف الضعيفة التي «ظلمها» ولو كان في الصلح بعض الضيم «الظلم»(٧٤).

أما ملاحظاتنا على هذه التصويبات فيمكن إجازها في الآتي:

- أن ثمة خلط واضحا بين الجهاد والقتال في فكر التصحيح نتيجة استخدام المفهومين استرادفين، وذلك تضييق لمفهوم الجهاد الذي يتسع ليشمل كل ما فيه بذل الجهد وتوسع قتالا أو غير قتال، وهو جوهر لوظيفة اساسية من وظائف الدولة في الإسلام. والأمر لا يسمح بتوسع في التفاصيل أكثر من ذلك، فثمة مظانه التي يمكن الرجوع اليها(٧٥).

- أن باب الجهاد لا يجوز أن يلج فيه من لا علم له ولا فقه. إنه كما أورد فكر الجماعة يحتاج الى علم شرعي غزير وعلم بالواقع وفهم سياسي عميق. ولذلك لا يجب الاستسهال فيه بقدر ما لا يجب التفريط فيه، وذلك ما قد لا يتأتى للكثيرين من مدرسيه(٧٦).

- أن فكر الجماعة في مسألة الجهاد، وتصحيح بعض ما يعلق بها صرفي خطه النعم في الدفع بقفه المصالح والمفاسد: لسفر في النهاية أنه طالما أن الإصرار على القتال سواء كان في مصر أو غيرها من البلدان قد جلب الكثير من المفاسد العظيمة على الدين والدنيا لم يحقق أية مصلحة تذكر كان محرما وممنوعا شرعا وعقلا.

إن دستور الفضل في الإسلام باب يدخل منه إلى فقه العلاقات الدولية في الإسلام(٧٧). ولئن جاز حديث فكر الجماعة عن الدستور الإسلامي للقتال في الإسلام - مع تحفظنا بالرفض على كلمة دستور، وتحفظنا بأن يكون ثمة إسلاميا في عنوان كهذا كما أورد فكر التصحيح - فلا يجوز أن يحتزن هذا الدستور في بضع مواد وبعض من مواد أخرى ربما كانت أكثر أهمية. كما هو مفصل في فقه العلاقات الدولية في الإسلام، وفقه نظرية الجهاد(٧٨).

- ثمة صمت عام في فكر الجماعة عما أثير حول الفريضة الغائبة كعنوان للجهاد في الإسلام، والتي ظلما كانت من اصطلاقات المهمة على والعالمة حساب، في مصاومة أسطولة السبب، وأجهزتها، التي سنها بعض فصائل الحركة الإسلامية في مصر. والحديث عن هذا الأمر يحتاج بتفاصيل لا مقام لسردي هنا، ويكفي القول إنه تم تداول كتاب «الفريضة الغائبة» في مطلع عام ١٩٨٠، من تأليف المهندس محمد عبد السلام فرج أحد قيادات الجماعة الإسلامية الذين حكم عليهم بالإعدام في حادث مقتل الرئيس الراحل محمد أنور السادات، وهو كتاب بعرضت افكاره وأدلته لانتقادات كثيرة. لكن الأمر

Abu Nour www.alkottob.com

المؤلف لنظر أن ابن تيمية الذي له التعويل عليه كثيراً في هذا الكتاب – في الحجج والأدلة – هو نفسه ابن تيمية الذي استند عليه فكر التصحيح والمراجعة في تصويب بعض الآراء والعدل عن بعضها الآخر، حتى تلك المتعلقة بمفهوم الجهاد مدار كتاب "الفريضة الغائبة".

(د –) ما يتعلق بالمفهوم الثاني (الغلو في الدين):

أما فيما يتعلق بهذا المفهوم من تصورات ومفاهيم مغلوطة أو مدركات غير صحيحة، فقد توقف فكر التصحيح فيه عند الآتي:

– تصور أن الغلو من الدين وهو ليس كذلك، لأنه شرعاً مجاوزة الحد المطلوب من العبد إلى ما هو أبعد منه فلا يكتفي بطلب الشرع، بل يشعر الغالي بأن ما طلبه الشارع قليل ولا يكفي، فيتعالى ويزيد من عنده اعتقاداً منه أن ذلك محبوب شرعاً. لذلك سندعى الغلو سفاهيم التشدد والتنطع والتطرف (٧٩). ويعني آخر فإن الغلو يتفوق على فهم مغلوط لمبدأ ما أمر به الشرع وحدده ما نهى عنه، مما يطلق عليه تجاوز غير حقيقية تخرج على هذه الحدود توهماً أن الزيادة عليها لصالح الشرع ومنه.

– تصور أن تحريم الغلو لا حكمة فيه مع أن هذا الحكمة عظيمة الشأن (٨٠)، فالغير متطرف لا يحتمله طبيعة البشر العادية، وقصير العمر لأن الإنسان ملول وطاقته محدودة فلا يصبر عليه. ولا يحلو من جور على حقوق أخرى يجب أن تراعى. وواجبات أخرى يجب أن تؤدى.

– تصور إمكان تقبل مظاهر الغلو، مع أنها تنطوي على فاسد الأخلاق وتسلوك. إذ إنها تقود إلى التعصب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر في الأمور الاجتهادية والأمور المحتملة، بما قد يفضي إلى فرض الرأي لا بالقوة الهادية بل بالقوة المعنوية حيث الإرهاب الفكري، ونشر خصومة تناس بما لم يرضه الله به خاصة في مجال التعسير عليهم وإبعادهم في الحرج والمشقة. وإحساسهم على أن كأنها فرائض. كما ينتج عنها الغلظة والخشونة في الأسلوب والفظاظة في الدعوة وتوقع في سوء الظن بالناس، ولا تساعد في تقديم نظرة واقعية لحال المجتمع وكأنه مجتمع ملائكة لا مكان فيه للخطأ والمعصية، وتسفط أحياناً في هاوية التكفير (٨١).

تصور وجود الغلو دون مقدمات، مع أنه يرتكز على أسباب كثيرة، فمن أسبابه ضعف البصيرة في الدين وحقيقته، وهو ناتج عن جهل مركب من أبرز مظاهره الاتجاه الظاهري في فهم النصوص، والانشغال بالمعارف الجانبية عن القضايا الكبرى، والإسراف في التحريم بغير دليل، واتباع المتشابهات وترك المحكمات، وعدم التعلم على أيدي العلماء. أما السبب الذي فعائد إلى ضعف البصيرة بالواقع وأحياناً والتاريخ وسنن الكون. وهذا السبب يساعد كثيراً في عدم قراءة بعض الشباب لمستقبل لظروف مجتمعاتهم وحدود ما تقبله وما لا تقبله من التغيير، وعدم قراءتهم لتجارب أممهم وذاكرتها المستقبل في تاريخها (٨٢).

– تصور أن بديل الغلو هو التقصير، وذلك غير صحيح من ناحية أن الإسلام يقع في دائرة لا تنحاز إلى الغلو ولا إلى التقصير وذلك موقع الوسطية في الجمع بين حرمي الدنيا والآخرة، والجمع بين مراعاة النصوص ومراعاة مقاصد الشريعة، وبين السياسة الشرعية، وبين الإقرار بقيم الدين وخصوصيتها والانفتاح على أفكار الغرب وحضارته، وبين الاستمساك بالدين والسير في ركب تعاليمه، وبين الأمر بالمعروف والنهي عن منكر (٨٣).

وإننا على هذه التصويبات الملاحظات التالية:

أن ما أورده فكر الغلو عن المسائل الواردة في بابه جاءت ملخصة من بعض مؤلفات د. يوسف

Abu Nour www.alkottob.com

القرضاوي، وقد استدلت قيادات الجماعة شجاعة الاعتراف غير المباشر بأنها الأفضل في هذا الباب، بنفس القدر الذي اعلنت فيه صراحة انها لمحصت أبواب العلم الفرعية من مؤلفه الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف" (٨٤).

- انشغل فكر التصحيح بالغلو تعريفا ومظاهر وأسبابا ولم ينشغل به آثارا وتداعيات، رغما اكتشفي بقدره الواقع في هذا السبيل من حمت اثاره في العنف والقتل ما يجعل من المشدد بالتطرف والتكفير، ثم لا حاجة معه إلى تنظير بين آثاره، وقد باتت واضحة جلية للعيان، وقد يكون ذلك لان في مظاهر الغلو وأسبابه ومن قبل تعريفه، تمكن آثاره، وربما يكون احيانا لأن المقصد الذي تحفز منه رائد العلم للدكتور القرضاوي، لم يتوقف أصلا عند آثاره(٨٥).

- كذلك من أين يعالج الغلو؟ هذا أيضا سكت عنه فكر التصحيح مع أن د. يوسف القرضاوي في مؤلفه السالف توقف طويلا عند كيفية علاج المعالجة للغلو"(٨٦). هل اهتم أصحاب هذا الفكر بالغلو تعريفا ومظاهر وأسبابا، وتركوا أمر معالجته والبت فيه لغيرهم، وأثروا فكرهم إلا أن تكون لمعالجة تحصيل حاصل هذه الثلاثية، بمعنى أنه إن تمت معالجة الغلو فيها فقد تمت معالجته بالكلية؟

- إن حديث فكر التصحيح عن التاريخ يكشف عن وعي بقسميه، وعن بعض أسباب لجوء قيادات الجماعة إلى الاستشهاد بالوقائع التاريخية كمنهج منهاجي سبق الحديث عنه، حيث اعتبروا التاريخ مخزن العبر ومعين الأمم، وهو ذاكرة الأمة الحافظة لرعيها ومرآة الزمن التي تتجلى فيها سنن الله سبحانه في الكون وتبشره، وهذا الاعتبار والاحتياط لمن كان له قلب وعقل واعيا ومستعدا للتعلم من الحقبا الآخرين وسيرهم(٨٧).

(ج) ما يتعلق بالمفهوم الثالث (العقائد التكفيرية):

وقد عرضت الجماعة في كتبها ما يتعلق به من مفاهيم غير صحيحة أو غير منضبطة أو معالجة أو مشوشة ومندرجة في إطار ما يمكن أن يسمى بفقه التكفير، وفيما كانت لهذا الفكر بصورتيه الثالثة:

أن الكفر عند الإمدين ويطلق بمعان كثيرة، والأصل هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن ما سماه الله ورسوله كفرا ليس بالضرورة أن يكون مخرجا من الملة، فقد يكون كفر أصغر لا يخرج فاعله من الملة، ويحمل على كفر النعمة أو كفر الأخوة ونحو ذلك. وقد يكون ما سمي كفرا في الكتاب والسنة كفرا أكبر يخرج فاعله من الملة(٨٨)، وكل من الكفرين الأصغر والأكبر له أدلته وحالاته وإن كان ثمة حالات للكفر مختلف على موقعها من كلا التوعين - بين علماء المسلمين(٨٩).

أن من يقع في الكفر الأكبر المخرج من الملة سواء كان حاكما أو محكوما لا يتوج بتكفيره إلا بعد إقامة الحجة الواضحة التي ينتفي التأكد بتقصائه من ثبوت شروط التكفير وانتفاء موانعه(٩٠)، حتى وإن اقدم عليه نفر ممن ينتسبون إلى بعض المجموعات المارقة التي تكفر المسلمين بغير حق وبدون أهلية أو صلاحية للحكم على الناس، استمرارا لأصل بدعة تكفير التي ابتدعها الخوارج ومن الفتنه الكبرى والدين كفروا من أشد الناس فسكا بالدين. تكفير - كما نقل فكر التصحيح عنهم حديثا ما ورد في صحيحي البخاري ومسلم - أنوا من فساد الكفر وزين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا(٩١).

- أن للتكفير والغلو قبله آثار سلبية، منها الوقوع تحت الوعيد الشديد الذي جعله الشرع لمن نسب مسلما إلى الكفر، إذ إن من قذف مؤمنا بكفر فهو كقاتله"، وان تكفير المسلم بغير حق قد اهدار لقيمة العدل الذي يستوجب أن يكون أحاكم بالتكفير موهلا لذلك، وان يكون للمحكوم عليه حق الدفاع الشرعي عن نفسه ورد اتهامه. ثم إن للتكفير إذا ثبت أحكاما موضوعية مرتبة شاملة تقرر أوصال

Abu Nour www.alkottob.com

الأمة، وقد يحدث مع شيوعه على السنة الجهال فوضى في المجتمع المسلم ويغلق باب الرجوع أمام عصاة الموحدين(٩٢).

أن دار التكفير خاصة لعصاة المسلمين بل ولغير العصاة ايضا فظاهرة وقع فيها كثير من شباب المسلمين، فأخرجوا أهل الإسلام من الملة وحكموا عليهم بالكفر نتيجة لشبهة أو تقليد أفضال مقبل، او عن جهل وهوى: غلو وتشدد في الحكم على الناس، وترتب على ذلك ان أسفكت عصمة الاحرمين واستحبست دماؤهم وأموالهم(٩٣). وقد انطلق فكر التصحيح للرد على من يكفر عصاة المسلمين من ضرورة ضبط مصطلحات الإيمان كقول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، او اشترط وهو ادعى، الى آخره مع الله أو من دون الله، وهو نوعان كالكفر شرك أكبر واخر أصغر، والنفاق وهو كالكفر نفاق أكبر وهو نفاق العقيدة، ونفاق أصغر وهو نفاق العمل، ولكل علاماته(٩٤).

- ان مرتكب الكبيرة لا يكفر ان مات على دين التوحيد، وقد تظاهرت ادلة الكتاب والسنة واجماع من يعتد به من الأمة، وتواترت بذلك نصوص محصل العلم القطعي. ولكن هناك بعض من هم فيهم صرخي ناسون ان ينزلوا عند حكم الله ورسوله (ص) وكلام علماء الأمة، سادرين في بدعهم وأهوائهم دافعين ببعض الشبهات الضعيفة تدعيما لفكرهم الضال وانحرافه عن الفهم السلف الذين لهم(٩٥). وقد يصدق لزعم تلك الشبهات من علماء الأمة الكثيرين، كالامام الوزير ناصره من قائم ما الكفر المخرج من الملة لا تزول عقوبته الأخروية إلا بالتوبة، اما عقوبة الذنوب في الاخرة فتزول بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحيه والدافع للعفو بفضل الخير للميت وشفاعة النبي (ص) وتصاب ما يحصل في القبر من ابتلاءات، وأهوال القيامة ورحمة الله وعفوه(٩٦).

ثم يكتفي البعض ممن ينتمون الى الحركة الإسلامية ببدعة التكفير، وأما مشهوناهم بدعة أخرى في تكفير جهال المسلمين الذين قد يكون فعلا كفريا وهم يجهلون أنه كفر وهم لا يريدون، ولو علموا أنه كفر ما اقدموا. وهذا نشدد في غير موضعه ومخالف أخذ بعقيدة أهل السنة والجماعة الذين معتقدون أن الشخص المعين الذي مرتكب كفرا لا يحكم بكفره الا بعد تبوث شروط وانتفاء موانع. فأما الشروط فتتعلق بأهلية الأداء التي قد تطرأ عليها عوارض سماوية وأخرى مكتسبة. وأما الموانع فتتعلق بعوارض تسبب انتفاء شرط العقل كالجنون والصغر او تسكر بالعته، وموانع تسبب انتفاء شرط القدرة كالاكراه والعجز والخطأ والنسيان، وموانع تسبب انتفاء شرط العلم كعوارض الجهل(٩٧).

واستمرارا للسقطة البدع التي سقط في اتونها ذلك النفر من شباب الحركة الإسلامية، اعتبروا أن موالاة المسلمين الظاهرة للكفار، كفر، دون النظر في حال المسلمات ودون تمحيص لمواالتهم وهل هي ظاهرة أم باطنة، حيث الأولى مترتب عليها نصرة الكفار لأمر أو لمصلحة دنيوية مع الثبوت على الايمان ومحبة الله ورسوله (ص). وذلك لا يخرج صاحبه من الملة، وإن اعتبر معصية. اما الثانية الباطنة - فيترتب عليها ميل قلبي الى الكفار، حب في عقيدتهم ورغبة في شوكتهم على المسلمين، وهذا النوع يخرج من ملة الإسلام(٩٨).

يتعلق بالموالاة أمران مهمان. أحدهما ما ادعى من أن موظفي الحكومة كفار، والثاني ما ادعى ايضا أن مخالفة غير المسلمين او الكفار في هي من موالاة الكفار الباطنة. وهذا الأمر الثاني له موضع لاحق. اما الحكم بكفر موظفي الحكومة؟ فان ذلك يتوقف على حالتهم في شغل الوظائف. حيث ينقسمون في ذلك الى أربع فئات: الأولى تعمل من اجل مصلحة دنيوية وكان عملها في حدود الحلال والمباح شرعا، فهذا عمل لا شيء فيه من الموالاة الظاهرة ولا الباطنة. والفئة الثانية تعلم من يعمل عملا عد لا يستطيع تحقيق العدل الناقد لكنه يخفف ظلما او يحقق مصلحة للمسلمين والإسلام، فهذا في ضاعة

Abu Nour www.alkottob.com

الله عز وجل. والفئة الثالثة تشمل من يقع في عمله ظلم وجور وترتكب مخالفات شرعية تطبيعة عمله، لكنه يقع في هذه الأعمال وهو لا يكره الإسلام ولا يتمنى علو الكفر، بل قد يلتمس عليه العذر أحيانا أو يأتي محظورا، فهذا هو تكب لمعصية ولكنه ليس كافرا. ومن الفئة الرابعة والتي تضم من كان حاله كسابقيه، ولكنه يحب الكفر ويكره الإسلام ويحب الكافرين ويكره المسلمين ويكره نصرتهم، وظهرت لذلك دلائل قولية وفعلية، فذلك لا شك في كفره [٩٩].

أما ملاحظاتنا على هذه التصويبات فيمانها:

أن حديث فكر التصحيح والمراجعة عن التكفير أتى في سياق الغلو في الدين، لا باعتبار التكفير غلوا ومنزلقا بين التفريط في الدين والإتيان، وبين الافراط في التشدد والتعسف على الناس، وإنما لأن التكفير أيضا هو أعلى درجات الغلو فسدوا لأنه قد يخرج من الملة، أما الغلو في درجاته الدنيا فلا يخرج من ملة ولا يسقط الإسلام عمن أتى أفعاله.

- أن هناك انتقاضا في رصد فكر المراجعة لتطور بدعة التكفير في الأمة، لا نعرف هل هو مقصود أم غير مقصود ؟- بين أصل التكفير في بدعه وسع خوارج الفتنة الكبرى، وبين صوره المعاصرة، أما ما ينبغيها قشة تجاوز له، مع أن اتباعه كان يمكن أن يساعدنا في فهم أسباب تداعي هذه البدعة منذ عصر الإسلام، وكيف تطورت، وما الثابت فيها وما المتغير، وما الجديد الذي طرأ على قديم نشأتها.

- كذلك فإن هناك احتراز شديدا لدى الجماعة الإسلامية من الوقوع في دائرة تكفير الحاكم والمحكوم إلا بدليل وبرهان شرعيين. مستمرارا لاحتراز الجماعة من حمل لو، هذه تبدعة. ونزولا عند تصحيحة الإمام الغزالي الذي لفت الأنظار بشدة إلى ضرورة هذا الاحتراز مما وجد المسلم فيه مندوحة[١٠٠].

- كما يلاحظ بالنسبة لفكر الجماعة من موظفي الحكومة في مسألة التكفير أنه اثر أن يعرض للمسألة من جانب واحد هو المتعلق مباشرة بفعل وسلوك الموظفين، وتغفل عن جوانب أخرى قد تتعلق أساسا بالبيئة المحيطة بهذا الفعل وذلك السلوك، والتي قد تفرض بشكل او بآخر عملا دون الحد قد يقع في التكفير وقد لا يوقع. ويفرض هذا سؤالا مفاده هل هذا هو مسلك الجماعة في الاحتراز من التكفير، أم هي رؤيتها الخاصة، أم هو إيثار السلامة وابعاد الخوض بالابتعاد عن البيئة والانتباه عن انتمائها؟

(د) ما يتعلق بالمفهوم الرابع (أهل الكتاب):

وقد عرض فكر الجماعة لخطورة التجاوز في معاملتهم والتهاون في أروحهم وأموالهم، دون احتساب لقيمة التعامل كقيمة إسلامية ساسية. وسوف يرد الحديث عن هذا المفهوم مفصلا في البند خامسا، تماشيا مع منطق التحليل الخاص برؤية ومضمون هذا الفكر في وجهته إلى الآخر غير المسلم.

(هـ) ما يتعلق بالمفهوم الأخير (مفهوم الحسبة وعمل المحتسبين):

وأكثر القضايا التي تسوبها هذا الفكر في ذلك المفهوم ما يلي:

أن الحسبة إنما شرعت لحماية المجتمع من الداخل وحماية تعفيفه من الابتداع والشرائع من التحريف والتزييف وحماية تعاليمها في الواقع التطبيقي من أن يسيء اليها التهاون بها، والتقصير في حقها والعمل فيها بالمعصية. لهذا فربطة عظيمة لتربية الفرد والمجتمع، ليكون المجتمع إيجابيا تجاه ما يراه من خلل مسعى إلى إصلاحه، وتكون هذه الايجابية جزءا من تكوينه، وحتى لا يؤدي دا

Abu Nour www.alkottob.com

السلبية دوره في انهيار المجتمع وسقوطه. ورغم ذلك فهي فرض كفايه فمن قام به من يكفي المجتمع مؤنه فقد سقط عن المجتمع كله(١٠١).

أن الحسبة كفريضة عظمى بالمعنى السالف حتى تؤتي أكلها الاصلاحية في المجتمع يجب أن تضبط بضوابط الاخلاص والبعد عن الظن السيئ وعدد التجسس وستر المعصية على صاحب المعصية، وأن لا يترتب عليها ضرر ولا ضرار، وأن لا يحتمل الناس على مذهب المحتسب، والرفق

أما الاخلاص فلانه أساس أي عمل صالح، فلا عمل صالح إلا بنيه صالحة، ولا ينبغي للمحتسب أن يكون تحسبه للمنكر تابعا من موافقة رغباته في التسلط وتقهر على الناس واتباع شهواته في العنف، فالحسبة كغيرها من الطاعات لابد ان يبتغي بها وجه الله، فاذا أمر المحتسب كان امره له واذا نهى كان نهيه لله واذا سكت كان سكوته لله(١٠٢)، ويؤكد هذا أن الاحتساب يجب أن لا يخالطه رياء، أي حال، الا أنه حاسبه على أن تولى الحسبة اذا كان إنما فمن الاحتساب مع الرياء انه أيضا، ونُسلم مطالب بأن يشعر الآخرين معها لتصح نيته واحتسابه(١٠٣). وأما البعد عن الظن السيئ، فمستند الى أنه – من حيث يتناسى على عدد التحقق من الأمور والحكم على الشيء بدلا دليل – يعرض المجتمع وافراده لعدد الاستفزار وسادة العلاقات، وانتهض بكل كلمة أو حركة لمجرد حسابات وأوهام وتوقعات مسبقة(١٠٤).

وأما التجسس فهو البحث عما هو مخبأ من أحوال الناس وأخبارهم. ولذلك اذا كان المنكر حراما فإن التجسس بحثا عنه حرام أيضا. ولا يشفي الوقوع في محرم مقطوع به عند صاحبه. وهو التجسس للبحث عن محرم مظنون، قد يكون موجودا وقد لا يكون موجودا(١٠٥). وعليه فمن كل من يتعصدى للاحتساب عليه أن لا يتجسس على البيوت، ولا يبحث عما فيه ريب وشك، لتنتهك الحرمات ويقع نفسه في الحراء التي قد تكون أشد من حرمة المنهي عنه من المنكر. وأما الستر على صاحب المعصية فذلك واجب لان من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة. ولذلك يلزم عدم التشهير به أو بما نناله من فضيحة وعقاب، لاجل زجره وزجر من تسول له نفسه ان يسلك مسلكه، لأن التشهير يكسر حو جز الحب بصاحب المعصية، فيشجع هذا المنكر بين الناس ويولد في قلوبهم الاستهانة به ويقطع طريق التوبة على العاصي بعد أن تم التشهير به بين الناس. لذلك كان النهي عن كشف عورات المسلمين وتتبعها مستوجب للاثم مستوجب في الدنيا، ومستدعيا في الوقت ذاته للاثم والآخذ نحو صاحب المعصية الى طريق الهداية والتوبة(١٠٦).

كذلك فان الحسبة محكومة بالمبدأ الشرعي العام لا ضرر ولا ضرار، حتى لا يلحق المتصدي للحسبة الأذى بالأغيار، متعمدا على حقوقهم أو بتسبب بحسبته في أن يوقع الآخرين الأذى به. واذا كان من المنكر إزالة المنكر فلا ينفي أن تكون الإزالة مقابلها إحداث الضرر بالآخرين أو الحاق الاضرار بالنفس(١٠٧). كما أن من ضوابط الحسبة أيضا أن لا يحمل المحتسب الناس على مذهبه في الاحتساب، لأن الاسلام اختبره اختلاف الافهام والاجتهادات، ولأجل ذلك كانت الأمور التي يحل الاجتهاد فيها لا انكار فيها، ولا يجوز الإنكار الا في الحالات التي تخالفه إجماعا أو بعد تتقيب، ولا إنكار في الخلاف الضعيف في المعاملات الا أن يؤدي إلى محرم متفق عليه(١٠٨).

ويلحق الرفق بالضوابط السابقة في وضع حدود للاحتساب. لأن من محرم الرفق محرم الخير كله، خير الدنيا وخير الآخرة وخير ارضا. الله سبحانه. في حين أن الغلظة من شأنها أن تؤدي لرد المحتسب وعدم التعرف معه، وقد تؤدي إلى استفزاز نزيد المنكر. ولا يخفى أن حنية من سفراء بعض من تصدى للحسبة كان السبب وراء رسوخ صورة الإنسان الغضظ المتجهم الجاف قاسي القلب سيئ الكلام في

Abu Nour www.alkottob.com

الأذهان، جانبه مع ما صاحب تصرفات هذا البعض من تجاوز في الكلام والسلوك (٩٠ - ١).

- أن ثمة إساءة قد تحققت في وجهة الخمسة الى الوالدين في ملوك بعض المحتسبين نتيجة ما كان يرافق ذلك من التجهيم او المقاطعة أو الزجر العنيف، توهما أن ذلك مرتضى الله ورسوله، بمخالفته للاحسان لهما الذي أمر الله به في كتابه وعلى لسان نبيه بما يعنيه من منع الزجر والنهر والمصاحبة بالمعروف وان كانا مشركين او احدهما. والوعظ بالكلام الطيب الذي لا ايذاء فيه ولا سب، حفاظا على رابط التواصل بين أبناء الأسرة الواحدة من ان تنفكك أو يسأ إلى اعملها في الوالدين (٩٠ - ١٠).

كما أن إزالة المنكر، أو الأمر بالمعروف مرة القيام بهما، أو أيهما، الخاضعة للوسع والقدرة من المحتسب، فانه لا يكلف نفسا إلا وسعها، ومن عجز عن الخمسة أو لم يلزمه من القدرة ما تمكنه من القيام بها فقد سقطت عنه، ولكن عدم القدرة لا تلغي التغيير بالقلب بكل ما يحمله من معان، فالقدرة هنا ليست مجرد قدرة وقتية على إزالة المنكر الحالي دون اعتبار لعواقب الإزالة، وانما مستمرة في نظر في هذه العواقب هل فيها من مضار. كذلك فان القدرة تشمل قدرة المحتسب على تحمل تلك العواقب، والتي قد تتجاوز مفسدتها المرجوة من الحسبة (١٠١).

ثم ان تغيير المنكر باليد لا ينبغي ان يتسبب في مفسدة أعظم من مفسدته، فذلك غير مستحسن شرعا ولا عقلا. فمثلا حتى فيه من مصلحة للوقت وجهه، وأهداف الخمسة. وذلك ما حفل عنه بعض الشباب المسلم، فترتبت عليه مفاسد مازالت آثارها قائمة. ان تغيير المنكر باليد إنما يأتي وفق سلوكيات في التعرف به أولا، ثم النهي بالوعظ والنصح والتخويف ثانيا، والسب والتعنيف بالقول للغلظ الحسن ثالثا، ثم رابعا التغيير باليد وفق مراحل ثلاث، هي قصد المنكر بالعنف دون صاحبه، والتهديد بالضرب، فمباشرة الضرب ان فشلت الوسائل السابقة باليد والرجل مما ليس فيه شهر السلاح أو جمع الاعوان (١٠٢).

لقد أخطأ الكثيرون من شباب الحركة الإسلامية في حق أنفسهم، وفي من يجتمعهم عندما حولوا تغيير المنكر إلى وسيلة للإبادة، فشجارا لمواجهة الشرعية في التغيير، وانطلقوا لممارسة أشكالا من المخالفات التي أضرت بهم وأساءت الى الحسبة والإسلام. وتحولت معها الى ثورات وفتن وتجاوزات وصدامات أفسدت أكثر مما اصلحت، وتأصلة على ذلك كثيرة مما جرى من تجاوز على أرض الواقع في مصر خاصة (١٠٣).

وملاحظاتنا على ما سبق من تصويبات:

- أن فكر النصح رأى في الجهاد والحسبة وجهين لحقيقة واحدة هي الحفاظ على الدعوة وحمايتها من الانتهاك في البلد، خارجيا بسياح الجهاد، وداخليا بممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفق ضوابط كل منهما الشرعية.

- وان الإمام ابن تيمية الذي تم توظيف فكره ذات مرة لتوكيد فقه التكفير لدى بعض الشباب المسلم وفقه الخروج، هو في فكر الجماعة - وبخاصة في الكتاب الرابع - أحد روافد ضوابط الحسبة وتصحيح مارأن عليها من فقه مغلوط، سواء في "قتاراه" أو في مواقفه الأخرى الحسبة.

- كذلك فان مسألة الجماعة في عقد التحرك نحو تفعيل الحسبة، جعل فكرها وكأنه مشروع هجوما مضادا أو حجة مبررة من بعض الشباب المسلم فحواها المرجو، وماذا بقي من الحسبة؟ التشريع على الإيجاز يستطيل أسئلة أخرى هي في هذا الفكر أسئلة مشروعة وغير مستغربة بل ومنطقية، ولكنه من الناحية الأخرى اعتبر أن ترك الحبل على غاربه في الحسبة أفسد كثيرا، وسع الكثير من فضائلها.

- ثم - وهذه ملاحظة منهجية - إن الخمسة التي امتازت بصفحات جاوزت السبعين رسالة في

Abu Nour www.alkottob.com

كتاب مخصص بعد أحد وكأنه فكر التصحيح، لم يرد ذكرها في جملة ما سوف إليه الجماعة من المفاهيم التي كان لابد لها فيها من كلمة وهي مصدة تحديد. سنطوعة هذه المفاهيم في كتبها الأول. فلماذا سقط؟ ولماذا لم تتم الإشارة إلى أنه أحد سفردات تلك المنظومة رغم استشارة بعض خاص ناقش الكثير من القضايا المفرعة في خصيته، وبين الكثير من أحكامها الشرعية؟

- ثمة إشارة في نهاية ما استعرضته ذكر التصحيح عن الحسبة إلى أن القائم بتأليف هذا الفكر لها هو فيرة وليس جماعة، وذلك بفهم من القاط مثل (أقول هذا..)(١١٤١)، و لقد سبقت من الضوابط. (١١٥). وبما كان لمثل هذا أن يحدث خاصة في مؤلفات ذكر على أغلفتها الأربعة أن هناك مؤلفين وليس واحداً هما على محمد على الشريف، وسامه إبراهيم حافظ، وقد ذكرت التوقيع في هذا الخطأ في بعض المواضع الأخرى(١١٦).

(٢) مضمون فكر التصحيح والمراجعة في وجهته إلى الأنا المسكوت عنها:

الذي لا سبيل فيه من وجهة نظرنا أن سلسلة التصحيح التي يستند عليها هذا الفكر، تنطلق بلغة غير مباشرة من وو سطورها أكثر من مسكوت عنه واحد. وهذا الحكم أوحت به النصوص ذاتها، وما قيل بشكل مباشر وما قيل بشكل غير مباشر، وفي فترتي التصحيح الأول والثاني المنوه عنهما في المقدمة. وقد حملنا هذه النصوص بكثير من المسكوت عنه. ليس من قبيل الإسقاط عليها، وإنما لأنها ذاتها التي فرضت هذا التحميل.

تبقى ملاحظة مهمة في هذا السياق، ومعاودة أن قراءة هذا المسكوت عنه لابد أن تتكامل فيها النظرة إلى مضمون فكر التصحيح في وجهته إلى الأنا، والنظرة إلى هذا المضمون في وجهته إلى الآخر، ضمن خلالهما اجتهدنا في استخراجه - أي المسكوت عنه - وضمن خلالهما اجتهدنا أيضاً في رصد أهم، وهو في جملته يتضمن:

١. اعتراف قيادات الجماعة بشكل غير مباشر أنهم أهل للعلم والاجتهاد والفتوى، ليس لأنهم خاتمو سي أمور فقهية وشرعية وتاريخية وسياسية وواقعيه وأصلوا لها من مصادرها المعتمدة، وإنما لأنهم أعدوا هذا الواجب من منطلق مسئولية العلماء، في أن تكون لهم كلمة فيما حولهم مما يمس هموم الأمة عموماً، حتى لو لم يدعهم إلى ذلك أحد، بل وحتى لو حرك هذه الهموم وتسبب فيها بعض أبنائها. ولعل في ذلك إشارة واضحة إلى أن من يريد مناقشته فكر التصحيح عنده أن يعلم أنه يناقش فكر علماء، ويناقش فكراً مبني على علم ودراية.

٢. أن دور الطرف الثاني الحكومي في مبادرة إيقاف العنف أو في الدفع نحو فكر التصحيح عموماً، مطلوب أن لا يكون له وجود، أو أن تكن الدقة مطلوب أن لا يعلن عنه، إلا أن واقع الحال يؤكد هذا الوجود فعلاً، فلا يعقل أن يسمح بتداول مصادر فكر التصحيح، وتوفيرها، وبصوح يضع سلسلة وتوزيعها، ويسمح للأرهر بأن يقول كلمته فيها، ويباح لقيادات الجماعة التنقل بين بعض السجون المصرية للاضطلاع بمبادرتها ومسئلة تصحيح مفاهيمها، كل ذلك من غير المعقول تصور السماح به دون موافقة حكومة مسبقة.

٣. أنه لا إصلاح من خلال التغيير السياسي بالقوة والعنف المادي في مصر، أو من خلال الخروج على السلطة السياسة القوية فيها، ليس لأن هذا هو منهج أهل السنة والجماعة فحسب، أو لأن الخبرة التاريخية تؤيد هذا المنهج، وإنما لأن قوة الدولة أيضاً في مصر تعطيها القدرة على السجون بضرب أية محاولة للاقتصاد والعنف، خاصة إذا كانت مبنية على منطلقات دينية غير صحيحة.

Abu Nour www.alkottob.com

٤. أن هناك إرادة تنطق بالتعبير عنها كل صفحات نصوص المصحح في عمد إلقاء التهم أو المسئولية في أحداث العنف على الجهات الحكومية العليا في مصر، بالرغم من وجود إشارات في نصوص قوى تشرط بالأمن. ويبدو ذلك ملحوظا في ظل ما هو معروف من أن العنف لابد له من بيئة تحتوي عليه ومن أطراف تشارك فيه، ومن ثم لا يمكن إلقاء تبعة، كله على أحد أطرافه. والدين دائما بأن في فكر التصحيح تبديلا للحكومة في مصر (١٩٧٢)، وخلوا من هذه الزاوية للتحفظ على هذا الفكر وعلى منهج الجماعة في إبداعه. ونحن نتساءل هنا: أليس حديث الجماعة عن ظلم وانضطهاد واستبداد تعرض له الشباب المسلم، وحديثهم عن إهمال محاولات الصلح بينهم وبين الحكومة، وحديثهم عن غلبة دور العلمانيين في هذا الاضطهاد، يوحي بأن هناك قصورا من المسئولية يجب أن يتحمل الحكومة المصرية تبعاته؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا استبعدت هذه المسئولية؟ بل لماذا استبعدت الأسباب السياسية للعنف من حديثهم عن أدلة الظاهرة؟ ولماذا استبعدت معالجته مع أن المصدر الذي اعتمدوا عليه في تأصيل العنف - للدكتور فرضاوي كما سبق التوضيح - أورد ما يشير إلى دور سياسي في المعالجة تتحمله السلطة السياسية؟

٥. كذلك هناك إعادة اعتبار وتوكيد إلى مكانة ودور علماء ذمة المخلصين. حيث تحول هؤلاء الذين قبل لبعضهم ذات مرة "أنتم ليستم قبلة لنا" (١١٨)، ليظهر إليهم في فكر المراجعة على أنهم المرجع في معرفة صحيح الدين وصحيح أحكامه والمصالح والمفاسد. لذلك لابد من سلام منهم يلقى فعله على أيديهم والمراجعة على عصور دروسهم. لكن ليس ذلك إلا للتقاء منهم والإثبات. وكان إعادة الاعتبار للعلماء - لا يعني الا نفرا منهم، وتعني في الوقت ذاته أن نفرا آخر في فكر الجماعة ليس بعيدا عن الشبهات.

٦. كأنما هناك اتفاق عام بين النصوص الأربعة على أن ضفه واقع معين ومستقبلها، وفقه واقع المسلمين عامة. وفقه واقع الحركة الإسلامية خاصة ومستقبلها، كل ذلك منوط بالقراءة الراشدة لفقه المقاصد العامة للشريعة، وفقه المصالح والمفاسد؛ ذلك أن كثيرا مما استجد في الواقع ليس فيه نصوص قاطعة. وحيث إن مبنى الشريعة على المصالح العامة من حيث جلبها أو من حيث درء المفاسد. فإن العمل بهذا الفقه القائم على فهم الضرورات والأولويات والموازنات بين المصالح بين المفاسد، يمكن أن يصوب كثيرا مما حدث في الماضي ويصححه. ويمكن أن يشكل المنطلق للحاضر والعدة والعتاد للمستقبل.

٧. أن لغة الحوار يجب أن تكون في المقدمة لتوجيه الصف وتصحيح الأخطاء. وتصويبها والتراجع عنها. وفكر الجماعة الذي حققت ملامحه المنهاجية بدلت - كما بينا - من خلال استراتيجية حوارات في النصوص الأربعة. واستمرارات قد يواجه بها مفترضة، ينطق أعضاء مختصون إلى حوار حقيقي وواقعي معه من شباب الحركة الإسلامية ومن المختلفين غيرهم خاصة العلمانيين توطئة، على وضع خطة إثر حوار جدي مع أجهزة الحكم في مصر. إلا أنه إذا كان هذا الفكر قد أبدى استعداده للمراجعة والتصحيح. فيجب على الآخرين الذين يريد محاورتهم أو الذين قد يرسون محاورته أن يكونوا على مستوى في فهم مبدأ الاستعداد للمراجعة والتصحيح.

٨. أن الغلو ومحاسبة غير المسلمين داخل مصر وممارسة العنف ضدهم، لعدم أداء الجزية ودخول في الذمة يجب أن يوجه إلى طرفين: طرف أخطأ في فهم ضفه غير المسلمين داخل الدولة المسلمة. وهم بعض شباب الحركة الإسلامية. وطرف أخطأ في حق الشريعة من حيث لم يطبقها. وهي الدولة. فلا يمكن المطالبة بالجزية والذمة، لأن فيها التزامات لا تنهض بها جماعة أو بعض الأفراد، وإنما تنهض بها الدولة. وهي لا تستطيع أن تطالبهم بالجزية وعقد الذمة معهم ما لم تكن تحكم بالشرع.

Abu Nour www.alkottob.com

٩. إن البحث في ثلاثي ثلاثية: الكفر والنفاق والشرك في بلاد المسلمين، يجب أن يبدأ بالبحث في علة الجميع وأساسهم وهو الغلو الذي لا يكون واحد منهم بدونه. ومن ثم لا تنبغي مواجهة هذه الثلاثية منفردة، ولا ينبغي أن تكون هذه المواجهة سابقة لمواجهة الغلو وأسبابه وبيئته وأطرافه وإشاعة مناخ الوسطية والاعتدال في عرض الدين الإسلامي، لأن الأمة الوسط، هي الأمة النقية المبرأة من هذه الأدواء.

١٠. أن تاريخنا العربي الإسلامي أحد روافد وعينا بالحاضر وبالمستقبل، وهو ميدان فسيح لقراءة الحاضر والتحصن للمستقبل لو أعدنا قراءة ما فيه. من ثم فهو ليس مجموعة قصص أو حكايات للتسلي والتواكل والتلهي، إنه ذاكرة، ومخزون حضاري، بقدر ما نقدم عليه، بقدر ما يعطينا، والأمم والدول التي تريد ترشيد خطواتها وتصحيح فكرها وحركتها لا يمكن أن تتجاوز خبرتها التاريخية، حتى لا تبدأ من صفحة بيضاء، لا تقيم لها أصلاً أو أساساً.

١١. إن الشباب المسلم ما زالت قاعدته بخير ومبشرة بالخير، والذين غالوا فيه هم قلة أو بعض أو طائفة أو فئة، كما عبر فكر التصحيح. ومطلوب من كل الأمة الحفاظ على هذه القاعدة وتحصينها من الغلو والأخذ بيد القلة التي خرجت على القاعدة إلى حيث وسطية الدين ووسطية الأمة، بل إن في القلة خيراً كثيراً حين تراجع نفسها وتصحح كما فعلت الجماعة الإسلامية وكما تريد من غيرها أن يقتدي بها، حين تجد من يأخذ بأيديها ليساعدها في الخروج من عثراتها وأخطائها.

١٢. وأخيراً فإن البحث عن أس العداوة الأول لمصر، وللمسلمين يجب أن يبدأ بالدولة الصهيونية، فهي رأس جسر الغرب وهي التي قيدت مصر بقيود لتعطل دورها في قيادة العرب والمسلمين ونصرتهم، فلا هي ولا الغرب الذي أقامها ويساندها يريدان لها هذه القيادة، ولو بإدخالها في فتن داخلية خاصة مع ما أسمى بأصولية الحركة الإسلامية.

(٣) مضمون فكر التصحيح في وجهته إلى الأنا الغائبة:

وهي "أنا" غائبة أو مغيبة، ليس لأن النصوص تتحملها، فذلك يدخلها في نطاق المسكوت عنه، وإنما لأن هناك إرادة في إبعاد النصوص عنها وإبعادها عن النصوص، بمعنى أن البحث عنها بأية قراءة من القراءات الأربع للنصوص لن يجدها، لأنها لم ترد أصلاً. وتلفت النظر إلى أن ما غاب أو غيب من قضايا ومفاهيم لا يتعلق بما ينبغي أن يكون بلا أساس، بل بما ينبغي أن يكون لأن أساسه يعود إلى خبرة الجماعة في مصر، وبجملة ما أحيط بها من تساؤلات لا يستطيع أحد أن يجيب عليها إلا الجماعة، ومن هذه الأسئلة:

١) التساؤل عن تنظيم التفاعل مع فعاليات المجتمع السياسي المصري بعد مرحلة السجن إن قدر لأعضائها الخروج منه. فالحديث عن المستقبل بشفافية وتسامح وحوار وطني شيء، والبحث عن أسلوب تنظيم هذه النوايا شيء آخر، والتعامل مع الواقع لا تنفعه لغة النوايا مهما كانت حسنة وطيبة، بل يحتاج إلى نزول هذه النوايا إلى الواقع بما يؤكد حسنها وطيبتها في أسلوب أو أساليب هيكلية ومؤسسية تحكم الحركة وتضبطها حال الاتفاق مع قوى المجتمع، وحال الصدام معها أو بعضها. إن الجماعة تكلمت عن اللادينيين، وعن غير المسلمين، لكن خريطة القوى السياسية في مصر أكبر من ذلك وأكثر سعة وبها أطياف كثيرة، فماذا أعدت للتعامل معها؟؟ ٢) التساؤل عن التعامل مع النظام السياسي المصري ومدى الاعتراف بشرعيته، فصحيح أن هناك حديثاً عن رفض اتهامه بالجاهلية أو الكفر، لكن هناك حديثاً مقابلاً عن ظلم واستبداد وقعا على الجماعة، فهل معنى ذلك العفو عما سبق؟ إن التعامل مع النظام ليس معناه تحديد الموقف والاتجاه فحسب، بل معناه أيضاً تحديد إلى أي مدى شملته الجماعة بطي صفحة الماضي، والانطلاق معه إلى آفاق المستقبل؟

٣) التساؤل عن العلاقة بالتنظيم الإسلامي الأكبر في مصر، وهو حركة الإخوان المسلمين، خاصة

www.alkottob.com
Abu Nour

وأن تنظيم العلاقة معهم على، بالخروج لأن النظام السياسي ما زال على موقفه في رفض تسوية قضيتها السياسية. كما أن جماعة الإخوان تمر بمرحلة من اختلاف في وجهات النظر داخلها حول سبل مزيد التجديد والتطوير، كما أن ثمة وجوداً لها متنامياً في مؤسسات المجتمع المدني لا يرتبط به بعض من قوى السياسية والاجتماعية في مصر، ناهيك عن الاختلاف الفكري - بل الفقهي - بين أعضائها.

٤) التساؤل عن حدود الاختلاف مع التيار الإسلامي الذي اختير له أعضاؤه العام بالإضافة إلى إسرائيل والغرب والولايات المتحدة الأمريكية، ودعت إلى تكتيل القوى ضده، وهو ما قد يفقه على أنه تناقض بين فكر الجماعة في التسامح والتعايش بين فكرها في أعضاء بعض القوى مما قد يحد بعضهم الكثير من داخل المجتمع السياسي، خاصة من أعدائها الآخرين غير العلمانيين. ويفتح تساؤلات من عديد للتشكيك في صدق مرجعات الجماعة، وصدق أهدافها من ورا ذلك.

٥) التساؤل عن توجهه داخل المجتمع المصري والتي يستخدم أسلوب التعامل بالمعنى السالف مع قواه، هل ستتجه الجماعة إلى الدعوة فقط أم ستنطلق إلى ميدين الحياة كافة، وهو الأقرب إلى فكرها، وهذا يفرض التساؤل عن شكلها التنظيمي الجديد بعيداً عن أطر قوى يتم من تنظيم سري خارج عشكرى، وهل ستأخذ شكل الحزب السياسي أم شكل مؤسسة أخرى من مؤسسات المجتمع المدني، وما مدى قبولها أن تم رفض مثل هذا التنظيم أو قبول عمله بشكل أو بآخر؟

٦) التساؤل عن موقفها من تجنيد المتطرفة وما تشترط عنها من مبادئ في البيعة، وما تقابل السلطة والانتخاب والمبادئ البرلمانية والنيابية وسيادة الدستور إلى آخر من ملامح التحول الديمقراطي، عما يفرضه أي تحول من ميثاق وشروط رئيسة قد تواجه الجماعة كلها أو بعضها مما لا يمثل إسلاماً له. ثم ماذا عن علاقة كل ذلك بالشورى في نظام سياسي لا يؤمن بهيمنة أي تيار فكري يمثل المجتمع السياسي أو على الحياة السياسية أو على رأس السلطة السياسية؟

٧) التساؤل عن حدود الالتزام بالتوجه الاقتصادي للمجتمع، ومظهره دعوة الإخوان إلى العمل وشركات المساهمين وشركات الصحافة والبورصة وأنشطة القطاع الخاص التي استهجن الاشتراكيون على بعضها، سواء بدعاوى وفتاوى قيل بها شرعية خاصة بناء المعلقة بالمضاربة، أو عن تحليل الاقتصاد عليها والاستيلاء على ما فيها من أموال أو ممتلكات.

٨) التساؤل عن العلاقة مع غير المسلم عموماً، فالعالم ليس إسرائيل أو أمريكا أو الغرب فقط كما تصور فكر الجماعة، وإن يتسع في قراءة دوائره وتعدد علاقاته، وعلاقاته بما لا يفكر التعامل معه منطق العدو والصديق أو دار الكفر ودار الحرب، وإنما من خلال فقه جديد للعلاقات مع العالم، هو ما هي عليه من تطورات وتفاعلات.

٩) التساؤل عن العلاقة مع فصائل الحركة الإسلامية خارج مصر، وهي كنا ما أبعدت الجماعة في مصر بأن ثمة من يمولها ويدعمها خارجيا من تنظيمات وقوى إرهابية، إنها لا تعدو أن تكون سنداً لإرادة هذه وتلك مما يسمح للآخرين بالتدخل في شؤون مصر الداخلية، وخاصة أمنها واستقرارها الوطنيين.

١٠) التساؤل عن العلاقة بين الجماعة وبين من ينتمون إليها من جماعات وأفراد خارج مصر ممن فروا من المطاردات الأمنية أو من حصلوا على حق اللجوء السياسي أو من هم في طريقهم إلى ذلك، وهم الذين شكلوا بؤرة للتوتر في العلاقة بين الحركة الإسلامية وبين النظام السياسي أحياناً، بل بين النظام السياسي المصري وبعض الدول الأخرى التي تستضيف أو تؤوي هؤلاء الفارين.

Abu Nour www.alkottob.com

سبق القول إن فكر التصحيح أثر إلا أن يبادي على الفعلين في الحركة الإسلامية ومدعوهم بلغة هادئة تحلوها الحكمة والموعظة في تناول الحجة ونقضها في المواقف التي تباينت بين الجماعة الإسلامية وبينهم، وقد يفسر ذلك - ولو جزئيا - لماذا كان حرص الجماعة قبل الدخول في أي حوار تصحيحي وبراجعتها أن تدفع في البداية - رغم إباء ذلك ورغم انطلاقه من إيمان راسخ وربما لكنهما وهو الأصدق في رأينا - بأسلامية المخالفين لها والمختلفين معها من شباب الحركة الإسلامية، خاصة في مصر. ورغم تباين صور تعبيرها عن هذه الإسلامية في مخاطبتهم إلا أنها لم تنسلك مطلقا كما بدا لنا من قراءة نصوص الجماعة - فيها - حتى مع انتقادها الشديد أحيانا للبعض منهم.

فلقد خاطبهم فكر الجماعة باسم الجماعات الإسلامية، و"الشباب المسلم"، و"شباب الحركة الإسلامية"، و"فصائل الحركة الإسلامية"، و"شباب هذه الأمة"، و"أولئك الأحبار الذين أثروا الحياة الآخر على الأولى"، و"الأحوة"، و"إخواننا"، إلى آخره، وهو ما يعبر عنه واضحا كيف لازم فكر الجماعة بينهم وبين إسلاميتهم فسما أطلق عليهم من أسماء. ولعل قيادات الجماعة كانوا في ذلك أكثر اتساقا مع أنفسهم في نظرتهم إلى هؤلاء "شباب الذين اضطرب بعضهم لظروف بعضهم إلى التورط في مواجهات عنيفة داخل مصر وخارجها، وأكثر تساقا أيضا مع المبدأ العام الذي تأسست عليه هذه النظرة، وهو رفض مبدأ التكفير أساسا، وأنه لا تكفير يخرج من الملة إلا بحجة واضحة وبرهان شرعي، وإن الأمر في ذلك لا يعود إلى أحاد الناس أو بعضهم ممن لا علم لهم ولا فهم، بل إلى أهل العلم، وأن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة والسلف الصالح"(١١٩).

ويبدو لنا أن توكيد فكر الجماعة على المبدأ السابق كفل لهم مصداقية نظر من شباب الحركة الإسلامية بأرائهم المختلفة معهم وروؤاهم الرافضة لما صدر عنهم في أفكارهم وممارساتهم. ومن ذلك:

١) مؤاخذتهم على أعمال العنف، لأنها تتعارض مع الأصول التشريعية الثابتة والمتفق عليها في أن الأمور بمقاصدها ومصالحها، لأن المعارك الخاسرة التي يشارك فيها هذا النفر لم تجلب مصلحة تذكر، لا لهم ولا لغيرهم، بل ترتبت عليها عشرات المفاسد التي ينبغي لها أن تدرأ(١٢٠).

٢) مؤاخذتهم على تجاوزهم وتعاملهم بالغلظة والفظاظة مع الناس، دون تفرقة بين كبير وصغير، ولا بين من له حرمة خاصة كالأب والأم ومن ليس كذلك، ولا بين من له حق التوقير، تكريم كالعالم والفقيه والمعلم والمربي ومن ليس كذلك، ودون تفرقة بين من هو معذور ومن ليس كذلك، ومن هو جاهل ومن يعادي الإسلام عن عمد وعلم وبصيرة، ومن ليس كذلك(١٢١).

٣) مؤاخذتهم على المغالاة في الدين بغير الحق، والتشديد بالمبارعة إلى تكفير جهال المسلمين المعذورين بالجهل شرعا - الذين قد يدفعهم جهلهم إلى الوقوع في أعمال هي في الشرك أقرب منها إلى الإسلام، دونما أن يتحققوا من ثبوت شروط ذلك، وانتفاء الموانع التي حددها الشرع قبل الحكم على فاعل الكفر وممارسه بالخروج من ملة الإسلام(١٢٢).

٤) مؤاخذتهم على ارتكابهم الأخطاء العميقة التي مست جوانح المجتمع المصري من المسلمين وغيرهم خاصة، فضلا عن بعض السائحين؛ لأنها لم تخلف إلا فسادا في كثرة الظلم والعنف وأحكام الاعتقال والسجن وإعادة حركة الدعوة وتهديد الأسر وإباحة الفرصة للأعداء.. وتكتمل أبعادها كلها - في نظرهم - لمحاربة الإسلام، واعتباره العدو الأول في نظر الغرب بدلا من الشيوعية(١٢٣).

٥) مؤاخذتهم على ما ترتب من فهم غير دقيق، وممارسة غير منضبطة شرعا مفهوم الجهاد من

Abu Nour www.alkottob.com

نتائج في جلب المفاسد المجرمة شرعا والمتوقعة عقلا وواقعا، وعدم الاكتراث بالنفس في التهلكة وهو محرم أيضا، حتى تفاقم الأمر على هؤلاء، فتصيدات بلا رشدة وكريا، وعلى ذلك فهم من قاتلوه ودون فائدة ترجى من وراء ذلك، حاسة وقد حملوا السلاح على دولة قوية مصر ... شوكة، فيه وقوة عسكرية وعسكرية واقتصادية وإعلامية وسياسية(١٢٤).

٦) مؤاخذتهم على إعلان استهداف السياح، لأن السياح، لان استهداف السياحة يؤدي غالبا إلى قتل السائحين أو اصابتهم، وقد قاعدة أن ما كان ذريعة إلى شئ محظور، فهو يمنع أن فتح سد، واستهداف السياحة غالبا يؤدي إلى محظور - مثل قتل السائحين أو اصابتهم - وهو ممنوع شرعا(١٢٥).

٧) وأخيرا مؤاخذتهم على الأضرار التي نتجت عن ممارستهم العنيفة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - الحسبة - من حيث ان البعض من شباب الحركة الاسلامية قد وقع في تجاوزات شديدة أثارت الفتن واضرت بالمجتمع، خاصة وأن التوسيط الشرعيه لم تكن تراع في تلك الممارسات في كثير من الأحوال، فأصدقت أثر الحسبة وأوجدت مبررا للبعض في رؤيتها عدوانا على سلطان الدولة وخيارا في حقها، ولذلك رفضوها واعتبروها من ثم مخالفة لضوابط الحسبة شرعا(١٢٦).

تلك كانت بعض مؤاخذات قيادات الجماعة الإسلامية لنفر من أخوانهم في الحركة الاسلامية، لكن هل توقف الأمر عند حد رصد المؤاخذات؟ كلا، وانما حمل فكر التصحيح والمراجعة دعوة للمراقبة على قواعد للعمل المشترك بين الجماعة الاسلامية وغيرها من تيارات الحركة الإسلامية في مصر وسيلة.

أن تجميع الجهود لوقف الانهيار الذي ثبت ان لا تناول من ورائها غير الدمار والخراب الذي تواجه الوطن الواحد، ولعل ذلك يعطي الجميع فرصة لمشاركة حقيقية في دفع قسوة مصر ... رفع المعاناة عنها وقطع دابر الفتن، لتستعيد عافيتها وتقدمها ونهضتها، للحفاظ على مصدرها الذي يحتاج التضافر لرفعة شأنه والدعوة الله وازالة ما شوه منهجه القويم، وحتى تواجه الله، وضعنا أمر الدعوة ورحمته(١٢٧).

- الالتفات إلى القيمة المشتركة للجميع في هذه الحياة والآخرة بأهدافها إلى حسن الخير في الآخرة، وتتصدر جرح الأمة باعادة المسلمين إلى الإسلام، وعدم الحكم على الناس وفق سلوكهم هو لمعرفة حقيقة ما قسمه، وفتح الأبواب الواسعة أمام عصاة المؤمنين ليتوبوا ويرجعوا إلى الله سبحانه، بعيدا عن رسمهم بالجهل أو التعصب فندفعهم والتعالي عليهم، ويرجح التواضع والتسامح وليس بالغرور والإعجاب بالذات(١٢٨).

- رفض اختزال صفة وظيفة الإسلامية في الجماعة من منظور الإسلام في مفهوم الجهاد رغم أنه فريضة عظمى من فرائض الإسلام الكثيرة، لأن ذلك يدل على عدم فهم رسالة الإسلام التي تعلي شأن الإيمان وتعني أمر الدعوة إلى الله، فالجماعة الإسلامية الحقيقية رسالتها شاملة لكل سعاني الدين والايمان بشعبه كافة، والعملاة والدعوة والحسبة وغيرها من فرائض الدين، وليس كل مسلم يحدث في حركة حياته الاتزن بين فرائض الإسلام كلها(١٢٩).

لا يأس ولا حرج على الجماعات الاسلامية في مختلف بلاد المسلمين وليس في مصر وحدها، أن يغيروا قليلا أو كثيرا من أفهامهم واجتهاداتهم السابقة اذا رأوا ذلك أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق، أو رأوا في ذلك مصلحة خاصة للإسلام والمسلمين، فالقضية في الإسلام ما هي لكلام الله وحده والعصمة لسنة رسول الله أحيانا، أما ما عدا ذلك من اجتهادات بشرية فهي قابلة للمراجعة، لأن يؤخذ منها ويرد(١٣٠).

Abu Nour www.alkottob.com

- إعادة النظر في فقه الخروج على السلطة السياسية والحكم، ليس دفاعا عنهم ولا إقرارا لهم على مذاهبهم، ولكنها النظرة الشاملة إلى الآثار والمواقف التي تحدث عند الخروج عليهم، وهي مواقف لم يختلف عليها أحد ممن نظر في شرعة الخروج على الحكام والأمراء التي سطرتها كتب التاريخ الإسلامي. وبقاء إعادة النظر بهذا المعنى لا يجب أن يوقع فصائل الحركة الإسلامية في شرك تصويب أو تخطئة من قال بالخروج أو عمل به، بل على الجميع الاعتبار واستخلاص العبر والدروس، كما سبق توضيحه.

كل صلح وتصالح لابد له من ثمن وتنازلات، سواء كان بين المسلمين ثم كان بينهم وبين غيرهم، لكن هذا الثمن لا قيمة له من تنازلات أهون من إراقة الدماء ومفاسدها المهلكة، ولأجل ذلك فإن الصلح يحتاج إلى قدرة عظيمة، يتحملون اللوم والتقريع لعدة سنوات، حتى يعرف الجميع فضله وفضل الصلح كتب عظيم من أبواب الخير شرع لحقن الدماء، بعصمة الأموال(١٣١).

كل صلح يتحمل الصلح وآثاره وتنازلاته عليه أن يستحضر المستقبل، وأن يكون من ثم ذا نظر بعيد إلى ما وراء الصلح، بل إن النظر إلى المستقبل يجب أن يكون رائد فكر وحركة المنتمين للعمل الإسلامي، بمعنى أن يكون هم المستقبل وزمن حدوثه وعهده جديد يكثر فيه الخير والصلاح والحكمة والهداية. وخطاب هذا من الجميع على صفحة الماضي بحلوه ومره وخيره وشره، وترك ما فيه على أساس القاعدة الشرعية أن من اجتهد فيه قدر استطاعته وكان مصيبا فله أجران، ومن كان مخطئا في اجتهاده فله حر، وليس من آراء الحق فأخطأ، كمن آراء الباطل فأصاب(١٣٢).

- أن يركل تدقيق المسائل المهمة تفصيلا واستخلاص الأحكام الشرعية، كـ الجهاد، الدماء، والأموال، إلى أهل العلم والاجتهاد من العلماء الصادقين الثقات. إنها إعادة الاعتبار لقيمة العلم والعلماء المجتهدين التي بلاء كل مسلم أن يراعيه هو لا العلماء في مجالسهم ومحراب كل واحد منهم، كما سبق(١٣٣).

خامسا: مضمون فكر التصحيح والمراجعة في وجهته إلى الآخر غير المسلم في مصر

وغير المسلم في مصر مقصود في فكر التصحيح هو من ينتمي بالجنسية المصرية من المسيحيين الذين يشكلون مع المسلمين من أهل مصر نسيج الوطن الواحد والمجتمع الواحد والدولة الواحدة، فضلا عن ذلك الذي يأتي إلى مصر قاصدا لإقامة مؤقتة خاصة من السائحين من جنسيات مختلفة. ومن في حكمهم كما سيرد. وقد أصاب كلا الفريقين من غير المسلمين عنف الجماعات الإسلامية وعنف تنظيم الجهاد، مما أثر على العلاقة بين عنصري الوحدة الوطنية المصرية من جهة، وأصابها بالتوتر أحيانا من جهة ثانية، وعلى نظرة العالم - خاصة المعادي - إلى الحركة الإسلامية وإلى الإسلام من جهة ثالثة، وعلى موارد الدخل القومي فضلا عن حركة السياحة وما يتماهاها من أنشطة مساعدة من جهة رابعة.

١ - غير المسلمين في مصر من المصريين:

وهؤلاء نتائهم من فكر التصحيح حديث توقف عند بعض ملحظات، وأهمها:

- إدراك أن غير المسلمين من هذه الفئة - المسيحيين واليهود بصفة خاصة - يقصدون في فكر الجماعة في الصنف الأول ضمن أصناف ثلاثة لتحقق صنفهم. الخالق سبحانه في رؤيتهم له ووصفهم منه: صنف كفروا من المشركين وهم أهل الكتاب وهم الذين لا يقرون بالشهادتين، وصنف المؤمنون باطنا وظاهرا، وصنف أقروا به ظاهرا لا باطنا. وهي أوصاف ذكر فكر الجماعات أنها واردة في الآيتين الأولى والثانية من سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، ولسنا بصدد

Abu Nour www.alkottob.com

كيف استنبط هذا المفكر الأحياء الثلاثة من الأحياء السالفين، ولا من ابن استقى ذلك في كتب تفسير القرآن، خاصة وأنه لم ترد أية إحالة هامشية إلى أي من هذه الكتب (١٣٤).

– أنه لا مجال لموالاة المسلم لغير المسلم مطلقا، بما يفيده ذلك من حبهم أو حب دينهم أو نصرة شريعتهم وسلطتهم ودينهم، أو التحسس على دولة الإسلام لصالحهم، أو تفضيل دينهم على دين المسلمين، أو عون الكفار على هزيمة المسلمين، أو تمكينهم لهم من المسلمين، إلى آخره من أعمال تنهى الإسلام عنها، لأنها توقع في المعاصي الكبيرة وقد ينأى بعض هذي المرء فتنقصه أو تأخذ منه وتنقصه (١٣٥).

– أن قطع الموالاة السالفة لا يلغي مخالفة غير المسلمين بالحسنى، لأن الإسلام إنما حث على حفظ الأخلاق بأكرمها وأسماها، وجاء الرسول (ص) ليتمم مكارم الأخلاق. فشتان فرق بين الموالاة الممنوعة المقطوعة بين الخالقة المشروعة، فالأولى فيها نصرة للكفار وإشاعة لها، والثانية خلق الرسول (ص) مع الناس جميعا منهم الكافر والمشرك ومن لمخالفة عبدة الطريق الكافر أو المشرك، وأنها المسلم ليهب أو أنهم أو تقبل هديته أو إكرامه أو التحسن عليه أو مواساته فيما قد يصيبه (١٣٦).

– أن أجمع آية في حسن التعامل مع غير المسلمين عامة وغير المسلمين من أهل الكتاب خاصة هي قوله تعالى: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ... (الممتحنة/٨). والبر الوارد في الآية له أربع معاني وأضعفها وهذا ينسب إلى درجة الإحسان، أما القسط فينسب إلى درجة أخرى أقل هي درجة العدل. وقد توهم البعض في نظر فكر المراجعة.. أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة المنهي عنها، فنبه سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، بل هو من الإحسان الذي حببه وشرعه وكتبه على كل شيء (١٣٧).

– أن الأصل الشرعي هو أن أهل الكتاب ومن دخل في حكمهم إذا أدوا الجزية إلى الحاكم وعقد لهم عقد الذمة، سواء دفعوه إليه بأيديهم الجزية أو غيرهم، وأنهم ما داموا قد أعطوا ما عليهم في الدخول في عقد ذمة مع المسلمين وجبت إجابتهم وامتنع قتالهم، وعلى ذلك، فيجب في أداء هذه النية لا تقاتل الدول أهل الكتاب فيها بأداء الجزية، ولا يعقد معهم عقد ذمة، فيتم بمنع على الجماعات الإسلامية مقاتلة أهل الكتاب لإجبارهم على دفع الجزية، ويكفون عنهم لأن سقوط بعض الأفراد أو الطوائف بأخذ الجزية وعقد الذمة غير ممكن، لأن العقد يتضمن التزامات على الطرفين، ولا يتأتى لأفراد أداء هذه الالتزامات (١٣٨).

يؤخذ مما سبق أن العاملين للإسلام (أطراف أو أفراد) في ديار لا تحكم بالشرع ولا يأخذ الجزية من أهل الكتاب، ليس من حقهما إبرام عقد الذمة لهم لأنهم بالتبعين لم تستطيع الدفاع عنهم، وهذا كذلك فلا يحق لها أن تطالبهم بالجزية، وما دامت الجزية قد أسقط أداؤها لتعذر في حقهم فمن باب أولى لا يباح لهم مقاتلة أهل الكتاب لعدم أدائهم الجزية (١٣٩).

والمقدر فيما سبق أن فكر المنصح يمنع على الحركات الإسلامية ومن على غرارها في بلاد المسلمين عقد الذمة وأخذ الجزية لأسباب ثلاثة: أولها أنه لا سبيل إلى ذلك ما دامت هذه البلاد لا تحكم بالشرع، لأن ولاية الشرع تعني وجود سلطة تملك ترضى عقد الذمة وتحمي الجزية معا، أيرضاه بنفسها أم أبرهه من له شرعية إبرامه في الإسلام. كما فصل فكر الجماعة (١٤٠). والثاني أن غياب حكم الشرع في بلاد المسلمين لا يسقط الإثم عن المسلمين، وإن أصابهم الغياب بالضعف المانع لعقد الذمة واخذ الجزية. والثالث أن الجزية بدل حماية ودفاع وأمن، وغياب حكم الشرع يعني عجزه سلطته على تكفل ذلك، وهي وحدها المسئولة عنه وليس لظروف العاملة للإسلام

Abu Nour www.alkottob.com

- أن الأحداث الأخيرة التي أحب فيها بعض غير المسلمين المصريين من المسيحيين - سن شرع أخرى في المجتمع المصري(١٤١)، يفعل ما جرى من عنف واقتتال وفتن طائفية يجب أخذه في الاعتبار عند تقويم دور بعض الشباب المسلم فيها، وهو دور وفقا لفكر التصحيح لم يحقق مصلحة ولم يأت بثمرة إلا سفك الدماء وترويع الآمنين وإصابة بعضهم وتغييب الدعاة إلى الله من ساحة التأثير وانفراد التيار اللاديني بالتأثير على عقول الناس ومعتقداتهم.

٢ . غير المسلمين في مصر من غير المصريين (خاصة من السائحين):

وهو ما شغل الحديث عنه الفصل الرابع والفصل الخامس من الباب الثاني من الكتاب الثالث في سلسلة تصحيح المفاهيم للجماعة الإسلامية، تحت عنوان "حرمة قتل المستأمنين وتقييده السياحة"(١٤٢). والواضح من العنوان أن قضية السياحة و السائحين أدرجها فكر الجماعة في إطار ما تحدث عنه أنفقها - على اختلاف مذاهبهم - قدامى ومحدثون، في أبواب حكاه غير المسلمين ممن لا يتمتعون بوعوبة (جنسية) الدولة الإسلامية وإن تمتعوا برعايتها(١٤٣)، وهم الذين يقيمون على أرضها إقامة مؤقتة.

ونعل من أبرز المحطات الفكرية التي نتوقف عندها فكر التصحيح تجاه هذه الفئة:

- أنه إذا كان الأمان هو عقد بين المسلم والمشرك على الحماية من الحاق الضرر من كل منهما للآخر ولا فرق بين ورقة عقد يسمى شروطا كان أو وصف، فيصبح الأمن لآحاد المسلمين رجالا كانوا أو نساء في العهد والقسي خلاف - ولا أمان للمجنون ونحوه. ويعقد بكل ما يفهم منه معنى الأمن والإقرار، فإنه ينطبق في هذا العصر على تأشيرة الدخول وعلى دعوات الأحاد من المسلمين التي توجه إلى بعض غير المسلمين للزيارة ونحوها وعلى عقود العمل وعلى دعوة الشركات السياحية أو استخدام الفنيين وتحوهم من قبل شركات يمتلكها مسلمون(١٤٤).

أنه متى انعقد الأمان صار لغير المستأمن في حصانة من الحاق الضرر به سواء من أمنه من المسلمين أم من غيرهم من الذميين، فلا يحل التعرض لهم بالقتل أو التعرض لأموالهم أو اعراضهم(١٤٥). والسائح الذي يدخل مصر بأمان لا يمان له بالملابسات بين الحكومة وبين فصائل الحركة الإسلامية، وهو حالما علم للسائح به، ولا ينبغي أن يحاسب عليه، فلا طاقة له به أصلا والعبرة بما اعتبره أمانا وما عقد له على أنه كذلك(١٤٦).

- أن ما ذهبت إليه الجماعة الإسلامية من اعلان سابق - قبل التصحيح وايقاف العنف - أنها تستهدف السياحة لا السائح لا يجب الأخذ به ويبقى منعه، لأن استهداف السياحة يؤدي غالبا إلى قتل لسائحين أو إصابتهم، كما سبق في موضع آخر. والأصل العام المنع في فكر الجماعة ان الأفعال إما أن تكون فاسدة في ذاتها فهي محرمة لا خلاف في ذلك، أو تكون سياحة الأصل ولكنها تؤدي إلى الشر والفساد، فهذه تمنع لا لذاتها ولكن لما يترتب عليها من المفاسد وما تؤدي اليه من الوقوع في المحرم(١٤٧).

ويحق لنا هنا تساؤل: هل معنى ذلك أن استهداف السياحة ممنوع شرعا لأنه يترتب عليه شر وفساد وهو قتل السائحين أو إصابتهم؟ أم لأنه في ذاته محرم؟ أم لكليهما؟ والظاهر مما سبق أنه محرم لما يترتب عليه. عندئذ يكون السؤال: هل توجد سياحة بدون سائح؟ وإذا كان السائح أصلا يتمتع بالأمان، كما ورد في فكر الجماعة، فكيف يكون مستهدفا؟ إن الأمر في النهاية كان يحتاج تحديد المقصود بالسياحة أصلا قبل تحريمها، ومن ثم استهدافها وتعريف السائح، وعلاقة كل منهما بالآخر، وهو ما لم يتم.

Abu Nour www.alkottob.com

أن السلفيين كمسلمين يقع أمن كل منهم واجبا على كل المسلمين ما داموا أمة المسلمين واحدة، وسعى بذمتهم أدناهم كما ورد في الحديث النبوي. لهذا أمن أحد المسلمين مستأمنا حرم على غيره التعرض له بحرب قتله وصاله وعرضه، ولكن مرد إلى مأمنه حيث جاء، لأنه الذي أتى منه، أما كان شكل إعطاء الأمان صريحا أو كتابة أو ضمنا أو كان بإرسال رسالة بالإشارة(١٤٨).

- ثم إن العدوان على السياحة والسائحين، باستهداف عدد من هؤلاء، مدعاوى ما أصاب الشباب المسلم في أحداث العنف وما وقع عليهم من ظلم وعسف، فويل بعدوان تماثل هو البلاء الذي يمد منها السائحون. حيث رادفت بين الإسلام والعنف والدم، وتكلمت عن الغرب والتتر لأول مرة لمواجهة الإسلام والمسلمين واستبدلت الإسلام كعدو أول بالشيوعية، فتبين كما سبق أن أعداء الإسلام هم المسلمون.

هذه المحطات التي توقف فيها وعندها فكر المراجعة والتصحيح بخصوص غير المسلمين من غير المصريين، تثير في الخاطر ثلاث وقفات: الأولى تتعلق بسكوت فكر التصحيح عن التعرض لوجيات هذا الفريق من غير المسلمين إلا في عبارة "عدد" فقرير منها بالمسلم ولا من ورد، وهذه العبارة لا تكفي في بيان هذه الواجبات التي اجتهد فيها الفقهاء، فقرير منها بين مضامينها التي يلتزم بها أهل الذمة إلى حد كبير. والثانية عدم الإشارة إلى مدة إقامة المستأمنين - السائحين - بين الثابت والمتغير، فللعلماء آراء متعددة في ذلك خاصة ما يتصل بحد - أو عدم جواز - الإقامة الدائمة للمستأمن. والوقفة الأخيرة تتعلق بعدم تحفظ فكر التصحيح على بعض الممارسات التي تأتيها السائحون في المظهر والتصرف، والتي قد تستفز أحيانا بعض الأهالي، فضلا عن بعض شباب الحركة الإسلامية، إن لم نطالبهم للاعتراف والعدادات الاحتياطية أو لمحاولتهم للاحكام المتسرع

سادسا: مضمون فكر التصحيح والمراجعة في وجهته إلى الآخر "العدو" داخل مصر وخارجها

عندما نادت الجماعة الإسلامية بإيقاف "العنف" وبدورت بذلك، ودعت غيرها أن يسلك مسلكها، وجدته على الضد على الظلم والاضطهاد، لم تكن تريد فقط حسم مادة الفساد التي استحضرت مع العنف، بل أرادت أيضا أن تفوت الفرصة على من سمتهم أعداء مصر والدين حتى ينتهم عن نفسها في استغلال الفتنة في تشويه صورة الإسلام. وهكذا فإن هؤلاء الأعداء احتمعوا على مصلحة واحدة ليس من ورائها إرادة الخير لأحد المسلمين أو جماعاتهم أو لحكومتهم وإن اختلفت أهدافهم ومواقفهم ولم تكن هذه المصلحة إلا - وبصورة أساسية - الإبقاء على الأحداث المشتعلة، عن طريق التحريض التهييج أو مساعدة أحد الطرفين أو كليهما. الجماعات الإسلامية والنخب المصرية، لتكونوا - كما كر فكر التصحيح - أقرب لتحقيق مصلحتهم الخبيثة.

فمن هم هؤلاء الأعداء، ولماذا ناصبتهم الجماعة العداء؟ الواقع أنه قد تم تبويب هؤلاء الأعداء بحيث تكون إسرائيل في المقدمة، ثم أمريكا ثم يأتي في الحائط الغلمانيون، أو اللادينون وقبل استعراض تناول فكر التصحيح لمدى عداوة كل منهم تجدر ملاحظة أن هذ الفكر توقف في إشارة سريعة موجزة عند عدوين معنويين - وإن بدت وجوههما مادية- يعني منهم الشعب المصري والشعب المسلم كافة ولا يختلف عليهما أحد، وهما الفقر والتخلف(١٤٩)، ورغم خطورة هذا العدو الثاني، إلا أنه لا يعرف لهذا لم يحظ بنصيب وافر من تحليل وتفصيل فكر التصحيح.

(١) إسرائيل وعداؤه للمسلمين في مصر وخارجها: فهي أول الأعداء، الثالثة وإن من تجب مواجهته مواجهة موضوعية نشوب كل محاولاتها في شن الحروب على المسلمين، وعلى مصر

Abu Nour www.alkottob.com

خاصة، وهي حرب ستنوعة: أحداها حرب النهيمنة على المنطقة. ولم يحدد فكر الجماعة أية منطقة، وغالب الظن أن المقصود من سياق الكلام هو المنطقة العربية - عسكريا واقتصاديا بدئ طوال الحرب حول مصر والمنطقة كلها وتهديد امنها وزيادة التوتر فيها ورفض كل تعاون والأعراف الدولية التي تقف عقبة أمام أهداف إسرائيل وحسبها الذي لا يغفر هي اقامة دولتها العظمى من النيل إلى الفرات. وكل ذلك على حساب تقليص دور مصر العربي والإسلامي. وهو الدور الذي فرض عليها لا بالكف، الذاتي على مشاكلها وهمومها الداخلية. والثانية هي حرب الاستئصال لما اسمي بالقد الأصولي في المنطقة العربية. وهو المصطلح الذي رددته لسنة مسئولي إسرائيل وكتابهم ومحللهم، وهم يقصدون به الحركات الإسلامية التي تحتاج في نظرهم - لمواجهة خطرها واستئصاله - تضامن دول أوروبا والولايات المتحدة الامريكية. والثالثة حرب النهيمنة الثقافية والمعنوية، وهي أكثر انتشارا في صداها وآثارها وحدودها، عن طريق نشر الفساد والرذيلة وتدمير الاقتصاد وتفتيت المعنويات وايضاع الروح المعنوية واشاعة اليأس عن طريق نشر الأساطير حول قوة اسرائيل المزعومة واستحالة مواجهتها بغض ما لديها من سلاح نووي. فضلا عن ترويجها للمخدرات وتجارة اعمال التجسس.

إن اسرائيل بشنها هذه الحروب الثلاث تريد تهميش دور مصر أو طمسه. وهو اخطر ما يهدد مستقبل الصراع مع الدولة اليهودية. وإن اضطرار مصر للاستسلام لمحاولات التهميش سيكون له اثره الخطير على تشجيع إسرائيل على ممارسة العربدة في المنطقة وإهدار حقوق شعوبنا سلمة في فلسطين وخارجها. إذا خرجت من دعم كبير دولة عربية وأكبر قوة في المنطقة تستطيع أن تدعم الشعب الفلسطيني وتساعده في كفاحه المشروع تجاه آلة الحرب الإسرائيلية المدعومة من كل دول الغرب» (١٥٠)

(٢) امريكا والغرب ودوله: وعداءهم ظاهرة لأنهم الذين يعتبرون الحركات الإسلامية الأصولية عدوهم الفادء والبديل للعدو السوفيتي والشيوعية، ولذلك عقدوا الاجتماعات وتبادلوا الدعم لمواجهة هذا الخطر الجديد من ناحية، ولتأديب وتحريض الدول خاصة العربية والإسلامية على الجماعات الإسلامية من ناحية اخرى. وهم يقصدون من ذلك تحقيق مصالحهم المتعددة في رفض أن يكون لمصر دورها القيادي في المنطقة، ولتجسيم ذلك الدور إما إلغاء أو تقليل فاعليته، بافتعال المعارك داخليا مع الحركة الإسلامية، وتقديم إسرائيل لتحل في المنطقة محل مصر في موقع الفساد والهيمنة، وابعاد مصر عن محابهة الخطر الصهيوني وإيقاف عند العدو عن. وعندما تقوم امريكا والغرب ودوله بدعم اسرائيل فانهم يدعمونها لانها قاعدة الغرب العسكرية ورأس الحسر لعبور الهيمنة الغربية على المنطقة. ولكنهم من ناحية اخرى يشجعون الحرب على الأصولية والتحريض ضد هذا الخوف، لكي تدمر تجربة الإسلامية لانهم يعلمون أن انجاز مهامهم في الاستيلاء على ثروات هذه الدول لا تناسبه شعوب تفرغت لمعاركها المصيرية والحفاظ على حقوقها والسعي إلى تحقيق رفاهيتها. وإنما تناسبه شعوب مشغولة بمعارك داخلية وفتن مستعرة مستمرة عن معركتها الأساسية في النهضة والتقدم.

وإذا كانت مصالح الغرب على هذا النحو من استغلال الموقع واستضعاف الآخرين و لاختلاف مع مصالح الشعوب العربية والإسلامية، فإن إقامة علاقات على قدم المساواة معه تحقق المصالح المشتركة للجميع تفرض الاستغناء عن شروطه المختلفة، خاصة من طرق استعمال أداة البهيمة باستعمال سلاح المساعدات الاقتصادية والمالية والفنية. وهذا يحتاج من ناحية إلى تضافر الجهود والسعي، يحتاج من ناحية أخرى أن تتفهم مصر بثقلها الحضاري لتوجه هذا الجهود في ظل نظام عالمي جديد لا مكان فيه إلا للأقوياء (١٥١).

Abu Nour www.alkottob.com

(٣) العلمانيون (التيار اللادينى):

وقد قرن فكر التصحيح فى تسأنهم بين الكثير منهم أو الأغلبية وبين القليل منهم أو القلة بالكثير منهم أو الأغلبية غير مهتمين عموما بتجاوز مصالح الوطن فى سبيل مصالحهم الشخصية و عوالج طائفيتهم، لأنهم يدركون أن مصالح مصر فى تصدر الجهود لمواجهة العدو الصهيونى للوطن، وهذا الأمر الذى من شأنه كم فى ذلك ولو كان محتملا منهم فى الفكر والعقيدة. ومن هنا كان دعوتهم للحكومة لمحافظة على التيار الاسلامى باعتباره تيارا وطنيا والاعتماد من جهوده بدلا من الصدام معه. فيعد الشر الجميع. اما القليل منهم أو القلة فقد تجاهلت مصالح مصر وحقوق غيرهم من المصريين واهتموا بحقوقهم ولو على انقاض البلاد وأشعلت والمجتمع. ولم يأت موقفهم من الجماعات الاسلامية الا انعدا فجاهروا بالتحريض عليها والدعوة الى استئصالها بل وسعوا الى الاغراء بها من الحكومة المصرية وأفضل الأنفاق أيا كان - على كلمة سواء بين الطرفين.

وقد ورد فكر التصحيح دليلا على ذلك سعيهم الى التخويف من الاسلام، و تأثير على عقول الناس وعقيدتهم. ورجه كل من يجاهر بالدعوة إلى الاسلام بالارهاب مستغلا فعلوا تجاه الجمعية الشرعية وأخيرا الصحوة ووزارة الداخلية والأزهر فى مصر، والشيخ الشعراوى فى خوفه حول الدولار الكويتى. ورد وغلوش البحر فى جلسة للاحتجاج العلمى فى القرن والسنة(١٥٢).. ان هؤلا كذلك أرادوا الصهيونية لعداء قوى بين الجماعات الاسلامية و الحكومة المصرية مما يضعف كلا الطرفين. ومن ثم يفتح الطريق لتسلط هذه القلة اللادينية على الحكم وإدارة من تبقى من بعدهم وبعرض مناهجهم. لذلك لم تقف تلك القلة عند حد فى أساليب تحقيق ذلك. فعملا عما سبق، فان لديها سعب الى التسلط على بعض وسائل الإعلام التى أتيحت لتار اتجاهه وبعدت فى واد محاولات انها الأخذات العنف. وإضافة محاولات بعض العلماء الذين حاولوا وقف سيل الدماء، إنها الخصومة، والاصطدام ويرير الداخلية سابق حاول أن يسعى فى انجاح هذه الوساطة. وقد خلص فكر التصحيح الى استكثير من دور العلمانيين المطلق السابق حجم عشرة فى سبيل كل محاولة لها. تلك الأدوات لم تقابل مصالح مصر واهدافها وحاجتها ويتطلب تفويضه تكاتف الجميع وتعاونهم من خل توجيه الكلمة ونشرة الإسلام(١٥٣).

هذه الثلاثة التى رأى فيها فكر التصحيح تجسيدا حب المعدو الذى يسعى توجيه الضعف لتفريغ له، وتجاوز الاحتلالات للتصدى له يستوفقنا فى زيادتها على ما يلى:

- أن فكر الجماعة لم يشغل كثيرا بمظاهره وتعرفها فى الحديث عن هؤلا. لاعداء. فلم يهتم بعرض ما هو العدو اتصالا. ولا للاديني. وكان لأهم فى ذلك هو أن يتنقل من هؤ لتنظم الى الواقع، واقع وجود هؤلا. ورفع اعدادهم.

- كذلك فإن فكر استعراض إلى حد ما فى بيان خطورة كل عدو على حساب الاجهزة عن تصور اساليب المواجهة. وحتى فى تشبيهه الى ذلك مع الغرب واللادينيين لم يحدثه كيف تواجههم وهو الذى تنظمه المواجهة، الا فى نطاق ضرورة إعادة الأمر. لدور مصر القيادى فى تحديد اشكال القومى

ان الجميع المشتركين بين هؤلا. الأعداء فى فكر المراجعة هم اتباع من الاصوليين. أى من الحركة الإسلامية وقواها. ونتبعا يؤكد فى هذا الفكر أن هناك تنسيقا بينهم فى التخطيط لضربها خارجيا وضربها داخليا ولو بالنظم الحاكمة فى دولها.

كما أن هناك تلميحا الى خطورة ابعاد مصر دورها القيادى فى الأمة يؤدى دور استطلعة العربية تجاه التحدى لهذا الخطر اللادينى. وأن المخطط الإسرائيلى يستهدف هؤلا الأعداء فى نهوضه

Abu Nour www.alkottob.com

الفرصة على مصر - مساندة عربية وبكافة الوسائل - لتحيل إسرائيل محيطها في سوق تطفه إلى حيث تريد ويريد منها الغرب.

كما أن هناك رغبة في حصر خطورة العنف الخارجي في أمريكا والغرب وإسرائيل. وإن لم يذكر فكر التصحيح لهذا هؤلاء بالذات دون عداوة غيرهم - فإن هناك وعيا مقابلا في التفرقة بين فريقين من العلمانيين في تقويم دورهم السلبي، والإصلاحي بالنسبة إلى الأغلبية منهم، ودورهم التحريبي - إن جاز القول - بالنسبة إلى الأقلية.

الهوامش والمراجع:

(١) الحديث عن الحركة الإسلامية وتطورها في الفكر المعاصر يثير اشكاليات عديدة، ومداخل مختلفة للتحليل. وراجع حول ما ألحق بها من مفاهيم، سواء على المستوى الفكري التأصيلي، أو على مستوى ممارسات هذه الحركة وفصائلها، وهناك الكثير من الدراسات التي توفقت - سواء بتحيز معها أو ضدها، أو بعيدا عن التحيز - خاصة منذ نجاح الثورة الإيرانية في الإطاحة بحكم الشاه، ونفسر فقط شرعية السلطة البالغة في أواخر السبعينيات.

انظر: على سبيل المثال:

فرانسوا بورجا، الإسلام السياسي: صحوة الجنوب، ترجمة د. لورين ذكري، (القاهرة: دار العالم الثالث، ١٩٩٣)؛ د. محمد عمرو، الحركة الإسلامية في مصر من ١٩٢٨ إلى ١٩٩٣، (القاهرة: الدار المصرية للنشر والتوزيع، ١٩٩٤)؛ د. حامد عبد الماجد، الأنظمة العربية والحركة الإسلامية، (القاهرة: مركز الإعلام العربي، ١٩٩٥)؛ د. مصطفى محمود، الإسلام السياسي والمعركة القادمة، (القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٧)؛ د. أحمد البرقعي، د. محمد صقر (محرران)، التوجهات الغربية نحو الإسلام السياسي، (عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ٢٠٠٠)؛ نخبة من الكتاب، رؤى إسلامية معاصرة، (تكوين: كتاب العربي، رقم ٤٥ يوليو ٢٠٠١)، كمال حبيب، الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة، (القاهرة: مكتبة مدبولي ٢٠٠٢)، د. فؤاد زكريا، "مستقبل الأصولية الإسلامية"، مجلة فكر، العدد الرابع، ١٩٨٥، ص ص ٦٦ - ٥٠ "ملف الحركة الإسلامية المعاصرة بعد خمسين عاما من التجربة"، الحرس الوطني، (السعودية)، العدد ١١٤ السنة ١٣ شعبان ١٤١٢ هـ - فبراير ١٩٩٢، ص ص ٣٥ - ٨٧ "ملف الحركات الإسلامية المعاصرة"، الوحدة، العدد ٩٦، السنة الثامنة، سبتمبر ١٩٩٢ ص ٣ وما بعدها، د. رضوان السيد، "الإسلام السياسي والأنظمة العربية"، شئون الأوسط، العدد ٤١ مايو - يوليو ١٩٩٥ ص ص ٨٥ - ٩٦ "صور التطرف"، مجلة النهج، العدد ٢٣ ٢٠٠٠، ص ص ٨ - ١٠٧ "ملف ما بعد أحداث سبتمبر"، الديمقراطية، العدد الخامس، شتاء ٢٠٠٢ ص ٦٩ - ١٣٨، وانظر أيضا:

Cottam K., Philippidis (ed.), Islam in The Contemporary World, Indiana: Cross Roads, 1980; John L.E. -posi to (ed), Voices of Resurgent Islam, Ox ford: Ox ford Un. Press, 1983; Charles Butterworth, Political Islam, Middle East Perspec & Governman, Nov. 92, Vol. 524, p26-38; S.V.R Nasr, Democracy and Islamic Revivalism, Political Science Quarterly, Sum. 95, Vol. 110, Issu. 2, pp. 261 - 286; Micheal Esedlo, Political Islam and The West, The World Quarterly, Sep. 97, Vol. 18, Issue 1, pp. 129 - 143; Micheal Wolfs, Islamic Move ments and The West...

Abu Nour www.alkottob.com

(٢) مزيد من التفاصيل، انظر: د. مصطفى محمود، "إشكاليات منهجية عامة في دراسة الفكر السياسي" في: د. حسني عبد الرحمن (محرران)، المنهج في العلوم السياسية، ندوة تدريس العلوم السياسية في الجامعات الأردنية، عمان: جامعة آل البيت، ١٩٩٨، ص ص ٦٣ - ٩٩ وأيضاً د. مصطفى محمود "اقتراب منهاجية في خبرة تدريس الفكر السياسي الإسلامي" المسلم المعاصر، العدد ٩٩ شوال - ذو الحجة ١٤٢١ هـ / يناير - مارس ٢٠٠١، ص ص ٤٧ - ٨٨.

(٣) حول تحليل النصوص في الفكر السياسي: انظر: ابن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق وتعليق د. حامد ربيع، القاهرة: دار الشعب، ١٩٨٥، ج ١ ص ص ٩٨ - ١٠٥؛ د. مصطفى محمود، إشكاليات منهجية عامة في دراسة الفكر السياسي، مرجع سابق ص ص ٨٧ - ٨٩؛ د. حامد عبد الماجد، مقدمة في منهجية دراسة طرق بحث الظواهر السياسية، القاهرة: قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد - جامعة القاهرة، ٢٠٠٠، ص ص ٢٣٩ - ٢٤٥. وكذلك، حاورل مانهيم وورشارد رتيش، التحليل السياسي الامبريقي - طرق البحث في العلوم السياسية، اعداد ومراجعة د. سيد غانم و د. وودود عبد الرحمن، القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩٦، ص ص ٢٨٩ - ٣١٢؛ د. أسامة عبود، "تجلية نهوية في مصر في السبعينات: دراسة في تحليل بعض نصوص الخطاب السياسي"، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة: كلية الاقتصاد - قسم العلوم السياسية، ١٩٩٣، ص ص ١ - ٩٦.

(٤) انظر: الكتاب الثالث لسلسلة تصحيح المفاهيم، ص ١٤٥.

(٥) انظر: الكتاب الأول لسلسلة تصحيح المفاهيم، ص ٤.

(٦) انظر: عبد الرحمن علي، المغامرة الكبرى، مبادرة وقف العنف بين رد الحكومة والجماعة الإسلامية، (القاهرة: دار المحروسة، ٢٠٠٠)، ص ص ١٥ - ١٧.

(٧) انظر: المرجع السابق، ص ص ١٧ - ١٨.

(٨) انظر: مجلة الصور المصرية، أعداد ٢١ و٢٣ يونيو و٥ يوليو ٢٠٠٢.

(٩) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٧ - ٨.

(١٠) انظر: الكتاب الأول، ص ص ١١ - ٣١.

(١١) انظر: الكتاب الأول، ص ٣٢ والكتاب الثالث، ص ص ١٣٨ - ١٣٩.

(١٢) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٣٣ - ٣٤ والكتاب الثالث، ص ص ١٣ - ١٨.

(١٣) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٣٥ - ٣٩.

(١٤) انظر: الكتاب الأول، ص ٣٥.

(١٥) انظر: الكتاب الأول، ص ٥٢.

(١٦) انظر: الكتاب الأول، ص ٩٣.

(١٧) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٩٤ - ٩٥.

(١٨) انظر: الكتاب الأول، ص ٩٦ والكتاب الرابع، ص ص ١٣ - ١٤.

(١٩) انظر: الكتاب الثالث، ص ١٩.

(٢٠) انظر: الكتاب الثالث، ص ١٩.

(٢١) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٢١ - ٢٢ والكتاب الرابع، ص ص ٤ - ٥.

(٢٢) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١٠٣ - ١٢٠.

(٢٣) انظر: مكرم محمد أحمد، مراجعة أم مراجعة؟ حوار مع قادة التطرف في سجن العقرب، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢)، ص ٩ وما بعدها. عبد الرحمن علي، المغامرة الكبرى: مبادرة وقف العنف بين الحكومة والجماعة الإسلامية، ص ١٣ وما بعدها وانظر: مصطفى حامد: فتنا رشوان، الجماعة

Abu Nour www.alkottob.com

الإسلامية ونهاية العنف. لماذا الآن؟ محمد جمال عرفة، الجماعة الإسلامية المصرية تأكل نفسها - هل تأكل غيرها؟ وذلك على موقع إسلام أون لاين.

http://www.islamonline.net/arabic/pol/1-c/2002

وانظر: كذلك: ما أورده، ضياء رشوان، وفيصل هويدي في صحيفة العربي، عدد ٢٠٠٢/٦/٢٣ .

(٢٤) نقل مكرم محمد احمد في مؤلفه "مؤامرة" و مراجعة نصوص" تقارير الأزهر، وهو "على جهته رسمية مسئولة عن الدعوة بالفتوى في مصر عن الكتب الأربعة، وأثبتها في كتابه، وفيه تفسير مفصل عن كل كتاب، ورد في نهايته ما يشعر صراحة بنشره وتداوله، بل قبل في بعضها "انه يحث قسم، وقبل في اخر "ان منه مطلوب، وقيل في ثالث بعد الإشارة الى بعض "تعديلات فيه "انه يعود على الأمة الإسلامية بالامن والأمان، وبصحيح المفاهيم الخاطئة ... وقبل في الرابع "انه لم يستنتل عن مخالفة عقيدة او شرعية". انظر: ص ص ٢١١ ، ٢٢٦. أليس في هذا بعض ما يؤكد ما ذكرته بخصوص لاحقة على أسؤال الثاني المنبوذ في الفتن ؟

(٢٥) مثل أحاديث الواردة بدون تخريج في الكتاب الثاني، ص ١٧٥ و لكتاب الرابع، ص ٦٢.

(٢٦) انظر: الكتاب الأول، ص ١٩ وما بعدها.

(٢٧) مثل ما ورد في الكتاب الأول من قول لعمر من الخطاب رضي الله عنه دون سند، ص ٣٠ وفي الكتاب الرابع من قول لأسعد بن زرارة رضي الله عنه دون سند، ص ٤٠ ناهيك عن أقوال يعتبر رموز الجبهة الإسلامية دون سند، مثل ما ورد عن عمر بن عبد العزيز في الكتاب الثاني، ص ٧٠ وما ورد عن هارون الرشيد في الكتاب الثالث، ص ١٢٣ .

(٢٨) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٨ - ١٠ .

(٢٩) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٥١ - ٥٢ .

(٣٠) انظر: الكتاب الثاني، ص ١٧٦ وما بعدها .

(٣١) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١٠٣ - ١١٧ .

(٣٢) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٣٣) انظر: الكتاب الرابع، ص ١٦١ وما بعدها.

(٣٤) انظر: الكتاب الثالث، ص ١١٧ .

(٣٥) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١٠٤ - ١١٨

(٣٦) انظر: الكتاب الثالث، ص ١١٩ .

(٣٧) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٣٨) انظر: مقدمة ابن خلدون، بيروت: دار احيا التراث، د. ت، ص ٩ وما بعدها

(٣٩) انظر في فكرة النموذج "تاريخي": د. حامد ربيع، الدعاية الصهيونية، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥، ص ٢١٦ وما بعدها، د. سيف نصرت عبد الفتاح إسماعيل، مدخل النسق، إطار مرجعي لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥، ص ص ٥٥ - ٥٥٤ .

(٤٠) انظر: الكتاب الثاني ص ص ٧٦ - ٧٩، ٨٩ .

(٤١) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٥٢ - ٥٥ .

(٤٢) انظر: الكتاب الثاني، ص ٣٣ .

(٤٣) انظر: الكتاب الثاني، ص ٤٨ .

(٤٤) انظر: الكتاب الأول، ص ٣٩ .

(٤٥) انظر: الكتاب الرابع، ص ١٦٢ .

Abu Nour www.alkottob.com

(٤٦) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٢٦ - ٢٧ .
(٤٧) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٩٣ - ٩٥ والكتاب الثاني، ص ص ١٨ - ٤١ .
(٤٨) انظر: الكتاب الأول، ص ٥٣ .
(٤٩) انظر: الكتاب الثاني، ص ١١ .
(٥٠) انظر: الكتاب الثاني، ص ١٦٩ .
(٥١) انظر: الكتاب الثالث، ص ٤٣ .
(٥٢) انظر: الكتاب الرابع، ص ١٥٣ .
(٥٣) انظر: الكتاب الرابع، ص ١٧١ .
(٥٤) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٣٤ - ٣٦ .
(٥٥) انظر: الكتاب الثاني، ص ٣ .
(٥٦) انظر: الكتاب الثاني، ص ١٦٢ .
(٥٧) انظر: الكتاب الرابع، ص ٤٣ .
(٥٨) انظر: الكتاب الرابع، ص ١٦٢ .
(٥٩) انظر: الكتاب الأول، ص ٣٩ .
(٦٠) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٥٨ - ٩٣
(٦١) انظر: الكتاب الأول، ص ٧٨ و الكتاب الثاني، ص ١٠ وما بعدها.
(٦٢) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١٠٤ - ١١٦ .
(٦٣) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٤١ - ٤٨ .
(٦٤) انظر: الكتاب الثاني، ص ١٢١ وما بعدها .
(٦٥) انظر: الكتاب الثاني، ص ٦١ والثالث، ص ٦١ .
(٦٦) انظر: في خاصة استبدعا لمفاهيم ذات الخصوصية الإسلامية بعضها البعض د. عبدالمطلي منجود، اتجاهات دراسة مفهوم السلطة السياسية في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، بحث غير منشور قدم إلى الندوة العالمية للدراسة للأسدة في العلوم السياسية ديسمبر ١٩٩٩
(٦٧) هذه المفاهيم هي التي تم تحديدها حصرا في الكتاب الأول، علي انها المفاهيم المفاتيح التي لاحت بوادرها، أو التي يحتمي حدوثها، واستمرارها. انظر: ص ص ٥٢-٥٣
(٦٨) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٢٥ - ٤٠ .
(٦٩) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٤٩ - ٥٥ .
(٧٠) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٥٩ - ٦٥ .
(٧١) انظر: الكتاب الثالث، ص ٦٦ .
(٧٢) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٤-١٠ - ١٢ .
(٧٤) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١٢٣ - ١٤٢ .
(٧٥) انظر بشأن موقع الجهاد من وظيفة الدولة الإسلامية في: د. حامد عبد الماجد، الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية، (القاهرة: دار التوزيع و النشر الإسلامية، ١٩٩٣)، ص ص ٧٣ - ١٤٨ ؛ عبد العزيز صقر، نظرية الجهاد في الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة: كلية الاقتصاد و العلوم السياسية، ١٩٨٢، د. عبد العزيز صقر، العلاقات الدولية في الإسلام وقت الحرب، (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مشروع العلاقات الدولية في الإسلام، رقم ٦، ١٩٩٦) ؛ مصطفى منجود، الدولة الإسلامية وحدة العلاقات الخارجية في الإسلام، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مشروع العلاقات الدولية في الإسلام، رقم ٤، ١٩٩٦ .

Abu Nour www.alkottob.com

(٧٦) انظر: الكتاب الثالث، ص ١٠.

(٧٧) انظر ما ورد في الهامش رقم (٧٣) من مراجع، والجدير بالذكر أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي أصدر موسوعته التي ضاقت بعشر مجلدات عن العلاقات الدولية في الإسلام، من خلال تعريق بحثي من قسم العلوم السياسية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، وباشر العمل فيها ثلاثة عشر سنوات، وقد أسس فقه هذه العلاقات على إحداث التكامل بين الأصول المنزلة، والخبرة التاريخية، والعطاء الفكري للمسلمين. وتوالى صدورها منذ ١٩٩٦.

(٧٨) انظر: د. عبد العزيز سرحان، نظرية المعهد في الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٦ وما بعدها. وله أيضا العلاقات الدولية في الإسلام وقت الحرب، مرجع سابق، ص ١١ وما بعدها.

(٧٩) انظر: الكتاب الثاني، ص ١٩.

(٨٠) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٩- ٢٤.

(٨١) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٢٧- ٥٢.

(٨٢) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٥٣- ٧٠.

(٨٣) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٧١- ٨٣.

(٨٤) انظر: الكتاب الثاني، ص ١٩ ص ٢٧، ص ٥٥.

(٨٥) انظر: د. يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، نشر: وزارة الأوقاف، سلسلة كتاب الأمة رقم ٣، شوال ١٤٠٢هـ.

(٨٦) انظر: المرجع السابق، ص ص ١٢٩، ١٩٩.

(٨٧) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٦٦، ٦٩.

(٨٨) انظر: الكتاب الثاني، ص ١١٣.

(٨٩) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١١٧، ١٢١.

(٩٠) انظر: الكتاب الثاني، ص ١٢١.

(٩١) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٩٧، ١٠٠.

(٩٢) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٩٢- ٩٦.

(٩٣) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٩٠- ٩١.

(٩٤) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٠٤- ١١١ ص ص ١٢٢- ١٢٧.

(٩٥) انظر: الكتاب الثاني، ص ١٣١.

(٩٦) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٣٣، ١٣٩.

(٩٧) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٤٣، ١٤٦.

(٩٨) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٦٥، ١٦٦.

(٩٩) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٦٩، ١٧١.

(١٠٠) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٩٥، ١٩٦.

(١٠١) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ١٥- ٢٠ ص ص ٢٦- ٢٨.

(١٠٢) انظر: الكتاب الرابع، ص ٣٣.

(١٠٣) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ٣٩، ٤٠.

(١٠٤) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ٤٥- ٥١.

(١٠٥) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ٥٥- ٥٦.

(١٠٦) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ٦٧، ٧٥.

(١٠٧) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ٧٩- ٨١.

Abu Nour www.alkottob.com

(١٠٨) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ٨٥ - ٩٢ .

(١٠٩) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ٩٧ - ١٠٨ .

(١١٠) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ١١١ - ١١٨ .

(١١١) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ١٢١ - ١٣٣ .

(١١٢) انظر: الكتاب الرابع، ص ١٤٧ وما بعدها .

(١١٣) انظر في هذه الأمثلة: الكتاب الرابع، ص ١٦٠ وما بعدها.

(١١٤) انظر: الكتاب الرابع، ص ١٥٧ .

(١١٥) انظر: الكتاب الرابع، ص ١٧١ .

(١١٦) انظر: الكتاب الثالث، ص ١١٨ إذ ورد " من اجمل ما قرأت في ذلك " .

(١١٧) انظر: الملاحظات الدقيقة التي أوردها جمال سلطان في المنار المحمدة، عدد محرم ١٤٢٣ هـ أبريل ٢٠٠٢ ص ص ٤ - ١٣ .

(١١٨) ورد ذلك في إحدى محاورات التليفزيونية مع قيادات الجماعة في مطلع الثمانينات والتي كان يديرها ويشرف عليها التليفزيون المصري بحضور نخبة من العلماء مصريين، خدمة من الأزهر الشريف.

(١١٩) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١٢٠) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٣٢ - ٣٥ .

(١٢١) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

(١٢٢) انظر: الكتاب الثاني، ص ٦٢ .

(١٢٣) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١٥ - ١٦ .

(١٢٤) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٥٩ - ٦٣ .

(١٢٥) انظر الكتاب الثالث، ص ١٠٠ .

(١٢٦) انظر: الكتاب الرابع، ص ١٥٣ .

(١٢٧) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٣٥ - ٣٦ .

(١٢٨) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(١٢٩) انظر: الكتاب الثالث، ص ١٥ .

(١٣٠) انظر: الكتاب الثالث، ص ٤١ .

(١٣١) انظر: الكتاب الرابع، ص ص ١٣٠ - ١٣١ .

(١٣٢) انظر: الكتاب الثالث، ص ١٤٦ .

(١٣٣) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(١٣٤) انظر: الكتاب الثاني، ص ١٢٩ .

(١٣٥) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(١٣٦) انظر: الكتاب الثاني، ص ص ١٧٦ - ١٧٩ . ويلاحظ هنا كيف قسم فكر التصحيح غير المسلم إلى كافر ومشرك فقط. ففي التقسيم الأول اعتبر النصراني كافرا، وفي الثاني تم التمييز بينه وبين الكافر. ثم في موضع لاحق عد النصراني واليهودي كافرين، عندما ضربت بعض الأمثلة للمخالفة الحسني معهما في عبودة المريض لكافر. ثم في موضع لاحق أيضا تم التمييز بين النصراني والكافر اليهودي والمشرك غير المحارب، ونقل جواز مهنئة الجميع بالزواج، والاعجاب، والعودة من السفر. ثم في موضع لاحق ثالث اعتبر النصراني كافرا عدم الممانعة عن جواز تشييع جنازة الكافر، ومشاركته في العمل المباح، لاحظ سياق ذلك في الكتاب الثاني، ص ص ١٧٦ - ١٨٧ .

Abu Nour www.alkottob.com

والأمر بهذا الشكل يحتمل لبسا وخلطا. وأحسن أن عرض قضية التكفير وموقع عمر المسلم الكتابي منها يثير تأويلات كثيرة. بل وقد يفتح الباب على مؤاخذات أكثر على فكر الجماعة الإسلامية، خاصة مع حساسية وضع نشاط مصر في تسيج الجماعة الوطنية، وما ارتبط به من خبرة سنينة حال استعراض رؤية الجماعة له في نهاية التسعينات وبداية التسعينات، ومع أن فكر الجماعة توقف كليا ويحسم عند قضية التكفير ونال إشادة الأزهر بد كما نقل مكرم محمد أحمد وأيده، الف، وتحفظ عنها بشدة، انطلاقا من مذهب أهل السنة والجماعة. الا أننا لا ندري ماذا لو تحور الجماعة هذه المسألة، بتشكل براعي التفكه الذي نضاله على مدار الكتب الأربعة، اعني فكر المصالح والمفاسد. بضوابطه المعقدة، حتى تزيل رواسب قديمة، ونؤكد أن مسلكها التصحيحي للمفاهيم ينطلق من حسن نية وموضوعية تجاه الجميع.

(١٣٧) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١٨٠ - ١٨١ ص ١٩٠.

(١٣٨) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٨٢ - ٨٥. كان بودنا استكمالا لموضع عمر المسلمين شرعيه أن يستكمل فكر الجماعة هذ الوضع في الدولة المسلمة، وما يتعلق به من حقوق واشتراطات. انظر في ذلك: د. مصطفى مجور، الدولة وحدة العلاقات الخارجية في الإسلام. مرجع سابق، ص ص ٢٦٦- ٢٩٤، د. عبد الكريم زيدان. أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢ ١٩٨٨.

(١٣٩) انظر: الكتاب الأول، ص ٨٦.

(١٤٠) انظر: الكتاب الثالث، ص ٩٣ وما بعدها.

(١٤١) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ١٥ - ١٨.

(١٤٢) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٩١ - ١٠٠.

(١٤٣) انظر: التفاصيل في د. مصطفى مجور، الدولة وحدة العلاقات الخارجية في الإسلام. مرجع سابق، ص ص ٢٧٦- ٢٨٣ د. عبد الكريم زيدان. أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، مواضع متفرقة.

(١٤٤) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٩٣ - ٩٧.

(١٤٥) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٩٧ - ٩٩.

(١٤٦) انظر: الكتاب الثالث، ص ٩٩.

(١٤٧) انظر: الكتاب الثالث، ص ١٠٠.

(١٤٨) انظر: الكتاب الثالث، ص ص ٩٣ - ٩٥.

(١٤٩) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٣٤ - ٣٥.

(١٥٠) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٤٠ - ٤٣.

(١٥١) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٤٣ - ٤٤.

(١٥٢) انظر: الكتاب الثالث، ص ١٧.

(١٥٣) انظر: الكتاب الأول، ص ص ٤٦ - ٤٨.

Abu Nour www.alkottob.com

www.alkottob.com

Abu Nour

www.alkottob.com

القسم الثاني

الحركات الإسلامية: قيادات حركية وفكرية

www.alkottob.com

Abu Nour www.alkottob.com

١. حسن الترابي: شخصيته وأفكاره

أولاً: من الفكر إلى السياسة

ولد حسن عبد الله دفع الله الترابي في مدينة كسلا شرق السودان عام ١٩٣٢ في أسرة متدينة محافظة. تلقى عن والده - الذي كان يعمل قاضياً شرعياً - علوم الفقه واللغة العربية وحفظ القرآن الكريم ببضع قراءات (١). كما درس أصول الأحكام وفقه المذاهب في المعاهد الدينية إضافة إلى العلوم المدنية في المدارس الابتدائية والثانوية المدنية والتي كان من بينها مدرسة حنتوب الثانوية الشهيرة التي تخرج فيها أيضاً جعفر النميري وصفوة المتعلمين في السودان. وذلك بتشجيع من والده العالم بفقه وأحكام القضاء والشرع. وكان جده، محمد الحلان بن محمد البدير المشهور بـ "ود الترابي" شاعراً صوفياً اشتهر في السودان بالإصلاح والتقوى. وجاء في كتاب الطبقات "لود ضيف الله" أن "ود الترابي" كان قد عُين مفتياً في موسم الحج في مكة، ولم يقبل بعودته أحد، بل تعرض للضرب والمضايقات، وجاء بعدها ليستقر في السودان ويقضي معظم وقته متفرغاً من الخلوة. وهكذا جاءت النشأة الأولى لحسن الترابي في بيئة أسرية دينية جمعت بين الاتجاهين الصوفي والشرعي، الأمر الذي أسهم لاحقاً في اعتماده على الأصول الشرعية والانطلاق في رؤيته السياسية من منظور إسلامي.

وفي عام ١٩٥١ استقل حسن الترابي بعد حصوله على الثانوية العامة لدراسة القانون في جامعة الخرطوم التي تخرج فيها بدرجة البكالوريوس عام ١٩٥٥، كما حصل على شهادة البكالوريوس في القانون أيضاً من جامعة لندن، إضافة إلى الماجستير عام ١٩٥٧، ثم التحق بجامعة السوربون في باريس ودرس فيها مدة أربع سنوات، وحصل على درجة الدكتوراه في القانون المقارن عام ١٩٦٤(٢). كما أتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية تحدثاً وكتابة ولديه إلمام واسع باللغة الألمانية وجمع بذلك بين الثقافتين الإسلامية الأصولية الصافية إلى الثقافة الغربية الحديثة.

تزوج الدكتور الترابي أثر عودته من الخارج من السيدة وصال المهدي ابنة الإمام الصديق بن عبد الرحمن المهدي وشقيقة السيد الصادق المهدي، الأمر الذي أثار فيما بعد الكثير من اللغط من جانب خصومه السياسيين الذين اتهموه دائماً بالسعي إلى الحصول على مواقع متقدمة في السودان على المستويين السياسي والاجتماعي وأن مصاهرته لبيت المهدي أوضحت ضحوحاته المبكرة لتولي المواقع القيادية. وإن كانت هذه الاتهامات قد توارت بعد ذلك بالتدريج بعد أن أصبح الترابي الرجل القوي في السودان في الفترة الممتدة من

Abu Nour www.alkottob.com

Abu Nour www.alkottob.com

وبدأت مسيرة الترابي في الحياة السياسية في السودان وخارجها ترتبط بالحركة الإسلامية، كما أصبح اسم الترابي وشخصه يعتبر ان من قبل أعدائه قبل أصدقائه واحدا من أبرز رموز الإسلام السياسي، الحركة الإسلامية الحديثة، وبعدها بفترة قصيرة استقال الترابي في ١٩٦٥ من عمله في الجامعة ليتفرغ للعمل السياسي العام.

منذ ذلك الوقت وحتى الآن، أصبح الدكتور حسن الترابي أحد أعمدة العمل السياسي في السودان في الحكم وفي المعارضة على السواء، سواء كانت هذه المعارضة سرية أم علنية. وقد اظهر على امتداد هذه الفترة مميزات خاصة اتسمت بها شخصيته وقدراته التنظيمية والفكرية، مما جعل له دورا مميزا في ساحة العمل السياسي والفكري داخل السودان وخارجه. ويعتبره الكثيرون المؤسس والصانع الحقيقي للحركة الإسلامية الحالية في السودان فهي وليدة فكره ومدرساته وبنت بناته بشكل او بآخر. وهناك اجماع عام على أنه أقوى شخصية قيادية في هذه الحركة.

كانت الحركة الإسلامية في السودان قد شهدت عقب عودته من الخارج ودوره المميز في ثورة اكتوبر بداية لنشاط سياسي وحركي مكثف اخذ ينتقل من طور إلى طور مختلف بأدوار ترابي اجتهادية، فعقب عودته من الخارج كانت الحركة الإسلامية في السودان تعاني طورا من الجمود على أثر اعتقال مرشد العام المرشد الظاهر بكر عام ١٩٥٩ أثر اشتراكه في الاعتداد لانقلاب عسكري على حكم الفريق إبراهيم عبود. وكانت الحركة تتأرجح بين المناخر الغالب عليها من فكر حركة الإخوان المسلمين الأم في مصر وبين كونها حركة نشأت في ظروف خاصة لمواجهة المد الشيوعي امتداداً في جامعة الخرطوم بالذات. إضافة إلى الظروف المحلية في السودان والسمات الاجتماعية الغالبة على طريقة فهم السودانيين للإسلام، واندراج معظمهم في طرق صوفية أو انتمائهم لطبقة الأنصار التي تدين بالولاء لأسرة المهدي او لطائفة الختمية التي تدين بالولاء لأسرة الميرغني. وقد أدى ذلك إلى وجود قوى واضحة في الظروف والمعدات التي جهت الحركة الإسلامية حديثة النشأة في السودان عن تلك التي تواجه الحركة الأم في مصر، مما جعل هناك نوعا من التفاعل والجدل داخل الحركة السودانية حول اتباع أي من المنهجين الشيوعي أو السياسي في عملها. فاتباع منهج السرية يريدون السير على خطى الحركة الأم في مصر، بينما رأى الترابي والفريق الذي تبعه ضرورة الانفتاح بالواقع والتفاعل معه في اطار الثوابت المنهجية للعمل الإسلامي، وفي إطار فهم جديد ينادي بالتجديد والعودة للأصول. وقد كان لشخصية الترابي وقدرته الهائلة على الحشد والتعبئة ومهاراته المتعددة في الكتابة والخطابة وغيرها بدرجة عالية من الديناميكية والحركية أثرها في اجتذاب الكثير - من الشباب المتميز كانوا يمثلون بعض عضوية الحركة الإسلامية وقاعدتها - إلى صفه، وتطبيقا لهذا الاتجاه استطاع الترابي أن يقنع التنظيم الإخواني بالتحالف مع جبهة أنصار السنة وبعض الفرق الصوفية لتكوين جبهة إسلامية في مواجهة المد الشيوعي وانعطافي لخوض الانتخابات البرلمانية التي عقبت انتصار ثورة أكتوبر ١٩٦٤، وقد تكونت هذه الجبهة تحت اسم جبهة الميثاق الإسلامي، واختار الترابي أمينا عاما لها، واستطاعت هذه الجبهة أن تحرز سبعة مقاعد في الجمعية التأسيسية في انتخابات ١٩٦٥ وجعلت من مسألة إقرار دستور إسلامي للسودان همها الأول ثم دفع بالأحزاب الأخرى وأهمها حزبا الأمة والاتحادي تحت تأثير شعاراتهما الإسلامية إلى الموافقة على مسودة دستور عام ١٩٦٧ ذي السمة الإسلامية.

وفي الفترة ذاتها كان الدكتور الترابي احد القادة الأساسيين في الحملة التي تم شنها على الحزب الشيوعي السوداني لإخراجه وطرده من البرلمان عام ١٩٦٨ بعد المذبحة الشهيرة التي وقعت في إحدى الندوات التي انعقدت بمدرسة دار المعلمين بالسودان والتي تناول فيها أحد الطلاب المنتمين للحزب الشيوعي "حادثة الإفك" المعروفة في التشريع الإسلامي بطريقة تنال من السيدة عائشة أم المؤمنين، الأمر الذي أحدث رد فعل بالغ العنف والهياج في الشارع السوداني أججه تنظيم الإخوان ولعب فيه الدكتور الترابي

Abu Nour www.alkottob.com

دور قائدا لخيرانه ومهراته القانونية في صياغة التعديلات الدستورية التي أقرها البرلمان والتي انتهت الى إسقاط عضويته لأعضاء المنتمين للحزب الشيوعي وطردهم من الجمعيه التأسيسية. وتكمن أهمية هذه الحادثة في أنها كانت احد الأسباب الأساسية لوقوع انقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩ فيما بعد بقيادة العقيد جعفر النميري. ويجمع الكثير من المراقبين على أن طرد الحزب الشيوعي من البرلمان بهذه الصورة كان انقلابا سياسيا حقيقيا دون استخدام للقوة العسكرية. وأصبحت مسألة إقرار الدستور الاسلامي هي القضية العالقة في مناقشات الجمعية التأسيسيه. وبعد أن تم إقرار المسودة الأولى للدستور وقع الانقلاب الماركسي بتحالف الضباط الأحرار مع اليسار السوداني بقيادة الحزب الشيوعي لسودنته. مثل أعضاء اليسار الأول للانقلاب أنه قد جاء لكي يحول الوريقات الصفراء - في إشارة لمشروع الدستور الاسلامي - ولكي يعيد ثورة أكتوبر ١٩٦٤ الى وجهها التقدمي وطبيعتها الاشتراكية بعتبار أن هذا هو الخط الأصلي لهذه الثورة والذي انحرف الى سيطرة الطبقات والتجمعات المهنيه التي همس عليها الشيوعيون على مجريات ثورة أكتوبر، وبعني حكومة سر الختم خليفة الانتفاضة التي تشكلت عقب سقوط الحكم العسكري بغية تتم العودة للحياة البرلمانية.

في تلك الأثناء، وخلال الفترة التي سبقت انقلاب النميري استمرت التوترات داخل حركة الإخوان المسلمين حيث تصاعدت الخلافات الداخلية التي تسببت فيه التركيبة الجديدة لجبهة الميثاق الإسلامي، حيث الخلاف مرة أخرى بين تيارين. الأول الذي ينادي بالتريبه "تقدما" ينهج الأخر المنظيمي الذي يدعو إلى التمركز على تركيبة لأعضاء، ووضع شروط قاسية للعضوية، "التيار الثاني التاسيسي الذي يميل الى الاستكثار من الأنصار ويركز على النتائج. وقد كان محور لاتهامات التي وجهت إلى الترابي انه انفت الى السياسة وركز عليها على حساب التربية والانتقائيه في العضوية، رغم أنه كان اقترح من قبل أن تنحصر الحركة عن العمل السياسي وان تتفرغ للدعوة وتقتصر على دور جماعة الضغط إلا أنه رأى أخيرا أنه اذا تحولت الحركة إلى حزب سياسي فان هذا يدعو من وجهه نظره الى الحدة في هذا العمل. وبعد أن اختار التنظيم أن يكون حزباً هو جبهة الميثاق واختير الترابي زعيما له ركز على أهميه السياسة. وحين تصاعد الجدل حول هذه الناحية صدراً بالانقسام. قدم الترابي تنازلا لمنتقديه بأن تحمى عن زعامة تنظيم الإخوان المسلمين. وأصبح هناك نوع من توزيع الوظائف والأدوار، بحيث أصبح التنظيم الداخلي (أي الاخوان) مركز عمى التربيه والصفوية والعضوية المنتقاة، بينما تفرغ الترابي للعمل السياسي وإدارته عبر التنظيم الموسع جبهة الميثاق التي كانت تضم ممارس ومشارب متعددة يجمعها "تفاني على الحد الأدنى من الموجهات [٧].

غير أن هذه التوترات استمرت ربما نتيجة للتعارض بين موقعي أمين عام جبهه الميثاق الذي يشغله الترابي، وكان يجتذب الاضواء ويستقطب الاضضاء. وبين التنظيم الداخلي الذي بدا دوره همشت وضمر ربما عن الأنظار، ومن ثم فقد حاولت مجموعة من العناصر المعارضة للترابي إزاحته عن القيادة في المؤتمر الذي انعقد في إبريل ١٩٦٩. إلا أن هذه المحاولة لم تكتمل بالنجاح بل جاءت نصرا للترابي، إذ قرر المؤتمر إلغاء التشابه بين التنظيمين الداخلي والخارجي وتوحيدهما تحت قيادة الترابي. وكان من المفترض أن يتم فصل المجموعة المعارضة من التنظيم، إلا أن الانقضاض تأجل بسبب وقوع انقلاب مايو حظر التنظيم مما أدى إلى بقاء المعارضين داخل التنظيم تحت قيادة الترابي.

أعتقل الترابي عقب انقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩ مع مجموعة من كبار السياسيين المطاح بهم، وبقيا فترة قصيرة أطلق خلالها سراحه من ١٩٧٢ - ١٩٧٣، بقي الترابي في السجن زهاء سبع سنوات. وفي تلك الفترة شغل الترابي بتقوية الحركة الإسلامية وإحكام بنائها التنظيمي. فشهدت الفترة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ ثورة في الهوامش التنظيمية التي كان يقودها الترابي بصياغتها في منزله بحي المنشية (كان يحب الإقامة الجبرية نهارا)، وقد حددت هذه الهوامش خصائص كل مكتب وضبيعة وطائفه وهياكله وكيفيه اتخاذ القرار وصلته بالمكاتب الأخرى. وأصبح المكتب التنفيذي للحركة يقوم على شعبتين هما المكتب الادارى والمكتب السياسي.

Abu Nour www.alkottob.com

كما أصبحت هناك مكاتب فنوية ومناطق وشعب وأسر، وكذلك مكاتب مالي ومكتب للعلاقات الخارجية. وامتدت يد التنظيم إلى مجمعات الإخوان في أوروبا ودول الخليج والمملكة السعودية وكذلك إلى نيجيريا وحملت طفرة في كتابة التقارير والإحصائيات ووضع التصورات والتخطيط، مما مكن قيادة الحركة لأول مرة من تلمس المقدرات الحقيقية للتنظيم. وبدأت الأمور تسير منتظمة في تماثل والخارج، مما دفع الترابي إلى التطلع إلى قيام حركة إسلامية قومية تستوعب في إطارها جبهة الوطنية، فوضع لذلك استراتيجية مكتوبة أدى وقوعها في أيدي رجال الأمن إلى إعادة اعتقال الترابي مرة أخرى مما أدى إلى انحسار الانطلاق التنظيمي للحركة الإسلامية في السودان (٨).

تجدد الصراع داخل الحركة الإسلامية مرة أخرى في النصف الثاني من السبعينيات حول التوجهات العامة لها، ففي يوليو ١٩٧٦ شارك الإخوان في محاولة التي جرت لقلب نظام الحكم بالقوة عبر محاولة الغزو التي قام بها تنظيم الجبهة الوطنية المعارض للنميري والذي كان ينطلق من ليبيا قاعدة له. وكان يقتم الأنصار بقيادة الصادق المهدي إضافة إلى الشريف حسين الهندي وتنظيم الإخوان المسلمين. وبعد فشل الغزو تطورت الأحداث باتجاه المصالحة الوطنية مع نظام النميري التي جرت بالفعل عام ١٩٧٧ وشارك الإسلاميون من خلالها في السلطة، الأمر الذي فجر الخلاف مجدداً داخل تنظيم الإخوان، وانتهى ذلك بإعلان انشقاق المجموعة المعارضة بزعامة الصادق عبد الله عبد الماجد عام ١٩٨٠، وأطلقت هذه المجموعة على نفسها "حركة الإخوان المسلمين" وتبنت النهج الإخواني في التربية وانضمت رسمياً للتنظيم الدولي للإخوان. وكان محور الانشقاق هو الاعتراض على نهج الترابي في القيادة خاصة التراجعاتية التي تميز بها والتي رأى فيها هؤلاء ضرباً من الانتهازية، ودعوا إلى التركيز على انقاء الأعضاء وتربيتهم وصقلهم الفترة الكافية تسبق المصالحة الوطنية نفسها.

وطبقاً للاستراتيجية الموضوعة سلفاً، انحسرت أعداد كبيرة من الإخوان بوجودت الاتجاه الاشتراكي السوداني الأساسية، كما أصبح لدكتور الترابي مساعداً للأمين العام للاتحاد الاشتراكي السوداني. إلا أن منطق الظروف الداخلية للحركة الذي دعاها إلى الدخول للمصالحة، جعلها تركز بصورة أساسية على تحقيق أهدافها دون التعويل على محاولة خلق تحالف حقيقي مع نظام النميري. ومن ثم تمكنت الحركة من إعادة رص صفوفها، وتمكنت من شيء آخر أكثر أهمية وكان له أثر كبير في مستقبلها بعد ذلك، وهو حريتها بمخاطبة الجماهير من خلال الخطاب الدعوي، وهو الشيء الذي كانت تفتقده خلال السنوات الثماني الأولى من حكم الرئيس النميري، الأمر الذي أدى إلى ردهار حركته بشكل كبير، حتى وإن كان هذا الازدهار مستمراً خلف واجهات مجتمعية أو دعوية عامة، مثل منظمة الدعوة الإسلامية، ومجاعة الفكر والثقافة الإسلامية، وجمعية رائدات النهضة، ومنظمة "شباب البناء"، وكذلك الوكالة الإسلامية الأفريقية للإغاثة. وفي هذا السياق حرصت الحركة أيضاً على تجنب الظهور في مناسبات النظام، فرفض حسن الترابي على الاستجابة

Abu Nour www.alkottob.com

لدعوات المشاركة في مؤتمرات اتحاد الطلاب المسلمين في أمريكا كل عام والتي كانت تتوافق مع مختفلات مايو.

وقد قاد العمل التنظيمي الذي استوفى بعد المصالحة على ذات الهندسة التنظيمية التي اكتمل بناؤها في عام ١٩٧٥ وتم تركيز الجهد على العمل وسط الطلاب، فتم خلال ثلاث سنوات فقط أي مع حلول عام ١٩٨٠ مضاعفة عضوية الحركة من الطلاب ثلاث مرات. ونتيجة للتوسع المطرد في الحركة الإسلامية واتساع خطابها محلياً وعالمياً، فقد وضع لها دستور جديد من خلال لجنة شكلت لذلك. الا أن الترابي هو الذي قام بعمل المصاغة النهائية للمسودة التي أجيزها مجلس الشورى في فبراير ١٩٨٢ وتراقبق ذلك مع الأخذ بالتوجه اللامركزي في تنظيم الحركة الاسلامية، فبدلاً من عام ١٩٨١ كانت هناك تنظيمات مستقلة في الأقاليم تؤثر بها العدمة ومجالس شورها ومكاتبها التنفيذية وأمنائها الاقليميين (٩).

وحين بدأت التوجهات لإسلامية لنظام النميري في التبلور منذ عام ١٩٨٢، لا سيما مع اقرار قوانين سبتمبر ١٩٨٣، ورغبة من الرئيس النميري في نسبة الفضل في التوجه الإسلامي للنظام آنذاك إلى شخصه، فقد قام في ١٩٨٣ بإبعاد الترابي من منصب النائب العام وعينه مستشاراً للرئيس للشئون الخارجية دون صلاحيات تذكر، كما حرص على أن تقوم بصياغة هذه القوانين مجموعة من المقربين له بمعزل عن الدكتور الترابي أو أولئك المعروف عنهم ارتباطهم التنظيمي بالحركة الإسلامية. وبالرغم من ذلك فقد أيد الترابي هذه القوانين المنقوصة التي شابها الكثير من الشوائب والأخطاء في الصياغة والتطبيق، وذلك على أساس أنه من الممكن تدارك الأخطاء فيما بعد كما أن اتجاه النظام برمته الى النهج الإسلامي، مع بقاء الدعوة بالعمل الجماهيري برمته الى آفاق جديدة، حيث أصبحت الدولة لأول مرة إسلامية التوجه والقوانين، واستشعرت الحركة الإسلامية هذه الحالة إلى حد فقد الأقصى مجالاً للاستفادة من هذا المناخ ما أمكنها ذلك.

إلا أنه وقبل شهر واحد من سقوط نظام النميري، وعقب زيارة جورج بوش إلى الخرطوم في مارس ١٩٨٥، حيث كان نائباً للرئيس الأمريكي ريجان آنذاك، وبتأثير من واشنطن اتهم النميري ما أسماهم "الإخوان المسلمين" بالتدبير لمحاولة انقلابية وألقى بالترابي ومعظم قادة الحركة الإسلامية التي نصاحب السجون. وقد ساهم هذا الأمر إلى حد كبير في التخفيف من الآثار السلبية لتحالف الحركة الإسلامية مع النميري، حيث ردد الدكتور الترابي مقولته الشهيرة "لقد بدعنا الشريعة ولم نبايع النميري". وذلك رداً على خصوم السياسيين ومنتقديه الذين كانو يتهمون الحركة بالانتهازية لمساهمتها من أجل تحقيق مكاسب سياسة واقتصادية للتنظيم والأفراد التابعين له على حساب معاناة جموع الشعب السوداني، في الوقت الذي كان من المفترض أن تلتزم فيه الحركة الإسلامية بالمبادئ والأسس الأخلاقية التي تدعو اليها.

وبالرغم من الهجوم السياسي والإعلامي واسع النطاق ضدها، استطاعت الحركة الإسلامية أن تجني ثمار استراتيجيتها في المصالحة، حيث تمكنت من العودة إلى الساحة وهي في أصح وأقوى حالاتها. فتوفرت لها البنية التنظيمية والقدرات المالية والوجاهات الاقتصادية والاجتماعية والإعلامية، في مرحلة لقوى السياسية الأخرى العائدة لتوها من صراع طويل استغرق معظم فترة حكم النميري وكانت خلالها مستبعدة من الساحة. ولذا استطاعت الحركة أن تحرز المفاجأة الأكبر في انتخابات ١٩٨٦ البرلمانية، إذ حلت في الترتيب الثالث بعد حزبي الأمة والاتحادي، وحصلت على ٥١ مقعداً بفارق ضئيل عن الحزب الاتحادي الذي كان يتمتع بسيطرة تقليدية في البرلمانات السابقة إلا أنه تراجع الى المركز الثاني ليفسح الصدارة لحزب الأمة بقيادة الصادق المهدي.

هكذا انتقلت حركة إسلامية من حزب صغير هو "جبهة الميثاق الإسلامي" لم يكن له سوى ثلاث مقاعد في اخر انتخابات برلمانية تم إجرائها قبل مايو ١٩٦٩، إلى ثالث أكبر حزب في السودان مستطيعه

Abu Nour www.alkottob.com

بذلك الحزب التسلوعي الذي لم تقم له قائمة بعد الضربات المميتة التي وجهها له النميري عقب فشل انقلاب هاشم العطا عام ١٩٧١ . ولم تكن المفاجأة في تخطي الحزب التسلوعي - العدو التقليدي للحركة الاسلامية في السودان - بل كانت في تحول الحركة الى حزب ثالث كبير ذي ثقل وزن مؤثر بعد أن كانت المنافسة في الساحق محصورة بين الحزبين التقليديين الكبيرين الأمة والاتحادي.

ومن الصحيح أن خصوم حركة الإسلامية السياسيين كانوا يشهرونها بأن معظم مقاعدها جاءت من دوائر الخريجين حيث حازت على ٢٦ مقعدا من اجمالي ٢٨ مقعدا في هذه الدوائر، إلا أن ذلك كان يوضح من ناحية أخرى مدى حداثة هذه الحركة وديناميكيتها وقدرتها على التغلغل في هذه الفئة من المجتمع السوداني التي تتسم بالتغلغل والحيوية والقدرة الفائقة على العمل مقارنة بجماهير الحزبين التقليديين، حيث تتشكل معظم جماهير هذين الحزبين من المنتمين إلى طائفتي الختمية والأنصار، وهي جماهير تغلب عليها الأمية والانقياد التقليدي لزعاماتها الدينية وما يصحبه هذه الزعامات من مساندات أو تخلخة من قرارات.

وتمشيا لطبيعة المرحلة واستمرارا على نفس نهج الترابي الذي ارساه في بدايا، جبهة الميثاق الاسلامي فقد أعلن اتخاذ اسم وكيان جديدين للحركة الاسلامية، فأعلن عن قيام جبهتها القومية الاسلامية وتم توسيع اطار العضوية والانضمام بشروط ميسرة للانضمام إليها تركز على الالتزام الأولي بشعار الدين هو محاورة برنامج الجبهة وأهدافها، وإن ظلت القيادة المؤسسية والفعلية في التنظيم في أيدي الكوادر الأساسية للحركة سواء من جيل الشيوخ الذين برزوا في منتصف الستينيات، أو القيادة الشباب الذين تمرسوا في العمل الطلابي والمقاومة أثناء فترة الصدام مع نظام النميري، خاصة في انتفاضة شعبان ١٩٧٣ وفترة العمل المسلح التي أعقبتها في المعسكرات بليبيا وغزة ١٩٧٦، وكان هؤلاء قد تخرجوا وازدادت في مواقع القيادة في التنظيم وفي الواجهات العلنية التابعة له.

في كل تلك التطورات ظل حس الترابي حاضرا في القلب منها بمثابة العقل المدبر والمخطط الأساسي لها. كما كان ممسكا بزمام الأمور بقوة، ومنحته فترة الديمقراطية الثالثة بريقا اعلاميا جعل برز كخطيب مفوه ذي قدرات رفيعة في الجدل والحوار على المستويين الفكري والسياسي، كما أظهر براعة منقطعة النظير في التعامل مع وسائل الاعلام، وطرح نفسه في المنابر المختلفة باعتباره واطقا ومعبرا عن حركة اسلامية حديثة توصف بالشورى والديمقراطية وتحمل هذا النهج ملزما لها في أطرها التنظيمية. كما تبنى به كصديل حاكم للتداول على السلطة. وعمل الترابي كذلك على طرح رؤاه التجديدية في الفكر الاسلامي ووضع تراث، وقد بحولات واسعة في العالم العربي وأوروبا والولايات المتحدة، مستغلا الوضع الاسلامي الناتج عن ظهور حركته كحزب كبير ومؤثر في الحياة السياسية في السودان.

وعلى المستوى الداخلي بقيت الجبهة القومية الإسلامية بقيادة الترابي في موقع المعارضة، ثم غيرت رأيها واتجهها بعد ذلك لكي تشارك في حكومة ائتلافية مع الحزبين الكبيرين. الا أن هذه المشاركة لم تلبث أن انخفضت بسبب الخلاف حول سياسة التعامل مع حركة التمرد التي كان يقودها جون قرنق الذي رفض كل المبادرات التي وجهت إليه عقب سقوط نظام النميري بالقدوم إلى الخرطوم، والتفاوض بشكل مفتوح مع القادة السياسيين، مما أدى الى استمرار الحرب. ومع مضي الوقت بدأت قوات التمرد تزداد قوة وكذلك اتسعت المساحات الجغرافية الخاضعة لها، نتيجة لضعف الحكومات الائتلافية القائمة في الخرطوم نتيجة التنازع الحزبي والحسابات الصغيرة. وسادت مدن الجنوب في التساقط وجاءت مذكرة الجيش الشهيرة في فبراير ١٩٨٩ التي وجهها القادة العسكريون إلى حكومة الصادق المهدي وطالبوا فيها بتوفير الدعم اللوجستي والفعلي للقوات المسلحة بمثابة إنذار الأخير الذي وضع دعوة الأوضاع إلى درجة تقترب من الانفجار، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك رد فعل من جانب الحكومة يتناسب مع خطورة الأزمة. وبدا للجميع أن هناك انقلاب على وشك الوقوع، وهو ما حدث بالفعل.

Abu Nour www.alkottob.com

وقع الانقلاب العسكري في ٣٠ يونيو ١٩٨٩، وليلة الانقلاب أودع الدكتور الترابي في السجن مع باقي الزعماء السياسيين للبلاد، وكان ذلك بتدبير منه فصح عنه لاحقاً بعد أن وقع الانشقاق داخل الحركة الإسلامية السودانية إلى جناحين أحدهما موالٍ للدكتور الترابي والآخر جناح معارضيه بقيادة نائب ثاني رئيس الجمهورية وعلي عثمان محمد طه النائب الأول للرئيس والذي كان يشغل موقع نائب الدكتور الترابي في تنظيم الحركة الإسلامية لفترة طويلة في السابق.

وتجدر الإشارة إلى أن الفترة الأولى من نظام الانقاذ كانت قد تمحورت حول محاولة النظام الجديد إحداث تغيير اجتماعي وسياسي واسع النطاق داخل السودان، فسخرت عناصر الجبهة القومية الإسلامية السيطرة على أجهزة الأمن ودوائر الدولة ومفاصل الخدمة المدنية وانشطة الاقتصادي، كما ترافق ذلك مع محاولة نظام الانقاذ لعب دور إقليمي واسع. ظهرت بوادره في التحرك النشط الذي قاده الترابي بإن أزمة الخليج الثانية (الغزو العراقي للكويت)، إذ لعب دوراً معارضاً بقوة للتدخل الأجنبي وحاول الفساء بعملية وساطة لم يكتب لها النجاح، الأمر الذي أزعج الدول العربية المجاورة وبخاصة مصر و المملكة السعودية فساءت العلاقات بالقمة للسودان مع جيرانه وتزايد ذلك مع الإعلان عن المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي، الذي أصبح مظلة تكل القوى والحركات لمساندة المعارضة في العالمين العربي والإسلامي.

على المستوى الداخلي تحدث الكثيرون من رموز وأعضاء الحركة الإسلامية عن أن الشورى والمؤسسية قد تصدرت داخل الحركة منذ مجيء الانقاذ. وسطر بعضهم قائلاً: إن الحركة الإسلامية هي أول متضرر من الانقاذ. وقال آخرون إن الشورى الملزمة داخل أجهزة الحركة أصبحت غير ملزمة، ثم صارت تنوير، ثم أصبحت مستشاراً دون خاتمة إلى تنوير (١٠). ولكن تلك الأصوات المحتجة قبلت بالإهمال من جانب العسكريين في النظام بحجة أن ذلك شأن تنظيمي لا دخل لهم فيه، وأيضاً. وهذا هو الأهم - من جانب الدكتور حسن الترابي الذي أسس هؤلاء (بمباركته) التنظيم، وأنهم دعاة لطائفية إسلامية في الوقت الذي تجاوزت فيه الحركة مرحلة التنظيم إلى مرحلة احتواء المجتمع بأسره. كما تم اتهام هؤلاء المتذمرين بأن الدافع وراء الاحتجاج هو عدم حصول أولئك النفر على مواقع في حكومة الإنقاذ. الا أن الكثيرين من أنصار الحركة وبعض قياداتها السابقين أصبحوا يرون أن النموذج الذي قدمته الحركة لم يكن بمقدار المثل والمبادئ التي كانت تنادي بها، ولا بقدر الطموحات والآمال التي علقها عليها الكثيرون، خاصة بعد الإدانات الدولية للسودان بسبب الانتهاكات المتزايدة لحقوق الانسان باتساع نطاق المعارضة في الداخل وعدم القدرة على السيطرة على الحرب في الجنوب. كما كان نظام الإنقاذ يأمل في بداية عهده. وظهرت العديد من الآراء التي تقول بأن استلام السلطة عن طريق الانقلاب العسكري كان وراء الكثير من الإخفاقات والمشكلات التي تعرضت لها الحركة الإسلامية وكذلك سلطة الإنقاذ التي أتت بها هذه الحركة.

وبعد عديد من التطورات بدأ التوتر في العلاقات داخل الحركة الإسلامية يظهر إلى العلن، بعد أن قدم عشرة من أعضاء هيئة الشورى لحزب المؤتمر الوطني الحاكم (الحزب المعبر عن نظام الانقاذ) بتقديم مذكرة في ديسمبر ١٩٩٨. عُرفت إعلامياً باسم "مذكرة العشرة"، يطالبون فيها بتقليص صلاحيات موقع الأمين العام للحزب والذي كان يشغله الدكتور الترابي. كما طالبو بزيادة سلطات رئيس الجمهورية (عمر البشير) داخل الحزب وكانت حجة الموقعين على المذكرة أنهم يهدفون إلى تفعيل الشورى في جسم التنظيم السياسي، وتقوية المؤسسية على حساب النزعة الفردية وتوحيد القيادة. واستطاعوا من خلال المناورة التي أجتوها أن يجيزوا تعديلاً في اللائحة الداخلية للحزب يجعل من الرئيس عمر البشير رئيساً للدولة ورئيساً للحزب، في الوقت الذي يبقى فيه الدكتور الترابي مقرراً للأمانة العامة لحزب المؤتمر الوطني، والتي تأثر بأمر المكتب القيادي الذي يترأسه البشير، الأمر الذي رأى فيه الكثير من المراقبين أنه مثل انقلاباً حقيقياً بكل المقاييس (١١).

Abu Nour www.alkottob.com

محتى ذلك الوقت كانت الأمانة العامة للحزب هي جهاز التنفيذي الأعلى في التنظيم، مما جعل الأمين العام للحزب هو الرئيس التنفيذي الفعلي للحزب، فكان الأمر في جبهة الميثاق الإسلامي، وفي الجبهة القومية الإسلامية. وبهذا التصور كان الدكتور الترابي يحتل منصب الأمين العام للمؤتمر الوطني بعد أن حلت الحركة الإسلامية نفسها، وقررت أن تذوب في كيان المؤتمر الوطني حتى يصبح هو الحزب الغالب الذي يحكم السودان ليس بصفته حزب السلطة التي أتت بانقلاب عسكري، بل بمحاولة الاستناد على قاعدة شعبية واسعة تمكنه من الفوز في أي انتخابات مقبلة.

والشاهد أن هذا التعديل قد أدى إلى حدوث الانشقاق الكبير بين جناحي حركة فيما بعد، فبمقتضاه أصبح الفريق البشير رئيساً للدولة ورئيساً للحزب، وأبعد الدكتور الترابي بذلك عن قيادة التنظيم لأول مرة منذ عام ١٩٦٥ وبذلك تعرضت المعادلة التي قام عليها نظام الإنقاذ إلى شرخ كبير حيث قام النظام على أساس تفاهم مسبق يقضي بأن يكون الفريق البشير رئيساً للسلطة التنفيذية على أن يتولى الدكتور الترابي رئاسة لتنظيم السياسي الذي يحرك جهاز التنفيذي، وهو ما ظل الترابي يقوم به في الحركة الإسلامية منذ منتصف الستينيات.

وقد تطورت هذه الأحداث بعد ذلك إلى احتفاظ الدكتور الترابي برئاسة المجلس الوطني (البرلمان) بعد أن فقد موقعه في التنظيم الحزبي، ومن هنا حاول الترابي أن يحدث بعض التعديلات الدستورية والقانونية التي تحد من سلطة رئيس الجمهورية في تعيين حكام الولايات وأن يجعل هذا الموقع بالانتخاب، في محاولته لإضعاف قدرة الرئيس على التحكم في الولايات بعد اقرار النظام الفيدرالي وتقسيم السودان إلى ٢٦ ولاية، إلا أن الجناح المناوئ للترابي بقيادة طه / البشير، قام بضربة استباقية: فأعلن الرئيس البشير حالة الطوارئ وحل البرلمان فيما عرف بقرارات ٤ رمضان، الأمر الذي اعتبره الترابي وتوابعه قراراً غير دستوري، وحدث استقطاب هائل داخل الحركة والنظام السياسي، فشلت كل محاولات الوساطة في احتوائه، وتمخض ذلك في نهاية الأمر عن انتظار حزب المؤتمر الوطني إلى حزبين، حيث أعلن الترابي عن انتخاب أمين جديد هو "المؤتمر الشعبي" ككيان حزبي يجمعه وأنصاره، وبعد عديد من التطورات والتراشق الإعلامي والسياسي الحاد، الذي بدا معه أن السودان قد يتزلق إلى حرب أهلية، تمامت سلطة الإنقاذ باعتقال الدكتور الترابي بعد أن وقع حزبه "المؤتمر الشعبي" اتفاقاً للتعاون مع الحركة الشعبية لتحرير السودان التي يقودها جون قرنق، الأمر الذي اعتبرته الحكومة السودانية يمثل تهديداً مباشراً لأمن القوس للبلاد، وقد بقي الدكتور الترابي في الاعتقال دون محاكمة منذ فبراير ٢٠٠١ حتى إطلاق سراحه في أكتوبر ٢٠٠٣.

رابعاً: شخصيته وزعامته

يعد الترابي من أكثر الشخصيات السودانية إثارة للجدل ما بين مؤيد ومعارض، وتظل شخصيته المحورية تسبب قلقاً لأتباعه بذات القدر الذي تسببه خصومه، حيث دارت حوله عديد من القصص والأقوال بعضها له أصل في الواقع والبعض الآخر من نسج خيال خصومه وأتباعه في آن واحد، بذلك تحت وطأة هالته إزعاجية متوهجة، حيث يرفعه أنصاره «مؤيدوه» إلى مستوى الأسطورة، بينما يرى فيه خصومه شخصاً مخادعاً مراوغاً متلوناً متضخم الذات، ذا طموح لا يحده حد. ولا يبالي في سبيل تحقيقه بسحق الآخرين، وينتهي الشيء ونقيضه طبقاً لمقتضى الحال، إذ ليس من الضروري أن تكون مواقفه المعلنة منطبقة مع موقفه الحقيقي، فقد تكون أهدافه المضمرة مختلفة كل الاختلاف عما يعلنه للناس.

إن الشيء المؤكد هو أن الترابي ظل رقماً لا يستهان به في السودان منذ أن برز على الساحة السياسية في ثورة أكتوبر ١٩٦٤، وبدأ مسيرته التي انتهت إلى ما يشبه رقصة الانفعال بعد قرار الرابع من رمضان

Abu Nour www.alkottob.com

(ديسمبر ١٩٩٩). وبعد أن انقلب عليه تلاميذه وأبعدوه عن الحكم الذي ظل ممسكاً به - كما قال لأب الروحي - لأحد عشر عاماً من عهد نظر الانقاذ، ولم تتوقف الأمر عند هذا الحد بل زجوا به في السجن في فبراير ٢٠٠١، في ثاني أطول فترة اعتقال يمضيها الرجل حتى أفرج عنه في أكتوبر ٢٠٠٣، حيث كان الاعتقال الأول له في عهد النميري. ورغم أن الترابي لم يكن يستبعد أن يعود إلى السجن ثانية، إلا أنه بالتأكيد لم يخطر له على بال أن يكون سجنه هذا على أيدي تلاميذه الذين تعهدهم بالرعاية وشق لهم الصفوف وأبعد الكبار عن طريقهم.

والترابي شخصية بارع قوي المعارضة يتسم حديثه بالسخرية والجاذبية مما أن واحد يحظب بحديثه الساسعين، ويتسمى إلى ذلك النوع من القيادات الجماهيرية التي تستهوي على الجماهير وتخلق بها حماساً. ويتسم شخصيته بالذكاء الحاد والعناد والمثابرة حتى لا يعرف الاستسلام. ويعتبر أنصاره مجدد القرن الحالي وأن مشروع تجديد كان بسبب هوجاته الشخصية وجدة الفكرة، ويرون أن مسيرة حياته شكلت مسيرة الحركة الإسلامية في السودان. فهو زعيم الحركة غير المنازع وهو رائدها وملهمها وحدى ركبها.

لقد جمع الترابي بصراحة الزعامة والثقافة والقدرة العلمية والاستقلال في الرأي، هذه صفات تكفل لمن تتمتع بها مكاناً وأثراً بارزين. إلا أنها أكسبته أيضاً خصوماً كثيرين يرون فيه "شخصاً انفعالي سريع الغضب محب للمشاغبة ولا يقبل الرأي المعارض وأنه براجماتي يفعل كل شيء ليصل إلى هدفه .. ولا يتوانى عن وصم من يخالفه في الرأي وهو يبتسم .. وأنه يتصنع كل شيء حتى حفلة الزواج والدعاية والإصرار على الانتصار، لأن الأصل في شخصيته هو الجفاف والعناد". وأنه كان يبدل جهداً كبيراً في الاجتماعات لكي يحتفظ بهدوئه لأن موقعه كان يتطلب أن يظهر بهذا المظهر (١٢٤). كما يرى آخرون بأنه بسبب فرديته وتقلب رأيه السريع لا يطيق الاستمرار أو النصير معه إلا قلة قليلة ممن ينسى رأيه ويسلم له، وأنه قد يستطيع التأثير في الجماهير إلا أن من كان ذا رأي أو فكر مستقل لا يلبث معه إلا القليل (١٢٥). الأمر الذي لم يبق حوله إلا من يصعرء كثيراً فيجد نفسه بين الصغار زعيماً وراياً واحداً لا قبيل له (١٢٦).

وكما أخذه كثيرون أيضاً على الترابي داخل السودان وخارجه، جهوده الى المثابرة والمرونة وتوسعه في استخدام التقية (١٢٧) رغم أن السودان بلد له خصوصية متميزة. لا تشبه العرب ولا الأفارقة، يتصنع جامع من السماحه وروح المجتمع الرعوي المفتوح، إلا ان الترابي لجأ إلى الكثير من الأساليب والمشورات المماسسة حتى خان فضائله مع النميري وكرر العمل نفسه حين دبر انقلاب الإنقاذ فأدخل نفسه السجن، ثم صار البشير وباسمه "تلبي عثمان" بطريقة ثم يعتد عنها السود ليون ثم يألفوها. وفي معظم حياته السياسة اعتماد على الكر والفر وكان مسلكه يعكس دائماً سلوك الرجل السياسي الذي يستخدم الحيلة والمثابرة لتبلغ أهدافه بأكثر مما يعكس سلوك الرجل الماعيه الى فكر معتمد على منهج ومثالبات أخلاقية. ولا شك ان نزوع الترابي المتكرر إلى ارتداء أقنعة وتبديلها قد فتح ثغرة واسعة خصومه للهجوم عليه كما أثر سلباً على أفكاره والمشروع الذي يسعى اليه، حتى صورة خصومه في نهاية المطاف بأنه طالب سلطة وجاه وليس صاحب قضية، ولو كان قد نأى بنفسه عن التصادم مع نظام الإنقاذ، وبقي بعيداً عن الشأن السياسي والإداري والسياسي المباشر لاكتسب مكانة أرفع وأثراً أبقى، إذ أن تشبثه بالسلطة في موقع النفوذ والتحكم في توجه الأحداث جعله يواجه أعداداً من الخصوم الذين تتلمذوا على يديه، وهم إما حريصون على تصغير حجمه والنيل منه وقتل الهالة التي تحيط به، أو صادقون يرون فيه من العيوب ما لا يراه الآخرون، ورأياً أنه قد ناله ما يكفي من الابتعابيات والحسابات وان لكل عهد دولة ورجالا.

ويرى الصادق عبد الله عبد الماجد زعيم تنظيم الإخوان المسلمين في السودان، والذي كان له تحفظات كثيرة على شخصية الترابي وتهجه منذ زمن طويل، أن للترابي آثار الحركة الإسلامية في السودان رغماً نحفظه هو، ولهذا تدرج بها من حركة الإخوان الى إنشاء الإطار الأوسع وهو "جبهة الميثاق" وبعد انقلاب

Abu Nour www.alkottob.com

إبريل ١٩٨٥ تشكلت "الجبهة القومية الإسلامية" التي قام الترابي أيضاً بحلها بعد محي نظام الانقاذ لكي يقسم المجال لتنظيم "المؤتمر الوطني"، وفي كل هذه المراحل كانت درجة الأصولية الإسلامية تقل وتشتد وهذه كلها مراحل درسها الترابي بعناية وهدف منها إلى الوصول إلى رئاسة الجمهورية (١٥).

وقد أكد الكثيرون على هذه النقطة المتعلقة بتطلع الترابي إلى السيطرة والرئاسة المطلقة. وفي أحد حواراته الصحفية تناول الدكتور الترابي هذه النقطة بشيء من التفصيل (١٦)، حيث قال: كان الناس يتحدثون لي قبلما لابد أن نربح هذا النظام منذ الأيام الأولى لثورة الإنقاذ الوطني وتأثير الحركة الإسلامية وتأتي أنت إلى رئاسة الجمهورية، فكنت أقول لهم: انني لا أستطيع أن أقضي معظم وقتي في البر توكولات، بمعنى هذا أن معظم وقتي صنع هباء، يذهب سدى مسيئي في التاريخ، أنا كنت أريد أن أخرج بمعنى اسمى في التاريخ أو أجد أجراً عند الله سبحانه وتعالى. أريد أن أغرق في أن أعمل مع الناس ومع الفكر ومع المجتمع، واتركوا هذا لأحد يتولى البروتوكولات، والوزارات كذلك، فالبلد هكذا. فحضارة لا يصنعها الوزراء، وأخلاق الشعب لا يصنعها الوزراء".

وقد رأى مستقبل الترابي أن مثل هذا القول يعني أن الترابي يريد أن يمارس كل السلطات بمعزل النظر عن المسببات وأنه أفصح عن مكنون نفسه في لحظة ضعف حين تحدث عن حرصه على ادراج اسمه في التاريخ وفي صنع الحضارة، في صناعة أخلاق الشعب، أي أنه لا يكتفي بما هو متعارف عليه من دور ومسئوليات رؤساء الجمهوريات، وأن تناوله للموضوع بهذه الطريقة إنما يكشف تضخم ذاته وشخصيته المراوغة، حيث بدأ يتحدث عن زهده في الرئاسة، إلا أنه لم يلبث أن أوضح حقيقة تطلعاته والوضعية التي يريد أن يفرضها ليس على الرئيس عمر البشير فحسب وإنما على السودان كله، من حضارة ومساعة انسان، بسلطة تتجاوز رئاسة الجمهورية وكل السلطة التنفيذية (١٧). وفي النهاية نفسه رأى البعض أن يعلق الترابي بالسلطة، كان هو السبب الأساسي في فشل محاولات التسوية والوساطة معه بعد أن اتخذت الأزمة مع النظام، فأول ما كان يسعى الترابي من الوساطة، كالفرشاوي والزناتي وغيرهما، كفلهم حلمه، شرح هو ضرورة وجود رئيس واحد ونيابة واحدة، وطاعة تامة للرئيس وهذا هو أول ما رفضه الترابي، وهكذا تنتهي المفاوضات فور أن تبدأ.

وكان حسن الترابي قد نفي في عشرة سابقة من حياته نظمه لاعتقاله، أي منصب تنفيذي قائلاً: "كلما كنت في حياتي وزيراً عدة مرات في نظامين والآن بلغت اثنتين وستين سنة (بلغ ٦٨ عاماً حين أدرجت ملامحه في السجن) وفي رأيي وفي بلد يشكل الشباب نسبة كبيرة من سكانه ينبغي أن تتاح الفرصة للأجيال الشابة حتى لا تصبح حكراً على الشيوخ. واذا أمد الله في عمري وأحسن في عملي بمكنني أن أسهم بكتاباتي ومشورتي، وقد أكون في قواعد الشورى حتى وإن كان ذلك بصفة رسمية. لكنني لن أتقلد أي منصب تنفيذي". ويوضح هذا النص المفارقات في شخصية الترابي، فمن الواضح أن نزاعه مع نظام الانقاذ كان من اجل السيطرة على المناصب التنفيذية. ومن الواضح أن هذا كان أبعد ما يكون عن ممارسة الدور الذي رسمه لنفسه في وقت سابق، وهو دور المرشد الفكري، إذ لم يعد محدداً كما كان. كما أنه بعد بحث من وقته ولا من خلفه السعة التي تتطلبها شئون الفكر، وأمر قواعد الشورى التي قال بأنه سيتمركز فيها لأداء ذلك الدور قد ذهبت في خضم لصراع لدراج الرياح.

وربما أدى تمرد الترابي وطموحه وممارساته المتعددة التي أكساب شخصيته بعض الغموض. فرفع نفسه فوق الجميع، الأمر الذي بدأ يحدث أثناء متزايداً لكل نظام الانقاذ. ورغم أنه تلقى عدة إشارات وصلت إلى حد المواجهات الصريحة من داخل حزبه وجماعته، وبخاصة مذكرة العشرة – إلا أنه استهان بتلك الاشارات، فانتهى به الأمر إلى انقلاب تلاصيدة عليه. ويذكر أحمد عبد الرحمن وهو احد قادة الحركة الذين لازموا الترابي طويلاً أن الحركة الإسلامية اتجهت إلى احتزال نفسها في الترابي، بحيث تكون هناك شيخ وحواريون،

Abu Nour www.alkottob.com

وأن هذا كان أملها داخلياً وجديداً على الحركة، ولذا كان هناك نوع من الرفض الجماعي له وضرورة كسر التعطية الشورية والهيمنة التي كانت واضحة في إدارة الترابي لحزب المؤتمر الوطني الحاكم ويقول في معرض تفسيره لأسباب الانشقاق أن الخلاف لم يكن بين البشير والترابي بقدر شعورهم لفقدان وسعه من تسيرّ الحركة وتنبأها وأنهم ظلوا يبذلون النصح للترابي منذ أعوام بدرجة تصل أحياناً الى الانتقاد الحاد، والغضب إليه أن ينتهي عن ممارسة قيادة الحركة مع مواصلة دوره الفكري والدعوي الا أنه لم يتقبل ذلك.

وبالرغم من كل ما سبق فإن هناك بعض التحليلات التي ترى أن الترابي ونصحة تجربته الطويلة قد رأى أن مآلات تجربة الإنقاذ نتجه إلى الفشل بعد أن تكاثرت عليها العداءات الاقليمية والدولية فضلاً عن التجاوزات الكثيرة التي حدثت في الدخل خدمة في عهد "الانقاذ الأول ١٩٨٩-١٩٩٦). من إدخال في ممارسات غير معهودة في السودان مثل الاعتقال والتعذيب والطرد من الخدمة المدنية وما حاولت حكومة الانقاذ القيام به من تغيير شامل في النظامين الاجتماعي والاقتصادي وتجييش للشعب وتجنيده في غوات الدفاع الشعبي للقتال في الجنوب. ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن الترابي أدرك أن البيات الشتاء لن يسمح له بالاستمرار وأن مآله هو السقوط ومن ثم خسار إن يتنقل إلى الصف المعارض لانقاذ اسمه ومكانته في تاريخ السودان. وكذلك محاولة الفصل بين مشروات الحركة الإسلامية والنظام، وان مواجهته مع البشير ومجموعته لم يتطور إلى الصدام المسلح نتيجة لذلك. فالترابي حين يئس من إجبار المعارضين له على اتباع نهجه والانتصار برأيه، جعل هدفه هو الانفصال والانتقال إلى المعرضة وليس الاستنشار بالسلطة عنوة، فهو يعرف أنه لن يكون مقبولاً من الولايات المتحدة فضلاً عن مصر وعن معظم الخليج العربي، ومن ثم لم يتجه الى التصعيد العسكري والصدام المسلح رغم أنه كان يحظى بتأييد قطاعات واسعة في قواعد الحركة وكذلك قوات الدفاع الشعبي وبخاصة "قوى المدايين" التي اكتسبت شهرة واسعة نتيجة لأدائها القتالي المؤثر في معارك الجنوب.

وبناء على ما سبق فإنه يمكن القول إن ما حدث من صراع جعل الحركة الإسلامية منقسمة الى قسمين: الشيخ حسن الترابي الذي هندس كل شيء في بناء الحركة الإسلامية وقد انتقل إلى الصف المعارض بنفقة التجربة بعنفه ويبرئ نفسه منه، ومتعدد يقدر ما يستطيع عن أخطاء الانقاذ، وكأنه يقوم بعملية تسهيل سياسي لمساهمته لسابقة نفسه، أما القسم الثاني من الحركة فهم الذين استقلوا ركب النظام بالقول إن هذا النظام كان ثمرة جهد قادته الحركة الإسلامية، وهو كسب لا يمكن التخلي عنه أو الزهد فيه أو التنكر له أو الانقلاب عليه، وأن ما يرتب على الإنقاذ من مخالف وطني عرضي تمثل في حزب المؤتمر الوطني إنما هو كسب للحركة الإسلامية لا يمكن إضعافه أو تهميشه. وأن مسيرة الحركة لا ترتبط بالأشخاص قدر ارتباطها بمبادئها وموجهاتها في العمل.

إلا أن انحسار لأزمة بعد اعتقال الترابي والتضييق على حزب المؤتمر الشعبي، طرح سؤالاً مهماً حول مرجعية نظام الإنقاذ، ومازال هذا السؤال معلقاً بدون إجابة فالترابي لم يكن مجرد فرد داخل الحركة بل كان عقلها وقلبها النابض، فهو يقود بالتنظير والتنظيم والمناظرة والكتابة، وحتى الآن لا يوجد لدى النظام شخصية تمتلك قدرات الترابي، وبالتالي أصبح نظام مطالب بمرجعية بديلة ومقنعة وقوية خاصة في ظل الظروف التي تحيط بعملية تسوية الأزمة السودانية ومفاوضاتها التي تدور في كينيا حيث يجد نظام الانقاذ نفسه كمن يسير في رمال متحركة يحاول فيها - دون نجاح كبير حتى الآن - أن يفي بالمتطلبات المفروضة عليه بعد تدويل الأزمة والتدخل الأمريكي المباشر فيها وبين محاولة الاحتفاظ بمصدر شرعيته المستمدة من الخطاب الإسلامي ومقولات المشروع الحضاري وتطبيق الشريعة.

Abu Nour www.alkottob.com

خامساً: أهم أفكار الترابي

تعنى دراسة أفكار الترابي في مجال الدستور والحكم أنه يركز على أربع قضايا رئيسية هي: الإيمان والتوحيد، والتجديد، والاجتهاد(١٨). وتتحمل أفكار الترابي مسألة التأكيد على بساطة الإسلام وسهولته وعقلانيته في تعامله ونظرته إلى جميع ما يعرض له من شؤون الإنسان والحياة والكون. يرى الترابي(١٩) أن الإسلام هدى ربانى لا يحده الزمان والمكان مما يتطلب موازنة بين الدين وبين التدين وبالتالي بين فضائل وهو الإسلام بين التنسيق وهو الترفع المتعالي وصولاً إلى تدريجياً نحو كمال المثال. وذلك من خلال اتخاذ نموذج في الواقع تتسم بالسمات المتعلقة نحو كمال المثال للاستفادة بواقع المسلمين الزاهر من خلال التاريخي إلى الأحياء المعاصر.

كما يوازن الترابي بين الدين بمعنى الشريعة المنصوص بين الدين بمعنى التدين بالاجتهاد، بين الدين بمعنى الفكر، بين الدين بمعنى الحركة. إذ يرى صورا متعددة للتدين منها أن التدين هو التحقيق لتوفيق للدين في بيئته المعينة. وبالتالي فإن حركة التدين بذلك إنما تلاحق قدر الله المتقلبة حيث يرى أن الفقه في الدين اجتهاد وتحليل وجهد، وهذا وجهان من التدين" (٢٠). ويوازن الترابي واسعة وضعيفة: متصلة في هذا الإطار ما بين الزمان وبين المكان، بين الدين وبين التدين، وبين الثبات وبين المتغير، وبين التقنين وبين التجديد.

يوازن الترابي أيضاً، في منهجه هذا(٢١) بين الكل وبين الجزء، بين الأصل بين الفروع وبين سيرورة الدين وصيانته، حيث يرى أن الدين من حيث التحقيق إنما هو كسب بشري يسعى للتوحيد بين مثال التكليف الأزلي وحمل الإسلام الواقع متأثراً وآخذاً بظروف الزمان والمكان. حيث يقول: "إن التدين من حيث التدين هو كسب حادث، تعبيراً عما هو ثابت ومتحداً بما هو مرن من معانيه وتركيباته" (٢٢). كما يوازن بين الثنائية والوقفية بقوله إنه لا مرض بالثنائية المطلقة ولا بالوقفية المطلقة. ويبدو لنا أن هذه الموازنات في فكر الترابي تأتي ضمن موازنات مطولة قائمة على مفهوم التوازن الزوجي، إذ يرى أن الله أسس الحياة على نحو هذا التوازن وجعل ذلك أمر التدين بين الثبات والتطور والتجديد(٢٣)، ويعرف التدين بأنه "محاولة لعباد الله سبحانه من خلال التفاعل مع الحادثات. فقد شاء الله أن يبتلينا بالتفاعل مع الكون. وهذا هو المعنى المطلق والنسبي"(٢٤). وعليه يرى الترابي(٢٥) أن التدين بحاجب بالمكان إطاراً لإقامته في الأرض في مسرح الخلافة بالتمكن. ومن هنا فجهود الدين بحجبه عن الواقع وبالتالي وجب تحقيق هيمنة للعصرنة في الواقع الظرفي كي تمر كي يتجدد الإيمان. وهو يرى أن الابتلاء يكمن أساساً في مراعاة هذا التوازن في وجوده جميعه.

وبين النظر في الإنتاج الفكري للترابي، نلحظ أنه بدأ بكتاب وحيد في الفترة السابقة على ١٩٦٩ هو "الصلاة عماد الدين". حيث مثل هذا الكتاب محاولة للتصدي لأطروحات محمود محمد طه زعيم الحزب الجمهوري الذي كان يقول بسقوط التكليف بالصلاة بمجموعة من المؤلفات كان من أهمها "الرسالة الثانية" وتعتبره "حركة الإسلامية" تجدد عند الإسلام، وانتهى به الأمر إلى اعتناقه منتهية الردة في أخريات عهد النميري. وفي مرحلة ثانية إبان سجنه في عهد النميري، أصدر الترابي كتابه المعروف "الإيمان: أثره في حياة الإنسان"(٢٦). وأعتمد في هذ الكتاب على غزارة معرفته بالقرآن الكريم حيث كان شارح الآيات والاستدلالات معززة تصورات الكتاب بين الإيمان بعبودة الله الواحد الأوحد بالموجه الآخر والجزء والتسخير بالرسالة وبمجتمعات الغيب، ثم تشارح في هذا الأصول سائر شعاب الاعتقاد. حيث الإيمان بالشارحة وجهان للدين متلازمان ومتكاملان(٢٧). وقد تحدث الترابي في هذ الكتاب الجدل الدائر حول معنى وحقيقة الإيمان وهل هو مجرد التصديق أم التصديق والعمل، إذ استصحب أن الإيمان تصديق وعمل وزيد ونقص، بمعنى تتلمس آثاره في شعب الحياة من تصور وفكر وسياسة واقتصاد وفن، حركة بحيث تظهر دلالات

Abu Nour www.alkottob.com

التوحيد والانسجام والوحدة في كل عمل من اعمال الإنسان باعتبارها محصولات تدين وشهادة للتعبير عن فكرة التوحيد. يسمثل أهمية هذا الكتاب في أنه عبر عن محاولة جديئة لوضع أسس فكرية متعمقة من القرآن لفكرة تكامل المنهج الإسلامي التي تتدور عليه فكرة حركات التجديد و الإصلاح الإسلامي المعاصرة.

وفي إطار الترابط بين أفكار الترابي وحركته السياسية جاءت دراسته الصغيرة "المرأة بين تعاليم الدين وعقائد المجتمع"، والتي يعود إليها الأثر الأكبر لما حدث من نمو في الحركة الاسلامية في السودان فيما يتعلق بوضع المرأة، لكي تصبح بمثابة "مانفستو" لجمهور النساء (٢٨)، كما أثارت ردود فعل عنيفة داخل العالم الإسلامي وترجمت إلى اللغة الإنجليزية. ويلخص خطاب هذه الرسالة في أن النساء شقائق الرجال لهن مثل الذي عليهن بالمعروف، ولجنست لرسالة استخدام المصطلحات ذات الظلال مثل كلمة الاختلاط، مفضلة أن الأصل اختراك النساء والرجال في مواقف الحياة الاجتماعية "مجتمع المشاركة"، وبالتالي فلا مكان للأطروحات الفاصلة والمفاصلة بين الذكور والإناث طالما كانت المرأة تسعى لإقامة مجتمع التوحيد، مما أدى لانطلاقة هائلة في العمل النسائي ظهر أثره جلب حينما طغى عدة الإناث في الحركة الإسلامية في السودان على الذكور، وأصبح الدين الإسلامي سبيل المرأة للتحرر والانعتاق من قيود لتخلف وعهود الانحطاط.

وفي المرحلة التالية للمصالحة الوطنية حظيت محاضرات الترابي بالمتابعة والتدوين وظهرت في رسائل ثلث ضياعها وبدايتها مثل "المسلم بين السلطان و الوجدان"، التي تحدث عن تسلل الدين الإسلامي وتسلل منهجه في الإصلاح الذي يربي وجدان المسلم ويضم المجتمع الناصح والدولة الإسلامية التي ترعى شئونه، مع مقارنة نتضم التي قصور القانون وكمال المسئولية الدينية. كما ظهرت "رسالة الدين وقيم الفن" وكذلك كتاباه عن تجديد "أصول الفقه الإسلامي"(٢٩) و "منهجية التشريع الإسلامي"(٣٠). وفي هذا الكتاب الأخير أبرز الترابي الكثير من معاني ومضامين "التجديد" التي يقصدها، حيث يقول: "فالمحاجة قائمة اليوم مفتوحة للاجتهاد، والمجتمع المسلم منفتح لتلقي الفقه المجدد، والمصدومون لفلك يتحركون، وإن كان أكثرهم يتزمر انتقية في اجتهاده. فيقول أنه مفكر لا فقيه، باحث لا مجتهد أو أنه يرى "أيا كان يصغر شئون وينبش في التراث عما يشفع لرأيه الغريب .. أما أن أصول الفقه والتشريع - ولا أقول أصول الشرع ذاته - قطعية لا يرد فيها الخلاف، فذلك وهم عندما من لم يطلع على كتب الأصول وخلافياتها وجدليتها .. أو من لم ير كيف يتقارب الأئمة ضبوطاً وتلاعباً في قبول روايات الحديث .. أو على مذاهب تفسير النصوص أو على معنى الإجماع ومداه وحجيته أو على مشروعية القياس ومعياره أو على المصلحة تعريفها ومداها وعتبارها، أو على غير ذلك من وجوه بيان الأحكام أو القواعد الجامعة للأحكام. فعلم الأصول القديم منسوب إلى لبنة الثقافية التي نشأ فيها، ولذلك تلبس بمفهومات المنطق اليوناني القديم وبأشكاله ومصطلحاته .. ولا يمكن أن تغشانا الغارة الفكرية الغربية بحرها وشرها ومناهجها دون أن تبدل أنطيات الفكرية الأساسية التي حضرت الفقه الأصولي القديم .. فكما سحر سلفنا الثقافة اليونانية ليوائموا لشرح الدين وفهمه يمكن أن نسخر الثقافة العلمية الحديثة راجين أن نتجنب زللها - ضروز الصالح العامة أشد بالمجتمعات الخبرية الكثيفة التي تشترك في المرافق وتلتحم بعلاقات صحية وعلمية وسلوكية وكذلك دور الشورى العامة أو السلطان في نظام أحكام التوحيد بالتسول"(٣١).

ويصف الترابي حركته السياسية بأنها أصبحت بعد الاجتهاد "مثالاً مستقلاً بين الحركات الإسلامية في العالم"(٣٢). ويشير في هذا الصدد إلى تطور الوضع الاجتهادي في السودان بقوله: "لقد أصبح الاجتهاد حركة كل المجتمع يجتهدون بقدر كسبهم للعلم وقراءتهم للواقع الذي يتولون عليه قيم الدين، فأصبح ما هو قياس وإجماع وما هو مكتوب في الكتب متخللاً عناً"(٣٣). ومما يدفع الترابي للتأكيد على الحاجة الماسة اليوم للاجتهاد وعلى الضرورة الملازمة للتركيز على تلك الجوانب وعلى تطوير القواعد الأصولية التي تناسبها، فضلاً عما سبق من أن القطاعات الواسعة من الحياة إنما نشأت جراء التطور المادي وهي تتوضح

Abu Nour www.alkottob.com

قضايا جديدة لم تدر في حسبانها ولم تتطرق اليها الفقه التقليدي. وقد لفت الترابي ايضا الى أن علاقات الحياة الاجتماعية وأوضاعها قد تبدلت الآن تماما بحيث لم تعد صور بعض الأحكام التي كانت تمثل الحق في معيار الدين منذ ألف عام، تحقق مقتضى الخير البين ولا توافي المقاصد التي يستوخاها الإسلام، عند بعثت أيضا، اضافة لتطور أساليب الحياة التي أدت بدورها لترتيب نتائج مختلفة عند اعتماد حكم معين بصورته مخالفة للذكر. والذي انتقلت معه انقلابا تاما. ويلوم الترابي من كانوا سبب في تعمير الاجتهاد الديني والتفقهي يوما ما، يدعوى الخوف على الأمة من الخير، مما أدى إلى قصور في الفكر الإسلامي وعجز عن تحري حل المشاكل ليومية التي تواجه المسلمين.

إلا أن الترابي يدعو في الوقت ذاته إلى الموازنة بين غاية الفقه ووظيفته أو تبيانه وصورته، ذلك يربط مقاصد الأحكام بحركة الوقائع وتطور صور التدين وتحددها حسب الضرورة التاريخية وميسرة الحياة، من خلال عصرية متمالئة وواقعة تحدد التدين والحياة. والابتعاد عن التشنج النظري، والتحكم الفقهي والجمود والمرونة في هذا الاطار، والنزعة نحو الأوضاع المواتية والقضايا الحادثة، والتكيف حسب جمود عصر منها ودوافع نظمائها والتنزل على دقيقها مفصلة تفصيلا، والابتعاد عن كونه خطاب جمعة رجمل، يؤهوسيلة قد يهدى لصحة العمل ويمهد لتطبيق الأحكام(٣٤). ويلفت الترابي النظر من هذا الصدد الى التاريخ الإسلامي داعيا إلى الانماط والاستفادة من تجاربه، والذي يرى أنه كان سجلا لحركة دائبة من التدين بين التقليد والتجديد، والذي أثبت أنه لا تقوم للإسلام بعصر حركة دين نشطة تحققه من مدة حركة الجدد، فإذا جمدت حركة المسلمين جمد إسلامهم وتشكلت طبيعة حياتهم بطبيعة غير اسلامية. اما اذا كان التجديد والاجتهاد معنى ملازما لنحركة، والحركة معنى ملازما للإسلام، فإن التجديد من أدم مقتضيات الاسلام. يعلمه مهم يدعو الى ابقاء باب الاجتهاد واسعا بإعتباره الطريق الوحيد لبعث حركة تكريمة بإسلامية جديدة، بدل الجمود الذي طرأ على الفقه الإسلامي حتى الآن. ليبلور نمط معاصر للدين يراعي أسس ومعالم تهيئة للحياة الدنيا على هذا العصر، مؤكدا أنه لا نبي للمسلمين اليوم على أن يكون الاجتهاد واسعا وكبيرا جدا إلى سنيعه الى حياة الناس العامة التي أهملت من قبل.

وفي هذا الاطار، يرى البعض(٣٥) أن مضمون قضية التجديد وأفقها عند الترابي قد يتسع الكثيرين، اذ ان التجديد طبق لطرح الترابي يجب أن يمتد الى كل جوانب الدين، فهو يدعو صراحة في محاضراته "تقديم فكرية وأصولية" الى ثورة تجديدية شاملة للفقه الإسلامي تقوي ضعفه بالجمود والتقليد واستحضار القديم والأسمان له، وحصر الدين في نقائص القديم، وبعض بلا مبالاة بصيرورة تجاوز الفقهي كله باعتبار ان التفقيه فيه لن يغني عن ضرورة ايجاد فتاوى جديدة عصرية. وحق التجديد عند الترابي على استقامته حتى يصل به الى التجديد في أصول الفقه نفسها، "الدعوة إلى بناء صرح اصولي جديد للاجتهاد بعد أن صار من غير الممكن للمنهج القديم الاستجابة لبناء المجتمع المعاصر". وقد حالفه في دعوته لتجديد أصول الفقه علماء معتبرون وقدموا نقدا علميا لمنهجه، وتتجاوز آراء الترابي في قضية السنة النبوية في كثير من جوانبها النصوص الأصولي السلفي المعاصر لها، فهو لا يعترف مثلا بخبر الآحاد كمصدر في الأحكام، ويفرق بين الملزم وغير الملزم من أوامر النبي (ص) كرسول وبشير، وبين ما ورد عنه كبشر لا يلزمنا في شيء. ويطالب باعادة النظر جملة في علوم الحديث، ويدعو إلى إعادة صياغتها مرة أخرى بعد تنقيح مناهج الجرح والتعديل ومعايير التصحيح والتضعيف. ومن ثمس لا يتردد في هذا الصدد إعادة تعريف مفهوم الصحابة، وعده لاعتراف بقاعدة أساسية عند المحدثين بنص على أن كل الصحابة عدول، وهو ما أثار عليه ثائرة السلفيين حتى اعتبره بعضهم من منكري السنة النبوية.

رئيسا يتعلق بقضية الديمقراطية والشورى والتي تحتل الحيز الأكبر من اهتمامات المراقبين للحركات الاسلامية، فإن الترابي يرى أن الحاكمية المطلقة هي لله سبحانه والسيادة والتشريعية التي توكل للأمة موضوعة

Abu Nour www.alkottob.com

على الالتزام بالشريعة التي تعهدها إلى من ينوب عنها وفق عقد سياسي عبر الشورى والانتخاب (٣٦). ومن هنا يقر التراثي بالشرعية الكاملة للحكومات القادمة عبر الانتخاب وتطبق الشريعة فقط. في حين يعتبر تلك القادمة عبر الانتخاب ولا تطبق الشريعة منقوصة الشرعية حتى تطبقها، باعتبار أن الشريعة هي أساس مشاء المجتمع والدولة الإسلاميين، وعليه فإن الإخلال بها يعد إخلالاً وإنقاضاً لأحيل أصيل وركن من أركان العقد السياسي للمجتمع الإسلامي القائم على نظرية الاستخلاف (٣٧). وبالتالي فهو لا يملك حق التشريع الأول حيث إن المشرع هو الله سبحانه الذي يوكل ذلك لمن هم شرعه وضوابطها لعبادة المستخلفين الذين ينيبون عنهم من ينفذ شرع الله فيهم ويدير شئونهم وفق ضوابطه ومقاصده.

وفيما يتعلق بالنظام السياسي، يعتبر التراثي أن التداول السلمي للسلطة وعبر آلية الانتخاب الأساس الوحيد والمصدر الأوحد للشرعية السياسية وللوصول للسلطة والحكم، إلا في حالات استثنائية يمكن فيها مؤقتاً الوصول إلى السلطة بغير هذه الآلية تمهيداً لإعادة الأمور إلى نصابها ووضعها الاعتيادي الطبيعي لاحقاً. وان المجتمع، إلى القوة إذا تم فقط في حال الاضطرار إذ اقتضت ظروف المد الفوضوي لصحوة الإسلامية أن تلجأ إلى منهج مقاومة جهادية في مصادمة تقتضيها طبائع الأشياء التاريخية، وتبررها أحكام الشرع، ولوضع لدى الظرفين (٣٨). وقد توسع التراثي في شرح هذا الرأي فيما بعد حين وقع صدامه مع نظام الإنقاذ، وحين مثل بعد أن تم إقصاؤه عن الحكم حول دوره في انقلاب الإنقاذ على الديمقراطية ثم تعبير خطابه الآن. قال (٣٩): "أنت تعلم أن العرب لا يأذن للديمقراطية أن تلد نظاماً إسلامياً، هذا ما حدث في الجزائر، وقبلوا عليها الأرض، والآن في تركيا. فحين عندما يقترب حزب نسنا ما إلى الانقلاب يضرب قدما وهنا في السودان ضربنا وطردنا من حكم من قبل بقوة خبيثة، وهرة أخرى ضربنا بقوة أجنبية. وهذا عندنا في الدين ونحن لا نعتدي على السلام أصلاً ولكن من اعتدى علينا فاعتدوا عليه، فنحن الإسلاميين لنا الثورة والدفع في مواجهة العدوان. وكذلك النظريات الغربية كلها تقول: إنه إذا كانت النخب كابسة ومواطنة عبيد بالقوة، سواء كانت محلية أو دولية فيجوز لك أن تقوموا .. هذا سمى مقاومة يسمى ثورة إذا أرادوا ذلك. ما كان من الممكن أن نصل بالطريقة السلمية إلى الحكم. لماذا؟ ضرب المسلمون في الزمان السابق في حروب الصليبية وفي الحروب الاستعمارية، ليس لأنهم اعتدوا على أوروبا، تهي لا يأذن للإسلام أن يقوم. وهي تحمل احقاداً سليبية واستعمارية جديدة .. فقد هي القضية، فمستحيل أن تمكنا من السلطة من دون مظاهرات، ولا مبعوض أجنبية، بدان صيانة في التخوم والرجوع إلى الأصول الإسلامية.

الحرية ليست فقط بين المسلمين لكل المذاهب أو الآراء والاختلافات ولكن لغير المسلمين أيضاً، فلم يوجد بلد أعطى فسحة لغير المسلمين مثلنا ولا يوجد بلد تتمتع الأحزاب للأحزاب مثلما فعلنا نحن. وبالخصوص البلاد الغريبة المجاورة لنا. فهي ما فسحت الباب للفسحة مثلنا، وهذا كان عسراً على الأخوة العسكريين .. لقد كان عسيراً جداً، لأن مهنتهم ترسيخ على القوة وعلى الضبط وعلى عدم الشورى وعدم الحرية. فهم تقليدٌ عليها بعد أن كانوا تتجلى كل أحلامها، وقد ذهبت الاحزاب .. والصحف متكاثرة وتتحدث كيف تشاء، وتهاجم من تشاء .. فنحن لا نتناقش أبداً، ولو كان الغرب يأذن لنا أن نأتي بالديمقراطية قطعاً لا يجوز لنا أن نأتي إلى حكم بغير، ولكن الغرب لا يسمح لنا. والآن الغرب يشجع فرض حالة الطوارئ، ويشجع إلغاء النظام الاتحادي الفيدرالي بقرار فرد، ويشجع إلغاء هيئة تشريعية بقرار فرد، لا يمر دستوري، لأنه ليس له أن يحل تلك المؤسسة بداً، كما يشجع على أن يعتقل، أو يحجر على الصحف فلا تنشر شيئاً مما دام الضحيف هو الإسلام. ولو كان الضحية من أولياتهم لأقاموا الدنيا وأقعدوها عليها .. نحن بالرغم من أننا جئنا إلى الحكم بالقوة، فإن شهوة القوة لم تغرنا أن نبقى هناك .. لقد كان من الممكن أن نبقى في السودان إذا تخلفنا معهم وأعطيناهم النفط والذهب وخيرات السودان، فهم لن يبالوا ويكتبوا أنت أم ظالمية. وهذه التطورات نحو الحرية هي قيمة نحن، ونحن بإرادتنا نحن، ردنا أن نقيمها

Abu Nour www.alkottob.com

وكادت أن تتكامل، ولكن ضغوطهم الخارجية هي التي حالت دون ذلك. هم لا يريدون للشعوب أن تحقق إرادتها من طريق الحكام، لأنهم يريدون الحاكم أن تنبت جذوره قهراً ويحتل من فوق الأرض، فيصبح معلقاً بهم هم. لا ثابتاً على أرض الإرادة الشعبية يعبر عنها، حتى يكون دمية في أيديهم يحركونه أنى شاءوا لمصالحهم .. هذه هي استراتيجيتهم".

هوامش

(١) نصحة الشيخ حسن الترابي على الشبكة الدولية للمعلومات الانترنت في الموقع التالي:
www. turabi .com/html/bady. c.v.html نقلاً عن عبد الحميد عبد الغني عمدي. منهاج التغيير السياسي في فكر الترابي والغنوشي، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد بيت الحكمة بجامعة آل البيت، الأردن، ١٩٩٩م، ص ٢١ .

(2) Louis J. Cantori and Arther Lowrie. Islam, Remocracy, the State and the west.Summary of Al ecture and Round-table discussion with Hassan Turabi. **Middle east Policy**. Vol,1 No 3. 1992- pp99 50

(3) www. Turabi. Com. Op,cit

(٤) عبد الوهاب أحمد الأفندي. **الثورة والإصلاح السياسي في السودان**، منتدى ابن رشد. لندن. ١٩٩٥. ص ٢١٨ .

(٥) عبد الوهاب أحمد الأفندي، مرجع سابق، ص ص ٢١٨، ٢١٩

(٦) المرجع نفسه ص ٢٢٠ .

(٧) عبد الوهاب الافندي. ظاهرة الإنشقاق عند الإخوان .. الحالة السودانية، موقع الجزيرة نت على الشبكة الالكترونية للمعلومات، ٢٠٠٢/١٢/٤، www.alga/cera.net

(٨)حسن مكي، **الحركة الإسلامية في السودان ١٩٦٩ – ١٩٨٥**، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص ١٥٠ .

(٩) المرجع السابق، ص ١٥٥ .

(١٠) د. الطيب زين العابدين، مقالات من الحركة الإسلامية في السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، ٢٠٠٣، ص ص ٥ – ١٤ .

(١١) المرجع السابق

(١٢) الصادق عبد الله عبد الماجد، حوار مع جريدة **البيان** الإماراتية، ١٩٩٦/٦/١٠ .

(١٣) محمد بن حامد الأحمري، «الترابي والخميني جدل الفكر والسياسة»، **المنار الجديد**، العدد التاسع على الشبكة الدولية للمعلومات، www. Almanar.net / Issues q

(١٤) المرجع السابق نفسه.

(١٥) الصادق عبد الماجد، حوار مع جريدة **البيان** الإماراتية، مرجع سبق ذكره.

(١٦) حوار مع الدكتور حسن الترابي، جريدة **الشرق الأوسط** اللندنية، ١٩٩٨/٨/٢٣ .

(١٧) محمد الحسن أحمد، «خلف الظهر والباطن .. وصهارة الترابي في المراوغة»، **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٠/٨/٢٩

(١٨) سلمى أبو جابر، حسن الترابي رائد الفكر الإسلامي المعاصر، رسالة ماجستير غير منشورة، مركز الدراسات المعاصرة، أم لقمه، ١٩٩٥، نقلاً عن عبد الحميد عبد الغني عمدي، منهاج التغير السياسي في فكر الترابي والغنوشي، مرجع سابق ص ١٢٥ .

(١٩) عبد الحميد عبد الغني عمدي، مرجع سابق. ص ١٠٨

Abu Nour www.alkottob.com

(٢٠) حسن الترابي، **في الحركة الإسلامية والتحديث**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الخرطوم، ١٩٨٠، الطبعة الأولى ص ٥ .

(٢١) عبد الحميد عبد الغني عدي، مرجع سابق، ص ٩ - ١٠

(٢٢) حسن الترابي "البعد العالمي للحركة الإسلامية: التجربة السودانية" . مهند عبد الله النعيس (محرر) آراء في النقد الذاتي. القاهرة، مكتب مدبولي ١٩٨٩ . ص ٧٧ .

(٢٣) حسن الترابي في الحركة الإسلامية والتحديث، مرجع سابق ص ٤٨ .

(٢٤) المرجع السابق، ص ٤٨ .

(٢٥) عبد الحميد عبد الغني عدي، مرجع سابق، ص ١١٠ .

(٢٦) انظر كنموذج: حسن الترابي "**الإيمان وأثره في حياة الإنسان**" . الكويت، دار القلم، ١٩٨٣ .

(٢٧) انظر حسن مكي، الحركة الإسلامية في السودان ١٩٦٩ - ١٩٨٥، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص ١٧٧ .

(٢٨) حسن مكي، المرجع السابق، ص ١٧٧ .

(٢٩) انظر كمثال: "**تجديد الفكر الإسلامي**: جدة، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧

(٣٠) حسن الترابي، **منهجية التشريع الإسلامي**، الخرطوم، دار الفكر، د. ت.

(٣١) المرجع السابق، ص ٩، ١٣، ١٤

(٣٢) حسن الترابي، **الحركة الإسلامية في السودان، التطور والكسب والمنهج**، الخرطوم، الطبعة الأولى، د.ن، ١٩٨٩، ص ٣٠٦

(٣٣) المرجع السابق - نفس الصفحة.

(٣٤) المرجع السابق، ص ٢١٩ .

(٣٥) حسام تمام، "حسن الترابي: جين هيجل المفكر في السياسة"، موقع إسلام أون لاين، الشبكة الدولية للمعلومات، ١٢/٦/٢٠٠٣ . http://www.islamonline.net/arabic

(٣٦) حسن الترابي، **الشورى والديمقراطية**، الخرطوم، دار الفكر، د.ن، د.ت، ص ١٧

(٣٧) عبد الحميد عبد الغني عدي، مرجع سابق، ص ١٥٥

(٣٨) حسن الترابي، "**الصحوة الإسلامية والدولة القطرية في الوطن العربي**" في "**الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي**، تحرير سعد الدين ابراهيم، منتدى الفكر العربي، عمان، ١٩٨٨، ص ٣٢٢

(٣٩) نور الدين لعويديدي، حوار مع حسن الترابي "جريدة الاتحاد" صريت تجريب لكل حركة الإسلام في العالم، الشبكة الدولية للمعلومات. www. islamonline.net/arabic/dowliayopolitic- june - 2000)

Abu Nour www.alkottob.com

٢. عبد القادر بن عبد العزيز: قراءة في فكر أحد قادة التيار الجهادي

أولا: نبذة عن عبد القادر بن عبد العزيز مؤلف كتابي "الجامع" و"العمدة"

يعرف المؤلف في أوساط الحركات الجهادية باسم "عبد القادر بن عبد العزيز" ويحظى بقبول واحترام كبير بداخلها، حيث ترى تلك الأوساط أن مكانته العلمية لا تضارع خاصة وأنه ينقطع لتحصيل العلوم الشرعية ويمثل بالنسبة لتلك الأوساط مرجعية علمية كبيرة. وقد ورد اسم المؤلف في القضية رقم ٨/لسنة ١٩٩٨ جنايات عسكرية، وكان يرأسه في قرار الاتهام الذي قدمته النيابة العسكرية للمحكمة رقم ١٢(١)، وتضمن هذا القرار كافة القيادات والكوادر المرتبطة بتنظيم الجهاد، وحكم في هذه القضية بالإعدام على تسعة من هذه القيادات كان على رأسهم "عبد الظواهري"(٢)، بينما حكم على المؤلف بالسجن المؤبد، وفي ظل انتحال أعضاء تنظيم الجهاد لأسماء حركية وغير معروفة فإن أوراق القضية وعن طريق التحريات والاعترافات تضمنت الأسماء الحقيقية. وعن المؤلف قالت الأوراق أن اسمه الحقيقي هو سيد إمام عبد العزيز الشريف وله أكثر من كنية، منها الدكتور فضل وسيد وعبد القادر عبد العزيز، وأنه تولى إمارة التنظيم قبل عام ١٩٩٣، وشارك في أعمال اللجنة الشرعية، وهو هارب بالخارج(٣). وبعد ما ذكر عن المؤلف قليل جداً في أوراق القضية بشكل لا يتناسب مع تأثيره وموقعه لو قورن بغيره من القادة الذين تضمنتها أوراق القضية. ويرجع ذلك في تقديرنا لسببين، أولها اعتماد المؤلف منهج السرية بشكل كبير لدرجة أنه كان أميراً لتنظيم الجهاد كله قبل عام ١٩٩٣ ولم يكن أقل أعضاء التنظيم يعرفون ذلك(٤)، وثانيها: استقالة المؤلف من إمارة التنظيم بعد اكتشاف تنظيم طلائع الفتح والقبض على حوالي ألف من أعضائه في ليلة واحدة رغم ثم توقفت مساهمته في توجيه وإدارة التنظيم بعد تولي "عبد الظواهري" للإمارة ومبايعة الأعضاء له.

والشريف من مواليد عام ١٩٥٠، وينتمي لمحافظة بني سويف في شمال صعيد مصر، التي

Abu Nour www.alkottob.com

تبعد عن القاهرة نحو مائة كيلومتر، وهو خريج من كلية الطب عام ١٩٧٤ وتخصص في الجراحة. وقد كان الشريف متهماً في قضية الجهاد الكبرى التي تلت اغتيال الرئيس المصري السابق أنور السادات عام ١٩٨١ والمعروفة بالقضية رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٨١ حصر أمن دولة عليا. والتي ضمت ٣٠٢ متهماً. كان ضمنهم أيضاً أيمن الظواهري، وقد حصل الاثنان على نفس الحكم بالبراءة مما نسب إليهما إسلامياً. كان الشريف عضواً في تلك القضية، وصدر الحكم بحق الشريف غيابياً لأنه كان في ذلك الوقت هارباً بالخارج. من أفعال في تلك القضية، وصدر الحكم بحق الشريف غيابياً لأنه كان في ذلك الوقت هارباً بالخارج. وقد غادر الشريف مصر منذ عام ١٩٨١ قبيل وقوع عملية اغتيال الرئيس السادات وظل في الخارج مستقلاً بين بلدان عديدة كان آخرها حيث قامت السلطات هناك بالقبض عليه في أكتوبر عام ٢٠٠١ وتسليمه لمصر في فبراير عام ٢٠٠٤. وقد بدأ الشريف خبرة العمل الإسلامي السري الانقلابي مبكراً، حيث كان عضواً جدي المجموعات الجهادية الصغيرة التي تشكلت عام ١٩٦٨ تشريفياً في ضاحية المعادي بجنوب القاهرة وكانت تضم معه كل من أيمن الظواهري وتبيل النبوعي وإسماعيل طنطاوي وغيرهم ممن أصبحوا بعد ذلك من القيادات الكبرى والمعروفة لدول التيار الجهادي.

وبمطالعة أوراق القضية الأخيرة المشار إليها، نجد أن ترتيب المؤلف في قرار الاتهام كان (١٩٠) من إجمالي ٣٠٢ متهماً، وأنه كان ضمن مجموعة أيمن الظواهري حيث ذكر في التحقيقات أن ضمن مجموعته السيد إمام عبد العزيز الشريف والذي كان يقوم بتثقيف وتجنيد الأعضاء (٥١). وذكرت النيابة أن "السيد إمام عبد العزيز الشريف" كان يقوم بكتابة الأبحاث بتحديد فكر الجماعة خاصة الموقف من بعض السيارات تفكيرية الإسلامية في الساحة. وتشير الأوراق إلى أنه التقى المقدم عبود الزمر في شقته التي كان هارب فيها بمنطقة الهرم وكان بصحبته أيمن الظواهري وأثناء عصام القمري وأنهم تحفظوا على أسلوب الأعداد "للثورة الشعبية" والذي كان يوجهه المقدم عبود الزمر(٦).

وحسب شهادة هاني السباعي لجريدة الحياة، فقد سأل أيمن الظواهري كشف أسس جماعته الأولى، فرد بالحرف الواحد: أنا الذي كنت أميراً على هذه المجموعة فمن فيها الدكتور سيد إمام (صاحب كتاب الجامع في طلب العلم)، وقال أن المجموعة التي تشكلت في ناحية المعادي نسبت طلبة في الثانوية العامة في طلب العلم)، وقال أن المجموعة التي تشكلت في ناحية المعادي نسبت طلبة في الثانوية الجامع في طلب العلم)، وقال أن المجموعة التي تشكلت في ناحية المعادي نسبت طلبة في الثانوية كانوا يذهبون إلى المسجد معاً كونهم يعرفون بعضهم بعضاً من المدرسة. في تلك الفترة اجتمعوا وكونوا أول خلية لتواة جماعة صغيرة واختاروه الظواهري أميراً للمجموعة الصغيرة التي ضمت الدكتور أيمن وتبيل النبرعي وإسماعيل طنطاوي والدكتور سيد إمام وغيرهم. وقال السباعي أن الظواهري قال له أن معظمهم من أبناء هذه المنطقة الراقية، وأن تأسس المجموعة حصر في العام ١٩٦٨(٧). وحسب مصادر عديدة فقد أنهى المؤلف دراسته للطب في مصر ثم سافر المؤلف إلى باكستان وأفغانستان قبل اغتيال الرئيس السابق أنور السادات في أكتوبر ١٩٨١ وذلك لمجهد عند الاحتلال السوفيتي للأخيرة، وهو ما جعله يحاكم غيابياً في قضية الجهاد الكبرى المشار إليها.

لم يغادر السيد إمام عبد العزيز الشريف باكستان التي سافر إليها للجهاد ضد الاحتلال السوفيتي بل ظل موجوداً بها، ولحق به هناك بدءاً من النصف الثاني للتسعينيات عدد من قيادات الجهاد الذين تمخضوا أحكام السجن عليهم في مصر وغادروها بعد ذلك وسهم أيمن الظواهري وعبدالعزيز الجمل وأحمد سلامة مبروك ومحمد عبدالرحمه الشرقاوي، والذين جمعهم معاً لاختيار أمير لجماعة واستقروا معي أن يكون هو الدكتور سيد إمام، وأطلقوا عليه لقب عبدالقادر بن عبدالعزيز. وحسب شهادة السباعي – ومصادر إسلامية أخرى – فقد اختير هذ الاسم تلاصر الجديد للجماعة لأن المجموعة لم تكن تريد أن يعرف الناس اسم الأمير الحقيقي، حرصاً على سلامة من هو، وأيضاً لأن الأمير الجديد نفسه، سيد إمام، كان يحب أن يكون العمل سرياً، ونتيجة لذلك فقد كان الشهور

Abu Nour www.alkottob.com

أنذاك هو أن أمير الجماعة هو أيمن الظواهري؛ وذهب كثيرون من أعضاء الجماعة لمبايعته ولم يعرفوا أنه ليس الأمير. فقد كان يطلق أنه الأمير لأن اسمه كان معروفاً من خلال المحاكمات من خلال حديثه لوسائل الإعلام، بالإضافة إلى أن الجميع تقدم في الجماعة كان يعرف الدكتور أيمن وليس الدكتور عبد إمام، لأنه كان هرب قبل اعتقال السادات.(٨)

وظل الدكتور سيد إمام يقود تنظيم الجهاد من باكستان وأفغانستان موجه أعضاء ه من هناك وفي عام ١٩٩٣ حدثت هزة كبيرة في التنظيم بسبب انكشاف جناح طائرة الفتح العسكري الخاص به وقيام السلطات المصرية بالقبض على نحو ألف شخص من أعضائه. أدى ذلك إلزمة كبيرة داخل الجماعة وقد بعض قياداتها تياراً قوياً يدعو إلى محاسبة قيادة الجماعة عن حدوث ويحاسبة أيمن الظواهري الذي كان معروفاً للجماعة كمأمور لها. واحتدم الخلاف الداخلي بين أعضاء الجماعة وقياداتها في السودان حتى ذهب إليه بعضهم في ذلك الوقت، فطالب التيار المناهض لمحاسبة المسئولين بداخل الجماعة بحضور أميره الحقيقي الدكتور سيد إمام من باكستان التي ظل مقيماً بها ولم يغادرها معهم إلى السودان. ولما لم يلقى ذلك المطلب استجابة من الدكتور إمام، فقد طالب أنصار المتحدة باستبداله من إمارة الجماعة واختيار أمير جديد لها أكثر قدرة على إدارة شئونها البومه من الدكتور إمام الذي كان مهتماً بالعلوم الشرعية ويبحوثه وترك تلك الشئون للدكتور أيمن الظواهري. ومع استحكام الخلاف بداخل الجماعة قرر الدكتور إمام تقديم استقالته من إمارة الجماعة وحل الجماعة نفسها وأبلغ بها قياداتها وأعضاءها في السودان، وهو الأمر الذي انتهى بعد ذلك باختيار أيمن الظواهري أميراً لها بعد أن ظلت لفترة بلا أمير.(٩)

كان فكر "السيد إمام عبد العزيز الشريف" يقوم على الاعتماد العسكري الجيد وعدم التعجل والمواجهة غير الناضجة مع النظم، لما يرافق الرصوخ لحساب أسباب الفاعل ضرورة تنفيذ عمليات في مصر ضد السلطة السياسية. ومن المثير للدهشة أنه كان ممن ذهبوا للتعاون مع بن لادن وتنظيم القاعدة (١٠)، وتوظيف هذا التعاون لصالح تنظيم الجهاد في سعيه للاستحواذ على السلطة في مصر.

للمؤلف "عبد القادر عبد العزيز" مؤلفات عديدة لكن أهمها وأعمدها في إعداد العدد، وأشهرها وأحبها هو الجامع في طلب العلم الشريف. ويعيش المؤلف خارج مصر، ورغم أنه يعتصد بوجوب العمل الجماعي لكنه يرى أن الجماعات الإسلامية المعاصرة بها من القصور ما يمنع بعده تحقيق التمكين.

ثانياً: كتاب الجامع في طلب العلم الشريف

(أ) مقدمة وملاحظات عامة

يمثل كتاب "الجامع في طلب العلم الشريف" موسوعة ضخمة تزيد على الألف صفحة في مجلدين كبيرين. ويمكن القول بن المصنف يمثل كشكولاً او فهرست(١١) ضخم لمقتطفات علمية والعطية التي تمثلت موضوعاً للنقش والاهتمام والجدل داخل الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي منذ سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤، وربما يفسر الطبيعة الموسوعية للكتاب عنونته بالجامع(١٢). كما تفسرها بقية عنوانه "في طلب العلم الشريف" وقصد القضايا العلمية الشريفة أي تلك التي تتصل بعلوم الدين وأصوله وقواعده وضوابطه ومناهجه وأنه لا يمكن للمسلم في تصوره أن يفوز بالجنة إلا عن طريق تحصيلها، ولو حاولنا العودة لما يقابل القضايا في الجامع في ضوء العلم الشريف في كتابات القدماء من العلماء، لقلت إنها القضايا التي كانوا يسمونها بأصول الدين تمييزاً لها عما

Abu Nour www.alkottob.com

يعتبره فرعه. وقضايا اصول الدين(١٣) عندهم هي القضايا العلمية والخبرية التي تتصل بالاعتقاد و تتصور ورؤية العالم.

والمؤكد أن المؤلف الذي اخلق على نفسه اسماً لمس باسمه الحقيقي يمثل جهداً هائلاً في كتابه وجمعه لمادة مؤلفه الكبير(١٤). ويحصل المؤلف على عاتقه ما يمكن أن نطلق عليه عبء الدعوة و نهايته(١٥) لذا فقد ظهر تأثير بشكل محسد عليه في أن يكون جامعه هو الخلاصة لتصحيحه ورؤيته النهائية التي يجب على المسلم تسلم التزامها من أجل أن يكون من الفرقة الناجية"(١٦). ونرى حاولنا تلمس الأبعاد النفسية للكاتب فاننا سنلاحظ بوضوح أنه يحمل على عاتقه نزعة خلاصة تؤسس قواعد ممارسة ومثالية يجب على المسلم التزامها و لمجاهدة للنبات و لربط عليها. ان المؤلف يعتبر "الجامع في طلب العلم الشريف" دستوراً لمن يمكن ان نطلق عليه الإنسان المتكامل" أو "الإنسان المثالي"، أي ذلك الذي لا يخطئ أبداً.

ولما يكون احتمال المؤلف لموقع قيادي في حماعة "الجهاد الاسلامي المصرية". هو الذي جعله ينشد "المثالية والكمال" باعتبارهما طريقاً للنجاة الفردية ثم طريقاً لإقامة الدولة الإسلامية. ان الكتاب كما يتصور المؤلف هو دستور الطليعة المسلمة التي تمثل جيلاً خاصاً وصغيراً يتحقق به التغيير في تعالم الإسلامي". لذا يمكن القول ان الجامع في طلب العلم الشريف" هو خطاب للخاصة وفقه لها، وليس فقهاً أو خطاب لعامة المسلمين أو جمهورهم. رغم أنه يمكن وصفه بأنه "فقه الاستثناء" او "فقه الضرورة" أو فقه الشعور بالخطر، وليس "الفقه" او الأصول التي تتعاطى معها عامة الناس في حياتهم اليومية.

وهنا نكتشف المفارقة. فالفقه الإسلامي كما أسس له أئمته الكبار(١٧) قد جن طريق التراكم العلمي الاجتهادي في سياق مجتمع إسلامي، فكان فقهاً للمجتمع وتعبيراً عنه. وكنا نجد المؤلف لأي موسوعة فقهية يمزجا بقضايا العبادات ثم يتدرج الى قضايا المعاملات ثم قضايا العلاقات الدولية وهكذا. وكان الفقيه متسرعاً حياً لمجتمعه. يؤلف ويؤسس وفق القواعد العلمية الصارمة، ولم يكن مضغوطاً بظروف خارجية قد تدفعه للانتقاء أو التأويل وفق رؤية معينة تعبر عن تفضيل أو جماعة أو فكر خاص. وبينما نشعر باستفادة حقيقية وضخمة معرفية مع كتاب الجامع في طلب العلم الشريف" حين يتحدث عن الحكم على المجتمعات والأفراد، فاننا نجد أن اغترابه من الحكم على المجتمعات والأفراد وأحكام يورث نوعاً من الحيرة والسرود و لاضطراب المنهجي، ذلك لان المؤلف في الحالة الأولى التي عيدان يبتعد نفسها بنفسيه وتحميل نتائجها بينك وبينه علاقة معرفية مقيده وصنحة، حيث يكون المؤلف قد فصل على القارئ بتمثل في تزويده بالعلم والمعرفة وتبسيطهما وشرحهما بأسلوب سهل، فالعلاقة اذن هي علاقة تفاعل وحوار بين طرفين يتفاعلان ويتجاذبان وكل منهما على قدم المساواة فنحن ينتقل بالموقف الايماني أو الارشيف الإسلامية، بينما في الحالة الثانية تشعر أن المؤلف أصبح قاضياً يسعى لجمع الأدلة للحكم على المجتمع أو الفرد الذي مقرأ له أو يريد أن يستفيد منه.

فعلم المؤلف في الحالة الأولى ساحة بيد الناس الى الخير والحق والعدل. بينما في الحالة الثانية يصبح العلم "أداة للتخويف والتنفير والحيرة. وبتعبير اخر فان العلم أو المعرفة يصبح اداة في يد العالم بينما يصبح المتلقي موضوعاً للتشريح ولحكم عليه. وهنا لا تكون العلاقة بين العالم ومجتمعه أو المتلقي من علاقة اطمئنان وثقة، كما في حالة الداعية الهادئ، بقدر ما تكون علاقة قمعية وسطوة يصبح فيها العالم قاضياً والمتلقي محكوماً عليه(١٨).

وفي الواقع فان مفهوم "الفرقة الناجية" وسيطرته على العقل الإسلامي، خاصة التيارات السلفية،

Abu Nour www.alkottob.com

تدفعه لترتيع صفات وخصائص هذه الفرقة الناجية بحيث ان من لا تنطبق عليه هذه الصفات يصبح وكأنه خارجاً منها. فالفرقة "الناجية" والتأسيس العلمي لصورتها على المستوى النظري ربما يحتمل في طيات طابعاً استبعادياً قد يتخذ أشكالاً تكفيرية من حيث لا يريد الذين أسسوا لصفات الفرقة "الناجية" هذا. كذلك، وفي الحقيقة، فإن تعبير أهل السنة والجماعة يشير إلى المعتقدات التي تحملها الأغلبية المسلمة بدون توغل علمي في أمور الفرق وحالاتها، انها عقيدة المسلمين قبل ظهور الخلافات الفرقية وتمزيقها على الأمة. وهناك آثار تتحدث عن أن "أهل السنة والجماعة" - أي ما عليه عامة الجماعة المسلمة، أي ما اجتمعت عليه الامة المسلمة. أي ان أهل السنة لم يكونوا يعبرون عن فرقة، وإنما هو الجماعة والتيار الأساسي الذي يمثله جمهور وعامة المسلمين والذين فارقوهم، أي فارقوا الجماعة أو التيار الاساسي هم الفرقه. ومن تعدوا موضوع الفرق الاسلامية وتفرقها وتشتتها بالاطلاع بوضوح ان أهل السنة والجماعة لم يذهبوا ليتوقفوا مختصرات وكتبا معبرة عن عقيدتهم الا بعد أن قامت كل فرقة وألفت لنفسها، لكن أهل السنة اعتبروا عقيدتهم محفوظة بقدسيتها في نفوس الجماعة - أي عامة الناس وجمهورهم العظيم البسيط. أي أمثال تلك المرأة التي قال عنها الفخر الرازي "يا ليتني كنت على مثل عقيدة عجائز نيسابور"(١٩١)

والمتابع لتاريخ الفرق الاسلامية، سوف يلاحظ أن كثيراً مما كتب فيها كان رداً على ما اثارته الفرق الخارجة على الجماعة - أي أهل السنة والجماعة - بدءاً ليحدد موضوعاته، ولم يكن العامة فيه تتصور جزءاً من هذا الجدال الفكري كما لم تكن ردود علماء أهل السنة أداة في مواجهة الجماعة - أي العامة - أو التيار الرئيسي والأساسي من جمهور المسلمين بقدر ما كانت رداً على عقيدة أهل السنة وحمايةً لها في مواجهة عنوة فكرية خطيرة هي "عنف وطأة" ما تطلق عليه في التاريخ المعاصر بالغزو الفكري أو الثقافي"(١٩٢).

ويؤلف "الجامع في طلب العلم الشريف" يؤدي كتابه ما يعبر عقيدة أهل السنة والجماعة، ولكن في مواجهة الجماعة - أي عامة المسلمين الذين يحتظرون الاسلام في قلوبهم بالفطرة الواعية، الاعتبار البسيط بعيداً عن متاهات النصوص والاستدلالات التي يدخ فيها المؤلف بشكل عنيف للاسهاب. وفي المصنفات التي عبرت عن عقيدة أهل السنة والجماعة، نجد الحرص واضحاً لتغليب الجماعة على الفرقة، وتغليب وحدة الأمة على تمزيقها وتفتتها، ومن هنا كان رفضهم لتكفير المعين المسلم بالذنوب، وصلاتهم خلف الائمة المسلمين الجائرين بل وجهادهم معهم وبعد، لخروج مثلهم. وكان جهدهم وتدبيرهم للصحابة يشكل وسطي لا يفرط فيه ولا تفريط. وكان كثير مما تضمنته كتب العقيدة ذات طابع احتجاجي، فأهل السنة تحدثوا عن الخروج على الحكام الظالمين لكنهم لم أخذوا بعد ذلك عامل الواقع من حيث تقدير المصالح والفساد، ثم انتهوا إلى اجماع على عدم الخروج بكل حدٍ اعتبار لوحدة الأمة ودفع الفتنة وإراقة الدماء. لكن - أي المؤلف - يؤسس موقفه في مواجهة الحكام على أساس انهم ضالون للشريعة ومن ثم فإن مواجهتهم عسكرياً وبالقوة هو أمر لا مناص منه. فهم ليسوا مسلمين، لكنهم يرتدون وهو بذلك يثير من الأفكار الأصليين. وهو في تصوره أحق وأولى بالمواجهة من الأفكار الأصلية والمحايدة من أهل الكتاب. ولا يزال المؤلف وفياً لأفكار السلفية للتيار الجهادي الذي يتحدث عن أن مواجهة

Abu Nour www.alkottob.com

العدو القريب – وهو هنا الحكام المتسلطون للشرائع أولى وأوجب من مواجهة العدو البعيد – وهو هنا الأمريكيون واليهود ومن تحالف معهم.

لكن واجب مواجهة الحكام العدو القريب – يبقى مرهوناً بالقدرة أو الاستطاعة التي لابد من تحصيل أسبابها باعتبار أن "مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب". ومن ثم فإن المواجهة المسلحة هي الأداة الرئيسية للتغيير عند المؤلف. وهذه المواجهة تفترض السعي في استكمال أسبابها بما يحقق الدخول في منازلة عسكرية ذات طابع عسكري مع الأنظمة لسببية المدافعة لتغييرها، وهو – أي المؤلف – وإن كان يربط المواجهة بشرط القدرة والاستطاعة، لكنه اعتبر مسألة الوصول إلى حد كمال القدرة أمراً واجباً على المسلم أن يجاهد دائماً للوصول إليه، ومن ثم استحضار المسلم للحالة الجهادية أبداً وأخيراً. وهذه الحالة الجهادية هي في مواجهة الحكام، فبديلاً للشرائع، أي أن المؤلف يفترض أن يكون المسلم في حالة مواجهة مسلحة دائمة مع نظامه السياسي، خاصة وأنه يعتبر الأنظمة الحاكمة لسدة في تعبيره عن عدو من خطير يفترض ما يعرف في الفقه الإسلامي "جهاد الدفع"، أي أن من يجابهه هذا الأنظمة عسكرية في تصور المؤلف هي فرض عين، ومتساوٍ مع واجب الجهاد في مقاتلة الغازين محاربين بل هي أوجب منه. وهو ما يعني أن يظل الناس مشغولين بإتمام التغيير الديني إن لم يظلوا دائماً وأبداً في حالة استنفار عسكري دائم مع تنفيسه نسبياً(٢٣). وقد رفض المؤلف أي وسائل أخرى للتغيير بشكل سلمي، واعتبر أن مشاركة بعض الحركات الإسلامية في قضايا التغيير السلمي هي نوع من الشرك والكفر "لخرج من أمثلة لأن المشاركة في المجتمعات الانتخابية والسياسة تتضمن الإقرار بسلب حق الله في التشريع وهو ما يصادم العقيدة ويخرج فاعلها وليس معتقده من الملة.

وهنا في الواقع نبدو المشكلة الجوهرية فيما تصوره يتبدل من خلق علمه "نظريه" تعبره الذي الحركات الإسلامية، حيث لا تميز هذه النظرية بين ما هو عقدي وما هو حركي واقعي، أو بعبارة أخرى لا تميز بين ما هو ثابت لا يتغير، وبين ما هو متجدد وحادث يتغير. فالعقيدة والمسائل المجمع عليها والكليات الضرورية هي من الثابت الذي لا يتغير، وهذا قد نهج في طريقة التعاطي معه تحكمه قاعدة أنه "لا اجتهاد مع النص"، أما المسائل الحركية الواقعية المتجددة والحادثة فهي من المجال التي تحتاج لنوع من الاجتهاد الذي يتغير بتغير الظروف والأحوال والوقائع، وحكم هذه المسائل قاعدة "تغير الفتوى بتغير الحال والزمان والمكان"(٢٣). ومسألة التغيير في المجتمعات الإسلامية وكيفية تحقيقها هي من المسائل المتجددة والحادثة والتي لا تنحصر في وسيلة بعينها لا يجوز تجاوزها، كما أنها تدخل فيما يطلق عليه "نظرية القرار السياسي"، أي "مواجهة موقف (ما) أو أزمة أو مشكلة بقرار سياسي"(٢٤)، يتغير بتغير معطيات المشكلة وعناصرها، لذا فمسألة الانتخابات "مجلس الشعب هي قرار لمواجهة موقف قد يتغير وفقاً لجدوى السياسة الواقعية، أو تتغير أكثر دقة المصالح الشرعية" والتي تدور بشكل أساسي حول تحصيل المصالح وتعظيمها وتقليل المفاسد ودفعها.

فالذي يحكم قرار دخول الانتخابات هي المصالح والمفاسد أو ما يطلق عليه المؤلف نفسه "السياسة الشرعية" والتي تتمثل في جوهرها "ما يكون أقرب إلى الصلاح منه للفساد" حتى لو لم ينزل بذلك وحي أو نص شرعي"(٢٥).

والتمييز بين المجتهَد فيه، الثابت والمتغير، وكذلك التمييز بين مناهج التعاطي معهما هو ضرورة لفك إشكالية "إيجاد المتغير في مسائل العقيدة وما يتصل بذلك من اطلاق أحكام التكفير والخروج من الملة"(٢٦).

وبالعودة لما أطلقنا عليه من قبل شعور المؤلف بتحمله "عبء الدعوة والمسئولية للغير" تجده قد

Abu Nour www.alkottob.com

اختط لنفسه خطة جديدة لتكثير من المفاهيم خالف فيها أساطين العلماء من قبله، وهذه حالة تتلبس بها قيادات إسلامية تشعر بوضاءة الواقع وثقله. ومن ثم فهي تعيد قراءة الفقه غير ما تمكن أن تطلق عليه "كشف الحق". وفي الواقع فإن شكري أحمد مصطفى يعد مثالاً نموذجياً لذلك، إذ المؤلف يقترب من أن يكون شبيهاً له في هذا الأمر. فهو يؤسس لمفاهيم جديدة في خضم التكفير خالف فيها أكابر علماء الإسلام. وإن كان شكري "جعل من إعادة تعريف الأسماء مدخلاً لتقريبه حول تكفير المجتمع والحاكم"[٢٧] فإن المؤلف - عبد القادر بن عبد العزيز - جعل من العلم مدخلاً لإعادة النظر فيما ذلك القضايا العقدية والفقهية التي انتقد فيها سابقيه من علماء أهل السنة النبلاء، وهو فيما يخالف فيه غيره لا يعتبر أن موضوع الخلاف مسألة اجتهادية. كما لا يعتبر أن مخالفته على شيء من الحق، فالحق فيما يذهب إليه هو، إنه يكتشف الحق من جديد!!

وبعد موضوع التكفير الذي توسع فيه إلى حد أنه ذهب إلى تكفير قطاعات واسعة من المجتمع بأعيانهم مثل القضاة، والمحامين، والجيش، والشرطة، والعاملين بقطاعات الأمن المختلفة، المشاركين في انتخاب نواب البرلمان ... وهكذا حتى تتسع الدائرة لتشمل كل من يعاون الحكام المرتدين[٢٨]. أحد تجليات الكتابة الحي الذي جهله من سبقه. ويذهب المؤلف إلى أن فاعل الكفر أو ضامنه يكفر بمجرد الفعل أو القول دون معرفة هل فعل أو قال جاحداً أو مستحلاً لما قاله أو فعله من قضايا الكفر. وحمل المؤلف على مواقع العقيدة الخطوة يشاركها ابن أبي العز حملاً كشف، كما اتضح "أن نفسه في نفسيته الكفر إلى كفر عملي، اعتقادي، واعتبره الحكم مغير ما أنزل الله وترك الصلاة من الكفر العملي، بل تعتقد أن نسبة نفسه في بعض المواضع [٢٩]. انتهى المؤلف إلى أن أي تعبير للكفر فيه الألف واللام "الكفر" يعني الكفر الأكبر المخرج من الملة، وأي تعبير للكفر في القرآن الكريم بما في ذلك كفر النعمة وجحوده، هو كفر أكبر مخرج من الملة، وفي الحديث أو النسة فالأصل في إراد الكفر هو كونه مخرجاً من الملة ما لم يأت صارف يصرفه إلى كونه كفر أصغر لا يخرج من الملة. واعتبر أن الصحابة أجمعوا بشكل قطعي على كفر أعيان المرتدين الذين سموا الزكاة "أي أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما كفروا أعيان المرتدين الذين قالوا بنبوة مسيلمة وطليحة الأسدي. ومن ثم فإن أعيان الذين مناقضون عن الحكام، مرتدون في العالم الإسلامي هم أعيانا مأسماؤهم مرتدون بكفار، وهكذا فأعيان جنود الجيش والشرطة والأمن المركزي هم مرتدون وكفار بأعيانهم. لأن حكم أفراد الطائفة ليه نفس حكم رأسها. وهكذا. هنا في الواقع نجد أن المؤلف ينتهي إلى نتائج ربما تستند إلى قواعد جاسئة وكلية تعيبه إلى الذهن الطريقة التي كانت تنتهجها جماعات التكفير. ويذهب المؤلف إلى عده استخدام تعبيرات مثل الكفر العملي، أو الكفر الأصغر أو غيرها من التعبيرات التي انتهى إليها علماء السلف لضبط مسألة التكفير!![٣٠].

ويصرف النظر عن حقا المؤلف فيما ذهب إليه من تكفير أعيان الطائفة الممتنعة، وتكفير أعيان المشاركين أو المدافعين أو حتى المكرهين ممن يعتبرهم أعواناً للحكام، فالواضح أنه سعى إلى استعمار النصوص والقواعد والاجتهادات التي تدير الناس بحكم التكفير، رغم أن قواعد السلف هي التحرز في مسألة الحكم بالكفر على مسلم، وأن الأصل في المسلمين هو الحكم بإسلامهم. وأن الخطأ في الحكم بالإسلام على كافر خير من الخطأ في الحكم بالكفر على مسلم، لأن تكفير المسلم هو ذنب تنظيم وجره خطير، وثبت قول الرسول (صلعم): من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما". ولو عاودنا الدفاع إلى الذي تؤخذ منه المؤلف بالحكم بالتكفير على أعيان قطاعات واسعة من المجتمعات العربية والإسلامية لوجدنا لا يختلف كثيراً عن الذي ذهبت إليه جماعة المسلمين. أي أن الاختلاف بين المؤلف الذي يتبنى المنهج السلفي وبين شكري مصطفى الذي يتبنى مذهب الخوارج هو اختلاف في

Abu Nour www.alkottob.com

الدرجة وليس اختلافا في النوع [٣١].

وهنا نجد أن النزوع إلى التوسع في الحكم بالتكفير على الناس لا يمكن فهمه إلا في سياق نفسي يؤسس لعالم انقسامي ومفارق: في مواجهة المحكومين والمجتمعات معا. ويتفجر المخالفة فإن التوسع في الحكم على الناس بالتكفير يعني أن الجماعة التي تستلهم هذا الفكر تريد أن تحول إليها جماعة المسلمين، وكلما بالغت أي جماعة في متابذتها مجتمعها وحاولت أن تستقطبه وتحكم عليه بالتكفير، فإنها تؤسس لعزلتها، كما تؤسس لانقسامها وفشلها.

وفي الواقع فإن الفكر الجهادي في بدايته الأولى كان يهتم أساسا بالجوانب العملية المتصلة بمواجهة الحكام، وكان يقوم في هذا على حكم القتال ومحاكمة العقائد، فالطائفة الممتنعة تُقاتل كما يقاتل الكفار والمرتدون حين القدرة عليهم بصرف النظر عن الحكم على أفرادهم بالكفر. وكانوا يلتزمون بقاعدة "إلزام الصفة دون الحكم"، وقاعدة "كفر النوع وكفر المعين" فيقولون مثلا: "النظام كافر"، و"الحكم جاهلي"، أو يقولون: "فلان كافر"، لكنهم لا يكفرونه على الحقيقة كشخص[٣٢]. ولم يكن الفكر الجهادي يهتم بفكرة التكفير بقدر ما كان يؤسس لفكرة القتال والخروج على الحكام[٣٣]. لكن كتاب "الجامع في طلب العلم الشريف" الذي يمثل قطيعة مع تقاليد الفكر الجهادي فتح بابا جديدا للنقاش، وبدأ مع لمريع جديد بين أفكار التكفير والقتال وبين المنافع تسلفية وصالح الخوارج[٣٤].

٢ ـ كتاب الجامع.. القضايا الإشكالية[٣٥]

نحن نؤلف في مقدمة الطبعة الثانية للكتاب حملة قاسية على جماعة الجهاد المصرية بسبب ما اعتبره عدوانا على الكتاب. فقد قامت الجماعة بطبع الكتاب بعنوان مختلف عن عنوانه الأصلي وهو "الهادي إلى سبيل الرشاد في معالم الجهاد والاعتقاد". كما قامت بحذف أكثر من نصف مادة الكتاب والتي تضمنت حملات انتقادية شنها المؤلف على رموز جهادية وإسلامية وعلمائية معاصرة [٣٦]. وأعلنت الجماعة أن "كتاب في طبعته الجهادية قد تمت مراجعته من قبل اللجنة الشرعية للجماعة، وهو ما استغفر الكاتب إذ يرى عدم جهده أكبر من قدرة الجماعة على اختباره للمراجعة"[٣٧]. بيد أن المثير للانتباه هو أن المؤلف ظهر فجأة، على أعضاء جماعة الجهاد المصرية، في عشر كل أعضائها بمعالم مسالمين وكاديين، وهي نفس القواعد التي طالما عاب على الطوائف المنتمية عن الشرائع. إذ قال: إن حكم عملهم جميعا هو نفس حكم رؤسائهم. ولما كان يرى تكفير القائمين على هذه النظم فقد سحب حكمه على أعيان الطائفة. ولا تبدو لهجة العاتبة التي حملها المؤلف على جماعة الجهاد منفصلة عن سجل علاقة المؤلف بالجماعة وقت أن كان أحد أركانها. فمعجزون الغضب الذي بدا في بيان المؤلف للتنبيه على العدوان على كتابه هو أكبر من مجرد قيام جماعة باختصار كتاب وكتابة عنوان مختلف له، وبما لتبين كما لو كان الكلمة الخاتمة للمؤلف في علاقته بمنظمة الجهاد أو تنظيمات إسلامية أخرى [٣٨].

(أ) الموقف من المشاركة السياسية

يعتبر المؤلف أن الديمقراطية هي حاكمية الجماهير، وأن السيادة العليا والسلطة المطلقة فيها للإنسان الذي يقوم بالتشريع من دون الله فهي إله معبود، وتسمية معاصرة، وإني أقول للمسلمين بصراحة إن الديمقراطية المغموسة العلمانية تعارض ما تعتنقونه من دين وعقيدة وإذا استسلمتم لها فكأنكم تركتم كتاب الله وراءكم ظهريا[٣٩]. ويرى المؤلف أن المشاركين في العملية السياسية كلهم كفار، المرشحين، وجمهور الناخبين، والقضاة، والمدربين والمؤيدين .. إلخ. وإذا كان الشعب صاحب السيادة في الديمقراطية يمارس سيادته بواسطة نوابه في البرلمان، فإن كلا الفريقين واقع في الكفر،

Abu Nour www.alkottob.com

نواب البرلمان ومن ينتخبونهم من الشعب لهذه المخالفة. ولا يفرق المؤلف بين النائب المؤمن بالنظام الديمقراطي والنائب الإسلامي الذي يحاول الاستفادة من آليات الديمقراطية. فكل من دخل في العملية الانتخابية كافر "ومن كان من هؤلاء النواب راضيا بهذا، الوظيفة الشركية للبرلمانات أو متمركزا فيه فهذا كفره ظاهر لا شك فيه، أما من يدعي من النواب أنه غير راض عن ذلك وأنه ما دخل إلا للدعوة والإصلاح فهو كافر أيضا وقوله هذا مما هو إلا حيلة يخدع بها العوام والجهال ونقدم بدورا بها عن نفسه" (٤٠). وينتهي إلى القول: "ومن أظهر لنا الكفر أظهرنا له "بتكفير" (٤١). أما الذين ينتخبونهم من أفراد الشعب فيكفرون أيضا، لأنه بموجب الديمقراطية التي هم التاخبون في الحقيقة يوكلون النواب في ممارسة السيادة التشريعية (٤٢).

ويخلص إلى القول: "الخلاصة يا أخي المسلم أن أغلب البرلمان أصحاب الحق في التشريع للناس هم في الحقيقة أرباب معبودون من دون الله، والذين ينتخبونهم من الناس إنما ينصبونهم أربابا من دون الله وكلا الفريقين يكفر بهذا .. فلا يجوز دخول هذه المجالس ولا المشاركة في انتخاب أعضائها" (٤٣). وأشار المؤلف إلى ممارسة الجماعة الإسلامية في باكستان للانتخابات النيابية في حياة المودودي، كما أشار إلى خطأ فتوى ابن باز، وسعد الحوالي في جواز المشاركة في الانتخابات النيابية. وفرق (بكل أسف تابع الشيخ ابن باز في إجازته المشاركة في البرلمانات الشركية بعض أهل العلم بدعوى أنها ضرورة وقد هو التقليد بحرم المؤمن .. ومن تابع ابن باز في هذه المسألة الدكتور سفر الحوالي (٤٣).

(ب) العذر بالجهل

يذهب المؤلف إلى أن العذر بالجهل هو من قضايا "أصول الفقه وليس قضايا الاعتقاد" (٤٤). ويرى أن الجهل مانع من تعقوبه الكافر الأصلي لكنه ليس مانعا من الحكم بالكفر عليه. والمسلم الذي يرتكب الكفر جهلا لا يحكم عليه بالكفر ولا يسمى كافرا حتى يعلم وتقوم عليه الحجة" (٤٥). وإقامة الحجة تكون بلغة المخاطب وأن تكون مفصلة مبينة بحيث تكون بلاغا بينا "يسمعه ويتمكن من فهم معناه الذي تقام الحجة عليه" (٤٦). ويعتبر أن صاحب قيام الحجة هو المتمكن من العلم بالحجة "وفي الواقع فإن هذا الضابط الذي وضعه المؤلف يعد تتمة للقواعد السابقة التي وضعها، التي تتعلق مع عامة آراء أهل العلم، فالمؤلف يرى أن المخاطب بالحجة إذا لم يتمكن من الوصول إليها ولم يسمح فإن عذره يتقطع ويسقط عنه مانع الجهل، فالمتمكن من العلم هو إمكان الوصول إليه وليس وصوله حقيقة فليس معنى أن المكلف بإقامة الحجة عليه البلاغ المبين أن يبلغه، بمعنى هذه الصفة لآحاد المكلفين على التعيين حتى تقوم عليهم الحجة وينقطع عذرهم. فهنالك فرق بين تواجب على القائم بالحجة و تواجب على المخاطب بها وهو المكلف، فالمكلف المخاطب بالحجة ينقطع عذره وتعتبر الحجة قائمة عليه بمجرد تمكنه من طلبها لا بحقيقة بلوغها إليه (٤٧). واعلم أن هناك تفاوتا بين العلماء على أن مسائل قيام الحجة على المكلف هو تمكنه من طلب العلم لا حقيقة بلوغ العلم إليه .. لا يختلفون في ذلك (٤٨).

ويعتبر غير متمكن من طلب العلم، ومن نشأ ببادية بعيدة، أو حديث العهد بالإسلام أو من أسلم في دار الحرب، أو الذي يجهل المسائل الخفية التي يخفى علمها على كثير من المسلمين لغلبة الظن بشيوع الجهل بحث العلم بها، أما في دار الإسلام فإنه لا عذر فيها بالجهل لغلبة الظن بسعة مسائل العلم فيها. وفي قضايا المعلوم من الدين بالضرورة فإنه لا عذر فيها لغلبة الظن بالعلم بها (٤٩). وبالانتقال لتطبيق هذه القواعد على المنتمين للإسلام في معظم بلاد المسلمين المحكومة بقوانين الكفار "القوانين الوضعية" في هذا الزمان، فإن المكلف يمكنه التعلم بهذه البلاد بالسؤال أو الرحلة من مدينة لأخرى أو من بلد لآخر أو بالسؤال عبر الهاتف أو البريد.. والحاصل أن العذر متيسر بهذه البلاد يمكن

Abu Nour www.alkottob.com

طلبه والوقوف على الحق منه، فلا يعذر أحد بالجهل في هذه البلاد إلا في مسائل الدين الخمسة التي لا يعلمها إلا الخاصة[٥٠] من أهل العلم، وعده عذر المسلمين في البلاد الإسلامية بالجهل سوف يقود إلى اعتبار كل من جهل مسألة من المسائل التي اعتبرها المؤلف كفراً .. كافراً.. ومن ثم فالمؤلف - في التطبيق - لا يعذر بالجهل، بينما على المستوى النظري يعذر به ويصبح العذر بالجهل .. ليس عذراً.

(ج) الكفر والإيمان

يذهب المؤلف إلى أن الكفر الذي يخرج به المسلم من الملة هو القول أو الفعل المكفر بمجرد قوله أو فعله دون شرط الاستحلال أو الجحود، ومن هنا انتقد قول الطحاوي: ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله"[٥١]. واعتبر أن الاستحلال ليس شرطاً في التكفير بل مجرد الفعل أو القول المكفر يخرج صاحبه من الملة. أما المعاصي غير المكفرة فهي التي لا يكفر صاحبها إلا بالاستحلال. وقال: "أجمعوا على أن المعاصي المكفرة يكفر صاحبها بمجرد إتيانها سواء كانت فعلاً أو تركاً ... دون نظر إلى جحد أو استحلال كإجماعهم على تكفير تارك الصلاة، وإجماع الصحابة حجة قطعيته على الآولين والآخرين من خالفها فهو مخطئ ضال"[٥٢].

كذلك لا يشترط المؤلف الجحد للحكم على المسلم بالكفر. وخطأ الطحاوي أيضاً في قوله "ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه"، فمجرد الفعل أو القول المكفر عند المؤلف يخرج به العبد من الإيمان دون اشتراط أن يكون كاذب أو جاحداً. فمجرد الفعل المكفر، لا الجحود أو الاستحلال هو علة التكفير "فكل من أتى بذنب يكفر، من ترك واجباً أو فعل محرماً فهو كافر بمجرد تركه أو فعله، ولا يجوز أن يشترط لتكفيره جحد الواجب الذي تركه أو استحلاله للمحرم الذي فعله، لأن الله تعالى سماه كافراً بتركه أو بفعله، ولم يفيد ذلك بجحد أو استحلال، فمن اشترط ذلك فقد استدرك على الله بل هو مكذّب بآيات الله الدالة على كفر فاعل هذا الذنب. ومن كذب بآيات الله فقد كفر"[٥٣]. وفي خلاصة ما يراه المؤلف في هذه من قاله: "من أتى بذنب يكفر من قول أو فعل أو ترك ثبت كفر فاعله فإنه يكفر بذلك دون تقييد كفره باشتراط الجحد أو الاستحلال"[٥٤]. ويرى المؤلف أن اشتراط الجحد أو الاستحلال هو في الذنوب غير المكفرة - أي الكبائر مثل الربا وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، والتولي يوم الزحف[٥٥]. ومن فضلة التكفير يذهب المؤلف إلى القول "البلاد المحكومة بقوانين وضعية - كما هو الحال في شتى بلدان المسلمين اليوم - لها أحكام خطيرة يجب أن يعلمها كل مسلم ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة، ومن هذه الأحكام:

حكام البلاد كفار كفراً أكبر يخرجهم من ملة الإسلام.

قضاة البلاد كفار كفراً أكبر وهو ما يعني تحريم العمل بهذه المهنة.

لا يجوز التحاكم لمحاكم هذه البلاد ولا العمل بها ومن تحاكم إلى قوانينهم راضياً بها فهو كافر أيضاً.

- أعضاء الهيئات التشريعية بهذه البلاد - كالبرلمان ومجلس الأمة ونحوه - كفار كفراً أكبر لأنهم هم الذين يجيزون العمل بهذه القوانين الكافرة.

الذين ينتخبون أعضاء هذه البرلمانات كفار كفراً أكبر لأنهم بانتخابهم هؤلاء إنما ينتخبونهم أرباباً مشرعين من دون الله، ويكفر كل من دعا إلى هذه الانتخابات أو شجع الناس على المشاركة فيها[٥٦].

"الجنود المدافعون عن هذه الأوضاع الكافرة هم كفار كفراً أكبر لأنهم يقاتلون في سبيل الطاغوت. ومن يدافع عن هذه الأنظمة الكفرية بالقتال دونها كالجنود - أو يدافع عنها بالقول كبعض الصحافيين والإعلاميين والمشايخ فهو كافر".

Abu Nour www.alkottob.com

ورتب المؤلف أحكاماً دنيوية على موضوع الكفر والإيمان مثل "بطلان ولاية الكافر، وبطلان صلاته، وبطلان صلاة الذي يصلي خلفه، وإسقاط ولايته على قريبته المسلمة في النكاح، وبصح زواجه فاسداً، وأن استمرار المعاشرة هو زنا، وأن عصمة نفسه قول وبصبح مهدر الدم... إلخ من الأحكام"(٥٧).

ووضع المؤلف نصاً جديداً تقاعدت تكفير العين وهي "في أحكام الذب التي تجري على الظاهر، يحكم بالكفر على شخص (ما) يقول مكفر أو يفعل مكفر. ثبت عليه ثبوتاً شرعياً، إذا توفرت شروط الحكم وانتفت موانعه في حقه، ويحكم عليه موهل للحكم. فإن كان مقدوراً عليه في دار الإسلام استتيب وجوباً قبل استنباء العقوبة منه من ذوي السلطان، وإن كان متمنعاً بشوكة أو بدار الحرب جاز لكل أحد قتله وأخذ ماله بغير استتابة وينظر في هذا إلى المصلحة والمفسدة"(٥٨).

ثم وضع المؤلف قاعدة عامة في التكفير تقول: "كل كفر ورد بصيغة الاسم المعرف بألف واللام في الكتاب أو السنة فهو كفر كبير كلفظ "الكفر - الكفار - الكافرون والكوافر". وكل كفر ورد في القرآن فهو كفر أكبر سواء ورد بصيغة الاسم أو الفعل أو المصدر"(٥٩). وكل كفر ورد في السنة فإن كان معرفاً بألف ولام فهو أكبر وإن كان يعبر عنه الصيغة فهو أكبر حتى يصرفه إلى الكفر الأصغر صارفاً"(٦٠). ومن بين ما ذكره المؤلف في قواعد التكفير قوله: "وإن المرء يدخل الإيمان بعدة أسباب، لكنه يخرج منه بشيء واحد، وليس شرطاً للكفر الناقد - كل ما معه من شعب الإيمان فقد يكون معه بعض هذه الشعب". وفي الواقع فإننا إزاء بدء قواعد جديدة للتكفير تكاد تدخل قطاعات واسعة من أبناء الشعوب الإسلامية في دائرة الكفر، لذا لم يكن ما ذهبت إليه في المقدمة مبالغة حين أشرت إلى أن منهج المؤلف وقواعده يسيران على المنوال نفسه الذي أسسته جماعة التكفير. وإذا وجد فارق فهو في الدرجة أو المدى أو الدائرة المكفرة وليس فرقاً نوعياً بأي حال من الأحوال(٦١).

د - أحكام الديار

يذهب المؤلف إلى أن ديار المسلمين اليوم هي ديار كفر بغلبة الأحكام والقوانين الوضعية عليها "ومن تعلم أن البلاد التي أكثر أهلها من المسلمين ولكن يحكمها حكام مرتدون بأحكام الكفار بالقوانين الوضعية هي اليوم ديار كفر وإن كان أكثر أهلها مسلمين يمارسون شعائر دينهم كإقامة الجمع والجماعات وغيرها في أمان. فهي ديار كفر لأن العلة والأحكام، فيها للكفار"(٦٢). ويضيف المؤلف: "رأيته هنا على أنني كثيراً ما أصف هذه البلاد في كتاباتي ببلاد المسلمين وذلك بالنظر إلى حال أغلب سكانها، ولا يرادف هذا المصطلح دار الإسلام بل هي ديار كفر ردة، وجهد حكامها الكافرين فرض عين على أهلها "للمسلمين"(٦٣)، ويرتب المؤلف أحكاماً على تقسيمه المذكور على أنه "دار كفر ودار إسلام مثل كفر بالجنسية بجنسية بلاد الكفر"(٦٤). واعتبار دخول المسلم إلى دار الكفر بتأشيرة الدخول "الفيزا" عقد أمان لا يجوز له أن يخالفه حتى لو كانت تأشيرة مزورة ظنها أهل دار الكفر صحيحة"(٦٥). أما إذا دخل كافر بلاد المسلمين اليوم "التي هي دار كفر وردة على حد قول المؤلف - فإن حصوله على الفيزا لا يعد أماناً له لصدور الأمان من كافر مرتد وهو السلطة الحاكمة المرتدة التي ليس لها ولاية شرعية على المسلمين وأمان الكافر للكافر غير مقره للمسلم"(٦٦). أما إذا دخل الكافر بلاد المسلمين بدعوة مسلم ولم تعارض فإن ذلك يعد أماناً شرعياً يجب على المسلمين احترامه"(٦٧).

هـ - تكفير أعيان الطائفة

ذهب المؤلف إلى أن أعوان وأنصار الطوائف المنتمية لهم نفس حكم رؤسائهم وقادتهم، ولا كان يعتبر الحكام التي تحصر والعالم العربي والإسلامي مرتدين، فإنه اعتبر أعوانهم وأنصارهم لهم نفس

Abu Nour www.alkottob.com

حكمهم، ولكن ليس ذلك على الجملة أو للسبب أو للنوع كما يقول من فعل كذا فهو كذا فحكم المؤلف ليس على السبب بتعميره، ولكنه حكم على الأعيان أي أن كل واحد بعينه مرتد كافر، بدون تبين تحقق الشروط وانتفاء موانع.. أي أنه في التطبيق العملي أو تحقيق المناط بتعبير الأصوليين - يسلك ما ذهب إليه على مستوى التجريدي النظري، أو على مستوى الحكم المجرد. فهو اعتبر أنه لتكفير معين ثبت له الإسلام لابد من تحقيق الشروط وانتفاء الموانع فإذا لم تتحقق الشروط وتنتفي الموانع فإنه لا يحكم بالتكفير على معين. وهذه هي قواعد أهل السنة - نكبه بالنسبة للطائفة - أعني وأنصار الحاكم بالدولة، ذهب بتكفيرهم على التعيين بحجة أنهم غير مقدور عليهم. أي بسبب استيلائهم السلطة التي تحول دون التمكن منهم أو السيطرة عليهم لتطبيق الأحكام الشرعية عليهم.

وهنا يضع المؤلف قاعدة جديدة، وهي الحكم على أعيان تظاهرة المرتدة بحكم رؤسائهم بالردة بالكفر بسبب عدم المقدرة عليهم. ولكن لأن أعيان هذه الطائفة يعلنون ويفصحون ويحتجون وينتقدون، وقد يكون بينهم صغار سن، فإنه قال: يحكم بالكفر على أعيانهم في الظاهر، أي في الدنيا دون القطع بذلك في أحكام الآخرة بسبب عدم التأكد من تحقق الشروط وانتفاء الموانع.. ويوصل بالمؤلف الاضطراب وعدم الضبط أن شعوب بقية المسلمين مع أمثال أعوان هذه الطوائف مما يعلنون عنهم فيمكن أن يعاملوا الواحد منهم بالإسلام وقد يعامله آخر بالكفر ... وهكذا. ومن ثم دخل في باب من الفوضى لا ضابط له ولا رابط.

وهو يستند فيما ذهب إليه من ابتداع جديد للقواعد والأحكام وتطبيقاتها إلى إجماع الصحابة القطعي الذي يكفر من يخالفه على تكفير أعيان المرتدين الذين رددوا في عهد أبي بكر رضي الله عنه الذين منعوا الزكاة، وتكفير أعيان من ذهبوا إلى القول بنبوة مسيلمة الكذاب من بني حنيفة. وهو يقول في هذا السياق: "أجمع الصحابة على كفر أنصار أئمة الردة كأنصار مسيلمة المتنبي الكذاب وأنصار طليحة الأسدي الكذاب. فقد غنموا أموالهم وسبوا نساءهم وشهدوا على قتلاهم بأنهم في النار. وهذا تكفير منهم لهم على التعيين"(٦٨). ثم يضيف: "والشاهد من هذا قول أبي بكر للمرتدين التائبين "وتكون قتلاك في النار"، وموافقة عمر وسائر الصحابة رضي الله عنهم على ذلك. وهذا إجماع منهم على تكفير أنصار أئمة الردة وجنودهم على التعيين، إذ لا خلاف في أن القتلى أشخاص معينون. كما أنه لا خلاف بين أهل السنة في أنه لا يشهد لمعين بالنار إلا المقطوع بكفره"(٦٩). "فهذا نقل صحيح وإجماع صريح من الصحابة على تكفير أنصار أئمة الردة وجنودهم على التعيين دون تبين لتوفر الشروط وانتفاء الموانع في حقهم لما كانوا مجتمعين بالشوكة"(٧٠).

واعتبر المؤلف أن إجماع الصحابة في هذه المسألة من الوضوح والقوة والصراحة بحيث لا يجوز مخالفته، أي إنه تقطعي الدلالة يكفر مخالفه، فلا يجوز لأحد أن يخرج عليه أو أن يفتي بخلافه. وانتهى إلى القول والخلاصة: "إن الحكم بكفر أنصار الطواغيت المستبعين على التعيين قد تبين بإجماع الصحابة إجماعا قطعيا ليس فيه منازع، ومثل هذا الإجماع يكفر مخالفه. فمن خالف في هذا الحكم فقد كفر واتبع غير سبيل المؤمنين وفارق جماعتهم"(٧١). وفي خلاصة أخرى قال: "فالخلاصة أن كل من قاتل في صف الكفار أو نصرهم بالقول والفعل - لأن هذه النصرة قتال حكما - فهو محكوم بكفره على التعيين وهذا حكم أنصار المرتدين"(٧٢).

ثم يقول المؤلف: "وحكمنا بكفرهم إنما هو على الظاهر ولا نقطع بكفرهم كمستغبن على الحقيقة لاحتمال شيء مانع من التكفير في حق بعضهم(٧٣). وينتهي إلى القول: "ومن هذا الباب أنصار الحكام المرتدين، كل واحد منهم كافر حتما ويمكن أن يكون بعضهم مسلمين حكما عند من يعلم منهم موانع معتبرة من التكفير(٧٤). ويختتم بقوله: "كل من نصر الحكام المرتدين وأعانهم على محاربة

Abu Nour www.alkottob.com

الاسلام والمسلمين بالقول او الفعل فهو كافر في الحكم الظاهر والردة والمستتبع في هذا الحكم سواء (٧٥).

ولو أخذنا هذه القضية أو المسألة كنموذج وحالة لاختبار منهج المؤلف لوجدنا اخطاء متعددة من ناحية طريقة الاستدلال وتحقيق المناط في مسائل خطيرة يمكن أن تعصف لا نفرق باستمرار المجتمعات الإسلامية ولكن بوجودها ذاته.. ويمكن الاشارة في هذا السياق الى:

أ - ادعاء الاجماع القطعي الذي يكفر مخالف في حكم الصحابة على أعيان المرتدين بالكفر، وادعاء الاجماع على مسألة ليس من مناهج العلماء. الثابت، فقد قال أحمد لمن ادعى الاجماع على مسألة: (لعل يدريك أنه إجماع لعله مختلف فيه). فادعاء المؤلف اجماع الصحابة القطعي الواضح والصريح الذي لا يمكن صدامعه.. أو الاختلاف معه بحيث يكون ذلك كفر ومروق من الملة ليس صحيحاً، لان الاجماع الذي يكفر مخالفه، يكون في مسائل القطعيات التي لا مختلف عليها أي نصلة سواء أكان صحابياً أو تابعاً أو حتى مسلم معاصر، مثل أن الله هو الخالق الرازق، ومثل الايمان بالرسل والملائكة والكتب، ومثل ان الصلوات المفروضة خمس، ومثل ان محمداً خاتم الأنبياء.. ومثل اعتقاد كفر من كفره الله صراحة في القرآن مثل ابليس وقارون وفرعون وهامان.. الخ. فمثل هذه القضايا هي مواضع إجماع يكفر مخالفها، اما الذي يخالف المؤلف في الحكم على اعيان المسلمين من العاملين بالدولة التي لا تحكم بما انزل الله.. فهذا لا يكون كفراً على قواعد المؤلف(٧٦).. بل هو مسلم ومهجره أولى بالحكم والجواب عن المؤلف هو الاهدى سبيلاً وأحسن تمثيلاً. وحتى لا اطالب في الحكم على تارك الصلاة بالكفر ليس موضعاً لإجماع الصحابة، فقد خالف بعضهم لأن مسألة الحكم على تارك الصلاة هي من المسائل الخلافية، والقضايا التي نتنازعها الاجتهاد والعمل لابد فيها من رد كل جانب لاصله. فالمتأخرون للمرتدين - على حد قول المؤلف - هل تأخيرهم اعتقاداً بإسلامهم على حق وأن تعسرهم واجتهاد أداهم انهم مسلمون يحكم وظائفهم، اعمالهم في الدولة بأحسابهم هو مؤيدان فيهما؟ لابد من هذا التفريق. لابد من التمييز بين كفر الاعتقاد وكفر العمل والا لساحت الامور واصبحنا بين منهاج وطراق في التفكير هي بخس طريقة الخوارج بلا مرية(٧٧).

ب - المجازفة بالاستدلال على واقع الطائفة المعاصرة - التي يصفها المؤلف بالردة - بالحكم عينها وعلى أعيانها قياساً على واقعة المرتدين من قوم مسيلمة الكذاب والصحابة الاسبق في فلان الطوائف المعاصرة بطوائف سابقة واعطائها نفس حكمها هو مجازفة تتنافى وقواعد منهج العلمي(٧٨)، فهو لا كذبه بنبوة التي اعلنها وكلهم كانوا على هذا.. والمعاصرون سنحاكمون إلى مرجعية غير مرجعية الشريعة.. لكن الأعيان ليسو.. كذلك فكيف يكفر الوصول إلى تكفير أعيان المسلمين العاملين في الدولة التي لا تحكم بما انزل الله بهذا القياس غير العلمي الذي يغاير فيه تفريع عن الأصل.

ج - المجازفة بالتلاعب العقلي بالخصوص للوصول الى استنتاجات خطيرة هي قناعات لدى المؤلف.. مثل الاستدلال بقول أبي بكر أفضلك في الجنة، وقتلاكم في النار على تكفير الأعيان.. ليس من المرتدين من قوم طليحة الأسدي وسجيلة مواضع الواقعة، وإنما لتكفير الاعيان من المسلمين بعدهم بأكثر من أربعة عشر قرناً.. فالمؤلف قال تقتلى الجنة في النار هم أعيان ولم كان أهل السنة لا يشهدون على معين بالنار إلا لمقطوع بكفره، فإن هؤلاء الاعيان يكونون كفاراً(٧٩)، ولما كانت الطائفة المعاصرة لها أعمارها من العاملين في الدولة فان حكمها نفس الحكم، وهنالها لهم نفس حكم أعيان المرتدين من قوم مسيلمة وطليحة الأسدي.. يعني دون لدينا نص في واقعة واحدة يجري توظيفه غير عملية عقلية قاما بعيدة عن المنهج السلفي.. نقوده الى تكفير قطاعات كبيرة من

Abu Nour www.alkottob.com

المسلمين. حيث يستنطر المؤلف في رغبته بلا وعيه أن الحكام المعاصرين وأعوانهم مرتدون . فالعملية عقلية ذات طابع نفسي مركب.

د - المؤلف يتحرق بهذه الروح الجريحة في الحكم على أعيان علماء الدين في العالم الإسلامي بالكفر، وهو يتصور أنه يعيد العالم إلى نصابه الصحيح. وهو ما أطلق علمه في المقدمة "اكتشاف لحي"، فهو انتقد في تأسيسه لهذه المقولة إسلاميين جهاديين مثل الجماعة الإسلامية كما انتقد الإخوان المسلمين بقوله: "فإذا علمت أن الرسالة الليمانية" وكتاب القول "قاطع فيمن امتنع عن الشرائع" يرجعان إلى جماعة واحدة "صدرتهما على أنهما من المعالم الشرعية والمفكرة للجماعة الإسلامية بمصر، وعلمت ما فيهما من مخالفات شرعية جسيمة وجنحت لذلك مخالفات الواردة بكتاب "دعاة لا قضاة" وهو مرجع لجماعة الإخوان المسلمين وأضفت كذلك مخالفات الألبانى في الاعتقاد وشذوذه، في الفقه والذي تمثل أتراك مدرسة لها اتباعها بين ظهراني أي جنة تجنبها بعض اجتماعات الإسلامية على اتباعها وعلى غيرهم من المسلمين بتشنيعه على اعتقادات منحرفة ومنهج فقهي شاذ" (٨٠). إننا نرى، موقف نفسي يرى فيه المؤلف انه وحده على الحق ومن دونه منه الجماعات باطل وسراب ... لذا لا يمكن اعتبار ما قدمه المؤلف وفق تقديرها - إجتهاداً يدفع بالحركة الإسلامية إلى الأمام(٨١).

و - مواضيع متفرقة

أنهى المؤلف كتابه الجامع بما أطلق عليه "موضوعات فقهية متفرقة"، وكأنه فعلاً يريد أن يجعل من "جامعة" أساس خلاص العالم الإسلامي وبداية نهوضه، باعتبار أن الجامع هو "مرشد" الهدى وبعض هذه القضايا ذات طابع فرعي وجزئي مثل أحكام المعازف والغناء "وتعبير الرؤيا". ورأي المؤلف في هذه المواضيع التي يخالف فيها معاصرين نفاصيلها كالآتي:

١ - السياسة الشرعية: تبدو الآراء التي قدمها المؤلف في جانب السياسة الشرعية متواضعة جداً مقارنة بالاستقصاء والتفصيل وجمع الآراء ونقدها في الجانب الاعتقادي والفقهي.. بدكتور المؤلف أن العلمانية تركت بصماتها على العالم الإسلامي في مجال السياسة باعتماد الديمقراطية بوضع القوانين البشرية، وخلال الحريات الشخصية في المجال الاجتماعي، واعتماد الربا في المجال الاقتصادي، وتم ترجمة جميع ما تحتضن عنه العلمانية إلى تصورات في القواعدت جديدة السنة بالمدارس التي هي الهية معبودة من دون الله يكفر كل من وضعها أو شارك في وضعها، ويكفر كل من تحاكم إليها (٨٢).

وهاجم المؤلف حديث بعض الإسلاميين عن دستور إسلامي للدولة الإسلامية المأمولة، ويعتبر المؤلف أن وضع هذه الدساتير بدعة وإن كانت مستمدة من الشريعة (٨٣) كما انتقد المؤلف من يتحدث من الإسلاميين عن الأحزاب الإسلامية فهو يتبع السنة لغير عونة في نفرق الأمة الواحدة (٨٤). واعتبر أن الوسائل لها نفس أحكام المقاصد. فكل ما يتصل بالوسائل "ديمقراطية فهو حرام، وهو بحصر وسائل الإصلاح والتغيير في نطاق الإسلام على الدعوة العامة في المسجد، والدعوة الفردية(٨٥)، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول الحق عند السلطان جائر(٨٦). واعتبر العلاقة بين الحاكم والرعية هي علاقة طاعة. لذا فالشورى ليست ملزمة، فمصدر الإلزام يجب أن يكون واحداً وهو الإمام أو الأمير(٨٧). وانتقد الذين أجازوا ولاية الذمي - غير المسلم- ولاية التنفيذ، كما اعتبر أن الأصل في العلاقة بين الدولة الإسلامية والعالم هي علاقة حرب(٨٨).

٢ -) الحكم بغير ما نزل: اعتبر المؤلف أن لحكم بغير ما أنزل الله كفر مخرج عن الملة، وأن الذين

Abu Nour www.alkottob.com

يتحاكمون الى كفار، فالحاصل أن من صلى وصام واعتقد حق التشريع وأحكم تغيره أو تحاكم لغير شريعته فقد عبد الله وعبد غيره، وهو بهذا مشرك كافر لنص يسلم، وهذا هو الشأن في المجتمعات الجاهلية المعاصرة، يصلي الناس ويصومون لله وهم مع ذلك يعطون حق التشريع لغير الله وهذا شرك في الألوهية، وتناشرهم تتضح ذلك (٨٩). ويرى المؤلف ان مسائل التشريع والحكم والتحاكم ليست من المسائل الفرعية بل هي صلب التوحيد، وأصل الايمان، والخلاف بين فعليه وتركها ليس مجرد خلاف بين الحلال والحرام وانما هو خلاف بين الايمن والكفر وبين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك، ويحشد المؤلف أكثر من سبعة عشر مقدمة أصولية واعتقادية (٩٠) لاثبات أن من يحكم بغير ما أنزل الله كافر. ويرى أن الحكم بالقوانين الوضعية ينطوي على ثلاثة مناقضات مكفرة، هي ترك الحكم بما أنزل الله، واختراع شرع مخالف لشرع الله، والحكم بغير ما أنزل الله(٩١). واعتبر المؤلف أن مجرد الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون اعتبار الجحد أو الاستحلال إذ قول بعض الصحابة أنه «كفر لا أكفر فعند المؤلف كل من ترك حكم الله في قضية أو نازلة وحكم فيها بغير ما أنزل الله متعمد غير مخطئ فهو كافر كفراً أكبر يخرجه من الملة. ويدخل في هذا الحكم دخولاً أولياً جميع الحكام والقضاة المحاكمين بالقوانين الوضعية. وأجهد المؤلف نفسه في الرد على العلماء الذين قرروا «من يحكم بغير ما انزل الله معتقداً أنه خير من حكم الله وبين من يحكم وهو يعتقد أنه مخالف لحكم الله وأن حكم الله خير وأولى بالاتباع، رغم أن آية «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ليست متعمد الدلالة على كفر الحاكم، بل هي ظنية الدلالة ولا ما اختلف الصحابة في تأويلها .. فأهل السنة جميعاً يفرقون بين الاعتقاد والفعل المجرد. فالحاكم المعتقد ان حكمه افضل من حكم الله غير الحاكم الذي يتبع هواه وشهوته، فالأخير فعله معصية مثل أي معصية أخرى وهو ذنب عنده كمن يشرب خمراً ويسرق، لكن الأول فعله قدح في امر اعتقادي وهو أن شريعة الله تعسر عن تهذيبه»(٩٢).

ورتب المؤلف على الحكم بالقوانين الوضعية عدة آثار هي بطلان ولاية الحكم، ووجوب خلعهم، «فجهاد هؤلاء الحكام فرض عين على كل مسلم لأنهم عاد كافر حل بين المسلمين وهذا من موانع وجوب الجهاد العيني بإجماع أهل العلم (٩٣). ومن الآثار التي رتبها المؤلف سقوط عقد ذمة وعهود غير المسلمين كفاراً أصليين لا عهد لهم ولا ذمة(٩٤)، وأنه لا يجوز التحاكم إلى المحاكم التي تحكم بالقوانين الوضعية.

٣ - أشار المؤلف إلى ما يراه من تغير في سلوك الجماعات الإسلامية، منها «التحول في الوصول للتغيير عن طريق المشاركة البرلمانية طمأ منها أسرع نمرة التغيير. والتحالف مع جهات كافرة من اليسار والاحزاب العلمانية والاجتماع على شيء منهج بحيث تحولت بعض الجماعات إلى أحزاب سياسة تعتمد الحشد والتجمع، والتحول في تأليف الكتب وترويج المناهج بدلاً عنها، وتراس المهمال واعمار الخيمان و أخذان، والسير في الدعوة بطريق مقلوب، حيث تبدأ الجماعات بالقتال قبل ترسيخ الإيمان ونشر الدعوة(٩٥)، وتعجل الصدام المسلح مع المحرومات الكافرة قبل الاستعداد الكافي للتغيير الشامل، والجهل بالفرق بين الإيمان بالواجب والقدرة عليه «التي تولد سلوك بعض جماعات الإسلامية. الى حد يكاد يذهب معه إلى القول بعدم الانتماء للجماعات الراهنة لعدم صلاحيتها(٩٦).

إننا إزاء حالة عاصمة هي أقرب ما تكون للحالة النفسية، وحين يرى العالم بعالمه فتظهر الفساد والسوء الذي يبدو محيطاً موزعاً للياس فإنه يتحول نفوة ناحية الإبعاد في عالم الكلام، وتفريعاته الفرقية وتأسيس فعلم كلام جديد وامامة تعريفات وتفريعات جديدة. ان العالم إذ تحتجم هنا ينتقل من عالم الشهادة وعالم الواقع الى عالم النصوص والكليات . . وبدلاً من حركته لتغيير الواقع غير العمل فإنه يجد أن حركة الكلام النظري وتفريعاته هو التعويض ليبدأ عالم جديد ما يكون عالماً للمؤلف

Abu Nour www.alkottob.com

أو الباحث وحده . . وعادة ما تكون بصمة أصابع عبد القادر بن عبد العزيز شديدة الخصائص للأخطاء البشرية وشديدة المثالية والتعقيد، وهو ما جعلها غير قادرة على التكيف مع واقع الحياة البشرية وحركتها . ومن ثم يتوقع لها عالم على مقاسه هو، ولذا فمن كتب الجامع في طلب العلم الشريف رغم ما فيه من جهد جبار لكنه تعبير عن الوضع النفسي لصاحبه، أنه أغرب ما يكون لعالم مثالي أغرب للمدن الفاضلة التي لا تحظى اليسر فيها أبداً . ومن ثم فهو أغرب حالة فرد أو أفراد لكنه ليس تعبيراً عن حالة جماعية وحركية اللهم إلا إذا اتخذته بعض الفرق المهمشة التي لا تتبع عادة أثراً أو تأثيراً في الواقع. ويبدو أن الحالة الجهادية قد تجاوزت الكتاب بما فيه بحث أصبحت عبئاً متزايداً أكثر إلى مواجهة ما تطلق عليه الحرب الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي والتي تقودها الولايات المتحدة وبريطانيا، ومن ثم فالفكر الجهادي سوف يتوجه أكثر لفهم قواعد الشرعية الفاعلة لعلاقة مع العالم غير المسلم، بل يكون فقه الخروج على الحكام، ولا فقه الحاكمية ولا مسائل الإيمان والكفر هي الفضاء الشاغل للفكر الجهادي بقدر انشغاله بمسائل الحرب وتكييف علاقة الحركة الجهادية بالعالم غير المسلم . والمؤكد أن تحولاً مهماً حدث بعد تأسيس الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين بحيث صار أمر قتال اليهود والصليبيين هو مركز اهتمام الحالة الجهادية[١٩٧].

ثالثاً: كتاب العمدة في إعداد العدة

١- مقدمة

مثل كتاب "العمدة في إعداد العدة"[١٩٨] أخطر الكتب إبان المواجهة العالمية المفتوحة بين النظام المصري وجماعة الجهاد في عقد التسعينيات، وكان محرد وجوده مع بعض الشباب للاطلاع عليه بمثابة كفيرة لعضويتهم بالجماعة ولنحكم عليهم من المحاكم العسكرية بأحكام قاسية قد تصل أحياناً إلى الإعدام. ربما ضالع الكتاب لا تستعر بخطورة، فهو كتاب عادي، لكن ربما سيعت حظوة له كتب خصصت من أجل توضيح القضايا الشرعية والاستفادية للمجاهدين في معسكرات التدريب بأفغانستان. والكتاب يمثل مرحلة مختلفة في حياة كاتبه. فهو كتبه إبان مرحلة صعود الجهاد الأفغاني في نهاية الثمانينيات وأوائل التسعينات حيث تصورت أفغانستان قاعدة للجميع أمر إسلامي كان يعتقد مجاهدون إسلاميون من شتى بقاع الأرض وهو الذين عرفوا بـ "الأفغان العرب"، وكانت معسكرات التدريب تمثل عالم المجاهدين الحقيقي الذي ينطلقون منه إلى المواجهة مع أنظمتهم. وفي هذه الفترة عرفت معسكرات التدريب معسكرات لاتجاهات إسلامية من العالم الإسلامي كله من المغرب حتى الصين. فكانت هناك معسكرات تدريب لجماعة الجهاد المصرية، ومعسكرات للجماعة الإسلامية المصرية وغيرهما"... ومن المفترض به أن المؤلف كتب كتابه وهو لا يزال ينتمي لتنظيم الجهاد المصري قبل أن ينفصل عنه في عام ١٩٩٣ .. وكون المؤلف قد أشار أكثر من مرة في كتابه "الجامع لتوليه العمدة" وهو ما يعني أنه كتبه قبله . وناقش المؤلف في كتاب العمدة كثيراً من القضايا التي ناقشها فيما بعد في الجامع لكن المساحة الأكبر في الجامع كانت لمسائل الاستفادة بينما كانت المساحة الأكبر في العمدة لقضايا الجهاد.

ويلاحظ على لغة المؤلف في "العمدة" بساطتها، كما يلاحظ بساطة أسلوبه وعدم تأنق منهجه وقصده في الحديث عن العمل الإسلامي اجتماعي على غير عادته في كتابه "الجامع". وبينما اتخذ كتاب الجامع للسجون والمحاكم بعلمية على مصادره في الهوامش، فإن العمدة في معظم الحالات

Abu Nour www.alkottob.com

واضحة. وركز المؤلف في كتابه "العمدة" على الاختصار والتوجز والعمق الحضاري وتنوع الدلالات كله قواعد، كما ركز على مقاومة والخروج على الحكام المرتدين، فلم يكن امر الجهاد منحصرا فقط بمقاومة الروس المحتلين لافغانستان وأشباههم. وإنما تعلق أيضا بمقاومة الحكومات المرتدة في العالم العربي والإسلامي. وهو ما غذى دورات "العنف" في العلاقة بين الحكومات العربية والحركات الإسلامية الجهادية في التسعينيات. ويمثل كتاب "العمدة" الكتاب الأهم في ذلك الشأن، رغم أنه أقل من نصف حجم كتاب الجامع.

٢ ـ القضايا الأساسية في الكتاب

(أ) يشير المؤلف إلى أن كتابه هو استجابة لطلب بعض المجاهدين كتابة رسالة عن بعض مسائل السياسة الشرعية المتعلقة بعلاقة الأخوة ببعضهم البعض في معسكرات التدريب وفي ساحات الجهاد(١٩٩١). واحتوى الكتاب كما يقول المؤلف في مقدمة كتابه على عدة قضايا أساسية هي: "والنظر إلى المواضيع التي تحدث فيها فقد جاءت هذه الرسالة متمثلة على مسائل متعلقة بالسياسة الشرعية وهي صلب "توسلة" وتبحث في علاقة المسلم ـ أميرا كان او مأمورا ـ باخوانه في العمل الإسلامي، ومسائل متعلقة بالجهاد وليس بالعرض منها استعجاب احكام الجهاد للفقيه لكن اردت التنبيه على موقع الجهاد من هذا الدين وهو ما سميته "معالم" سياسة في الجهاد. ومسائل متعلقة بضوابط فهم هذا الدين الحنيف سميتها "أصول الاعتصام" بالكتاب والسنة "ثم صبح أهل السنة والجماعة"، ومسائل متعلقة بالآداب الإسلامية خاصة ما يتعلق بعلاقة المسلم باخوانه".

في الباب الأول تحدث المؤلف عما أسماه "تذكرة في الإخلاص والاحتساب" انتهى فيه إلى ان المسلم القاعد للجهاد في سبيل الله، عليه أن يحرص اشد الحرص على ألا يفسد ثواب جهاده بأي شيء من الأعمال الظاهرة أو القليلة سرا، وهو في ميدان الجهاد أو شاقل من خبره حتى يلقى الله تعالى، وأوضح أن كل نفع دنيوي يحصل للمجاهد في سبيل الله ضمنا لا قصدا سيقص من أجره عند الله. فالأجر "تفي لا يحرم غيره ـ يقول المؤلف ـ أن الغراة إذا سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم أو يسلم ولم يغنم، وأن الغنيمة هي في مقابله جزء من أجر غزوهم فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا "للتي أجرهم المترتب على الغزو، وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجر".

(ب) وفي "باب الثاني وهو حكم التدريب العسكري وأهميته، فإن المؤلف يذهب إلى وجوب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل وقت سفرطه(١٠٠) للعجز، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهو يرى الإعداد نوعين: إيماني بالعلم الشرعي والتذكية، وإعداد مادي بالقوة والتدريب عليها وبالنفقة في سبيل الله. وهو يرى أن القوة المطلوب الإعداد لها هي القوة العسكرية وليس التربية والتزكية(١٠١)، وهو يرى أن معسكرات التدريب وساحات الجهاد هي أفضل الأماكن لتربية الرجال واكتشاف معادنهم ومواهبهم.

يرى المؤلف أن التدريب العسكري واجب على كل مسلم مكلف من غير ذوي الأعذار وذلك لأن الجهاد يكاد يكون فرض عين على جميع المسلمين الآن. فمعظم بلدان المسلمين يحكمها وينسلط عليها الكفار إما مستعمر أجنبي كما هو وإما حكومة محلية كافرة(١٠٢). ويرى المؤلف ان التدريب العسكري واجب على كل مسلم بلغ الخامسة عشرة، وهو واجب على المرأة كحماية نفسها(١٠٣) ويرى أن أصحاب الأعذار الشرعية يبذلون ثواب المجاهدين إذا انتصر المسلمون بخلافهم النفسة والنفقة في سبيل الله والدعاء، وتحريض المؤمنين وتحديد المحاربين. ويرى ان النفقة بالمال وان كانت أقل من بذل

Abu Nour www.alkottob.com

النفس، لكن بذل النفس لا يتم إلا ببذل المال ويوجب على المسلمين تجهيز كل من يريد قصد مسافة التدريب والجهاد بالمال والسلاح وكفالة أسر المجاهدين(١٠٤).

(ج) وفي مسألة الإمارة وشروطها والتي احتواها الباب الثالث من الكتاب يقول المؤلف إن الإمرة واجبة لكل عدد بلغ ثلاثة فصاعداً لتوحد الكلمة، وأن الذي يعين الأمير هو "ولي الأمر المسؤول" له أن يوفر عدداً "أمراء" على الترتيب، فيقول: الأمير فلان، فإن مات ففلان. وهكذا. فإن لم يوجد ولي الأمر، فللرعية أن تختار أميرها، ولا يسقط غياب الإمام فريضة الجهاد(١٠٥).

ويرى المؤلف إن إمارة معسكر التدريب هي نوع من إمرة الجهاد ولها نفس شروطها، لكن أمير المعسكر ليس له عقد المعاهدات أو توزيع الغنائم أو غيرها مما دوره له ضابع تنفيذي وليس تقويضي. وهو يرى عدم جواز الاستعانة بالمشركين في القتال نفسه، لكن يمكن الاستعانة بخبرتهم وسلاحهم(١٠٦). ويرى المؤلف الجهاد مع الأمير الفاجر إذا كان فجوره على نفسه حتى لا تفوته مصلحة التدريب العسكري وهو يرى الصلاة خلفه، أما إذا كان لا يبالي بتضييع المسلمين بلا مصلحة أو عالي العدو في الباطن، يحرن قضية الجهاد، فهذا لا يخرج معه للجهاد لأن مفسدة الخروج معه أشد من مفسدة القعود. فالخروج معه مفسدة محضة لا مصلحة فيها كما يحتدون الناس ويخيرونهم باسم الإسلام والجهاد في سبيل الله أما لحماية أنظمة حكمهم العلمانية، وإما لمقاومة عدو أجنبي لتنتهي الأمر بإقامة حكم علماني كافر(١٠٧). وينتصر المؤلف لضرورة وجود أمراء للجماعات الإسلامية، كما يرى جواز البيعة لهؤلاء الأمراء، ولا يرى العزلة بل يرى ضرورة القضاء بواجبات الدين في ظل غياب الخلافة الإسلامية(١٠٨). ويرى أن الطائفة المنصورة هم "المجاهدون و العلماء العاملون"(١٠٩).

ويرى المؤلف أن أعظم واجبات الطائفة المنصورة في هذا الزمان هو جهاد الحكام والمرتدين المبدلين لشرع الله الذين يحكمون المسلمين بالقوانين الوضعية الكفرية(١١٠). وبالنسبة لتعدد الجماعات الإسلامية فالمؤلف يذهب إلى أن الواجب على المسلم هو نصرة الجماعة المجاهدة، أما الجماعات غير المجاهدة فلا بأس بمعاونتها بحيث لا تقعده عن الجهاد، وهو يرى جواز تعدد الجماعات التي لا تعمل بالجهاد. أما الجماعات التي تعمل بالجهاد فلا يجوز تعددها في البلد الواحد، وهو يرى أن الجماعة الأقدم هي الأحق بالانضمام إليها وأن الجماعات الأحدث باطلة، أما تعدد في البلدان المختلفة فلا بأس به. وإن كان الاتحاد هو الأولى فإن حالت الظروف دون ذلك فليس أقل من التعاون بين الجماعات الجهادية في البلدان المتعددة في الهجرة وإعداد العدة(١١١). وإن عجزت جماعة عن تغيير شيء في بلدها فاحرت إلى البلد الذي يظن إمكان التغير فيه، وإذا غلبت جماعة على بلد ونصبت إمام للمسلمين وجب على الكل الهجرة إليه ونصرته وطاعته(١١٢).

(د) وفي الباب الرابع ناقش المؤلف واجبات الأمير، وسنها مسئوليته العامة عن أتباعه مثل إقامة الصلاة بهم ومنعهم من المعاصي وتفقد مهماتهم وأسلحتهم وسكن إقامتهم وسننهم وغيرها، وهي مهام إدارية في أغلبها تفرضها مسئولية الأمير وحاجة المجاهدين في معسكر. لكن الشورى كواجب للأمير اخذت من المؤلف مساحة كبيرة في الكتاب وهي من القضايا المهمة. فهو يرى مشاورة الأمير أهل العلم والصلاح فيما أغفل من الأمور، ومواضع الشورى هي الأمور المباحة التي لا نص فيها، واختيار أهل الشورى هو حق للأمير ولا يشترط ضمن استشيرهم الثبات بمعنى أن يكونوا هيئة أو أناس لا يتعدادهم. ويذهب المؤلف إلى أن الشورى ليست واجبة على الإمام بل هي مستحبة وأفضى ما قال فيها أنها سنة مؤكدة(١١٣)، وهو لا يرى مشاورة النساء(١١٤). كما لا يرى إلزامية الشورى للإمام فهي لاستطلاع الآراء، وله أن يأخذ بها أو يدعها(١١٥) فمن قال بعد ذلك: "أن الشورى ملزمة فاعلم أنه مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف، ومن قال برجوبها، فهذا أمر اختلف فيه علماء السلف"(١١٦).

Abu Nour www.alkottob.com

وفي سياق حديث المؤلف عن الشورى خرج على شكل مجلس تشوري في الدولة الإسلامية فأكد بأنه يتكون من مجلسين هما مجلس الخبراء ومجلس العرفاء، الأخير يعبر عن الناس حيث يمكنهم التصويت على أعضائه للاختيار، أما الأول فيختار أعضاءه بالإمام لخبرتهم، بالنسبة لمجلس العرفاء فان الناس يشتركون في اختيارهم هو العدول ونيس كل الناس، لد فالاستفتاءات لا مكان لها في الدولة الإسلامية، ويرجح عملية التصويت الأكثرية أو الأغلبية فمن يختارهم أغلب المصوتين من العدول فهو المرشحون للفوز بمقعد مجلس العرفاء (١١٧).

أما تحت عنوان "قسم معسكر التدريب" يناقش المؤلف ما يسمه "عهود الضاعات بين المسلمين". ويقول: "العهود بين المسلمين على فعل الضاعات جائزة ويدخل فيها قسم معسكر التدريب. وعهود وبيعات الجماعات العاملة للإسلام والجهاد إن رأى القائم على العمل ألا يدخل معه أحد في هذا العمل إلا بعد أن يأخذ عليه العهود والمواثيق بالالتزام بأمور معينة ما لم تكن معصية فيجوز له أن يفعل هذا" (١١٨). ويكون العهد والميثاق الذي يأخذه الأمير على من يلتحق بمعسكره توكيدا على ما أمر به الشرع ابتداء من الجهاد والطاعة وحفظ الأسرار، وأداء الأمانات، والنصح للمسلمين، والإحسان إليهم (١١٩). كما يكون العهد التزاما منه بما أوجبه على نفسه مما توجبه الشرع ابتداء. وعليه "فالعهد يمكن أن يشتمل بين الأمير والأعضاء على أمور واجبة بالشرع ابتداء كالجهاد وطاعة الأمير وحفظ الأسرار وأداء الأمانات والنصح للمسلمين وغير لم تجب بالشرع ابتداء، يلتزمها الأعضاء بالعهد، مثل اشتراط عمل معين كعدد معين كمدة بمعسكر الا في عدد معلومة أو تحديد مواعيد للنوم واليقظة والطعام والتدريبات ونحوها". وشروط العهد هذه هي اللائحة الداخلية للمعسكر ونظامه، فالقاعدة أن "المسلمين عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا". ومن اشتراط شرط ليس في كتاب الله فهو باطل. "وأما ما سكت عنه ولم ينص عليه فهو مباح" (١٢٠)، ولكن هل تسمى هذه العهود بيعة؟ أجاز المؤلف - لكنه استدرك بقوله "والظاهر ان المنع أولى دفعا للالتباس" (١٢١) أي إيهام أنها بيعة عامة كبيعة إمام المسلمين "وإنني أرى ألا تسمى عهود الجماعات الآن بالبيعة وأن تقتصر على تسميتها بالعهد حتى لا تلتبس ببيعة الخليفة وحتى يظل هذا الجيل من المسلمين مدركا أنه ليست في عنقه بيعة لإمام المسلمين فسعوا في هذا الشأن" (١٢٢).

ثم أشار المؤلف إلى واجبات أخرى للأمير مثل "أمير المجموعات" اختيار أصلحهم فالمسلمون اليوم يبعدون عن ممارسة القيادة والعمل الجماعي على أسس شرعية صحيحة وذلك لذهاب دولة الإسلام والقعود عن أداء فريضة الجهاد. فلتكن مبادئ التدريب والجهاد متاحة اليوم ساحة لممارسة القيادة والعمل الجماعي عملياً والممارسة تكسب الخبرة وتبين نواحي القصور (١٢٣)، ويجوز "تولية المفضول مع وجود الأفضل لجلب منفعة أو لدفع مفسدة، والا يولي الأمير من يحرص على الإمرة، وعلى الأمير محاسبة عماله، وعمله الرفق عن معه والأناة في الأمور كلها. ومن واجباته المحافظة على وحدة الجماعة وأن يفهم كفاءات أتباعه.

إن المؤلف في سياق ما ذكره يتناول ما يمكن أن نطلق عليه "أولويات إدارية" من منظور الإسلام. لكنه في بنائه لهذه الأولويات لم يفسح المجال لنفسه في أن يقتحم الجوانب المسكوت عنها. إنما ظل محصوراً في نسج النصوص وبعض وقائع السيرة، وهو ما جعل اجتهاده مقصوراً على الاستنباط من النصوص دون إعمال وسائل أخرى مثل القياس أو العرف أو المصالح المرسلة وغيرها من الأدوات. وكما سبق التوضيح فمن فسيحا يطرحه المؤلف شيق. خارج نسيان او المألوف سوى أن اجتهاداته يطرحها لضبط العلاقة بين الأمير والأعضاء في معسكرات للتدريب الجهادي في أفغانستان.

أو) ويمضي المؤلف ليتحدث عن واجبات الأمير في الإعداد الإيماني للجهاد، ويشير بشكل خاص

Abu Nour www.alkottob.com

الى العلاقات بين حماة العقيدة الجهادية القتالية(١٢٤). والبعد عن العنف والتزام خصوصة العيش. وجوهرة المؤلف ممولا ثمانية لأهل السنة والجماعة يراها عاصمة للمنهج الجهادي من الانحراف والزلل. ويشبهه جميعا ما أطلق عليه المؤلف "وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة". والأصول الثمانية هي أولا: أن الشريعة هي دين الله الحق الذي ارتضاه لخلقه التي يوم القيامة. وثانيا: أن الشريعة مكتملة وشاملة ما بقي بحاجة الناس في حياتهم ومعادهم ومن ثم فاستيراد الأنظمة الكفرية من الخرج كالديمقراطية هو قدح في هذا الأصل. كما أن خلط الإسلام بغيره مثل الاشتراكية الإسلامية أو ديمقراطية الإسلام هو نوع من العبث(١٢٥). وثالثا: تحريم التقديم بين يدي الله ورسوله. ومن ثم فإنه لا يجوز أن يستبد العقل على الشرع وهذا ليس تحجرا للعقل ولكن وضعه في موضعه الصحيح(١٢٦). ورابعا: الاعتقاد التام الكامل للشريعة. وهذا يقتضي عدم تأويل النصوص تأويلا فاسدا أو الأخذ ببعضها دون البعض الآخر. وخامسا: وجوب التحاكم إلى الله ورسوله عند التنازع والاختلاف. وهذا يعني أن الشريعة حاكمة لا محكومة وأن الاستفتاء حول تطبيقها باسم الديمقراطية معناه رهن تطبيق الشريعة بإرادة المحكومين(١٢٧). وسادسا: رد وإبطال ما خالف الشريعة وسمه رد البدع والفتاوى المخالفة للكتاب والسنة بالأقوال المرجوحة في المذاهب الفقهية ورد أحكام القضاء في البلدان التي تحكم بالقوانين الوضعية(١٢٨). وسابعا: سد ذرائع الاحداث في الدين وهذا يعني التحذير من البدع وترتيب الجهال. والحض على ترتيب العنف، والنهي عن التشدد والغلو في الدين والنهي عن المراء، و الجدال والاختلاف. وثامنا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يشترط الولاة فيهمن يأمر وينهى. "قال العلماء، ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات بل ذلك جائز لآحاد المسلمين"(١٢٩). ويرى المؤلف أن الاجتهاد ماض لا ينقطع ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجته.. وينتهي المؤلف ليقول: "ان اتباع منهج هذه السنة والجماعة وهو الاعتصام بالكتاب والسنة هو وحده الذي يحفظ هذا الدين على أصوله المستنيرة التي كانت عليه جماعة الحق الأولى وتعرف بالفرقة الناجية"(١٣٠).

ز: معالم أساسية في الجهاد(١٣١): يشرح المؤلف هذه المعالم، فيقول: إن الله خلق الخلق وأمرهم بعبادته أمرا شرعيا على ألسنة رسله فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ثم سلط الله الفريقين على بعض. والجهاد هو الوسيلة الشرعية لتحقيق التوحيد ودفع تسلط الكافرين، ودفع الكافرين المسلمين ضررا على المؤمنين يكون بدعوتهم للاسلام والتبصرة منهم أحيانا، وأحيانا بعد الدعوة، ثم اعتزالهم وهجرتهم ثم جهادهم. ويشير المؤلف إلى أن شريعة الجهاد قررت في شريعة موسى، وأن الجهاد نوعان: طلب ودفع، والطلب هو طلب العدو وغزوه في داره، أما الدفع فهو قتال العدو الهادي بقتال المسلمين. ومن أنكر كون جهاد الطلب من الإسلام كالذين يقولون إن الإسلام لا يقاتل إلا لمدافع ورد العدوان فهو مكذب بآيات الله (١٣٢)، وينتهي المجاهد إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان. وإذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم، وإذا استنفر الامام قوما لزمهم النفير. والتدريب العسكري - حسب المؤلف - واجب على كل مسلم، ولا يكفي أن يتدرب المرء مرة في حياته ثم يدع، بل الواجب أن يواظب على التدريب ليظل محتفظا بكفاءته القتالية. وقتال الدفع هو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين فيتعين واجب إجماعا فالعهد العدو الذي يقصد العدو، ولذلك لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط بل يدفع بحسب الإمكان(١٣٣). والأمة المسلمة أمة مجاهدة ينبغي أن تصانع سياستها الخارجية والداخلية لتحقيق هذه الواجبات فالسياسة التعليمية والصناعة والزراعة والتجارة والاسكان كل هذا ينبغي أن يخطط ويسخر لخدمة الجهاد(١٣٤). ولا يمنع المسلمين من الجهاد إلا العجز وبحب الاعداد جهد، فما دامت بالمسلمين قوة يكافوا أقوى من عدوهم فلا سلم ولا هدنة ولا صلح بل القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فالاصل في العلاقة بين المسلمين والكافرين هو القتال وأن الاستثناء هو السلم في صورة هدنة أو صلح ولا ملجأ لهذا الاستثناء إلا لضرورة من

Abu Nour www.alkottob.com

حجر ونحوه. ولا تجوز الهدنة مطلقاً من غير تقدير مدة لأنه يقتضي ألى ترك الجهاد بالكلية» (١٣٥) والمسلمون أمة واحدة والمسلم أخو المسلم وان تباعدت الديار. وتكن حق النصرة، فالنصرة حق المسلم على أخيه رين تباعدت ديارهما، فيجب على كل مسلم نصرة إخوانه المجاهدين وان تباعدت الديار بحسب استطاعته ولا يخذله أعداء عدوه ولا يسلمه له. وروابط الوطنية والقومية روابط ضائعة لرابطة الانسانية. والمقصد مما سبق يقول المؤلف: "ان يعمم المسلم ان الموالاة والنصرة للمسلمين كل هذا بشعين بالرابطة الإنسانية فقط ولا اعتبار لأي رابطة أخرى من روابط الجاهلية (١٣٦).

ويجب حسب المؤلف البدء بقتال العدو الأقرب، وقتال المرتدين الممتنعين عقده على قتال الكفار الأصليين، و"يستثنى اذا كفر وكان ممتنعاً وجب قتاله وكان قتاله فرض عين وبعده عين عشره، وجهاد الحكام المرتدين فرض عين على كل مسلم ويجب إنهاءه هذه القضية بين عموم المسلمين حتى تنتهي قضيه المعاصمة لا للخاصة. وهو - أي جهادهم - مقدم على قتال غيرهم من الكفار الأصليين (١٣٧). لأن العداوة بين المؤمن والكافر ممتنعة بوصف أكثر، الذي هو صفة الحكم وليست ممتنعة بالأحرى من غير أهل البلاد أو الوطني وهو من البلد نفسه (١٣٨)، فالذي يقول بالتفريق بين الكافر الأجنبي والوطني في الأحكام هو كمن يفرق بين الخمر المستورد والمحلي، ولا يشترط لقتالهم غير الدار. أي يكون لمن يقاتلونهم دار مستقلة. "والنصر واجب أن جاهدهم إذا امكنته الفرصة اما الواجب فيهم قتالهم في حماستهم (١٣٩). كما لا يشترط لغير الظرائف الكافرة عن غيرهم. فالأمة متفقون على أن الكفار لو تترسوا بمسلمين وخيف على المسلمين إذ لم يقاتلوا فانه يجوز أن يرسلهم ويقصد الكفار، ولو لم نخف على المسلمين جاز رمي أولئك المسلمين (١٤٠). ويقتضي المؤلف قائلاً: "تطهير الخلاص من كفر الحكام، هو الخروج عليهم بالسلاح وهذا واجب إجماعاً عند القدرة، وليس طريق الخلاص بهجرة السريعة (١٤١). ولا يشترط المؤلف أن تكون الجماعة القائمة على الحكم المرتدين على المستوى السياسي المرئي، فإذا اكتملت لطائفة القوة المادية ولم تكن على المستوى النووي المرئي فالواجب شرعاً الجهاد معها (١٤٢).. ويجوز قتل "الكافر المحارب، ولا أصل في الأعمال العسكرية السرية والحرب خدعة. "والاستشهاد" هو جزء من سياسة الردع لكن الاستشهاد ليس مقصوداً لذاته. بل اظهار الدين هو المقصود. فالتقصد الأصلي من الجهاد هو اظهار الدين لا مجرد الاستشهاد والعدو هو كبح جماح الظهور عند بعض المسلمين ورده للمنزلة الوسطى وهي الشجاعة بين التهور والجبن (١٤٣). ثم انهى المؤلف كتابه بحكم طلب العلم للمجاهد فاعتبر أن علمه واجب عينياً عام يشترك فيه بقية المسلمين، ثم ما يتصل بأحكام الجهاد الخاصة. لكن طلب العلم ليس شرطاً للجهاد. فقد يجاهد الجاهل. كما أن المجاهد ليس شرطاً له أن يستكمل التربية الإيمانية قبل أن يجاهد، إذ أن الجهاد نفسه جزء من عملية التربية الإيمانية "فالمجاهد لا يؤجل من أجل الإعداد الإيماني (١٤٤)، وأضاف المؤلف ما أسماه "واجبات أعضاء المعسكر في حق الله وحق الأمير وحق بعضهم" (١٤٥).

٣ - ملاحظات على الكتاب

كتاب "العمدة في إعداد العدة" يعد في تقديرنا تأسيساً لقواعد إدارة الجهاد. ورغم أن المؤلف اعتمد النص بشكل أساسي لاستنباط قواعده الإدارية. لكنه اعتمد بشكل ملموس أدوات السياسة الشرعية وفقه قواعد الأصول وهو ما أتاح له المضي خطوات نحو اقتحام "الملكوتي" منه أو ما يمكن أن نطلق عليه "الفراغ التشريعي". فنجده مثلاً في بعض المواطن يبتحدث عن "فجدوى العسكرية". و"إجراءات السلامة والأمن" (١٤٦). كما تحدث عن تقييم كفاءات الأشياء ووضع بنود معيارية فيها مثل الخبرات والمهارات الخاصة واللغات التي يجيدها .. الخ (١٤٧). وكان يمكن للمؤلف أن يضيف الكثير

Abu Nour www.alkottob.com

لو وظف مناهج الأصول والسياسة الشرعية لمحاولة معرفة أبعاد أكثر وأعمق في الجانب الإداري.

لكن سيطرة المنهج السلفي الذي يجعل من النص بمعناه الواسع مجال عمله الأساسي مثل قيداً ثقيلاً على إضافات كان يمكن للمؤلف أن يرسيها. وبدا هذا الأمر واضحاً بقوة في معالجته لمسألة الشورى ودفاعه المستميت عن عدم وجوبها وعدم إلزاميتها مقتفياً آراء من سبقه من العلماء، ناسياً أن أغلب من تعرضوا للمسألة من الفقهاء القدامى ناقشوا مسألة "الشورى" في حق النبي (صلعم) المشرع الأعظم، الذي يعد مصدر التشريع. أما مسألة "الشورى" فهي قضية إدارية وسياسية، وهي قضية مفتوحة ومن القضايا الاجتهادية التي تتأثر بطبيعة العصر، وآراء العلماء السابقين في المسألة لا تعدو أن تكون ذات طبيعة إرشادية، لكن الشورى واجبة، وقضية إلزاميتها مسألة متصلة بالواقع وفهمه.

كما أن طبيعة النظام السياسي للدولة الإسلامية هي مسألة اجتهادية مفتوحة ويمكن أن يكون "العرف" عنوناً يمثل الأمة عن طريق الانتخاب، كما يمكن أن يكون "أهل الخبرة" عنواناً لمجلس الخبراء. ومع توسع المشاركة الشعبية فإن من حق كل مواطن في الدولة الإسلامية أن يختار ممثله في المجالس النيابية وليس شرطاً أن يكون من يقوم بذلك هو العدول فقط. وبينما لم المؤلف كيف يذهب المؤلف إلى أن يجعل من واجب الجهاد الذي يمثل المرء فيه مهجته وحياته فرضاً على الأمة كلها حتى غير العدول من الظلمة والجهلة(١٤٨)؛ بينما يجعل حق اختيار ممثليهم في المجالس النيابية قاصراً على العدول فقط.

إن اعتبار النص بالمعنى الواسع هو اطلاقة الفقه على العالم والواقع يحجب عن المجتهد انطلاقته الحقيقية لبناء علاقة صحية جدلية بين النص والواقع، لذا فالواقع يمثل أحد المصادر المهمة التي يمكن للفقيه أو المجتهد أن ينطلق منها نحو النص عبر آلية الاجتهاد فتفتح آفاق حقيقية في الاجتهاد السياسي و الإداري.

رابعاً: خلاصة عامة

يبقى القول: إن كتاب "العمدة" هو أهم ما كتبه المؤلف، وقسمته الحقيقية في كونه أسس لرؤية جهادية قد تجتذب قطاعات أو جماعات جهادية للإفادة منه. والكتاب في هذا يختلف عن كتاب الجامع، فكتاب العمدة مثل انسياقاً مع التيار الفقهي الإسلامي السني كما مثل تواصلاً معه. أما الجامع فمثل انفصالاً عن هذا التيار، وسعى لبناء أسس جديدة في العقيدة والفقه تقع ضمن ما أطلقنا عليه "الكشاف الحق"، وهي حالة تعبر عن نفسية تحمل رؤية خلاصية للعالم عادة ما يكون إنتاجها العقدي و الفقهي لا نصيب له من الحياة أو الانتشار.

فكتاب "العمدة في إعداد العدة"، تم تأليفه قبل تأليف كتاب "الجامع في طلب العلم الشريف"، ومن الواضح أن مصنف "العمدة" كتب قبل أن ينفصل عبد القادر بن العزيز عن تنظيم الجهاد بسبب ما اعتبره استعجالاً للمواجهة مع النظام، وتقصيراً قادحاً من جانب التنظيم عقب اكتشاف تنظيم "طلائع الفتح" من جانب السلطة المصرية عام ١٩٩٣. ويتضح في كتاب العمدة غلبة الروح العملية التفقهية التي تناقش العلاقة الجهادية داخل معسكر التدريب في أفغانستان، بينما تتراجع الروح التي تؤسس لأحكام الكفر والإيمان، ونقد السلف والمعاصرين في مسألة التكفير وقواعدها. لكن يبقى الكتاب والمرجع الأساسي الذي يعبر عن أفكار المؤلف هو "الجامع في طلب العلم الشريف" بينما يمثل "العمدة" في إعداد العدة" هامشاً عليه، أو جزءاً منه. فالأصل لفهم تفكير المؤلف هو كتاب الجامع، بينما يبقى العمدة فرعاً لهذا الأصل(١٤٩).

Abu Nour www.alkottob.com

وفي التحليل النهائي، فالكتابان تعبير عن فكر مؤلف ترك التنظيم الذي كتبهما له (١٥٠)، وهما تعبير عن الحالة الإسلامية الجهادية في الفترة الأفغانية حيث اعتبرت أفغانستان أرض المجاهدين التي سينطلقون منها لتغيير النظم الحاكمة في بلدانهم، كما أنهما تعبير عن الحالة الإسلامية في أوائل التسعينيات والتي شهدت مواجهة دامية ومفتوحة بين النيار الجهادي والنظم السياسة، خاصة في مصر والجزائر.

لكنه مع البدايات الفكر الجهادي نحو التحدي الخارجي ممثلاً في الولايات المتحدة، والدولة العبرية، ومع مراجعات الجماعة الإسلامية وبعض الفصائل الجهادية. يبدو أن الأفكار التي جاءت في كتابي الجوهرة والعمدة مرتبطة بالماضي أكثر من اعتبارها أساساً للمستقبل في تشكيل أفكار واجتهادات التيارات الجهادية في المرحلة القادمة. لكن يبقى المؤلفان تعبيراً عن مرحلة مزدهرة كان الفكر الجهادي يحاول فيها استكمال أدواته الفكرية والحركية، فهما أوسع وأكبر ما كتب تعبيراً عن الفكر الجهادي طوال تاريخه كله. ويقدر ما يعبر الكتابان عن مرحلة يجري الآن تجاوزها، إلا أنهما يمثلان إلهاماً لبعض الفصائل الجهادية ذات الطابع الانتحاري الذي يعتمد دورة العنف والتكفير في مواجهة مجتمعاته ونظمه السياسية (١٥١).

الهوامش

(١) راجع أوراق القضية رقم ٩٨/٨ جنايات عسكرية وأصلها ٩٨/٨٠٦ حصر أمن دولة عليا.

(٢) ومن بين الذين حكم عليهم بالإعدام محمد الظواهري، وعصر فهمي حسانين وعادل عبد المقدوس وثروت صلاح شحاته.

(٣) أوراق القضية.

(٤) تشير المعلومات إلى أن المسافرين للجهاد من أعضاء التنظيم كان يستقبلهم أحمد سلامة مبروك المعروف باسم أبو الفرج المصري ثم يبايعون أيمن الظواهري على أنه الأمير رغم أن الأمير الفعلي كان عبد القادر عبد العزيز.

(٥) عبد العزيز الشرقاوي، **أسباب الحكم في قضية تنظيم الجهاد**، ص٤٧٢.

(٦) راجع عبد العزيز الشرقاوي، **قضية تنظيم الجهاد**، ص٨٩٧.

(٧) راجع عن تفصيلات تحرك تنظيم الجهاد بالخارج وتركه لإمارة تنظيم: شهادة هاني السباعي لكميل الطويل على أربع حلقات في جريدة **الحياة**، ٩/١ - ٢/٩/٥ . ٢

(٨) انظر المرجع السابق.

(٩) انظر المرجع السابق.

(١٠) نفس المرجع السابق.

(١١) الفهرست أو الكشكول يعني كتاباً يحتوي بين دفتيه مواضيع متعددة قد تكون متباينة، والجامع أشبه بذلك، إذ أراد مؤلفه أن يقدم لقارئه في كل المواضيع والقضايا العقيدية والأحولية والفقهية ما يعد أساساً لتبحره وخلاصه.

(١٢) العديد من جهابذة العلماء أطلقوا على كتبهم اسم "الجامع"، فصحيح البخاري اسمه "الجامع الصحيح"، وتفسير القرطبي اسمه "الجامع لأحكام القرآن".

(١٣) أسماها أبو حنيفة "الفقه الأكبر" لأهميتها، و"أصول الدين" هي مسائل العقيدة سنتاولها فيما يأتي من فروع لها.

Abu Nour www.alkottob.com

(١٤) لا شك أن المؤلف بذل جهدا كبيرا في جمع مادة مؤلفه الكبير، لكن نزعته لتأسيس أصول جديدة وهي فتاوه جعل من هذا الجهد موضعا للحيرة والاضطراب والتساؤل.

(١٥) شعور بعض قادة الحركات الإسلامية أنهم حصلوا فورا نتيجة للعالم يجعلهم "حيارى" يخترعون لهما نظريات جديدة مقطوعة عن سياق الفقه السني العام.

(١٦) وهذه الفرقة النجدية الجديدة تصبح فرقة مفارقة من حيث لا تدري وليست ناجية، تأمل ملياً تنسمة الناجون من النار"، وهم جماعة "فكرت بفكر السوفت ونفذت عمليات اغتيال ضد عدد من السياسيين والصحفيين أبرزهم حسن أبو باشا، ومحاولة اغتيال مكرم محمد أحمد.

(١٧) الإمام مالك يمثل نموذجا فذا في ذلك، ويمكن الاستشهاد في هذا السياق بكتابه الأشهر "الموطأ". ومن يريد التعمق في تأسيس قواعد وأصول الفقه الإسلامي راجع محمد بلتاجي، **مناهج التشريع الإسلامي في القرن الثاني الهجري**، رسالة دكتوراه منشورة (مجلدان) المملكة العربية السعودية، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر ١٣٩٧هـ-١٩٧٧.

(١٨) وأشرنا سابقا لمنهج الدعوة الإسلامية التي تقوم على الحوار والمفاضلة أساس انطلاقة الإسلام الأولى من مكة، ولم يكن أمر الانشغال بإصدار الأحكام على الناس موضوعاً بشر أصحابه. على الأمة وعقيدتها في المرحلة الأولى. وكان الطابع السلطوي مستراديا بقوة في العلاقة بين الدولة والأمة، ممتلة امتحان الناس على عقائدهم لم تعرف إلا في ظل سيطرة المعتزلة على الدولة العباسية في عهد الأمين والمأمون والمعتصم أي فيما عرف باسم مسألة خلق القرآن.

(١٩) العديد ممن اشتغلوا بالفلسفة الإسلامية مثل الفخر الرازي انتهى به الحال إلى الشك والأسف حيث شعروا أن الفلسفة وعلم الكلام لم يزدهم إلا حيرة واضطراباً، فتمنوا أن لو بقوا على عقائد الناس البسطاء. راجع مثلاً شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز.

(٢٠) مثل تحدي الفرق الإسلامية التي تأثرت بالفلسفة اليونانية خطراً كبيراً على النسق المعرفي نفسي، وكان تحصن علماء السنة في تناول القضاء المعتزلة جزءاً من الرد على الفرق الخارجة من إجماع أهل السنة. ولم تدع الفرق الكلامية شيئاً إلا وخاضت فيه، من هنا كان رد علماء أهل السنة عليهم. لذا يجب أن نفهم أن ردود أهل السنة هي في سياق الدفاع وليست لتأسيس أصول مرتجلة في ذاتها.

(٢١) مثلاً قضية الخروج على الحاكم - في تقديرنا - ليست من قضايا الاعتقاد، فهي قضية عملية بالأساس، لكن أهل السنة حسموها في كتب العقيدة عندهم رد على الخوارج الذين يقولون بالخروج مطلقاً باغي والباطل على الإمام، وهم خرجوا على علي بن أبي طالب (رض). فأراد أهل السنة أن يوضحوا رداً عليهم أن الخروج لا يكون على أئمة الحق العادلين، وإنما يكون بشروطه على الأئمة المبدلين الظالمين. وكذا مسألة الموقف من الصحابة وغيرها من المسائل التي هي أدخل في باب الفقه وليست من قضايا العقيدة ذات الطابع العلمي الخبري. ولابد من الاعتراف أن رحال أهل السنة لتمغيير مثل لاستحلال والجحود، والتبرء العملي والعقدي. والشرك كسلاً أم اعتقاداً، هي متغيرات هي عدة الأهمية حتى لا يقتح باب تكفير المسلمين على مصراعيه كما فعل المؤلف.

(٢٢) وربما يكون هذا صحيحاً بالنسبة للشباب المجاهد في أفغانستان حيث تواجد معسكرات تدريب، وحيث ذهب الباقيون للجهاد، لكنه في الحياة العادية حيث يعيش الناس في مجتمعهم فإنه لا يمكن انعزال المرء أو الإنسان في وظيفة واحدة هي الصراع العسكري العنصري مع أنظمة بلدانه السياسة. فلا يفترض أن هؤلاء الشباب يتحملون مسئوليات اجتماعية هي واجبات دينية أيضاً مثل القضاء على أمور معاشهم وأولادهم.. الخ. انها قسمة عادلة في تقديرنا أن تختار جبهة الناس في بلاد المسلمين في استعدادهم للمواجهة مع نظمهم السياسية لتغييرها.

(٢٣) راجع في تفصيل هذه القاعدة: ابن القيم في كتابه "أعلام الموقعين" وراجع أيضاً شرح مجلة

Abu Nour www.alkottob.com

الأحكام العدلية.

(٢٤) راجع كمال السعيد حبيب. **الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة** القاهرة مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢. وراجع في مفهوم القرار السياسي، حامد ربيع. نظرية القرار السياسي. مذكرات غير منشورة لطلبة بكالوريوس **العلوم السياسية**.

(٢٥) راجع: ابن القيم، **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، حيث يعرف السياسة بأنها الحالة التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح منهم إلى الفساد وحتى لو لم ينص على ذلك نصاً، او ينزل بدلك وحي. فالسياسة ليست هي النص ولكن السياسة في عدم مخالفة النص . . وفرق كبير بين الأمرين، فكل نص له فضاء، الواسع الذي يمنح للمجتهد قدرة البيان والاجتهاد دون أن يخالفه.

(٢٦) من أكبر الأخطاء، التي يقع فيها الإسلاميون هي توسيع علم العقيدة ليمتد إلى مناطق ليست منه، فنسبه الشيء إلى العقيدة تلزمه بأحكام العقيدة قطعية وهو ليس منها. ومن المؤكد أن دخول الانتخابات هو من المسائل الاجتهادية وإلا ما كان اختلف فيها الفقهاء . . والأمة لا تجتمع على ضلالة واختلافها لا يخرج عن الصواب. وراجع كمال السعيد حبيب، الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة، مراجعة لبعض المقولات السائدة لديها، الحركة الإسلامية نحو وعي جديد، ص٨٩ وما بعدها.

(٢٧) بدأ فكري تأسيس قواعده الجديدة باعادة بناء الأسس الشرعية حول الإسلام والإيمان والكفر والظلم والفسق والجهل . . ووفق هذا التأسيس الجديد اعتبر ما سبقه اليه من العلماء ضلالاً وجهلاً . . واعتمد في هذا الأمر ضوابط الخوارج خاصة لأزارقة. راجع في دراسته رائدة: كمال السعيد حبيب، جماعة التكفير والهجرة، دراسة في النشأة والتطور، **الوسطية**، السنة الأولى، العدد الأول، ص من ٦٤ . ٧٢.

(٢٨) لم يعتبر المؤلف ولو في مسألة واحدة من كتبه أنها خلافية، فهي إما مجمع عليها، أن الحق في جانبه باعتبار ظنه هو الراجح . . انه يعتبر الخلاف في الفرعيات إما خطأ أو سواء . حتى السبعينات اعتبرت كثير من التجمعات الإسلامية أن النظم ضاغرة، يوجعوا في التجريح كما فعل المؤلف، وهو ما دفع قطاعات واسعة لترك وظائفها وأعمالها وترك التعليم وترك دخول الجيش، تكرر روس هذه التجمعات اكتشفت خطأ هذا الفكر . وهي تعض أصابع الندم على تأسيسها لفقه المقارنة والتشقق.

(٢٩) من العلماء، الذين انتقدهم المؤلف في مسألة "الحكم والمحاكم" ابن تيمية، وابن القيم، والقرطبي، ومحمد قطب، وابن باز وابن عثيمين ومحمد نعيم ياسين وغيرهم كثيرون. هؤلاء العلماء فرقوا بين الحكم والتحاكم في جانبه العملي والاعتقادي . . فمن يحكم أو يتحاكم لهوى مع احترام الشرع يختلف عن يحكم أو يتحاكم لاعتقاد أن شرع غير الله أفضل من شرع الله. وبذلك تكون هذه المسألة محل اجماع عند أهل السنة لكن المؤلف يخالفهم جميعاً.

(٣٠) لم يؤسس علماء السنة لقواعد مثل التفريق بين الكفر العملي والاعتقادي أو بين الكفر الأصغر والأكبر أو بين كفر النوع وكفر العين وإحاطتهم بتكفير العين بشروط وموانع . . لم يؤسسوا ذلك عبثاً بل هو تعبير عن تبصرة فقهية وعلمية وسطية لا تذهب مذهب الخوارج المكفرين بالمعاصي ولا مذهب المرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان معصية . وهذه بمثابة علمية راسخة أصبحت قواعد. والقاعدة هي حصيلة استقراء للنصوص ومن ثم لها حجية أكبر وأقوى من حجية النص الجزئي.

(٣١) وفق القواعد التي صاغها المؤلف فمن الذين لا يلتزمونها أما كفاراً أو آثمون. وهذا فكر خلو وجي أشبه بفكر الخوارج قديماً وفكر جماعة التكفير، والشوقفي والنبيه، والذين يضعون القواعد ويضعون الأسس الدقيقة لمواصفات الفرقة الناجية، هم فرقة في الواقع، وبينما ترى جماعة أو فقه أو

Abu Nour www.alkottob.com

مفاهيم جديدة تنطبقها على المجتمعات الإسلامية بقصد تهديد مستصحابها بالإسلام بعكس خروجها على فهم عند العلم والمنطق وقواعد العقل والسنة ذاتها. . وهو يدخل ضمن حالة نفسيه وعصبية أكثر من تعبيرها عن حالة علمية معرفية

(٣٢) أي يمكنك أن تقول: "فلان كافر" وصفاً لا حكماً، أي أنه فعل كفراً، فعله ولا هو نفسه. ومن ثم لا يترتب على هذا الوصف نتائج تهدد وجوده وحياته مثل إسقاط ولايته، وزواجه ... الخ.

(٣٣) عندما الفكر الجهادي بشكل أساسي على فتاوى ابن تيمية في المرتدين من نعي الزكاة، والخوارج، والطوائف الممتنعة عن الشرائع. وهذه الطوائف تقاتل لتعود، لكن أفرادها المعينين لا يكفرون. راجع مثلاً: محمد عبد السلام، الفريضة الغائبة. وراجع: مجموع الفتاوى لابن تيمية ج٢٨.

(٣٤) المجازفة بتوسيع الحكم بالتفكير على المسلمين هو منهج خوارجي قطعاً، لكن التحرز من "تكفير" وعدم التوسع في الحكم به على عدة المسلمين هو منهج أهل السنة "الذين لا يكفرون مسلماً بذنب ما لم يستحله".

(٣٥) عبرنا عن القضايا "بإشكالية" لأن المؤلف يؤسس لها مقارباً في ذلك التيار العام لعلمنا، ومن ثم فهي قضايا موضع نظر ونرده وتفكير ولم تستقر بعد.

(٣٦) منها شنه حملة على الجماعة الإسلامية ورموزها ستأتي "خلعت دؤاد قاسم" في كتابه "الرسالة اليمانية"، وعاصم عبد الماجد وعصماء دربالة في كتابهما "الفول القاطع"، و"إخوان المسلمون مثل الهضيبي، والسلفيون كالألباني وابن باز وغيرهم.

(٣٧) وصف المؤلف البحيه الشرعية لجماعة الجهاد التي أقرت كتابه بأنها غير مؤهلة لذلك. راجع المقدمة.

(٣٨) راجع: مقدمة الطبعة الثانية لكتاب الجامع في طلب العلم الشريف".

(٣٩) الجامع، ص١٦١ .

(٤٠) الجامع، ص١٦٢ .

(٤١) وهو ما يعني أن التكفير أداة في يد المؤلف لمواجهة الواقع الذي يشعر بالعجز في مواجهته.

(٤٢) الجامع، ص١٦٣ .

(٤٣) التيار الجهادي لا يرى المشاركة في العملية السياسية المتعلقة بالانتخابات والبرلمانات، لكنه لا يكفر من اختار هذا المسلك من إسلاميين أو غيرهم، وبعض التيارات السلفية تعتبر المسألة شرك لكنها لا تكفر على التعيين "نواب ولناخبين" .. راجع: موقف عبد القادر بن عبد العزيز، ص١٦٦ من الجامع

(٤٤) راجع: الجامع، ص٤٢٤ .

(٤٥) الجامع ص٤٢٤ .

(٤٦) الجامع، ص٤٥٤ .

(٤٧) الجامع، ص٤٥٩ .

(٤٨) الجامع، ص٤٦٢ .. وادعاء أنهم لا يختلفون في ذلك في غير محله، إذ أن البعض يتحدث أن حقيقة التمكن هو سلم العلم وذيوعه وليس إمكان توصول إليه.

(٤٩) الجامع، ص٤٦٢ .

(٥٠) الجامع، ص٤٧١ .

(٥١) الجامع، ص٥٠٦ وما قبلها.

(٥٢) الجامع، ص٥٠٦ .

(٥٣) الجامع، ص٥١٩ .. مسالة التسلسل في كلام المؤلف نحو استدرت على الله، ثم تكذيبه لله، ثم

Abu Nour www.alkottob.com

كتوه في النهاية هو من صنع المؤلف.

(٥٤) الجامع، ص٥٢٤ .

(٥٥) الجامع، ص٥٢٧ .

(٥٦) راجع الجامع، ص٥٤٠ .

(٥٧) نفسه، ص٥٤١ .

(٥٨) الجامع، ص٥٤٩ .

(٥٩) الجامع، ص٥٥٠ .

(٦٠) نفسه، ص٥٥١ .

(٦١) راجع المقدمة.

(٦٢) الجامع، ص٦٤٤ .

(٦٣) الجامع، ص٦٤٥ .

(٦٤) الجامع، ص٦٥٢ .

(٦٥) نفسه، ص٦٥٣ .

(٦٦) نفسه، ص٦٥٣ .

(٦٧) نفسه، ص٦٥٣ .

(٦٨) الجامع، ص٦٧٣ .

(٦٩) نفسه، ص٦٧٤ .

(٧٠) نفسه، ص٦٧٤ .

(٧١) نفسه، ص٦٧٦ .

(٧٢) الجامع، ص ٦٨٦ - ومعنى قوله لأن هذه النصرة مثال حكمًا - أي من يناصر بالفرل أو تفعل حكمه حكم المقاتل.

(٧٣) نفسه، ص٦٩٤ .

(٧٤) نفسه، ص٦٩٥ .

(٧٥) نفسه، ص٧٠٤ .

(٧٦) راجع في الرد المفصل على المؤلف في هذه المسألة : الشيخ حسن بلقاية حيث رد على المؤلف في ٦ حلقات كاملة بمجلة "الفجر" التي تصدرها الجماعة الإسلامية المقاتلة بليبيا، وهو ما يعني أن تيارات الجهاد بليبيا تخالف المؤلف فيما ما ذهب إليه، وردوده قوية وسديدة وأقرب لطريقة السلف ومناهج العلماء الإثبات.

(٧٧) مسألة التفريق بين الكفر العملي والاعتقادي هي مسألة غاية في الأهمية ورغم ذلك ينتجه المؤلف لإهمالها بل والمطالبة بعدم ذكرها.

(٧٨) تنقيح المناط وتحقيقه، ومعرفة العلة ومسالكها هي من أدق وأصعب المسائل التي يواجهها الأصولي، لذا فهي مجازفة أن يلحق المؤلف طائفة بحكم أخرى بينهما أكثر من ألف سنة.

(٧٩) لاحظ هنا منهج التسلسل العقلي الذي يريد المؤلف أن يصل منه إلى نتائج الحكم بالتكفير على طوائف وليس على أفراد.

(٨٠) الجامع، ص٧٣٩ .

(٨١) إنما نتحدث عن الإحياء أو الاجتهاد الذي يحي الناس ويأخذ بأيديهم إلى الإسلام، وليس الذي يميت الإسلام في قلوبهم ويصرفهم عنه.

(٨٢) الجامع، ص٨٧٥ .

Abu Nour www.alkottob.com

(٨٣) نفسه، ص٧٨٨ .
(٨٤) نفسه، ص ٨٨٤ .
(٨٥) نفسه، ص ٨٨٣ .
(٨٦) نفسه، ص٨٨٤ .
(٨٧) نفسه، ص ٨٨٦ .
(٨٨) نفسه، ص ٨٨٨ .
(٨٩) نفسه، ص ٩٠٤ .
(٩٠) الجمع، ص ٩٢٠ .
(٩١) نفسه، ص ٩٤٥ .
(٩٢) راجع: ما أورده المؤلف نفسه من نصوص لمخالفة من كبار "العلماء" في هذه المسألة ورده عليهم مثل ابن القيم، الرازي، ابن تيمية، ابن أبي العز، بن باز، اللجنة الدائمة للفتوى بالسعودية، بن عثيمين، الشنقيطي، محمد قطب، الشيخ عمر عبد الرحمن، أحمد شاكر وغيرهم، كلهم مقرن بين الاعتقاد والهوى في مسألة الحكم. ويرى المؤلف أنهم على خطأ. ثم عاد المؤلف يحشد لبعضهم استدلالات على كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وكلها فيمن يعتقد وليس من يتبع هو»، وإلا كانوا متناقضين. راجع ص ٤٩٤ وما بعدها وما قبلها
(٩٣) الجمع، ص ١٠١٤ .
(٩٤) نفسه ص ١٠١٥ .
(٩٥) نفسه ص ١٠١٩ .
(٩٦) الجامع، ص ١٠٢٢ .
(٩٧) هذه تقديراتنا ومتابعات للتطور الفكري للحالة الجهادية، ونظن أن العلاقة مع العالم خاصة العوالم الخارجية غير المسلمة و موقف منها هي التي ستمثل مركز الاهتمام الفكري للتيارات الجهادية.
(٩٨) أي ما يعتمد عليه، وألف كثير من "العلماء" السابقين كتباً في الفقه يعنون "العمدة" مثل كتاب "العمدة في الفقه الحنبلي" وغيره.
(٩٩) راجع: ص٥ "فعرضت على أن أصوغ هذه الرسالة بما يؤدي غرض بحث مسألة إعداد العدة وغرض كتابة رسالة إلى معسكرات التدريب الإسلامي، خاصة وأن التدريب جزء أساسي من الإعداد".
(١٠٠) أي سقوط فرض الجهاد لعدم القدرة.
(١٠١) في قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)، الأنفال. "قوة هنا هي القوة المادية من مختلف الأسلحة والتدريب عليها. راجع: العمدة، ص ٢٤.
(١٠٢) العمدة، ص ٣٦ .
(١٠٣) يجب الجهاد على المرأة في حالة معينة لها "تتدرب على السلاح المستخدم في حماية النفس ويدربها زوجها أو محارمها أو امرأة "جنبية". "عمدة" ص٣٠ .
(١٠٤) نفس المرجع، ص ٤٦ .
(١٠٥) وعمدة المؤلف في هذه المسائل هو حديث "غزوة مؤتة" حيث أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح الله عليه، وقد أصطفح المسلمون على إمارة خالد لهم. وكان الإمام - النبي - في المدينة ولم يكن حاضراً.
(١٠٦) "عمدة، ص ٦٧ .
(١٠٧) العمدة، ص ٧٧ .
(١٠٨) العمدة، ص ٨٦ وما بعدها.

Abu Nour www.alkottob.com

(٩٠) العمدة ص ٨٩ وما بعدها
(١١٠) العمدة، ص ٩٢
(١١١) العمدة، ص ٩٨ .
(١١٢) العمدة، ص ٩٩ .
(١١٣) العمدة ص ١١٥ .
(١١٤) نفسه، ص ١١٦ .
(١١٥) نفسه، ص ١١٩ .
(١١٦) نفسه، ص ١٢١ .
(١١٧) نفسه، ص ١٣٢ وما تليها
(١١٨) نفسه، ص ١٣٣ .
(١١٩) العمدة، ص ١٤٤ .
(١٢٠) العمدة، ص ١٤٦، والفترة الأولى . . . يتحدث المؤلف عن "المسكوت عنه"، أي المباح الذي لم ينص عليه وهو جوهر السياسة الشرعية، فمجال عمل السياسة الشرعية هو الاجتهاد في المسكوت عنه وليس المنصوص عليه، لأنه لا اجتهاد مع النص القطعي.
(١٢١) نفسه، ص ١٥١ .
(١٢٢) نفسه، ص ١٦٧ .
(١٢٣) نفسه، ص ١٨٣ .
(١٢٤) يرى المؤلف أن العقيدة الجهادية القتالية هي التي تقابل "العصبية" في التحليل الخلدوني. لكنها تفسد "العصبية" بالترف فكذلك العقيدة الجهادية القتالية، ص ٢٢٩ .
(١٢٥) ص ٢٣٩ .
(١٢٦) ص ٢٤٢ .
(١٢٧) ص ٢٥٠ .
(١٢٨) ص ٢٥٣ .
(١٢٩) ص ٢٦٠ .
(١٣٠) العمدة، ص ٢٧١ .
(١٣١) نفسه، ملحق (٢) في الكتاب، حيث جعل "الاعداد الايماني للجهاد" ملحق (١)
(١٣٢) نفسه، ص ٢٨٤ .
(١٣٣) نفسه، ص ٢٨٨ .
(١٣٤) نفسه، ص ٢٨٩ .
(١٣٥) نفسه، ص ٢٩٠ .
(١٣٦) ص ٢٩٧ .
(١٣٧) ص ٣٠٣ .
(١٣٨) ص ٣٠٤ .
(١٣٩) ص ٣٠٦ .
(١٤٠) ص ٣٠٨ .
(١٤١) ص ٣١٩ .
(١٤٢) ص ٣٢١ .
(١٤٣) ص ٣٣٥ - ٣٣٧ .

www.alkottob.com
Abu Nour www.alkottob.com

(١٤٤) العمدة، ص٣٥٨ .

(١٤٥) يحق الله عليهم الإخلاص والتسبير والدعاء، والتوكل الأمانة والصدق والإحسان، وحق الأمير عليهم السمع والطاعة والنصح للأمر وتوقيره، وحق بعضهم مثل الاستئذان، وعدم الإفراط في المزح، وأن يحب لغيره ما يحب لنفسه العمدة، ص ٣٣٩

(١٤٦) ص٣٣٩ .

(١٤٧) العمدة، ص ٢١ .

(١٤٨) لم يشترط المؤلف للجهاد العلم أو العدالة.

(١٤٩) ولا يخفى هذا من قيمة "العمدة في إعداد العدة" .. فهو في نظرنا من حيث قيمته العلمية أهم، أما بالنسبة للمؤلف فهو فرع لما انتهت إليه أفكار المؤلف في كتابه "الجامع في طلب العلم الشريف".

(١٥٠) تراث عبد القادر بن العزيز تنظمه الجهاد بشكل تام قبل عام ١٩٩٤ بقليل ربما خلال النصف الأول من عام ١٩٩٣ .

(١٥١) تمثل الحملة الأمريكية الراهنة على العالم الإسلامي والتي يصفها الإسلاميون الجهاديون بأنها حملة صليبية على العالم الإسلامي كما تمثل الحملة الصهيونية على فلسطين بالذات مصداقاً للتحول في تفسير أولويات الفكر الجهادي بعد عام ١٩٩٨ والذي شهد ميلاد "الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين". راجع مثلاً كتاب الحملة الصليبية، الذي ألفه فقيه خليجي، يبرر فيه لعمليات سبتمبر ويعتبر الولايات المتحدة دار حرب. وعن الكتاب راجع: جريدة **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٣/٥/١٣ . وعن الموضوع راجع في **الشرق الأوسط** أيضاً، أن مايكل "على بن الرحمن الفقيس الغامدي أحد المطلوبين في تفجيرات الرياض على الانترنت حيث قال: "إننا وجدنا هدفنا وجمع جهودنا ضد الصليبيين لمن نضعهما في بنيات الطريق ولكننا سندافع عن أنفسنا". وأكد أنه ضد توجيه أي عمليات تستهدف المسلمين مهما كان السبب، بتاريخ ٢٠٠٣/٥/١٤ .

Abu Nour www.alkottob.com

www.alkottob.com

Abu Nour

www.alkottob.com

المشاركون في الدليل
(وفقا للترتيب الأبجدي)

إبراهيم النجار : باحث في العلوم السياسية و الاجتماع السياسي

د. السيد عوض عثمان : خبير في الشئون العربية

ضياء رشوان : رئيس وحدة النظم السياسية بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

عبد الحليم غزالي : مراسل الأهرام في تركيا ومتخصص في شئون تركيا ووسط آسيا

د. عماد جاد : رئيس تحرير نشرية مختارات إسرائيلية وخبير بوحدة العلاقات الدولية بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

د. عمار علي حسن : مدير مركز بحوث ودراسات الشرق الأوسط، وكالة أنباء الشرق الأوسط

د. كمال حبيب : باحث متخصص في شئون الحركات الإسلامية

مجدي صبحي : رئيس تحرير مجلة أحوال مصرية وخبير بوحدة الدراسات الاقتصادية بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

د. محمد سعد أبو عامود : استاذ العلوم السياسية بكلية التجارة، جامعة حلوان

محمد صلاح : مدير مكتب جريدة الحياة بالقاهرة وخبير في شئون الحركات الإسلامية

محمد فايز فرحات : باحث بمركز الأهرام للدراسات السياسية و الاستراتيجية، متخصص في الشئون الآسيوية

د. محمد عبد السلام : رئيس تحرير نشرية ملف الأهرام الاستراتيجي وخبير بوحدة الدراسات العسكرية بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

د. مصطفى محمود منجود : استاذ الفكر السياسي بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة

هاني رسلان : خبير بوحدة الشئون العربية بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية ومتخصص في الشئون السودانية

Abu Nour www.alkottob.com

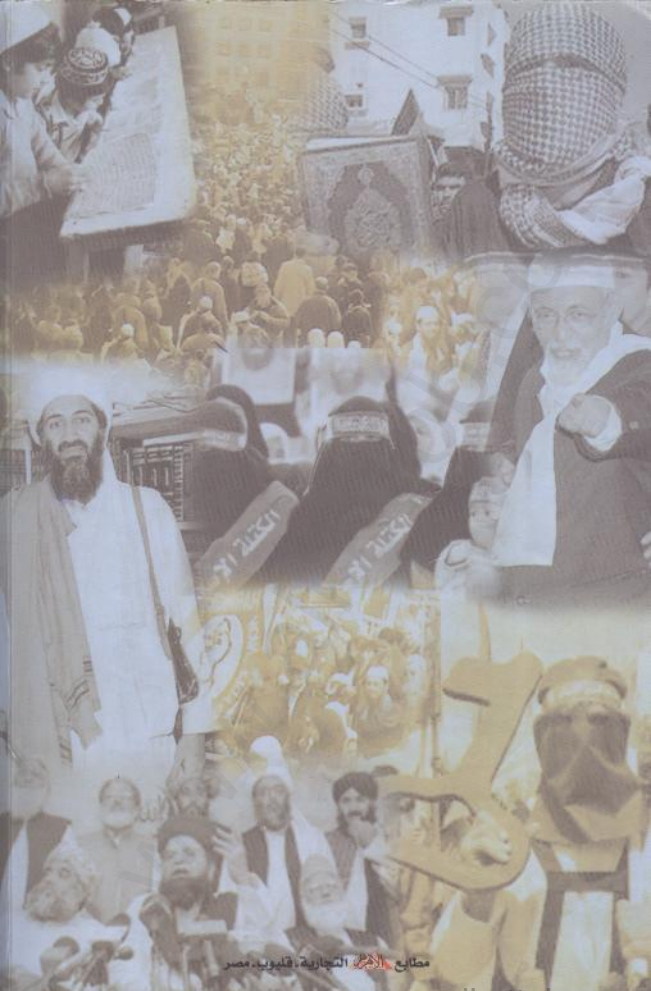

مطابع الأهرام التجارية، قليوب، مصر

Abu Noor www.alkottob.com